

الأمم على

صوت العدالة الإنسانية

علي وعصره

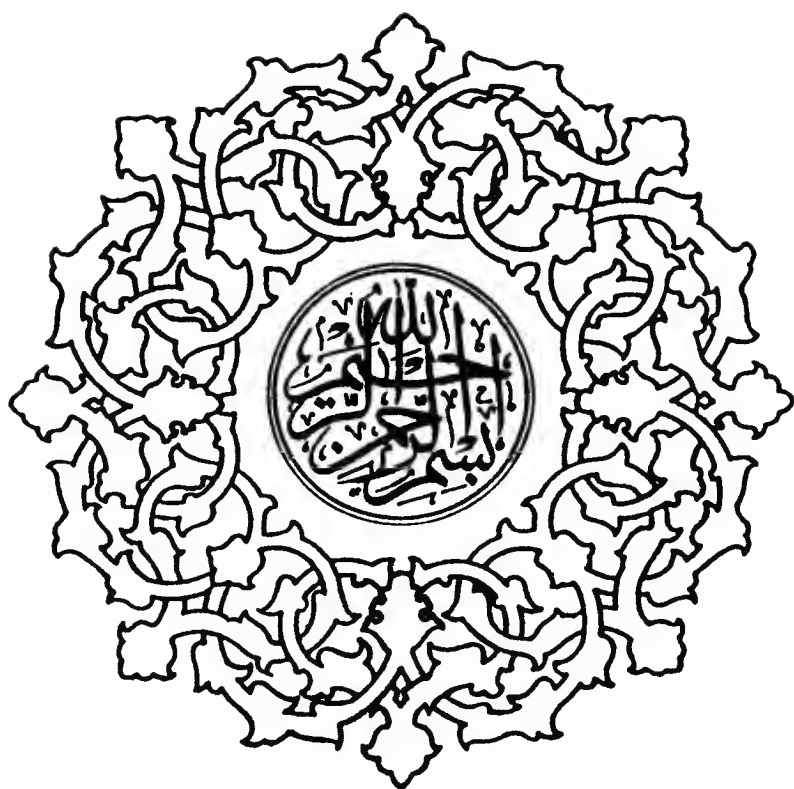
- الإمام علي وحق الإنسان - الإمام علي وسقراط
- الإمام علي والثورة الفرنسية - الإمام علي والقومية العربية

٥١

مؤرخ محمد باقر

الأستاذ

بيروت - لبنان
النجف



حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
2010

عنى نشره
الحاج مسيل الحاج حميد الدين
مطابع كاتبات دار الأمان
التجفيف للأشرف
بيروت - لبنان

أَهْلَ الْبَيْتِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُزْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُفْرًا تَطَهَّرُوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حين قدّم الكاتب والباحث المسيحي جورج جرداق كتابه الرائع (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) لقراءه، كان قد قام بتجربة علمية فريدة وجادة ذات دلالات عميقة تحمل في الوقت نفسه أبعاداً من الإثارة ونماذج من الإبداع الإنساني يقّده باحث غير مسلم عن رجل الإسلام الثاني فهو لم يتحيز الى فئة ولم يتجاوز عناصر الموضوعية لأنه لا ينتمي ثقافياً ولا مذهبياً الى خطأ أو فرقة من فرق المسلمين، فلا تحكمه خلفيات ثقافية و تعصبات مذهبية لتلمي عليه اتجاهاً معيناً في البحث والاستنتاج.

إنها تجربة فريدة ودعوة جادة لدراسة تأريخ الإسلام بكل موضوعية وتجرد من كل إطار مذهبي. فهو بذلك قد أتمّ الحجة على كل من يزعم أنّ حقائق التاريخ الإسلامي لا يمكن استكشافها من خلال كتب التاريخ التي طالما مستها يد الحكّام المتجبرين لتضييع معالم الحق وآثاره خلال قرون مضت وأحقاب قد تصرّمت.

إنّ الاسم الذي اختاره جرداق لموسوعته ذو دلالة واضحة على محتوى محاولته والنتائج الباهرة التي انتهى اليها كباحث يريد اكتشاف حقيقة الصراع بين الخط الجاهلي الذي تلبس برداء الإسلام والخط المحمّدي الذي تتابعت الأيدي الأثيمة لمسحه وتشويهه وتغييبه بفنون من الدجل والوضع والتزوير لطمس كل الحقيقة أو قسط منها.

وهكذا يتجاوز جورج جرداق في كتابه هذا تأريخ شخص الإمام علي عليه السلام

الى تأريخ أمة لمع فيها نجم الإمام وأشرق منها على الإنسانية جمعاء.
 وإن محاولات إطفاء نور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ربيب الرسول
 الأعظم صلى الله عليه وآله وسيد صحابته وأخيه وزوج ابنته وأبي سبطيه والإمام الحق من
 بعده، وتغييب دوره اللامع بسناه المشرق على الإنسانية لهي محاولات بائسة
 خاسرة، وهي أحقر مما يتصوره الطغاة المتجبرون وأصحاب المطامع الدنيوية
 الذين كانوا يلهثون وراء المال والسلطة بدافع من هيمنة المستعمرين القدامى
 الذين كادوا ويكيدون للإنسانية قبل أن يكيدوا للحق وأصحابه وقبل أن
 يكيدوا للإسلام أو المسيحية أو غيرها من شرائع التوحيد الحق.. فإن الحق
 تعالى يقول في محكم كتابه المجيد وقرآنه الخالد:
 ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾^(١).

والمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام يقدم شكره الجزيل لفضيلة الأستاذ
 الباحث حسن حميد السنيدي الذي تولّى مهمة تحقيق هذا الكتاب مع سائر
 الأخوة الأفاضل الذين آزروه في إنجازهم وهم: الشيخ لطيف فرج الله وعزيز
 العقابي وحسين رفعت الصالحي دام عزّهم جميعاً.
 وقد تمّ تهذيب الكتاب وتقديمه لطلاب الحقيقة اقتصاراً على تأريخ
 الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ليتجاوز بذلك حصار الزمن الذي أُلّف فيه الكتاب
 وليؤتي ثماره كل حين. والله من وراء القصد وهو الموفق للصواب

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

المعاونة الثقافية - قم المقدسة

مقدمة التحقيق

يُعَدُّ كتاب «الإمام علي صوت العدالة الإنسانية» لجورج جرداق من الكتب المثيرة في دائرة الاهتمام بشخصية الإمام علي عليه السلام. ومن مؤشرات ذلك أن منهج وضع الكتاب اعتمد أسلوباً تحليلياً فنياً مقارناً بعيداً عن السرد التاريخي البحت وبعيداً عن اللَّفْظِيَّة الإيجابية المتكررة التي يقع البعض تحت طائلتها في إطار دراسة الشخصيات التاريخية الخطيرة. إن الكاتب في هذه الموسوعة ينحى منحىً نقدياً موضوعياً، توفّر على استيعاب المنعطفات الحادة والمبهمة، التي تشكّل جزءاً من تاريخنا الإسلامي، بكل أحداثه وشخصه وحيثياته.

ولأن نصف القرن الأول الإسلامي يعدّ مرحلة تأسيسية للواقع الإسلامي المستقبلي... فإن دراسة هذا المقطع بالتحليل الواعي والنقد المتوازن توفّر رؤية واضحة تتحدّد من خلالها نقاط القوة والضعف، ومديات الفواصل بين النظرية والتطبيق.

إن جورج جرداق في موسوعته التاريخية الفنية النقدية، يضعنا أمام مقطع صاخب من المعاناة التي عاشتها الأمة والإمام على سبيل تأصيل الحقائق التي حاولت كيانات الذات مسخها وتدميرها وإخفاء جثي معالم أنقاظها التي قد تشير إلى الطريق.

وليس من المبالغة أن نقول: إن جرداق في عمله الإبداعي هذا لم يضع في

وجدانه مواقف مسبقة عن التاريخ ورجاله.. بل راح يتصفّح الوقائع ويفتّش في وثائق التاريخ ليضع علامة استفهام تلاحق تلك الشخصية، أو ينقش علامة تعجب وراء ذلك الحدث أو يترك الحكم الى قزائه الذين طالما أشركهم في ما يكونه من رؤى وآراء.

وثمة معادلة خفية تنتظم العلاقة بين موضوعات جورج جرداق في عمله الفني، وهي إلغاء عنصر الزمن بين الفكرة والإنسان... فقد يستدعي شخصاً تاريخياً فيجعل له حضوراً آنياً مؤثراً في بناء فكرته.. وقد يرخل شخصاً معاصراً الى أعماق التاريخ ليرى مدى إنسجامه مع حدث معين دون أن يضع للزمن تأثيره سلباً أو إيجاباً في تكويناته وتصويراته.

فهل كان جورج جرداق تجريدياً في انتخاب النموذج؟!

إنني أدعي - وبثقة - إنه لم يكن تجريدياً بالمعنى المنطقي لهذه الكلمة... إنه كان تجريدياً من حيث المؤثرات التي تتجاذب أطراف الفكرة لتخرجها عن حدها... ولم يكن كذلك من حيث الموضوعات التي تفرض وجودها على تجربته... لأن عقليته لا تخرج عن كونها جزءاً من تاريخ الأمة لغة وأدباً وصيغاً وإن كان يتقاطع مع أبطاله في دائرة العقيدة التي كلما اتسعت كلما ضاقت الفجوة بينها وبين الآخر.

إنّ (صوت العدالة الإنسانية) محاولة موفقة لإعادة قراءة الذات، بكل ما فيها من تناقضات وأنساق... وبكل ما فيها من انتصار وتراجع. إنها إعادة لقراءة أمة، استطاعت - كما يقول جرداق - أن تعبر عن عبقريتها ووجودها برجل!

ورغم أن هذه القراءة الفريدة لأحداث التاريخ على صعيدي الإنسان والأمة جاءت على سعتها مترابطة الوشائج... فإن اجتهادات جرداق في توجيه

الغامض والمبهم من أحداث التاريخ حال دون اتساع الهوة في الكثير من سلاسل الأحداث وتتابع الوقائع بل وأعاد ترتيب بعض المألوفات التي اعتاد المؤرخون على نمطيتها الموروثة.

وكم راجعت نفسي وأنا أحاول اختصار هذا السفر الرائد وتساءلت مع ذاتي: لماذا أقدم على تقطيع أوصال هذا الكائن الجميل؟! ولماذا أتجاوز هذا الفصل الى ذاك؟! وهل تدعمني في عملي مبررات موضوعية؟ أم هي رغبة فوضوية ليس إلا؟!

أقولها بصراحة: إن العمل الإبداعي أياً كان نمطه، لابد وأن يتجدد مع الزمن بكل ما يحمله من أبعاد متغيرة... فالفكرة التي كانت مثيرة بالأمس لم تعد تحفل بالانتباه اليوم.. والرأي الذي كان مدار جدل في الماضي لم يعد يجد مَنْ يتأمل فيه في الحاضر... إنها ضريبة الوقت الذي يعطي في كل ساعة نموذجاً جديداً وربما يعطي في كل لحظة نماذج جديدة!

وهذا ما دفعني إلى أن أعبر على فصول من موسوعة جورج جرداق كانت وقت ولادتها تحمل كل معاني الإثارة التي تشد إليها عقل المتلقي وقلبه ووجدانه...

كانت محاولات جرداق مذهلة وهو يحاول اكتشاف دواعي التقنين الأوربي المعاصر في كلمات الإمام علي عليه السلام القصار وحكمه الرائعة.. وكانت محاولة مذهلة وهو يبسط أوجه المقاربة بين سقراط والإمام علي عليه السلام... وكان موفقاً وهو يسبر أغوار وصايا علي عليه السلام ليخرج منها الى حقائق عانى رجال الفكر المعاصرين في اكتشافها أية معاناة. إلا أن كل هذا النسيج الجميل بين الماضي والحاضر، لم يعد ليثير اليوم ما أثاره بالأمس؛ ذلك لأن الزمن الذي تجاوز بريق الثورة الفرنسية، وجز ذبوله على فلسفة سقراط وافلاطون... راح

يحقق ذاته من جديد في الثورة الإسلامية في إيران.. ويقف مبهوراً أمام شعوب العالم المستضعفة التي لم تعد تلد فلاسفةً بقدر ما تعطي ثواراً بسطاء جسدوا أفكارهم بصدق وعفوية بعيداً عن تعقيد الاشكاليات وجدليات الفراغ.

لذا رأيتني أعمد الى الشجرة التي ورف ظللها أوائل الربيع...
فأقوم بتشذيبها أواخر الشتاء لتعطي ثمارها كل حين.

لقد اختصرت فصولاً مطولة من الكتاب.. واقتصرت على تأريخ الإمام عليه السلام ذلك لأنه تجاوز الحدود، وما زال وسيبقى رمحاً نافراً عن حصار الزمن الصديء... يتحدث... يعطي... يصرخ... ولن يهدأ!

اختصرت صفحات بعينها وإنني اعتقد جازماً أن أي قارئ لو قرأ فصول الموسوعة اليوم لتجاوز بعضها الى ما بعدها ولتابع بلهفة خطوات علي عليه السلام وهو يصنع مسار الأمة على غفلة من التاريخ الذي لم يمنحه إلا بضعة سنوات عجولة! اختصرت الكتاب ليطرق عقل القارئ الجديد... وليواكب الزمن الجديد... وأتصور لو أن جرداق نفسه أراد اختصار موسوعته بالدواعي ذاتها التي دعاني لذلك، لم يتعد ما قمت به! وهذا ما كان يدور في ذهني وأنا أحاوره في ملتقى الشاعر سعدي الشيرازي في طهران.

وأخيراً لا يسعني إلا أن استميت القارئ عذراً إن كانت هناك بعض هنات في ارتباط عناصر هذا المختصر.. ذلك لأنني لم أشأ أن أضيف فقرةً أو سطراً من لدني، إذعانا لقيمة الكاتب والكتاب واعترافاً مني بالقصور والتقصير.
والحمد لله أولاً وآخراً

حسن حميد السنيد

١ / رمضان / ١٤٢٣ هـ

كلمة المؤلف

للإنسانية تاريخٌ طويلٌ غريبٌ واحد .
أما ما يؤلّف طولَه فعمُرُ الإنسان القديم تمتدّ به يد الدهر حتّى تصله
بأول أيام الأرض، ثمّ هذا التطوّر المتناقل البطيء من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ ومن
حياةٍ إلى حياة.

وأما ما يؤلّف غرابته فأكثر من أن يُساق في مقدّمة أو يُبحث في
كتاب . ولعلّ أبرز مظاهر هذه الغرابة ما نراه من فترات زمنية عاشتها هذه
الجماعة أو تلك من البشر، أو هذا الفرد أو ذاك، في قمته من قمم الصعود
الإنساني بين منخفّضاتٍ سحيقةٍ رهيبيةٍ من الانحدار، حتّى ليرتاب الناظر إلى
هذه القمم وهي تُحاط بهاتيك المنحدرات، بأنّ للتاريخ نظاماً حسابياً قاصداً
يسير عليه ! وإلا فكيف يُفسّر ارتفاع الأغارقة في عصرٍ من عصورِ هذا
التاريخ واقعٍ بين أعصرٍ شتّى من المهاوي المتلاحقة . فإذا هم يعبرون عن
حقيقتهم خلال هذا الشموخ بعاقرة تصنع أيديهم صوَر الخير والجمال
وتكشف عن وجه الحقّ، وتضع عقولهم أصولاً وقواعد في الفن والعلم
والأخلاق وما إليها من شؤون الفكر وشؤون الكيان الإنساني جميعاً . وإذا
بمدينتهم العظمى أثينا تعلو في الأرض حتّى إذا طمحت إليها أبصار الغزاة ؛
تعالوا إليها من كلّ وادٍ ووثبوا عليها من كلّ سهل ؛ فغالتها حراّبهم ونشرت
على جدرانها ظلال الفناء، ثمّ ما انكشفت لهم حقيقتها وما تنطوي عليه من

معاني الكمال الإنساني، إلّا ركعوا بين خرائبها وقَبَعُوا كالأطفال ينظرون ويسمعون ويطيعون ثمّ يقتلون مواطني أقدام الشعراء والمصوّرين والفلاسفة، ويخلّون الأرض التي قدّسها الفكر، وقد هانت عليهم مطامعهم في الغزو وصغرَتْ حرائبهم، ولانت قسيتهم وانقلبوا من برابرة جُفأة إلى بشرٍ يحملون إلى الدنيا ما قلّ أو ماكثر من معاني الجمال التي لُقْنوها بين أطلال المدينة العظمى ! وإذا بأيدي الأغارقة تمتدّ بنور الإنسانية إلى أقاصي الأرض، على رؤوس الأيام وهام الخُقب وأعظّم بما يصنعون !

أمّا ما يؤلف وحدة هذا التاريخ، فكُن المراحل التي مرّت بها شعوب العالم متشابهةً جوهراً وإن اختلفت شكلاً بعض الأحيان، وكونُ السياط الموجعة التي ذاقتها مواكب البشر جميعاً تحملها الأيدي ذاتها يغيّر اسمها الزمانُ ويكسبها لونها المكان، وكون الغاية التي استهدفتها شعوب الأرض في سيرها الموعر الشاقّ خلال رحلة التاريخ واحدةً كذلك وإن اختلفت عليها الأسماء ! وفي تاريخ الإنسانية الواحد أمرٌ يجعل هذه الوحدة ضرورةً لازمةً قائمة بذاتها، وهو أنّ كلّ تقدم سجّله الإنسان، فرداً أو جماعة، هو نسيجٌ موحد أسهمت الإنسانية بكاملها في حياكته، وبكل عصورها، منذ أن كان الإنسان حتى يومه هذا .

وإذا كانت هذه هي قصة التاريخ: قصة التطوّر الشامل ضمن خطوط عامة كبرى ؛ فما هو دورنا إذاً نحن العرب في نسج حوادثه ؟ وما هو عملنا خلال مراحلها في خدمة الإنسانية، بل في خدمة أنفسنا ؟

لقد أسهمنا، بحكم وجودنا على سطح الأرض في صنع تاريخ الإنسانية بما فيه من طولٍ وغرابةٍ ووحدة ! ولعلّ إسهامنا في غرابته أظهر وجهه في صفحات تاريخنا الخاص . هذه الغرابة التي يمثلها، في طورٍ من أطوار

تاريخنا، شموخُ عليّ ابن أبي طالب وشموخُ أقرانٍ له، بين منحدرات هبطت بُعيدَ أيامه وتشققت بها الأرض حتى ما يبين لها قعر. شموخُ في الفكر والقلب والسلوك خليقُ بنا أن ننظر إليه كما ننظر إلى كلّ قمةٍ في تاريخ الإنسانية الواحد .

وما ضيق على الإنسان آفاقه في القديم إلا ما ارتضاه لنفسه من حدودٍ شادها الضلال وركّزتها العادة، وشمخ بها التاريخ جيلاً بعد جيل .
وما عطل على بصيرة المرء رؤيةَ الرحاب الرحبة والمسافات البعيدة والقمم الشاهقة ؛ إلا غيومٌ ثقيات يتنفس الجهلُ بين لواعجها فتتراكمُ وتزدحم وتطغى وتسود .

ولطالما ضاقت هذه الحدود في أكثر عهود التاريخ، فغطت مواهب الإنسان التي أوتيتها لاكتشاف ينابيع الخير وراء الحدود . ولطالما طغت هذه الغيوم وتجهمت فمנعت عن الإنسان أن يسبح في اللج ليشتدّ جرياً في مناكب الأرض .

أما ينابيع الخير فهذه، وأما السماء واللج ومناكب الأرض وما تحوي، فما هي في كثيرها إلا أكفّ العظماء الحقيقيين الذين مرّوا في هذه الأرض مرورَ الغمامات الخيرة فوق الصحارى البيد ! غمامات تمرّ كالأمل المشرق في عتمة اليأس . وتهطلُ في جنبات الصحارى هطول الحياة في جفاف التّيس، ثم تمضي وهي تاركة وراءها الخضرة والنضرة والرواء والسّقى لقومٍ جياعٍ عطاشى !

لقد طُويت صفحات التاريخ السود وبكت على نفسها تلك الضلالات والغباوات التي حدّت الإنسان بصراً وبصيرة، وضيقّت على العظماء فحصرت بعضهم في نطاقٍ من الناس لا يتخطاه آخرون ولا يجوزه نظر . فإذا بالدائرة

تتسع حتى تشمل الخلق جميعاً ! وإذا بالعظيم الحق لا يخص طائفة من البشر ولا قوماً دون قوم ! وإذا بسقراط للأغارقة والهنود والصينيين والعرب والناس أجمعين ! وإذا غيره من العظماء لكل العالمين . وإذا علي بن أبي طالب، عظيم طائفة العظماء في الشرق، لكل من تمشي به قدم مثله في ذلك - ومثل أقرانه من نوابغ الأرض - مثل الشمس إذ تغمر الأرض سهولها وجبالها، قممها ووديانها، برّها وبحرها، فما على الإنسان إلا أن يستنير بنورها ؛ فلا يُقيم دونه حدود وجدراناً، وأن يتدفقاً بنارها في برودة أيامه فلا يسعى في منع الدفء إلى زوايا الصقيع من حياته .

في تاريخ الشرق، كما هي الحال في تاريخ البشر جميعاً، غزاة، ومجرمون، ولصوص محترفون، وأغبياء، وتافهون ؛ شاء منطقُ العصور القديمة والمتوسطة أن يجعل منهم في حياتهم ملوكاً وقادة وأصحاب قولٍ فضل وأمر مطاع، وأن يصنع منهم بعد هلاكهم أبطالاً وعظماء، فخلع عليهم في الحالتين الألقاب الضخمة بغير حساب ! وها نحن ما نزال تصفع وجوهنا، في الكتب التي يتنافس في تليفقها بعض حملة الألقاب، صفحات باردة كأنها الزمهرير من «بطولات» أولئك المجرمين، وفصول من «عظمة» أولئك التافهين، حتى ليوهم هذا النمط من المؤلفين قراءهم بأن البطولة ليست إلا نوعاً من تصرف النخاسين، وبأن العظمة ليست إلا شيئاً من البراعة في النهب والسلب والاعتصاب والتقتيل والتدمير واصطناع أسباب الإبادة، ثم التبجح^(١) بالجريمة والزهو بالتفاهة والاعتزاز بصناعة الترويع والتجويع وكل أمرٍ فظيع !

(١) التبجح : التباهي، التفاخر، أنظر لسان العرب: ٦/٢، مادة «بجح».

لذلك جئنا بهذا الكتاب - بعد أن طلبنا العافية لأولئك المؤلفين - نلتم فيه بشخصية بطل حق لأنه إنسان حق؛ لعلنا نضيفه إلى سلسلة المؤلفات الخيرة التي تتكاثر في مكتبتنا العربية اليوم . وبذلك نستيقظ على أمورٍ أهمها :
إن تاريخنا هو أيضاً صفحات رائعة من الإشراق الإنساني العظيم تشرفنا كعرب كما تضيف شرفاً إلى تاريخ الإنسان .

ومن الأمور التي نستيقظ عليها في دراسة عليّ وعصره وما تلاه من عصور، ذلك المقدار العظيم من الإسهام في مقاومة الظالم ونصرة المظلوم ، ومن معاندة الاستعباد والاستغلال والعمل على تقويض أسبابهما بسنّ الأنظمة والدساتير في النطاق الذي تسمح به إمكانات الزمان والمكان، وبالتضحية في سبيل الكرامة الإنسانية بكلّ عزيز من الدم والحياة، فإذا بنا نعي أكثر فأكثر أنّ تاريخنا ليس كلّ ظلمة وظلمة . ففي بقايا لياليه ومضات وبروق ! وفي دجاجيره متآلقات وأهلة ! وفي غياهب جوره غرر حسان وأيام بيض وشموش ضاحكات، ثم أمطار هتنت^(١) بها السماء على صحاريه رذاذاً تارةً وطوراً غباًباً !

وإن مثل هذه الصفحات المشرقة في تاريخنا لتؤهلنا إلى أن نعيد النظر في أنفسنا من جديد، تحطيماً لكثير من القيود التي كبتتنا بها عصور الظلمات الطويلة، وتمجيذاً للبطولة الحقيقية التي هي بطولة فرد من الأفراد أو جيل من الأجيال في سبيل الإنسانية بأسرها، وتدعيماً لقومية عربية إنسانية تجعل خدمة الإنسان - في نطاقها وفي كل نطاق - غايتها البعيدة وهدفها الأقصى . ذلك أنّ الشعب الذي أمكنه أن يعتبر عن عبقريته منذ أربعة عشر قرناً برجل

(١) هتنت : هتنت السماء : هطلت وتنايع مطرها . لسان العرب: ٣٠/١٣، مادة «هتن».

كعلي بن أبي طالب، ثم بمجموعة من الناس كبعض تلاميذه وأنصاره يومذاك، هو شعب يستطيع اليوم - في عصر غزو الأفلاك - أن يمشي مع القافلة التي تسير وهي تنظر أبداً إلى الأمام، وهي إن نظرت إلى الوراء فلكي تستمد من وجودها الطويل عزيمة وقوة، لا لكي تستريح حيث حطّ بها السير أو حيث جرفها تيار التاريخ .

أضف إلى ذلك كله أمرين اثنين، أولهما : إن كل شعب من شعوب هذه الأرض الوسيعة قد نظر إلى الشوامخ في صفحاته الخاصة من تاريخ الإنسانية الواحد، فدرّسها درساً كثيراً، وجلّى مكانة كل منها فوضعه في مقامه، مفيداً من ذلك عبرة وقوة . ثم راح بعد ذلك يبحث في أنصاف الشوامخ، وفي أنصاف هؤلاء كذلك، وهلمّ جرا، متمماً ما يمكن له أن يفيد من حوادث التاريخ وسير أبطاله وعظمائه الحقيقيين، آخذاً منهم حافزاً^(١) جديداً له على المسير . فلم لا نفعل مثلما يفعلون ؟ ولم لا نضع شوامخنا إلى جانب شوامخهم بعد الموازنة والمقابلة، وقصة تاريخنا واحدة، وعظماؤنا لنا أجمعين ؟

وثاني الأمرين إن علي بن أبي طالب من الأفذاذ النادرين الذين إذ عرفتهم على حقيقتهم بعيداً عن الصعيد التقليدي الذي درجنا على أساسه ؛ ندرس رجالنا وتاريخنا، عرفنا أنّ محور عظمتهم إنما هو الإيمان المطلق بكرامة الإنسان وحقه المقدس في الحياة الحرّة الشريفة، وبأن هذا الإنسان متطور أبداً، وبأن الجمود والتقهقر والتوقف عند حالٍ من أحوال الماضي أو الحاضر ليست إلا نذير الموت ودليل الفناء .

فقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك

(١) حافزاً : دافعاً، مشجعاً . أنظر الصحاح للجوهري: ٨٧٤/٣، مادة «حفر».

ويُلقون في نفسك مثل هذه القاعدة الأصل من قواعد التطور وكأن علياً ينزع بها عن لسان الطبيعة وقلب الحياة : «لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم!»^(١).

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك مثل هذه القاعدة العظيمة التي تطال المسلك الإنساني بكامله فتوجه كل نشاط وتراقب كل عمل : «من تساوى يوماه فهو مغبون»^(٢) . وما يريد ابن أبي طالب بذلك إلا التصريح بأن الغبن لا يلحق الجماعة من الناس إلا إذا استوى حاضرهم وأمسهم، وبأن الغنم هو أن يكون حاضرهم خيراً من يومهم . ولا يتم ذلك إلا بالانسياق مع تيار الحياة الذي لا يهدأ .

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين يبذرون في عقلك ويلقون في نفسك موازين العدالة الكونية تنبثق عن نفسها وبمنفسها تقوم، متكشفين بنور العبقريّة أن : «من أساء خلقه عذب نفسه!»^(٣).

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين أدركوا وعاشوا وقالوا : إنَّ «كل إنسان له نظير في الخلق» و «إنَّ الناس سواسية!» .

وقليل جداً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين وعوا أنَّ «الاحتكار جريمة»^(٤) وأنه «ما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني»^(٥) وأنَّ «الذنب الذي لا يُغفر ، هو ظلم

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢، باب الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين رقم ١٠٢ . لا تقسروا أولادكم على آدابكم...

(٢) معاني الأخبار : ٣٤٢، شرح أصول الكافي : ١ / ٢٧٧، روضة الواعظين : ٤٤٤.

(٣) غرر الحكم : ٧٧٩٨.

(٤) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٩٩.

(٥) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٣٢٨.

العباد بعضهم لبعض»^(١). ثم راحوا يخلقون القوانين وينظّمون الدساتير على أساس هذا الوعي الكريم !

وقليلٌ جدّاً من عظماء التاريخ الأقدمين هم الذين عاشوا هذه المبادئ الأصول جميعاً، وجلّوها وأقاموا عليها مذاهب فكرية واجتماعية متماسكة، خرجوا بها من نطاق الأفكار المستقلّ بعضها عن بعض إلى إقامة البناء المنظم الواحد ذي القواعد والأركان .

ثم إنّ لما انبثق من وجود عليّ قصةً في تاريخنا ذات فصولٍ عجاب، قصة تناوّلت خطوطها الكبرى من شموخ علي ومن صموده، وراحت تنسج حوادثها أيدي الزمان، إنّها قصة الثورة التي عاشها العالم العربي خلال عصورٍ قاتمات، تناهى سوء حالها في الاستئثار والامتهان وطغيان ليالي الاستبداد الرهيب !

فلا قوِيّ فيها - بمقياس قوّة البهيمة - إلّا وهو سيّد مطاع ينكّل ويقتل وينهل ويسطو ويضرب الخلق بالترويع !

ولا لصّ فيها إلّا وهّمته أن يأكل الناس مع الآكلين !

ولا سقّاح إلّا ورقاب الأبرياء محصّدةٌ لسيفه !

ولا جاهل إلّا وقصره من جماجم المفكرين !

ولا عبد إلّا وله ماثرةٌ في قتل حُر !

ولا تافه إلّا ويمشي في الأرض مرحاً وهو يحسب أنه يخرق الأرض

وأنه يبلغ الجبال طولاً !

ولا جَزو وغواع من جِراء هؤلاء إلّا وله رأيٌ وصوتٌ ويَدٌ في تحديد

مدة الحياة للأحياء، وكأنّ تاريخنا من ثمّ فصل من تاريخ الإنسانية العام الذي عرف من هذه المظالم كثيراً أو قليلاً! وعلى سبيل المثل العابر، أفلم يحكم «سيرا كوز» في العصر القديم طاغية حقير يدعى دينيس فيبيع أفلاطون العظيم رقيقاً فيفتديه أحد أصدقائه ويردّ إليه حريته! ثمّ يقوم بعد دينيس ابن له أحقر من أبيه يدعى: دينيس الصغير؛ فيعقد النية على أن ينكّل بالفيلسوف الجليل، فينجو الفيلسوف للمرة الثانية؛ ثمّ يعود ويعتزم قتله، فينجو هذه المرة أيضاً بأعجوبة على يد أحد تلاميذه المخلصين.

أقول: إنها قصة الثورة التي عاشها العالم العربي خلال المهالك المفزعة في ضمائر الأحرار وعلى ألسنتهم وبأيديهم، وهم كثيرٌ في طليعتهم تلاميذ عليّ الآخذون من نهجه وخلقه وصموده في وجه الاستبداد، والممثلون للقوى المعارضة في حكم الطغاة في أكثر أدوار تاريخنا المتوسط والقديم.

ثورة الإنسان المرهق المظلوم الذي تبنى قصة الدفاع عن نفسه وعن المستضعفين والمضطهدين؛ مختاراً أو مسوقاً لا فرق. وقصة هذه الثورة الطويلة التي علّلها كثيرون فقال بعضهم: إنها خيرٌ كلّها فأيدوها، وقال بعضهم: إنها شرٌ كلّها فأنكروها؛ جديرة بأن تدرس في ضوء جديد وهي في حقيقتها البعيدة التي نراها استمرار مشدود على الزمان لقصة عليّ ذاتها مع محاربيه بالسيف والحيلة. وهي بذلك صفحات من الكفاح في سبيل الحياة خطّها في تاريخنا آباء لنا سابقون، فكانت لنا تعويضاً عظيماً عما في أمسنا من آثام واعتداءات.

وخلاصة القول، اننا إذ ننطلق من النطاق العربي إلى النطاق العالمي الواسع، ومن حدود الزمان العربي المقيّد بتاريخين متقاربين إلى حدود الزمان العالمي الذي يشمل بدء وجود الإنسان حتى عصر النهضة في أوروبا،

والذي عاش فيه عباقرة عظام ، وسُنّت دساتير ، وقامت ثورات اجتماعية وأخلاقية وسياسية ، لابدّ لنا أن ندرك أن لابن أبي طالب مكانة بين هؤلاء الأفاضل أصحاب الدساتير ومحدثي الثورات ، فما هي هذه المكانة! وما هو محل الرجل بين أولئك الرجال؟

أليس من الغبن أن يدور الحديث في أكثر المؤلفات الموضوعة عن ابن أبي طالب حول موضوعات تكاد تنحصر في واحد يدور فيه كلّ بحث وكلّ جدال، وهو إن جاوزه ؛ فللكلام على الضرب بالسيوف حتى تنقوس، والطعن بالرماح حتى تنقصف، ثم عن مقاتليه تنحطّ عليهم الطير من السماء وتمزّقهم سباع الأرض ؟

إنّ لهذه الأمور موضوعاً في تاريخ عليّ ولا ريب، لأنّ أخبارها قد انحسرت عن ألف قضية وقضية في التاريخ البعيد . ولكنّ جوانب العظمة الحقيقية في ابن أبي طالب أكثر من ذلك . وهي إن درست فلكي تتوضح بعض الخفايا التاريخية في حياة الرجل وحياة معاصريه، لا لكي يدور على محورها كلّ بحث وكلّ نقاش .

لقد جهدنا أن يحفل هذا الكتاب بنظرات جديدة تتعلق بعصر عليّ ، وبنظرات موسّعة جديدة كذلك تتناول عبقريته ، ثم بالتفاته جامعة تشمل ما انطوى عليه تاريخ الإنسانية من معنى الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً وكيف تدرج هذا المعنى من طورٍ إلى طور وفقاً لسير التاريخ العام ، لنوضح بعد ذلك ما أمكننا أن نوضح من معنى الإنسان عند علي بن أبي طالب بالمقابلة بينه وبين مفكري العصور من بعض الجوانب ، وبين مبادئه العامة ومبادئ الثورة الكبرى المعروفة بالثورة الفرنسية بوصفها تجمع ما في الإنسانيات القديمة والمتوسطة من معنى الإنسان ، ثم بوصفها خاتمة عهود في تاريخ البشر

وفاتحة عهد جديد!

ومما أثبتناه أيضاً في هذا الكتاب أبحاث تتناول كلاً من عليّ وسقراط بالتحليل ، ثم تتناول الرجلين بالمقارنة والموازنة في فلسفة الأخلاق وفي غيرها من شؤون الإنسان. وبحثٌ يُظهر أن عليّاً يمثل في جملة كيانه جانباً عظيماً من العدالة الكونية الشاملة. ودراسة واسعة الغرض منها الكشف عن مقدار ما في شخصية ابن أبي طالب من تماسكٍ لا يصحّ بغير وجوده بحثٌ ولا يستقيم رأي. ولقد بدا لنا من تماسك هذه الشخصية ما يُدهش ويُعجب. ثم أبحاث تدور حول معنى التشيع في التاريخ العربي وفيها كشفٌ عن الأغلاط التي رضيها أكثر المؤلفين لأنفسهم بصدد هذا الموضوع الدقيق. وأخرى تتناول أثر عليّ في الأدب العربي خلال العصور المتوسطة. ودراسة خاصة بعنوان : الإمام عليّ والقومية العربية. ثم دراسات كثيرة غيرها.

وقد مهّدتنا لهذه الأبحاث جميعاً برأيٍ لنا مفضل في أساليب الباحثين ساعة يدرسون تاريخنا القديم ويرون آراءهم في قضاياها. وبفضل تحدّثنا فيه عن الحدود الحقيقية التي يمكننا أن ندرس تاريخنا ضمنها. وأنهيناها بالنظر في الدراسات التي وضعها المؤلفون العرب والأجانب عن ابن أبي طالب وبإبداء رأينا فيها.

بقي أن نوضح أمراً يتعلّق بما أشار إليه بعض النقاد من مقاطع هنا أو هناك هي أقرب إلى الشعر منها إلى البحث. ولما كان هذا الأمر موضحاً في الفصل الذي عقدناه عن الأورييين والإمام ، فقد كفينا أنفسنا والقارئ عناء إيضاحه الآن. وإنّ ردنا على هذا التزمّت المنسوب زوراً إلى العلم ، والذي يريد أن يسلب النار حرارتها والريخ عصفتها والنهر مجاريه ، والذي لا يرى فيه إلّا كلاً وعجزاً يتستران ببرقع صنّعه وقال إنه من صنع العلم ، لجديرٌ بأن

نلفت إليه النظر لأنه يتناول جوهرًا في أسلوب الدراسات ، لا عرضاً.
وأن نكون قد أنصفنا بعض أطوار تاريخنا وأفدنا منها عبرةً في سيرنا
الصاعد مع موكب الحياة المتجددة أبداً ، أسوةً بغيرنا من إخواننا البشر الذين
يُفيدون من تاريخهم الخاص ، وأسوة بغيرنا وبأنفسنا ساعة نُفيد من تاريخ
الإنسانية الشامل ، ذلكم رجاءنا من هذا الكتاب.

جورج سجعان جرداق

بيروت: ١ آذار سنة ١٩٥٨ م

المقدمة

بقلم: ميخائيل نعيمة

لنا في حياة العظماء معين لا ينضب من الخبرة والعبرة والإيمان والأمل . فهم القمم التي نتطلع بشوق إليها ولهفة، والمنارات التي تكشّح الدياجير^(١) من أمام أرجلنا وأبصارنا . وهم الذين يجدّدون ثقتنا بأنفسنا وبالحياة وأهدافها البعيدة السعيدة . ولولاهم ؛ لتولّأ القنوط في كفاحنا مع المجهول، ولرفّعنا الأعلام البيض من زمان، وقلنا للموت : نحن أسراك وعبيدك يا موت . فافعل بنا ما تشاء !

إلا إنّنا ما استسلمنا يوماً للقنوط، ولن نستسلم . فالنضر لنا بشهادة الذين انتصروا منا . وابن أبي طالب منهم . وهم معنا في كلّ حين، وإن قامت بيننا وبينهم وهداث سحيقة^(٢) من الزمان والمكان . فلا الزمان بقادر أن يخنق أصواتهم في آذاننا، ولا المكان بماح صورهم من أذهاننا .

وهذا الكتاب الذي بين يديك قارئ الكريم خير شاهد على ما أقول . فهو مكرّس لحياة عظيم من عظماء البشرية، أنبتته أرض عربية، ولكنها ما استأثرت به . وفجر ينابيع مواهبه الإسلام، ولكنه ما كان للإسلام وحده . وإلا فكيف لحياته الفذة أن تلهب روح كاتب مسيحي في لبنان، وفي العام (١٩٥٦م) ؛ فيتصدّى لها بالدرس والتمحيص والتحليل، ويتغنّى تغني الشاعر

(١) تكشّح الدياجير: تكشف الدياجير، أي الظلمات، وتذهب بها . أنظر تاج العروس: ٢١٢/٢، مادة «كشح».

(٢) وهداث سحيقة: حفر، وأراضي منخفضة . كتاب العين: ٧٧/٤، مادة «وهد».

المتيم بمفاتها وما أثرها وبطولاتها ؟

وبطولات الإمام ما اقتضت يوماً على ميادين الحرب . فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته، وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسموّ دعوته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم وتعبّده للحق أينما تجلّى له الحق . وهذه البطولات، ومهما تقادم بها العهد، لا تزال مقلعاً غنياً تعود إليه اليوم وفي كلّ يوم كلما اشتدّ بنا الوجد الى بناء حياة صالحة، فاضلة .

لست أريد أن أستبق القارئ الى الكشف عن مواطن المتعة في هذا الكتاب . فهي كثيرة . منها بيانٌ مشرق يسمو هنا وهناك إلى سوامق من الصور الشعرية، المشبوبة العاطفة، الزاهية اللون، العذبة الرنة . ومنها اتزان في التقدير والتفسير . ومنها محاولة جريئة في نقل عليٍّ وآرائه السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية إلى مسرح الحياة التي نحيّاها اليوم . وهي محاولة بارعة وموقفة، ما فطن لها الذين كتبوا في الموضوع من قبل . ناهيك باجتهادات جديدة في تفسير بعض الأحداث التي رافقت حياة الإمام تفسيراً يغيّر النمط الذي درج عليه مؤرّخوه حتى اليوم .

إنه ليستحيل على أي مؤرّخ أو كاتب، مهما بلغ من الفطنة والعبقرية، أن يأتيك حتى في ألف صفحة بصورة كاملة لعظيم من عيار الإمام عليّ، ولحقبة حافلة بالأحداث الجسام كالحقبة التي عاشها . فالذي فكّرهُ وتأمله، وقاله وعمله ذلك العملاق العربي بينه وبين نفسه وربّه ليمّا لم تسمعه اذن ولم تبصره عين . وهو أكثر بكثير ممّا عمله بيده أو أذاعه بلسانه وقلمه . وإذ ذاك فكلّ صورة نرسمها له هي صورة ناقصة لا محالة . وقصاري ما نرجوه منها أن تنبض بالحياة .

إلا إن العبرة في كتاب من هذا النوع هي في تفحص ما اتصل بنا من أعمال علي وأقواله . ثم في تفهّمه تفهّمًا دقيقًا، عميقًا، ثم في عرضه عرضاً تبرز منه صورة الرجل كما تخیّله المؤلّف وكما يشاؤك أن تتخیّله .

ويقيني أن مؤلّف هذا السفر النفيس، بما في قلمه من لباقة، وما في قلبه من حرارة، وما في وجدانه من إنصاف ؛ قد نجح الى حدّ بعيد في رسم صورة لابن أبي طالب لا تستطيع أمامها إلا أن تشهّد بأنها الصورة الحيّة لأعظم رجل عربي بعد النبي .

ميخائيل نعيمة

أرض المعجزات

مهد النبوة

أَرْضُ هِيَ الْمُعْجَزَةُ بِمَا كَانَتْ، وَهِيَ الْمُعْجَزَةُ بِمَا سَتَكُونُ !
فلواتٌ عَظِيمَةُ الْإِتْسَاعِ لَوْ جَادَهَا الْغَيْثُ وَمَدَّهَا بِالْخَضْرَاءِ وَالنُّضْرَةِ
وَالرَّوَاءِ ؛ لِأَطْعَمَتْ جِيَاعَ الدُّنْيَا وَكَسَتْ عُرَاةَ الْعَالَمِينَ، وَفِيهَا مِنَ الْإِمْتِدَادِ مَا لَا
يَحْذَهُ خَيَالٌ وَلَا يَضْبُطُهُ تَصَوُّرٌ . وَلَكِنَّهَا بَوَادٍ مَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ تَكْوِينِهَا مِنْ رَمَالٍ
مَتَعَرِّجَةٍ مَلْتَوِيَةٍ تَمُوجُتُ أَوْ تَصَلِّبُتُ أَوْ لَعِبَتْ بِهَا زَعَارِعُ الرِّيحِ فَهِيَ أَرْضُ
تَثُورٍ . وَمِنْ كُثْبَانٍ هُنَا وَأَوْدِيَةٍ هُنَاكَ جَعَلَتْهَا اللَّوَاغُخُ مِنْ حَبِّ الرَّمَالِ، فَهِيَ مِنْ
عَجَبٍ تَقْعُدُ وَتَقُومُ . وَمِنْ جِبَالٍ جُرْدٍ قَلِيلَةِ الْإِرْتِفَاعِ هِيَ الْجَذْبُ تَجْتَمِعُ وَتَكْثُرُ
وَعَلَا عَلَوًّا هَزِيلًا . وَمِنْ قَفَارٍ بَرَكَانِيَةٍ لَافِحَةٍ اسْتَوَتْ ضُلْبَةُ أَرْضِهَا ذَاتَ حِجَارَةٍ
سُودٍ نَخِرَةٍ كَأَنَّهَا أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ فَهِيَ مَقْدُوفَاتٌ تَجَمَّدَتْ حَرَارَةً وَسَوَادًا فَدَعَوْهَا
حَرَاتٌ وَجَعَلُوا لَهَا أَسْمَاءً، وَيَا لِبُؤْسِ الْأَسْمَاءِ ! إِنَّهَا فَلَوَاتٌ لَا تَصْلُحُ لِلزَّرَاعَةِ
وَلَا لِلْإِقَامَةِ، وَفِي الزَّرَاعَةِ عِلَّةُ السَّكَنِ . وَهِيَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَشَدِّ أَقَالِيمِ الْعَالَمِ
حَرَارَةً وَأَقْلَهَا سَمَاحًا بِالْنَدَى عَلَى الرَّغْمِ مِنْ بَحَارٍ ثَلَاثَةِ تَحِيْطٍ بِهَا . وَقَدْ
يَجُودُهَا الْغَيْثُ فِي بَعْضِ الْأَقَالِيمِ فَيَكْسِبُهَا شَيْئًا مِنَ الطَّرَاوَةِ، فَيَتَرَبَّصُونَ^(١)
مَوَاسِمَهُ، فَيَخْرُجُونَ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا لَهُمْ مِنْ إِبِلٍ وَنَسَاءٍ وَأَوْلَادٍ . إِلَّا أَنْ رِيحَ السَّمُومِ

(١) يَتَرَبَّصُونَ : يَتَرَقَّبُونَ، يَتَحَيَّنُونَ . الْمُنْجِدُ : ٢٤٥، مَادَّةُ «رَبَص».

وهي شتر ريح تنور في جنباتها وأواسطها فتقضي على كل رطب فيها، وقد تقضي على الحياة . فإذا بالشعراء يغنون نسيم الصبا المنعش إذا هب عليهم من الشرق، كمن يبتهجون بعبة^(١) من رائحة الجنة !

أما أنهارها فلا نهر واحد فيها دائم الجريان . ولكن سيول غزائر تجري حين تفيض الأمطار في بعض الأقاليم، آخذة بطون الأودية المشتبكة مَسِيلاً لها، فإذا بالقوم يحتالون على بعضها بسدود تحبس المياه ولو إلى حين . أما حيوانها فغير حيوان سائر الأرض . لقد جعل الله له سوقاً طوالاً لئمكنه أن يقطع المسافات الشاسعة فلا يتيه في عرض القلاة . كما جعل لبعضه حُفّاً مستديراً كي لا تفرق سُوقُهُ في الرمال . وهيتاً له من قوة الاحتمال والصبر بمقدار ما هيتاً لموطنه من وعورة المسلك وأهوال الطريق . ثم خصّه بمقاومة الظمأ والقيظ، وبمعدةٍ تختزن المياه لأيام . وقد تُستخلص هذه المياه بإحدى الوسائل فيشربها البدوي، صاحبُ البعير، الذي سَمَّاهُ ألفاً من الأسماء .

ونبتُها، - ولن أسهب في وصفه - نادرٌ، شائكٌ حَزَان، ظمآن العروق . أما بيوتها فمن الخطأ أن تُدعى بيوتاً . فإنَّ هي إلا مضارب تنفخ فيها الرياحُ اللَّافحة ويغزوها الحرُّ القانظُ فإذا بها وَعَرَاء الصَّحراء سواءً بسواء . وهي إلى ذلك، لا تُضْرَبُ إلَّا في أقاليمٍ وأقاليم . فمن العبث أن يسعى ساكنوها إلى الإقامة حيث يشاؤون، أو يَقَرُّوا في مكانٍ أمين، فهم على موعد دائم مع الرحيل .

أما آلة العيش فيها فالأسودان : التمرُ وما كان من الماء . بالإضافة إلى ما قد يكون من لحم الإبل وقنص البيد .

(١) عبقة: رائحة الطيب. مجمع البحرين: ١١٣/٣، مادة «عبق».

وتحمل طبيعة الصحراء قاطنيها على الغزو فالأقتتال . فالنزاعُ الدائم هو نظامهم الاجتماعي في الأصل . وعلى صحارى الجزيرة وداراتها تُلقِي الشمسُ رداءً من لهيب، فإذا الصعلوك يشوي على حصاها الذئب الصريع أو الشاة الجُزور .

وعلى صحارى الجزيرة وداراتها يختم الضجرُ القاتلُ والسأمُ المرّ . فمشاهدها واحدة لا تتبدلُ في انبساطٍ من محيط الرمال على قلة الواحات، وفي الأمل الكليل^(١) الذي لا تهتئ له الفلواتُ انعقاداً ولا امتداداً .

وليس من شأن هذه الطبيعة القاسية، وهذا العيش الرتيب، وهذا الوجود الصعب، أنْ تخلق في أهل الصحراء شعوراً بسعة الكون وشُمول الحياة، وامتدادِ قيم الخير ممّا يُلْتَمِس النفس ويملأ القلب . فمثل هذه الأحاسيس تنبتُ في الواحات الخُضر لا في المَهَامِه البيد، ولدى الناعمين بالعيش لا في قلوب التاعسين .

ولا عبرة في بعض قرى الجزيرة العامرة في ذلك الزمان . فهي قرى تتناثر هزيلة عجفاء، كثيبة سوداء، بين حزات سود، تُباعد ما بينها مجاهلٌ يضلّ فيها الدليل، ويعبُس وجه الأرض . أمّا عُمرانها فأشبه ما يكون بالقليل الى جانب الأقل، وبالعسير الى جانب الأعسر . وهي فوق ذلك، خاضعة لجو الصحراء العام من حيث قسوة المناخ، وطغيان الفاقة، وبُعد الأسفار، والعزلة عن مآتي العالم، اللهم إلا ما كان في بعض أرض الطائف ويشرب من ثروة نسبية .

(١) الكليل : الضعيف . المنجد: ٦٩٢، مادة «كلل».

أما مكة، فبيت للأوثان !
أما أهلها، فتجار من مقاييسهم أخذ الروح بالدينار !

* * *

شظف من العيش في جحيم من الرمال، في سأم من الحال، في يأس من
الغدِ ماحق، هذه هي جزيرة العرب .
وإنسانها؛ أليس من العجب أن يكون في هذه الأرض إنسانٌ وفي
جوارها خضبٌ ورُواء، وغذاءٌ وكساءٌ ووفرةٌ من كلِّ عيشٍ تكفي مَنْ عَبَّرَ إليه
سبيلاً ؟

وجود هذا الإنسان في هذه الأرض لا ينبغي عنها حِولاً، ولا يرضى
بغيرها موطناً، وقد حاصرته جباله وبحاره وآفاقه وصحاريه، هو المعجزة التي
كانت : معجزة الصحراء قبل ثورة محمدٍ وثورة علي !

* * *

ولكن، ما يباعُ الأرض إذا تفجرت بالخير !
ما واحات النعيم إذا اشتعلت بالخضرة !
ما ثروة الدنيا إذا تجمعت في بلد !
ما رطوبة الليل وأنداء الصباح، وأنفاس الصبا !
ما أجسامٌ تقيم على ناعم العيش في أرضٍ ؛ تدرّ العسلَ واللبنَ وتُعطي
المرّ واللبان ؟

ما ضحك الطبيعة، ومرحها، وتوثبها، في كلِّ فردوس !
ما كلٌّ ما يُمكن للدنيا، دون جزيرة العرب، أن تعطيه يومذاك !
ما كلٌّ ذلك شأنًا وقيمةً إلى جانب ما ستطلعُ به أرضُ المعجزاتِ

على الدنيا !

لقد أطلت على الدنيا يومذاك بما هو أجل وأعظم، حين تنادى الكون،
وتوحد الزمن، وصفت الينابيع، وانجلت قيم الحياة، وانطلق ضمير الوجود في
مخض من الإنسانية المطلقة وفي فيض من تمجيد الخير وتصعيد الطبيعة
وتمديد عناصر الفضيلة، لتحل وحدة حية في نزيل غار حراء، محمد بن
عبد الله ! ثم لتستمر في صفوة الخيرين، الثائر العظيم علي بن أبي طالب .
بعث هذا الكائن العظيم، واستمراره في ابن عمه العظيم، تجسيد للحقيقة
العظمى، على مثل هذه الأرض، في قوم من مقاييسهم أخذ الروح بالدينار، هو
المعجزة التي ستكون : معجزة الصحراء بعد محمد وعلي، صاحبي الثورات
الاجتماعية الخيرة على بؤس ذلك المحيط وذاتك الزمان .

طَوْتُ مَحْمَد

من لهيب الصحراء المحرقة وهج في عينيه !
ومن انبساط الرمال أمام وهج الشمس صراحةً على شفثيه !
ومن جنائن يثرب وخمائل الطائف، ومن واحات الحجاز السابحة في
الفضاء كأنها الجزر المتناثرة في محيط من الرمل تحت ضوء القمر، نداوة في
قلبه ورفق في دمه !

ومن عصف الرياح الهوج، ثورة في خياله !
بيان الشعر ونور السماء، سخر في لسانه وقبش في روحه !
ومن صدق العزيمة ولغة الفكر، مضاء في حسامه ورسالة في يمينه !
ذاك هو محمد بن عبد الله، نبي العرب، ومحطم الوثنية التي أقصت
الإنسان عن أخيه الإنسان : وثنية المال، ووثنية العادة، العنصر الخرقاء !
كان بنو قريش يختصرون الدنيا بدرهم يزلق من يد الأعرابي ليستقر
في جيوبهم .

وكانوا يوجزون قيم الحياة بتجارة رابحة وكسبٍ يضاف إلى كسب،
وقافلة تسير في الشعاب والأوهدة، وتقطع البيد على حذو النوق، ولا تجد لها
مقيلاً غير ظلٍ من دوحة قرشية، ولا مؤثلاً إلا في مكة الوثنية حيث يعتز
الدهرم ويشمخ الدينار .

وعصف في آذانهم صوتٌ تخلّعت له أعصابُهم، وتمزّقت شهواتُهم
ومالت به الدنيا عليهم تقول :

إنّ للإنسان قيمةً غير التي تعرفون ! وإنّ للأعرابي السادر في مجاهل
البيد رسالةً غير التي تزعمون .

ذلك الصوت، كان صوت محمد .

* * *

وجدت أسدً وتميم في طريق الحماقة، وحثوا السير في مهاوي
الضلال، وطفقوا يئدون بناتهم، وليس لهم في وأدهن من حاجةٍ إلا اتباع العادة
وتمكين ما حَرَفَ الإنسانُ من آيات الخالق، وما أنكر من جمال الطبيعة، وما
شوّه من فتنة الكون .

وتردّد في أسماعهم صوتٌ رفيقٌ جرث عليه نسماتُ الحنان وخفقاتُ
الحب وهمسُ الحياة يقول :

إليكم عن الوأد يا عباد الله ! للأُنثى منكم مثل ما للذكر، وليس لمخلوق
على آخر حقّ الحياة والموت، وإنما هو الله مَنْ يحيي ويميت .
ذلك الصوت، كان صوت محمد .

* * *

وانطلق الأعراب يتفانون بحدّ السيف، ويتقارعون بألسنة كأنها سياطُ
الجحيم، ويلثمون أفواه العذارى على شفاير المهتد، فإذا هم خلطُ من فوارس
يَقْفَحُونَ، ورجالٍ يُصرعون، وأطفالٍ يصرخون ويستغيثون، وينشأون على
غير المودة وغير الإخاء .

ودوى في خيامهم صوتٌ أشدّ قصفاً من الرعد، وأمدّ هولاً من العاصفة،

يردّد ويقول :

ما هذا الذي تصنعون ؟ ألكم أن تقتتلوا وأنتم إخوة في خالق السماء والأرض ؟ الحرب من عمل الشيطان، والسلام أولى بكم، وفيه ذوق النعيم الذي تشتهون !

ذلك الصوت، كان صوت محمد .

وأدرك العرب الزهو، كما لم يدرك شعباً ولا أمة .

وأبدوا من الاحتقار للأعاجم ما يُبديه الاعتداد والغطرسة والخُلُق الأعجف العرييد . فنال الأعجمي من الامتهان ما أزرى بكرامته كإنسان . فشق ذلك على صاحب الرسالة ؛ فأفاق المتغطرسون على صوت يقول :
«ليس لعربي فضلٌ على أعجمي إلا بالتقوى . والإنسان أخو الإنسان أحب أم كره»^(١).

ذلك الصوت، كان صوت محمد .

* * *

أما المعذبون في الأرض .

أما المشردون الذين لفحتهم سموم الصحراء، وتبذهم المجتمع الأجير، وضيق عليهم الحياة فباتوا من الوجود أحقر من ذرات الرمال، وصاروا من العيش على الصحائف السود ؛ أما أولئك فهم أصدقاء صاحب الرسالة، كما كان الفقراء والمنبوذون أصدقاء المسيح عيسى بن مريم وأصدقاء غيره من

(١) من أقوال صاحب الرسالة . مسند أحمد بن حنبل : ٤١١ / ٥ ، المبسوط للسرخسي : ٢٣ / ٥ ، نيل الأوطار ، للشوكاني : ١٦٤ / ٥ ، مجمع الزوائد : ٨٤ / ٨ ، فتح الباري : ٣٨٢ / ٦ ، مسند ابن المبارك : ١٤٧ ، المعجم الأوسط للطبراني : ٨٦ / ٥ ، المعجم الكبير : ١٣ / ١٨ ، المعجم الكبير : ٨٧٣ ، كنز العمال ، الحديث رقم : ٥٦٥٥ .

عظماء الأرض . وهو من أجلهم جعل الحكم شورى وحرّم الاستعباد واستغلال الإنسان للإنسان، وأتم بيت المال وجهود الناس، وألهب ظهور أعمامه القرشيين بالسياط الخيرة، وتطلع بجملة كيانه الى وحدة الكون مجسداً في إله واحد، وهم يُغرون به السفهاء والصبيّة فيرجمون به بالحجارة ويسخرون منه !

أما أولئك المعذبون في الأرض والمشرّدون والأرقاء، الذين كان منهم بلال مؤذن الرسول وأول مؤذن في الإسلام، فهم الذين تفتحت قلوبهم على صوت أعمق صدى من نشيد الصباح وأمد سلطاناً من جنح الليل، وأفعل في النفس من صوت القدر :

«الخلق كلّهم عيال الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله»^(١).

ذلك الصوت، كان صوت محمّد .

* * *

أما خصومه وراجموه والساخرون به، فقد تلقوا عن لسانه هذا الصوت المحيي :

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر وإذا عزمت فتوكل على الله إنّ الله يحب المتوكلين ﴾^(٢).

ذلك الصوت، كان صوت محمّد .

* * *

(١) من أقوال صاحب الرسالة . المصنف : ٢٧ / ٦ ، مسند أبي يعلى : ٦٥ / ٦ ، المعجم الأوسط للطبراني :

٣٥٦ / ٥ ، المعجم الكبير للطبراني : ٨٦ / ١٠ ، مسند الشهاب : ٢٥٥ / ٢ ، كنز العمال : ٦ / ٣٦٠ الحديث رقم

١٦٠٥٦ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

أما المحاربون في سبيل حياة أفضل، وأما أنصاره ضد الشر، وأما من قد
تحدثهم نفوسهم بهدر الحقوق والكرامات في ساعة الجهاد والذود عن الثورة
القويمة، فقد ثبتت في قلوبهم هذه الكلمات الرائعة :
« لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً فانياً ولا منعزلاً بصومعته،
ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً »^(١).
ذلك الصوت، كان صوت محمد .

* * *

وحمل العرب من ابن عبد الله ذلك الصوت الكريم . وامتدوا به أول
أمرهم على بسطة الأرض حتى أغرقوا فيه كل ذي تاج وسلطان، وحتى أوثقوا
الصلة بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وروح الكائنات التي جسدها نبي
الصحراء إلهاً سويلاً لا شريك له .
واتسع ظل محمد بن عبد الله، وتعاظم حتى اكتنف العالم القديم، فإذا هو
من مظل الشمس الى مغربها أرض تُنبِت الخيرَ والمعرفةَ والسلام، وإذا بنبي
الصحراء يمدّ يده فوق الدنيا ليذر في أرضها بذور الإخاء والحب .
وصار لدولة العرب رجلٌ في الهند، ورجلٌ في الاندلس .
وعُقد على جبين الشمس تاجُ شعبٍ عظيم .

* * *

وكانت على هذا الصوت الدعوةُ الى الإخاء الإنساني . وكان رفع أيدي
الحكام عن الشعب وأمواله وجهوده، ومساواة الناس في الحقوق : الصغير

(١) من أقوال صاحب الرسالة . تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر : ٩ / ٢ ، مغازي الواقدي : ٢ / ٧٥٨ .

والكبير، المحكوم والحاكم، العربي والأعجمي، فالناس كلهم إخوان متساوون .

وكانت على هذا الصوت الدعوةُ الى تحرير المرأة من جور الرجل، وتحرير العامل من ظلم صاحب العمل، وتحرير الرقيق والخدم من العبودية والهوان ؛ بما يحمله فكرُ الزمان وتأذن به طبيعةُ المحيط، وإشراكُ الشعب في السلطان، على غير ما رأى فلاسفةُ الأولين الذين قرّروا حرمان العمال والصّناع والموالي من الحقوق المدنية لـ «انحطاط» ما يمارسونه من المهن والصناعات، وجعلوا الدنيا طبقاتٍ في الحقوق والواجبات .

كان أكثر ما يمكن أن يكون من الخير العام في منطق ذيك الزمان وإمكانات أبنائه .

وحُرّم الرّبا واستغلال الإنسان للإنسان .

وكان صوت عليّ بن أبي طالب .

وكانت ثورةٌ على مجتمعٍ آخذٍ من كلّ بغيٍّ وعدوان .

* * *

الضمير العملاق

الإمام علي بن أبي طالب، عظيم العظماء، نسخة
مفردة لم ير لها الشرق ولا الغرب صورة طبق
الأصل لا قديماً ولا حديثاً .
شيلي الشميل

على هامة التاريخ

ما هو من الآدميين إلا بمقدار ما يستون بمقياس
الضمير والوجدان.

هَلَّا أَعَرْتَ دُنْيَاكَ أُذُنًا صَاغِيَةً فَتَخْبِرَكَ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ عَظِيمٍ؟ مَا أَعْطَتْ
الدُّنْيَا إِنْ تُحَدِّثَكَ عَنْ مِثْلِهِ إِلَّا قَلِيلاً بَيْنَ جِيلٍ وَجِيلٍ !
هَلَّا أَعَرْتَ دُنْيَاكَ أُذُنًا وَقَلْبًا وَعَقْلاً فَتُلْقِي إِلَى كَيَانِكَ جَمِيعاً بِخَبَرِ عِبْقَرِيٍّ
حَمَلَتْ مِنْهُ فِي وَجْدَانِهَا قِصَّةَ الضَّمِيرِ الْعَمَلَقِ يعلو ويعلو حتى لَتَهْوَنَ عَلَيْهِ
الدُّنْيَا وَتَهْوَنَ الْحَيَاةُ . وَيَهْوَنُ الْبَنُونَ وَالْأَقْرَبُونَ وَالْمَالُ وَالسَّلْطَانُ وَرُؤْيَا
الشَّمْسِ الْمَشْرِقَةِ الْغَارِبَةِ . وَحَتَّى يَنْدَفِعَ بِصَاحِبِهِ ارْتِفَاعاً فَمَا هُوَ مِنَ الْآدَمِيِّينَ
إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا يَسْمُونُ بِمَقْيَاسِ الضَّمِيرِ وَالْوَجْدَانِ .

هَلَّا أَعَرْتَ دُنْيَاكَ هَذِهِ الْأُذُنَ وَهَذَا الْقَلْبَ وَهَذَا الْعَقْلَ، فَتُرْوِي لَكَ مَعَ
الْمَعْزِي، وَمَعَ الطَّيِّبِينَ مِنَ الْأَقْرَبِينَ وَالْأَبْعَدِينَ قِصَّةَ الشَّهَادَةِ تَصْبِغُ الْفَجْرَ

والشفق بدم العدل والحق الصريعين، فإذا دماء الشهيد في أواخر الليل فجران
وفي أولياته شفقان ؟

هلا ضربت بعينيك حيث شئت من تاريخ هذا الشرق، سائلاً عن فكرٍ هو
من منطق الخير نقطة الدائرة، تشدُّ إليها آراء جديدة في الحياة والموت،
ونظرات عميقة في الشرائع والأنظمة والدساتير وقوانين الأخلاق، وفي
مكانها من المجموعة البشرية على صعيد التعامل والتعاطي وربط الإنسان
بالإنسان في مجتمع هو من الكلّ وللكلّ على السواء ؟

هلا سألته عن فكرٍ أنتج للناس مذهباً في الحكمة هو من مذاهب العصور
ومن نتاجها القيم يرثه الأولون فيورثونه الأبناء والأحفاد، فيجتمعون له،
فيأخذون منه بقدر طاقتهم على الأخذ وما يتركونه فهو للطالعين المُقبلين ؟
هلا سألته عن ذكاءٍ غريبٍ أورث صاحبه الشقاء والناس منه في نعيم .
ومدّ أمام أنصاره وأخصامه الطريق وما يزال، ذكاء العالم الباحث عن كلّ
علة وكل نتيجة ؛ الراغب في الاكتشاف والتبيين وتركيز ذاته على قواعد
ونواميس ؛ العميق الواسع الإدراك، السابر الأغوار حتى لا تفوته أعمال
الناس وهي ما تزال في نفوسهم خواطر وفي رؤوسهم أفكاراً، ذكاء العالم
الذي أوتي من المواهب ما جعل علمه متصلاً بكل علم أخلاقيّ جاء بعده في
هذا الشرق، بل أصلاً له ؟

هلا عرفت بين العقول عقلاً نافذاً كانت له السابقة في إدراك حقيقة كبرى
هي أصل الحقائق الاجتماعية وعلة تركيب المجتمع وتسييره على هذا النحو
دون ذاك ؟ وهي الموضوع الذي تدور عليه دراسات الباحثين العلماء في
الشرق والغرب اليوم بعد ألف وأربعمائة عام وما ينيف، تمرّ على إدراكه
إياها . ولا نعني بها إلا واقع الاستغلالية وأساليبها في الاحتياال على قواعد

الطبيعة، وفي تضليل العقول عن أسبابها الصحيحة ونتائجها المحتومة، وتفاهة منطقها الذي صنعه الأغنياء لاستثمار الفقراء، والحكام لاحتكار مجهود الناس، وبعض الإلهيين لتثبيت سلطانهم على الأرض .

هل عرفتَ العقل الجبار يقرّر، منذ بضعة عشر قرناً الحقيقة الاجتماعية الكبرى التي تضع حداً لأوهام لها ألف مصدر ومصدر، فيعلن أنه «ما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني»^(١) ؟ ثم يردف قائلاً لتقييم هذه الحقيقة: «ما رأيتُ نعمةً موفورة إلا وإلى جانبها حقٌّ مضى»^(٢) أما إلى أحد عُتاله فيبعث بهذا القول في صدد الحديث عن الاحتكار، باب الغبن الاجتماعي ودعامته : «وذلك باب مضرة للعامة، وعيبٌ على الولاة، فامنع من الاحتكار»^(٣).

هل عرفتَ عظيماً دلّه عقله الجبار، منذ بضعة عشر قرناً، على اكتشاف سرّ الإنسانية الصحيح فإذا سرّها متصلٌ اتصالاً عميقاً بالشعب الذي لم يكن حكّام زمانه وملوكه ليقيموا له وزناً أو ليشعروا له بوجود إلا في نطاقٍ ما يكون لهم سلماً ومطية ؟ فإذا كان رافاييل قد اتخذ من إحدى فلاحات الريف الإيطالي نموذجاً للعدراء أم المسيح ليضع في هذا النموذج كل ما يحبه ويريده من معاني الكرم الإنساني؛ وإذا كان تولستوي وفولتير وغيتي قد عملوا في صنيعهم الفكري والاجتماعي ما هو من روح رافاييل في صنيعه هذا ؟ فإن ذاك العظيم قد سبقهم إليه بمئات السنين مع الفارق بين ظرفه الصعب وظروفهم المواتية، وبين مجتمعه الضيق ومجتمعاتهم الواسعة، فإذا هو يحارب الملوك والأمراء والولاة والأثرياء ! يحارب عبثهم وسخف تفكيرهم في سبيل الشعب

(١) يتابع المودة: ٢ / ٢٤٩.

(٢) دراسات في نهج البلاغة، شمس الدين: ٤٠.

(٣) نهج البلاغة: كتاب ٥٣ - ٩٩.

المظلوم المهان فيقسم قائلاً : «وأيم الله، لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزائمه حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً»^(١). ثم يطلق في آذان أمراء زمانه العابثين هذه الصيحة المدوية التي يكمن وراءها من المعرفة لحقيقة أهل الارستقراطية التافهين، المتعاليين على تفاهتهم، ولحقيقة الشعب البائس الشقي، مالا مزيد عليه، فيقول بإيجاز كأنه صوت القدر : «أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم!»^(٢). وما يقصد من وراء هذا إلا الإشارة الصريحة الى ما يُخفي الحرمان والجور من مواهب أبناء الشعب في الخير . وإلى ما يستتر في ثياب الاقطاعيين والحكام والمحتكرين من شياطين الشر وأبالسة الأذى والمكر !

هل عرفت عظيماً ساق إلى مدارك الناس حقيقةً إنسانية قديمة كالأزل، باقية كالأبد، عميقة حتى ليستشفها^(٣) كبار العقول والنفوس، كلٌ منهم على نهجه ووفق مزاجه ؛ وحتى ليأبى العاديون إلا العيش في ظلالها وهم لا يعرفون ؟ فإذا بهم يرضون بما قسط لهم الأجداد والآباء من أفكار وآراء لا تتطلب منهم عناءً ولا جهداً لأنها أنزلت فيهم منزلة العادة والتقليد . حقيقة كانت أساساً لفلسفات إيجابية، وأخرى سلبية، وأعني بها البحث عن المطلق للاستقرار .

والبحث عن المطلق لا يعني في أعماقه إلا البحث عن الحقيقة في وجه من الوجوه . يتعاون في هذا البحث العقل والقلب والخيال وما ينبثق عنها من خلق، ثم الظرف والمناسبة والدوافع والنوازع على اختلاف معانيها

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٦ - ٢ صبحي الصالح .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٦ - ٣.

(٣) يستشفها : يستخلصها . لسان العرب: ١٧٩/٩ - ١٨٠، مادة «شفف».

وأشكالها . وقد أدرك هذا المطلق على نحوٍ معيّن . ثم أدرك بعقله وقلبه أن في كلّ استقرارٍ على المطلق قوة، فإذا هو مثلاً هذه القوة، وإذا قوّته تبدو في انتصاره وانكساره على السواء لأنها - هنا وهناك - هي الغالبة القاهرة سيّان عندها النصر والهزيمة في ميدان القتال وميدان السياسة وكلّ ميدان . فليس في الغلبة أو الهزيمة محكّ لها، فهي إنما تحمل بذاتها كلّ مقياسٍ وكلّ ميزان . هل سألت تاريخ هذا الشرق عن صلابة العقيدة لا تُجرّحها الزلازلُ، ولا يشوبها^(١) من البراكين وهزّ؟ وأيّ زلزال أشدّ على العقيدة من ائتمارٍ أقلّه إجماع الخصوم، وهم كُثُرٌ أقوياء، على التخطئة والتكفير وما إليهما من ذنوب؟ وأيّ بركان أحرق للعقيدة من التهديد بالموت المحتوم، ثم من الموت نفسه؟ ثم، هل سألت كيف يكون الصراع من أجل العقيدة لا يوارب^(٢) ولا يساوم، ولا ينطوي على نفع ولا يدور في نطاق من الأثرة والاستعلاء، اللهم إلّا إذا كان نجاح العقيدة هو النفع والاستعلاء والأثرة؟

هل طلبت إلى الدنيا أن تناجيك بحديث الرحمة تنطلق من قلبٍ ملأته الرحمة، ومن لسانٍ تجري عليه بَرْدٌ وسلاماً؟ فإذا هي القوة الغالبة تتحطم على بابها مغريات الأرض المتفجرة بالمغريات تأتي من غير مصدرها، في عهدٍ هو عهد القسوة والاستغلال واحتكار المنافع، يتقاتل عليها الخصوم، ثم يلتقون على قتال صاحب القلب واللسان الرحيمين .

هل عرفت البراءة في قاموس الكلمات التي يردّها الناس ويكتبونها ويعيشونها في كثيرهم أو قليلهم وكلّ منهم يأخذ منها بحُكم تكوينه، تنادي إليها أخواتها جميعاً من سلامة القلب وصفاء النية، والطهارة الخالصة التي لو

(١) يشوبها : يخالطها . كتاب العين: ٢٩١/٦، مادة «شوب».

(٢) يوارب : يُحابي، يتملّق . راجع لسان العرب: ٧٩٦/١، مادة «ورب».

مَثَلَتْهَا ؛ لَمَّا أَحْسَنْتَ لَهَا تَشْبِيهًا بدموع الليل وأنداء الفجر، لأنها طهارة الإنسان ما فَضِلَهُ فَجَزَّ ولا ليل، البراءة الصافية الطاهرة تنبع من القلب السليم الطاهر الذي تَطْمِئِنُّ إلى صاحبه، كما يطمئن الشتاء إلى حرارة الشمس، وتثق به كما تثق الأرض بالماء فتحيا وتخضر ؟

هل عرفتَ عظيمًا أدرك من أسباب المحبة والوفاء فوق ما أدرك الآخرون ؟ ثم ما أدرك هذه المحبة ولهذا الوفاء إلا في نطاق الطبع الخالص الذي يجري بنفسه من نفسه، فأحب وما تكلف حباً، ووفى وما تكلف وفاءً، وفهم بعميق فكره وعميق حسه أن الحرية لها قدسية يريد لها الوجود ويأبى عنها بديلاً ؛ وفي رخبها تدور كل عاطفة وكل فكر ؛ وفي رحبها يكون الحب ويجري الوفاء صريحين طليقين، فإذا «شَرَّ الإِخْوَانُ مَنْ تُكَلِّفُ لَهُ»^(١) وإذا خيرهم غير هذا .

هل سألت عن حاكم يحذر نفسه أن يأكل خبزاً فيشيع في مواطن يكثر فيها مَنْ لا عهدَ لهم بِشَيْعٍ، وأنَّ يلبس ثوباً ناعماً وفي أبناء الشعب من يرتدي خشن اللباس، وأن يقتني درهماً وفي الناس فقرٌ وحاجة، ويوصي أبناءه وأنصاره ألا يسيروا مع نفوسهم غير هذه السيرة، ثم يقاضي أخاه لمكان دينارٍ طَلَبَتْهُ من مال الشعب من غير بلاء، ويقاضي أعوانه ومبايعيه وولاته من أجل رَغِيْفٍ يأكلونه في رشوةٍ من غني ؟ فيتهدد ويتوعد ويبعث إلى أحد ولاته بأنه يُقْسَمُ بالله صادقاً : إنَّ هو خان من مال الشعب شيئاً صغيراً أو كبيراً ؛ لِيَشَدَنَّ عليه شِدَّةٌ تَدْعُهُ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَيْلَ الْأَمْرِ .

ويخاطب آخر بهذا القول الموجز الرائع الإيجاز : «بلغني أنك جرَدَتْ

الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت قدميك، فارفع إليّ حسابك»^(١).
 ويتوعد ثالثاً مَن يرتشون ويسعون في الإثراء على حساب
 المستضعفين، يقول : «فأتق الله، واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم
 أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً إلا دخل
 النار»^(٢).

هل عرفت من الخلق أميراً على زمانه ومكانه يطحن لنفسه فياً كل ما
 يطحن خبزاً يابساً يكسره على ركبتيه، ويرقع خقه بيديه، ولا يكتنز من دنياه
 كثيراً أو قليلاً - على ما مر - لأن همته ليس إلا أن يكون للمستضعف والمظلوم
 والفقير يُنصفهم من المستغلين والمحتكرين ويمسك عليهم الحياة وكريم
 العيش ؟ فما يعنيه أن يشبع ويرتوي وينام هائثاً وفي الأرض : «من لا طمع له
 في القرص»^(٣) وفيها «بطون غرني وأكباد حزي»^(٤) قائلاً - ويا لشرف القول - :
 «أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاراة الدهر؟»^(٥) ولأن أقل ما في
 هذه الدنيا شأناً هو خيرٌ عنده من ولاية الناس إن لم يُقم حقاً ويُزهق باطلاً!
 هل عرفت، في موطن العدالة، عظيماً ما كان إلا على حق ولو تألب عليه
 الخلق في أقاليم الأرض جميعاً ؟ وما كان عدوه إلا على باطل ولو ملأ السهل
 والجبل ؛ لأن العدالة فيه ليست مذهباً مكتسباً وإن أصبحت في نهجه مذهباً
 فيما بعد، وليست خطةً أوضحتها سياسة الدولة وإن كان هذا الجانب من
 مفاهيمها لديه، وليست طريقاً يسلكها عن عمدٍ فتوصله من أهل المجتمع إلى

(١) نهج البلاغة، الكتاب : ٤٠ - ٢.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٤١ - ١١.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ - ١٢.

(٤) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ - ١٣.

(٥) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ - ١٤.

مكان الصدارة وإن هو سلكها فأوصلته الى قلوب الطيبين، بل لأنها في بنيانه الأخلاقي والأدبي أصل يتحد بأصول، وطبع لا يمكنه أن يجوز ذاته فيخرج عليها، حتى لكأن هذه العدالة مادة رُكِّب منها بُنيانه الجسماني نفسه في جملة ما رُكِّب منه، فإذا هي دم في دمه وروح في روحه .

هل عرفت في موطن الخصومات عظيم حاربه ذوو المنافع وفيهم نفر من ذوي قرباه، وقاتلوه ؟ فخذلت المفاهيم الإنسانية المنتصرين عليه لأنه انتصار للحيلة والمساومة والائتمار، وكسب الدنيا بسيف ظالم غاشم . ورفعت المنكسر لأن انكساره ؛ في ضوء العقل والقلب، يتضمن جوهر الشهادة في سبيل كرامة الإنسان وحقوقه وما يتوق إليه من بلوغه العدالة والمساواة . وهكذا كان نصرهم هزيمة، وانكساره انتصاراً عظيماً لقيمة الإنسان .

هل سألت التاريخ عن محارب شجاع فائق الشجاعة، يبلغ به حبه لصفة الإنسان في مقاتليه، ويبلغ عطفه عليهم أن يوصي أصحابه، وهو المصلح الصالح الكريم المغدور به، فيقول : «لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى؟!»^(١) ثم تجليه عن الماء عشرات الألوف المؤلفة من طالبي دمه على غير حق، ويبلغونه أنهم سيمنعون عنه الماء الجاري حتى يموت عطشاً . فيزلزلهم عن الماء ويحتله . ثم يدعوهم إلى هذا الماء أسوةً بنفسه وبصحبته وبالطير الشارب ولا زاجر له، ثم يقول : «ما المجاهد الشهيد في سبيل الله بأعظم أجراً ممن قدر فعف : لكاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة»^(٢) حتى إذا هو طالته اليد الآثمة

(١) نهج البلاغة : الكتاب ١٤ - ٢.

(٢) قصاص الحكم : ٤٧٤.

فقضت عليه ؛ قال لصحبه بشأن قاتله : «لأن تَعَفُوا أَقْرَبَ إِلَى التَّقْوَى !»^(١).

محارب شجاع تتصل في قلبه أسباب الشجاعة الغربية والفروسية النادرة، بأسباب العطف والحنان العجيبين، فيعاتب المتربصين به، وله القدرة على أن يضربَ فيصرع . وهو لا يعاتبهم إلا منفرداً، أعزل، حاسر الرأس، وهم مدججون بالسلاح، لا يكاد يبدو لهم وجهٌ إلا من خلاله ؛ ثم يذكرهم بالإخاء الإنساني وبالمودات ؛ ثم يبكي لهم إذا هم حثوا السير في هذه الطريق . حتى إذا أبوا إلا دمه وهو سيف المستضعف والمحروم، صبر لهم حتى يبدأوه القتال، ثم راح يُزلزلهم زلزلةً ويقصفهم قصفاً ويعصف بمطامعهم كما تعصف الرياح السافيات برمال الصحراء فتذروها بدداً بدداً . وهو لا يصرع منهم إلا الطاغية الباغية الذي تبين فيه العدا والقصد للشر، ثم إذا هو ظفرَ ؛ بكى قتلاهم وهم في الواقع قتلى الأنانية والأثرة، تأتيهم من المطمع السقيم والهوى المنحرف !

هل عرفت من الخلق أميراً توافرت لديه أسباب السلطان والثروة كما لم تتوافر لسواه، فإذا هو منها جميعاً في شقاء وحسرة دائمين ؟ وقد توافرت لديه محاسن الحسب الشريف فقال: «لا حسب كالتواضع»^(٢) . وأحبه محبوه فقال : «من أحبني فليستعد للفقير جلباباً»^(٣) . وغالوا في حبه فقال : «هلك في محب غال»^(٤) بعد أن خاطب نفسه يقول : «اللهم اغفر لنا ما لا يعلمون !»^(٥) فآلهوه، فعاقبهم أشد عقاب، وكرهه آخرون فوقف منهم موقف الناصح لإخوانه في

(١) ﴿وَأَنْ تَعَفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ البقرة : ٢٢٧.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١١٣ - ٣.

(٣) في نهج البلاغة : من أحبنا أهل البيت ؛ فليستعد للفقير جلباباً، قصار الحكم : ١١٢.

(٤) في نهج البلاغة : هلك في رجالان : محب غال، ومبغض قال . قصار الحكم : ٤٦٩ و ١١٧.

(٥) في نهج البلاغة : واغفر لنا ما لا يعلمون، قصار الحكم : ١٠٠.

الخلق . وسبّوه فاستاء صحبه وأجابوهم بالسباب فقال لهم : «أكره لكم أن تكونوا سبّابين»^(١) وخاصموه وأسأؤوا إليه وما حفظوا له غيبةً ثم خرجوا عليه، فكان يقول : «عاتب أخاك بالإحسان إليه وارده بالإنعام عليه»^(٢) . و «لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان»^(٣) . وأغروه بمسايرة بعض الآثمين، ولو إلى حين، حفاظاً على سلطانه، فقال : «صديقك من نهاك وعدوك من أغراك»^(٤) ثم أردف : «آثر الصدق حيث يضربك على الكذب حيث ينفعك»^(٥) . وحاربته من أسدى إليهم معروفه، فخطب نفسه يقول : «لا يُزهدنك بالمعروف من لا يشكر لك»^(٦) . وتحدّثوا لديه عن نعيم الأرض فنظر إلى المتحدث قائلًا : «كفى بحسن الخلق نعيمًا»^(٧) . ثم عادوا يُغرونه بالنصر أن يأتيه على أسلوب الحاكمين، فقال : «ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشر مغلوب»^(٨) . وعلم من سيئات أخصامه ما لا يعرفه سواه، فغض عنها طرفه وسلا خاطره وهو يردّد : «أشرف أعمال الكريم عَفْلَتُهُ عَمَّا يعلم»^(٩) . وأعان أعداؤه والجهلة من أنصاره الدهر عليه بما يُدخل التشاؤم بالناس في كلّ قلب، فإذا به ما يزال يقول : «لا تظنن بكلمة خرجت من أحدٍ سوءاً

(١) نهج البلاغة، الخطبة : ٢٠٦ - ٢ .

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٥٨ .

(٣) نهج البلاغة : ولا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان . الكتاب : ٣١ - ١٠٥ .

(٤) غرر الحكم : ٥٨٥٧ .

(٥) غرر الحكم رقم ٢٣٥٣ : إلزم الصدق وإن خفت ضره فإنه خير لك من الكذب المرجو نفعه .

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٠٤ .

(٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٩ .

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٧ .

(٩) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٢ .

وأنت تجدُ لها في الخير مُخْتَلًا»^(١) .

هل عرفت إماماً لدينٍ يوصي وُلاته بمثل هذا القول في الناس : «فإنهم إما أخٌ لك في الدين أو نظيرُك في الخلق . أعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؟!»^(٢) هل عرفت صاحب سلطان تمرد على سلطانه لإقامة الحق في الشعب، وصاحب ثروة أنكر منها إلا القرص الذي يُمسك عليه الحياة، وما الحياةُ لديه إلا نفع إخوانه في الخلق ؟ أما الدنيا فلتغتر سواه .

ثم، هل سألت تاريخ هذا الشرق عن نهجٍ للبلاغة آخذٍ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتصل بالذوق الفني الرفيع، ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر ؛ مترابطٍ بآياته متساق ؛ متفجرٍ بالحس المشبوب والإدراك البعيد ؛ متدفقٍ بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع ؛ متآلفٍ يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبيرُ بالمدلول، أو الشكل بالمعنى، اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء ؛ فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموج ، والريح إذ تطوف، أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة التي لا تُفترق بين عناصرها إلا لتمحو وجودها وتجعلها إلى غير كُون ؟

بيانٌ هو من مشاركة الحس السمعي للعقل ؛ بحيث يحول لك المعاني إلى أنغام هي في حد ذاتها المعاني الكاملة كما تشاء الطبيعة الحية وتريد . وهو من مشاركة الحس النظري للعقل ؛ بحيث يحول لك المعاني إلى لوحاتٍ فنية لها خطوطها وأشكالها وألوانها، فإذا بك من ذلك في عالمٍ زاخرٍ بروائع الفن

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٦٠ .

(٢) نهج البلاغة، الكتاب : ٩٠ - ٥٢ .

تتمازج به صورٌ وموسيقى، وأنغامٌ وألوان !
 بيانٌ لو نطقَ بالتقريع لانقضَّ على لسان العاصفة انقضاضاً ، ولو هدد
 الفسادَ والمفسدين لتفجَّرَ براكينَ لها أضواءٌ وأصوات ، ولو انبسط في
 منطقي لَخاطَبَ العقولَ والمشاعر ، فأقفل كلَّ باب على كلِّ حجةٍ غير ما ينبسط
 فيه ، ولو دعا إلى تأملٍ لرافق فيك منشأ الحس وأصل التفكير فساقك إلى ما
 يريده سَوْقاً ، وَوَصَلَكَ بالكون وضلاً ، ووحد فيك القوى للاكتشاف توحيداً ؛
 وهو لو راعاك لأدركتَ حنان الأب ومنطق الأبوة وصدق الوفاء الإنساني ،
 وحرارة المحبة التي تبدأ ولا تنتهي .

أما إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجماليات الخلق وكمالات الكون
 فإنما يكتب على قلبك بمدادٍ من نور النجوم ، بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة ،
 وتنزيلٌ من التنزيل ، بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون ،
 حتى قال أحدهم في صاحبه : إن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام
 المخلوق !

هل عرفتَ عقلاً كهذا العقل ، وعلماً كهذا العلم ، وبلاغةً كهذه البلاغة ،
 وشجاعةً كهذه الشجاعة تكتمل من الحنان بما لا يعرف حدوداً حتى ليبهرك (١)
 هذا القدر من الحنان كما يبهرك ذلك القدر من المزايا التي تلتقي جميعاً وتتحد
 في رجلٍ من أبناء آدم وحواء ؟ فإذا هو العالم المفكّر الأديب الإداري الحاكم
 القائد الذي يترك الناس والحكّام وذوي المطامع والجيوش يتأمرون عليه ،
 ليُقبل عليك فيهزّ فيك مشاعرَ الإنسان الذي له عواطف وأفكار ، فيهمس في
 قلبك هذه النجوى الرائعة بما فيها من حرارة العاطفة الكريمة قائلاً : «فَقَدْ

(١) يبهرك : يدهشك ويحيرك . أنظر تاج العروس : ٦٢/٣ ، مادة «بهر» .

الأحبة غربة»^(١) و «لا تشمت بالمصائب»^(٢) و «ليكن دنؤك من الناس ليناً ورحمة»^(٣) و «واعفُ عمن ظلمك وأعطِ مَنْ حرمك، وصلِ مَنْ قطعك، ولا تبغض من أبغضك!»^(٤).

هل عرفتَ من الخلق عظيماً يلتقي مع المفكرين بسمو فكرهم، ومع الخيرين بحبهم العميق للخير، ومع العلماء بعلمهم، ومع الباحثين بتنقيبهم، ومع ذوي المودة بموداتهم، ومع الزهاد بزهدهم، ومع المصلحين بإصلاحهم، ومع المتألمين بآلامهم، ومع المظلومين بمشاعرهم وتمردهم، ومع الأدباء بأدبهم، ومع الأبطال ببطولاتهم، ومع الشهداء بشهادتهم، ومع كل إنسانية بما يشرفها ويرفع من شأنها؟ ثم إنَّ له في كل ذلك فضل القول الناتج عن العمل، والتضحية المتصلة بالتضحية، والسابقة في الزمان.

هل عرفتَ عظيماً يهون لديك أمر غالبيه ونصر المنتصرين عليه؛ لأنَّ أيامهم إنما هي من الأيام التي عبَّت^(٥) بالمتناقضات، واصطبغت بالغرائب حتى أصبح فيها شمال الحياة يمينها وتحتها فوقها وأرضها سماءها؟!

وسواءً لدى الحقيقة والتاريخ أعرفتَ هذا العظيم أم لم تعرفه؛ فالتاريخ والحقيقة يشهدان أنه الضمير العملاق، الشهيد أبو الشهداء علي بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية وشخصية الشرق الخالدة.

وماذا عليك يا دنيا لو حشدتِ قواك، فأعطيتِ في كل زمنٍ علياً بعقله وقلبه ولسانه وذو فقاره؟!

(١) قصار الحكم للشريف الرضي، رقم ٦٥.

(٢) في نهج البلاغة جاء في وصف المتقين: ولا يشمت بالمصائب. الخطبة: ١٩٣ - ٢٥.

(٣) في نهج البلاغة: ودنؤه متن دنا منه رحمة. الخطبة: ١٩٣ - ٢٧.

(٤) في نهج البلاغة في وصف المتقين: يعفو عمن ظلمه ويُعطي مَنْ حرمه، ويصل مَنْ قطعه.

الخطبة: ١٩٣ - ٢٢.

(٥) عبَّت: زحرت، ضاقت، امتلأت. المنجد: ٤٨٧، مادة «عبت».

من الجذور العلوية

- ويلبثان معاً يشهدان الشمس تسبح في صفاء السماء، حتى إذا
استوت في مكانها من الفضاء اللانهائي العجيب؛ لبثت قليلاً ثم
راحت تهوي إلى جانب من الكون مجهول .
كانت عبقرية عليّ تتفتح فيه - وهو صبي - شعوراً عميقاً طاغياً
بنصرة الخير، وتضحيات أشبه بصنع المعجزات !

النبي وأبو طالب

وكأنَّ قوَّةَ الكونِ أرادتَ لهما أنْ يستيقظا معاً في وحدة الطبيعة
وامتثال النجوم، على روعة الخلق وفتنة الوجود وعلى جمال
الأزل والأبد يجتمعان في كواكب السماء وشفوف الأثير^(١)
وحركة الأرض، وصَخَبَ الحياة !

إذا نظرنا من الأمور إلى بواطنها دون ظواهرها، وإلى معانيها دون
أشكالها، وإلى استمرار حقيقتها بالإجمال لا إلى تأريخ جزئياتها بالتفصيل ،
تبيّنَ لنا أن قضية عليّ بن أبي طالب هي قضية محمد بن عبد الله . وأن موقف
علي وأنصاره من معاوية وجماعته هو موقف الرسول والمسلمين الأوّل من
أبي سفيان وأبي جهل ومَن وراءهما من العصاة القرشية، مع فارقٍ واحد هو
أن الرسول استطاع أن يقهر عصاة التجار والمستبدين والمستغلّين وبائعي
الدنيا برتبةٍ وبدولةٍ من قریش، فيما اختلف الظرفُ وحساب الأقدار بالنسبة
لعليّ بن أبي طالب فلم يقهر عصاة التجار والمستبدين والمستغلّين وبائعي
الدنيا برتبةٍ وبدولةٍ من الأسرة الأموية .

ولكن، إذا فات عليّاً أن يحكم في رقاب الناس كبني أمية، وما كانت
رسالته في مثل هذا الحكم، فما فاتهُ أن يحكم في قلوب الطيّبين من الناس .
وله من صفات الإنسان الأمثل ما يجعله جديراً بالسلطان على القلوب .

(١) شفوف الأثير : شَفَ : رَقَّ فظهر ما وراءه . غريب الحديث: ٨١٦/٢

وقبل أن أبدأ الكلام على علي بن أبي طالب ؛ لابد من أن ألقى نظرة عجلى إلى الوراء، لاستجلاء الرابطة العميقة التي تشد علياً وذويه إلى محمد بن عبد الله، سواء في الحوادث الجزئية التي تحمل تاريخاً وأرقاماً، أو في الأجواء الروحية والأدبية التي تهيأت في بيت واحد، واجتمعت في هذا وذاك من أهل البيت، وكان الرسول التعبير الأمثل والأكمل عن هذه الأجواء، وكذلك كان ابن أبي طالب .

* * *

حين حُرم الرسول من حذب الأب وحنان الأم ؛ كفله جده - وجد علي - عبد المطلب الهاشمي . وكان جده يحبه ويفديه بنفسه . وكثيراً ما حدث جلساءه وهو ينظر إلى حفيده، بأنه سيكون لهذا الطفل شأنٌ عظيم . وقد رفعه جده، مع صغر سنه، وأقعه في مجلسه العام، دون أعمامه، في ظلال الكعبة . ولما توفي جده، كفله عمه أبو طالب - والد علي - فاستمر الغلام يحيا في جو الحنان والدعة، وحسن التربية الذي خلفه الأب الراحل لابن المقيم .

أما كيف كفله أبو طالب بعد أبيه وهو أشد إخوته عوزاً وأكثرهم بنين ؛ فلأن أباه عبد المطلب حين احتضر للموت ؛ دعا أبا طالب وخصّه دون سائر أبنائه بشرف هذه الكفالة وهذه الرعاية . وقصة هذا الاختيار مقبولة ومعقولة ؟

فبعد المطلب يعرف أبنائه واحداً واحداً ويدرك من حقيقتهم ما بدا وما خفي . وهو ما اختار أبا طالب إلا استثناساً بما يعرف من أمره وما يدرك . فإن الحنان والعطف وإن كان لأكثر ولد عبد المطلب منهما نصيب، لم يبلغا في قلوبهم من القوة والبعد ما بلغا في قلب أبي طالب . وأثر الحنان والعطف في حُسن الكفالة والرعاية أظهر من أثر المال . لذلك كله اختار أبا طالب أبوه

لرعاية محمد . أُضِيفَ إلى هذا أن أبا طالب كان يضمّر من العطف على ابن أخيه ما يدفعه دفْعاً إلى رعايته وإن لم يكلفه ذلك أبوه . فكيف إذا اجتمع هذا العطف وهذا التكليف ؟

ومتّ لا مرأ^(١) فيه أن أبا طالب صاحب شخصية جميلة ومحبّبة . شخصية جميلة تطالعنا بحكمة الشيخ الطيّب، والأمين المجزّب الذي يضع كل ما أوتي من طيبة وأمانة وتجربة موضع العمل والتنفيذ في كلّ حال . وهذه الصفات التي يستجليها^(٢) شيئاً فشيئاً كلّ من اطّلع على سيرة هذا الشيخ الجليل، هي التي أدركها القرشيون من أهل الجاهلية ساعة قالوا فيه : «قُلْ أن يسود فقيرٌ وساد أبو طالب»^(٣) .

وفي هذا القول إشارة صريحة إلى نظر أهل مكّة قبل الإسلام إلى شؤون السيادة، وكيف أنها لا تُصَرَّف إلا على أيدي الأغنياء . وفيه كذلك إشارة صريحة إلى عظمة خُلُق أبي طالب التي هيأت له بالرغم من فقره إلى أن يسود ويعلو رأيه آراء الأثرياء .

واستمرت الأخلاق الخيرة - التي يتميّز بها بيت عبد المطلب - تتركز في نفسيّة محمد وتبدو في تصرّفاتِه . حتى لكأنّ الله لمّا اختار رسوله من بني عبد المطلب اختار لتنشئته هذا العمّ الكريم . وكأنّ قوة الوجود الشاملة هيأت لأبي طالب أن يعلم من أمر ابن أخيه ما لا يعلمه سواه . فإذا هو يخرج بالصبيّ في يوم قحط وجدب، ويطلب إليه برفق ولين أن يلصق ظهره بالكعبة . فإذا الصبيّ يفعل ما طلب إليه عمّه، ويلوذ بإصبعه نحو السماء وما في السماء آنذاك

(١) لا مرأ : لا شك، لا لبس . لسان العرب : ٢٧٧/١٥ ، مادة «مرا» .

(٢) يستجليها : يستوضحها . كتاب العين : ١٨٠/٦ ، مادة «جلو» .

(٣) شرح نهج البلاغة : ٢٩ / ١ .

غيمةٌ أو قَرَعَة^(١) من غيم . فإذا بالسحاب يُقبل من هنا ومن هنا، فيهطل المطر، فيخصب الوادي وتحيا الأرض . فلما سُئل أبو طالب عن هذا الصبي قال : هو محمد ابن أخي وفيه أقول :

وأبيضٌ يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمةٌ للأرامل^(٢)
ومهما يكن من شأن هذه الرواية، فهي رمزٌ إلى مقدارٍ عظيم من التحاب، وتعاطي الخير بين الصبي وعمه .

ويستمر أبو طالب في شرف خدمة هذا الصبي . ويبادله الحنان والمودة والعطف . ويرافقه دائماً فلا ينام إلا إلى جنبه ويخرج فيخرج معه . وكثيراً ما تهطل عيناه بالدمع ساعة ينظر إليه مشفقاً قائلاً : إذا رأيته ذكرتُ أخي أباه^(٣) .

ويتهتأ أبو طالب للرحيل إلى الشام في ركبٍ للتجارة . فحين يعزم على المسير ينظر إليه محمد ويقول : «يا عم، إلى من تكلني لأب لي ولأُم!»^(٤) فيرق له أبو طالب ويردّفه خلفه ويقول : «والله لأخرجنّ به معي لا يفارقني ولا أفارقه أبداً»^(٥) .

وهكذا يأبى أبو طالب إلا أن يكون محمدٌ رفيقَ سفره إلى الشام وهو ما يزال في حدود الرابعة عشرة أو ما يقلّ . فيمزان بمَدين ووادي القرى وديار ثمود . ويقفان من بلاد الشام عند جنائن الأرض . ويلبثان معاً يشهدان الطبيعة الحية والصامته . يشهدان الشمس تسبحُ في صفاء السماء ويُشرق وجهها فوق

(١) قَرَعَة : القطعة من السحاب . الصحاح : ١٢٦٤/٣، مادة «قرع» .

(٢) أعلام النبوة للماوردي : ٨٧، وشرح ابن أبي الحديد : ٣١٦ / ٣ .

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد : ٦٤ / ١٤ .

(٤) بحار الأنوار : ٤٠٨ / ١٥ .

(٥) المصدر السابق .

ما ترامى من الأرض وأطرافها، حتى إذا استوث في مكانها من الفضاء اللانهائي العجيب؛ لبثت قليلاً ثم راحت تهوي إلى جانب من الكون مجهول! وحتى إذا لملت آخر شعاعاتها وغاصت وراء تخوم الأرض؛ أقبل الليل يمتد ويسود ويلبس كل شيء من نفسه ظلاماً لا يُزهِيه إلا وميض لتين من نجوم السماء.

فإذا ما بنفس أبي طالب من معاني الطبيعة يشف^(١) في نفس محمد، فإذا هي جزء من ذاته يتكون وينمو تحت نظرة العمّ المحب. وإذا كل ما في الطبيعة من موحيات الكتابة والحزن، والفرحة والغبطة، والبساطة والعمق، يتجاوب في كيان محمد ويمثل فيه روحاً إنسانياً ومعاني كونية.

أجل، كأنّ قوة الوجود الشاملة أرادت لهما أن يستيقظا معاً في وحدة الطبيعة وامتنال النجوم، على روعة الخلق وفتنة الوجود. وعلى جمال الأزل والأبد يجتمعان في كواكب السماء، وشفوف الأثير، وحركة الأرض، وصخب الحياة.

وهذا هو الراهب بُحيرا، أو جرجس على الأصل، يستضيف ركباً من قریش فيهم أبو طالب وابن أخيه، في صومعة يسكنها على طريق الشام، ولا يسكنها إلا من تناهى إليه علم النصرانية، فيغذي ما في نفس أبي طالب من ابن أخيه وهو يلحظه لحظاً شديداً ويهش^(٢) له ويبش^(٣)، إذ يُنبئه بأنّ هذا الصبي سيكون له في العالم شأنٌ عظيم. فينظر أبو طالب إلى الصغير نظرة الحب والإعجاب، وبعطف الأب على أعزّ بنيه. ويتحرك في نفسه الشعور بموجبات

(١) يشف: شفيفاً، أي رقّ حتى يُرى، أي يرق. كتاب العين: ٢٢١/٦، مادة «شف».

(٢) يهش: يتسم، ويخف للمعروف ويرتاح له. النهاية في غريب الحديث: ٢٦٤/٥، مادة «هش».

(٣) يبش: يقبل عليه ويفرح به. كان طليق الوجه. مجمع البحرين: ٢٠٣/١، مادة «بش».

الاستمرار على الخير الذي يربط محمداً بعمته ويجعله سرّ بيته .
وراح أبو طالب يسمع أهل مكة ينعتون محمداً بالأمين، وهو داعم
العين خافق القلب، إعجاباً وغبطة !

ولمّا طلبت خديجة من محمد أن يقترن بها - بعد أن ردت طلب
أشراف قريش من ذوي الجاه والمال - لم يجد أمامه غير عمّه أبي طالب، نجته
في المكرمات، ليعقد في روحه وعلى لسانه، رباطه المقدس مع هذ السيدة
الفاضلة .

ولمّا كان أبو طالب أوّل من لمّس السمّ في أخلاق محمد، فقد لبى
نداءه للحال وأدرك أنّ محمداً لم ينطق في هذا المقام إلّا بما يريد هـو في
أعماق نفسه وما يرتثيه .

وبعد أن هبط الوحي على محمد في غار حراء، كان أوّل من صلّى معه
زوجته خديجة وعلي بن أبي طالب . وكانا أوّل الناس إيماناً بالنبي . فلمّا بلغ
ذلك أبا طالب ؛ قال لولده عليّ : أي بني ! ما هذا الذي أنت عليه ؟ فقال عليّ :
يا أبت ! آمنتُ برسول الله وصدقتُ ما جاء به وصليتُ معه واتّبعته، فقال أبو
طالب : يا بني ! إنه لم يدعك إلّا إلى خير، فالزمه !

ولمّا أمر النبي المسلمين الأوّل أن يهاجروا إلى الحبشة تخلصاً من
قريش ؛ كان جعفر بن أبي طالب على رأس المهاجرين، وكان أشدهم حبّاً
لابن عمّه الذي ربّيه وإياه في كنف أبيه .

وكان أبو طالب أوّل من قال شعراً في الإسلام يفيض بالحبّ لمحمد
ويدعو إلى نصرته . وكان يكثرُ عليه كلّ عملٍ أو قول فيه بعض الأذى
لابن أخيه .

ودمعت عينا أبي طالب، يوم أبلغه القرشيتون التجار أنهم عازمون على قتله

وقتل محمد إلم يُخلّ محمد الطريق التي يسلك . دمعت عينا أبي طالب لا خوفاً على حياته وحياة بنيه وابن أخيه ؛ بل إعجاباً بموقف محمد ساعة بلغه النبأ .

وخلاصة الخبر: أن قريشاً لما ائتمروا بمحمد وأرادوا قتله مشوا إلى عمه أبي طالب وطلبوا إليه أن يسلمهم محمداً فأبى . ومضى في دعوته ومضت قريش في ائتمارها . ثم ذهبوا إلى أبي طالب ثانية وثالثة وقالوا له : يا أبا طالب ! إن لك سنأً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

وبلغ محمداً ما كان من أمر هؤلاء، فأطرق إطراقةً وقف إزاءها تاريخُ الوجود كله مبهوراً لا يدري بعدها ما اتجأه ! أيسير التاريخ في طريقه هذه أم يتغير وجهه ؟ ففي الكلمة الواحدة التي تنطق بها شفتا هذا الرجل حُكمٌ على سير التاريخ . والتفت الرجل العظيم إلى عمه وهو ممتلئ بقوة إرادته ومضاء عزيمته وصدق دعوته وإخلاصه لما وقَّف له نفسه وحياته، لينطق بهذه الكلمات الخالدات التي تُجثم نفسية أصحاب الرسالات : «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته!»^(١) وبكى أبو طالب إعجاباً وحباً عظيماً، وكان وحده آنذاك الشاهد على اتجاهٍ جديد سوف يتجه التاريخ على يد ابن أخيه .

ولم يكن هذا الحب العميق الذي يلف محمداً في بيت عمه أبي طالب ليأتيه من جانبٍ واحد وحشِب، بل كان كل من في البيت يضمّر لمحمد

(١) تاريخ الطبري : ٢ / ٦٧ .

العطف والحنان والبرّ، ولا سيّما فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب ووالدة عليّ . فقد كانت هذه المرأة الفاضلة تحذب على محمد حذب الأمّ على ابنها بشهادة النبيّ نفسه الذي كان يكرمها ويعظّمها ويدعوها : أُمّي ! وكان يردّد أبداً هذا القول : «لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبزّي منها!»^(١) .

ولعلّ هذا الاحترام الذي كان محمد يضمّره ويبيديه لزوجته عمّه أبي طالب، وإنزاله إياها منزلة الأمّ، ثم شعوره بالفرق العظيم بينها وبين معظم النساء القرشيات يومذاك، أمثال حمّالة الخطب ؛ أمورٌ تجمّعت في نفسه ودفعته إلى أن يسمّي أحبّ بناته إلى نفسه باسمها، وأعني بها السيدة فاطمة زوجة عليّ وأمّ الحسن والحسين .

وقال أبو طالب مرّةً لوفد قريش الذي جاء يطلب إليه تسليم محمد للعصابة القرشية : «فوالله لا نُسلمته ولا نترك نصرته حتى نفنى عن آخرنا.»^(٢) .

ولم ينسَ أبو طالب دقيقةً واحدةً في حياته أن محمداً إنّما هو استمرار عبقرية الخلق التي يتميز بها بصورة عفوية هو وأخوه عبد الله وأبوهما عبد المطلب . فلما حضرته الوفاة ؛ جمع إليه قوماً كثيراً وقال لهم : «إني أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به . وكأنني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف والمستضعفين بين الناس قد أجابوا دعوته وصدّقوا كلمته وعظّموا أمره ؛ فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش أذناً بضعفاؤهم أرباباً . وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم عنه أحظاهم عنده، يا معشر قريش ! كونوا له وُلاةً

(١) أسد الغابة : ٢١٧ / ٧ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٦٦ / ١ .

ولحزبه حُماة . والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ولا يأخذ برأيه أحد إلا سعد . ولو كان لنفسي مدّة ولأجلّي تأخير ؛ لدفعْتُ عنه الدواهي . إن محمداً هو الصادق الأمين فأجيبوا دعوته واجتمعوا على نصرته وراموا عدوّه من وراء حوزته فإنه الشرف الباقي لكم على الدهر !»^(١) .

توفي أبو طالب بعد أن كفل النبي وصانه وقاوم قريشاً في سبيله، ووقف في وجهها مدافعاً عن دعوته، زهاء اثنين وأربعين عاماً بليّلهما ونهارها .

ولما توفي أبو طالب شعر النبي بأنه فقد أعظم ركن يستند إليه ويدفع عنه أذى قريش . وما كان هذا الشعور إلا تدليلاً على تجاذب أسباب الخير بين محمد وعمّه : رب البيت الذي نشأ فيه وسما خلقه ! وإذا كان من أسباب هذا الشعور بخسارة أبي طالب أن محمداً فقد به نصيراً يفديه بدمه ويدفع عنه الأذى، وملجأ حصيناً ضدّ قريش والمستبدين الغلاة من بنيها حتى أنه قال : « ما نالني من قومي سوء حتى مات عمّي أبو طالب »^(٢) ، فما تعليل هذا الحزن العميق الذي غزا قلب محمد بموت عمّه ؟ وما علّة هذه الكآبة، وما كان محمد إلا صبوراً حازماً واثقاً بنصر رسالته مهما كثر العدو وقلّ الصديق، ومهما كان من شأن الأخيار والأشرار ؟ أجل ما علّة هذه الكآبة إن لم تكن الكارثة التي حلّت بمحمد هي كارثة الإنسان بأعزّ من يعطف عليه ويحميه ؟ وما تكون هذه الدموع الغزار ؛ إن لم تكن شاهداً على أن النبي - كرجل - أحسّ بأنه فقد شيئاً من ذاته، من حاضره وماضيه ؟

(١) سيرة العلامة الحلبي : ١ / ٣٧٥ ط مصر .

(٢) سيرة ابن هشام : ١ / ٤١٦ .

النبي وعلي بن أبي طالب

كنا ننظر إلى علي في أيام النبي كما ننظر إلى
النجم. (١)

عمر بن الخطاب

وفي البيت الطالبّي الواحد تنمو الروح الواحدة بالصدق والصفاء، ووحدة
النظر إلى الكون والحياة . وتستمرّ على أصولٍ أعمق وفروع أكثر في علاقة
النبي مع ربيّه الطفل، ثم الصبي، ثم الشاب، ابن عمّه العظيم علي بن
أبي طالب .

ونحن إذا نظرنا إلى ميلاد المعاني الإنسانية في قلب وروح ، رأينا أن
علي بن أبي طالب إنما وُلدَ مؤمناً بالرسالة الخيرة ونصيراً لها . فإن خصائص
البيت الطالبّي الذي ربي فيه محمد انتقلت بصورة طبيعية إلى ابن عمه ساعة
ميلاده .

ونما خلق عليّ على شمائل بيت أبيه أبي طالب، ذاك الذي أصغت
جدرانه لأوّل عبارة من محمد، وخرجت منه الدعوة الإسلامية إلى الوجود .
فإن علياً ماكاد يبلغ الرابعة من عمره حتى ضمّه محمد إليه وآخاه . وقد أشار
عليّ إلى تعهّد محمد إياه، بخطبته التي تسمّى بالقاصعة وفيها يقول :
«وقد تعلمون موضعي من رسول الله ﷺ، بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ٢٠، الحكيم المنسوبة، رقم ٧٣٣، وفيه: الحديث منسوب إلى الإمام
علي عليه السلام يقول:.... ينظر إلى الناس كما ينظر إلى الكواكب في أفق السماء.

وضعني في حجره وأنا وليدٌ يضمّني إلى صدره، ويكنفني فراشه ويُمسّني جسده ويُسَمّي عرقه^(١). وما وجد لي كذبةً في قول ولا خطلةً في فعل. وكنت أتبعه أتباع الفصيل إثر أمّه، يرفع لي في كلّ يومٍ من أخلاقه علماً ويأمرني بالافتدَاء به^(٢).

وهذا هو أوّل الزمن الذي يتأهل الغلام فيه لتلقّي بذور الأخلاق الفاضلة. ولطالما جاور عليّ محمداً في خلواته، وسار على نهجه في الانقطاع عن القرشيين المتردّين في ليلٍ من جهالتهم وجمودهم على ما هم عليه من عاداتٍ وأخلاق. ولطالما عاش في ذلك الجوّ الزكي إلى جوار ابن عمّه وهو أثيرٌ لديه حبيب على قلبه. وإن مثل هذا الجوار وهذا الإخاء لم يظفر به واحد - غير علي - من أصحاب الرسول وتلاميذه.

لقد فتح علي بن أبي طالب عينيه على الطريق التي رسمها ابن عمّه. وعرف العبادة أوّل ما عرفها من صلاته. ونعمَ بعطفه وحنانه وإخائه. فإذا هو من محمد ما كان محمداً من أبي طالب!

وخفق قلب عليّ أوّل ما خفق بحبّ ابن عمّه. ونطق لسانه أوّل ما نطق بما لقّنه إياه من رائع القول. واكتملت رجولته أوّل ما اكتملت لمؤازرة النبي المضطهد، وإذا كان النبي يحبّه أنصاره، ويحترمه أعداؤه؛ فهل يكون ربيبه وتلميذه وأخوه عليّ إلّا شيئاً من كيانه، شيئاً عظيماً من كيانه عظيم.

وإذا أسلم بعض الوجوه من قريش منذ أوّل الدعوة احتكاماً للعقل وتخلّصاً من الوثنية؛ وإذا أسلم كثير من العبيد والأرقاء والمضطهدين طلباً للعدالة التي تتدقّق بها رسالة محمد، واستنكاراً للجور الذي يلهب ظهورهم بسياطه؛ وإذا أسلم قومٌ بعد انتصار النبي؛ امتثالاً للواقع وترلفاً للمنتصر، كما

(١) عرقه: راحته. كتاب العين: ١٢٢/٢، مادة «عرق».

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ - ١١٩.

هي الحال بالنسبة لأكثر الأمويين ؛ إذا أسلم هؤلاء جميعاً في ظروف متفاوت من حيث قيمتها ومعانيها الإنسانية، وتتحد في خضوعها للمنطق أو للواقع الراهن ؛ فإنّ عليّ بن أبي طالب قد ولد مسلماً ؛ لأنه من معدن الرسول مولداً ونشأةً، ومن ذاته خلقاً وفطرة . ثم إن الظرف الذي أُعلن فيه عمّا يكمن في كيانه من روح الإسلام ومن حقيقته، لم يكن شيئاً من ظروف الآخرين . ولم يرتبط بموجبات العمر . لأنّ إسلام عليّ كان أعمق من ضرورة الارتباط بالظروف، إذ كان جارياً من روحه كما تجري الأشياء من معادنها والمياه من ينابيعها .

لقد كان أوّل سجود المسلمين الأوّل، لآلهة قريش .

وكان أوّل سجود عليّ لإله محمد .

ألا إنه إسلام الرجل الذي أُتيح له أن ينشأ على حبّ الخير وينمو في رعاية النبي ويصبح إمام العادلين من بعده، وربّان السفينة في غمرة العواصف والأمواج .

هذا أخِي

قال النبي لعلّي :
إِنَّ فِيكَ لَشَبْتاً مِنْ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ (١)

ولاستجلاء هذه الوقائع بأرقامها لا بدّ من ذكر بعض الأحاديث التي تؤيدها وتضمن وجودها، وتخبّرنا إلى أيّ مدى كان التّأخي الروحي بين النبي وابن عمّه العظيم . كما تخبّرنا إلى أيّ مدى كان عليّ وارثاً لمزايا الرسول، مصطبغاً بصبغته، أثيراً لديه، حبيباً إليه، عظيماً في جنانه وعلى لسانه . ويمكننا بعد ذلك أن نستنتج أن الرسول إنّما كان يمهد لعلّي سبيل الخلافة ضمن الحدود التي تشترطها ثورة الإسلام والتي يتمّ بها سلطانه وانتشاره . يمهد لعلّي سبيل الخلافة لأنه رأى فيه صورةً عنه من حيث سموّ الخلق ونبل المقصد وسائر المكارم التي سيجري عليها القول بالتفصيل .

حدّث الطبراني عن ابن مسعود أن النبي قال : «النظر إلى وجه عليّ عبادة» (٢) .

(١) يأتي تخريج الحديث في الصفحة ٧٣ هامش رقم ٥ .
(٢) تاريخ دمشق، ترجمة الإمام علي (عليه السلام)، رقم الحديث : ٨٨٧ ، اللآلئ المصنوعة للسيوطي : ١ / ١٧٧ ، مناقب ابن المغازلي، رقم الحديث ٢٥٢ . مناقب الخوارزمي : ٢٥٢ . ذخائر العقبى : ٥٩ . الرياض النضرة : ٢ / ٢١٩ . المستدرک للحاكم النيسابوري : ٢ / ١٤١ . ميزان الاعتدال للذهبي : ٤ / ٢٨٣ - ٤٠١ . حلية الأولياء

وحدث بعضهم عن سعد بن أبي وقاص قال، قال النبي : «من آذى علياً فقد آذاني»^(١).

وذكر اليعقوبي في الجزء الثاني من تاريخه أن النبي خرج ليلاً بعد رجوعه من حجة الوداع منصرفاً إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له «غدير خم» لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة . وقام خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال : «من كنت مولاه فعليّ مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٢) . وجاء في التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي : أن عمر بن الخطاب لقي عليّاً بعد ذلك فقال له : «هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»^(٣).

وهذا الحديث أخرجه كثير من المؤرخين، ومن العلماء أمثال : الترمذي والنسائي والإمام أحمد بن حنبل، كما رواه ستة عشر صحابياً . وقد ذكره عدد من الشعراء أولهم حسان بن ثابت الأنصاري، قال :

→ لأبي نعيم : ٥٨ / ٥ و ١٨٢ / ٢ . الصواعق المحرقة : ٧٤ . الإصابة : ١٨٣ / ٨ . كنز العمال : ١٥٢ / ٦ . تاريخ بغداد : ٥١ / ٢ .

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٣ / ٤٨٣ طبعة الميمنية بمصر . منتخب ذيل المذيل للطبري : ١٠٨ / ٣ طبعة مصر . المستدرك للحاكم : ٢ / ١٢٢ طبعة حيدرآباد . مناقب الخوارزمي : ٩٢ . تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي : ٤٩ طبعة كربلاء . تلخيص المستدرك للذهبي، المطبوع بذييل المستدرك : ٢ / ١٢٢ . تاريخ الإسلام للذهبي : ٢ / ١٩٦ . البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ٣٤٦ طبعة حيدرآباد، مجمع الزوائد للهيثمي : ٩ / ١٢٩ ط القاهرة .

(٢) هذا الحديث من أشهر الأحاديث المتواترة عن رسول الله (ﷺ) وقد أفردته جمع كثير بالتأليف، منهم : محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ، والحافظ بن عقدة، والدارقطني، والذهبي، والحاكم النيسابوري، والحافظ الحسكاني، وقد بلغت طرق هذا الحديث أكثر من ألف وثلاثمائة أسناد، ورواه العشرات من الصحابة والتابعين والحفاظ، فقد رواه أحمد بن حنبل في مسنده : ٤ / ٣٧٠ والنسائي في الخصائص الحديث ٨٧، والطبراني في المعجم الكبير والأوسط، وابن كثير في البداية والنهاية : ٧ / ٣٦٦، والترمذي في صحيحه : ٥ / ٥٩٠ حديث ٣٧١٣.

وللمزيد تراجع موسوعة الغدير للعلامة الأميني، إحقاق الحق للتستري.

(٣) راجع المصادر السابقة.

يناديهم يومَ الغديرِ نبيّهم بخمّ وأسمع بالنبّي مناديا
وقال فمن مولاكم ووليتكم فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت نبيّتنا وما لك منا بالوصاية عاصيا
فقال له قم يا عليّ فإنني رضيّتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنتَ مولاه فهذا وليّهُ فكونوا له أنصارَ صدقٍ مواليا^(١)

ومن الشعراء الذين ذكروا ذلك اليوم : أبو تمام الطائي . ومن الذين أسهبوا في وصفه الكميت الأسدي في قصيدة عينية يقول فيها :

ويوم الدّوح دوحٍ غديرِ خمٍّ أبانَ له الولايةَ لو أطيعا
ولم أرَ مثل ذلك اليوم يوماً ولم أرَ مثله حقاً أضيّعاً^(٢)

ومن كتاب الآل لابن خالويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله لعلي بن أبي طالب : «حبك إيمان، وبغضك نفاق . وأوّل من يدخل الجنة محبّك، وأوّل من يدخل النار مبغضك».^(٣)

ولا يختلف الرواة والمحدّثون في أن النبي طالما ردّد هذه العبارة وهو ينظر إلى علي : «هذا أخي!»^(٤).

وقال النبي مرّة لعليّ : «إن فيك لشيهاً من عيسى بن مريم!»^(٥) و«لا

(١) مناقب علي بن أبي طالب للخوارزمي : ٨٠ ، والشيخ الصدوق في أماليه : ٣٤٣ ، فقد حذفت هذه الأبيات من ديوانه الموجود حالياً .

(٢) الهاشميات : ٣٠ طبعة ليدن .

(٣) الفصول المهمة لابن الصّبّاح المالكي : ١٠٩ نقلاً عن كتاب الآل لابن خالويه .

(٤) سيرة ابن هشام : ١ / ٥٠٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٣ / ٢٢٦ ، ينابيع المودة للقندوزي : ٥٧ نقلاً عن ابن المغازلي ، أسد الغابة لابن الأثير : ٣ / ٣١٧ .

(٥) مسند أحمد بن حنبل : ١ / ٢٥٨ حديث : ١٣٧٩ دار إحياء التراث ١٩٩١ بيروت ، البخاري في التاريخ الكبير ج ٢ رقم الحديث ٢٥٧ ، الحاكم في المستدرک : ٣ / ١٢٣ ، مجمع الزوائد : ٩ / ١٣٣ ، شواهد التنزيل :

يُبغضك إلا منافقاً!»^(١).

وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله وهو في محفل من أصحابه : «إن تنظروا إلى آدم في علمه ، ونوح في همّه ، وإبراهيم في خلقه ، وموسى في مناجاته ، وعيسى في سنّه ، ومحمد في هديه وعلمه ؛ فانظروا إلى هذا المقبل !» فتناول الناس بأعناقهم فإذا هو عليّ بن أبي طالب^(٢).

وبالإسناد عن زيد بن أرقم : قال رسول الله : «ألا أدلكم على ما إن تساءلتم عليه لم تهلكوا ؟ إن وليكم الله وإن إمامكم عليّ بن أبي طالب فناصره وصدّقه»^(٣). وقال الرسول ، وقد شكّا إليه بعض أصحابه شأنًا من شؤون علي : «ما تريدون من عليّ ؟ ما تريدون من عليّ ؟ ما تريدون من عليّ ؟ عليّ مني وأنا منه وهو وليّ كل مؤمن بعدي»^(٤).

وبعث الرسول عليًّا إلى اليمن ؛ فسأله جماعة من أتباعه أن يُركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم . فأبى عليّ . فشكّوه إلى الرسول بعد رجعتهم . وتولّى شكايتهم سعد بن مالك الشهيد ، فقال : يا رسول الله ! لقد لقينا من عليّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق ... ومضى يعدّد ما لقيه . حتى إذا كان في وسط كلامه

→ ١٤٩ ، أبو يعلى في المسند : ٣٧ ، المناقب لابن المغازلي : ٧١ حديث ١٠٤ ، المناقب للنسائي : ١٠٥ حديث ٩٨ .

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٨٤ / ١ ، و٩٥ ، صحيح مسلم : ٦٠ / ١ ، سنن ابن ماجه : ١ / ٥٥ طبعة مصر ، صحيح الترمذي : ٥ / ٥٩٠ حديث ٣٧١٧ ، خصائص النسائي : ٢٧ ، حلية الأولياء لأبي نعيم : ٤ / ١٨٥ ، سنن البيهقي : ٢ / ٢٧١ .

(٢) شواهد التنزيل للحسكاني ج ١ ص ١٠٦ رقم الحديث ١٤٧ ، مناقب ابن المغازلي ص ٢١٢ حديث ٢٥٦ . البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٥٦ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٢ ص ٤٤٩ طبعة مصر ، قال : رواه أحمد والبيهقي .

(٣) المسترشد في الإمامة لمحمد بن جرير بن رستم الطبري : ٦٣٢ .

(٤) مسند أبي داود : ١١١ حديث ٨٢٩ ، صحيح الترمذي : ٥ / ٥٩٠ حديث ٣٧١٢ ، خصائص النسائي : ٢٦ ، مستدرک الحاكم : ٣ / ١١٠ ، حلية الأولياء لأبي نعيم : ٤ / ٢٩٤ ، أسد الغابة لابن الأثير : ٤ / ٢٧ .

ضرب النبي على فخذه وهتف به : «يا سعد بن مالك الشهيد ! بعض قولك لأخيك عليّ ؟ فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله .»^(١)

ويروى أن قريشاً أصابتها أزمة وقحط ؛ فقال محمدٌ لعتميه حمزة والعبّاس : ألا نحمل ثقلَ أبي طالب في هذا المحل ؟ فجاءوا إليه فسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم فقال : دعوا لي عقيلًا وخذوا من شئتم . فأخذ العبّاسُ طالباً ، وأخذ حمزة جعفرًا ، وأخذ محمدٌ علياً وقال لهم : قد اخترتُ ما اختاره الله لي عليكم^(٢) ، قالوا : فكان عليّ في حجر الرسول منذ كان عمره ست سنين ، وكان ما يُسدي إليه من إحسانه وشفقته وبرّه وحُسن تربيته كالمكافأة والمعاضدة لصنيع أبي طالب به حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره .

من هذه الأحاديث ، ومن غيرها ، يثبت أمرٌ واحدٌ لا يقوم حوله جدل ، وهو : أن النبي كان يشعر بنوع من الإخاء لعلي بن أبي طالب ، وإن علياً كان ممتلئاً بهذا الإخاء . ثم إن النبي كان يوجّه الأنظار إلى العظمة الإنسانية التي تتمثل في شخصية عليّ ، وإلى أنه خير من يستطيع أن يتم شروط الرسالة من بعده .

ومن الروايات الثابتة ، ما يلقي نوراً ساطعاً على هذه الإرادة الكونية التي شاءت أن يكون عليّ شيئاً من ذات الرسول . وقد هيأت هذه الإرادة ظروفًا ومناسباتٍ برزت فيها خصائص ما كان لأحد أن يشارك بها علياً .

فها إن علياً ولد في الكعبة التي أصبحت قبلة أشواق المسلمين ، وكان مولده فيها بعد أن أصبحت الدعوة الإسلامية شيئاً موجوداً بذات محمد ؛ وإن لم يكن قد أفصح عنها بعد . وكان موثله بيت أبي طالب أبيه ، بيت محمد .

(١) عبقرية الإمام عليّ، المقداد : ١٠٧ ، البداية والنهاية : ٧ / ٢٨٢ .

(٢) تاريخ الطبري «ذكر الخبر في ابتداء النبوة» .

وكان عليّ أول من نظرت عيناه إلى النبي وزوجته خديجة وهما يصلّيان . ثم إنه كان أول المسلمين وهو لم يبلغ مبلغ الشباب . ولما عوتب على إسلامه دون مشورة أبيه أبي طالب، أجاب على الفور : «لقد خلقتني الله من غير أن يشاور أبا طالب . فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله!»^(١).

وظل الإسلام زمناً وهو محصورٌ في بيت محمد : فيه وفي زوجته وابن عمّه ومولاه زيد بن حارثة .

ويوم دعا النبي عشيرته الأقربين إلى طعام في بيته، وشاء أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الإسلام، قطع عمّه أبو لهب حديثه واستنفر الآخرين لينهضوا ويغادروه . ثم دعاهم محمد في الغداة كزّة أخرى، فلما طعموا قال لهم : «ما أعلمُ إنساناً في العرب جاء قومَه بأفضل مما جئْتكم به، فأَيْكم يؤازرنِي على هذا الأمر؟»^(٢) فأعرضوا عنه وهمّوا بمغادرة بيته كما فعلوا في المرّة الأولى . فما كان من عليّ إلّا أن نهض، وهو ما يزال صبيّاً دون الحلم، وقال : «أنا يا رسول الله عونُك، أنا حربٌ على من حاربْت!»^(٣) فضحك بنو هاشم وقهقه بعضهم، وجعلوا يتنقلون بأنظارهم من أبي طالب إلى ابنه الغلام، ثم انصرفوا مستهزئين .

وكان لواء عليّ مع النبي في كل قتال وكل زحف . وما كانت فروسيته التي توجز معاني الشهامة فيه، وما كان دمه وقلبه ولسانه إلّا وقفاً على ابن عمّه النبي، وعلى إنجاح الرسالة النبوية . فقد فعل في أعداء محمد الأفاعيل ضمن شروط الفروسية الشريفة . وثبت كالجبل الراسخ أمام صناديد قريش يوم بلغ الفرع من أنصار النبي، وزلزلت قلوبهم وقعة الخندق، فأنكشفت عنه خيرة

(١) حياة محمد - لمحمد حسين هيكل : ١٠٢، باب إسلام علي بن أبي طالب .

(٢) تفسير الطبري، سورة الشعراء : الآية ٢١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة : ١ / ٢٤، بحار الأنوار : ٩٢ / ٤٠.

صحبه . فكانت من عليّ البادرة التي أعادت إلى المسلمين الثقة بالنصر، وآذنت بهزيمة قريش وأبطالها .

وأكبرُ بجهد عليّ يوم فُتحت على يده حصون خيبر القوية وفيها من المقاتلين الأشداء ! كل من يُرعب ويخيف لطول ممارستهم للحرب والقتال . وخلاصة ذلك أن حصار المسلمين لحصون خيبر كان قد طال . وأهل هذه الحصون يستمتتون في الدفاع عنها إيماناً منهم بأن هزيمتهم أمام محمد هي القضاء العاجل على مؤامرات بني إسرائيل في جزيرة العرب، وعلى تجارتهم وزعاماتهم . فبعث الرسول أبا بكر الصديق إلى الحصن كي يفتحه . فقاتل قتال البطل المؤمن بصالح القتال . ولكنه رجع دون أن يفتح الحصن . فبعث الرسول عمر بن الخطاب في الغداة . فكان حظه كحظ أبي بكر أمام الحصن المنيع والمقاتلين الأشداء . فدعا الرسول إليه عليّ بن أبي طالب وأمره بأن يمضي ويفتح الحصن . فمضى عليّ إليه وهو محتلى غبطة بهذه الخدمة الجديدة للعقيدة التي تحيا في دمه . فلما دنا من الحصن وأدرك أهله أن خصمهم إنما هو علي بن أبي طالب الذي لم ينهزم في قتال ولم يثبت له مقاتلون ؛ خرجوا إليه جماعات فضربه رجلٌ منهم فطرحه تُرسه من يده فتناول عليّ باباً ضخماً وجعله في يده كالترس . فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الحصن المنيع . ولم يسقط هذا الحصن إلا بعد أن قتل أكثر فرسانه وفي طليعتهم قائدهم الحارث بن أبي زينب .

ثم إن هنالك لأمراً عجباً !

لقد عرف التاريخ أبطالاً يحاربون في سبيل عقيدةٍ وإن كانوا يؤثرون السلم على الحرب ويفضّلون أن تجري الأمور في مجاريها الطبيعية دون ما

يضطّروهم مكرهين إلى القتال .

وعرف التاريخ أبطالاً استشهدوا في سبيل غاية شريفة وهدف نبيل . ولكن مثل هذه البطولة وهذا الاستشهاد، لا يكونان في ساعتها عملاً بطيئاً من شأنه أن يثير في الخيال صور الموت ومأساة انتظاره ؛ بل يجريان في غمرة من الحماسة الطاغية . وقد يكونان في رعاية الجماعات وتحت الأنظار والقلوب .

أما علي بن أبي طالب، فما كان أعجب أمره يوم غامر في سبيل عقيدته التي هي عقيدة محمد بن عبد الله ! وفي سبيل الحق ورعاية الشرف والإخاء، هذه المغامرة التي لم يعرف التاريخ أجلاً منها، وأقوى وأروع، وأدلّ على وحدة الذات بين عظيمٍ وعظيم .

فعندما اشتدت مساءات قريش وسعى القوم جاذين إلى الإجهاز على الإسلام بقتل الرسول، ذهب محمد إلى بيت أبي بكر الصديق وأخبره بأنه عازم على الهجرة لأنّ قريشاً قد ائتمرت به وتنوي قتله . فطلب الصديق أن يصحبه في هجرته فأجابه إلى ما طلب .

ولما اعتزم الرجلان مغادرة مكة، كانا على يقين لا يطاله أدنى شك في أن قريشاً ستتبعهما. لذلك رأى محمد، بما أوتي من عبقرية في إدراك الأمور، أن يسلك في هجرته طرقاً مألوفة لدى القرشيين، وفي موعدٍ كذلك غير مألوف .

وفي الليلة ذاتها التي اعتزم محمد أن يهجر مكة فيها، أعدت قريش عصابةً كبيرة من الرجال الأشداء لقتله، وأوفدتهم لكي يحاصروا داره مخافة أن يستتر بالظلام ويفرّ من أيديهم .

غير أن محمداً كان في ليلة الهجرة هذه قد أسرَّ إلى ابن عمه علي بن أبي طالب أن يتسجى بُرده الأخضر، وأن ينام في فراشه . وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي الدائع التي كانت عنده للناس .

وامتثل عليّ لأمر محمد والغبطة تملأ نفسه، كما هي حاله أبداً أمام كل تضحية يقوم بها في سبيل الرسول .

وأحاط هؤلاء الرجال من قريش بدار محمد . وأوثقوا حولها الحصار حتى ليستحيل على الهواء أن يخرج منها دون أن يمرّ بسيفهم المُشرعة . ثم جعلوا يوصوصون من فرجةٍ إلى فراش النبي فيرون في الفراش رجلاً فتطمئنّ خواطرهم إلى أن محمداً لم يفرّ .

ولمّا كان الثلث الأخير من الليل، وكانت عيون هؤلاء ما تزال ترى رجلاً راقداً في فراشه، كان النبي في دار أبي بكر ليخرج وإياه من خوخة في ظهرها وينطلقا إلى غار ثُور حيث لحق بهما رجالٌ من قريش منع الله عنهم إدراك الرجلين الكبيرين .

لقد كان عليّ بمغامرته هذه استمراراً لمحمد . وكانت تضحيته من روح المقاومة التي عُرف بها ابن عمه العظيم . وكان مبيتة في فراش النبي تزكية للدعوة وحافزاً على الجهاد الطويل . ثم إن في هذه المغامرة ما يوجز الحقيقة عن الإمام وطباعه ومزاجه، فإذا هي صادرة عنه كما تصدر الأشياء عن معانها دون تكلفٍ ودون إجهاد . ففيها نموّه الذهني المبكر الذي جعله يدرك حقيقة الدعوة التي يدقّ فهمها فهماً صحيحاً على من كان في مثل سته . وفيها زهده بالحياة إذا لم تكن عُمرّاً لمكارم الأخلاق . وفيها صدقه المرّ وإخلاصه العجيب . وفيها عدله بين نفسه وبين سواه من أهل الجهاد، وما يتوخاه بذلك

من نصرة للمظلومين والمستضعفين، إذا قُتل هو ونجحت الرسالة على يدي صاحب الهجرة . وفيها مواجهته للأمور بسماحة وبساطة لا يعرف معهما إلى الكلفة سيلاً . وفيها المروءة والوفاء والطيبة والشجاعة وسائر صفات الفروسية التي يمثلها عليّ بن أبي طالب ، بل هي شيء من استشهاده المقبل . وتستمر صلات المودة والإخاء بين محمد وعلي . ويستمر بينهما تعاطي الخير على إنجاح الرسالة، هذا التعاطي الذي يتماسك في أعماقه ويتحد منذ أن عرف محمدُ أبا طالب، ومنذ أن عرف عليّ محمدًا، ومنذ أن اجتمع الثلاثة في بيت واحد، قام على مزايا الشهامة . وما كانت خصائص البيت الطالبية إلا حافزاً لأبي طالب وابنه عليّ على فهم عبقرية محمد فهماً يتمثل لدى الأول شعوراً وتضحية، ولدى الثاني فكراً جباراً وشعوراً عميقاً شاملاً وتضحيةً أشبه بصنع المعجزات .

ويدرك الرسول هذه الحقيقة، ويحبّ علياً هذا الحب الذي يأخذ مصدره من حبه للرسالة ذاتها . ثم إنه لا يكتفي بأن يحبّه وحده، فنراه يحبّه إلى الناس في كلّ ظرف وكلّ مناسبة ليمهد له سبيل الخلافة في زمن يأتي، شرط أن يدرك الناس قيمة عليّ بوصفه استمراراً للرسول فينتخبوه اختياراً وحبّاً وثقةً، لا لكونه ابن البيت الهاشمي وابن عم النبي، فإن النبي قد اتقى هذه العصبية، بل إنه حاربها جاهداً وحطم مفاهيمها تحطيماً . وكان من جملة أعماله أنه أقصى معظم الهاشميين - وهم آل - عن الولاية والعمالة وحظوظ الدنيا بعد أن حرم نفسه هذه الحظوظ .

صفة الإمام

قال واصفو عليّ بن أبي طالب - وفيهم صاحب ذخائر العقبي - إنه كان وهو في تمام الرجولة، ربعة القامة أميل إلى القصر . أسمر شديد السمرة، أبيض اللحية طويلها . أدعج العينين في سعة . حسن الوجه واضح البشاشة كثير التبسم، أغيد كأنما عنقه إبريق فضة . عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السبع الضاري، لا تبين عضده من ساعده بل أدمجا إدماجاً . شثن الكفين، أبجر يميل إلى السمنة في غير إفراط . ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها . ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها . يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبي . ويُقدّم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء .

ثم إنه كان من القوة الجسدية على ما يدهش العقول، فربما رفع الفارس بيده فجَلَدَ به الأرض غير جاهدٍ ولا حافلٍ، كأنه يرفع طفلاً وليداً . وربما أمسك بذراع البطل فكأنه أمسك بِنَفْسِهِ فلا يستطيع أن يتنفس . واشتهر عنه أنه لم يبارز فارساً إلا صرعه مهما كانت قواه بالغة ومهما كان شأنه عظيماً . وقد يحمل الباب الضخم الذي يعيا الأبطال بقلبه أو تحريكه فيأخذه بيدٍ واحدة، ويتترس به كأنه ترس عادي، وقد يزحزح بيدٍ واحدة الصخر الضخم، لا يزحزحه رجالٌ مجتمعون .

ثم إنه قد يصيح الصيحة في ميدان القتال فتخلع لها قلوب الشجعان أفراداً وجماعات، وكان له من مكانة التركيب صلابة على الطوارئ الجوية فلا يبالي ألبس ثياب الشتاء في الصيف أو ثياب الصيف في الشتاء !

الخلق العظيم

- شكّا أحدُ الناس عليّ بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب في خصومة، وكان عمر أميراً للمؤمنين . فأحضرهما وقال لعليّ ؛ قف يا أبا الحسن بجانب خصمك ! فبدا التأثر على وجه عليّ . فقال له عمر : أكرِهْتَ يا عليّ أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال عليّ : لا يا أمير المؤمنين ! ولكني رأيْتُك لم تسوُ بيني وبينه، إذ عظمتني بالتكنية ولم تكنه .^(١)

- خرج عليّ وهو راكبٌ فمشى معه قومٌ فقال : ألكم حاجة ؟ قالوا : لا . قال : انصرفوا، فإنّ مشيَ المشاي مع الراكب مفسدةٌ للراكب ومذلةٌ للمشاي .^(٢)

من الصعب والمصطنع تجزئة الصفات والطباع والأخلاق في الكائن الحي ولا سيما العظيم . فهي متماسكة متفاعلة يكمل بعضها بعضاً ؛ ويكون هذا منها سبباً في ذاك أو نتيجةً لذلك، أو مرادفاً لأحدهما أو لِكِلَيْهِما في العلة والنتيجة . لذلك لا تستهدف محاولتي التجزيئية هذه إلا عملاً ينقسم في النظرية ويتحد في التطبيق . وفي مثل هذه التجزئة النظرية ما يسمح لي بالاستنتاج والتعليل ؛ على أن يجري هذا الاستنتاج من طبيعة الأشياء جرياً عفويّاً بديهياً . كل ذلك في تلميح وإيجاز . وغايتنا أن نحيط بشخصية الإمام عليّ من نواحيها جميعاً، فتكون معرفتنا لطباعه وأخلاقه إطاراً يدور فيه بحثنا

(١) مناقب الخوارزمي حديث ٩٩، فرائد السمطين : ١ / ٦٦، نزهة المجالس : ٢ / ١٧١، قال : أخرجه الزمخشري في ربيع الأبرار .

(٢) مشكاة الأنوار : ٣٦٤، بحار الأنوار : ٤١ / ٥٥، و ٧٣ / ٢٩٩، و ٩٦ / ١٠٤، ومثله في وقعة صفين : ٥٣٢ .

فيما بعد . ولنبدأ بالكلام عن عبادة الإمام ومعناها .

اشتهر علي بن أبي طالب بتقواه التي كانت علة الكثير من تصرفاته مع نفسه وذويه والناس . وإني لأرى أن تقوى علي ليست شيئاً من العبودية المفروضة بحكم الظرف والهوى على أنماطٍ من الأتقياء . ففيما ترى العبادة لدى معظم هؤلاء رجع أصداء الضعف في نفوسهم أحياناً، ومعنى من معاني التهرب من مواجهة الحياة والأحياء أحياناً أخرى، وهوساً موروثاً ثم مدعوماً بهوس جديد مصدره تقديسُ الناس والمجتمع لكل موروثٍ في أكثر الأحيان، تراها عند الإمام أخذاً من كل قوةٍ ووضلاً لأطراف الحلقة الخلقية التي تشد وتتمد حتى تجمع الأرض والسماء، ومعنى من معاني الجهاد في سبيل ما يربط الأحياء بكل خير . وهي على كل حال شيء من روح التمرد على الفساد يريد محاربته من كل صوب ؛ ثم على النفاق وروح الاستغلال والافتتال من أجل المنافع الخاصة من هذا الجانب، وعلى المذلة والفقر والمسكنة والضعف من الجانب الآخر . ثم على سائر الصفات التي تميز بها عصره المضطرب القلق . وهي شيء كثير من روح الشهادة في سبيل ما يراه عدلاً . أو لم تكن تقواه من مقتضيات هذه العلامة للإيمان التي يتحدث عنها بقوله : «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفك»^(١) ؟ ثم، ألم يقض شهيد هذا الصدق وكانت منافع زمانه في غير الصدق ؟ بل زد على ذلك وقل : ألم يحي شهيد هذا الصدق، إذا صحت مقاييس الشهادة على الأحياء ؟ ثم، إن من تبصر في عبادة الإمام تبين له أن علياً متمرد في عبادته وتقواه كما هو متمرد في أسلوبه في السياسة والحكم . ففي عبادته افتتان الشاعر يقف في

(١) نهج البلاغة ٤٥٨، الدكتور : صبحي الصالح ط ١ سنة الطبع ١٤١٥ هـ دار الأسوة للطباعة والنشر .

هيكّل الوجود الرحب صافي النفس ممتلئ القلب، حتى إذا انكشفت له جمالات هذا الكون تجاوبت وما في كيانه من أصداء وأظلال وموازنين، فأطلق هذه الآية الرائعة التي نرى فيها دستوراً كاملاً لتقوى الأحرار وعبادة عظماء النفوس : «إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار . وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد . وإن قوماً عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار!»^(١).

إن عبادة الإمام ليست شيئاً من سلبية الخائف الهارب أو التاجر الراغب كما هي الحال عند الكثيرين من المتعبددين . بل هي شيء من إيجابية الإنسان العظيم، الواعي نفسه والكون، على أساس من خبرة المجرب وعقل الحكيم وقلب الشاعر .

وبهذا المفهوم للتقوى والعبادة كان عليّ يوجه الناس إلى أن يتقوا الله في سبيل الخير الإنساني العام، أو قلّ في سبيل أمرٍ أجلّ من رغبة تجار العبادات في نعيم الآخرة . كان يوجههم إلى التقوى لعلّ فيها ما يحملهم على أن يعدلوا وينصفوا المظلوم من الظالم، فيقول : «عليكم بتقوى الله ... وبالعدل على الصديق والعدو»^(٢) . ولا خير في التقوى، في نظر الإمام، إلّا إذا دفعتك إلى أن تعترف بالحق قبل أن تُشهد عليه، «وَأَلَّا تَحِيفَ عَلَى مَنْ يَبْغُضُ وَلَا تَأْتِمَ فِي مَنْ تَحِبُّ»^(٣) وألّا تخدع أحداً وأن تعفو عمن أساء إليك .

* * *

ومن كان معنى العبادة في نفسه هذا المعنى ؛ لا بدّ أن ينظر إلى الحياة كما

(١) قصار الحكم ٢٢٧ . نهج البلاغة ٢٣٧، ط ١ سنة الطبع ١٤١٥ هـ الدكتور : صبحي الصالح .

(٢) نهج البلاغة : ٧ / ٤٧٤، مستدرک سفينة البحار : ١٠ / ٣٤٩، بحار الأنوار : ٧٤ / ٢٣٦ .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ - ٢٤، وفيه : لا يحيف على من يبغض، ولا يأتّم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه .

نظر إليها علي بن أبي طالب، فهي لا تُبتغى لمتاع ولا ترجى للذة عابرة، بل لما يمكنها أن تحتوي من أصدقاء تتجاوب مع النفس الشاملة . لذلك زهد علي في الدنيا وتقصّف . وكان صادقاً في زهده كما كان صادقاً في كلّ ما نتج عن يمينه أو بدّر من قلبه ولسانه . زهد في لذة الدنيا وسبب الدولة وعلّة السلطان، وكلّ ما يطمح لبلوغه الآخرون ويرون أنه مرتكز وجودهم . فإذا هو يسكن مع أولاده في بيت متواضع تأوي إليه الخلافة لا الملك . وإذا هو يأكل الشعير تطحنه امرأته بيديها فيما كان عمّاله يعيشون على أطايب الشام وخيرات مصر ونعيم العراق، وما يمكن للحجاز أنّ يقدم . وكثيراً ما كان يأبى على زوجته أن تطحن له فيطحن لنفسه وهو أمير المؤمنين، ويأكل من الخبز اليابس الذي يكسره على ركبته . وكان إذا أرعده البرد واشتدّ عليه الصقيع ؛ لا يتخذ له عدّة من دثار يقيه أذى البرد . بل يكتفي بما رقّ من لباس الصيف إغراقاً منه في صوفية الروح .

روى هارون بن عنترة عن أبيه قال : دخلتُ على عليّ بالخورنق، وهو فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة هو يرعد فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين ! إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل ذلك بنفسك ؟ فقال : والله ما أرزؤكم شيئاً، وما هي إلّا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة .^(١)

وسمّع عليّ يقول على المنبر : «مَنْ يشتري مني سيفي هذا، فلو كان عندي ثمن إزار ما بعته»^(٢) . فقام إليه رجلٌ فقال : أسلفك ثمن إزار.

(١) تاريخ دمشق : ٤٢ / ٤٧٧.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل : ١ / ٥٣٧، حلية الأولياء : ١ / ٨٣ مناقب الخوارزمي الحديث رقم :

وخرج عليّ إلى السوق يقول: «من عنده قميص بثلاثة دراهم؟» فقال رجل :
عندي . فجاء به فأعجبه، فأعطاه ثم لبسه وقال : «الحمد لله الذي هذا من
رياشه!»^(١) .

وأتى أحدهم علياً بطعام نفيسٍ حلو يقال له الفالودج، فلم يأكله عليّ ونظر
إليه يقول : «والله إنك لطيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسي
ما لم تعتد»^(٢) .

وظلّ يعيش في بيته عيش الكفاف حتى غدر به ابن ملجم . وإنّ أحداً من
رعاياه لم يمت عن نصيب أقلّ من النصيب الذي مات عنه عليّ وهو خليفة
المسلمين . ولعمري إن صوفية عليّ هذه ليست إلّا معنى ومزاجاً من معاني
فروسيته ومزاجها، وإن بدا للبعض أنهما مختلفان . أو لم تكن فروسية عليّ
في حقيقتها تعبيراً عن شهامةٍ وخلق ؟ وجهاداً في سبيل فكرة سامية وإنسانية
تتجه به إلى نصرّة المضطهدين والمستضعفين وإلى انتزاعهم من بين الأنياب
الضارية ؟ وهي إذا كانت كذلك - وهي كذلك - أفلا تأبى عليه أن ينعم في بلد
يكثر فيه الأشقياء والتعساء ؟

وقد روى أحدهم أن علياً أصابه وعائلته الجوع يوماً فلم يجدوا في البيت
شيئاً يأكلونه . فخرج عليّ ليعمل في سبيل كسب القوت وأجر نفسه ليلة يسقي
نخلًا بشيء من شعيرٍ حتى أصبح واستلم الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً
ليأكلوه ويقال له الحريرة . فلما تمّ نضجُه أتى مسكينٌ يرجو طعاماً فأطعموه .

(١) فضائل الصحابة لابن حنبل : ٥٢٨ / ١ وفي المسند : ١٥٧ / ١ ، وفي الفارات : ١٠٤ / ١ ، كنز العمال :

١٨٣ / ١٣ ، مناقب الخوارزمي ، الحديث رقم ١٣٦ .

(٢) فضائل الصحابة لابن حنبل : ٥٣٦ / ١ ، حلية الأولياء : ٨١ / ١ ، الفارات للشافعي : ٨٨ / ١ ، مناقب

الخوارزمي ، الحديث رقم : ١٣١ وفيه : شيء لم يأكل منه رسول الله (ﷺ) لا أحب أن أكل منه .

ثم صنع الثلث الثاني فلما تم نضجه أتى آخر يرجو طعاماً فأطعموه . ثم صنع الثالث فأتى أسيرٌ من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك دون طعام .

وقد حملت هذه السيرة الطيبة عمر بن عبد العزيز - أحد خلفاء الأسرة الأموية التي تكره علياً وتختلق له السيئات وتسبته على المنابر - على أن يقول : «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب»^(١).

والمشهور أن علياً لم يبنِ آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة . وأنه أبى أن يسكن القصر الأبيض الذي كان معداً له بالكوفة لثلاث يرفع سكنه عن سكن أولئك الفقراء الكثيرين الذين يقيمون في خصاصهم البائسة . ومن كلام عليّ هذا القول الذي انبثق عن أسلوبه في العيش انبثاقاً : «أقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر؟»^(٢) ويروي ابن الأثير أن علياً تزوج فاطمة بنت الرسول وما لهما فراش إلا جلد كبش ينامان عليه بالليل ويعلفان عليه ناضحاً لهما بالنهار . فلما صار خليفة قدم عليه مالٌ من أصفهان فقسمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيماً فقسمه على سبعة . وكان عليّ يقول : «أفضل الزهد إخفاء الزهد»^(٣).

* * *

ويمثل عليّ بن أبي طالب الفروسية بأروع معانيها وبكل ما تنطوي عليه من ألوان الشهامة . والإباء والترفع أصلان من أصول روح الفروسية . فهما

(١) تاريخ دمشق : ٣ / ٢٥٢، الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٠١، مناقب الخوارزمي الحديث رقم ١٢٨.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٤٥ - ١٤، قصار الحكم : ٢٨.

(٣) نهج البلاغة : ٤ / ٧، تحقيق محمّد عبده، خطب الإمام : ٢٨، روضة الواعظين : ٤٢٤.

إذن من طبائع الإمام . لذلك كان بغيضاً لديه أن ينال أحد الناس بالأذى وإن آذاه . وأن يبادر مخلوقاً بالاعتداء ولو على ثقة بأن هذا المخلوق إنما يقصد قتله . وروح الإباء والترفع هذه هي التي ارتفعت به عن مقابلة الأمويين بالسباب يوم جعلوا يرشقونه به . فليس من خلق العظيم أن ينال من ناصبوه العداء بالسباب ولو سبوه . بل انه منع على أصحابه أن ينالوا الأمويين بالشتيمة المقدعة . فهو ما كاد يسمع قوماً من أصحابه هؤلاء يستون أهل الشام أيام حروبهم بصفين، لأنهم سايروا الغدر وماشوا الخديعة حتى قال لهم : «إني أكره لكم أن تكونوا سبائين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به.»^(١)

ومروءة الإمام أندر من أن يكون لها مثيل في التاريخ . وحوادث المروءة في سيرته أكثر من أن تعدّ . منها أنه أبى على جنده - وهم في حالٍ من النعمة والسخط - أن يقتلوا عدوّاً تراجع، وأن يتركوا عدوّاً جريحاً فلا يسعفوه . كما أبى عليهم أن يكشفوا سترّاً أو يأخذوا مالاً . ومنها أنه صلى في وقعة الجمل على القتلى من أعدائه وطلب لهم الغفران . وأنه حين ظفر بالذ أعدائه الذين يتحिनون الفرص للتخلص منه، وهم عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص، عفا عنهم وأحسن إليهم وأبى على أنصاره أن يتعقبوهم بسوء وهم على ذلك قادرون . ومن حوادث المروءة هذه أن علياً ظفر بعمر بن العاص، وهو لا يقلّ خطراً عليه من معاوية بن أبي سفيان، فأعرض عنه

وتركه ينجو بحياته ويستمر في مؤامراته ضده، لأن عمراً هذا رجاء، على أسلوب خاص، أن يعف عنه وقد أصبح ذو الفقار فوق هامته، ولو قضى علي على عمرو آنذاك؛ لكان قضى على المكر والدهاء وجيش معاوية، وفي معركة صفين: حاول معاوية وجماعته أن يمتيتوا علياً عطشاً، فحالوا بينهم وبين الماء وهم يقولون: ولا قطرة حتى تموت عطشاً! ولكن، ما كان من أمره وأمر جيش معاوية بعد ذلك؟ كان أن حمل عليهم الفارس العظيم فأجلاهم عن الماء. ثم أتاح لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده. وهو لو منع عنهم الماء لانتصر عليهم واضطرهم إلى التسليم خشية الموت ظمأً، وعرف مرة أن رجلين من أنصاره ينالان من عائشة في موقعة الجمل التي أدارتها عائشة للقضاء عليه؛ فأمر بجلدهما مائة جلدة.

ثم أقبل على عائشة بعد انتصاره في هذه الموقعة وودعها أكرم وداع، وسار هو نفسه في ركابها أميالاً، ثم أوصى بها وأرسل من يخدمها ويحف بها ويوصلها إلى المدينة مكرمة محترمة. قيل: إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عتمهن بعمائم الرجال وقلدهن السيوف. فلما كانت عائشة ببعض الطريق ذكرت علياً بما لا يجوز أن يُذكر به. وتأقفت وقالت: هتَكَ ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي! فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

* * *

وتتماسك هذه الصفات الكريمة في سلسلة لا تنتهي وبعضها على بعض دليل. ومن أروع حلقاتها الصدق والإخلاص. وقد بلغ به الصدق مبلغاً أضاع به الخلافة وهو لو رضي عن الصدق بديلاً في بعض أحواله؛ لمتا نال منه عدو

ولا انقلب عليه صديق . وقد حدث أن اجتمع عليه مرةً كبار المهاجرين يريدون إقناعه بمسايرة معاوية إلى أن يستتب له الأمر فيقصيه . فخالفهم جميعاً مترفعاً عن الحيلة والمواربة^(١) . وقد جاءه المغيرة بن شعبة بعد مبايعته بالخلافة، وهو من ذوي الحنكة والحيلة وحسن التدبير، فقال له : «إن لك حق الطاعة والنصيحة . وإن الرأي اليوم تحرزُ به ما في غد . وإن الضياع اليوم تضيعُ به ما في غد . أقرِرْ معاوية على عمله، وأقرِرْ ابن عامر على عمله، وأقرِرْ العمال على أعمالهم حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة جنودهم استبدلت أو تركت !»^(٢).

فصمت عليّ غير طويل، ثم أعلن عن إباطه الحيلة قال : «لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري !»^(٣).

ولما ظهرت حيلة معاوية، أطلق الإمام عليّ هذه العبارة التي تصح أن تكون صيغةً للخلق العظيم، قال : «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر؛ لكنْتُ من أدهى الناس.»^(٤).

ومن قوله في التشديد على ضرورة الصدق مهما اختلفت الظروف : «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك !»^(٥).

* * *

والشجاعة في حدودها الصحيحة ليست عملاً جسدياً ؛ بل طبعاً من طباع

(١) المواربة : اللف والدوران والخداع، واستعمال أسلوب التمتع. لسان العرب: ٧٩٦/١، مادة «ورب».

(٢) تاريخ الطبري، أحداث سنة ٣٥هـ : ٣ / ٤٥٩، طبعة بيروت.

(٣) تاريخ الطبري، أحداث سنة ٣٥هـ : ٣ / ٤٦١.

(٤) نهج البلاغة : خطبة ٢٠٠ - ١.

(٥) نهج البلاغة : ٤ / ١٠٥، وفيه : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك.

النفس ومزية من مزايا الإيمان . وشجاعة الإمام هي من الإمام بمنزلة التعبير من الفكرة وبمثابة العمل من الإرادة، لأن محورها الدفاع عن طبع في الحق وإيمان بالخير .

والمشهور أن أحداً من الأبطال لم ينهض له في ميدان . وأن فارساً لم يثبت أمامه على صهوة . فقد كان لجراته على الموت ؛ لايهاب صنديداً بالغاً ما بلغ من القوة والبأس والصولة ورهبة الصيت . بل إن فكرة الموت لم تجل مرة في خاطر الإمام وهو في موقف نزال . وإنه لم يقارع بطلاً إلا بعد أن حاوره لينصحه ويهديه . والمشهور أنه اجتراً، وهو غلام لم يطر شاربه بعد، على عمرو بن عبد و ذ فارس الجزيرة العربية وبطل المشركين المهاب في مواقعهم مع المسلمين . وكان اجتراؤه العجيب على هذا الفارس انتصاراً منه للهداية على الغرور، وعلى الزهو والخيلاء . فلما كانت وقعة الخندق، في مطلع الإسلام ؛ خرج عمرو مقتعاً بالحديد ينادي جيش المسلمين : من يبارز ؟ فهال علياً هذا التحدي وأثار عزمته، فصاح : أنا له ! فقال النبي، وبه إشفاق عليه لحدثة سنة من جهة، ولبأس عمرو من جهة ثانية، وكان عمرو يساوي ألف فارس في نظر أصحابه وأعدائه، قال لعلي : إنه عمرو . اجلس ! وبعد أخذ ورد طويلين، وبعد أن كثر عمرو نداءه مراراً وهو يؤنب المسلمين ؛ أذن النبي لعلي فمشى إليه فرحاً مغتبطاً . فنظر إليه عمرو فاستصغره وأبى أن ينازله . ثم أقبل عليه يسأله من أنت ؟ فقال علي : أنا علي، ولم يزد . قال عمرو : ابن عبد مناف ؟ قال : ابن أبي طالب . فأقبل عمرو عليه يقول : يا ابن أخي من أعمامك من هو أسنّ، وإنني أكره أن أريق دمك . فقال له علي : لكنني والله لا أكره أن أريق دمك . فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف قال

واصفوه : كآته شعله نار . واستقبل عليّ الضربة بدرقته فقدّها السيف وأصاب رأسه . ثم ضربه عليّ على عاتقه فسقط ونهض ، وسقط ونهض ، وثار الغبار ، فما انجلي إلا عن عمرو وهو صريع .

وقد سبق التحدّث عن فصولٍ عن شجاعته النادرة بعد أن اكتملت رجولته ، وكيف أنه كان يخلع أشد الفرسان صولة وأرهبهم جانباً من صهواتهم فيرفعهم بيده في الهواء ويجلد بهم الأرض جلداً ، لا جاهداً ولا متعباً . وفي نهج البلاغة أن معاوية انتبه يوماً فرأى عبد الله بن الزبير جالساً تحت رجله على سريره ، فقعده ، فقال له عبد الله يداعبه :

يا أمير المؤمنين ! لو شئت أن أفتك بك لفعلتُ . فقال : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر ! فقال : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفتُ في الصفّ إزاء عليّ بن أبي طالب ؟ قال : لا جرمَ إنه قَتَلَكَ وأباك ييسرى يديه وبقيتُ اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها .

وإذا عرفنا أن عبد الله بن الزبير من أشد الأبطال بأساً ومن ألد أصحاب الفتنة خصومةً لعليّ ؛ أدركنا مدى ما يصوّره من شجاعة عليّ وبطولته ساعة أراد أن يبالغ في وصف شجاعته هو ، فما رأي أبلغ من أن يصوّر نفسه واقفاً في صفّ من المحاربين إزاء عليّ . وإذا عرفنا كذلك عداء معاوية لعليّ وحرصه الشديد على أن يكتم كل فضيلة من فضائله عملاً بمصلحة ملكه الجديد ، ثم رأيناه يقول هذا القول ، أدركنا من شجاعة عليّ هذا المدى البعيد الذي حمل معاوية قسراً على الاعتراف بما اعترف به .

* * *

وكان علي ، مع قوّته البالغة وشجاعته النادرة ، يتورّع عن البغي أيّا كان

الظرف . فقد أجمع المخبرون والرواة والمؤرخون أن علياً يأنف القتال إلا إذا حُمِّلَ عليه حملاً . فكان يسعى أن يسوي الأمور مع أخصامه ومن يبادره بالعداوة على وجوه سلمية تحقن الدم وتحول دون النزال . وكان يردّد على أسمع ابنه الحسن هذا القول : «لا تدعون إلى مبارزة»^(١).

ولما كان قول الإمام لا يخرج إلا عن معدن صافٍ، فقد طالما عمل بوصيته لابنه الحسن وعفّ عن القتال إلا مكرهاً . من ذلك أن جنود الخوارج لما أخذوا يعدّون العدة ليحاربوه، ونصحه أحدهم بأن يبادرهم قبل أن يبادروه، أجاب قائلاً : «لا أقاتلهم حتى يقاتلوني»^(٢) ورأى أن شهامة الفارس وعقيدة المؤمن بالخير، ووثبة الإنسانية في روحه تقضي عليه بأن يجادلهم لعلهم قانعون . وفيما كان يعظ قوماً فيهم كثيرٌ من الخوارج الذين يكفّرونه، بهرت عِظته بعض هؤلاء الخوارج فصاح، وقد أرغمته بلاغة عليّ وسحر بيانه على الإعجاب والإكبار، قائلاً: قاتله الله كافراً ما أفقّه ! فهم أتباع عليّ بقتله، فصاح بهم يقول : «إنما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب»^(٣).

وقد مرّ بنا ذكر ما كان من شأنه وشأن جنود معاوية ساعة عزم هؤلاء على أن يميّتوه عطشاً . وساعة قابل سيئاتهم بإحسانه، فلم يمنع عنهم ورود الماء بل ساواهم بنفسه وأتباعه . وله مع معاوية وجنوده أخبار لا يتسع لذكرها مجال . وكلّها تشير إلى عبقرية علوية خاصة في التورع عن البغي وفي الأخذ بالحسنى . من ذلك ما رواه أحد مؤرخي سيرة الإمام قال :

واتفق في يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجلٌ يستمى كريس بن

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٢٣٣، عيون الحكم والمواعظ : ٥٢٦، بحار الأنوار : ٢٢ / ٤٥٤.

(٢) المناقب للخوارزمي: ٢٦١.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب : ١ / ٣٨٠، نهج السعادة : ٨ / ٣٧٤، بحار الأنوار : ٢٢ / ٤٣٥.

الصباح الحميري . فصاح بين الصقيين : من يبارز ؟ فخرج إليه رجلٌ من أصحاب عليّ فقتله كريس ووقف عليه ونادى : من يبارز ؟ فخرج إليه آخر، فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبيه . ثم نادى رابعةً : من يبارز ؟ فأحجم الناس جميعاً ورجع من كان في الصف الأول إلى الصف الذي يليه، وخاف عليّ أن يشيع الرعب بين صفوفه، فخرج إلى ذلك الرجل المُدَلِّ بشجاعته وبأسه فصرعه . ثم قال يُسمع الصفوف : يا أيها الناس لو لم تبدأونا ما بدأناكم ! ثم رجع إلى مكانه !

ومن ذلك ما جرى يوم موقعة الجمل . فحين اجتمع عليه أخصامه وساروا بجهدهم إليه، أمر أصحابه أن يصطقوا ففعلوا، فقال لهم : « لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا ! » وكان يأمل بذلك أن يجتنب الحرب ويسوي الأمور سلماً فيحقن الدماء فلا يموت من الناس من يموت قتيلاً، وما هي إلا دقيقة حتى رمى رجلٌ من عسكر القوم بسهم فقتل رجلاً من أصحاب عليّ : « فصاح عليّ : « اللهم ! اشهد » . ثم أصيب رجل آخر فقتل، فقال : « اللهم ! اشهد » . وأصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال عليّ : « اللهم ! اشهد » ^(١) . ثم كانت الحرب .

* * *

وطبيعة التورع عن البغي أصلٌ من أصول نفسية عليّ وخلقٌ من أخلاقه . وهي متصلة اتصالاً وثيقاً بمبدئه العام الذي يقوم بمعرفة العهد وصيانة الذمة والرحمة بالناس، حتى يخونوا كلَّ عهدٍ، ويقسوا دون كل رحمة . ومن أروع صور المودة وآيات الوفاء أن يقف فارس في حومة الحرب وينظر إلى

(١) الجمل للشيخ المفيد : ٣٤٢، تحقيق علي شريفى .

معارفه من منازلِهِ نظرة المؤاخاة الداعية إلى السلم ويذكرهم ما بينه وبينهم من عهد سبق ومودة ترباً بنفسها أن تنقلب أو تخون . يذكرهم ما بينه وبينهم من عهد يريد بذلك أن ينزع من أيديهم السلاح ويحل ما تعقد من الأمور على صورة هي للسلم والصفاء أقرب ؛ فإنه لا يحارب عدوّاً له سابقة مودة به إلا بعد أن يأخذ بتذكيره هذه السابقة ويستعيد على مسامعه ما سلف من عهد الإخاء والصفاء . فلعلّ في الصداقة القديمة ما يحيي ضمير هذا العدو فيكون له رادعاً ^(١) عن العداوة والبغضاء . وما كان لعلّي أن يستنجد الصداقة على العداوة لولا ذلك الفيض العظيم من الوفاء والحنان تزخر به نفسه ويغطي على جنانه . ومن الدلائل القاطعة على عاطفة الوفاء العميقة التي كانت تعمّر قلب الإمام، وعلى دفق المودة في نفسه، أخباره مع عدوّيه الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله اللذين ألّبا عليه أنصاره وضمّاهم، إلى أخصامه واندفعاً بهم جميعاً، وعلى رأسهم عائشة، إلى قتاله .

فمن ذلك ما رواه الثقة من المخبرين عن المشاهدين أنصاراً وأخصاماً، قالوا : إن الزبير وطلحة لما ألّخا في حربه وإنكار بيعته والتجنّي عليه في موقعة الجمل المشهورة ؛ خرج عليّ إليهما حاسراً لا يحتمي بدرع ولا بسلاح، تدليلاً على نوايا السلم التي يُضمّر، ونادى : يا زبير ! اخرج إليّ . فخرج الزبير إليه مدججاً بالسلاح . وسمعت عائشة ذلك فصاحت : واحرباه ! ذلك لأنها لم يخالجها ^(٢) أقلّ شك في أن الزبير لا محالة مقتول . فخصمُ عليّ مقضي عليه بالموت إذا نازله، مهما كان حظّه من الشجاعة عظيماً، ومهما كانت

(١) رادعاً : مانعاً، والردع: الكف عن الشيء. لسان العرب: ١٢١/٨، مادة «ردع».

(٢) يُخالجها : يُخامرها، يشوبها . المنجد: ١٩١، مادة «خلج».

خبرته بالقتال فائقة .

ولشد ما دهشت عائشة ومن حولها وهم يرون إلى عليّ بن أبي طالب
يعانق الزبير !

عانقه طويلاً لأن أسباب المودة لا تنقطع في القلب الكبير !
وعاد عليّ يسأل الزبير بلهجة الصداقة القديمة : ويحك يا زبير ! ما الذي
أخرجك ؟

فقال : دم عثمان .

قال : قَتَلَ الله أولانا بدم عثمان !

وجعل عليّ يذكره العهود والصداقات وأيام الأخوة السالفات .
وربما بكى عليّ في مثل هذا الموقف، ولكن الزبير استمر في قتال الإمام
حتى صرع . وكان مصرعه على كره من راعي المودات، عليّ بن أبي طالب،
وكان من حسن وفائه للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، والذين أعانهم برأيه وعمله
ومسلكه ومقاله، أنه سمى ثلاثة من أبنائه بأسمائهم وهم : أبو بكر وعمر
وعثمان .

ولعل موقف الإمام من مقتل خصمه طلحة لا يجاريه في التاريخ موقف
خصم من خصم له جاز عليه . فإن علياً ساعة وقف على جثة طلحة وهو قتيل،
بلغ به الحزن أشد مبلغ، وبكى أحز بكاء، واندفعت الذكريات العزيزة على قلبه
دموعاً غزيراً من عينيه ولوغة محرقة في قلبه . وجعل ينظر إليه ويقول : عزيز
عليّ أن أراك يا أبا محمد مجداً تحت نجوم السماء ! وتمنى لو أخذه الله قبل
هذا اليوم بعشرين سنة .

ولكن صاحب المودات لم يرع أصدقاؤه له مودة . لأنهم لم يكونوا

ليطمعوا بأن يحولوا بينه وبين نفسه، فيطلق أيديهم في خيرات الأرض دون سائر الخلق .

يقول عليّ :

«والله لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملةٍ أسلُها جلب شعيرةٍ ما فعلت . وإن دنياكم أهون عندي من ورقةٍ في فم جرادة»^(١).

وليس عليّ في هذا المجال قائلًا ثم عاملاً . بل هو القول يجري من طبيعة العمل الذي يُعمل، والشعور الذي يحس، والحياة التي يحيا . فعليّ أكرم الناس مع الناس . وأبعد الخلق عن أن ينال الخلق بالأذى . وأقربهم إلى بذل نفسه في سبيلهم على أن يقتنع ضميره بضرورة هذا البذل ؛ أو ليست حياته كلها سلسلة معارك في سبيل المظلومين والمستضعفين، وانتصاراً دائماً للشعب دون من يريدونه آلة إنتاج لهم ؟ «من السادة ورثة الأمجاد العائلية» أولم يكن سيفاً صارماً فوق أعناق القرشيين الذين أرادوا استغلال الخلافة والأمانة للسلطان والجاه وتكديس الأموال ؟ ألم يُضع الخلافة والحياة على الأرض لأنه أبى مسايرة أهل الدنيا في استعباد إخوانهم الضعفاء والفقراء والمظلومين ؟ أليس عليّ أعظم الناس رفقا بالناس يوم دفع عنه أخاه عقيلاً الذي جاءه يطلب من مال الشعب . وآثر أن يلوي عنه أخوه هذا ويساير معاوية على أن يأذن له في التصرف بالقليل القليل من مال الفقير والمظلوم والعامل ومن رفق حاله ؟ أليس عليّ أبأكرماً لشعبه في توجيهه الولاية والعمال نحو الرفق بالناس والضرب على أيدي المستغلين من ذوي الوجاهة والسلطان مشدداً في هذا التوجيه مهتداً بالعقاب ؟ أليس عليّ هو صاحب هذه الوصايا المكررة في

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢٤ - ١٢.

آذَانُ وُلَاتِهِ : «أنصفوا الناس من انفسكم واصبروا لحوائجهم، فإنهم خزّان الرعية، لا تحسموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابة يعتملون عليها، ولا تضرين أحداً سوطاً لمكان درهم»^(١).

أوليس عليّ صاحب العهد الرائع إلى الأشر النخعي عامله على مصر وأعمالها وفيه يقول : «ولا تكوننّ عليهم سبعا ضارياً نقتنم أكلهم فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق ؟ أعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه . ولا تندمنّ على عفو ولا تبجحنّ بعقوبة»^(٢) . ثم يقول له : «وامنع من الاحتكار»^(٣) .

وتشديد عليّ في منع الاحتكار كان من الأسباب البعيدة في ما كان من أمره وأمر معاوية وأنصاره . فهو لاء يريدون الملك والمال والمغانم لأنفسهم، وعليّ يريد لها جميعاً للشعب .

وبلغ عليّ من الرفق بالناس وطلب العذر لهم عما يفعلون، أن حاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف وسبّوه ولعنوه، فلما ظفر بهم ؛ رفع السيّف عنهم وأدخلهم في أمانه . ومن ذلك أيضاً أنه أوصى خيراً بقاتله الأثيم ابن ملجم، على ما سنرى.

وجاء في وصيته للحسن والحسين : «قولا بالحق، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»^(٤) !

أوصاهما بأن يكونا للظالم خصماً ولو كان من ذويهما . وأن يكونا

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥١ - ٣.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٩.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٩٩.

(٤) نهج البلاغة : الكتاب ٤٧ - ٢.

للمظلوم عوناً ولو كان من أقاصي الأرض . ولطالما سعى عليّ في تحطيم الظالمين وفي رفع الحيف^(١) عن المستضعفين : سعى لذلك بقلبه ولسانه وحسامه ودمه، وكان لا يساير في هذا السبيل ولا يهادن ولو فقد حياته . وليس غريباً أن يكون عليّ أعدل الناس، بل الغريب أن لا يكونه . وأخبار عليّ في عدله تراثٌ يشرف المكانة الإنسانية والروح الإنساني . من ذلك ما مرّ بنا من أن أخاه عقيلاً أراد منه مالا يُجريه من مال الشعب . فأبى الإمام عليه ذلك ؛ لأن المعوزين أجدر بهذا المال وهو مالهم . وهذّده أخوه بأن يتركه إلى خصمه معاوية، فما أثر ذلك في نفسه ولا بذل من أمره . فأقبل أخوه على معاوية وهو يقول : «معاوية خير لي في دنياي»^(٢).

وكان معاوية عند رأي عقيل فيه، فقد كان بيت المال في نظر معاوية سلاحاً في يديه يمكن به من سلطانه، ويفدي به مسلكه، ويستعيد به أمجاد أُمّة السالفات .

وكان الإمام يأبى الترفع عن رعاياه في المخاصمة والمقاضاة . بل إنه كان يسعى إلى المقاضاة إذا وجبت لتشتبه من روح العدالة . من ذلك أنه وجد درعه عند عربيّ مسيحي من عامة الناس . فأقبل به إلى أحد القضاة واسمه شريح، ليخاصمه ويقاضيه . ولما كان الرجلان أمام القاضي ؛ قال عليّ : إنها درعي ولم أبغ ولم أهب . فسأل القاضي الرجل المسيحي : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ فقال العربيّ المسيحي : ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب . وهنا التفت القاضي شريح إلى عليّ يسأله : هل من بيّنة تشهد

(١) الحيف : الظلم . المنجد : ١٦٤ ، مادة «حاف».

(٢) بحار الأنوار : ٤٢ / ١١٦ ، مواقف الشيعة : ١ / ٢٣٤ ، جواهر المطالب : ٢ / ٢٢٩ ، سبل الهدى والرشاد :

أنّ هذه الدرع لك ؟ فضحك عليّ وقال : أصاب شريح، مالي بيتنة . فقضى شريح بالدرع للرجل المسيحي، فأخذها ومشى وأمير المؤمنين ينظر إليه ، إلّا أنّ الرجل لم يخطُ خطوات قلّاتل ؛ حتى عاد يقول : أمّا أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء . أمير المؤمنين يدينني إلى قاضٍ يقضي عليه ! ثم قال : الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين وقد كنتُ كاذباً فيما ادّعتُ . وبعد زمنٍ شهد الناس هذا الرجل وهو من أصدق الجنود وأشدّ الأبطال بأساً وبلاءً في قتال الخوارج يوم النهروان، إلى جانب الإمام عليّ .^(١)

وعن عليّ بن أبي رافع، قال :

كنت على بيت مال عليّ بن أبي طالب، وكاتبه . فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة . فأرسلت إليّ بنت عليّ بن أبي طالب، فقالت لي : إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ، وهو في يدك، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به في يوم الأضحى، فأرسلتُ إليها : عاريةً مضمونةً مردودةً بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين؟ فقالت : نعم، عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام . فدفعته إليها، وإذا أمير المؤمنين قد رآه عليها فعرفه، فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت : استعرتَه من أبي رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين لأتزين به في العيد ثم أردّه . فبعث إليّ أمير المؤمنين، فجئته، فقال لي : أتخون المسلمين يا ابن أبي رافع ؟ فقلت : معاذ الله أن أخون المسلمين ! فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين بغير أذني ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنها بنتك، وسألتني إعارته لتتزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن تردّه

سالمًا إلى موضعه، فقال : ردّه من يومك، وإيّاك أن تعود إلى مثله فتناك عقوبتي ! فبلغت مقالته ابنته، فقالت له : يا أمير المؤمنين ! أنا بنتك وبضعة منك فمن أحقّ بلبسه متي فقال لها : يا بنت أبي طالب ! لا تذهبي بنفسك عن الحقّ، أكلّ نساء المهاجرين والأنصار يتزيّن في مثل هذا العيد بمثل هذا ؟! فقبضته منها ورددته إلى موضعه.^(١)

وتجري في روحه العدالة حتى أمام أبسط الأمور . فهو إذا استوى وأخذ الناس في حقّ باختيار متاع من أمتعة الدنيا ؛ آثر أن يكون هذا الاختيار من نصيب غيره لئلا يشعر هذا الغير بأن النصيب الأوفر من الحقوق ملازمٌ للكبير دون الصغير . من ذلك أنه ذهب يوماً، إلى أبي النوار ومعه غلامه، فاشترى من أبي النوار قميصين اثنين، ثم قال لغلامه : اختر أيهما شئت ! فاختر الغلام أحدهما، وأخذ عليّ الآخر.^(٢)

ووصايا الإمام، ورسائله إلى الولاة تكاد تدور حول محور واحد هو : العدل وما تواطأ الناس عليه، أباعد وأقارب، إلّا لأتّه ميزان العدالة الذي لا يميل إلى قريب ولا يساير نافذاً ولا يجوز فيه إلّا الحق . فإنّ عثمان بن عفان لمّا ولي أمر المسلمين أطلق أيدي الأقارب والأعوان والصحابة في كل مورد من موارد الجاه والثروة، منقاداً بذلك إلى آراء بطانة السوء، وكان مروان أشدهم تأثيراً عليه فخالف بما فعل الوصية الحكيمة التي أوصى بها أبو بكر الصديق، خليفته عمر ابن الخطاب إذ قال له : «إحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحبّ كلّ

(١) مناقب ابن شهر آشوب : ٢ / ١٠٨ نقلًا عن التهذيب.

(٢) الإمام علي من المهد إلى اللحد: ص ١٤٢.

امرئ منهم نفسه» !

وكان في نفس عليّ شيء من هؤلاء الذين انتفخت أجوافهم . فلما صارت الخلافة إليه أبي إلا أن يعدل فيهم، فعزل منهم من عزل، وأبعد عن السلطان والاحتكار من أبعد . وحارب كل من تحدّثه نفسه بأن يحوّل الرسالة عن مجاريها الطبيعية العادلة، لتصبّ في بيته مالاً وسلطاناً وجاهاً . وطالما ردّد على أسماع هؤلاء قوله الرائع : «إني لأعرف ما يصلحكم ولكن لا أصلحكم بفساد نفسي!»^(١).

وكان من شأنه وشأن هؤلاء ماكان، حتى انهزم الظالمون في حكوماتهم، وإن انتصروا بالحيلة والظرف . وحتى انتصر العدل في قلب عليّ وقلوب أتباعه وإن ظلّموا وظلم .

وحين مات عليّ من طعنة ابن ملجم الأثيمة ؛ رثته أم الهيثم النخعية بقصيدة باكية، منها هذا البيت الذي يصوّر نظرة الناس إلى عليّ ومعرفتهم بعدله المشرف :

يقيم الحق لا يرتاب فيه ويعدل في العدا والأقربينا^(٢)

وعليّ هو القائل :

عليكم بالعدل على الصديق والعدو!^(٣)

* * *

والصراحة خلقٌ عند عظماء الناس . وهي عند عليّ هذا الخلق لاتصالها في ينابيعها، بكلّ طباعه الباقية . فهي والصدق والإخلاص والمروءة وما إليها

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٦٩ - ٤ .

(٢) مقاتل الطالبين : ٥٥ .

(٣) نهج السعادة للمحمودي : ٤٧٤/٤ ، بحار الأنوار : ٢٣٦/٧٤ ، مستدرک سفينة البحار : ١٠ / ٣٤٩ .

أخوات . فمن صراحته أنه لم يكن يخفي شيئاً مما يضر أو يحسب، ولا يُظهر شيئاً مما لا يخفي ولا ينوي . وأنه لم يكن ليألف الحيلة في معاملة أخصامه المعتدين، وهو أعلم الناس بأن في الحيلة الخلاص من هؤلاء، ومما يضرهم له من شر . وفي حديثنا السابق عن صدق الإمام وإخلاصه ما يُعتبر حديثاً عن الصراحة المطلقة التي كانت من مزاياه، وما أكثرها !

ومن أصول أخلاقه أنه كان يعتمد البساطة في كل ما يأتيه ويمقت التكلف ، بل ربما كان ذلك ملاك الأمر في طباعه . وكان يقول : « شر الإخوان من تُكَلِّف له »^(١) . ويقول أيضاً : « إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه »^(٢) . ويقصد بالاحتشام مراعاة الصديق حتى التكلف . وكان لا يتصنع في رأي يراه، أو نصيحة يسديها أو رزق يهبه، أو مال يمنعه . وكانت هذه الطبعية تلازمه حتى يسأم أصحاب الأغراض من استرضائه بالحيلة، وحتى يسأم المداورون المراوغون من أنه مصطنع إياهم راض عنهم . فإذا هم ينسبون إليه القسوة والجفوة والزهو على الناس . وما كان الإمام ذا قسوة أو جفوة أو زهو مقصود وغير مقصود .

بل كان ما يبدر منه انقياداً للطبع والسجية دون تكلف ودون رياء . ولما كان المحيطون به - في معظمهم - أهل منافع خاصة ؛ فقد ساء بهم ظنه فما تكلف أن يخفي هذا الاستياء . وليس صدق الشعور وإظهاره زهواً وليس جفوة . بل إن علياً كان يمقت^(٣) الزهو ويمقت العجب ولا يرضاه . ولطالما نهى وُلَّده وأعوانه وعماله عن الكبر والعجب . ومن قوله في نصح هؤلاء :

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٧٩ .

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٨٠ .

(٣) يمقت : يبغض . المنجد : ٧٦٩ ، مادة «مقت» .

«إياك والإعجاب بنفسك»^(١) ! و«اعلم أَنَّ الإعجاب ضدَّ الصواب، وآفة الألباب»^(٢) . كان يمتكِّف التكلف حتى عند مادحيه . فربما أفرط أحدهم في مدحه ؛ فإذا هو يستوقفه ليقول له : «أنا دون ما تقول»^(٣) . وربما أفرط في اتِّهامه في نفسه، فلا يتكلف أن يخفي ما عرف من طويته فيقول : «فوق ما في نفسك»^(٤) وكرة عليّ التكلف في محبته المغالين كما كره التكلف في مبغضيه المفرطين^(٥)، فقال : «هلك في اثنان : محب غالٍ، ومبغض قالي»^(٦) ذلك لأن في كل إفراط ظاهرة تكلف . إنه لا يتكبر ولا يتواضع، لأن في التكبر تكلفاً وفي التواضع تكلفاً كذلك . بل يظهر نفسه كما هي، صريحة صراحة الحق وصراحة الطبيعة . وهل رأيت في الناس من هو أودع، وأجمل مسلماً من عليّ ساعة رآه بعضهم وهو يحمل في ملحفه تمرّاً قد اشتراه ، فقالوا له : ألا نحمله عنك ؟ فقال ببساطة العظيم : «أبو العيال أحقّ بحمله»^(٧) .

وإنه لمن الخطأ الشائع أن نعدّ التواضع المقصود فضيلة من فضائل النفس، بل إنه شيء من التكلف المقيت . ولم يكن عليّ بالمتواضع، ولكنه لم يكن متكبراً . بل كان يُظهر ما في طويته دون أن يحسب للتواضع حساباً أو للتكبر . فكلاهما ليس من عدة العظيم . أمّا إذا رآه بعضهم متكبراً، ورآه بعضهم متواضعاً، فإن الخطأ في الحالتين خطأ الناس في نظرتهم إليه وتعليهم

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ١٤٥ .

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ - ٥٧ .

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٨٣ .

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٨٣ .

(٥) المفرطون : المتجاوزون حدود هذا البغض إلى حد الإفراط فيه . أنظر المنجد : ٥٧٨، مادة «فرط» .

(٦) التحفة السنية (مخطوط) للسيد الجزائري : ٩٢ . وجاء في قصار الحكم : ١١٧ من نهج البلاغة : «هلك فيّ

رجلان : محبّ غالٍ، ومبغض قال» .

(٧) الغارات : ٨٩ / ١ ، بحار الأنوار : ٤١ / ١٣٨ ، شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٠٢ .

أحواله . فهو منهم براء .

يقول صاحب «عبقريّة الإمام»: «كان يخرج إلى مبارزته حاسر الرأس ومبارزوه مقتعون بالحديد، أفعجيب أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقتعون بالحيلة والرياء ؟»^(١).

أما الجفوة، فلا جفوة في خلق الإمام، بل سماحة وتبسّط.

* * *

ومن خلقه ما تميّزه من سلامة القلب . فهو لا يحمل ضغينة^(٢) على مخلوق، ولا يعرف حقداً حتى على الدّ أعدائه ومناوئيه، ومن يحقدون عليه حسداً وكرهاً . فقد مرّ معنا أنه نهى أولاده وذويه، قبيل موته، أن يقتلوا أحداً من أقرباء قاتله ابن ملجم . وبكى على خصمه طلحة، وكان طلحة هذا يطلب رأسه . ورثاه بقول صادق المودة ظاهر اللوعة . وأوصى أصحابه ألا يقاتلوا الخوارج بالرغم من محاربتهم إياه، ومن أنّ قاتله أحدهم، ومن أنهم نكلوا بأصحابه وأذاقوه وإيّاهم من الأذى قدر ما أذاقه معاوية وعمرو بن العاص وأعوانهما . ذلك لأنه شعر بإخلاصهم لقضيتهم وإن كانوا على خطأ وضلال . ثم إنه ليس في تاريخه وأخباره جميعاً ما يدلّ على طبيعة تحقد على الأعداء، حتى إنه لم يحقد على معاوية نفسه، محتكماً إلى الحق في قلبه، وإلى الصراحة في لسانه وإلى السيف في يده . وليس من طبيعة الفروسية أن تحقد وإن كان من طبيعتها ألا تنام على ضيم يلحق بها وألا تهجع على ظلم يلحق بالآخرين . ولكن هذه الطبيعة النبيلة التي لا تحقد حتى على من عالها العداة وأراد لها الموت، كانت تحاط بالحاquدين الساخطين المفرطين في الحقد والسخط.

(١) عبقرية الإمام، عباس محمود العقاد: المقدمة.

(٢) ضغينة: حقد. كتاب العين: ٣٦٦/٤، مادة «ضغن».

وأقوال عليّ الرائعة تفيض بالأسى المترليماً فيه من طيبة وحب، ولما في الآخرين من غدر . وكان من خلقه أن يكون كريماً لا حدود لكرمه . ولكنه الكرمُ السليم بأصوله وغاياته، لا كرم الولاة وذوي السلطان الذين «يكرمون» بأموال الناس وجهودهم . وهم إذا كُرموا على هذا النحو فإنما يكرمون على ذويهم وأقاربهم والضاربين بسيوفهم في سبيل ما يملكون . وهم إذا كُرموا فوق ذلك ؛ فلكي يقال فيهم : إنهم من أهل الكرم، وهي صفةٌ تزيد المرء وجاهةً لدى الجماعات، وتُكسبه عطفاً، وتستتر ما اختلس، وتلقي سذلاً على جوره إن كان من أهل الجور، وعلى عجزه في سياسة الناس إن كان من ذوي العجز . هذا اللون من ألوان الكرم الذي لا يختلف عن الرشوة في معناه، والذي عرفه أكثر المشهورين بالكرم في تاريخنا وتاريخ سوانا من ذوي الوجاهة والسلطان ، لم يعرفه عليّ بن أبي طالب مرة في حياته ولم يأبه له . وإنما كرمه هو الكرم الذي يعتبر عن جملة المروءات متحدةً في نفسه موجهة . ففيما كان يزجر ابنته زجراً شديداً إذ هي استعارت من بيت الأمة قلادة تزين بها جيدها أسوة ببعض البنات في عيدٍ من الأعياد، وفيما كان يزجر أخاه عقيلاً إذ هو طلب إليه أن يمدّه بقليل من الأموال العامة، وفيما كان يُبعد عنه كلّ طالب رشوةٍ وكلّ راغبٍ في عطاءٍ على غير جهد وبغير حق، كان في ما هو ثابتٌ من الروايات : يسقي بيده النخلَ لقومٍ من يهود المدينة حتى تمجّل^(١) يده فيتناول أجرته ، فيهبها لأهل الفاقة والعوز، ويتشري بها الأرقاء ويحرّرهم في الحال . ومما رواه الشعبي عن لسان عارفيه أنه كان أسخى الناس على الخلق مما يملك . وإذا كانت شهادة الخصم أصحّ الشهادات في بعض الأحوال ؛ فكيف

(١) تمجّل يده: تنفط من العمل ويظهر فيها المجمل . والعامة تقول : بقّبت ، ومجّلت يده فهي مجلة، وأمجلها

العمل إذا مرنت وصلبت. كتاب العين: ١٤٠/٦، مادة «مجل».

يكون كرم عليّ وقد شهد به معاوية بن أبي سفيان الذي يجتهد في وصمه وعيبه قائلاً: «لو ملك علي بيتاً من تبرٍ وبيتاً من تبينٍ لأنفذ تبره قبل تبينه»^(١).

* * *

وبعد، أفليس من متمات هذه الصفات النبيلة، ومن مزايا الفروسية العلوية، ومن متمات العبقرية الأدبية التي سيأتي الكلام عليها، أن تقترن جميعاً بهذه الثقة بالنفس التي عُرف بها الإمام؟ بل إن الثقة شيء ملازم بالضرورة لهذه الخصائص. فالإمام يعمل وهو مطمئن إلى نبل العمل وصراحة الحق فيه. فليس تصديه لفارس الجزيرة عمرو بن ود، والنبي وأصحابه يحذرونه من سوء المصير، إلا شاهداً على هذه الثقة بالشجاعة التي تمتلئ بها نفسه. وخروجه إلى الصلاة دون أن يصطحب من يقيه خطر الأعداء وهم كثّر حواليه، حتى أدركه ابن ملجم وضربه بالسيف المسموم؛ أليس شاهداً هذه على الثقة بالحق التي تفيض به جوارحه وسيرته كلها؟ أليست سلسلة من أعمال وأقوال تدلّ على أن الرجل إنما هو مطمئن إلى صلاح ما يعمل، عنيد في هذا الاطمئنان، لأن عمله وقوله نابعان من عقل جبار، وخلق عظيم.

وفي جوّ من هذه الثقة الأصيلة يحسها في نفسه، وفي فيضٍ من إيمانه بعدله، وفي حالٍ من اختلاف الناس فيه فلا يبذل من موقفه ولا يلين، قال:

«لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يُبغضني ما أبغضني. ولو صيبتُ الدنيا

(١) قوله معاوية بن أبي سفيان لمحقن بن أبي محقن الظبي لما قال له: جئتكَ من أبخل الناس، راجع شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢٢/١، والإمام علي من المهد إلى اللحد: ص ١٥٣.

بجمّاتها^(١) على المنافق على أن يحبني ما أحبني^(٢). وفي مثل ذلك يقول أيضاً : «إني والله، لو لقيتهم^(٣) واحداً^(٤) وهم طلاع^(٥) الأرض كلّها، ما باليت ولا استوحشت»^(٦).

وبهذه الثقة الرائعة يقول لسهل بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على المدينة، عندما علم أن قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية: «أما بعد، فقد بلغني أن رجلاً ممّن قبلك يتسلّلون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم. إنهم والله لم ينفروا من جورٍ ولم يلحقوا بعدل»^(٧).

* * *

(١) أي : لو كفأت عليه الدنيا بجليلها وحقيرها .

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٥ - ١.

(٣) يعني أخصامه .

(٤) أي : لو كنت واحداً .

(٥) أي : ملء الأرض .

(٦) نهج البلاغة : الكتاب ٦٢ - ٧.

(٧) نهج البلاغة : الكتاب ٧٠ - ٤.

مع كل علم

- أقل الناس قيمة أقلهم علماً^(١)

- لا بارك الله في معضلة لا تحكم فيها، يا أبا الحسن!^(٢)

عمر بن الخطاب

ثقافة الإمام

علي بن أبي طالب فذ من أفذاذ العقل. وهو بذلك قطب الإسلام وموسوعة المعارف العربية، فليس من علم عربي إلّا وقد وضع أصله أو ساهم في وضعه. أمّا بلاغته وعبقريته في الاجتماع، فسيأتي فيها قول كثير.

أمّا علومه ومواهبه في الفقه والقضاء والعربية وما إليها، فهي التي ستحدث عنها في هذا الفصل موجزين، مضافاً إليها ما اقتضيت إضافته من الكلام على حكمته. وإنّا إذا أوجزنا القول في هذه السعة من ثقافته ومواهبه فلاّن القائلين فيها كثير. ولأنّ الباحثين قد أوسعوها درساً.

وغايتنا في هذا الكتاب أن نختصر حيث أسهبوا، ونُسهب حيث أوجزوا أو أهملوا. ولنبدأ في الكلام مع القرآن والحديث، ثم مع غيرهما؛ لنذكر إلى أيّ مدى بعيد أصاب النبي في وصفه عليّاً

(١) مستدرک نهج البلاغة : ١٦٥، نهج البلاغة الثاني : ٢٩٦.

(٢) الإصابة : ٥٠٢ / ٢.

ساعة قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(١)

رُبِّي علي بن أبي طالب برعاية النبي ابن عمه وتلمذ له. وورث أخلاقه وأسلوبه في النظر إلى الحياة والخلق. وجرى الميراث في قلبه وعقله سواء بسواء.

وعكف على دراسة القرآن دراسة المتبصر الحكيم الذي ينفذ إلى لباب الأشياء فيعي حقائقها ويستوحيها. وقد أُتيح له أن ينصرف إلى هذه الدراسة العميقة النافذة خلال الزمن الطويل الذي استخلف فيه أبو بكر، فعمر فعثمان. فإذا هو يتقن القرآن نصّاً، ويحياه جوهرّاً فيستقيم به لسانه كما يستقيم جناحه. أمّا علمه بالحديث فلا يُشَقُّ له فيه غبار. وليس في ذلك ما يُستغرب. وقد رافق الإمام النبي أطول زمنٍ رافقه فيه مجاهدٌ أو صحابي؛ فسمع منه ما سمعه الآخرون وما لم يسمعه. ويقال إن عليّاً لم يكن يروي من الحديث إلّا ما سمعه بنفسه من الرسول، لأنه كان مطلق الإيمان بأن كلمة واحدة من حديث النبي لم تفت قلبه وأذنيه. وقيل لعلّي: «مالك أكثر أصحاب رسول الله ﷺ حديثاً؟» فقال: «إني كنت إذا سألتُه أنبأني، وإذا سكتَ ابتدأني»^(٢).

* * *

ومن الطبيعي أن يُحسن علي بن أبي طالب الإسلام فقهاً كما أحسنه عملاً. فإن معاصريه لم يعرفوا من هو أفقه منه وأصلح فتوى. ولعلمه الكثير وفقهه؛ كان موضع ثقة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في ما تعسّر حلّه

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة الإمام علي (عليه السلام) باب: أنا مدينة العلم وعلي بابها، ميزان الاعتدال: ٤٣٦ / ١، البداية والنهاية: ٣٥٨ / ٧، مناقب ابن المغازلي، الحديث رقم: ١٢٢، ١٢٦، المعجم الكبير للطبراني: ١٠٨ / ٣.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣٣٨ / ٢. وغرر الحكم: إني كنت إذا سألت رسول الله ﷺ أعطاني، وإذا سكت عن مسألة ابتدأني، ٣٧٧.

من المشكلات والمعضلات، كما كان مرجعهما الأخير في الاستشارة. وطالما أفاد الخليفان من مشورته وعلمه. وكما كان مرجعاً لأبي بكر وعمر في شؤون الفتوى؛ كان كذلك مرجعاً لسائر الصحابة. ونذر أن نهضت لغيره حجة أفضل من حجته في مسائل الشريعة.

ولم يقف علم عليّ بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه؛ بل تجاوزه إلى العلم بأدوات الفقه، ومنها علم الحساب الذي كانت معرفته فيه تفوق معرفة معاصريه.

وإذا كان أبو حنيفة إمام الفقه الأكبر في العصور الإسلامية التي تلت عصر عليّ؛ فإنما هو تلميذ لعلّي. فقد قرأ أبو حنيفة على جعفر بن محمد، وجعفر تتلمذ لأبيه، إلى أن ينتهي الأمر إلى عليّ بن أبي طالب. وكذلك الإمام مالك بن أنس فإنه تلميذ عليّ بالتسلسل. فقد أخذ عن ربيعة، وربيعه أخذ عن عكرمة، وعكرمة أخذ عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عباس قرأ على عليّ. وقيل لابن عباس استاذ أولئك جميعاً: «أين علمك من علم ابن عمك؟» - يُراد عليّ - فقال: «كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط!»^(١).

* * *

يُجمع الصحابة على أن النبي قال مرّة: «أفضاكم عليّ»^(٢). فقد كان عليّ أقضى أهل زمانه؛ لأنه كان أعلمهم بالفقه والشريعة، وهما في الإسلام مصدر القضاء.

ثم إنه أُوتي من قوة العقل ما يكشف له عن الوجه الأكثر صواباً،

(١) ينابيع المودة: ١٤٨، مناقب ابن شهر آشوب: ٢ / ٣٠، عبقريّة الإمام للعقاد: ٢٦ بتصرف.

(٢) تاريخ دمشق: ترجمة الإمام علي (عليه السلام)، طبقات ابن سعد: ٢ / ٣٣٩، الاستيعاب بهامش الإصابة:

٣ / ٣٩٩، أخبار القضاة: ١ / ٨٨.

والأشدُّ انطباقاً على المنطق إذا اختلفت الوجوه. كما أُوتي من صفاء الوجدان ما يوجهه في استخدام علمه في القضاء أصدق توجيه، فيعدل في الحكم على أساس من العقل والضمير جميعاً.

ومن المأثور عن عمر بن الخطاب قوله لعلّي: «لا بارك الله في معضلة لم تحكم فيها يا أبا الحسن!» وقوله: «لولا عليّ لهلك عمر»^(١) وقوله أيضاً: «لا يُفتن أحدٌ في المسجد وعليّ حاضر!»^(٢).

وسوف نتحدث مطوّلاً عن عبقرية عليّ في القضاء وعمّا اكتشف من معقولاته ساعة نسوق الكلام على الموازنة بين عليّ ومبادئه، ورجال الثورة الفرنسية الكبرى ومبادئهم.

* * *

ولما كان عليّ بن أبي طالب من الذين لا يكتفون بالنظر في الأمور نظراً عابراً؛ بل يتوخّون أن ينفذوا من كلّ مشكلة إلى بابها، فقد أمعن النظر في القرآن وموضوعه الدين إمعاناً ينساق إليه المفكرون انسياقاً. فإذا به يجعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل والتبصّر. وما كان لعبقري كعلّي أن يكتفي من الدين بظاهره من إجراء الأحكام وإقامة الحدود وطقوس العبادة. فإذا الناس - معظم الناس - ينصرفون إلى ظاهر الدين وإلى نتائجه في المعاملة والقضاء انصرافاً حسابياً، أو يكاد يكونه. وإذا عليّ يفقه الدين - إلى جانب فقهه الظاهر من أحكامه - على أنه موضوعٌ للفكر المحض والدراسة الخالصة والتأمل البعيد. فلا ينتهي من التفكير والدرس والتأمل إلّا ليشق بأن

(١) مسند أحمد: الحديث ١٣٢٧، كنز العمال: ١ / ١٥٤، كفاية الطالب: ١٩٢، مناقب الخوارزمي: ٤٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦ / ١ طبعة القاهرة.

هذا الدين إنما يقوم على ركائز وأركان تتفاعل وتتقارب وتتحد في أصولها وحقيقتها.

من هنا نشأ علم الكلام أو فلسفة الدين الإسلامي. ومن هنا كان عليّ أول المتكلمين بل أبا علم الكلام. فإنّ الأوائل من أصحاب هذا العلم لم يستقوا إلا من معين عليّ بن أبي طالب، ولم تتوفّر لديهم أسبابه إلا عن طريقه. وإنّ الأواخر ظلّوا يهتدون به ويعتبرونه إمامهم وإمام الأولين. فهذا واصل بن عطاء مؤسس المعتزلة، وهي أول فرقة إسلامية تجاهد لأن تعطي العقل مداه في موضوعات الدين، هو تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبوه تلميذ علي بن أبي طالب. وما يُقال في المعتزلة يُقال في الأشعرية. فإنّ الأشاعرة تلاميذ المعتزلة الذين تلقوا علمهم عن واصل بن عطاء تلميذ عليّ بالتسلسل.

ثم إنّ التصوف الإسلامي واجد أصوله وبذوره في نماذج شتى من نهج البلاغة. وقد استند أهل التصوف في الإسلام إلى هذه النماذج قبل أن يعرف المسلمون أهل الفكر اليوناني. وقبل أن ينقلوا إلى العربية فلسفة الإغريق والهنود وغيرهم. ومن شاء؛ فليرجع إلى حديث أبي العيناء لعبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكّل، في نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ففيه كثير من الإيضاح لما ذكرنا.

* * *

وكان الله أراد أن يكون عليّ بن أبي طالب ركن العربية في علومها كما كان ركن الإسلام في علومه. فإنّ أهل زمانه لم يكن فيهم من يقف إلى جانب الإمام في علوم العربية. وقد ساعده تبخّره فيها، ومنطقه السليم، وقواه الذهنية الخارقة، أن يبادر إلى ضبط العربية بأصول وقواعد تستند إلى الدليل والبرهان،

مما يشير إلى مقدرته العقلية على الوزن والقياس. فهو بحقٍ واضع الأساس في العلوم العربية، وممهد طريقها لكل من أتى بعده. ومما يثبتته التاريخ أن علياً هو واضع علم النحو. فقد دخل عليه تلميذه وصاحبه أبو الأسود الدؤلي يوماً فرآه مطرقاً مفكراً. فقال له: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟! قال: «إني سمعتُ ببلدكم هذا - يعني الكوفة - لحنًا، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية»^(١)، ثم ألقى إليه صحيفة فيها: الكلام اسم وفعل وحرف... الخ.

ويروون ذلك على صورة أخرى فيقولون: إن أبا الأسود الدؤلي شكاً إلى الإمام شيوع اللحن على ألسنة العرب لاختلاطهم بالأعاجم بعد الفتوحات العربية، والأعاجم أهل رطانة ولحن. فأطرق الإمام هنيهةً ثم قال لأبي الأسود: اكتب ما أمني عليك. فتناول أبو الأسود قلماً وصحيفة. فقال علي: «إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف. فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. وإن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، يعني اسم الإشارة على قول بعض النحاة». ثم قال لأبي الأسود: «أنح هذا النحو يا أبا الأسود»^(٢)، فعُرف هذا العلم بعلم النحو من ذلك اليوم.

ومن مزايا عليّ حدة الذكاء وسرعة الفطنة. ومواقفه الارتجالية الكثيرة تشهد له بقوة البديهة التي لم يكن يجاريه فيها أحد. وطالما كان يرسل المثل السائر والحكمة الرائعة وهو يرتجل في أنصاره أو في أعدائه. وربما كان عليّ فريد زمانه في سرعة الفطنة إلى معضلات الحساب. وكان معاصروه يعدّون

(١) كنز العمال: ٢٨٣/١٠، ميزان الحكمة: ٣٢٦٦/٤.

(٢) الفهرست لابن نديم: ٥٩، الأغاني: ١١ / ١٩٩، أخبار النحويين البصريين: ١١، نزهة الألباء، معجم الأدباء، ياقوت الحموي باب أبي الأسود الدؤلي.

هذه المعضلات ألبازاً قلماً تفقه سرها العقول، وقلماً تدرك إلى حلها سبيلاً. ومما يروى في هذا المجال: أن امرأة جاءت إليه وشكت من أمرها أن أخاها مات عن ستمائة دينار ولم يقسم لها من ميراثه هذا إلا ديناراً واحداً. فقال لها: لعلك ترك زوجة وابنتين وأماً واثني عشر أخاً وأنت؟ فكان كما قال! (١)

وفيما كان يخطب ذات يوم على منبر الكوفة؛ سأله أحدهم عن رجل مات وترك زوجة وأبوين وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعاً! (٢) وستيت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية لأنه أفتى بها وهو على المنبر. والحكمة بما هي نظرٌ نافذ، وعقلٌ محيط، وحسٌ أصيل، وقوةٌ على الحصر والاستنباط والإيجاز، ثم جهد دائب على ذلك جميعاً؛ إنما هي من آثار الإمام علي. فإن له في ذلك ما يجعل له مركزاً جليلاً بين حكماء الأمم وأفذاذ التاريخ.

ولعمري أن أشباه علي في القدرة على استخراج النظريات من الحوادث وإرسالها أمثالاً خالدة، لقليل قليل. وقد كان لهذه الحكمة العلوية أبلغ الأثر في توجيه الثقافة الإسلامية وفي طبعها بطابع إنساني مصدره، في الدرجة الأولى، اثنان: محمد بن عبد الله وعلي بن أبي طالب.

وقد أكثر الإمام من النظر الفلسفي في شؤون الحياة والكون والمجتمع البشري، وفي أمور التوحيد والألوهية والتطلع إلى ما وراء الطبيعة. فكان، كما مر معنا: مؤسس علم الكلام وفلسفة الإلهيات في الإسلام. وكان استاذاً اعترف برشده وأصالته كل من لحق به من أصحاب الآراء

(١) قضاء أمير المؤمنين للتستري : ١٢٤، نقلاً عن المناقب.

(٢) قضاء أمير المؤمنين عليه السلام للتستري : ١٢٤، نقلاً عن المناقب.

والمقولات وهم له أتباعٌ وشارحون.
وفي كتابه العظيم: «نهج البلاغة» فيضٌ من فرائد الحكمة التي يجلس بها
في الصف الأول بين حكماء الأمم.
وحين قال النبي: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»^(١)، ألم يكن يقصد
عليّاً بالذات؟

التجربة القاسية

- والله إِنِّي لأُعترف بالحقِّ قبل أن أشهد عليه.
- إِنَّ أمرنا صعبٌ مستصعب، ولا يمي حديثنا إلا صدور
أمنية وأحلام رزينة.^(١)

الإمام عليّ
- وَصَّم آذانهم بصيحةٍ تلوَ صيحةٍ نسفت بنيانهم
نسفاً ودكَّت سقوفهم دكّاً وقوّضت جدرانهم
تقويضاً وكانت على قلوب المستضعفين والمظلومين
برداً وسلاماً ونعمة موفورة.

للإمام عليّ بن أبي طالب في حقوق الإنسان وغاية المجتمع أصول وآراء
تمتد لها في الأرض جذور وتعلو لها فروع. أمّا العلوم الاجتماعية الحديثة فما
كانت إلا لتؤيد معظم هذه الآراء وهذه الأصول. ومهما اتخذت العلوم
الاجتماعية من صورٍ وأشكال، ومهما اختلف عليها من مستميات؛ فإنَّ علتها
واحدة وغايتها واحدة كذلك. وهما رفع الغبن والاستبداد عن كاهل
الجماعات. ثم بناء المجتمع على أُسس أصحح تحفظ للإنسان حقوقه في العيش
وكرامته كإنسان.

ومحورها حرية القول والعمل ضمن نطاق يُقيّد ولا يُسيء. وتخضع هذه

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٩ - ٤.

العلوم لظروفٍ معيّنة من الزمان والمكان لها الأثر الأول في تكوينها على هذا النحو أو ذاك.

وإذا رجعنا إلى الماضي ونظرنا في شؤونه على أساس هذا الواقع؛ تبين لنا أنّ في كلّ زمن مضي كفاً متقدماً بين الاستبداد والحكم المطلق، وهذر حقوق الجماعة وكبت الحريات من جهة، وبين النزوع إلى العدالة والحكم المستند إلى الشورى والعمل على حفظ الحقوق العامة وإطلاق الحريات من جهة ثانية. وما كانت الثورات القديمة الخيرة الآتية من الجانب المظلوم إلا انتفاضات يقوم بها المضطهدون والمفكرون للقضاء على ظلم اجتماعي، وإنشاء قواعد جديدة تقوم على أنقاض هذا الظلم، وتتفق بمنطقها وقيمتها مع الوضع التطوري الذي بلغ إليه المجتمع.

وقد كان لعلّي بن أبي طالب في تاريخ حقوق الإنسان شأنٌ أي شأن. وآراؤه فيها تتصل اتصالاً كثيراً بالإسلام يومذاك. وهي تدور على محور من رفع الاستبداد والقضاء على التفاوت الطبقي بين الناس. ومن عرف علي بن أبي طالب وموقفه من قضايا المجتمع؛ أدرك أنه السيف المسلط على رقاب المستبدين الطغاة. وأنه الساعي في تركيز العدالة الاجتماعية بآرائه وأدبه وحكومته وسياسته، وبكل موقف له ممتن يتجاوزون الحقوق العامة إلى امتهان الجماعة والاستهتار بمصالحها، وتأسيس الأمجاد على الكواهل المتعبة.

نضجت في ذهن الإمام القوي، فكرة العدالة الاجتماعية على أساس من حقوق الجماعة التي لا بد لها أن تنتهي بإزالة الفروق الهائلة بين الطبقات التي

يُتخَم ثريتها وأميرها ويضوي^(١) فقيرها وصغيرها. فكان صوته في معركة العدالة الاجتماعية هذه مدوّياً أبداً، وسوطه عاملاً أبداً، ودفاعه عن قيم الإنسان عظيماً أبداً، شديداً لا هوادة فيه ولا لين. كان في حكومته المثل الأعلى للحاكم الواعي لحقوق الإنسان في تلك الحقبة من تاريخ البشر. العامل على تنفيذ منطوقها بكافة ما لديه من وسائل. ولم يكن في ذهن الإمام ما هو أوضح - على وضوح الأشياء جميعاً فيه - من واقع المجتمع في زمانه كيف يكون وعلى أي أساس من الغبن الاجتماعي يقوم؟ ثم كيف يجب أن يكون وإلى أي مدى يأذن الزمان بتطويره؟ ولم يكن في إرادة الإمام - على ما فيها من الدوافع إلى الخير - ما يشغلها أكثر ممّا يشغلها السعي في هذا التطوير. ولم يكن في المغريات جميعاً ما يجنح بهذه الإرادة عن هذا السعي. ولا في المؤامرات ما يكبت^(٢) فيها قوة الانطلاق إلى العمل والإجادة فيه. فليس هنالك ما هو أحب على قلب الإمام من أن يقيم حقاً ويُزهق باطلاً على أساس لا يتزعزع من رأيه في الحق والباطل وموضوعاتهما. وكان صدقه في التفكير والشعور، ثم إخلاصه في تطبيق ما يفكر به ويشعر، سببين: في ألا يعطي فكرة غامضة في شأن من الشؤون العامة. وفي ألا يقف متراجعاً أمام امتهان الؤالة والعتال الأقوياء للجماهير والمستضعفين خصوصاً. وأمام الإفتئات^(٣) على سلطان الحق واقعاً ما وقع تدبيره من هوى الأخصام والأنصار. وذلك تقريراً لحقوق الإنسان الطبيعية في العيش الكريم، وفي الحياة الخيرة لا تشطر الناس شطرين

(١) يضوي: من ضوى، نحف وهزل. الصحاح: ٢٤١٠/٦، مادة «ضوا».

(٢) يكبت: الكبت هو الصرف والإذلال. الصحاح: ٢٦٢/١، مادة «كبت».

(٣) الإفتئات: التمرد، أو الاستبداد بالرأي وعدم استشارة أحد. المنجد: ٥٩٨، مادة «فوت».

فترخي عليهم ستارين مختلفين: أسود موجعاً وأبيض ضاحكاً. وقد أدرك في ضوء عقله الجبار، أن الطبقة المادية في الناس إن هي إلا سبيل لن يؤدي السير فيها إلا إلى غايات مُنكرة من الجمود في العقل والخبث في النفس. وإلى التعسف والنكاية والفجور في الحكم والمعاملة، ثم إلى الفساد العريض وسائر الأوضاع الملققة في هذا الجانب الغاصب، والمنكب على طلب الجاه والثروة بغير بلاء. كما يؤدي إلى السقم في الحال والشعور بهوان الحياة وسوء الظن بالإنسان، وإلى التباغض والتحاسد في الجانب الآخر الذي يذهب جهده لسواه. وفي الجانبين تستقر العوامل المؤدية، في النتيجة، إلى انهيار المجتمع انهياراً لا شك فيه. حتى لكان طبقتي المجتمع هاتين ما هما إلا فكان طاحنان تنسحق بينهما الكفاءات والحقوق وتمزق الضحايا.

كانت قاعدة الارستقراطيين النبلاء في أواخر خلافة عثمان، ولا سيما الأمويين منهم، أن يخرجوا معظمهم على سُنن الإسلام في طلب العدالة والمساواة في الحقوق. وأن يذُلّوا الجماهير ويستعبدوها ويلقوا في صفوفها الخوف من الحاكم والذعر حتى من المثل بين يديه. وأن يهدروا دماءها كما يهدرون حقوقها إذا وقع ذلك في نفوسهم موقعاً حسناً. وألا يعقوا عن الرشوة وما إليها، ثم يبعثوا عن أنفسهم إرهاصات^(١) تُنبئ بما هم ساعون فيه أو مقبلون عليه من تخضيب راياتهم بدماء الذمم والحقوق العاقة وتحويل الخلافة إلى ملك، وديموقراطية الإسلام إلى عنجهية^(٢) حُكم فردي. وبات هؤلاء بين صلاية الإمام علي في العدالة الاجتماعية وبين مطامعهم في الرئاسة

(١) إرهاصات: بدايات الأشياء. والإرهاص: الإثبات، وأصله من الرهص وهو تأسيس البنيان.

(٢) عنجهية: وهي معربة عن الفارسية، وتعني التكبر والغرور، ويقال: العنجهية: الجهل والحق. الصحاح:

٢٣٩/٦، مادة «عنجه».

والولاية والمال، يسلكون مسلك المقامرين يترقبون مفاجآت الربح والمغرم بين حين وحين.

ولمّا كانت قاعدة أولئك القوم هذا الفيض مع المطمع المنحرف، وهذا الأسلوب في التربص بالعدالة الاجتماعية للتركّز من جديد على قواعد من الوثنية السياسية والوثنية الاجتماعية؛ كان ابن أبي طالب أمام تجربة قاسية، غاية في القساوة، تتشابه عناصرها وتتداخل، وتفرض عليه موقفاً هو من الصعوبة بحيث يتعسر على صاحبه مداراة الأزمة والخروج منها، والعصرُ اضطرابٌ وقلقٌ وأحداث رهيبية. وهو من الخطورة بحيث يترتب عليه، إلى حدٍّ بعيد، مصير الخلافة والإسلام وما يستوجبانه في الناس من فضائل خلقية وعدالة اجتماعية. وهو من الدقة بحيث يكون المحكّ لشخصيّة صاحبه وحقيقة مواهبه في الوفاء للحقوق العامة، ومضاء عزيمته في إشاعة الفضائل الفردية والاجتماعية، وطاقته على الصبر والصمود.

كان ابن أبي طالب أمام تجربة أشبه بالتجربة التي مرّ بها النبي في المعركة القائمة، يومذاك، بين السماح والديموقراطية وإشاعة روح العدل من جانب، وبين الغدر والإستئثار وعقلية التجار والنبلاء من جانبٍ آخر.

كان ابن أبي طالب أمام تجربة قاسية؛ ولكن هذه القساوة إنّما تأخذ معناها وصيغتها من نظر المراقبين البعيدين. أمّا في قلب الإمام وفي ذهنه فما هي من القساوة بحيث تجعله يحيد عن الطريق التي ارتضاها مسلّكاً ولو قيد شعرة. فمن أوتي الطاقة التي آتاها الله عليّاً؛ هانت لديه القساوات إلّا قساوة القعود عن إشاعة العدالة وروح الحرية والعمل على زرع الفضائل الخلقية التي تصون هذه الحرية وهذه العدالة.

أما محمد بن عبد الله فقد صمّ آذان أبي سفيان وأبي لهب وحمالة الحطب وآكلة الأكباد وتجار قريش بهذه الصيحة التي نسفت بنيانهم نفساً ودكت سقوفهم دكاً، وقوضت جدرانهم تقويضاً، وكانت على قلوب المستضعفين والأرقاء برداً وسلاماً ونعمةً موفورة: «يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»^(١).

أما محمد بن عبد الله، فيوم قالوا له: «إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا. وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا». أجاب يقول: «ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم؛ ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي. فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة. وإن تردوه عليّ، أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم»^(٢).

أما عليّ بن أبي طالب، فماذا كان من شأنه مع ابن أبي سفيان وآكلة الأكباد وابن الحَكَم وتجار الولايات والجيوش المجرورة بالغباوة والمنفعة، ومع المساومين حتى في حدود العقيدة والاتجاه؟ لقد صمّ آذانهم، هو أيضاً، بهذه الصيحة التي نسفت بنيانهم نفساً، ودكت سقوفهم دكاً، وقوضت جدرانهم تقويضاً. وكانت على قلوب المستضعفين والمظلومين والمُعذّبين برداً وسلاماً ونعمةً موفورة: «أسفلُكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، والله ما أمرتُ بالجور ما أمّ نجمٌ

(١) تاريخ الطبري: ١ / ٥٤٥، طبعة بيروت.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ٥٠ / ١، جامع البيان للطبري: ٢٠٥ / ١٥، البداية والنهاية لابن كثير: ٦٦ / ٣، تفسير

الطبري: ٣٢٨ / ١٠.

نجماً، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزائمه حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً، والله إنني لأعترف بالحق قبل أن أشهد عليه، والله ما أبالي، أدخلت على الموت أو خرج الموت إلي»^(١).

أما علي بن أبي طالب فيوم قالوا له: نحن أعزة قوم، أجب يقول: «الدليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له. والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»^(٢).
ولكن، كيف أطلق ابن أبي طالب قوله من نطاق البيان إلى نطاق العمل؟
من الفكرة المعقولة إلى التجسيم المادي؟ وماذا كان من أمره وأمر الناس؟

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٦، ١٣٦، ٥٥.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٣٧ - ٣.

الولاية من الجماعة

- لا صواب من ترك المشورة^(١).
- إنما أنا رجل منكم، لي ما لكم وعليّ ما عليكم^(٢).
- والزموا السواد الأعظم، فإنّ يد الله مع الجماعة^(٣).
- قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودّعها من عدلٍ أو جورٍ؛
وجده فيها^(٤).
- الإمام علي

- وقال قولاً موجزاً بليغاً بسيطاً عميقاً كالْحَقِيقَةِ نفسها، حتّى لكأنّه ومضئُ
المقل وهتفة الروح:
«واعجباه! أتكُونُ الخِلافةَ بالصَّحابةِ ولا تَكُونُ بالصَّحابةِ والقِراةِ؟»^(٥).

كانت الخلافة قبل أن تؤول إلى ابن أبي طالب آخذةً بالتحوّل إلى مُلك أموي، كما تقدّم. أو أنها قد تحوّلت إلى مُلك أموي بالفعل، وكان وُلاة الأمر والوزراء والمستوزرون قد تعوّدوا الولاية على أنّها حقّ لهم يعود بأسبابه إلى الحسب والنشأة، وإلى ما يُبدّل في تثبيته من أموال ورشوات، ومداورات ومساومات. كما كانوا قد تعوّدوا أن ينظروا إلى حقوق الشعب على أنها منوطة بإرادة الؤلاة مهما كان شأن هذه الإرادة في مقاييس الخير والشر. فالجماهير

(١) شرح المائة كلمة للبحراني : ٢٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣٦/٧.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٦٨٢٥.

(٤) مستدرک النهج : ١٦٦، نهج البلاغة للحائري : ٢٩٧.

(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٩٠.

المستضعفة لم تكن في نظر أولئك القوم إلا ظهوراً تُعَرَى لتصبح مراعي للسياط ومرافع للأثقال.

أضف إلى ذلك أن خلافة عثمان قد أتاحت الفرصة لهؤلاء الولاة ومعظمهم من بني أمية، أو من أنصارهم النازعين منزعهم في النظر إلى الأمور، لأن يعملوا في أنحاء البلاد المرتبطة بالخلافة على إعداد العدة كاملة لتشييد ملك أموي تدعمه الأموال والرشوات والمساومات، وإطلاق أيدي النافذين في مقدرات العامة وفي رقابهم، وفي ابتياع الجيوش المحاربة بشمنٍ منقود أو موعود. ثم في تقريب من تُرجى منهم المناصرة وإبعاد من لا يناصرون. فإذا الدولة منقسمة على هذه القواعد الجديدة يستحدثها الأمويون الذين ما كانوا في الإسلام، بشهادة التاريخ، إلا ما كانوا في الجاهلية. وإذا معظم النافذين يخذلون إلا من وسع لهم في الاحتكار والاستغلال والحكم، وجعل في أيديهم مفتاح بيت المال وسيف السلطان، وقدم لهم الشعب في جملة ما قدم فأصبح ممّا ملكت أيماهم. وإذا الشعب بين مؤمنٍ بالخير العام، قانع بنصرة الحاكم العادل وإن لم يُجر عليه الرزق أنهاراً. وبين مرتدٍ مع المرتدين قابع يترتبص بالعدل والعادلين، حتى إذا ثار طلاب الملك ساوم، فساند إذا ربح، أو عاد يساوم من جديد ويساند.

* * *

آلت الخلافة إلى ابن أبي طالب والدنيا على هذه الحال، والقوم سائرون في ما هم سائرون فيه: فإما استماتة في مناصرة الخلافة في شخص الإمام الذي يعرفون عدله وميله إلى العامة، وإما إفراط في مساندة الملك في العنصر الأموي الذي يأبى إلا استعادة أمجاد الجاهلية مهما توغرت الطريق وتهشم فيها من

الضحايا. وهو لم يكن ليأبه^(١) للخلافة تصير إليه وقد ساهم أجل مساهمة في إدارة شؤونها بعهد أبي بكر وعمر، ونصح إلى عثمان في عهده، وما شكاً من البيعة تذهب إليهم عنه وما اهتم مرةً إلا بإقامة الحق. يدلك على أن علياً لم يكن ليأبه للخلافة تصير إليه أو تذهب عنه، وعلى أنه لم يكن ليريدها يومذاك وقد أرادوه لها، شهود من التاريخ وشهود من قوله. فمن كلامه يوم أريد على البيعة بعد مقتل عثمان: «دعوني والتمسوا غيري. وإن تركتموني فانا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خير لكم مني أميراً»^(٢).

لم يكن ليرضى بالخلافة يومذاك لأنه يريد لها وجهاً والقوم يريدون لها وجهاً آخر. فما هو منهم بها، ولا هم منه! ولأنه كان، كما قال: «في دهر عنود وزمن كؤود يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً، ويزداد الظالم عتواً»^(٣). ولأن «الآفاق قد أغامت، والمحبة قد تنكرت، والناس يعملون في الشبهات ويسرون في الشهوات. صُمّ ذوو أسماع، وبكمّ ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار. لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء»^(٤). ولأن القوم لن يحتملوا منه أن يجيبهم فيركب منهم ما يعلم، وألا يصني منهم إلى عتب العاتب وقول الراغب.

هذه هي حقيقة الحال التي مز بها الإمام علي في الأيام القلائل التي تلت مقتل عثمان، وسبقت اختلافه والقوم يبايعون له ويلتحون، ويتردد هو في قبول البيعة والوجهاء والنافذون على غير ما يريد هم عليه من الرغبة في الخير. غير أن هنالك ما يحمل ابن أبي طالب على أن يقبل بما أرادوا له من البيعة. فالعدالة الاجتماعية في خطر. والناس يأكل قوتهم ضعيفهم، وقد أطلقت أيدي

(١) ليأبه: ليقم لها وزناً، ليهتم لها، ليمبأ بها. لا يؤتبه به: لا يلتفت إليه. المنجد: ٢، مادة «أبه».

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٩٢ - ٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٣٢ - ١.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ٩٧ - ١٠.

النافذين منهم والحاكمين في الأرزاق والأعناق. والأثرياء والنبلاء يتحلبون شهوةً لاقتطاع الأرض واحتكار الخيرات وابتلاع الناس. فأتى له أن يمحث بعيداً عن مركز القيادة والحالة هذه الحال، والأمور قد تصبح في جملتها بعد قليل في أيدي «أغيلة من قريش» على حدّ تعبير النبي؟ وهذه الفئة القليلة قد أذلت الجماعة والسواد الأعظم، والجماعة في نظر عليّ تلزمها يدُ الله: «والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة»^(١).

إذاً، فقبول البيعة واجبٌ عليه وإن كلفه هذا من التحمل ما لا طاقة عليه لمحسنٍ «في زمن كؤود يُعدّ المحسن فيه مسيئاً»^(٢).

يقول عليّ: «ولكن أسفاً يعتريني وجزاً يربيني، من أن يلي هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذون مال الله دُولاً، وعباد الله خولاً، والصالحين حرباً، والفاستين حزباً»^(٣). وكان عليّ بطبعه ينفر من العزلة إذا لم تكن العزلة نفسها في خدمة الجماعة. فالإنسان إما اعتزل وهو قادر على خدمة الناس، أنكر ذاته. كما جحد الغاية من وجوده في مجتمع يريد من أفراده أن يتعاونوا في الخير ويتساندوا في المعروف. وأصبح عليّ إمام الناس. ولكي نفهم حكومة عليّ وسياسته الاقتصادية والمالية والاجتماعية لا بدّ أن نعود بها إلى أصل واحد لديه، هو: أسلوبه في فهم الولاية مصدراً وغايةً.

* * *

لم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب حقاً يوليه الله بشراً فيستأثر به ويدوم عليه ما شاء هو وما شاء له ذلك المتنفذون والأقربون، كما أصبحت فيما بعد في ملك بني أمية وبني العباس، وكما كانت في تاريخ أوروبا الوسيط

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧ - ٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ٣٢ - ١.

(٣) نهج البلاغة: ولكنني آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله خولاً والصالحين حرباً والفاستين حزباً. الكتاب: ٦٢ - ٩.

إذ عرّفوا الوالي - أو الملك - بأنه ظلّ الله على الأرض، وبأن إرادته هي إرادة خالق السماء لا يُنظر فيها إلى ما يجوز وما لا يجوز. بل إنّ الولاية في نظره هي من الجماعة تُؤلي من تشاء وتخلع من تشاء إثابةً على إحسان، وعقاباً على إساءة. يقول عليّ: «فإن ولّوك في عافية وأجمعوا عليك فقم في أمرهم. وإن اختلفوا فدغهم وما هم فيه»^(١). ويقول أيضاً: «انظروا، فإن أنكرتكم فأنكروا. وإن عرفتم فأزروا. حق وباطل، ولكلّ أهل»^(٢).

أما سلطة الوالي فمستمدّة من القيام بتنفيذ الشرايع الاجتماعية الأكثر صلاحاً. يقول عليّ في خطبة البيعة: «أيها الناس! إنّما أنا رجل منكم لي ما لكم وعليّ ما عليكم. والحق لا يُظلمه شيء»^(٣). ويقول في خطبة أخرى: «أيها الناس! إنّني والله لا أحثكم على طاعةٍ إلّا أسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن مَغصيةٍ إلّا أتأهني قبلكم عنها»^(٤). إذاً، فالحاكم لا يطاع لذاته بل لعدالته وتنفيذه للشرائع الاجتماعية الخيرة. ولم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب باباً يلجّه الوالي إلى الخيرات، ينال منها ما يُتخّم ثمّ يقسمها بين الأهل والأقارب والإخوان، والأنصار والأعوان. إنّما الولاية باب يلجّه الوالي إلى إنصاف الناس وإقامة أقصى ما يمكن أن يقيم من أسباب المساواة بينهم، والإثابة على البلاء بقدر البلاء، والمنع من الاحتكار والاستغلال جهداً ما يحتمل الزمان، وملازمة الحق ولو كانت هذه الملازمة طريقاً إلى هلاك الوالي على أيدي المفسدين، ثم توجيه الضمائر والعقول إلى الخير توجيهاً له أصول وقواعد ثابتة في خلق الوالي وفي مسلكه.

(١) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ٥ / ٢١٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦ - ٦.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣٦/٧.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١٧٥ - ٦.

بعث عليّ، فيما بعد، إلى بعض عمّاله يقول: «أما بعد، فلا يكن حظك في ولايتك مآلاً تستفده، ولا غيظاً تشفيه، ولكن إمارة باطل، وإحياء حق»^(١).

الولاية في نظر عليّ إنصاف الجماعة من الفئة الباغية لأنّ «يد الله مع الجماعة»^(٢). وهي لا بالصحابة تقوم ولا بالقرابة. وإنّ عليّاً ليعجب من هذا المنطق في فهم الخلافة فيقول قولاً موجزاً بليغاً، بسيطاً عميقاً كالحقيقة نفسها، حتّى لكأنّه ومضة العقل وهتفة الروح: «واعجباه! أ تكون الخلافة بالصحابة ولا تكون بالصحابة والقرابة»؟^(٣)

لم تكن الولاية في نظر ابن أبي طالب حسباً تُشيد عليه الأمجاد ولا شرفاً قديماً تُبنى له العروش، ويُتوسّل به إلى استعباد الناس. فإنّه: «لا حسب كالتواضع ولا شرف كالعلم»^(٤) و «الكرم أعطف من الرحم»^(٥) ولم تكن قهراً مادياً تخضع به الجماعات للسيف والنار، وقطع الأرزاق وهدر الدماء، ولا قهراً معنوياً تخضع به الجماعات للوالي بالترهيب أو الترغيب، وهو الإمام الذي عبد ربّه لا رغبة في ثوابه ولا خوفاً من عقابه، بل لأنّه يستحقّ العبادة. إنّما كانت توجّهها إلى الضمير الفردي برعاية الخير، وإلى الضمير الاجتماعي، والضمير الإنساني، ثمّ مخاطبة لعقل الجماعة الذي يرى فيحكم، فيقضي للوالي بأعماله، أو عليه. ولم تكن الولاية استبداداً في الرأي بعد استتباب الأمر. فالشورى أولى. وللجماعة الحق ملء الحق في أن يطالبوا الوالي «بألاّ يحتجز دونهم سراً ولا يطوي دونهم أمراً»^(٦) إلّا في ما كان احتجازه وطيّه إلى حين، من

(١) نهج البلاغة الثاني للحائري: ١٩٦، نقلًا عن المناقب: ٤ / ٣٤٨، نهج السعادة: ٥ / ٣٤٨.

(٢) في نهج البلاغة: فإنّ يد الله مع الجماعة، الخطبة: ١٢٧ - ٧.

(٣) نهج البلاغة: ٤٣، قصار الحكم: ١٩٠.

(٤) نهج البلاغة: ٢٧، قصار الحكم: ١١٣ - ٣.

(٥) نهج البلاغة: ٥٤، قصار الحكم: ٢٤٧.

(٦) نهج البلاغة: الكتاب ٥٠ - ٣، وفيه ألاّ أحتجز دونكم سراً إلّا في حرب، ولا أطوي دونكم أمراً إلّا في حكم.

مصلحة الجماعة بالذات.

وللجماعة الحق ملء الحق أيضاً في أن يدركوا واليهم بالرأي في كل ما يعود عليهم بالخير. وعلى الوالي ملء الواجب في أن يستقبل وجوه الآراء جميعاً لعل في هذه الآراء ما لم يخطر بباله، أو يهجس في ضميره أو يبلغه علمه.

ذلك لأن «من استقبل وجوه الآراء - كما يقول عليّ - عرف مواقع الخطأ»^(١). ومن عرف مواقع الخطأ؛ أمكنه أن ينفذ إلى الصواب. فأراء الجماعة ضرورة يُفيد منها الوالي في معنى ولايته، وتفيد منها الجماعة في معنى التوليّ عليها. وهي على كلّ حال، تحسم الأمور على صورة لا يقع بعدها ندم. ويعترف عليّ بهذه الحقائق اعترافاً لا يقبل تأويلاً إذ يقول: «لا صواب مع ترك المشورة»^(٢). وليس من صفة الوالي في شيء أن يحيط أعماله بالغموض وأن يتستر توسلاً إلى بلوغ حاجة من الحاجات خفية عن الخلق. لذلك يتوجه عليّ إلى الناس ليدلّهم على هذا الحق من حقوقهم قائلاً: «واستصحبوا من شعلة مصباح واضح»^(٣). لم تكن الخلافة في مذهب ابن أبي طالب بعداً عن الناس، وانصرافاً عن الشعب ودنواً من الكبر، واحتجاباً عن النظر في الأحوال العامة وحاجات الأفراد والجماعات. بل أنها سبب في تقريب الوالي من الناس وعطفه عليهم وتواضعه لهم، ثم انصراف تام إليهم، لا عذر يقبل دونه ولا حجة. والناس إن سخطوا على الوالي بسبب من هذه الأسباب جميعاً؛ لا بد أن يثقل عليه أمرهم كما ثقل عليهم أمره، لأن موقفهم منه يجب أن يكون صورة

(١) نهج البلاغة، ٤٢، قصار الحكم: ١٧٣.

(٢) مطلوب كلّ طالب، رشيد الطواط: ١٣، شرح المائة كلمة: ٢٠٢، مناقب الخوارزمي: ٣٧٥، ينابيع

المودة: ٤١٢/٢.

(٣) نهج البلاغة: أيها الناس! استصحبوا من شعلة. مصباح واعظ متعظ، الخطبة: ١٠٥ - ٧.

عن موقفه منهم. وفي ذلك يقول علي: «قلوب الرعية خزائن راعيها، فما أودعها من عدلٍ أو جور؛ وجدّه فيها»^(١).

ولم تكن الولاية في مذهب ابن أبي طالب عصبية؛ لأن التعصب مذموم إلا إذا كان «لمكارم الخصال والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي وإنصاف الخلق واجتناب الفساد في الأرض»^(٢).

والولاية، على كل حال ليست في مذهب ابن أبي طالب لأولئك الذين يقول فيهم: «لو وُلّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وقيصر»^(٣) والذين هم «من أهل المكر والغدر» و«أولي الجور والظلم» و«أكلة الرشا!» و«الذين يقدم الطعام - في ولايتهم - إلى شعبان!»^(٤).

لذلك كله لم يقبل علي بالخلافة إلا معترفاً أن يقيم حقاً ويزهق باطلاً وإلا فمفارقة الحياة أولى.

وهو لذلك وغير ذلك يهيب^(٥) بالناس أن يحاسبوا ولا تهم ويراقبوا أعمالهم. وبألا يقبلوا بوالٍ إن لم يكن خادماً لهم. وبأن يُبدوا السخط إذا شاءوا وأن يُبدوا الرضا. فيقول لهم: «ألا تسخطون وتنقمون أن يتولّى عليكم السفهاء... فتعموا بالذلّ وتقرّوا بالخسف ويكون نصيبكم الخسران؟»^(٦) بل إنه يضع السخط من الجور موضع المقابلة مع الرضا بالعدل، في قولٍ حكيم: «إنما يجمع الناس الرضا والسخط: فمن رضي أمراً فقد دخل فيه. ومن سخط فقد خرج منه»^(٧).

(١) غرر الحكم: ٦٨٢٥.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ - ٧٨. «كفوخل»

(٣) نهج السعادة: ٣٦٠/٢، الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٦٤/١.

(٤) كشف المحجة لابن طاووس: ١٨٧.

(٥) يهيب بالناس: يحفّهم، ويثير فيهم الحماس.

(٦) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢ - ١٣.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠١ - ٢.

وهو لذلك ولغير ذلك لم يوص بالخلافة بعده لأحد؛ لأن الأمر يجب أن يُنَاط بالجماعة وحدها. فإذا هم طلبوا إليه أن يستخلف ابنه الحسن بعده؛ أبي، وقال: هذا القول الذي تنتهي إليه المكارم في صفات الحاكم والوالي كما تنتهي إليه صراحة الاعتراف بالحريات العامة وبحقوق الناس في تسيير أمورهم على ما يعلمون ويختارون: «لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أعلم»^(١).

فلماذا يأمرهم باستخلاف ابنه إذا هم أنكروه؟

ولماذا ينهاهم عنه إذا هم وجدوا فيه من يرضون عنه؟

أو ليسوا، هم في الحالتين أعلم بأحوالهم وحاجاتهم وشؤون مجتمعهم؟

أو ليس لهم وحدهم الحق في تقرير ما يودون أن يصيروا إليه؟

أقول: إنها الغاية التي ينتهي إليها احترام حرية الجماعة وتقرير حق الإنسان في ولاية نفسه. وقد بلغ بعلي احترام حريات الناس أن أباح لهم الحرية حتى في ما يتعلق بموالاتهم إياه أو باعتزالهم عنه. وذلك بعد أن والاه السواد الأعظم، وأصبح اعتزال فريق منهم، إنكاراً لحق الجماعة في من يولون عليهم.

فهو يأبى كل ما يأتي عن طريق الضغط أو الإكراه. من ذلك ما كان من أمره مع نفر أبوا أن يبايعوا. فهو لم يحتز ولم يرتبك. ولم يُكرِه ولم يغفل عما قد يسيء إلى إرادة الجماعة في وقت معاً. فأباح لهؤلاء أن يلزموا رأيهم، ثم أن يفرغوا من أمر الناس اعترافاً منه بحق الأفراد والجماعة في نطاق واحد. وتفصيل ذلك أن سعد بن أبي وقاص - وهو أحد أصحاب الشورى - أبى أن يبايع، فتركه علي وشأنه بعد أن قال لعلي: ما عليك مني من بأس.

(١) البداية والنهاية: ٣٦٢ / ٧، مناقب الخوارزمي: ٣٨٤، جواهر المناقب: ٩٢ / ٢.

ومن هؤلاء النَّفَر أيضاً عبد الله بن عمر ، فقد أبى عبد الله أن يبايع ، فطلب علي من يكفله لئلا يثير الفتنة. فأبى أن يقدم كفيلاً. فقال له علي: ما علمتُك إلّا سيء الخلق صغيراً وكبيراً. ثم قال: خلّوه وأنا كفيله ، وأبى البيعة قوم آخرون ، فخلّى علي بينهم وبين ما أرادوا شرط أن يعتزلوا الفتنة فلا يُسيئوا إلى إرادة السواد الأعظم. وشاء قوم من الثائرين أن يُكرهوا المتخلفين عن البيعة فيحملوهم قسراً عليها ، فأبى علي ذلك أشدّ إباء. لقد كانت قاعدته العامة في شأن البيعة مستندة إلى هذه الحقيقة التي يراها ويعتبر عنها بقوله: «فمَن بايع طائعاً؛ قبلت منه ، ومن أبى تركته»^(١). فحرية الأفراد مكفولة في حكومة عليّ إلّا إذا ألحقت الأذى بحرية الجماعة. لذلك لم يترك هذه الحرية للزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومعاوية ابن أبي سفيان ، وقد تركها لسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وغيرهما من الذين أبوا أن يبايعوا. فأولئك الثلاثة طامحون إلى ولاية الأمر لما تضمن لهم هذه الولاية من ثروة ومجد وسلطان. فهم لذلك يثرون على الخليفة الجديد ، إن لم يكن اليوم فغداً. وهم لذلك عامدون إلى الفتنة وشق الصفوف والاستئثار بما الناس فيه أسوة. ثم إنّ هؤلاء الثلاثة قوى من الأموال والجنود تُيسر لهم أسباب الفتنة. لذلك لم يتركهم عليّ وشأنهم. وسوف نتبين صدق نظرة الإمام إلى هؤلاء في باب «المؤامرة الكبرى على الإمام».

إذن ، فالولاية من الجماعة ؛ ولا إكراه على البيعة إلّا إذا اقتضت مصلحة الجماعة ، لا مصلحة الوالي ، هذا الإكراه. وهو أجلّ المفاهيم لعلاقة الحاكم بالمحكوم ، في ما يتعلق بحرية القول والعمل. وكان من الطبيعي ، والحالة

(١) نهج السعادة: ٣٢٥ / ٥. وفيه : فمن بايعني طائعاً قبلت منه.

هذه ، أن يربط ابن أبي طالب وُلَاتَه وعمَّاله بالشعب بمثل ما ارتبط به هو. فكان شديد المراقبة لهم على ما سنراه في حينه ، يشدّد عليهم في كل ما يلزمهم من رعاية الحقوق العامة. وقد خطا في ذلك خطوة رائعة تنسجم مع دستورهِ العام في الحقوق والواجبات ، وتنسجم كذلك مع أرقى دساتير الأمم الحاضرة ، وهي أنه جعل من المحكوم. نفسه رقيباً أعلى على الحاكم ، ومصدراً لأسلوبه في الحكم فكان إذا ولى أحدهم إقليماً من الأقاليم ، أو مدينة من المدن ؛ أعطاه عهداً يقرؤه على الناس. فإذا أقرّه الناس بعد أن يقرأ عليهم العهد ، كان هذا العهد عقداً بينهم وبينه لا يجوز لهم أن ينحرفوا عنه ، ولا يجوز للحاكم أن يتأوله أو يخالفه في كثيرٍ أو قليل. أمّا إذا انحرف عنه ؛ فإن عليّاً يوجب عليه العقوبة وينفّذها فيه من فوره.

الْحُرِّيَّةُ وَتَنَايُجُهَا

الحرية وينابيهما

.لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً^(١).
.وقد أذن لك أن تكون من أمرك على ما بدا لك^(٢).
.ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكزيين^(٣).
.فبايعاني على هذا الأمر، ولو آتينا لم أكرههما كما لم
أكره غيرهما^(٤).

علي

هذا الإيمان الأصيل العميق بالحرية ، تلقاه في الأسس التي قامت عليها
مناهج عليّ في الحكومة والسياسة والإدارة. وهو بوحياها فصل وأجمل ، وأمر
ونهى ، وسالم وحارب ، وعزل وأثبت ، وخالط الناس ، وعامل ولده ، وعبد
ربه. أما نظرته إلى الحرية فمستقاة من نظرته العامة إلى الكون ، وإلى المجتمع.
قطب هذا الوجود المتحرك في طريق الخير الأعلى.
أما معاني هذه الحرية فتنبع من العلاقات التي يرتبط بها أبناء المجتمع ،
بقدر ما تنبع من الضمائر والوجدانات. ولها أركان هنا وأركان هناك ، ولا
تقوم مقاييسها إلا عليها جميعاً. هكذا يقرّر العقل والتجربة ، وهكذا يقرّر
ابن أبي طالب.

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٨٧، ٣١.

(٢) الإمامة والسياسة ، تحقيق علي شيري: ٦٩ / ١. ومنها مواقف الشيعة للميناجي: ٢٩ / ٣.

(٣) الكافي: ٥٥ / ١ ، روضة الواعظين للنيسابوري: ٤٠ ، الفصول المختارة للمفيد: ٧١ ، شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد: ٣٢٧/١٨.

(٤) نهج السعادة: ٢٢٥ / ٥ ، الإمامة والسياسة: ١٧٦ / ١ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩٧ / ٦ ، كشف

المحجّة: ١٨١.

أما العلاقات التي يرتبط بها أبناء المجتمع ، وهم ذوو صفتين فردية واجتماعية ، فقد أوقف الإمام سياسته وحكومته وإدارته على تجويدها بما يمكن للناس من العيش الكريم ، ويهبهم الفرصة للانطلاق في ميدان الحرية بامتاع أشكالها ومعانيها ، وللامتداد في الأفق الإنساني الواسع.

إنّ أَوَّلَ مسلك في هذا النطاق لابن أبي طالب ، كان أن عالن الناس بمسؤوليته في إقامة ما هو حق ، وتهديم ما هو باطل ، إعفاءً لهم من محاولة فاشلة قد يفكرون باللجوء إليها لمعصية أو إثمٍ فردي ، مستشفعين لذلك بمودة أو قرابة أو مناصرة ، يراد بها أجرٌ يلحق الغبن بالجماعة.

ثم إنه قدّم لتقرير هذه المسؤولية ، إرهاباً من قوله وعمله قبل الخلافة وبعدها. وأرى القوم مسلماً ذا وجهٍ إيجابي يقوم بالتوجيه إلى الخير وبالعمل على تركيز أسبابه والدوافع إليه، ومسلماً آخر ذا وجه سلبي يقوم بالشدة في إقامة الحدود مع الأبعدين والأقربين ، وفيهم خصمه وأخوه.

ثم إنه مطمئن إلى ما يعرفه الناس ، كلّ الناس من زهده وتعقّفه ، والتزامه ما لا يلزم من أسباب الزهد والتعقّف. وما ذاك إلا إمعاناً منه في تجريد الذات ، إلا ممّا يُمسك عليها الحياة المتيقظة لرعاية الحق ، وإمعاناً في رعاية المستضعفين بالشعور والوجدان إلى جانب ما هو عازم عليه من السعي في رفع الجور عنهم ، ورفع الحاجة بما هو من باب الحق لا من باب الجود والإحسان. فهو مطمئن إلى نفسه ، وهو يأبى أن يُدَلَّ الطريق إلى مصفى العسل وفي الشعب من لا عهد له بقرص الشعير ، وأن يُدَلَّ الطريق إلى نسائج القز وفي الشعب من لا طمع له بالطمر المرقع ؛ وأن يقال له : أمير المؤمنين ولا يشاركهم مكاره الدهر .

لقد حرّز عليّ نفسه مما تقيّد به وُلاةُ زمانه من إغلال الإشادة بالحسب والنسب ، وحرّز نفسه من المطمع في الملك والمال والجاه والكِبَر

والاستعلاء. وحزّر نفسه من العرف إن لم يُدر في نطاق العقل السليم ، والحاجة الاجتماعية ، والشوق الإنساني الخير. وحزرها من تخصيص ذويه ومحبيه بما ينفعهم دون سواهم ، ومن الحقد على أخصامه والانتقام من مبغضيه ، وحزّر ضميره من كلّ مناجاةٍ بعملٍ لا يثق بصلاحه ، أو قول لا يرضاه ، فكان الضمير العملاق. ثم حزّر جسده من شهوة المأكّل والمشرب والملبس والسكن ؛ إلّا ما كان من الضرورات البديهية القاهرة. وهو لم يكن ليتناول ثمناً لهذه الضرورات من بيت المال العامّ على حقّه في الحصول على نصيبٍ منه ؛ كبعض نصيب عمّاله وولاته على الأقلّ. فتحدّثنا الرواية الثابتة أنه ربما باع سيفه ودرعه وأمتعته ليأكل وبنوه بأثمانها ، فيما كان يوسع على العمال والولاة كي لا يضطّروا إلى قبول الرشوة ، مما يؤدّي إلى ظلم الحقّ ومسايرة الباطل.

حزّر الإمام عليّ نفسه من هذه الأمور جميعاً ؛ ليتمّ له أن يتفكّلت من كلّ قيد يحول بينه وبين العدل ، على الصديق والعدوّ معاً. ويوجز هو نفسه حالته هذه بقوله: «من ترك الشهوات كان حرّاً»^(١).

أمّا تقواه فما كانت إلّا تقوى الأحرار ، يؤمنون فيعملون بوحى ما يؤمنون به ، لا تظاهر هناك ولا موارد ، لا خشية من عقاب ولا طمع في ثواب.

أمّا ضمان الحرية للناس ؛ فيقوم في الدرجة الأولى على العمل. وقد أنزل الإمامُ الجسدَ العامل من الأرض منزلة القلب الكريم من الجنة ؛ فقال في الطيبين : «قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل»^(٢) ويقوم نفع العمل بإثابة

(١) نهج السعادة: ٧ / ٤٧٦ ، تحف العقول: ٨٨ .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢، ١٣٦.

العامل بما يعمل ، على ما سيأتي بيانه بالتفصيل.

وإعلاءً منه لشأن الحرية ، والعمل الحرّ ؛ اشترط ألا يُجبر عاملٌ على عمل. فالعمل الذي لا يواكبه الرضا الوجداني العميق ؛ فيه إساءة إلى الحرية ، ثم إلى العمل ذاته. يقول : «ولست أرى أن أجبر أحداً على عملٍ يكرهه»^(١). ويكتفي للحث على العمل الذي يفيد الجماعة ، وللمحافظة على الحرية الفردية في وقت واحد ؛ بأن يجعل نتيجة العمل من حق العامل وحده ، وبأن يحرم من كرهه لغير مبرّر مقبول: «والنهر لمن عمل دون من كرهه»^(٢).

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أمرٍ ذي خطر في نطاقِ هذا البحث. فلو استعرض المرء لفظة الحرية في ذلك العصر لَمَا وجدَ لها مدلولها الواسع العام إلّا في نهج الإمام عليّ، فإن كلمة الحرية ومشتقاتها جميعاً لم يكن لها من المدلول في عصر الإمام إلّا ما يقوم منها في معارضة الرق. فالحرية ضدّ العبودية ، والحرّ ضدّ العبد أو الرقيق. فلو نظرنا في المدلول الصحيح لكلمة عمر بن الخطاب المشهورة : «متى استعبدتم الناس وقد ولدنهم أمهاتهم أحراراً»^(٣) لرأينا أن صيغة هذه العبارة ، والظرف الذي قيلت فيه ، والدوافع التي أهابت بابن الخطاب إلى قولها ، تتفق جميعاً على أن عمر لا يعني بالأحرار إلّا أولئك الذين ليسوا عبيداً يباعون ويشترّون.

أمّا لفظة «الأحرار» التي تعني أصحاب الحق في القول الحرّ والعمل الحرّ ، فليست تلك التي يوردها ابن الخطاب في عبارته هذه، بل نضيف إلى ذلك دليلاً آخر ، هو : أن عمر توجه بقوله هذا إلى الذين يستعبدون الناس

(١) أنساب الأشراف: ١٦٢، نهج السعادة للمحمودي: ٣٥٩ / ٥.

(٢) أنساب الأشراف: ١٦٢، تاريخ يعقوبي: ١٩٢ / ٢.

(٣) كنز العمال: ٦٦ / ١٢، الحديث رقم (٣٦٠١١)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩٨ / ١١.

فيأمرهم بالآلا يسترقوا من ولدتهم أمهاتهم أحراراً. وهو لم يتوجه بقوله هذا إلى الأرقاء أنفسهم فيأمرهم بأن يثوروا على مستعبيهم شراءً وبيعاً. إذا فالأمر منوط بإرادة الأسياد في كلمة عمر ، والنصيحة موجهة إليهم وحدهم ، والأفضل ألا يسترقوا المستضعفين من الناس.

أما عند علي بن أبي طالب فالأمر غير ذلك، ومفهوم الحرية لديه أوسع وأعم. نستدل على ذلك بنص صريح له أولاً ، ثم بما نستنبطه من دستوره العام الذي نرى منه وجوهاً في معظم أقواله وعهوده ووصاياهم. فإذا كلمة عمر التي أشرنا إليها ، يقول علي : «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً»^(١) فانظر كيف توجه علي بقوله هذا إلى من يريده أن يثق بنفسه ويستشعر روح الحرية ومعناها ، فألقى في نفسه ما يوقظه على أصل من أصول وجوده ، وهو : أن طبيعة الكون جعلته حراً لا يتمرد ولا يُطيع ، ولا يعمل ولا يقول إلا على أساس من هذا الحق الطبيعي. وهو بذلك إنما يلقي في نفسه بذور الثورة على كل ما من شأنه أن يضيق عليه ويسلبه حقه في أن يكون حراً.

ولا يظن القارئ أن الفرق بسيط بين كلمة عمر بن الخطاب إذ يتوجه إلى الأسياد فيأمرهم بالآلا يستعبدوا أحداً ، وبين كلمة علي بن أبي طالب إذ يتوجه إلى الكافة فيخبرهم بأنهم أحرار ، ويجعل الأمر مرهوناً بإرادتهم هم ، لا بإرادة الأسياد إذا شأوا استعبدوا ، وإذا شأوا أعتقوا. فالفرق في نظرنا شاسع عظيم، وهو فرق يتناول الأصول لا الفروع. ويشير إلى عمق نظرة الإمام علي إلى مفهوم الحرية. فالحرية في نصه هذا نابعة من أصولها الطبيعية: من الناس الذين لهم وحدهم الحق في أن يقرروا مصيرهم، استناداً إلى أنهم أحرار

حقاً لا رأيي في ذلك لمن يريد أن يسلبهم هذه الحرية أو «يمنحهم» إياها. ومن عمق هذه النظرة العلوية إلى الحرية ، أن علياً يقرّر بقوله هذا ، أن الحرية عملٌ وجدانيّ خالص ملازمٌ للحياة الداخلية التي ترسم بذاتها الخطوط والحدودَ والمعاني فلا تُقسَر عليها ، لأنها نابعةٌ من الذات لا تلقائية ولا خارجية. وهي إذا كانت كذلك ؛ فليس لأحدٍ أن يُكره الآخر أو يجبره في هذا النطاق؛ لأن عمله هذا يأتي فارغاً من أي معنى ، خالصاً من أي أثر.

إذاً ، فالفرق بين كلمتي عمر وعليّ فرقٌ جذريّ لا فرعيّ : هناك حرية وأحرار تناط قضاياهم بإرادةٍ من يبيعون ويشترّون ، فهي حريةٌ معلقة وهم أحرارٌ مستيرون. وهي حريةٌ شكلية لا تنبع بحدودها ومعانيها من معينها الطبيعي ؛ بل تُرسم خطوطها خارج الذات وخارج الوجدان. وهم أحرارٌ أقصوا عن وجداناتهم وارتبطوا باتفاقات ومعاهدات. وهنا حريةٌ وأحرارٌ تناط قضاياهم بالطبيعة الإنسانية نفسها ، وهي طبيعة حرةٌ بأصولها وينابيعها.

فالحرية إذاً مطلقةٌ ، وحدودها الرفض والقبول ضمن نطاق الحياة الداخلية والوجدان. والأحرار مخيرون ، يقبلون ويرفضون عن اقتناع وعن إيجابية. والحرية بمفهومها العلويّ هذا ، هي التي تخلق الثورات وتنشئ الحضارات وتقيم علاقات الناس على أسس التعاون الخير ، وتربط الأفراد والجماعات بما يشدهم إلى الخير ؛ لأن الارتباط حين يكون طرفاه الاقتناع والقبول هو وحده الطبيعي بين الارتباطات.

* * *

ولمّا كان مفهوم الحرية عند عليّ هو هذا المفهوم الدقيق العميق، كان لابدً لمعناها من أن يكون هو المعنى الذي يُنظر على أساسه إلى الأحوال الخاصة والعامة، إلى كلّ ما يرتبط بوجدانات الناس ونزعاتهم وحياتهم

الداخلية ، وإلى كل ما يتصل بالعلاقات العامة. وكان لابد أن تُبنى عليه حقوق الإنسان.

ولما كانت شخصية علي بن أبي طالب من التماسك الشديد بحيث تتساقق منبثقاتها جميعاً وتتعاون ، وبحيث تتحد في أصلها الأصيل وغايتها الأخيرة ، فإنك لا شك واجدٌ هذا المفهوم للحرية أتى اتجهت معه وأيان سرت. أما إذا فاتك أن تلاحظ الصلة الوثيقة بين معنى من معانيه ، أو عمل من أعماله ، وبين هذا المفهوم للحرية، فما عليك إلا أن تعيد نظرك من جديد في ما أنت بصّده، فإذا أنت أمام هذه الصلة الوثيقة وجهاً لوجه.

فعلي بن أبي طالب من تماسك الشخصية بحيث لا يتناقض أبداً ، وهو من سلامة الطبع وأصالة الفكر بحيث لا يتعارض. وسوف تُبرز هذه الناحية الهامة في ابن أبي طالب في فصل آتٍ عقدناه ودفعنا إلى عقده أسباب ذكرناها.

وإذا شئت دليلاً حاضراً على هذه الحركة العفوية الموجهة التي تدفع ابن أبي طالب إلى أن يربط كل ما ينبثق عنه من قولٍ أو عمل بمفهوم الحرية كما أوضحناه ، فإليك الدليل:

من المعروف أنّ نظرية القضاء والقدر لها مكانٌ في الأديان الشرقية جميعاً ، وأنّ لها أصولاً بعيدة في فلسفات القدامى وفي مفاهيمهم الإلهية وما يتصل بها من سنن أخلاقية ؛ كان لها في توجيه الأفراد عملٌ ملحوظ وإن كان محدوداً.

ومن المعروف كذلك أنّ مذاهب كثيرة نشأت في المسيحية والإسلام وغيرهما ، من غاياتها تعليل الحوادث الخاصة والعامة ، القريبة والبعيدة ، على ضوء هذه النظرية. ولا غرابة في أن تترتب على هذا الأسلوب في تعليل

الحوادث مناهج خاصة في الأخلاق والمسلك ، ترفع المسؤولية في العمل عن المتسبب فيه لتلقيها على القضاء والقدر.

ولما كان من أصول هذه المذاهب القدرية أن تجعل زمام الحوادث بيد القدر وحده، فقد بات من الطبيعي لديها تعطيل كل معنى من معاني الحرية التي تفرض وجود القدرة على الاختيار ، وتجعل المختار في النتيجة مسؤولاً لأنه حر.

هذه القضية بالذات ، واجهها علي بن أبي طالب. ولكن على أي أسلوب؟

هل قال بأن القضاء والقدر - وهما يد الله في فلسفات القدامى ومذاهبهم - يسوقان الإنسان سوقاً فلا رأي له في ما هو مبسوط أمام عينيه من شؤون الحياة ، ولا اختيار له في ما هو صائر إليه؟

إنه لو قال بذلك لناقض نفسه ، ولما كان لقوله في الحرية شأن. فإنه لا يكون إذ ذاك أكثر من قولٍ عابرٍ ، لا يصدر عن أصل عميق ولا يهدف إلى غاية معلومة ، ولا يعتبر عن حقيقة قائله إلا بمقدار ما تعتبر الخاطرة الطارئة الذاهبة.

أما إذا كان لقوله في الحرية هذا الشأن الذي نراه، فإنه منكّر سوق الإنسان بيد القدر إنكاراً شديداً، ولا شك وإنه ناظر إلى القدر بعين من لا يضع إمكاناته فوق إمكانات الإنسان الحر الذي يرى ويعلم ويختار ويتجه ، وماذا قال ؟

قال لشيخ من أهل الشام حضر صفين :

«إن الله قد أعظم لكم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون. وعلى مقامكم وأنتم مقيمون. ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين».

فقال الشامي:

«كيف يكون ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا
وانصرفنا؟»

فقال له علي:

«ويحك يا أخا أهل الشام ! لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً محتوماً ؛ لو كان كذلك ؛
لَبُطِلَ الثوابُ والعقاب ، ولم تأتِ لائمةٌ لمذنبٍ ولا محمودةٌ لمحسن ، ولَمَّا كان المحسن
أولى بثواب الإحسان من المسيء ، ولا المسيء أولى بعقوبة المذنب من المحسن»^(١).
وقال أيضاً:

«إن كنت صادقاً كافيناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك»^(٢).

ولا يكون قدرياً من يكافئ صادقاً ويعاقب كاذباً.

قلنا: إنه لما كان مفهوم الحرية عند علي هو هذا المفهوم الدقيق العميق ؛
كان لابد لمعناها من أن تُبنى عليه حقوق الإنسان. وهذا ما نراه واضحاً كَلَّ
الوضوح في دستور علي في الناس. فهو يعترف للأفراد بحقوقهم في الانتخاب
والاعتزال ، وفي القول والعمل ، وفي العيش الكريم ، ثم يساوي بينهم جميعاً
في الحقوق والواجبات. ولا يجعل لهذه الحرية حدوداً إلا إذا اقتضت مصلحة
الجماعة مثل هذه الحدود.

ونحن إذا تابعنا سيرة الإمام في الناس - كما تبيينها في الفصول
السابقة وكما سنتبينها في الفصول اللاحقة - ألفيناه لا يعارض بتصرفاته
ودستوره هذا المفهوم للحرية في كثيرٍ أو قليل. وقد عالج هذا المفهوم تلقيناً
وتطبيقاً في إقامة الحقوق العامة، ورعاه في أصحابه وأعدائه على السواء.

(١) الفصول المختارة للمفيد: ٧١، روضة الواعظين للنيسابوري: ٤١.

(٢) أصول الكافي: ٧ / ٧٨، الفصول المهمة: ١ / ٤٩٤، نهج السعادة: ٣٣٩ / ١.

وقد مرّ بنا في مطلع هذا الفصل كيف قرّر أنّه لا يجوز إجبار أحد على أن يعمل ما يكره عمله، ولا أن يُستخر أحد في عمل. ومرّ معنا في الفصل السابق كيف أنّه لم يستكره بعض الناس على مبايعته بل تركهم على خطئهم، وهو واثق بأنهم على خطأ. ولماذا يستكرههم؟ طالما أنّ بقاءهم على خطئهم لا يؤذي الجماعة ولا يسيء إلى الحقوق العامة، وطالما أنّهم اختاروا لأنفسهم هذه الطريق راضين عمّا يصيبهم فيه من خير أو شر: «وأنتم أعلم بالحلّ والحرام، فاستغنوا بما علمتم»^(١). ويقول مخاطباً المغيرة بن شعبة: «وقد أذنّت لك أن تكون من أمرك على ما بدالك»^(٢).

من ذلك أيضاً أنّ حبيب بن مسلم الفهري جاءه مرّة يقول: اعتزل أمرّ الناس فيكون أمرهم شوري بينهم. فقال عليّ: «وما أنت وهذا الأمر؟ اسكت فإنّك لست هناك ولا بأهلٍ له». فقام حبيب وقال: «والله لتريّني بحيث تكره»^(٣).

وليس بخافٍ على القارئ ما في هذا القول من التهديد الصريح يتوجّه به أحدهم إلى ابن أبي طالب والزمان والناس حربٍ عليه. ولكنّ، ما كان من أمر عليّ؟ هل أمر به وفي يده أن يأمر وقد أطلق في وجهه مثل هذا التهديد؟ أم هل سجنه فمنع عليه أن يكون حزاً في عداثه وتأليب قومه عليه؟ أم ماذا؟ إنّّه لم يفعل شيئاً من هذا، بل نظر إلى صاحب التهديد وقال بلهجة الواثق من عدالته المعترف بحق الآخرين في أن يقولوا ويفعلوا: «ما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك! لا أبقي الله عليك إن أبقيت عليّ، إذهب فصوّب وصعد ما بدالك!»^(٤).

(١) البداية والنهاية: ٣٦٢ / ٧.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٤٩ / ١ - ٥٠، ومنها مواقف الشيعة: ٢٩ / ٣.

(٣) وقعة صفين، نصر بن مزاحم: ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق.

ونضيف إلى ذلك شواهد أخرى تدلّ على مقدار ما كان يترك من الحرية الواسعة السمحة لأصحابه وأعدائه على السواء. من هذه الشواهد: إن نقرأ كانوا يرحلون من الحجاز والعراق ويأتون الشام ليلحقوا بمعاوية ، فما كان عليّ ليصدّهم أو يعرض لهم ، وما كان يحاول استبقاءهم أو إغراءهم ، فهم في مذهبه أحرار ، يعملون عن مدى تصوّرهم ويسلكون سبيلهم إلى ما يريدون. يقول عليّ:

«اللهمّ إني دلتهم على طريق الرحمة ، وحرصتُ على توفيقهم بالتنبيه والتذكّرة ، ليثيب راجعٌ ويتعظّ متذكّرٌ، فلم يُطع لي قول، اللهمّ إني أُعيد عليهم القول...»^(١).

لقد دلّهم هو على طريق الخير وتركهم أحراراً لا يجبر ولا يستكره. فليستخدّموا هذا الحقّ في الحرية، فمن شاء منهم اهتدى ، ومن لم يشأ فأمامه طريق الشام رحبةٌ واسعة ، ومعاوية في انتظاره يُعطي فيكثر العطاء.

ولمّا كتب إليه عامله على المدينة : سهل بن حنيف الأنصاري يخبره بأن قوماً من أهلها لحقوا بمعاوية ، كتب عليّ إليه يقول:

«أما بعد ، فقد بلغني أنّ رجالاً ممن قبلك يتسلّلون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفتوك من عددهم ، ويذهب عنك من مدّدهم ، فإنّما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومسرعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أسوة ، فهربوا إلى الأثرة ، فبُعداً لهم وسحقاً! إنهم ، والله ، لم ينفروا من جورٍ ، ولم يلحقوا بعدلٍ»^(٢).

وشاهد آخر على معرفة عليّ حقّ الناس في الحرية الواسعة أسلوبه في معاملة الخوارج.

(١) المسترشد لمحمد بن جرير الطبري: ٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٧٠-٤.

فقد كان يحسن معاملة من أقام منهم معه. ويعرف أن أحدهم يهجم بالخروج فلا يستكرهه ولا يستبقيه ، ولا يرضى بأن يتعرض له من أصحابه أحد.

ثم إنه كان يعطيهم نصيبهم من الفياء أسوةً بسائر الناس ، ويفسح لهم في المجال لأن يتوجهوا حيث يشاؤون. فالحرية أساس في المعاملة، والناس أحرار في ما يرون من عملٍ وقول ، وموالة ومعادة ، إلا أن يعتدوا على الناس ، ويُفسدوا في الأرض فإنهم حينذاك غير أحرار. وإنه حينذاك مقيم ما لزمهم من الحدود في غير لين.

وقد أخبره أحدهم مرة - واسمه الخريت بن راشد - بأنه لن يأتّم به ولن يشهد معه الصلاة ولن ياتمر بما يأمر ولن يكون له عليه سلطان. فما كان من عليّ إلا أن أقّره على ما ارتأى وأراد ، وخلّاه حرّاً في ما شاء. ثم كانت أيتام خرج الخريت بن راشد بعدها ومعه أصحابٌ له كثير. فما استكرههم عليّ على البقاء معه ، ولا منعهم من الخروج ، وببده أن يستكره وأن يمنع. فلما أسأوا واستغلال هذه الحرية فاعتدوا على الناس الأبرياء ونهبوا وعاثوا في الأرض فساداً وتركوا على أنفسهم سبيلاً، أرسل عليّ إليهم مَن أنصف منهم للأرض والناس.

ويهزك في ابن أبي طالب من اعترافه للناس بحريتهم أكثر من هذا. يهزك فيه هذا الانسجام بين سيرته في الناس وبين إيمانه بأن الحرية أصلٌ إنساني لا يجوز فيه التأويل ، ولا يصح عنه الانحراف، فهو معترفٌ بهذا الحق في الحرية لأصحابه حتى في أخطر المواقف عليه: في جهاد القاسطين والفاستين وأهل الردّة عن الحق ، وقد ملأوا الأرض وطلبوا دمه في جملة ما يطلبون. فلما كان جهاد هؤلاء أمراً تقضي به كلّ المقاييس والموازن ، ويقضي به الوجدان

الذي يرمى العدالة والحق، كان لابد لابن أبي طالب من أنصارٍ في الحرب وأعوان، ولكنه لم يكن ليستكره أحداً من هؤلاء الأنصار على جهادٍ وقتال، ولم يكن يجبر قريباً أو بعيداً بما لديه من حقِّ الولاية وبما في يده من قوَّة السلطان، على أن يثبتوا إلى جانبه في محاربة القاسطين والفاستقين.

لم يكن ليلجأ في ذلك إلى قهرٍ مادي أو معنوي، فالقهر بمختلف ألوانه، مُنافٍ لأصول النظرية العنوية إلى الحرية وشروطها. إنما كان يتوجه إلى عقول القوم بمنطق العقل وما لديه من حجة وبرهان، ويتوجه إلى قلوبهم وضمائرهم بمنطق القلب والضمير، وما لديه من قوَّة ودليل. فيلحق به مَنْ يلحق ويتخلف عنه من يتخلف، فيثيب الأولين بالرضى والثناء، ويعود على الآخرين بأبلغ الوعظ وأبلغ النصيح وأبلغ التحريض. فمن ظلَّ منهم حيث هو، فإنه حرٌّ، فعلي لا يقبل الإكراه ولا يجيزه، وهو يأبى أن يلحق به أحد من الناس عن غير بصيرة وغير إيمان، لذلك لم يجبر من الناس أحداً على أن يلحق به في حرب الجمل وحرب صفين، وحرب الخوارج، ولو شاء لجند من الناس ملء السهل والجبل.

لقد أدرك علي بن أبي طالب الحرية بأصولها، فأطلق إدراكه هذا نصّاً صريحاً، وأقام على هذه الأصول بناء الجبار في الأخلاق الخاصة والعامة، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض. وعمل بموجباتها مصلحاً ومشتراً وقائداً وحاكماً وواعظاً. وأعطى على احترامه حقَّ الناس في الحرية الواسعة كلَّ يوم دليلاً، ولكن ضمن نطاقٍ يرسمه مفهوم الحرية نفسه، وهو: ألا تسيء حرية البعض إلى حرية الجماعة.

الحرية بين الفرد والجماعة

- إن إيماننا بالإنسان ، وولاءنا للإنسانية هما اللذان
يشيران في طبيعتنا الخيرة أعمق الدوافع ؛ لأن نجمل
من البليد المستقر إنساناً بشرياً نابهاً.

روشنو

- وكذلك موجة البحر وزهرة القفر وطيور السماء، فكل
ما في الكون حُرٌّ بأصوله وشروط وجوده لا يقبل إلا
بهذه الحرية قانوناً وإلا تعطل وانتهى أمره.
- ولجأ عليّ إلى توسيع معاني الحرية لدى معاصريه ،
وفي الوقت نفسه لجأ إلى توسيع الشعور بالمسؤولية.

إذاً ، فالحرية مكفولة أصلاً في نهج الإمام ودستوره في الناس ، يكفلها
الوجدانُ الإنساني بوصفه قوة لا تعمل بالإكراه، وتكفلها قوانين الطبيعة التي لا
يمكن الاعتداء على حركتها الحرة في قليل أو كثير، ويكفلها العملُ
الاجتماعي الصحيح الذي لا يستقيم إلا بمقدار ما هو خاضع لأصول الوجدان
الإنساني وقوانين الطبيعة الثابتة على حريتها. فالإنسان إذاً حرٌّ بأصوله: يحس
حرّاً ، ويفكر حرّاً ، ويقول حرّاً ، ويعمل حرّاً ، ولا يجوز إجباره في غير هذه
الحدود إلا إذا جاز إفناؤه.

فأنت لا يمكنك أن تقضي على نور الشمس إلا إذا منعتَه عن غايته في
الإنارة وإشاعة الدفء بحاجزٍ تقيمه بين أشعته وبين غايته، إذاً فقد أخرجته
إلى نطاق من الإماتة والإفناء.

وأنت لا يمكنك أن تبدل من مجاري الرياح إلا إذا صدمتها في طريقها إلى غايتها بما يثبت لها، إذا فقد قضيت عليها، حيث صدمتها، بالإماتة والإفناء.

وكذلك موجة البحر وزهرة القفر وطيور السماء. فكل ما في الكون حرّ بأصوله وشروط وجوده لا يقبل إلا بهذه الحرية قانوناً وإلا تعطل وانتهى أمره. هذه الحرية هي التي أدركها ابن أبي طالب في أعماقه إدراكاً بعيداً، فانطلق لسانه بما أدرك من أمرها في نفسه، وعمل بوحى ما أدرك وما قال، عملاً يبزره هو، وتبزره القوانين الطبيعية، وتبزره غاية الإنسان ومصلحة المجتمع. وقد عرفنا من قوله وعمله هذين الشيء الكثير، وعرفنا كيف سعى في توجيه حركة الأفراد عملاً بشروط هذه الحرية. وإنّ أمراً أساسياً واحداً يتعلّق بحرية الإنسان الاجتماعي لم يفته، فإذا هو يرفع حرية الأفراد إلى أقصى حدّ، ضمن نطاق من حرية الجماعة ومصلحتها وغاية وجودها.

ففيما نرى نفراً من مفكري اليونان القدماء، ومفكري أوروبا في العصر الوسيط ينظرون في حرية الأفراد، دونما اهتمام بمصلحة الجماعة وبالحرية العامة، فيقودهم تفكيرهم إلى أن يبيحوا خروج الفرد على الجماعة واستثثاره بما هو من حقهم، وفيما نرى نفراً آخرين من المفكرين ينظرون في مصلحة الجماعة دونما اهتمام بحرية الفرد وبما له من حقوق، فيبيحون الضغط على الوجدان والتسخير في العمل، نرى ابن أبي طالب ينظر في حرية الفرد ومصلحة الجماعة نظرة موحدة شاملة. فلا يغبن هذا ولا يؤدي تلك، بل يقيم بينهما انسجاماً يجعل الفرد جديراً باستخدام حريته على أتم وجه، ويجعل

الجماعة خليفة^(١) بالاستفادة من الاجتماع، بل قل يجعل الفرد للجماعة والجماعة للفرد في نطاق من الحرية الرحبة السمحة. وسوف نعود إلى مثل هذا الحديث في كلامنا عن شؤون الأرض والمال وطرق الاستغلال.

ولكي يجعل عليّ حرية الفرد في نطاق من حرية الجماعة ومصلحة أهلها، فقد قاده النظر العميق إلى اكتشاف حقيقة اجتماعية أساسية. وهي أن الناس المرتبطين بالمجتمع، لابدّ لهم من توجيه شعورهم بالحرية توجيهاً معيناً لا يحدّ من أصول هذه الحرية، بل يمنع استخدامها على أسلوب بدائي يضرّ بالآخرين.

فحرية الأفراد لديه ليست الحرية الإباحية الرعناء، بل هي مقترنة أبداً بالشعور بالمسؤولية. ولكي يجعل هذا الشعور بالمسؤولية أمراً لا يتعارض مع الشعور بالحرية الواسعة، لم يلجأ شأنه في ذلك شأن بعض الفلاسفة والمفكرين الأقدمين إلى التضييق على الناس في معنى الحرية، بل لجأ إلى وسيلة هي في نظرنا أجلّ الوسائل شأناً وأعظمها قيمةً، وأدّلها على عمق الأغوار الإنسانية والمفاهيم الاجتماعية في شخصية ابن أبي طالب.

لجأ إلى توسيع معنى الحرية في مدارك الناس، وفي الوقت نفسه لجأ إلى توسيع معنى الشعور بالمسؤولية. ومن آياته في هذه الوسيلة الرائعة ما سوف نذكره من أمره مع أهل القرية الذين شاؤوا أن يحضروا مجرى النهر الذي عفا ودرس. فطلبوا إلى عامله على قريتهم أن يستخرهم في العمل. فأمره عليّ بالآلا يستخرهم، بل يطلب إليهم أن يعملوا في الحفر ويتقاضوا على ذلك أجراً، ثم أن يكون الأجر والنهر فيما بعد لمن عملوا بملء حريتهم، ولمن شعروا بأنهم

(١) خليفة : جديرة، حرية. كتاب العين: ١٥١/٤، مادة «خلق».

مسؤولون عما عملوه ، وهم أحرارٌ في أن يثابوا خيراً وفي ألا يثابوا.
وكأنني بعليّ يحيا منذ بضعة عشر قرناً هذه العاطفة الكريمة التي صورها
العبقري الفرنسي جان جاك روسو منذ قرنين إذ قال: «إن إيماننا بالإنسان
وولاءنا للإنسانية هما اللذان يثيران في طبيعتنا الخيرة أعظم الدوافع لأن
نجعل من البليد المستخر إنساناً بشرياً نابهاً».

لقد تعين في دستور عليّ أن الحرية الحرة يجب أن تصقل نفسها ، فتتقيد
بالشعور بالمسؤولية وهو لا يؤذيها ، بل ينفعها وينفع العمل الفردي
والاجتماعي. لذلك لم يجعل المسؤولية بحدودها الشكلية الظاهرة هي
المحرك والباعث على العمل الصالح ، بل جعل الحرية نفسها مسؤولة ، وجعل
الأحرار أنفسهم مسؤولين ، وناط مقدار هذه المسؤولية بمقدار الحرية. فإذا
كانت المسؤولية لا تتبلور في الأفكار الجامدة والقلوب المأسورة والعواطف
المكبوتة والشخصيات المحدودة ؛ فلأنها لا تتبلور^(١) إلا في نطاق الحرية التي
تطلق الأفكار والعواطف الشخصية ، وتمدها بالغذاء النافع المقوي.

وبهذه النظرة يكون عليّ قد رفع القيود الضيقة ، والأغلال الشديدة التي
تفرضها السلطات على الناس ؛ كي يجنوا لمجتمعهم عملاً كثيراً. فإذا بهم
عاجزون عن أن يعملوا لأنهم غير أحرار. وإذا بهذه المسؤولية في نظرهم لا
تنبع من أفكارهم وأحاسيسهم الحرة الطليقة التي بها وحدها يُجود العمل ، بل
هي شيء مرتبط بإرادة السلطة وبغمزة عين من الحاكم. وإذا بعزائمهم تثبط ،
ورجولتهم تضعف ، وقواهم تذهب في غير طريقها المستقيم.

بعد أن ترك الإمام الأفراد في مجتمعه السليم أحراراً مختيرين ، وترك

(١) تتبلور : تتجسد.

لهذه الحرية نفسها أن تقودهم إلى الشعور بالمسؤولية ، وإلى التفكير الدائم بأنهم مرتبطون بمجتمع له عليهم حقوق ، راح يحكم ويضع النظريات على أصول من هذه الحقيقة ، فيثيب على ضوئها ويعاقب ، ويأمر وينهي ، وفق ما رأيناه ، ثم على ما سنراه بالتفصيل.

* * *

وإننا إذ نكتفي الآن بهذا القدر اليسير من الكلام عن الحرية ومفاهيمها عند علي ، ندعو القارئ إلى انتظار فصول آتية نتحدث فيها مطولاً عن هذه الحرية ، وذلك في أساس الكلام عن المبادئ الإنسانية بين ثورة علي والثورة الفرنسية الكبرى.

ولسوف يرى القارئ إذ ذاك مقدار ما ترك علي في آثاره من أفكارٍ ثورية عميقة ، جذيرة بالحياة ، داعية إلى التطور. ومقدار ما أدرك من روح الحرية التي لا يجوز معها إرهابٌ للضمير ولا تخويفٌ للنفس ، والتي لا تعترف من الإنسانية إلا بوجهها الجميل وخيرها الأصيل.

من أين لك هذا؟

- إنَّ هذا المال ليس لي وليس لك^(١)
- لا يَسْتَمُنَا أن نُعْطِيَ امرءاً أكثر من حقِّه^(٢)
- أتأْمُرُونِي أن أطلب النصر بالجور في مَنْ وُلِّيْتُ عليه؟ والله
ما أطوُّرُ به ما أَمَّ نجمٌ في السماء نجماً^(٣)
عليّ

- طلحة والزبير : نبايعك على أنَّا شركاء في هذا الأمر.
- عليّ: لا.
- وراح عليّ يفتير المحتكرين من كلِّ مالٍ اغتصبوه كما تُفْتَر
عن المصالحاها.

قلنا : إنَّ الحرية بمفاهيمها الواسعة هي مصدر الأصالَة في حكومة عليّ
وفي سياسته، وإنَّها مرتبطة بعلاقات أبناء المجتمع بعضهم ببعض بقدر ما هي
مرتبطة بالضمير والوجدان. ثم إنَّ الإنسان الصاعد في طريق التعاون
والتآخي ، لا يمكنه هذا الصعود إنَّ لم يكن حرّاً بجانيبه الذاتيّ والاجتماعيّ.
فليس حرّاً ذاك الذي لا يصفو ضميره من الشوائب التي تحطُّ بالقدر الإنسانيّ.
وليس حرّاً ذاك الذي يهمله المجتمع عملياً وإن أقرَّ بحقوقه ، أو ببعضها ،
إقراراً نظرياً.

في سبيل هذا البناء في الفرد وفي الجماعة وقف عليّ من محبّته

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٢٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٩٨/٢.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٢٦-١.

ومُبغضيه على السواء موقفَ المصمِّم العازم ، لا يقهره مطمَع في غير الحق ولا يزعزعه عَمَّا هو عليه وعدُّ أو وعيد. وكان يعلم حقَّ العلم أنَّ ذاك ثَقِيلٌ على بعض الناس فيقول: «إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَب»^(١). وكان يعلم حقَّ العلم أيضاً أنَّ ذاك ثَقِيلٌ على الوُلاةِ خاصَّةً فيقول: «والحقُّ ثَقِيلٌ على الوُلاةِ... وكلَّ حقٍّ ثَقِيل»^(٢).

ولكنَّ سواءً عند ابن أبي طالبٍ أَثْقَلَ الحقُّ على الوُلاةِ والوجهاء أم خَفَ ، فإنَّ عقله وضميره جميعاً يأمران وما لغيرهما شأنٌ لديه. وهما يأمران بالآلِ يُهْمَلُ الظالمون إلى العدل الاجتماعي والآلهون على المشرع والحاكم أمرهم فيعانوا من الحاجة ما يُذَلِّهم فيُلصقهم بالأرض ، ويقاسوا من الجوع ما تجفُّ به حلوقهم وتستعر أجوافهم ، ويُحَرِّقوا بحَرِّ الهجير وأجَّة الليل^(٣) ، أو يقرقفوا^(٤) تحت سوط الرياح في زمهرير الشتاء ، وهما يأمران بالآلِ تُتْرَكُ خيراتُ الأرض بين أيدي المُتَحَمِّين والمترهلين الآكلين على شبع ، والشاربين على غير ظمأ ، المتبذخين بأموال العامة على غير جهدٍ وغير بلاء ؛ أولئك الذين أخذوا الدنيا كما يأخذها الفيلُ ؛ إذ يكتفي من دنياه بقروضٍ عشبٍ لم يزرعه ، وشربٍ ماءٍ لم يفجَّر ينابيعه ، والاستراحة في الظلِّ بعد استراحةٍ لم يسبقها عناء.

وقد صدق ظنُّ ابن أبي طالب في أنَّ النافذين والوجهاء من القوم لن يتحملوا أسلوبه في الولاية ولن يطبقوا صلابته في الدفاع عن هذا الأسلوب ،

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٩-٤ ، غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم : ٣٥٥٣.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٣ - ١٠٧.

(٣) أجَّة الليل : الأجَّة : التلهب والتوقد لليل حفيف كحفيف اللهب. لسان العرب : ٢٠٦/٢ - ٢٠٧ ، مادة «أج».

(٤) يقرقفوا : يرتعدوا من البرد ترقف : أصابه البرد وآلمه حتى اصطدمت ثناياه ببعضها ببعض اصطكت ثناياه ببعضها ببعض. لسان العرب : ٢٨٢/٩ ، مادة «قرقف».

على نحو ما أعلن قبل البيعة. فقد أرادوه بعد البيعة أن يكون لهم دون العامة ، فأبى أن يكون لغير الحق.

جاءه طلحة والزبير يساومانه قائلين: «نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر» فقال غير متردد: لا. فتفرقا عنه^(١) ، وزحفا عليه بالجيوش - على ما سيأتي بيانه - وعليّ أعلم الناس بما لطلحة والزبير من نفوذ ومكانة. ولكنه العدل ، ولكنه ابن أبي طالب الذي يقول لهؤلاء وهؤلاء: «أأمروني أن أطلب النصر بالجور في من وليت عليه؟ والله ما أطور - أمر - به ما سمّر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً ألا إنّ عطاء المال في غير حقّه إسراف وتبذير»^(٢).

إنّ الطعام لا يُقدّم إلى شعبان ، كما يقول عليّ. والثروة - قليلة كانت أو كثيرة - لا تكون مشروعة في مذهبه إلا إذا كانت عن غير طريق الاحتكار ، واستغلال العامة والإفادة من السلطة.

وقد يغتفر عليّ للمجرمين بعض ما أجرموا، وللظالمين بعض ما ظلموا. غير أنه لا يغتفر جريمة الاحتكار ونهب أموال الشعب، ولا يغتفر لطبقة المحتكرين أن يظلموا العامل والكادح والمستضعف بخبزهم ومائهم. وإنّ الظلم بألوانه جميعاً لعنة على لسان ابن أبي طالب، غير أنّ أفحشه هو ظلم القوي للضعيف ، والمحتكر للعامة ، والحاكم للمحكوم. وعليّ لا يتسامح بمثل هذا الظلم الذي يخلق في المجتمع الطبقيّة المادية ، ورذائلها وجرائمها. والأدلة التي تقيم الحجّة الصريحة على المستغلّين والغاصبين في أدب عليّ ، كثيرة وافية. فأنتى اتجهت في «نهج البلاغة» تحسّ تلك الحرقّة التي

(١) نهج السعادة: ٥ / ٢٢٥.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٢٦-١.

تُلهب أقوال عليّ ساعةً يتحدث عن الاستغلال والغضب. ويكاد يتحدث عنهما في كلّ خطبةٍ له وفي كلّ مقال. وفي أقواله جميعاً ما يدلّ على أنه واثق بأنّ الغضب جريمة اجتماعية ، والمستغل مجرمٌ أيا كان، وأنّ جمع المال من غير طرقة الطبيعية المشروعة إنّما له تبعاتٌ جسامٌ تلزم صاحبها على كلّ حال. وإليك ما يقوله عليّ في إحدى خطبه وكان يتحدث عن جامع المال:

«... ويتذكّر أموالاً جمعتها وأغصص في مطالبيها - أي لم يفرّق بين حلالٍ وحرام - وأخذها من مُصْرَحَاتِها ومُشْتَبِهَاتِها، وقد لزمته تبعات جمعها»^(١). أمّا كسب الحلال الذي لا يد فيه لاستغلالٍ أو احتكار ، فيقول عليّ في صاحبه: «مَنْ مَاتَ مِنْ كَسْبِ الْحَلَالِ مَاتَ وَاللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ»^(٢).

لذلك عزم عليّ على أن يدكّ ما ارتفع في العهد السابق من حصون الاحتكار ، واستغلال النفوذ ونهب الأرزاق وسائر ما شتّده أولئك الأثرياء الذين يقول في أمثالهم: «وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ فَتَعْصَبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ»^(٣). فخطب الناس يقول:

«أَلَا إِنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ أَقْطَعَهَا عِثْمَانُ ، وَكُلَّ مَا أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ ، فَهُوَ مُرْدُودٌ فِي بَيْتِ الْمَالِ. فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يَبْطُلُهُ شَيْءٌ ، وَلَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَفَرَّقَ فِي الْبُلْدَانِ لِرَدِّدَتِهِ. فَإِنَّ الْعَدْلَ فِي سَعَةِ. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجُورُ ؛ عَلَيْهِ أَضِيقُ»^(٤).

قد يعدل بعض الولاة وأصحاب السطان فلا يُثيِّبون على غير جهد ، ولا يبذرون مال الشعب بإرادة متقرب أو قريب ، أو بإشارة صديقٍ أو حبيب. أمّا

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٠٩-٢٠.

(٢) لم نقف على المصدر.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢-٧٥.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٥-١.

أن يعود والٍ إلى من أيسروا في عسر الشعب ، في أيامٍ لم تكن أيامه ، فيحاسبهم ، فيستعيد منهم ما ليس لهم ، فتلك دلالة صريحة على عمق نظرتهم إلى الأمور ، وعلى أن إيمانه بالعدالة الاجتماعية ليس ما يتيسر لجميع الناس من الإيمان ، بل إنه موطد على دعائم من العقل الرجيح الذي لا تفوته خفايا الأمور ، ولا يطغى عليه عُزف العصر والناس . فإذا كان للمرء ألا يُثاب إلا في نطاقٍ من خدمة الجماعة ، فأَيَّ جهدٍ في سبيل الجماعة بذلُّه الحارث بن الحكم حتى يستحق مائتي ألف درهم تُبذل له من مال الشعب ، يوم عرسه ، إن لم يكن زواجه بينت عثمان هو هذا الجهد وهذه الخدمة!؟

وأيَّ جهد في سبيل الجماعة قدّمه طلحة والزبير حتى يحصلوا على أموال الدولة بغير حساب ، ويقطعا ما لا طَمَعَ ببعضه للملايين من الناس ؟ من أين لأحدهما - الزبير - أن يقتني من الأرقاء ألف عبدٍ وألف أمة ؟ أما إذا كان لهما فضل السابقة في الإسلام ، فإنَّ الفضل في ذلك عند الله ، كما يقول عليّ ، والدنيا معاش والناس في المعاش أشوة .

وما هي وجوه الخير التي أطلّت على الشعب مع الولاة من قرابة عثمان وأنصاره كي يوسع عليهم في الملك والأموال والثروات والأجناد والتحكّم في الرقاب ؟ وفي هؤلاء معاوية الراشي والحكم بن العاص وعبد الله بن سعد وغيرهم من الأهل والأنصار .

من أين لمعاوية فلسطين وحمص تُضمّان إلى ولايته ، والأجناد الأربعة تُجمع له قيادتها؟

ومن أين لغيره تلك الثروات والدور والقصور في كلّ بلد وكلّ مصر ؟ أجل ، يا هذا! من أين لك هذا؟ كيف حصلت على هذه القصور وهذه

الأموال وليس في أعمالك ما يثبت على صعيد الخدمة العامة فيما لو أطلت عليك الشمس؟ أما إذا مرّ الزمان على احتوائك المال والأرض ، فما ذاك بحجة لأن يظلّ المعوجّ على اعوجاجه ، والحق لا يبطله شيء.

إذاً ، فكلّ قطيعة ، وكلّ مال أعطي بغير حقّ هو مردود في بيت المال ، ولو وُجد قد تُزوّج به النساء وفُزّق في أنحاء الأرض. فإنّ العدل - وهو في سعة - لن يضيق ولن يُحدّ في إطار من هذه الإطارات التي قد يتعلّل بها المستنفعون.

وهناك أمرٌ جدير بأن يُنظر فيه ، وهو : أنّ عليّاً كان يحسب اقتطاع الأرض بالقرابة والنفوذ في جملة المال المنهوب؛ ذلك لأنّه يعرف بحكم الواقع أنّ هذه الأرض مصدر ثروة ، ثمّ علّة تملك ، ثم يرى بسديد عقله أنّ مقتطعيها من الحكّام والأثرياء والنبلاء لا شكّ أنهم سيسعون في استرقاق العامة لخدمة هذه الأرض واستخراج خيراتها ، ممّا يجعل الأرض سبباً في تضخّم الثروة لديهم ، فيما يتضاءل الآخرون شيئاً فشيئاً ، ثم يعود أصحاب الإقطاعات الكبيرة فيشترون من صغار الملاكين ما يملكون ، حتى تتألف في الشعب طبقة الإقطاعيين وطبقة المغبونين. يقول عليّ: «ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة - اقتطاع ضيعة - بمن يليها من الناس في شربٍ أو عملٍ مشترك يحملون مؤونته على غيرهم»^(١).

وقد صدقت نظرة الإمام إلى ما يصير إليه أصحابُ الضياع الواسعة من النفوذ والسلطان واسترقاق الناس في سبيلها ، ثم بها يقول الدكتور طه حسين

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٢٧.

في كتابه «عثمان»: «وُجِدت الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة من جهة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي من جهة أخرى ، فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي طبقة البلوتوقراطية التي تمتاز إلى ارستقراطيتها التي تأتيتها من المولد ، بكثرة المال و ضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً»^(١).

إنّ المال والأرض ، والخيرات الناجمة عنهما ، ليس لأحدٍ فيها نصيبٌ أكثر من سواه ، في مذهب عليٍّ ، إلّا بجهد وحاجة. ومَنْ أبى هذه الحقيقة فقد خان الشعب «وأعظمُ الخيانة خيانة الأمة»^(٢) في نظر الإمام. ومَنْ خان الأمة فلا رأيَ له ، ولا شأن لموقفه من الخليفة الجديد. لذلك هو عازمٌ على أن يعمل بما يحفظ لهذه الأمة حقوقها. وابن أبي طالب إذا عزم لا يخشى موقف النافذين منه ، ولا قولهم فيه. ولا هو يأبه^(٣) للحقاهم بأخصامه ومحاربيه. فهو الحقّ الذي يعزم والعدالة التي تنطق. وليس حتى لأصحاب النبيّ والمجاهدين معه فضلٌ بهذه الصحبة وهذا الجهاد على غيرهم من الخلق :

«أيها الناس ، ألا لا يقولنّ رجالٌ منكم غداً قد غَمَزَتْهُمُ الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرفقة ، إذا ما منعْتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصْرَتْهُمُ إلى حقوقهم التي يعملون : حَرَمْنَا ابْنَ أَبِي تَالِبٍ حَقَّقْنَا ، أَلَا وَإِنَّمَا رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فَإِنَّ الفضل غداً عند الله. فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يُقَسَّمُ بينكم بالسوية ،

(١) عثمان بن عفان ، للدكتور طه حسين ، طبعة مصر.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٦.

(٣) تقدم معناه.

ولا فضل فيه لأحد على أحد»^(١).

إنّ هذا الأسلوب يلجأ إليه عليّ في التسوية بين الناس جميعاً في الحقوق العامة ، لهو الدافع الأول الذي حمل أولئك الوجهاء على تزك ابن أبي طالب والالتحاق بابن أبي سفيان - على ما سيأتي بيانه بالتفصيل - فإنّ عليّاً لم يكن ليفضل شريفاً على مشروف ؛ لأنّ مقاييس الشرف في علمه لم تكن مقاييس زمانه ، ولا يفضل عربياً على أعجمي لأنّ الإنسان أخو الإنسان في الخلق بضمير عليّ. ولم يكن يصانع أولئك الرؤساء وزعماء القبائل كما كان يفعل ابنُ هند ، ولا يستميل أحداً إلى نفسه بمال الأمة. قال الأشتر النخعي لعليّ:

«إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ورأيُ الناس واحداً ، وقد اختلفوا بعد ذلك وتعادوا ، وضعفت النية وقَلَّ العددُ ، وأنت تأخذهم بالعدل وتعمل فيهم بالحق ، وتُنصفُ فيهم الوضعَ من الشريف ، فليس للشريف عندك فضلٌ منزلةٌ على الوضع ، فضجّت طائفةٌ متن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف فباعوا أنفسهم إليه وأكثرهم يجتوي^(٢) الحق ويشترى الباطل ، فإنّ تبذل المال ؛ يملُ إليك أعناق الرجال ، وتصفُ نصيحتهم لك ، ويُستخلص ودهم»^(٣). فأجابه عليّ من فوره:

«أما ما ذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وأنا من أن أكون مقصراً فيما ذكرت

(١) أمالي الطوسي : ٧٢٩ ، شرح نهج البلاغة : ٣٧ / ٧ ، وفيهما وأكثر المصادر: الوصائف الروقة.

(٢) يجتوي: يفيض، أو يكره. المنجد: ١١٢ ، مادة «جوي».

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٩٧ / ٢.

أخَوْفُ ، وأما ما ذكرتَ من أن الحقَّ ثَقُلَ عليهم ففارقونا لذلك ، فقد علمَ الله أَنهم لم يفارقونا من جورٍ ، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عذلي. وأما ما ذكرتَ من بذل الأموال واصطناع الرجال فإنه لا يَسَعُنَا أن نُؤْتِيَ امرءاً من المال أكثر من حقِّه»^(١).

أما موجز دستور عليّ في هذا الوضع ، فقلوله في عهده إلى الأشر : «إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة!»^(٢) والحقوق العامة هي ما يتساوى فيه الناس ، وإياها يعني ابنُ أبي طالب!

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٩٨ / ٢.

(٢) نهج السعادة للمحمودي: ١٢٠/٥، عيوان الحكم والمواعظ: ١٠٠.

رفع الحاجة

- وأن تكونوا عندي في الحق سواء^(١)
- ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غني^(٢)
- ما رأيتُ نعمةً موفورة إلا وإلى جانبها حقٌ مضيق^(٣)
- لكلّ ذي رميٍ قوتٌ ، ولكل حبيّةٍ أكل^(٤)
- ولا تصخّ نصيحتهم إلا بقلّةٍ استئفال دولهم^(٥)
- أشقى الرعاة من شقيتٍ به رعيته^(٦)

علي

هذه الحقوق العامة يوصي بها عليّ ، ويرعاها ، ويحصر في رعايتها معنى الولاية. ثمّ إنّّه على ضوئها يُثبت عاملاً ويعزل آخر. وتتسع مفاهيم هذه الحقوق عنده وتتشعب، غير أنّها تلتقي جميعاً في نطاقٍ حصين: من رفع الحاجة عن العامة ومن ألا يكون فيهم من يجوع فُتْهان فيها كرامة الجنس الإنساني. ولا بأس أن تُجاز القوانين لرفع هذه الحاجة ، إذا لم يكن في تطبيق القانون ما يكفي لرفعها. فكما أن العبادة في مذهب عليّ ليس من شأنها أن تجعل الإنسان متنكراً للحياة العامة ، وكما أنّ الدين هو المعاملة ، وسلامة

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٠ - ٤ و ٥.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٢٨.

(٣) دراسات في نهج البلاغة لمحمد مهدي شمس الدين: ٤٠ .

(٤) تحف العقول: ٩٨ ، نهج السعادة: ١ / ٥٩.

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٥٨.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة: ١٤٧ / ٨ ، كنز العمال: ٥ / ٦٩٦ رقم الحديث: ١٤٢٠٩ ، شرح نهج البلاغة: ٩٢ / ١٢.

العقيدة هي سلامة المسلك، فكذا لا بدّ من أن تُسَخَّر الأنظمة والقوانين لتيسير الحاجات المادية للكافة، ورفع الحاجة عنها؛ حتى لا يهون المرء على نفسه ولا تهون عليه دنياه. ورفع الحاجة عن الشعب واجبٌ على المشتري والحاكم لا منة، وهو بالنسبة للشعب حق لا سؤال، وقد شدد عليّ في ذلك حتى قل أن تجد له كلاماً أو وصية أو عهداً إلا ويملؤه ما قرره من هذا الحق على العمال والوُلاة.

وكيف لا يكون رفع الحاجة عن الشعب واجباً على المشتري والحاكم في دستور عليّ، وحقاً أساسياً من حقوق العامة، وهو الذي لا يرى في سيئات الأكاسرة والقيصرة، على كثرة ما لهم من سيئات، أبرز من استهانتهم بالشعب. فإذا بهم يهملون ما له من حقوق في خضرة الأرض ورخي العيش، فيأثمون إذ يعملون على إفقاره فيقول: «تأملوا في حال تشبّهم وتفوّقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقيصرة أرباباً لهم يحتازونهم^(١) عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا»^(٢) إلى منابت الشيخ^(٣) ومهافي الرياح^(٤) ونكّد المعاش فتركوهم عالّة مساكين.

وقد يضطرّ عليّ إلى تهديد هؤلاء الوُلاة بأشدّ العقوبات إذا هم خانوا من مال الشعب شيئاً صغيراً أو كبيراً. وقد يبلغ التوجّع في نفسه مبلغاً عظيماً إذا أدركه أحدهم بأنّ والياً أو عاملاً بات على غضبٍ أو احتكار. فإذا به يوجه إليه قولاً تملؤه عصبيّة الحق وثورة العدل. بعث إلى بعض عمّاله يقول: «بلغني أنّك

(١) يحتازونهم: يقبضونهم. أنظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ - ٩٥.

(٣) منابت الشيخ: الشيخ نبت سهلي من الفصيلة المركبة، رائحته طيبة قويّة، وهو كثير الأنواع، ترعا، الماشية. المنجد: ٤١٠، مادة «شاح».

(٤) المهافي: المواضع التي تهفو فيها الرياح، أي تهب. أنظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

جَزَدَتِ الْأَرْضُ فَأَخَذَتْ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ ، وَأَكَلَتْ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حَسَابَكَ»^(١).
وأوصاه خيراً بقوله: «فارفع إليّ حسابك» فوراءه - في جملة ما وراءه -
إيمانه المطلق بضرورة الإنصاف ، حتى أنه لا يرى مكاناً للإطالة والتعليل
والإمهال. هذا الإيمان الذي يجمع في ومضة خاطفة الفهم العميق لواقع
المجتمع المتأرجح بين حقّ مهضوم وآخر مطلوب، إلى إدراك ما قد ينجم عن
ذلك من انهيارٍ خلقي واجتماعي في الغاصب والمغصوب على السواء ، إلى
الثقة الكاملة بضرورة إقامة العدل، وليقع هذا من نفوس الأعوان حيث وقع ،
كلّ ذلك على عصبيةٍ تأبى فتغضب فتوجز قائلةً: «فارفع إليّ حسابك».

وهو إِمَّا بلغه أنّ عاملاً آخر يأكل ما تحت يديه من أموال العاقّة، بعث
إليه على عجل يقول: «فأتق الله وارذ إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنّك إن لم تفعل ثم
أمكنني الله منك لأُعَذِّرنَّ إلى الله فيك»^(٢). والله لو أنّ الحسن والحسين فعلاً مثل الذي فعلت
ما كانت لهما عندي هواة ، ولا ظفرا مني بإرادة ، حتى آخذ الحقّ منهما ، وأزيل الباطل عن
مظلّمتها»^(٣).

وأرسل عليّ رجلاً يدعى «سعداً» إلى زياد بن أبيه يأمره بأن يحمل إلى
بيت المال ما عنده منه. وكان قد بلغه أنّ زياداً يتقلب في النعيم ، يستأثر به
على الضعيف والفقير والأرملة واليتيم. وأنه يتظاهر بالفضيلة وهو عنها بعيد.
فلما كان الرسول عند زياد ألخ عليه ، فتجبر زياد وتكبر ونهره. فكتب إليه
عليّ يقول:

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤٠ - ٢.

(٢) لأعاقبتك عقاباً يكون لي عذراً عند الله من فعلتك هذه.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤١ - ١٢.

«إِنَّ سَعْدًا ذَكَرَ لِي أَنَّكَ شَتَمْتَهُ ظَالِمًا وَجَبَّهْتَهُ^(١) تَجَبُّرًا وَتَكَبُّرًا، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْكِبْرِيَاءُ وَالْعِظْمَةُ لِلَّهِ» فَمَنْ تَكَبَّرَ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ مُسْتَكْبِرٌ مِنَ الْأَلْوَانِ فِي الطَّعَامِ، وَأَنَّكَ تَدَهِّنُ كُلَّ يَوْمٍ، فَمَاذَا عَلَيْكَ لَوْ صُمْتَ لِلَّهِ أَيَّامًا وَتَصَدَّقْتَ بِبَعْضِ مَا عِنْدَكَ مُحْتَسِبًا، وَأَكَلْتَ طَعَامَكَ فِي مَرَّةٍ مَرَارًا أَوْ أَطْعَمْتَهُ فَقِيرًا. أَنْطَمِعَ، وَأَنْتَ مُتَقَلِّبٌ فِي النِّعَمِ تَسْتَأْثِرُ فِيهِ عَلَى الْجَارِ الْمُسْكِينِ وَالضَّعِيفِ الْفَقِيرِ وَالْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ، أَنْ يَجِبَ لَكَ أَجْرُ الصَّالِحِينَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ تَتَكَلَّمُ كَلَامَ الْأَبْرَارِ وَتَعْمَلُ عَمَلَ الْخَاطِئِينَ وَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فَنَفْسُكَ ظَلَمْتَ وَعَمَلُكَ أَحْبَطَ... الخ»^(٢).

ويواصل عليّ أوامره للولاء بكفّ الأيدي عن الغضب بكافة ألوانه. ويحارب الرشوة وهو يرى فيها أتفة ما يربط الحاكم بالمحكوم من علاقة، وأوهن صلة بين الحقّ وصاحبه. ويسمي الحكّام الذين يقبلونها «أكلة الرشا». ثم يُدرك إلى أيّ مدى من الفساد يُقَاد المجتمع بالفساد، حتّى إذا بلغه أنّ أحد أمراء الأجناد يرثي خلع له كتفيه بهذه الهزّة العنيفة: «أما بعد، فإنّما أهلك من كان قبلك أنّهم منعوا الناس الحقّ فاشتروه»^(٣) وأخذوهم بالباطل فاقتدوه^(٤).^(٥)

وقد يدعى أحد الولاء إلى وليمة فيمضي إليها، فإذا بعليّ يؤتبه أشدّ تأنيب، ويوتّبه أعنف توبيخ. أفلا إقامة حقّ يريدون أن يرشوه بالدعوة والحقّ يقام بدون رشوة؟ أم لإنزال الباطل منزلة الحقّ، وليس للوالي أن يفعل ذلك ولو أعطى سلطان الأرض؟ ثم، كيف يمضي إلى وليمة يُدعى إليها الثريّ ويُبعد عنها الفقير والمغوز؟ وفي ذلك مظهرٌ من مظاهر التفرقة بين الناس،

(١) جَبَّهْتَهُ بالمكروه: استقبلته به. المنجد: ٧٩، مادة «جَبَّه».

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري: ٢ / ٨٩٤ نهج السعادة للمحمودي: ١٩٢/٥.

(٣) حجّوا عن الناس حقّهم فاضطر الناس لشراء الحقّ بالرشوة.

(٤) كلّفوهم بائتيان الباطل فأتوه، فصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب: ٧٩.

ثم إشعارٌ لهم بهذه التفرقة ، مما يجرح بعض الخواطر ، ويحز في قلب عليّ ،
 أما حين يستقيم المجتمع فليُدع قوم وليُبعد آخرون ، فما في ذلك غبن .
 وقد يخال البعض أن الإمام يغالي في مثل هذه المحاسبة الدقيقة للولاية ،
 غير أنه حين يدرك أن الإمام قد ركّز هؤلاء الولاية على صعيد مادي يكفيهم
 الحاجة ولا يجوز من بعده الارتشاء أيّا كان لونه ، ولا التطلع إلى المغنم مهما
 قل شأنها ، يعرف عند ذاك أنه على حق ولا مغالاة في هذه الدقة ، وإنما هي
 من أعمال العقل الذي ينهج نهجاً صحيحاً له موازين ومقاييس . فيأبى هذه
 السابقة وإن قلّ خطرُها ، فإنّ خطر اللاحقة أشدّ .

ونحدّد زمن السابقة هنا بأيام عليّ ولا نعود بها إلى أيام عثمان . لقد بذل
 عليّ من مال الدولة للولاية ما يقيهم الحاجة وما تجزّه من الانزلاق في درك
 الرشوة ، فلماذا يرتشون ؟

ثم إنّ هنالك حقيقة ضمنية في هذا الباب يلفت عليّ أنظار الولاية إليها ،
 وهي أنه لا يبيح للوالي أن يغنم من الناس بالولاية ولو غداً أو عشاءً ، فإنّ هذا
 الغنم إذا جاء عن طريق الولاية كان أشبه بالسرقة أو الرشوة . والذي لا يُسمَح
 له بأن يُرشى بعشاء فلن يُباح له - طبعاً - أن يسرق مدينةً ، أو يرتشي بجهد
 شعب .

وهذه الشدة التي كان يعامل بها الولاية المسيئين يقابلها تشجيعٌ للمحسن
 منهم وإثابة . وإليك ما بعث به إلى عمر بن أبي سلمة عامله على البحرين ، حين
 ولى مكانه النعمان بن عجلان ودعاه إليه ليصحبه في حملته على معاوية :

«إني قد وليت النعمان بن عجلان البحرين من غير ذمّ لك ولا تهمة في ما تحت يدك .
 ولعمري لقد أحسنت الولاية وأديت الأمانة . فأقبل إليّ غير ظنين ولا ملوم ، فإنني أريد المسير
 إلى ظلمة أهل الشام ، وأحببت أن تشهد معي أمرهم ، فإنك ممن أستظهر به على جهاد العدو .

جعلنا الله وإياك من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون»^(١).

إذاً ، فالذين لا يخونون الأمة من الولاة ولا يرتشون لهم ما يقيهم الحاجة من المال ، وما يشجعهم من إحسان أمير المؤمنين إليهم. أمّا الخائنون فعقابهم العتاب ، ثم التوبيخ الشديد ، ثم العزل ، ثم الحبس مع العزل إذا هم أكثروا من الإساءة.

وهناك غاصبون ومحتكرون ومستغلون غير الولاة ما يزالون يسعون في الحصول على الثراء العريض. هنالك مجتمعو الأموال وحاصروها ومقتطعو الأراضي والضياع ، هؤلاء يحاربهم الإمام حرباً لا هودة فيها، ويحارب فيهم البطر والجشع الباطل وحب الاستغلال. ويسعى في أن يحول بينهم وبين الأموال التي يريدون تضخيمها.

أمّا الغصب فقد حرّمه عليّ في كلّ ما قال وفعل وأقام من حدود. وأمّا الاحتكار فقد شدد في منعه: «واعلم أنّ في كثيرٍ منهم احتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات ؛ وذلك باب مضرّة للعامة وعيبٌ على الولاة ، فامنع من الاحتكار!»^(٢) ثم يقول: «ومن قارف حُكْرَةً^(٣) بعد نفيك ، فنكّل به وعاقبه في غير إسراف»^(٤).

أمّا اقتطاع الأرض والضياع فله فيه رأي هو عقل العاقل وشرف الوالي ، وقد مرّ الكلام عليه. أمّا الاستغلال بألوانه جميعاً فهو شيء من الغصب والاحتكار فالإمام لا يهادن فيه، وله في ذلك أقوالٌ لا تحدّ من «نهج البلاغة» بمكان. لقد قصد الإمام من وراء ذلك إلى تحطيم الوسائل التي تؤدي إلى

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٤٢، أنساب الأشراف للبلاذري: ٢ / ٨٨٩، طبعة دار الفكر ، بيروت.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٩٩.

(٣) قارف حُكْرَةً: الاحتكار عبارة عن سوء المعاشرة ، أو الظلم أو التنقص. المنجد: ١٤٦، مادة «حُكْرَ».

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٠٠.

تكديس الأموال وتضخيم الثروات، كما تقدم في غير هذا الفصل من الكتاب. هذه الأموال والثروات التي لا تلبث أن تنحصر في فئة خاصة، وتصبح «دولة» بين الأغنياء» دون غيرهم من فئات المجتمع.

ولقد كرهه للمجتمع الصالح تضخيم الأموال، هذا الذي لا يقوم على جهد ولا ينشأ عن كفاءة، ويؤدي في غايته البعيدة إلى خلق طبقة المترفين الكسالى المترهلين، الذين يعيشون على حساب الجماعة الفقيرة. وطبقة أخرى مغوزة مُعسرة تعمل وتشقى، ولا أمل لها في طعام وكساء. ثم يؤدي إلى انهيار لا بد منه في خلق الفرد وفي خلق الجماعة. فإذا الفقراء ضحايا الأثرياء، وإذا الكادحون ضحايا الخانعين التافهين، وإذا الأخلاق ضحايا الطبقتين، وإذا المجتمع بناء ينهار! يقول الإمام واصفاً بعض أحوال الناس في زمانه:

«فرب دائب مُضَيِّع، ورب كادحٍ خاسر. وقد أصبحتم في زمنٍ لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، والشر فيه إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً. اضرب بطرفك حيث شئت من الناس: هل تُبصر إلا فقيراً يكابد فقراً^(١)، أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً؟ أين خياركم وصلحاؤكم وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتوزعون في مكاسيهم، والمنتزهون في مذاهبيهم؟»^(٢).

أجل، لقد أدرك عليّ بصائب فكره وسلامة فطرته وعظيم خلقه أن كل نظام لا يستهدف رفع الحاجة عن عامة الناس لا قيمة له. إن كل قانونٍ تافهٍ ومقيتٍ؛ إذا لم يقضِ على التفاوت الباطل بين طبقات المجتمع.

وإن السنن الاجتماعية التي تخلق مجتمعاتٍ تكون فيها طبقاتٌ من

(١) يكابد فقراً: يعاني ويصارع الفقر والكبد: الشدة والمشقة. مجمع البحرين: ٧/٤، مادة «كبد».

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩.

الناس ، فريسة لطبقة ضئيلة العدد - ممتن أسموا أنفسهم «أشرافاً وسادة» ، وراحوا ينهبون حقوق الشعب وأمواله وأرزاقه بوقاحة وفجور - هي سننٌ وقحة وفاجرة. «والفجور - كما يقول علي - دارٌ حصنٌ ذليل لا يمنع أهله ، ولا يُحرزُ من لجأ إليه»^(١).

ولأنّ الفجور لا يمنع أهله ولا يعصم من لجأ إليه ، فإنّ المجتمع متفسخٌ لا محالة عند ذلك: متفسخٌ في الطبقات التي اغتصبت حقوقها ، ومتفسخٌ في الطبقة الغاصبة ، سواءً بسواء.

* * *

بعد ذلك يأتي العمل الإيجابي لرفع الحاجة عن الشعب ، وهو يقوم على مرتكزين اثنين.

أولهما: إنّ الأموال والأراضي والضياع وجميع مصادر الثروة هي ملك الجماعة ، تُوزع على الأفراد بقدر الاستحقاق والحاجة ، بعد أن تتاح الفرصة للعمل لجميع هؤلاء ، وليس لأحد أن يتصرف بما تمليه عليه الإرادة الفردية الخالصة دونما نظرٍ إلى المصلحة العامة. ثم إنه ليس من مصلحة هذا الفرد بالذات ألا يتعاون مع الجماعة ، فهو يعطيها وهي تعطيه ، وعطاؤها أكثر ، يقول علي: «من يقبض يده عن عشيرته ؛ فإنما تُقبضُ منه عنهم يدٌ واحدة ، وتقبضُ منهم عنه أيدي كثيرة»^(٢).

وعلى الدولة أن تكون القيمة العادلة على تطبيق هذه السياسة أدق ما يمكن من التطبيق. فالشعب جسدٌ واحد وعلى الدولة أن ترعى أعضائه جميعاً بما تستحق ، لا إهمال ولا تقصير ولا تفرقة ، وهي لذلك تأخذ نسباً من

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٧ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٣ - ١١ .

الأرباح والرساميل ذاتها: نسباً غير مطلقة التحديد ، بل هي ترتفع وتنخفض بالنسبة للمصلحة العامة. فإذا اقتضت المحافظة على سلامة الجماعة وعلى كرامتها وأسباب معاشها أن يؤخذ من الأرباح والرساميل والأراضي والأملاك نسبٌ عظيمة جداً كان ذلك دون تردد.

وثانيهما: النظر في عمارة الأرض ، فإنها قوام المعاش والازدهار الاقتصادي. لذلك فإن على الولاة والعمال أن ينظروا في عمارة الأرض فوق ما ينظرون في الحصول على حق الدولة المشروع في الخراج. فالخراج نفسه - وهو ملك الجماعة في نتيجة كل حساب - لا يمكن إدراكه إلا بالعمارة ولا يسعى في تحصيل الضرائب من الجماعة والأرض لا عمارة فيها إلا وإل سَفَ وطاش وأراد أن يخرب البلاد ويهلك العباد ، ويجعل أمره في الولاية ضئيلاً قليلاً.. والأرض لا تعمر بذاتها، ولا بسفَ حاكم أو طيش أمير، ولا بوجود قصور فيها مُتَرَفُونَ مترهلون أو ذوو ثراء وسخف وكِبَر. وإنما تعمر بجهد العاملين فيها وبثراء أهلها من كافة الناس.

ويشدد علي في تحريم أخذ الخراج من الشعب إذا لم يكن الشعب راضياً عن حالته الاقتصادية وعن وُلاته وحكامه. فأصول الاجتماع ، والقواعد الإنسانية ، والمقاييس الأخلاقية ، تحتم جميعاً أن يكون عطاء الشعب للدولة عن يُسر لا عن عسر ، فليُنظر الولاة في تحسين أحوال العامة - إذاً - قبل أن ينظروا في الأخذ منهم. يقول علي لعماله على الخراج:

«ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضرين أحداً منهم سوطاً لمكان درهم، ولا تُقنمه على رجله في طلب

درهم، ولا تبغ لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيء من الخراج. فإنما أمرنا أن نأخذ منهم بالعفو!»^(١) ويقول أيضاً: «وتفقد أمر الخراج بما يُصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم»^(٢).

وهذه النظرة إلى أحوال الأرض وتراوحها بين العمارة والخراب، وترتيب صلاح الدولة على صلاح العامل والفلاح، هي من الصحة والدقة بحيث إن العلوم الاقتصادية والاجتماعية تؤيدها اليوم، وقد انقضى على عهد صاحبها قرونٌ طوال.

ولكن، كيف يتاح لهذا الشعب أن يجهد في عمارة الأرض ويفجر منها الخير، فيأمن الأفراد والجماعات؟ لقد وضع عليّ لذلك قاعدة عامة هي من القواعد التي تقرّها العلوم الاجتماعية الحديثة أيضاً.

رأى بعض المفكرين الأوائل أنّ عمارة الأرض تكون بأن يُستخدَم فيها الأرقاء والأسرى والمستضعفون غصباً وقسراً، وإنّهم رحموا فالأجورون من الناس يُنتجون فينالون بعض الجزاء. أما الجزاء الأوفى في شرع أولئك المفكرين فيذهب لطبقة تملك الأرض وتستغلّها بغير جهد، هي طبقة أصحاب الجلالة والسمو و«الشرف» الرفيع والنبلاء والأثرياء، وأهل الارستقراطية الفارغة والفساد العريض وسائر المترهّلين.

ولطالما سقطت قيمة الإنسان وقيمة العمل في مثل هذه الشرائع، ولطالما أفاد الحكّام وأنصارهم من بؤس الناس وشقاء الكادحين، اللذين تبررهما شرائع الاستعباد، بل قل شرائع التقتيل الجماعي في التاريخ القديم والحديث. وقد كان من نتائج هذا النمط من التفكير الاجتماعي البدائي أن تُساند الحكّام

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥١ - ٤.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ٧٨.

والكهنة ، وتعاونوا على أن يمضوا دم الجماعات وروحها باسم الوطن تارة ، وباسم الرب الذي يعبدون تارة أخرى. وإليك صورة عن هذا الواقع الذي نرسمه ، نأخذها عن العالم المؤرخ الانكليزي ولز ، يقول:

كان الكهنة يلقنون الناس أن الأرض التي يزرعونها ، ويدأبون فيها ليست لهم، وإنما هي للآلهة التي في المعابد، وقد يهبها الآلهة للحكام ، ويهبها الحكام لمن يشاؤون من خدمهم وموظفيهم.

«واستكشف الرجل العادي شيئاً فشيئاً أن الرقعة التي كان يزرعها لم تكن له ، إذ كان الرب مالكةا ، وعليه أن يدفع جزءاً من محصوله للرب، أو أن الإله قد وهبها للحاكم ، وللحاکم أن يفرض عليها ما يراه من الضرائب، أو أن الحاكم قد منحها إلى موظف هو سيد للرجل العادي. وكان للرب أو الحاكم أو للسيد في بعض الأحيان عملٌ يجب قضاؤه. وكان إزاماً على الرجل العادي عند ذلك أن يترك رقعته ويشتغل لمولاه. ولم يحدث قط أن تحدّد في ذهنه ، ولا أن اتضح لديه تماماً أمر رقعة الأرض التي كان يزرعها: إلى أي حد كانت ملكيته لها. إذاً ليس للرجل العادي من الأمر ، ولا من الحياة ، ولا من الأرض شيء»^(١).

والتاريخ العربي ، بعد عليّ ، سيقدم لنا شواهد لا تحصى من استئثار الحكام بالأرض والأموال والأرزاق ، ومن لجوئهم إلى أسطورة «الحق الإلهي» الذي هو حقهم يعطون من يشاؤون ، ويحرمون من يشاؤون ، وليس لأحد أن يعارضهم فيما يفعلون ؛ لأن الأرض ملك الرب وهم ممثلوه على الأرض ، فهي إذاً ، ملكهم.

(١) من هنا نبدأ، لخالد محمد خالد: ٢٦.

أما عليّ بن أبي طالب: فتتوضح الأمور في عقله على صورة رائعة ، لقد أدرك أنّ الأرض ملكٌ مَنْ يعمل فيها ، وأنها لا يخربها إلاّ عَوَزُ أهلها ، ولا يعمرها إلاّ المفيدون منها. فهم إما ذهبٌ أتعابهم إلى حلق الحكّام ، وبطون المترفين ، وأكياس الولاة وجيوب المحتكرين ، تهاونوا وأهملوا ، وابتأست حالهم ومن حقّهم ذلك ، وهم إما ذهبٌ أتعابهم إلى أولادهم ، ثم إلى بيت مال الدولة التي تُعنى فعلاً بالمصالح العامة ، أقبلوا على العمل وثبتوا فيه ، وانتعشت حالهم وانتعشت فيهم الدولة.

إنّ رضا الشعب بهذا الصدد هو في نظر عليّ المقياس الوحيد لصلاح النظام وصلاح الحاكم ، أمّا الضغط والقسر فهما من سقط التدبير. يقول عليّ: «وإنّ أفضل قَرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودّة الرعية ، وإنّه لا تظهر مودّتهم إلاّ بسلامة صدورهم ، ولا تصحّ نصيحتهم إلاّ بقلّة استئثار دولهم»^(١).

ولتقديس العمل في الأرض وكلّ عمل ، ووضع الحدود الحصينة دون البطالة ودون التمتع عن العمل ، قرّر عليّ أنّ الأساس في تفضيل الناس بعضهم على بعض هو العمل ، لا الحسب الموروث ولا السيادة المصطنعة ، كما قرّر إثابة كلّ بما يعمل ، وشدّد في ذلك حتّى عُرف بانتصاره لمن يعمل ، وخذّله لمن يسأل أو يطلب ولا يعمل عملاً يفيد به ، وتفيد الجماعة. وقصّته مع أخيه عقيل بن أبي طالب قصّة معروفة ، إذ جاء يطلب من بيت المال مالاً بغير جهدٍ بذله فردّه خائباً. وليس في نظر عليّ ما هو أبعد عن العدل من ألاّ يثاب عاملٌ على عمله ، ومن أن يذهب جهد عاملٍ إلى شديق مستثمر^(٢) مستغلّ ، ومن أن يضيع على العامل بعض عمله مهما كان هذا البعض قليلاً .

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٥٨.

(٢) شديق مستثمر: الشديق: جانب الغم مما تحت الخدّ. تشدق: حرّك شدقيه للمضغ. لسان العرب: ١٧٢/١٠. مادة «شديق».

ومن أن يكون في الأعمال المتقنة ما هو صغير وكبير.

فرب عامل «دائب مضيع ، وكادح خاسر» في زمنه ، وهو يأبى ذلك! اسمع هذا القول الخالد . الذي يبقى في أصول الدساتير الاجتماعية والإنسانية ما بقي المجتمع والإنسان:

«ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى - أي ما عمل - ولا تُضيعن بلاء امرئ إلى غيره. ولا تقصرن به دون غاية بلائه. ولا يدعوتك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً»^(١).

فعمارة الأرض ، والمكافأة العادلة على العمل هما الأساس السليم الذي ارتأى علي أن يبني عليه مجتمعاً سليماً. جاءه مرة أهل إقليم من الأقاليم يقولون له: إن في بلادهم نهراً قد طمرت الأيام مجراه فقفاً ، وأن في حفرة من جديد خيراً لهم ، ورجوه بعد ذلك أن يأمر عامله على إقليمهم بأن يستخرهم في احتفار هذا النهر الدارس. فما كان من علي إلا أن قبل فكرة احتفار النهر ، غير أنه أبى عليهم ما ارتضوه لأنفسهم من التسخير. فكتب إلى عامله واسمه قرظة بن كعب ، يقول:

«أما بعد ، فإن قوماً من أهل عَمَلِك أتوني فذكروا أن لهم نهراً قد عفا ودرس ، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم ، وقوا على كل خراجهم ، وزاد فيء المسلمين قبْلهم. وسألوني الكتاب إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه ، ولست أرى أن أجبر أحداً على عملٍ يكرهه. فادْعُهُم إليك ، فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا فَمَنْ أَحَبَّ أن يعمل فَمُزَّهُ بالعمل. والنهر لمن عمل دون من كَرِهه. ولأن يعمروا ويقوا أحب إلي من أن يضعفوا. والسلام»^(٢).

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٦١. وفيه: ولا تضيعن.

(٢) نهج السعادة: ٥ / ٣٨٠. أنساب الأشراف: ١٦٢ ، باب: قياسات من كتبه.

فليس التسخير مما يجوز في شرع عليّ ، وإن رضي الناس أن يُستخروا. بل العمل هو الشريعة والقاعدة. يقول عليّ: «وأمرتم بالعمل»^(١). أما النهر فلن يكون فيه نصيبٌ إلّا للذين يعملون فيه. ثم إنّ الذين يكرهون العمل لا يجوز إجبارهم عليه، والعمل بالرغبة - دون إكراه أو إجبار - أمرٌ يشدد عليه ابن أبي طالب في كلّ شأن. وهو يشدد عليه مشيراً تارةً وطوراً مصرّحاً. ومن دستوره في ذلك هذا القول الصريح الذي جعله قاعدةً في ما يتعلّق بالعمل: «ألا فاعملوا في الرغبة»^(٢).

وبهذه النظرة العميقة لأحوال العمل والعامل استطاع عليّ أن يسبق مفكرّي الغرب بما ينيف عن ألف عام. ثم إنه ركّز نظرتَه هذه على أساس من العدالة لا أرفع منه ولا أعقل. فهو لا يجبر الناس على العمل وإن كان مفيداً. لأنّ فكرة الإجبار بحدّ ذاتها انتقاصٌ من القيمة الإنسانية وإساءةٌ إلى الحرية الخاصّة ثم إلى العمل نفسه الذي لا تكتمل شروطه بالإكراه. ولكنه يدفعهم إليه ، من جهة ثانية بأن يجعل خيرات هذا العمل من نصيب العاملين وحدهم: «والنهر لمن عمل دون من كرهه»^(٣) ثم ، أليست هذه النظرة هي أحد الأسس الرئيسية التي تقوم عليها النظريات الاجتماعية الصالحة في القرن العشرين؟

إذاً ، فلكلّ أن يعمل ، وليس هنالك صغير ولا كبير إلّا بما يعمل ، ولكلّ من يعمل جزاء عمله. وليس للبطر الكسول ومن يدّعي الشرف ونبل المحتد^(٤) أن يذهب إليه شيء من تعب الكادحين مهما كان هذا الشيء قليلاً.

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١١٤ - ١٦.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٨ - ٤.

(٣) نهج السعادة: ٥ / ٣٦٠. أنساب الأشراف: ١٦٢ ، باب: قياسات من كتبه.

(٤) المحتد: الأصل ، يقال «فلان كريم المحتد» أي الأصل. المنجد: ١٧ ، مادة «حَتَدَ».

وإن الله - إن أحب أحداً فإنما - «يحب المحترف الأمين»^(١) كما يقول عليّ.
وإذا جاء العمل النافع بالملكية ، فإنّ هذه الملكية من حقّ الأفراد بالطبع.
غير أنّها لا تكون - بجملتها - من حقهم إلّا بمقدار ما ينسجم ذلك مع مصلحة
الجماعة. أمّا إذا كانت المصلحة العامة تقضي بالحدّ من هذه الملكية فهذا ما
يجب أن يصار إليه ، لا تردّد في ذلك ولا جدال، فإنّ كلّ ملكية لابدّ لها من أن
تخدم الجماعة؛ لأنّ العبرة فيها هي: المنفعة العامة إلى جانب المنفعة الخاصة!
وإذا فُهمت حدود الملكية على هذا النحو كانت سبباً رئيسياً في القضاء على
تضخم المال وعلى خلق الطبقة الاقتصادية في المجتمع.

أمّا إذا كان في المجتمع قوم لا يستطيعون العمل لعجز أو قصور ،
كالطفولة اليتيمة أو كالرقة في السن ، فهل يهمل الإمام عليّ حقّ هؤلاء في
الحياة الكريمة كما تهملهم المجتمعات العربية اليوم ، مثلاً ؟ أم أنّه ينظر إليه
بعين الإنسان العادل ، القائم بأصول نظريته على المقاييس الإنسانية التي
تتبنّاها المجتمعات العادلة الصحيحة؟

إنّ للجماعة على الفرد حقوقاً، وإنّ للفرد على الجماعة مثل هذه الحقوق،
والشعب جسم واحد متكافل متعاون ، وكلّ فرد فيه يثاب بما يعمل. وقد «قسّم
الله بين الناس معاشهم» فليس من حقّ أحد أن يستأثر بمعيشة سواه. أمّا العاجز
عن العمل - أيّ عمل - كالطفل والشيخ ، فعلى الجماعة أن تقوم بحاجاته، عليها
إنصافه مثل إنصاف غيره من الناس، وهذا حقّ للفرد على الجماعة ، لا منّة ولا
عطف! واجب مركز ، لا برّ ولا إحسان! أمّا المسؤول المباشر عن إقامة
هذا الحقّ ، فالدولة بأشخاص ممثليها. يقول الإمام عليّ: «فإنّ هؤلاء من بين

(١) بحار الأنوار: ١٠ / ١٠٠. وسائل الشيعة: ١١/١٧ باب ١ من أبواب الدين ح ٦.

الرعية أحوجٌ إلى الإنصاف من غيرهم. وتعهد أهل اليتيم وذوي الرقة في السن^(١) ممّن لا حيلة لهم^(٢). وإذا لم يكن عليّ ليطلق على هذا الأصل من أصول تديره الاجتماعي لفظ «الضمان الاجتماعي» أفلا نرى ، نحن وأتة سبق ألوف المفكرين الغربيين إلى إدراك هذه الضرورة الاجتماعية ، وإلى جعل العمل بها واجباً من واجبات الدولة ، لا عطفاً من «جود» المحسنين ، ولا غيثاً من سماء الغيورين ، ولا شركاً من أشراك المنافقين؟

فإنّ عليّاً الذي يرى أنّ الفقر هو الموت الأكبر ، وأنّ الفقير غريبٌ في بلده ، لا يريد أن يُقطع الفقر والجوع بثمنٍ من المنة المهينة ، والعطف الكاذب من جهة الحاكم. ولا بثمنٍ من الخضوع والمذلة والمسكنة من جهة المحكوم، لذلك يقرّر هذه الحقيقة تعظيماً لكرامة الإنسان إذ يقول: «الجوع خيرٌ من ذلّ الخضوع!»^(٣) فعلى المرء أن ينال حقه ونفسه في عافية لأنّ «شر الفقر فقر النفس»^(٤).

ومتّما يدخل في باب رفع الحاجة عن الشعب ذلك الاهتمام العظيم الذي كان يبديه عليّ نفسه بما كان «الأشراف» من العمّال في عهد عثمان لا يقيمون له وزناً، وبما لا تعيره أكثر حكومات العالم العربيّ اليوم التفاتاً ، وذلك لـ «صغر» شأنه من جهة ، ولانشغالهم بما يستّمونه «سياسات عليا» من جهة ثانية.

أمّا هذا الشيء «البسيط» فلم يكن بسيطاً في نظر عليّ ؛ لأنّ عليّاً كان

(١) الذين تقدّمت بهم السن فمجزوا عن العمل.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٠٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١٧٦٩.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ٥٧٢٢.

عظيماً حقاً ، والعظمة والبساطة تلتقيان أبداً ، وأعني به: الاهتمام بأحوال السوق التي يباع فيها المتاع والقوت ، وبдраهم العامة التي يسطو عليها التجار ، فينهونها بواسطة الكيل والميزان والسعر. وحين نعلم اليوم أنّ غلاء أسعار الملح - وهو شيء لا قيمة له في حساب أكثر الحكام المشاركة - كان في جملة الأسباب الرئيسية التي عجّلت بإيقاد نار الثورة الفرنسية، ندرك قيمة آرائهم في ما هو بسيط وغير بسيط من الأمور ، كما ندرك قيمة سياستهم «العليا الباردة».

لم يكن عليّ صاحب سياسات «عليا» ، بل صاحب عدل في الحكم وأمانة في العمل، لذلك كان يفتدي صبيحة كل يوم فيطوف بنفسه أسواق الكوفة ، ويتفقد بنفسه أهل كل سوق منها ، ويفحص بنفسه أحوال الشارين والبائعين ، ويحمل المخالفين من التجار قسراً على أن يكونوا بشراً لا جزّارين، ويقف على رؤوسهم مذكراً إياهم بالعقاب، إن هم احتكروا أو اختلسوا أو بخسوا الناس اليسير من حقوقهم ، ثم يناديهم قائلاً:

«يا معشر التجار... الخ».

لقد اقتنع ضمير عليّ واقتنع عقله بأنّ الناس في المعاش أسوء، وبأنّ هذه الحقيقة إنّما هي ضرورة من ضرورات الحياة ، وأسلوب في دفع الفرد في طريق الحرية ، وعامل على بناء المجتمع بناءً صحيحاً. فإذا هو يجعل المساواة في الحقوق قانوناً، ثم يقرّر على ضوء هذا القانون: أنّ أهل الحاجة أولى من أهل السابقة في الإسلام بالأموال العامة ، وأنّ الحاجة نفسها تعادل الجهد المبذول ، والعمل النافع في الاستحقاق، فهي على هذا مبرّر للحصول على المال وتملك الأرض.

وكانت وصايا الإمام لعمّاله على الأمصار تتلاحق، وفيها أوامر مشددة

برفع كل حجز ، وعدم استيفاء الضرائب من أهل الحاجة، ثم بمساعدة هؤلاء كي تُقبل عليهم الأرض بالخير، فيما كان يأمر باستيفاء هذه الضرائب أضعافاً مضاعفة من الأغنياء ؛ كي يثري بيت مال الجماعة؛ تحقيقاً لما يمكن تحقيقه من المساواة بين الناس.

وكم يصغر في نظرنا اليوم في عصر إعلان حقوق الإنسان، أن نرى الكثير من حكومات هذا الشرق السعيد ، الفريد في سعادته، تُثقل أهل الحاجة من الشعب بالضرائب ، تستوفيها من قوتهم الضروري ، ومن دمهم بالتهديد والوعيد ، والحجز وبيع ما لديهم من ضئيل الممتلكات تحت أعينهم ، وبما إلى ذلك جميعاً من وسائل العصور الفرعونية ، أو القراقوشية ، أو السلطانية؟ مع العلم بأن هذه الحكومات لا تعرف شيئاً عن حقيقة هذا الشعب الذي تريد أكله ، ولا تعترف له بحقوق ، ولا تعمل على رفع الحاجة عنه كي يستطيع مكافأتها على «جهودها» المشكورة!

وكم يعظم في نظرنا ابنُ أبي طالب حين يقول لكل من عمّاله، وهو يراقبهم كي لا يقصروا أو يهملوا ، وكان ذلك من بضعة عشر قرناً: «لا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابةً يعملون عليها. ولا تضربن أحداً منهم سوطاً لمكان درهم، ولا تقنه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحدٍ منهم عَرَضاً في شيء من الخراج، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم بالعفو»؟ «وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج»^(١).

* * *

لقد أدرك الإمام عليّ الحقيقة الكبرى في تكوين المجتمع الطبقي ، فصاغها بهذه الكلمات القلائل ، في ذاك العهد البعيد ، بعد أن فصلها وأوضحها

(١) نهج البلاغة ، من عهده عليه السلام لمالك الأشتر، كتاب: ٥٣ / ٨٠

في أكثر من مكانٍ ، من عهوده ووصاياه ، قال: «ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غنيٌّ»^(١). هذه الحقيقة الكبرى ، التي تقيم عليها الأنظمة العادلة اليوم قواعدها في العلاقات المادية بين الناس سبق لابن أبي طالب أن أدركها منذ بضعة عشر قرناً ، وأن فضلها بما يسمح به زمانه من قواعد وأصول.

حذّثني الكاتب اللبناني الصديق ج.ح. قال:

يوم كنت في أحد البلدان الأوروبية التي تسعى في تحرير الإنسان من العوز والفاقة وويلاتها ، قلت لوزير معارف ذلك البلد: نحن العرب ، سبقناكم أكثر من ألف عام إلى إدراك حقيقة المجتمع الطبقي، التي تعملون أنتم اليوم على توضيحها. فقال الوزير الأوروبي: وكيف كان ذلك؟ قال: منذ بضعة عشر قرناً قال عليّ بن أبي طالب: «ما رأيت نعمةً موفورة إلا وإلى جانبها حقٌّ مضيعٌ»^(٢). فقال الأوروبي: إنّما نحن أفضل منكم ، قال: لِمَ؟ وكيف؟ قال: لأنّ عريتنا منكم اكتشف هذه الحقيقة منذ بضعة عشر قرناً، وأنتم ما تزالون في مظلمة اجتماعية ، فيما طبّقناها نحن قبلكم. فأنتم متأخرون عنا بضعة عشر قرناً في هذا المعنى.

وقبل أن أختم هذا الفصل لابدّ من قولٍ أوجز به كلّ ما تقدم ، ثم أدعو القارئ لأن يقابل بين أحدث النظريات الاجتماعية السليمة ، وأُسُس النظرية الاجتماعية العلوية:

يمكننا تلخيص فلسفة المجتمع عند عليّ بعباراتٍ تشع ، يقوم عليها تصويره لأحوال المجتمع من حيث الثراء والفقر ، ومن حيث الطبقة المالية ، ثم يجري عليها دستوره في رفع الحاجة عن العامة، والمساواة بين الناس

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ، رقم: ٣٢٨.

(٢) دراسات في نهج البلاغة ، شمس الدين: ٤٠.

جميعاً في الحقوق والواجبات. أما العبارات التسع فهي:

إمّنع من الاحتكار.^(١)

ما جاع فقيراً إلا بما مُتّع به غني.^(٢)

ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حقٌ مضّيع.^(٣)

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج.^(٤)

لست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه.^(٥)

قلوبهم في الجنان وأجسادهم في العمل.^(٦)

النهر لمن عمل دون من كرهه.^(٧)

إعرف لكلّ امرئٍ منهم ما أبلى ، ولا تضيعنّ بلاء امرئٍ إلى غيره.^(٨)

إيتاك والاستئثار بما الناس فيه أسوة.^(٩)

فإذا أنت أمعنت النظر في هذه العبارات أدركت أنها أصولٌ عميقة في بناء كلّ مجتمع صحيح، تُحفظ فيه حقوق الإنسان ، وتُرعى فيه الحرية الإنسانية بأروع معانيها وأوسعها، أصول تقوم عليها النظريات الاشتراكية الحديثة ولا تخالفها في شيء.

وبعد ، فليبارك القارئ هذا العقل العربي الجبار !

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٩٩.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم ، رقم: ٣٢٨.

(٣) دراسات في نهج البلاغة ، شمس الدين: ٤٠.

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٨٠.

(٥) أنساب الأشراف ، البلاذري ، ص ١٦٢ ، باب قبسات من كتبه. نهج السعادة: ٥ / ٣٦٠.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ١٣٦.

(٧) نهج السعادة ، ٥ / ٣٦٠.

(٨) نهج البلاغة ، كتاب: ٥٣ - ٦١ وفيه: ولا تضيعن.

(٩) نهج البلاغة ، كتاب: ٥٣ - ٤٩.

لا تعصب ولا إطلاق

- وإذا وُجدت رابطة الإخاء الإنساني بصفة الإنسان وحدها ، فما في ذلك إثم .
- وكيف يفرق هؤلاء من المواضيع الحيّة في مُطْلَقَات لا تجوز حتى في جماد الطبيعة؟ وكيف يتخذون من قياسات الوزن والمساحة حدوداً للإنسان الذي لا يُعَدّ ، وللحياة المتحركة المتطورة التي تأسن^(١) إنما حُدّت بإطلاقٍ ويلزمها الانقباض؟ فإذا هي لا حياة وإذا هو لا إنسان .

ويتابع عليّ بن أبي طالب سيره الصاعد في الطريق الرحب ، فيقرر للإنسان على تخوم حقوقه في المعاش ، حقوقاً أخرى لا يكتمل إلا بها . ويجوز كلّ نطاقٍ إلى الحدود الإنسانية البعيدة التي لا تقف عند عقيدةٍ معينة ، ولا تنتهي عند تخوم العنصرية الضيقة المؤذية ؛ وذلك تأكيداً لكرامة الجنس البشري بكافة عناصره ومقوماته المادية والأخلاقية .

يأبى ابنُ أبي طالب أن يفرض على الناس عقيدة معينة فيما يتعلق بالدين أو المذهب ، وفي كلّ ما له صلةٌ قريبةٌ أو بعيدة بالوجدان الخالص وحياة الإنسان الداخلية التي تتصوّر وتتلوّن بصوّرٍ وألوانٍ نابعةٍ من الذات ، أو حاصلةٍ من ارتباطات الإنسان بالبيئة الخاصة والعامة . فهو ، وإن كان خليفة النبي وحصن الإسلام وأمير المسلمين ، يأبى أشدّ إباء أن يفرض على أحد من الناس أن يؤمن بما يؤمن به المسلمون ديناً . فالناس أحرار في أن يؤمنوا بالله

(١) تأسن: تتغير. تارج العروس: ١٢٣/٩ .

على ما يرون، وأن يعتقد كلّ منهم على طريقته في الاعتقاد شرط ألا يلحق ذلك الأذى بالجماعة، والخلق كلّهم عيال الله، والدين هو المعاملة. وصفة الإنسان كافية في نظر الإمام علي، لأن تجعله محترماً محبوباً، مرفوقاً به، معطوفاً عليه، غير مهدور حقه. يقول في رسالته إلى عامله على مصر: «ولا تكوننّ عليهم^(١) سبُعاً ضارياً تقتنم أكلهم فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، فأعطيهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، ولا تدمنّ على عفي ولا تبيحن بعقوبة»^(٢).

إذاً، فلكلّ إنسان من الحقّ مثل ما لك وإن اختلف عنك ببعض ما يعتقد، أو بكلّ ما يعتقد. والدين نفسه، أليست غايته أن يشدك إلى الآخرين برابطة الإخاء؟ فإذا وُجدت رابطة الإخاء بصفة الإنسان وحدها، فما في ذلك إثم. وهو - على كلّ حال - يريدك ألا تجعل رأيك في أمرٍ من أمور الحياة والأحياء مدار الحكم والقياس المطلق، فالحياة واسعة الحدود، والأحياء في هذه السعة دائرون، فما عليك أن تقيم نفسك الحكم الأول والأخير على تصرّفات الخلق وهم لا يلحقون بك الأذى. وما أدراك! فربّ أمرٍ تخاله عظيماً وهو في سعة الوجود غير عظيم، وربّ امرئٍ تستصغر شأنه وهو - لو عرفت - أرفع منك شأنًا! يقول الإمام نصّاً صريحاً: «فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد الله، فربّما يكون وليّه وأنت لا تعلم»^(٣). فإذا أنت حملت هذا القول الحكيم إلى مداه البعيد أدركت موقفه الصريح من التعصب والإطلاق.

(١) أي على الناس جميعاً.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ٨.

(٣) بحار الأنوار: ٩٠ / ٣٦٣. درّ الأخيار: ٤٨٦. ميزان الحكمة: ٣ / ١٨١٨. تفسير نور الثقلين: ٢ / ٣٠٩. حياة الإمام الحسين، باقر القرشي: ١ / ١٤٦.

وإذا كان أخوك على خطأ أو إساءة فعليك أن تعطيه من عفوك وصفحك وألا تندم أبداً على عفو وصفحك. ثم عليك أن «تحصّد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك»^(١). وعلى ابن آدم، أيّا كان معتقده: «أن يكون وصيّ نفسه»^(٢) وأن تكون صلته بغيره صلةً من يحبّ لغيره ما يحب لنفسه، يكره له ما يكره لها: «فأحبّ لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك»^(٣). ثم إنّ المؤمن الحقّ «لا يدع للخير غايةً إلا أمّها»^(٤). والخير كل الخير هو العدل في الخلق، لا فرق بين واحدٍ والآخر. ثم إنّ من قابَل الدنيا على منهاج محمد؛ لا يختلف في شيء عمن يقابلها على منهاج المسيح، أو على منهاج كلّ من تمثّلت به الفضائل الإنسانية. فالمهم في نظر عليّ هو الدنوّ من الفضيلة. أمّا الوسائل فالناس فيها أحرار. يقول عليّ:

«وقد كان في رسول الله صلى الله عليه وسلم، كافٍ لك في الأسوة، إذ قبضت عنه أطرافها - أطراف الدنيا - وقُطِمَ عن رضاها، وزُوي عن زخارفها. وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم (عليه السلام)؛ فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشيب. وكان إدامه الجوع وسراحه بالليل القمَر، وظلاله مشارق الأرض ومغاريها، وفاكهته وريحانه ما تُنبت الأرض للبهائم. ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه، ولا مال يُلْقِيته، ولا طمع يذله. دابته رجلاه وخادمه يداها»^(٥) ويقول في مكان آخر: «أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وتراها فراشاً، وماءها طيباً. ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح»^(٦). والحقيقة

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٧٨.

(٢) مقتبس من قوله عليه السلام: «يا ابن آدم كن وصي نفسك...». راجع نهج البلاغة، المختار من حكمه عليه السلام: ٢٥٤.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١ - ٥٥.

(٤) نهج البلاغة: ١٥٣/١ الخطبة ٨٧.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦٠ - ٢٢.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٠٤ - ٢.

التي أدركها محمد ساعة قال: «الأنبياء إخوةٌ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١) أدركها عليّ ساعة قال في محمّد: «ومضى على ما مضى عليه الرسل الأولون»^(٢). وفي هذين القولين اعترافٌ لا يقبل تأويلاً، بأنّ الفضيلة إنّما هي التي تجمع الناس، كما تجمعهم في الأصل الصفة الإنسانية.

فحرية العقيدة الدينية حق من حقوق الناس في دستور الإمام عليّ، فيما أنّ الحرية لا تُجزأ، فإنّ الإنسان لا يمكنه أن يكون حرّاً من جانب ومقيّداً من جانب آخر. فالمسلم أخو النصراني شاء أم أبى، لأنّ الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره. ولو لم يكن الدنو من الفضيلة هو المقياس الأصيل في دستور الإمام في الحرية، ولو لم تكن الحرية الفاضلة حقاً مقدساً لديه لما امتدح من يسيرون على منهاج المسيح، كما امتدح من يسيرون على منهاج محمد. وقد سبق لنا أن ذكرنا خبر عليّ مع النصراني الذي سرق له درعه وادّعى أنّه اشتراها، وكيف عامله معاملة النذ للندّ، أو الأب للابن. ثم ما كان من شأنهما أمام شريح القاضي، وكيف أصبح النصراني في عداد من ناصرُوا الإمام بدمهم وحياتهم.

ولطالما ردّدت جنبات الحجاز والعراق أخبار عليّ في إنصاف صاحب هذا الرأي، ممّن يدين بغيره من الآراء إذا حدّثه نفسه بأنّ ينحرف به عن معتقده، أو يجوز عليه. ولطالما شاهد الناس عليّاً يعتمّ بعمامته الخضراء، ويردّد على أسماعهم ما قاله مرّةً في مسجد المدينة، جاداً كلّ الجدة:

«مَنْ آذَى إِنْجِيلِيّاً فَقَدْ آذَانِي!»^(٣) ولطالما فخر التاريخ وهو يسجّل في أجمل

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٤٧ / ٣٦٨. ميزان الحكمة ٤ / ٣٢٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٧٤ / ٣٦٣. نهج السعادة، المحمودي: ١ / ٣٠٨.

(٣) الصراط المستقيم: ٣ / ١٣.

صفحاته هذا القول علي بن أبي طالب:

«ولو تُنِيت لي وسادةً فجلستُ عليها لحكمتُ في أهل التوراة بتوراتهم ، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم ، وفي أهل القرآن بقرآنهم ، حتى تركتُ كلَّ كتابٍ ينطق من نفسه»^(١) لقد صدق علي.

ثم اسمع ما يأمر أميرُ المسلمين به معقل بن قيس:
«اتَّقِ الله يا معقل ما استطعت. لا تبغِ على أهل القبلة»^(٢) ولا تظلم أهل الذمة ، ولا تكبر ، فإنَّ الله لا يحب المتكبرين»^(٣).

أرأيت كيف يحدّد علي اتقاء الله بآلَا يظلم الإنسانُ أخاه الإنسان وبآلَا ينبغي عليه في كثيرٍ أو قليل؟

ثم أرأيت كيف يجعل المسلمين وغير المسلمين في درجة واحدة ، لا تمايز بينهم ولا تفاضل؟
ومثل هذه التسوية بين المسلمين وغير المسلمين في حكم علي نراها أنى اتجهنا معه.

فهو إمّا تحدّث إلى المسلمين عن أحوالهم جَعَلَ رفع الظلم عن كواهل الناس أولى ما يجب أن يتحلّوا به من فضائل الإسلام، فقال:

«ولو سلّكنكم الحقّ... وأضاء لكم الإسلام ، لما ظلم منكم مسلمٌ ولا معاهد»^(٤) وهو إمّا عَنف المسلمين لتخاذلهم عن نصرّة الحقّ ورفع الظلم عن مدينة الأنبار، ساعة غزاها سفيان بن عوف الأسدي ونكّل بأهلها ، عَنَفَهُمْ لأنّهم لم

(١) نهج البلاغة الثاني للحائري، الحكمة: ٣٠٧.

(٢) أهل القبلة: المسلمون.

(٣) تاريخ الطبري: ٤ / ٩٤ ، أحداث سنة ٣٨.

(٤) أهل الذمة ، أو المعاهدون: الداخلون في ذمة المسلمين من أهل الكتاب.

(٥) تاريخ الطبري: ٤ / ٩٤ ، أحداث سنة ٣٨.

يدفعوا الظلم عن إخوانهم وأخواتهم من أبناء المدينة ، لا فرق فيهم بين مَنْ أسلم أو عاهد ، قائلاً:

«... ولقد بلغني أَنَّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فيتنزع جِملها... الخ، فلو أَنَّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به مَلوماً»^(١).

وهو إمّا بعث بعهدٍ إلى محمد بن أبي بكر حين ولّاه مصر بعث إليه يقول: «أوصيك بالعدل على أهل الذمة ، وبإنصاف المظلوم وبالشدة على الظالم وبالعفو عن الناس والإحسان ما استطعت ، وليكن القريب والبعيد عندك في الحق سواء»^(٢).

لقد أمره بالعفو عن جميع الناس ، بعد أن لفت نظره إلى أهل الذمة تمكيناً لفكرة التسوية بين الناس في ذهنه.

ومن عهده إلى نصارى نجران هذه العبارة: «... لا يضاموا ولا يُظلموا ولا ينقص حقٌّ من حقوقهم»^(٣).

وجعل عليّ دية النصراني كدية المسلم.

وكان هذا الموقف يقفه عليّ من التعصب انبثاقاً طبيعياً عن شخصية صاحبه القائل في روح الوجود الشامل:

«ولا يلويه شخصٌ عن شخص ، ولا يُلْهيه صوتٌ عن صوت»^(٤).

إنَّ لكلِّ إنسان كرامةً عند عليّ، وإنَّ لكلِّ صوتٍ سامعاً.

وعلى الرغم من تعصب أهل الجهل والغباء من أبناء كل دينٍ في العصور الغابرة فإن هذه الحقيقة عن عليّ جعلت عارفيه من نصارى العرب في زمانه وتُعيد زمانه، من أشد الناس حبّاً له وتعلّقاً به، وقد أشار ابن أبي الحديد إلى

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٧ - ١٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٧ - ٦.

(٣) الحديث للرسول (ﷺ) وفيه: ولا يغير حق من حقوقهم ، فتوح البلدان: ١ / ٧٧ ، الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢٦٦/١.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٦٥.

ذلك في شرح النهج قال: «وما أقول في رجلٍ - يعني عليّاً - تحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنبوة.. الخ»^(١)..

ولقد بنى عليّ معاملته لغير المسلمين على قوله هذا: «أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا»^(٢).

وأرادها سنةً من بعده.

* * *

إذاً ، فالتعصب الديني مذمومٌ في منطق عليّ، وهو مغاير لأبسط قواعد الحرية التي يؤمن بها على أوسع نطاق وقيسها بأرحب المقاييس. وإذا نحن قابلنا بين موقفه هذا ممّن لا يدينون بمعتقدده ، وبين رجال «الإيمان» الأوروبيين في العصور الوسطى ، ولا سيما القائمين على محاكم التفتيش ، ثم بين سماحة السّمْح وتشدّدهم المقيت ، لرأيانه يسمو حيث ينحدرون، ولا عجب في ذلك ، فالإيمان عند عليّ كان نابعاً من أصوله الإنسانية ، ومن نظراته العامة إلى الحياة والوجود، فيما كان إيمان الكثيرين من أولئك مظهرأ من مظاهر العبودية التي انقلبت فيهم إلى عادة ، لا أصالة إنسانية فيها ولا جمال.

* * *

ونحن ، إذا حاربنا اليوم التعصب الديني أو المذهبي ، وما عاد التعصب الديني بذى شأن على كلّ حال فإنّ بعض الأمم قد أبدلت به تعصباً أفتك وأخطر : تعصباً للقوميات أو العنصريّات، أو تعصباً للمذاهب السياسية لا يعفو ولا يعذر ولا يقابل الإنسان بصفح أو سماح، وفي ذلك ما فيه من رعونة وغباء وأثرة مؤذية، فإنّ المتعصب يعترف لك ضمناً ، بأنّه مالك الحق ولا حق

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، المقدمة : ٢٨ ، طبعة دار إحياء التراث العربي ١٣٨٥ هـ .

(٢) شرح نهج البلاغة للمعتزلي : ١٤٨/١٧ ، إيضاح الفوائد ، ابن العلامه : ١ / ٣٨٩ ، الجزية وأحكامها ،

كلان تري : ١٤ ، المغني لابن قدامة : ٦٢٣/١٠ .

إلا بين يديه وأنّ نظرتَه إلى الدنيا هي النظرة بعينها وأنّ رأيَه في شؤون الإنسان والحياة مطلق لا يجوز فيه تعديل ولا يعدُّله رأي، فإذا بهؤلاء المتعصبين للعنصريات أو للمذاهب السياسية يغرقون في المطلقات من حيث يعرفون أو لا يعرفون، والغرق في المطلق فيما يتعلّق بالمذهب والمسلّك، شيء من الجمود، فالموت. وكيف يغرق هؤلاء من المواضيع الحية والجارية من حالٍ إلى حال، في مطلقاتٍ لا تجوز حتى في جماد الطبيعة؟ وكيف يتخذون من قياسات الوزن والمساحة حدوداً للإنسان الذي لا يُحدّد، وللحياة المتحرّكة المتطورة التي تأسّسُ إمّا تُحدّد بإطلاقٍ ويلزمها الانقباض، فإذا هي لا حياة وإذا هو لا إنسان.

وكأنّ هذا التعصّب بكافة ألوانه من طباع بعض الناس من قديم الزمان. فهذا الإمام الجليل لا يفرّغ من محاربة التعصّب الديني؛ حتى يعود ليحارب التعصّب بسائر أشكاله ومظاهره، وهو يرى في التعصّب للقبيلة أو للعنصر بغياً وإفساداً ثم تشويهاً لوجه الحياة الجميل، ويرى في الفخر بالآباء ضرباً من ضروب هذا التعصّب فيُخزّيه، فلنسمعه كيف يخاطب أهل العصبيّة من أبناء زمانه:

«ألا وقد أمتعتم في البغي وأفسدتم في الأرض، فالله الله في كبر الحميّة! وفخر الجاهلية! فإنّه مَلَفِجُ البغضاء ومنافخ الشيطان التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية».

«ألا فالحدّز الحدّز من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسّهم وترفعوا فوق نسّهم - أي احتقروا غيرهم من الناس وتعصّبوا عليهم - وجاحدوا الله على ما صنع

فإنهم قواعدُ أساسِ العصيّةِ ودعائمُ أركانِ الفتنة»^(١).

وبعد أن يجعل التعصّب للقبيلة والعنصر بغياً وإفساداً وتشويهاً لوجه الحياة ، ثم يقرنه إلى الفتنة يعود ليطلق هذا المذهب الحكيم في معنى التعصّب أيّا كان لونه ، مقرّراً قاعدة لا أراها تزداد مع الأيام إلّا رسوخاً حيث يقول:

«ولقد نظرْتُ فما وجدتُ أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء ، إلّا عن علّةٍ تحتمل تمويه الجهلاء ، أو حجةٍ تليط بعقول السفهاء»^(٢).

وليرجع الراجعون إلى كلّ ما قيل في معنى التعصّب، فإنهم لن يجدوا في أصوله أكثر من هذا الأصل المزدوج الذي ذكره ابنُ أبي طالب: فإنّما أن يتعصّب المتعصّبون عن جهل ، وإنّما أن يتعصّبوا عن سفاهة ، وكلا الجهل والسفاهة يحتملان البغي والإفساد والكبر على الحياة ، وهي ما صوّرها ابنُ أبي طالب في قوليه السابقين.

وهكذا ، فإنّ كلّ تعصّب مذموم في عقيدة ابن أبي طالب. اللهم إن لم يكن تعصّباً للفضيلة والعدالة والحقوق العامة!

اللهم إن لم يكن تعصّباً لإنصاف الطبقات المظلومة من ناهيها ومحتكري خيراتها!

اللهم إن لم يكن تعصّباً للاستقامة والصدق وسلامة الضمير! اللهم إن لم يكن تعصّباً للحرية نفسها ، ولكرامة الجنس الإنساني!

اللهم إن لم يكن تعصّباً لإنصاف الخلق من المتعصّبين للأذى! وهذا ما نراه في خطبته المستمّة بالقاصعة:

«فإن كان لابدّ من العصية ؛ فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحاسن الأمور والأخلاق الرغبية والأحلام العظيمة والآثار المحمودّة ، والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ٣٠.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ٧٢.

والإنصاف للخلق واجتناب المفاصد في الأرض»^(١).

ومن آياته في الاندفاع مع الطبيعة الخيرة ، التي تكره التعصب لفكرة أو لحالة راهنة أية كانت، وصيته بالخوارج وقد قسطوا عليه وحاربوه ملء قواهم قال:

«لا تقاتلوا الخوارج من بعدي. فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»^(٢).

ولكي يجعل الإمام في أفهام الناس أن التعصب لا يعني إلا اعتراف المتعصب بأنه لا يخطئ، يأمر بالمشورة ثم يعطي المثل بنفسه فيقول: «فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ»^(٣).

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ٧٦.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٦١.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢١٦ - ٢٤.

الحرب والسلام

- هلك من ادعى ، وخاب من افترى ^(١).
- الغالب بالشر مغلوب ^(٢).
- بثس العدوان على العباد ^(٣).
- إن في الصلح أمناً للبلاد ^(٤).
- حُطَّ عهدك بالوفاء ، ولا تغدرنَّ بدمتك ، ولا تخيسنَّ بمعهدك ، ولا تختلنَّ عدوك ، ولا تقوينَّ سلطانك بسفك دم حرام ^(٥).

علي

وللإنسان على الإنسان حقوق كثيرة فوق هذه، في طليعتها عقد حبلى المودة والألفة بين الناس أفراداً وجماعات ، قبائل وشعوباً. الناس الإخوة الذين يجمعهم أصل واحد ، وطريق مشترك ، وغايات لا تتباعد. فإن الحرية ، واليسر ، والأنظمة الموضوعية ، والأعمال الموروثة ، والمسااعي المستحدثة ، وغيرها مما يتعلق بالإنسان، أمور لا معنى لها ولا مبرر للنظر فيها مع الحرب التي تمحق الإنسان، ومن أجله كانت كل تلك الأمور.

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٦ - ٨

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٢٧.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٢١. جاء فيها: بثس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد.

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٣٣.

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٣٤ و ١٣٦.

وكلّ قولٍ يدّعي خدمة الإنسان ولا يدعو إلى السلم هو قولٌ كاذبٌ
وخلقٌ لثيم.

وكلّ عملٍ يدّعي خدمة الحياة ، ثم يدفع الأحياء إلى الموت تحت سنانك
الخيّل وشظايا الحديد هو عملٌ منافقٌ وشيء عقيم.

وكلّ نظيرٍ في حال الإنسان وحال الحياة لا تتبعه الدعوة إلى المؤاخاة بين
البشر الإخوة هو نظيرٌ عاجزٌ ورأيٌ سقيم.

فما أعجزَ القول والعمل والنظر ساعة تنقلب الأنهار دماءً ، والرياض
صحارى ، ويطلع الشوك في القصور!

وما أعجزَ القول والعمل والنظر ساعة يرتفع الإنسان كالعُصافة في طريق
الزوبعة ، ويُطرح في أشداق حربٍ تأكله أكلاً عظيماً، فإذا هو لا شيء! وإذا
جماليات الحياة وأمنياتها قد أصبحت عدماً وخواءً ، وإذا البوم تهبط إلى
خرائب عمرانه فتقرّ فيها وتجد لنفسها محلاً.

وإذا كانت الحرب مهلكةً فالسلم وحده منجاةٌ وهو إلى ذلك الغاية
الموصلة إلى غايات: هو الحالة التي تمكّن أبناء الإنسانية الواحدة من أن
يستخدموا مواهبهم وطاقاتهم جميعاً ، ويتعاونوا في مساعيهم الواحدة ؛
ليبلغوا أمانيتهم المشتركة الواحدة ، مرحلةً مرحلة.

وابن أبي طالب الذي تتماسك مذاهبه في كلّ ميدان تماسك الفروع
النامية على أصلٍ واحد، يدرك أن السلم سياجٌ عظيم يشيد حول الإنسان وحول
الحياة فيمنع عنهما كلّ شر.

يخاطب ابنُ أبي طالب الناس، قائلاً: «إن الله لم يخلقكم عبثاً»^(١).

ولم يخلق الله الناس في مذهبه؟

إنه يجيب عن هذا السؤال بنفسه ، يقول: «إن الله خلقكم حَرَمًا في أرضه ، وأمنًا بين خلقه... وجمع ألفتكم فنشرت النعمة عليكم جناح كرامتها ، وأسالت لكم جداول نعيمها»^(١).

فالألفة إن هي إلا نعمة الوجود على الناس في مذهب علي.
وإليك قبساً من الدفء والحنان العظيمين ، اللذين يشيعان في قلب ابن أبي طالب ، وعلى لسانه ساعة يتحدث عن السلام والألفة ، يقول:
«وعقد الله بينهم حبل الألفة التي ينتقلون في ظلها ويأوون إلى كتفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة ، لأنها أرجح من كل ثمن وأجل من كل خطر»^(٢).
وإذا كان السلم بين الناس مبعثاً لمثل هذا النعيم ، فعلام يتعادي الناس الأشقاء ولم يتنافروا؟ أصغ إلى هذه الزفرة من قلب علي:
«يا أيها الإنسان! ما آتاك بهلكة نفسك؟ أليس من نومك يقظة؟»^(٣).

وتتعاون الأعمال والأقوال في حياة علي، تنفيراً من التعادي والتناحر والافتتال ، وتحسيناً للتصافي والتآلف والمؤاخاة ، وهو يأمر بالتعاون من أجل السلم ، ويعمل له ، لـ «أن في الصلح أمناً للبلاد»^(٤). ويأمر بكراهية الحرب ، ويكرهها ، لأن الحرب عدوان و «بئس العدوان على العباد»^(٥) ولأن الخسارة هي في كل حال، النتيجة المحتومة لهذا العدوان: «ومن زرع العدوان

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ١٠٧.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ١٠٤.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٢٣ - ٢.

(٤) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٣٣.

(٥) قصار الحكم: ٢٢١. جاء فيها: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد.

حصّة الخسران»^(١) ولأنّ في الحرب ويلاً على بني الإنسان: على المنتصر والمنكسر معاً. وفي الحرب امتهانٌ لكرامة الإنسان ، هو الخروج على العقل والضمير والموذات ، وقيمة الحياة في شخص الغالب. وهو المهانة والمذلة وضياح الدم والحياة في شخص المغلوب. وفي مذهب عليّ أنّ «الغالب بالشرّ مغلوب»^(٢) ، وليس هنالك ما هو شرّ من القتال وسفك الدم.

وكان من مبادئ الأمور عند عليّ أن يذكر الغارات ، وهي مظاهر الحرب في القبائل الجاهلية قبل الإسلام ، في عدد السوءات المريعة^(٣). فالغارات وعبادة الأصنام وواد البنات من معدنٍ واحدٍ في نظره، وهي إلى ذلك تجسيد لجهل الإنسان حقيقة نفسه وحقيقة الحياة، وبئس الجهل في كلّ حالاته. يقول عليّ: «وأطباق جهلٍ من بنات موؤودة ، وأصنام معبودة ، وغارات مشنونة»^(٤) (٥).

وقد بلغ به مقتّهُ للحرب أنّه كان ينهى عن القتال حتّى في أضيق حدوده وأعني: المبارزة، فيقول: «لا تدعون إلى مبارزة»^(٦). ولعلّ قارئ عليّ يلحظ أنّه كثيراً ما يذمّ أخلاقاً في الناس ، وأشياء في الدنيا. أمّا في أخلاق الناس: فكان يذمّ الميل إلى الفتنة والجنوح إلى القتال أوّل ما يذمّ، وأمّا الدنيا فلا يسوؤه من وجوهها وجهٌ أقبح من الحرب، فتراها إذا هاجّه من أمورها هائجٌ قال فيها:

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، رقم: ٨٠٣٣.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣٢٧.

(٣) المريعة: المرعبة. المنجد: ٢٨٧، مادة «راع».

(٤) مشنونة: متفرقة. شرح النهج: ١٧٤/١٣.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٩٢ - ١٩٧.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١٠٣٨٠.

«وإنها دارُ حربٍ وسلبٍ ونهب»^(١).

والحرب مَثْلَفَةٌ للحقِّ بقدر ما هي تغطية للباطل، والسماء والأرض وُجِدتا بالحقِّ في مذهب عليٍّ، وبالحقِّ يعلو الإنسان ويقوم المجتمع وتسد الدنيا. أما الباطل فهو مجمع المخزيات والردائل. وإذا كان الأمر كذلك فما هو نصيب الحرب من القيمة في خاتمة كلِّ حساب؟ إنها مجمع المخزيات والردائل «لأنها - أي الحرب - إذا أُقبلتْ سُتْهِتْ»^(٢) أي ارتفع فيها شأن الباطل وانخفض صوت الحقِّ. وإذا كان السلم هو الحقِّ فإنَّ «مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاعَ مَذْهَبُهُ»^(٣).

هذا هو أساس نظرة عليٍّ إلى الحرب. ولا عجب في ذلك، فهو نظرٌ يلائم إيمانه العميق بالحرية، ويلائم ثقته بالإنسان، ويلائم احترامه العميق للحياة والأحياء، وما يجب أن ينصبتوا عليه من العمل الخير المفيد. وهو لذلك يكتفي بأن يخاطب أصحابه في بعض الحالات، قائلاً: «وَحَسْبُ عَدُوِّكُمْ خُرُوجُهُمْ مِنَ الْهَدْيِ إِلَى الضَّلَالِ»^(٤) منعاً من الفتنة، وميلاً إلى السلم.

وهو لذلك يأمر المخطئ المسيء بأن يعتذر عما فعل؛ رفعاً لأسباب القتال. ويأمر مَنْ أُسيءَ إليه بأن يقبل عذر من اعتذر له مهما كان ذنبه عظيماً، قائلاً له: «إِقبل عذر من اعتذر إليك»^(٥) و «قاتل هواك بعقلك، تسلم لك المودة»^(٦).

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩١ - ١٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٣ - ٦.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١ - ١٠٣.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٨١ - ٢.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، رقم: ٢٤١٠.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٢٤.

وهو لذلك لا يرى في شيعته صفةً أجدر بالتقدير من نزوعهم إلى السلم وميلهم عن الحرب ، وإلحاحهم في طلب العافية لأنفسهم وللناس جميعاً ، فيقول في ما يجب أن يكونوه: «شيعتنا إن غضبوا لم يظلموا ، بركةٌ على من جاوروا سلمٌ لمن خالطوا»^(١).

ولكنّ هذه الحرارة في التنفير من الحرب والدعوة إلى السلم لا تعني الاستسلام والخضوع في حالٍ من الأحوال ، لأنها لا تعني الهروب من المسؤولية وإطلاق العنان للمفسدين. فالحرب ليست كريهةً لذاتها ، بل لِمَا تؤذي وتسيء. والسلم ليس محبباً لذاته ، بل لِمَا يعطي أهله من إمكانيات للطمأنينة ، وما يأذن به للناس من الانصراف إلى تحسين المجتمع ، وما يفتح أمام الأحياء من طرق الحياة الرحبة الواسعة.

فقد تنتهي الإساءة في بعض الأنظمة والقوانين إلى أن تتجمد على قهر الضعيف وظلم السواد الأعظم ، وأن ترغب لنفسها في السلم ؛ كي لا تمتد إلى جمودها يد الحياة فتُذبيها وتُبدل بها جديداً. فهل الخير عند ذاك إلا في القتال سحقاً لهذا الجمود ومخقاً لهؤلاء الجامدين؟

وقد تنتهي الإساءة في بعض الأفراد ، أو الطبقات الشبيهة بالأفراد ، إلى أن يريدوا الحياة مغنماً لهم ، والأرض مكسباً ، وحياة الناس موتاً ، والبشر عبيداً أرقاء ، وأن يرغبوا لأنفسهم في السلم ؛ كي لا تطالهم يد الحق فتُلغي وجودهم ، وتمزق عن الدنيا قناعها الأسود المقيت. فهل من الخير عند ذاك إلا في القتال تحطيماً لهذه الطبقة وركلاً لهؤلاء التافهين؟

فلو كان لكل من الحرب والسلم قيمة ذاتية مطلقة لكانت الثورات التي

قامت بها شعوب العالم على الطغاة والمستغلين والمستعمرين إثماً وشرّاً. وكان الخضوع لمشيئة المجرمين من الأباطرة والأكاسرة والقياصرة يُمنّاً وخيراً.

ولكن الحقيقة أنّ الخير كلّ الخير يكمن في ما يعود على الناس بما يُصلح أحوالهم، فإذا نعموا في حياتهم فالسلم أولى بهم، وإذا شقوا وابتأسوا وهُضموا وأُكلت حقوقهم، فالحرب منفعة إلى أن يستقرّ بينهم سلمٌ حقيقي، مركز على أصول إنسانية شريفة، ليس فيها شيء من معنى الاستسلام للظلم والخضوع للظلم.

هذه الحقيقة أدركها عليّ بن أبي طالب إدراكاً لا مأخذ فيه عليه. فالحرب التي يكرها عليّ بن أبي طالب هي حرب أبي سفيان وأبي لهب لمحمد، لا حرب محمد لهما.

والحرب التي يمقتها ابنُ أبي طالب، هي حرب الغزاة القاسطين الفاسقين لأهل الخير وطلاب الحق، لا حرب هؤلاء لأولئك.

إنّه يدعوك لأن لا تكون جانكيزخان، وهولاكو، وهتلر. ولكنه يأبى عليك أن تكون من أبناء الإنسانية، التي سعى هؤلاء في تدميرها، وتحدث عن السلم فيما تحصد سيوفهم رؤوس الأبرياء.

وهكذا، فإنّ الحرب قد تصبح ضرورةً في مذهب عليّ. فإذا كانت لإنصافٍ مظلومٍ من ظالم، وانتصاراً لحقٍّ مغصوبٍ ومالٍ منهوبٍ وكرامةٍ مباحةٍ ودمٍ مهدور فإنها ضرورة اجتماعية وإنسانية عند ذاك، شرط ألاّ يصار إليها إلا بعد محاولات متعاقبة في سبيل التفاهم بغير قتال.

اسمعه بماذا يخاطب أصحابه وقد استبطأوا إذنه لهم في القتال بصقين، ومقاتلوه هم القاسطون الذين يقول فيهم: «إنهم حيارى عن الحق لا يُبصرونه،

مُؤَزَّعُونَ بِالْجور والظلم لا يعدلون»^(١).

«أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي، أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ، وأما قولكم: أشكّا في أهل الشام؟ فوالله ما دفعْتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشوا إلى ضوئي، وذلك أحب إليّ من أن أقاتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها»^(٢).

ثم شَرَطَ ألا تكون الغاية من هذه الحرب النصر بحدّ ذاته ولا الانتقام ولا التنكيل ولا الأذى ولا الإساءة إلى أسير أو جريح أو مُذبر أو امرأة أو شيخ أو غلام، بل إعادة الحق إلى نصابه ساعة يكون أخو الحرب مؤمناً بأنّه على حقّ، وبأنّ خصمه ظالمٌ لا بدّ من أن يُنصف منه، فإذا أدركت الغاية بأقلّ نصيب من القتال وجب إيقافه في الحال، فاستنكار سفك الدماء إلّا بالضرورة القاهرة قاعدةٌ أساسية في حروب عليّ، لذلك كان من منطق الغاية التي تهدف إليها الحرب في مذهبه أن يبدأ خصمه الظالم بالنصح: «وأيّم الله، لأنصفنّ للمظلوم ولأنصحنّ للظالم»^(٣).

وكثيراً ما كان يلجأ إلى ترهيب خصمه وتخويفه إذا لم يُجِدْ الترغيب في السلم، إذ المهمّ لديه ألا تُهْرَق الدماء حيث يمكن أن تُحَقَّن. قال في تخويف أهل النهر وان:

«فأنا نذيركم أن تُصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر على غير بيّنةٍ من ربكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم. وقد كنتُ نهيتكم عن هذه الحكومة فأينتم عليّ إساء المخالفين

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٥ - ٨.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٥ - ٢.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٦ - ٢، وفيها وأيّم الله لأنصفنّ المظلوم من ظالمه... الخ.

المناذرين^(١)، حتى صرفت رأبي إلى هواكم. ولم آت - لا أباً لكم - بُجراً^(٢) ولا أردت لكم ضرراً!^(٣) ثم إليك هذا الدعاء العجيب بنزعه الإنسانية يطلقه إمام يتألب عليه أخصامه بصفين، وقد عزم على لقائهم بعد أن فشلت مساعي السلم:

«اللهم، رب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومدججاً للهوام والأنعام، وما لا يحصى مما يرى ومما لا يرى، ورب الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً، إن أظهرتنا على عدونا فجتبنا البغي وسددنا بالحق، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة»^(٤).

وحب عليّ للسلم وتعلقه بأسبابه حتى قبيل القتال بلحظات، أمران لا يختلف فيهما شاهدان من الأصحاب والعدو، وسيرته حافلة بمظاهر هذا الحب للسلم وهذه الكراهية للحرب، من ذلك ما جرى يوم موقعة الجمل: فحين اجتمع عليه أخصامه القاسطون وساروا بجندهم إليه أمر أصحابه أن يصطفوا، فقال لهم: «لا ترموا بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا!»^(٥). ولم يقاتلهم إلا بعد أن رموا من أصحابه ثلاثة فصرعهم، وأشهد على ذلك ربه ثلاثاً.

ولطالما خرج الإمام إلى الزاحفين لقتاله حاسر الرأس أعزل من السلاح،

(١) نهامهم عن إجابة أهل الشام في طلب التحكيم بقوله: «إنهم رفعوا المصاحف ليرجعوا إلى حكمها... الخ» وقد خالفه أهل النهروان - أي الخوارج - بقولهم: «دعينا إلى كتاب الله فتحن أحق بالإجابة إليه» بل إنهم أغلظوا في القول حتى قال بعضهم: «لئن لم تجبهم إلى كتاب الله أسلمناك لهم وتخلينا عنك.»

(٢) بُجراً: شراً. انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٦ - ٣.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧١ - ٤.

(٥) المستدرک للحاكم: ٣٧١/٣، تاريخ اليمقوبي: ١٨٢ / ٢.

وهم موقرون بالحديد معتصمون به ، يحاورهم بالموودة ويذكّرهم بالخير ويخاطبهم بما يتحصّنون له بالجحود والمكابرة ، من لهجة القلب المحبّ ومن بيان العاطفة الحنون، حتى لكأنه وهم أمامه قطع من الليل بما ألبسوا من دروع وتروس يتقلّد من احترامه العميق للإنسان درعاً ، ومن إيمانه بعدالة مسعاه تُرساً ، ومن ثقته بالضمير الإنساني حصناً ، ومن عطفه على المظلوم ووفائه للحقّ وحبّه للسلام ألف مجنّ. إنه هو القائل: «مَنْ أَمِنْتَ مِنْ أَذِيَّتِهِ فَارْغَبْ فِي أَخَوْتِهِ»^(١) وهو الذي يكره الخصومة أشدّ الكره لأنّ الخصومة والمراء تهدمان أخلاق الفرد ، وتعصفان بشخصية الجماعة بما ينبت عليهما من نفاق: «إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق!»^(٢).

لطالما خرج إلى مقاتليه على هذه الصورة؛ تدليلاً على نفوره من القتال، وعلى ميله الخالص إلى حلّ المشكلات بأسلوبٍ هو إلى الموودة والإخاء أقرب ؛ وتحقيقاً للقاعدة التي وضعها لمثل هذا الظرف: «خذ على عدوك بالفضل فإنّه أحلى الظفرين»^(٣). ثم توكيداً لحقيقة لا يحسّ قيمتها إلّا الإنسان الإنسان. وهي أنّ القتال شرّ ، وأنّ الخير الذي يجنيه الغالب لا قيمة له ؛ لأنّه أتى عن طريق هذا الشرّ : «ما خيرُ خيرٍ لا يأتي إلّا بشرّ ، وما قيمة يُسرٍ لا يأتي إلّا بعسر!»^(٤) فهو يدرأ^(٥) هذا الشرّ بكلّ وسيلة. ويطلب اليُسْر لمبادئ الصلاح بغير العُسْر ؛ حتّى إذا أبى أعداؤه إلّا قتاله ظلماً ، وإلّا دمه ودم البقية الخيرة من أعوانه عاد يكرّر عليهم نداءه من جديد. فإذا أصروا على الإثم ، وأصبحت الحرب

(١) كنز الفوائد للكراجكي: ١٧٢، بحار الأنوار: ١٦٦ / ٧١، مستدرک البحار: ٢٥٦ / ٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٣٩ / ٢، أصول الكافي: ٣٠٠ / ٢، كتاب الإيمان والكفر.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١ - ١٠٢.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب: ١٣ - ٨٧.

(٥) يدرأ: يدفع. المنجد: ٢٠٩، مادة «درأ».

ضرورة اجتماعية وإنسانية، ترك لهم أن يبدأوه القتال، فإن هم فعلوا حاربهم. ويا لابن أبي طالب يدخل على الموت إذ ذاك إن لم يخرج الموت إليه، فيزعزع الرجال ويصرع الأبطال.

وإنه الدفاع الأكرم عن عدالة يريدونها جوراً، وعن كرامة يهدرونها هدرأً، وعن حرية يودّون لو كانت عبودية، وعن إنسان يريده عزيزاً ويأبون إلا إذلاله، وبكلّ جوادٍ تحتهم نيطَ غلّ^(١) وقيدٌ ثقیل.

إنه الدفاع عن ضرورات اجتماعية ومطالب إنسانية، لا يكون القعود دونها إلا تخاذلاً وكفراً. يقول الإمام عليّ في موضوع قتاله لمعاوية: «ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينه، وقلّبتُ ظهره وبطنه، فلم أرَ لي إلا القتالَ أو الكفر»^(٢).

وإليك كيف يوجز ابنُ أبي طالب الفصل الأوّل من وقعة الجمل:

«وكان طلحة والزبير أولَ من بايعني، ثم نقضاً بيعتي على غير حدّث، وأخرجنا أمّ المؤمنين إلى البصرة، فصرّتُ إليهما في المهاجرين والأنصار، فدعوتهما إلى أن يرجعا إلى ما خرجا منه فأبيا. فبالغت في الدعاء، وأحسنْتُ في البقاء»^(٣). وكان عليّ قد بعث إليهما وهو ببعض الطريق إلى الكوفة بابنه الحسن، وابن عمته عبد الله بن عباس وعتمار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، لعلهما يقطعان الفتنة، فأبيا. وفي ذلك يقول عليّ:

«وسرّ بهم - أي بالمهاجرين والأنصار - حتّى نزلتُ بظهر البصرة، فأعذرتُ في الدعاء وأقلّتُ العثرة، وناشدتهم عقد بيعتهم فأبوا إلا قتالي، فاستعنتُ الله عليهم. فقتل من قتل وولّوا مدبرين. فسألوني ما كنتُ دعوتُهم إليه قبل اللقاء، فقبلتُ العافية ورفعتُ

(١) نيطَ غلّ: أوثق بوثاق.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٥ - ١٥.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٨٣/١، وقعة الجمل، للشيخ المفيد: ٢٤٤.

عنهم السيف واستعملت عليهم عبد الله بن عباس، وبعثت إليهم زُفر بن قيس، فاسأله عتاً وعنهم»^(١).

وهو إذا كتب له النصر بفضل شجاعته الفائقة وإيمانه العميق، أدركه من التوجع ما أدرك المغلوب نفسه، فبكى وتألم، وخلا إلى نفسه كئيهاً حزيناً كما لا يكون. وإنها، لعمرى، مأساة القلب الكبير يحب أبناءه أشد الحب، ويكره الظلم أشد الكره، فإذا القوم هم أبناءه الظالمون، وإذا هو بين العطف على الأبناء والكراهية للظلم في مثل تأجج النار أو أشد سعيراً.

ولم يكن على قلب الإمام ما هو أكره من أن يرى دمًا مراقاً، وإذ لم يكن على ثقة بأن وُلّاته وعمّاله إذا قاتلوا عَفَوْا عن إراقة الدماء إلا بحاجة العدالة والحق، أكثر من أوامره إليهم بآلا يسفكوا دمًا. أضف إلى ذلك نظرة عبقرية كان يلقيها، فتكشف عن الجانب الدولي في هذا الموضوع، كما تكشف عاطفته عن الجانب الإنساني الخالص فيه. فسفك الدماء يزيل السلطان في نظر الإمام، ويُفقد معناه، ولا سِيما إذا كان عمداً، وهو لا يعذر فيه. بعث لأحد عماله يقول: «ولا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه، بل يزيله وينقله. ولا عُذْر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد»^(٢).

وإنّي لأعرض للقارئ- بهذا الصدد - أمراً عجيباً: فأَيّ إنسان عرف في غير ابن أبي طالب قائد جماعة يأمر وُلّاته بآلا يستعملوا على الجيش إلا من كره القتل وإلحاق الأذى بالناس، ثم عَذَرَ وعَف. وكان عطوفاً رحيماً طاهر القلب لا يلجأ إلى عنفٍ ولا يقسو. اسمعه، والله يأمر عامله على مصر بهذا القول: «وولّ من جنودك أنفاهم جيّاً - أي أظهرهم قلباً - وأفضلهم حِلماً: مَن يبطن

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١١٠/١، وقعة الجمل للشيخ المفيد: ٣٩٨، الإرشاد: ١٣٧، والشافي: ٤ / ٣٣٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ١٤٢.

عن الغضب ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء^(١)، ومتن لا يثيره العنف... الخ»^(٢).

إذاً، فعليّ يحبّ السلم ويأمر به، ويكره الحرب وينهى عنها، ولا يأتيها إلّا تأتية هي وتلخ، بعد أن تسقط في معالجتها المداراة بالمودة والإحسان. وهو إن حارب، سعى في ألاّ يكثر صرعى القتال، وعفّ كلما قدر، وطالما قد قدر وطالما عفّ، ثم رثى المغلوب والغالب في وقتٍ معاً. وهو إمّا تلقى دعوةً للصلح تأتية من عدوّه رخب وحتيا «فإنّ في الصلح دعةً للجنود وراحةً من الهموم وأمنًا للبلاد»^(٣). وله أوامر كثيرة لقواده وعمّاله يوصيهم فيها بأنّ يتهجوا نهجه هذا، إلى جانب وصاياه بألاّ يقاتلوا قتالاً أرعن، فيمتشقوا السيف بتلك السهولة التي تَعَوّدها القواد والمحاربون في العصور القديمة. ومن ذلك قوله: «ولا تحزكوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم!»^(٤) وقوله أيضاً: «ولا أعاقب على الغلّة»^(٥) و«لستُ مُقاتله حتى أدعوه وأُعذّله، فإنّ تاب ورجع قبلنا منه، وإنّ أبى إلّا الاعتزام على حربنا، استعنا الله عليه وناجزناه»^(٦). وسوف نتحدّث بالتفصيل عن مواقف ابن أبي طالب من أخصامه المعتدين عليه.

* * *

وللإنسان على الإنسان حقّ الوفاء بالعهد؛ تدعيماً لأركان السلم بين الأفراد والجماعات، ومكرهةً للحرب، ولا فرق أن يكون العهد بين أبناء

(١) ينبو على الأقوياء: يشتدّ ويلو عليهم ليكفوا أيديهم عن الضعفاء.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ٥٠.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ١٣٢.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٠ - ١٧.

(٥) الفارات: ٣٧١، بحار الأنوار: ٣٣ / ٤١٧. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٣ / ١٤٨.

(٦) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٣ / ١٤٨، نهج السعادة: ٢ / ١٤٤.

المذهب الواحد ، أو المذاهب المختلفة. ولا أن يكون بين أبناء القوم الواحد ، وبين قوم وآخرين. ولا أن يكون بين مسالمٍ ومسالمٍ أو محاربٍ. ولا بين صديقٍ وصديقٍ أو عدوٍ.

لا مذهب ولا قومية ولا حالة سلم أو حرب تحول دون الوفاء بالعهد في خاطر ابن أبي طالب وفي حكمه؛ ذلك لأنّ الوفاء بالعهد تدعيم لأركان السلم كما تقدّم ، وفي السلم أمنُ البلاد وراحة الناس ، ولأنّهُ خدمة للمجتمع المرتبط بقوانين وذمم. ثم إنّهُ غذاء للضمير الإنساني الذي يسعى الإمام في الارتفاع به ما أمكن الارتفاع، وهو بذلك كلّ سبب في التقارب والتواؤم بين الأفراد والجماعات والقبائل والشعوب المختلفة، وهو في كلّ أحواله مظهرٌ من مظاهر الصدق واحترام الشخصية الإنسانية في ذاتِ مَنْ أعطى العهد ومن أعطي له سواء بسواء. ثم إنّ الوفاء بالعهد يرافقه أبداً الاطمئنان من الجانبين، وإذا اطمأنّ الجانبان كان لكلّ منهما أن يعمل بوحى الحرية التي يستشعرها، فيتمكّن من ممارستها في حدود هذا الاطمئنان، لذلك كان الوفاء بالعهد من دستور ابن أبي طالب في الخلافة والولاية، ففرض على كلّ من أعطى عهداً أو ذمّة أن يصونهما بجسده وروحه فيهلك ، أو يفي بهما.

ويتألّم ابن أبي طالب من النكث بالعهد بمقدار ما يتألّم من الكذب. يقول في خطبة له: «إنّ الوفاء توأم الصدق ، ولا أعلم جُنة - وقاية - أوقى منه. ولا يغدر من علم كيف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغدر كيساً، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة. ما لهم؟ قاتلهم الله! قد يرى الحوّل القلب وجه الحيلة ودونه مانعٌ من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأي عيني بعد القدرة عليها ،

وينتهاز فرصتها من لا حريجة له في الدين»^(١)»^(٢).

ويقول في رسالة منه إلى عامله على مصر : «وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة - أي ميثاقاً - أو ألبسته منك ذمة ؛ فحُطَّ عهدك بالوفاء ، وارغَ ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت - أي حافظ على ما أعطيت من عهدك بروحك - ولا تغدورن بدمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك - أي لا تخدع عدوك - »^(٣). ثم إنه لا يكتفي بهذه التوصية الصريحة بآلا يخدع الإنسان حتى عدوه ومقاتله، بل يشدد على من تحدّثه نفسه من الوُلاة بأن يعطي عهداً مبهماً يتحمّل التأويل والتفسير على غير المراد، لمخادعة من أعطي له هذا العهد ، وللتملّص من الميثاق رغبةً في نقضه وعدم التزامه ، أو في الجور وما إليه. يشدد الإمام على مثل هؤلاء فيقول: «ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ، ولا تعولن على لحن قولٍ بعد التأكيد والثبوتة»^(٤)»^(٥).

ولم يكن ابنُ أبي طالب ليرى رأياً أو يأمر بتنفيذٍ مذهبٍ من مذاهبه إلا بعد أن يعيَشَ هذا الرأي بكلّ كيانه ، وينقذَ هذا المذهب في كلّ أحواله جزئياً على عادته في ذلك. فإذا كان الوفاء بالعهد من آرائه ومن مذاهبه فإنَّ عقبةً واحدةً لم تكن لتحول بينه وبين هذا الوفاء، مهما صَعُبَ أمرُها وتعرّسَ

(١) كيساً: عقلاً، وأهل ذلك الزمان يعدّون الغدر من العقل وحسن الحيلة ، كأنهم أهل السياسة من بني زماننا. والإمام علي يعجب من زعمهم ويقول: ما لهم؟ قاتلهم الله! - يزعمون ذلك ، مع أن البصير بتحويل الأمور وتقليبها - قد يرى وجه الحيلة في بلوغ مراده، لكنه يجد دون الأخذ به مانعاً من أمر الله ونهيه... الخ.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٤١ - ١.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٣٣ و ١٣٤.

(٤) العلل: جمع علة وهي ، في النقد والكلام ، بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوّله إلى غير المراد ، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته. لحن القول: ما يقبل التوجيه كالتورية والتمريض. يقول: إذا رأيت ثقلًا من التزام العهد ؛ فلا تركن إلى لحن القول لتملّص منه ، بل خذ بأصرح الوجوه لك وعليك!

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٢٨.

اجتيازها. من ذلك ما جرى له في وقعة صفين على أثر خدعة التحكيم المشهورة، فإن أمر هذه الخدعة ما كاد ينكشف للناس جميعاً، حتى قام محمد بن جريش إلى علي وقال له: «يا أمير المؤمنين! أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل؟ فوالله إني لأخاف أن يورث ذلاً» مشيراً بذلك إلى الكتاب - أو العهد بالتحكيم - الذي وقّعه عليّ، على أن لا يكون في الأمر خدعة. فقال عليّ: «أبعد أن كتبناه ننقضه؟ إن هذا لا يحلّ»^(١).

ثم إن عليّاً هو القائل: «واعتصموا بالذمم!»^(٢) و«ذمتي بما أقول رهينة!»^(٣).

* * *

وهكذا يبدو لنا أن دعوة عليّ إلى السلم إنما هي في نتيجتها البعيدة تعبيرٌ عن كلّ ما كان يطلبه للناس من عدل ومساواة وحرية، بل تعبيرٌ عما كان يضره في نفسه، ويعلنه في دستوره، من العمل الشامل في سبيل الإنسان: العمل الذي يريد أن يستوعب كلّ ميدانٍ تخصب فيه الإنسانية وتنمو.

وإن عليّاً، بدعوته الحارّة إلى الألفة بين أبناء البشر الأشقاء، ليستوي وسائر آباء الإنسانية القدامى، فما أشبه دعوته بهذه العاطفة الكريمة التي يعتبر عنها محمّد بقوله: «كونوا عبّاد الله إخواناً»^(٤) ثم بهذه الفكرة العظيمة التي يطلقها النبيّ أيضاً ساعة يسأله أحدُهم: «ما أفضل الأعمال؟» فيجيب قائلاً: «أفضل الأعمال بذلُ السلام للعالم»^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١ / ١٩٣، وقعة صفين، لنصر بن مزاحم: ٥١٩ وفيه: محرر بن جريش ابن ضليح.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٥.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦ - ١.

(٤) مسند أحمد: ٢ / ٢٨٨، شرح صحيح مسلم للنووي: ١٦ / ١١٦.

(٥) مجمع الزوائد: ٨ / ٢٩، وفيه: من موجبات المغفرة بذل السلام.

وما أشبه صوت عليّ بغايته ومُحتواه ، بصوت أشعيا! إذ يتصوّر ما يمكن أن تؤول إليه أحوال الناس حين يتصافون، وإذ يؤكّد أنّ تصوّره لا محالة محقّق في غدٍ قريبٍ أو بعيدٍ ، فيقول هذا القول العظيم:

«يقال للأسرى: أخرجوا ، وللذين في الظلمة ابرؤوا، فيرعون في الطرق ويكون مرعاهم في كلّ الروابي»^(١).

«ويُجعل في البريّة طريقٌ ، وفي القفر أنهارٌ ، وفي الأرض القاحلة مخارج مياه»^(٢).

«وبيني الناس بيوتاً يسكنون فيها ويغرسون كروماً ويأكلون ثمرها. لا يبنون ويسكن آخر ولا يغرسون ويأكل آخر»^(٣).

«يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل. يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الماعز. لا ترفع أُمّة على أُمّة سيفاً ولا يتعلّمون الحرب فيما بعد»^(٤).

(١) و (٢) سفر أشعيا ، الإصحاح الحادي عشر ، وفيه: فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدي ، والشبل والمستن معاً ، وصبي صغير يسوقها ، والبقرة والذبة ترعيان.

(٣) و (٤) سفر أشعيا ، الإصحاح الحادي عشر ، وفيه: فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدي ، والشبل والمستن معاً ، وصبي صغير يسوقها ، والبقرة والذبة ترعيان.

لا ظالم ولا مظلوم

- الدليل عندي عزيزٌ حتى آخذ الحق له ، والعزيز
عندي ذليلٌ حتى آخذ الحق منه^(١).

عليّ

- بقدر ما يحب الإنسان الجمال يكره القبح. وعلى
مقدار ما يطلب العدل ينفر من الجور. وحسبما يتوهم
إلى دفء الوجود تهوّل برودة العدم. وهو لا تحمله
قدماء في وعورة الأرض عبز الكهوف والأودية
وصخور الجبال ، إلا إلى ديار المودة! أما الذي لا
يكره: فهو الذي لا يُحب!

وتتصل حلقات السيرة العلوية في القضايا العامة اتصالاً مُحكماً كريماً.
وتتداخل مواهب عليّ في الإدارة والولاية والقيادة والأخلاق العظيمة ،
تداخلاً تتألف منه الشخصية العلوية الفذة في وحدةٍ متلازمة العناصر ، فإذا
ثورته على الاحتكار والاستغلال هي في الوقت ، ذاته ثورةٌ على الظلم
والظالمين. وإذا نغمته على الأثرياء والأقوياء المستثمرين ثراءهم وقوتهم بما
يؤذي الجماعة ، وعلى الأغبياء المتعاليين، هي في حدّ ذاتها نغمةٌ على
الاستبداد بكافة أشكاله. وإذا نزوعه العميق إلى رعاية المستضعفين بالعدل
وقد وُلدوا بشراً ؛ لا يهونون إلا في مجتمعٍ مغلوط ، وإلى تحرير المستعبدين ،

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٧ - ٣.

وقد خلّقوا أحراراً لا يذلّون إلّا وقد ذلّت الكرامة الإنسانية بالذات، هي في الحين نفسه نقمةً على من أهان وأذلّ.

وإذا كان في ما رأيناه حتى الآن من انتصار الإمام لأهل الحاجة ، انتصاراً للمظلوم ، وإذا كان في ما رأيناه حتى الآن من سحق الإمام على خصوم الإنسانية والمجتمع والعاملين في غير هذي الضمير ، سحقاً على الظالم، فما ذاك بسبب يكفيننا عناء الكلام على موقف ابن أبي طالب من الظلم والظالمين نصّاً منطوقاً. ففي الظلم نصّاً ، ما هو أشمل من الاحتكار والاستغلال والاستهتار بالكرامات، وما هو أبعد في الإشارة إلى هذه النقائص ، إلى ما بدا منها وما اختفى. والظلم على كل حال ، لفظ لا تجدُ للإمام قولاً في خطبةٍ أو وصيّةٍ أو عهدٍ إلّا وهو فيه. وإلّا وثورته تنصب على روحه ومعناه. وإلّا ولسانه وبيانه يصيبنه بكل لعنة، لذلك وجب إفراد فصلٍ يبحث في موقف عليّ من الظلم والظالمين ، والطغاة العتاة المفسدين الذين ما أهمل ابن أبي طالب قتالهم في وجدانهم وعلى لسانه ، وبدستوره وذي فقاره ؛ صيانةً للعامة من غصب الغاصبين ومظالم العابثين.

أمّا قتال الظلم فقد كان في تاريخ الإنسان منذ كان الإنسان، ولكن على وجوه وأشكال ، وكثرت حملةُ أعباء هذا القتال في عهود الفئات المستأسدة الطاغية كثرةً، تشرف تاريخ الإنسانية بقدر ما ينحطّ به ظلمُ الغاشمين. وظلّ هؤلاء المقاتلون يتناوبون ويتعاونون ويتوارثون روح القتال. ومن عظماء الإنسانية من كانت أيتامهم حلقات متواصلة من الصراع. فما تاريخ المسيح إلّا ثورة على المستعمرين الرومان ، والمستعمرين الداخلين من الملوك والارستقراطيين ، وعبيد الوثنية الاجتماعية ، وما تاريخ محمد إلّا استمرار لتاريخ المسيح في ثورة تعصف عصفاً ولا تنقلب نسيماً ندياً إلّا إذا نال

المظلومون ما تريده لهم من حال.

وما يقال في المسيح ومحمد يقال في سقراط وغاليليو وفولتير وتولستوي وبوشكين وبتهوفن وغوركي وروسو وجورج برنارد شو وغاندي، ومن إليهم من أعلام التاريخ الإنساني. وكما يتحوّل الظلم في النفوس والأجسام إلى مادة من مادّتها، فإذا هو شيء من أشياءها يسهل إتيانها كما يسهل المشرب والمطعم والملبس والتنفس، على نحو ما نرى في حياة نيرون وجانكيزخان وأجلاف الممالك وباشوات بني عثمان، ورجال ديوان التفتيش أو المحكمة «المقدسة» في أوروبا بالعصور المتوسطة، وفي حياة الأباطرة والأكاسرة والفراعنة والسلاطين التافهين، وفي سيرة الحجاج بن يوسف وزياذ بن أبيه وعبيد الله بن زياد ومسلم بن عقبة ومن إليهم، فكذلك يتحوّل مقت الظلم في نفوس الآخرين وفي أجسامهم إلى مادة من مادّتها، فإذا هو شيء من أشياءها يعيش بها مع النبض والخفق.

بهذا أستطيع أن أعلّل ثبوت الأولين على المظالم بما فيها من فظائع وشنائع ثبوتاً لا يتطلب أي جهد، ولا يبتغي في معظم الحالات أية غاية كبيرة أو صغيرة أبعد من صدور الأشياء عن مصادرها؛ حتى لينادي أحدهم الحجاج بن يوسف حرسه، وهو على مائدة الطعام في رهط من أصحابه، قائلاً له: «يا حرسى، اضرب عنقه» مشيراً إلى عجوز مسكين يقف مرتجفاً بين يديه ولم يرتكب إثماً كثيراً أو قليلاً، ثم يتابع طعامه كأن أمراً لم يكن. يفعل ذلك بنفس البساطة التي ينادي بها غلامه قائلاً له: يا غلام، هات لنا ماءً مبرداً! وحتى ليحرق نيرون روما وهو يشرب الكأس ويصغي إلى الشعر والعزف والغناء!

وبهذا أستطيع أن أعلّل أيضاً ثبوت الآخرين على مصارعة الظلم

والاستبداد ثبوتاً لا يكونون إلا به ؛ حتى ليشرب سقراط السم كما يشرب الدواء إذا كان شره نهائية محتومة لهذا الثبوت؛ وحتى ليحارب فولتير أكبر رأس في أوروبا بزمانه ، وكأنه مدفوع إلى ذلك كما يدفع الظمان إلى الماء والجوعان إلى الخبز، وحتى ليوقف أصحاب الحسين بن علي بين يديه ويقولوا له ، وقد تألبت عليه الدولة الأموية فهو منفردٌ وحيد: نموت معك!

هذه الطائفة العظيمة من أبناء البشر يأتي ابن أبي طالب في طليعتها. لقد جاء ، كما يقول: ليقيم حقاً ويزهق باطلاً. فحدوده في الدولة هي هذه الحدود. ولكن ما أبعد أطراف الدنيا القائمة ضمن هذه الحدود، والظالمون في زمانه أعظم عدداً وأشدّ بأساً!

لا ظالم ولا مظلوم!

هذه هي إرادة ابن أبي طالب، وهذا ما يأباه زمانه ، ويتخلف عن مسيرته في هذه الإرادة حتى المظلومون أنفسهم لخوفٍ قديم ألم بهم، فباتوا يخشون معاندة ظالمهم، أو لجهلٍ حملوا به على قبول الرشوة إلا من خلق ربك من كبار القلوب.

ولكن ، هل يضعف علي والناس متآلبون عليه سائرون إليه في ركاب النافذين؟ هل يضعف الفارس الغريب الكثيب في أرض الآلام يقيم بها بين السباع الضواري وفي أبناء آدم وحواء كراهيةً للموت؟ لا شك .

هل يضعف و«الظالم يزداد عتواً» والنافذون «يعملون في الشبهات» ويتاجرون بضمائرهم فيدفعونها ثمناً للمغانم ينتهزونها ، وللمنابر يفرعونها ، والبلاد نهبةً لهم ، وهم لمظالمهم متعصبون يأخذهم الكبر ويغريهم الفخر ، يتلقون ألواناً ويعدون لكل حق باطلاً ويتقارضون الثناء

ويتراقبون الجزاء ، وقد استغلّوا العدل والحق ، وطغوا وبغوا وأفسدوا في الأرض وتجتبروا؟

هل يضعف؟ وأنصاره أنفسهم «ما عزّت دعوة من دعاهم ، ولا استراح قلب من قاساهم. ومن فاز بهم فقد فاز بالسهم الأخيب! صُمّ ذوو أسماع ، بُكِّم ذوو كلام ، لا أحرار صدق عند اللقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء!»^(١).

إنّ المرء ليضعف في مثل هذه الشروط ، إن لم يكن عليّ بن أبي طالب ، فالحنان العميق الذي يكنّه عليّ للناس يحمله على ألا يهادن من أساء للناس ، ولو كانت حياته الثمن لذلك ، وإنه ليكذب لعمرى ! أو يجهل حقيقة الطبائع ، من يخال أنّ من شروط الحنان والرقّة القعود عن الثورة على الظالمين. وأنّ من مظاهر العاطفة الدود الاستسلام دون التمرد ودون العنف في هذا التمرد ؛ فالحنان والعطف يحملانك دون تردّد على أن تتمرد وتثور على الظالم ؛ تخليصاً لمن تعطف عليهم ممّا يرسفون به من قيود ، وإن العطف والحنان والحبّ هي التي تدفعك في بعض الحالات إلى العنف حتّى أقصى حدوده.

فبقدر ما يحبّ الإنسان الجمال يكره القبح ، وعلى مقدار ما يطلب العدل ينفر من الجور ، وحسبما يتوهج إلى دفء الوجود تهوّل برودة العدم ، وهو لا يحمل سيفاً يهوي به على أعناق الطغاة التافهين إلّا إذا كانت الحياة معبداً له ونعيماً ، ولا تحمله قدماه في وعورة الأرض عبّر الكهوف والأودية وصخور الجبال إلّا إلى ديار المودة ، أمّا الذي لا يكره فهو الذي لا يحبّ.

وأسوق دليلاً جديداً على الرقة والحنان في مزاج عليّ يتحدان والتمرد

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٩ - ٢٠.

والغنف اتّحاد الأشياء بذاتها ، في سبيل رفع الظلم بكل أشكاله:
 روت سودة بنت عمارة الهمذانية: أنها جاءت إلى عليّ تشتكي من رجلٍ
 ولّاه صدقاتهم ، فقال لها بتعطّفٍ ورأفة: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل ،
 فبكى ثم قال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك ولا تزك حقك! ثم أخرج من جيبه
 قطعة من ورق فكتب فيها:

«... فأوفوا بالكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض
 مفسدين. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك حتّى يأتي من يقبضه منك»^(١).
 فانظر كيف بلغ به العطف على المرأة المظلومة الشاكية حدّاً أبكاه. ثم
 كيف انقلب هذا العطف عنفاً آمراً ناهياً سريعاً مقتضب اللهجة ، يتوجّه به إلى
 جامع الصدقات الذي جار.

إنّ ابن أبي طالب لن يتراجع عن محاربة البغي ، ولن يضعف وفي
 الأرض عزيزٌ يضطهد ذليلاً ، وكبيرٌ يقهر صغيراً. لن يضعف ولن يتراجع وفي
 قلبه من الحنان والمحبة ما يكفل له الثبوت في الصراع بين الحق والباطل، وما
 يضمن له القدرة على قيادة المعركة.

وكان عليّ يؤمن إيماناً وطيداً بأنه «لابدّ من إمامٍ يؤخذ به للضعيف من القوي ،
 وللمظلوم من الظالم حتّى يستريح برّ ويُسّراح من فاجر»^(٢) و «أنّ الله قد أعاد الناس من أن
 يجور عليهم»^(٣) فكيف يجور عليهم الجائرون؟ و«أنّه امتحن الأمراء بالجور»^(٤)
 فإذا ظلموا انتهى أمرهم؛ لأنّه «إن أمهل الظالم فلن يفوت أخذه فهو له بالمرصاد على

(١) نهج السعادة للمحمودي: ٤٢/٥، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ٢٢٦/٦٩، أعيان الشيعة: ٣٢٤ / ٧ طبعة دار المعارف سنة ١٤٠٦ هـ.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٤٠ - ٢ ، ٣.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٠٣ - ١١ ، وفيه: أيها الناس ، سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام ، كما يكفأ الإناء بما فيه ، أيها الناس ، إن الله قد أعادكم من أن يجور عليكم.

(٤) الحديث للرسول (ﷺ) ، كنز العمال: ١٦ / ٨٧ الحديث رقم: ٤٤٣٠.

مجاز طريقه!»^(١) وعند ذاك يكون «يوم العدل على الظالم أشد من يوم الجور على المظلوم!»^(٢) ومن أوامر ابن أبي طالب الدائمة: «أمرتكم بالشدة على الظالم»^(٣) و«خذوا على يد الظالم السفيه!»^(٤).

أجل! إن في قلبه من الحنان والمحبة ما يكفل له الثبوت في الصراع بين الحق والباطل. وهو إذا أطل على هذا الصراع من بعيدٍ أوجز يقول: «لنظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك»^(٥). ثم إذا هو دنا من المعترك قال: «وأيّم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولآخذن الظالم بخزائمه، حتى أوردته منهّل الحق وإن كان كارهاً!»^(٦) أو أطلق هذه العبارة: «الكف عن البغي والإنصاف للخلق واجتناب المفساد في الأرض»^(٧) وهو إذا كان في قلب الصراع الرهيب تفقّد أنصاره، فإذا هم قليل. ونظر إلى أخصامه فإذا هم كثير. فنظر في أحواله وأحوال الناس وقال: «ما ضعفت ولا جئت، فلأنقن الباطل حتى يخرج الحق من جنبه»^(٨). ثم إنه لن يكف عن محاربة الظلم ولو رأى شهادته ماثلة لعينيه، ولن يبالي ولو تألبت العرب عليه يساندها أهل الأرض جميعاً، في شعاب الأرض ووهادها.

ويزداد ابن أبي طالب ثقةً بنفسه وإيماناً بعدالة ما يعمل، فيقول: «الذيل عندي عزيزٌ حتى آخذ الحق له، والعزير عندي ذليلٌ حتى آخذ الحق منه»^(٩) «فوالله ما

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٩٧ - ١.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم: ٣٤١.

(٣) نهج السعادة: ٩٩ / ٤.

(٤) نهج السعادة: ٥٥٩/١، أصول الكافي باب جوامع التوحيد: ١٤٢، بحار الأنوار: ٤ / ٢٦٧.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣١ - ٤.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة: ١٣٦ - ٢.

(٧) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ - ٧٩.

(٨) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٣ - ٤.

(٩) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٧ - ٣.

أبالي أدخلتُ على الموت أو خرج الموتُ إليَّ»^(١).

وإذا هو قاتل الظالمين فبقي لهم في الأرض صولة قال: «وبقيت بقية من أهل البغي، ولئن أذن الله في الكثرة لأديننّ منهم، إلا ما يتشذّر في أطراف البلاد تشذراً»^(٢).
ورجال العلم في مذهب عليّ قادة الأمة، وعليهم من ثمة مسؤوليات جسام، في طليعتها مقاومة الظالم والانتصار للمظلوم، يقول: «وقد أخذ الله على العلماء أن لا يُقَارَوْا على كفة ظالم، ولا سقّب مظلوم»^(٣).

ولكي لا تكون في عداد القوم الظالمين، ولا في من يعينون على الظلم أو يرضون به، يجعل عليّ ذنوب الناس في درجات يُعْتَفَرُ لهم بعضها إلا الظلم، فيقول: «وأما الذنب الذي لا يُغْفَرُ فظلم العباد بعضهم لبعض»^(٤). وهو يرى، في كل حال، أن: «ظلم الضعيف أفحش الظلم»^(٥).

وهكذا وضع ابنُ أبي طالب رفع الظلم بأشكاله وألوانه جميعاً - ولا سيما الظلم المادي - في أساس دستوره في الشعب. وهكذا حارب الظالمين بلسانه وسيفه وهو معتصمٌ بذمته في ذلك، وظلّ يُدِيل من أهل البغي حتى استشهد عظيمًا، ولو قد استوت قدماه من مزالق دهره لغير أشياء.
وتلك آية ابن أبي طالب.

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٥ - ١.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ - ١١٤.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٣ - ١٧.

(٤) نهج السعادة: ٢٤٩/٣، نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٦ - ٣٣، وقد جاء فيها: أما الظلم الذي يُترك، فظلم العباد بعضهم بعضاً.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم، رقم: ٦٠٥٤.

دستور الإمام في الولاية

- إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة!

علي

بعد أن تبين لنا موقف الإمام عليّ من المجتمع وأحواله ، وظهر لنا أسلوبه في العمل من أجل توطيد العلاقات الاجتماعية على أساس من العدالة متين ، لا بدّ من إثبات مختارات من كتاب بعث به إلى الأشتر النخعي لما ولّاه على مصر وأقطارها ، وهو أطول عهوده ومن أجلها شأنًا.

وإذا كنّا قد استندنا في دراستنا هذه على مختلف عهود الإمام وكتبه ؛ لأنّ حقوق الفرد والجماعة ظاهرة فيها جميعاً ، فلا يمكننا الاستغناء عن إثبات مختارات من كتابه هذا لعامله على مصر ، ذلك لأنّه أجمع كتبه وعهوده لآرائه في بناء المجتمع ، ففي هذا الكتاب الجليل دستور عليّ في الولاية كاملاً ، إلّا ما تناثر في بقيّة كتبه وعهوده من أسسٍ أخرى وأركان نأخذ بعضاً منها ونثبتها في خاتمة هذا الكتاب.

وهكذا نتيج الفرصة لأن يطلع القراء على فصلٍ من أروع ما أنتجه العقل والقلب في ربط الناس بالعلاقات الاجتماعية والإنسانية الخيرة .
وإليك بعض ما جاء في كتاب عليّ إلى الأشتر ^(١) :

(١) الفقرات التالية كلّها في عهد الإمام علي لمالك الأشتر حين ولّاه مصر ، نهج البلاغة ، الكتاب رقم : ٥٣ .

«ثم اعلم أنني قد وجهتك إلى بلادٍ قد جرت عليها دُورٌ قبلك من عذلٍ وجور. وأنَّ الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يُستدَلَّ على الصالحين بما يُجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك وشح نفسك عما لا يحل لك فإنَّ الشح بالنفس الإنصاف منها فيها أحبَّت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننَّ عليهم سُبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إمَّا أُخ لك في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق، يَفْطُرُ منهم الزلُّل^(١)، ويؤتَى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعظمهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه. ولا تندمَنَّ على عفوٍ، ولا تبجحنَّ بعقوبة. أنصف الناس من نفسك ومن خاصَّة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيَّتكَ، فإنَّكَ إلَّا تفعل تظلم! ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم، فإنَّ الله سميع دعوة المضطَّهدين وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية! وليس أحدٌ من الرعية أثقل على الوالي مؤونةً في الرِّخاء وأقلَّ معونةً في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملَمات الدهر من أهل الخاصَّة. والعُدَّةُ للأعداء العامَّة من الأُمَّة، فليكن صَغُوك^(٢) لهم وميلك معهم.

وليكن أبعد رعيَّتكَ منك، وأشأنهم^(٣) عندك، أطلَّيهم لمعائب الناس^(٤)؛ فإنَّ في الناس عيوباً الوالي أحقَّ من سَتَرها. فلا تكشفنَّ عما غاب عنك منها فإنَّما عليك تطهير ما ظهر

(١) يفرط: يسبق. الزلل: الخطأ. المنجد: ٥٧٧، مادة «فرط». و ٣٠٣، مادة «زل».

(٢) صَغُوك: استماعك وإصفاؤك. كتاب العين: ٤٣٢/٤، مادة «صغو».

(٣) أشأنهم: أبغضهم. غريب الحديث: ٨٧٣/٢.

(٤) الأطلب للمعائب: الأشد طلباً لها.

لك، فاستر العورة ما استطعت. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وثر^(١)، وتغاب عن كل ما لا يصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حربصاً يُزين لك الشرّ بالجور. إن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانةً فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه، ثم ليكن أثرهم^(٢) عندك أقولهم بمُرّ الحق لك^(٣) وأقلهم مساعدة فيما يكون منك، مما كره الله لأوليائه واقعاً ذلك من هোক حيث وقع.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة! وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حُسن ظنّ راعٍ برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه للمؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم^(٤). فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسنُ الظنّ برعيّتك. وإن أحقّ من حسن ظنك به لَمَن حسن بلاؤك^(٥) عنده، وإن أحقّ من ساء ظنك به لَمَن ساء بلاؤك عنده. وأكثر مدارس العلماء، ومنافئة^(٦) الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمرُ بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك. وولّ من جنودك أنفاهم جيباً^(٧) وأفضلهم حلماً: ممّن يُبطئ عن الغضب ويستريح إلى العُذر ويرأف بالضعفاء، وينبو على

(١) الوتر: العداوة. مجمع البحرين: ٥٤١/٣، مادة «وتر».

(٢) الضمير يعود على الوزراء في كلام سابق للإمام.

(٣) ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولاً بالحق المُرّ. ومرارة الحق: صعوبته على نفس الوالي.

(٤) قبلهم: بكسر ففتح: عندهم. المنجد: ٦٠٦، مادة «قبل».

(٥) البلاء، هنا: الصنع، حسناً كان أو سيئاً. لسان العرب: ٨٤/١٤، مادة «بلا».

(٦) المنافئة: المجاهدة. انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

(٧) يقال: نقى الجيب أي: طاهر القلب. لسان العرب: ١٠٦/٦، وانظر هامش نهج السعادة: ٧٥/٥.

الأقرباء^(١)، وممن لا يُثيرة العُنف.

ثم تَفَقَّد من أُمُورهم ما يَتَفَقَّد الوالدان من ولدهما ، ولا يَتَفَقَّمَن في نَفْسك شيء قَوِيَّتَهُم به^(٢) ولا تَحْقِرَنَّ لطفاً تعاهدتهم به^(٣) وإن قلَّ ، فَإِنَّه دَاعِيَةٌ لَهُمْ إلى بذل النصيحة لك وحسن الظنِّ بك ، ولا تَدْعُ تَفَقَّدَ لَطِيفِ أُمُورهم اتِّكالاً على جسيمها ، فَإِنَّ للسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موضعاً لا يستغنون عنه . وإنَّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك . وإنَّ أَفْضَلَ قِرَّةِ عَيْنٍ لَوَلاةُ اسْتِقَامَةِ الْعَدْلِ في البلاد ، وظهور مَوَدَّةِ الرِّعْيَةِ ، وإنَّه لا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورهم ، ولا تَصِيحُ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِقَلَّةِ اسْتِغْنَالِ دُورِهِمْ .

ثم اعرِف لكلَّ امرئٍ منهم ما أبلى ولا تضيفنَّ بلاءَ امرئٍ إلى غيره^(٤) ، ولا تَقْصُرَنَّ به دون غايةِ بَلائه ، ولا يدعُوكَ شرفُ امرئٍ إلى أن تُعْظِمَ مِنْ بَلائه ما كان صغيراً ، ولا ضَعْفُ امرئٍ إلى أن تستصغر من بَلائه ما كان عظيماً .

ثم اختر للحكم بين الناس أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ^(٥) في نَفْسك ممَّن لا تضيق به الأُمُور ، ولا تُمَحِّكُهُ^(٦) الخصوم ، ولا يتمادى في الزَلَّةِ ، ولا تُشْرَفَ نَفْسُه على مطمع ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أَقصاه^(٧) وأوقِفْهُمْ في الشُّبُهَاتِ^(٨) وآخِذْهُمْ بِالْحَجِجِ ، وأَقْلَهُمْ تَبَرُّماً بمراجعة الخصم وأصبرْهم على تَكْشِفِ الأُمُور ، وأصْرَمْهم عند اتِّضاح الحكم ، ممَّن لا يَزْدَهِيه إطراء ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليلٌ ، ثم أكثر تعاهد

(١) ينبو على الأقرباء: يشتد ويملو عليهم ليكف أيديهم عن ظلم الضعفاء.

(٢) تفاقم الأمر: عظم. يقول: لا تمتد شيئاً قوتيتهم به غاية في العظم زائداً عما يستحقون ، فكل شيء قوتيتهم به واجب عليك إتيانه ، وهم مستحقون لنيله.

(٣) أي لا تمتد شيئاً من تطفلك معهم حقيراً فتركه لحقارته ، بل كل تطف وإِنْ قلَّ فله موقع من قلوبهم.

(٤) لا تنسبن عمل امرئٍ إلى غيره ، ولا تقصر به في الجزء دون ما يبلغ منتهى عمله الجليل.

(٥) ثم اختر.. الخ: انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.

(٦) تمحكه: تضيق خلقه (تغير أخلاقه). لسان العرب: ٤٨٦/١٠ ، مادة «محك».

(٧) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأول فهم وأقربه ، دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمل.

(٨) الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيه. يريد أنه ينبغي الوقوف عن الحكم حتى يرد الحادثة إلى أصل صحيح. ولفظه «أوقفهم» تابعة بالإعراب للفظه «أفضل».

قضائه^(١) وأفسخ له في البذل ما يزيل علته وتقلّ معه حاجته إلى الناس. وأعطيه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك؛ ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك. فانظر في ذلك نظراً بليغاً.

ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً^(٢) ولا تولهم محابةً وأثرةً، فإنهم جماع من شغب الجور والخيانة.

ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحبّة عليهم إن خالفوا أمرك أو تلموا أمانتك. ثم تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدوة - حتّ - لهم على استعمال الأمانة بالريّة.

وتفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم، لأنّ الناس كلّهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج؛ لأنّ ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلّا قليلاً.

فإن شكوا ثقلًا^(٣) أو علةً أو انقطاع شرب أو إحالة أرضٍ أغتمرها غرقاً أو أجحف بها عطشٌ فخفف عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يتقلنّ عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه دُخرٌ يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك^(٤) باستفاضة العدل فيهم. فإن العمران محتمل ما حملته. وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يُعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على

(١) تماهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرف.

(٢) أي: ولهم الأعمال بالامتحان، لا محابة، أي: اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم، ولا أثرة، أي: استبداداً بلا مشورة، فإنّ المحابة والأثرة يجعلان الجور والخيانة.

(٣) ثقل المضروب من مال الخراج.

(٤) التبجح: سرور المرء بما يرى من حسن عمله في العدل. لسان العرب: ٤٠٥/٢ - ٤٠٦، مادة «بجح».

الجمع^(١) وقلة انتفاعهم بالعبر.

ثم انظر في أمور كتابك فولّ على أمورك خيرهم ممن لا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور، فإنّ الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لا يكن اختيارك إيتاهم على فراستك واستنامتك^(٢) وحسن الظنّ منك، فإنّ الرجال يتعرّفون لفراستك^(٣) الولاة بتصنّعهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء. ولكن اختبزهم بما وُلّوا للصالحين قبلك: فاعمد لأحسنهم كأنّ في العامة أثراً وأعزّفهم بالأمانة وجهاً! ومهما يكن في كتابك من عيب فتغايبت عنه ألزمته.

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً، المقيم منهم والمضطرب^(٤) بماله، فإنّهم موادّ المنافع وأسباب المرافق وجُلّاهما من المبادئ والمصارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم أنّ في كثيرٍ منهم ضيقاً فاحشاً وشخاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات، وذلك باب مضرةٍ للعامة وعيبٌ على الولاة، فامنع من الاحتكار، فإنّ رسول الله (ﷺ) منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدلٍ، وأسعارٍ لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمَن قارف حكمة^(٥) بعد نهيك إيتاه فنكّل به وعاقبه في غير إسراف.

ثم يتحدث الإمام عن الطبقة المعوزة فيقول:

واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت المال، وقسماً من غلات كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلّ قد استرعى حقّه، فلا يشغلنك

(١) أي لتطلع أنفسهم إلى جمع المال.

(٢) الفراسة، بالكسر: قوة الظن وحسن النظر في الأمور. الاستنامة: السكون والثقة، أي: لا يكون انتخاب الكتاب تابِعاً لميلك الخاص.

(٣) يتعرّفون للفراست: يتوسّلون إليها لتعرفهم بها.

(٤) المضطرب: المتردّد بأمواله بين البلدان.

(٥) قارف: خالط. المنجد: ٦٢٢ مادة «قرف»، الحكمة: الاحتكار.

عنهم بطرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعَذِّرُ بِتَضْيِيعِكَ النَّافَةَ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمَهْمَ. وَلَا تُشْخِصَ هَمَّكَ^(١) عنهم، وَلَا تُصَغِّرَ خَذَكَ لَهُمْ، وَتُقَدِّدَ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ هَؤُلَاءَ مِنْ بَيْنِ الرِّعْيَةِ أَحْوَجَ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ. وَتُعْهَدُ أَهْلَ الْيَتِيمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ^(٢) فِي السَّنِّ مَعْنَ لَا حِيلَةَ لَهُ. وَاجْعَلْ لِدَوِي الْحَاجَاتِ^(٣) مِنْكَ قِسْماً تَفَرِّغَ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسَ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَوَاضِعَ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقْعِدَ عَنْهُمْ جَنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرْطِكَ^(٤) حَتَّى يَكَلِّمَكَ مَتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَّعٍ^(٥) فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ^(٦): «لَنْ تَقْدَسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَتَّعٍ». ثُمَّ احْتَمَلَ الْخُرْقَ^(٧) مِنْهُمْ وَالْعِيَّ^(٨) وَنَحَّ عَنْهُمْ الضِّيقَ وَالْأَنْفَ^(٩).

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بَدْءَ لَكَ مِنْ مَبَاشَرَتِهَا: مِنْهَا إِجَابَةُ عَمَّا لَكَ بِمَا يَعْيَا عَنْهُ كِتَابُكَ. وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ^(١٠)، وَامْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ.

وَلَا تَطُولَنَّ احْتِجَابُكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوَلَاةِ عَنِ الرِّعْيَةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقَلَّةٌ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ، وَالْإِحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عَنْدهُمْ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيَشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا

(١) لَا تُشْخِصَ هَمَّكَ: لَا تُصَغِّرْ هَمَّكَ.

(٢) ذَوُو الْيَتِيمِ: الْإِيْتَامُ. ذَوُو الرِّقَّةِ فِي السَّنِّ: الْمُتَقَدِّمُونَ فِيهِ.

(٣) لِدَوِي الْحَاجَاتِ: أَيُّ لِلْمُتَطَلِّمِينَ.

(٤) أَيُّ تَأْمُرُ بِأَنْ يَقْعِدَ عَنْهُمْ جَنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ وَأَحْرَاسَكَ وَشُرْطَكَ فَلَا يَتَمَرَّضُوا لَهُمْ.

(٥) التَّعَتُّ فِي الْكَلَامِ: التَّرَدُّدُ فِيهِ مِنْ عَجْزٍ وَعِيٍّ، وَالْمَرَادُ، غَيْرُ خَائِفٍ.

(٦) أَيُّ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ.

(٧) الْخُرْقُ: الْعَنْفُ، ضِدُّ الرِّفْقِ. لِسَانُ الْعَرَبِ: ٢٥٧/٩.

(٨) الْعِيَّ: الْعَجْزُ عَنِ النُّطْقِ. الْمُنْجَذُ: ٥٤٢، مَادَّةُ «عِيَّ».

(٩) الْأَنْفُ: الْإِسْتِكْفَارُ وَالْإِسْتِكْبَارُ.

(١٠) تَحْرَجُ: تُضَيِّقُ. بِمَا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ الْأَعْوَانِ، يُرِيدُ: أَنَّ الْأَعْوَانَ، تُضَيِّقُ صُدُورَهُمْ بِتَعْجِيلِ الْحَاجَاتِ، وَيَحْتَبُونَ الْمَمَاطِلَةَ فِي قَضَائِهَا اسْتِجْلَاباً لِلْمَنْفَعَةِ أَوْ إِظْهَاراً لِلْجَبْرُوتِ.

الوالي بشرّاً لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور ، وليست على الحقّ سماتٌ ^(١) تُعرف به ضروب الصدق والكذب ، وإنّما أنت أحد رجلين : إمّا امرؤٌ سخت نفسك بالبذل في الحقّ ففيم احتجابك من واجب حقّ تعطيه أو فعلٍ كريمٍ تُسديه ؟ أو مبتلىٌ بالمنع ، فما أسرع كفّ الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك ^(٢) ، مع أنّ أكثر حاجات الناس إليك ممّا لا مؤونة فيه عليك من شكاةٍ مظلمة ، أو طلب إنصافٍ في معاملة !

ثم إن للوالي خاصّةً وبطانةً فيهم استثناءً ، وتطاوُلٌ ، وقلةٌ إنصافٍ في معاملة ، فاحسم ^(٣) مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقطعن لأحدٍ من حاشيتك وحامتك ^(٤) قطيعةً ^(٥) ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عُقدةٍ ^(٦) تُضر بمن يليها من الناس في شرب أو عملٍ مشتركٍ ، يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهناً ^(٧) ذلك لهم دونك ، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة.

والزم الحقّ من لزمته من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع . وابتغ عاقبته بما يتنقل عليك منه ، فإنّ مغبة ذلك محمودة ^(٨) . وإن ظننت الرعية بك خيفاً - أي ظلماً - فأصحر لهم ^(٩) بعذرک ، واعدل عنك في

(١) سمات : علامات ، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميز بها الصدق من الكذب وإنّما يعرف ذلك بالامتحان والاختيار.

(٢) يقول : فإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البعد عنك ، فلا حاجة للاحتجاب.

(٣) احسم : إقطع . يقول : إقطع مادة ضرورهم عن الناس بقطع أسباب تمديهم ، وإنّما يكون ذلك بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرف في شؤون العامة.

(٤) الحامة كالطامة : الخاصة والقرابة . الصحاح : ١٩٠٧/٥ ، لسان العرب : ١٢/١٥٣.

(٥) الإقطاع : المنحة من الأرض . والقطيعة : الممنوح منها.

(٦) الاعتقاد : الامتلاك . العقدة : الضيقة . واعتقاد الضيقة : إقتناؤها.

(٧) مهناً : منفعة هنيئة.

(٨) المغيبة العاقبة ، يقول : إنّ إلزام الحق لمن لزمهم ، وإن ثقل على الوالي وعليهم ، محمود الماقبة بحفظ الدولة.

(٩) إصحر : أبرز لهم وبين عذرک . المنجد : ٤١٧ ، مادة «أصحر».

ظنونهم بإصْحارك، فَإِنْ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ^(١)، وَرَفَقاً بِرِعْيَتِكَ، وَإِعْذاراً^(٢) تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

لَا تَدْفَعَنَّ صَلَاحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ وَلِلَّهِ فِيهِ رِضَا، فَإِنْ فِي الصِّلَحِ دَعَةً لِعُجُودِكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُوكَ وَأَمناً لِبِلَادِكَ، وَإِنْ عَقِدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً^(٣)، فَحُطِّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَتْ^(٤)، وَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخْسَنَ بِعَهْدِكَ^(٥)، وَلَا تَخْتَلِنَ^(٦) عَدُوَّكَ. وَلَا تَعْقِدْ عَقْداً تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ^(٧)، وَلَا تَعُولَنَّ عَلَى لِحْنٍ^(٨) قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوَثُّقِ.

وَلَا تَقْوِينَ سُلْطَانَكُمْ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنْ ذَلِكَ مِمَّا يَضَعُفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يَزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عِذْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، وَإِيَّاكَ وَالْمَنْ عَلَى رِعْيَتِكَ بِإِحْسَانِكَ! أَوْ التَّزَيُّدَ^(٩) فِي مَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَّهُمْ فَتُصْبِحَ مَوْعِدُكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنْ الْمَنْ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدُ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفُ يُوْجِبُ الْعِقَابَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ. وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا! أَوْ التَّسْقُطَ^(١٠) عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوْ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ فَضْغَ كُلِّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقَعَ كُلِّ أَمْرٍ مَوْقِعَهُ.

(١) أَي: رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، تَعْمِيداً لِنَفْسِكَ عَلَى الْعَدْلِ.

(٢) الْإِعْذارُ: تَقْدِيمُ الْعِذْرِ.

(٣) أَصْلُ مَعْنَى الذِّمَّةِ: وَجْدَانُ مَوْدِعٍ فِي جَبَلَةٍ الْإِنْسَانُ يَنْتَبِهُهُ لِرِعَايَةِ حَقِّ ذَوِي الْحَقُوقِ عَلَيْهِ وَيُدْفَعُهُ لِأَدَاءِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْهَا، ثُمَّ أُطْلِقَتْ عَلَى مَعْنَى الْعَهْدِ.

(٤) الْجُنَّةُ: الْوَقَايَةُ، يَقُولُ: حَافِظٌ عَلَى مَا أُعْطِيَتْ مِنَ الْعَهْدِ بِرُوحِكَ.

(٥) خَاسَ بِعَهْدِهِ: خَانَهُ وَنَقَضَهُ.

(٦) الْخَتْلُ: الْخُدَاعُ.

(٧) الْعِلَلُ: جَمْعُ عِلَّةٍ وَهِيَ فِي النِّقْدِ وَالْكَلَامِ، بِمَعْنَى مَا يَصْرِفُهُ عَنْ وَجْهِهِ وَيَحْوِلُهُ إِلَى غَيْرِ الْمَرَادِ، وَذَلِكَ يَطْرَأُ عَلَى الْكَلَامِ عِنْدَ إِهْمَامِهِ وَعَدَمِ صِرَاحَتِهِ.

(٨) لِحْنُ الْقَوْلِ: مَا يَقْبَلُ التَّوْجِيهَ كَالْتَوْرِيضِ وَالتَّعْرِيضِ، يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتَ ثَقُلًا مِنْ إِتْرَامِ الْعَهْدِ؛ فَلَا تَرْكُنْ إِلَى لِحْنِ الْقَوْلِ لِتَتَمَلَّصَ مِنْهُ، بَلْ خُذْ بِأُصْرَحِ الْوُجُوهِ لَكَ وَعَلَيْكَ.

(٩) التَّزَيُّدُ: إِظْهَارُ الزِّيَادَةِ فِي الْأَعْمَالِ وَالمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِ الْوَاقِعِ مِنْهَا فِي مَعْرِضِ الْإِفْتِخَارِ.

(١٠) التَّسْقُطُ، يَرِيدُ بِهِ هُنَا: التَّهَافُوتُ.

وإِيَّاكَ والاستئثار بما الناس فيه أَسْوَأُ^(١)! والتغابي عما تُعْنَى به ممّا قد وَضَحَ للعيون ،
فإنّه مأخوذٌ منك لغيرك ، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ويُنتصف منك للمظلوم .
إملك حميّة أنفك^(٢) وسورة حدّك وسطوة يدك وعزب لسانك^(٣) واحترس من كلّ ذلك
بكفّ البادرة^(٤) وتأخير السطوة حتّى يسكن غضبك فتملك الاختبار .

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تقدّمك من حكومة عادلة أو سئة فاضلة ،
فتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا ، واستوثقتُ به من الحجة لنفسي
عليك لكي لا تكون لك علةٌ عند تسرّع نفسك على هواها . وأنا أسأل الله أن يوفّقني وإيّاك
لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه^(٥) مع حسن الثناء في العباد
وجميل الأثر في البلاد! .»

وسوف نزيد على عهد ابن أبي طالب للأشتر ، بعض الأوامر والوصايا
التي يكتمل بها دستور العظيمة في الولاية ، ويركّزه ، ويصرّ عليه ، ويمدّه
بالدفع والحنان ، وذلك في باب المختارات من أدب الإمام ، في فصولٍ سوف
تأتي في مكانها .

أما الآن ، فإلى الأبحاث التي تتناول المعاني الإنسانية بين مفكّري
العصور جملةً وبين عليّ ، ثم إلى المقابلة بين مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى ،
والمبادئ التي خلفتها ثورة ابن أبي طالب .

(١) إحذر أن تخصّ نفسك بشيء تزيد به عن الناس ، وهو مما تجب فيه المساواة من الحقوق العامة .

(٢) أي إملك نفسك عند الغضب .

(٣) السورة: الحدة ، والحدّ: البأس . والغرب: الحدّ ، تشبيهاً له بحدّ السيف ونحوه .

(٤) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب ، وإطلاق اللسان يزيد الغضب إنقذاً ، والسكوت يطفئ من لهبه .

(٥) يريد من العذر الواضح: العدل ، فإنّه عذر لك عند من قضيت عليه وعذر عند الله في من أجريت عليه
عقوبة أو حرمة من متفعة .

الإمام عليّ (عليه السلام) ومبادئ الحرّية

إنّ مذهب عليّ في الحرّية يوجب عليه أن يتنبّه إلى الجانب الوجداني منها تنبهاً شديداً ؛ فيلاحظ أنّ في الإكراه إساءةً إلى حياة الإنسان الداخلية تلحق الأذى في المكره والمكروه ، فيقول: «إنّ للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً ، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها ، فإنّ القلب إذا أكره عمي»^(١). وفي هذا الموقف السليم الذي يقفه عليّ من وجدانات الناس اعترافٌ أصيل بأنهم أحرارٌ في المولد والمنشأ لا قسر يجوز عليهم ولا إكراه.

إنّ أخطر مظاهر الحرّية التي دارت حولها أبحاث الفلاسفة والمفكرين تتجمّع في ما يلي:

أولاً: الحرّية الشخصية التي يكون الإنسان بموجبها حرّاً في غدوّه ورواحه، فلا يُمنع منهما ولا يعارض إلّا إذا أجاز القانون هذا المنع وهذه المعارضة في حدود تُعيّنها المصلحة العامة. وهذا الشرط من شروط الحرّية أقرّه عليّ، إذ أمَرَ ولّاته بأن يُطلقوا عن الناس كلّ عقدةٍ تجعل غدوّهم ورواحهم ثقلين عليهم، وإنّ أمَرَهم بأن يتغابوا عن كلّ ما لا يصحّ لهم ، وألاّ يستكروها أحداً على ما لا يجيزه القانون. أمّا الذين يضطرون إلى مزيد من الحرّية في غدوّهم ورواحهم ، كالتجار وغيرهم، فإنّ عليّاً يأمر بأن يُفَسّح لهم في سبُل

(١) نهج البلاغة، الحكم القصار : ١٩٣.

الحرية الشخصية على أوسع مجال «في البر والبحر والسهل والجبل» كما جاء في عهده إلى الأشر النخعي. وكيف لا يجيز مثل هذه الحرية للناس جميعاً من أجازها لمحاربيهم، فمن شاء منهم أن يلحق فهو حرّ في مسيره إليه لا يمنعه مانع ولا يعترضه قانون؟

ثانياً: حرية المسكن: وهي ألا يُباح لأحد أن يدخل مسكناً من المساكن الخاصة على أصحابه إلا بإذنهم أو بأمر القانون. وقد فطن عليّ إلى ما يتوجب على الدولة من توفير هذا المظهر من مظاهر الحرية ، فقال فيه قولاً كأنما ينزع به عن مذهب الأحرار من مفكري القرن الثامن عشر. ومن أوامره العامة التي كان يبعث بها مكتوبةً إلى عمّاله على الصدقات ، قوله:

«ولا تروّعن إنساناً ، ولا تجتازن عليه كارهاً... فإذا قدمت على الحيّ فأنزل بمائهم من غير أن تخالط أبايهم. ثم امض إليهم بالسكينة والوقار. حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخذج^(١) بالتحية لهم ثم تقول: هل لله في أموالكم من حق فتؤدّوه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجعف. وإن أنعم لك مُنعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو تُرهقه. فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه فإن أكثرها له... الخ»^(٢).

وفي مكانٍ آخر يقول عليّ نصّاً:

«ولا تؤتى البيوت إلّا من أبوابها ، فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً»^(٣).

فإذا أنت قرنت هذا النصّ الصريح إلى النصّ السابق استخلصت منهما

(١) لا تخذج: لا تبخل.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٢٥ - ١.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٥٤ - ٣.

معاً نصّاً قانونياً واضحاً ، هو أنّ حرية السكن مضمونة. وأنه لا يُباح لأحد أن يدخل مسكناً من المساكن الخاصة على أصحابه إلا بإذنهم.

ثالثاً: حرية العمل والصناعة والتجارة والزراعة: وهي أن يباح للإنسان أن يعمل ما شاء من الأعمال وأن يصنع وأن يتاجر. وعليّ لا يكتفي بأن يبيع للناس هذه الحرية ، بل إنه يجعل رعاية العامل والصانع والتاجر والزارع همّاً من هموم الدولة ، فيأمر عامله على مصر قائلًا: «ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً ، المقيم منهم والمضطرب بماله ، فإنهم موادّ المنافع وأسباب المرافق وجلائها من المبادئ والمطابخ في برك وبحرك وسهلك وجبلك ، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك»^(١). ويوصي بالزراع قائلًا: «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ؛ لأنّ الناس عيال على الخراج وأهله!»^(٢).

ولا يخفى ما في هذه الأقوال -بالإضافة إلى إباحة حرية الصناعة والتجارة والزراعة - من نتائج تترتب عليها ، منها خلق طبقة جديدة من طبقات الناس من شأنها أن تساعد ذلك المجتمع على التقدم بها تقتضيه من إضعاف طبقة الأشراف وأهل الإقطاع. وقد كان ظهور طبقة أهل الصناعة والتجارة في أوروبا مرحلة من المراحل التي ساعدت على تهديم العهد الإقطاعي.

وشدد عليّ على حقيقة جليّة ، وهي: أن الإنسان لا يُعَدّ إنساناً إلا بما يُحسن من عمل فقال: «واعلموا أنّ الناس أبناء ما يحسنون»^(٣). والمرء لا يُحسن

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٩٥.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٩٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١١٧٨.

عملاً إن لم يكن حرّاً فيه ، وقد رأيت في فصل «رفع الحاجة» أنّ عليّاً أمر عمّاله بالآل يكرهوا إنساناً على عملٍ لا يرتضيه ، وبأن يُحسنوا مكافأة من يعمل في الأرض أو في النهر أو في غيرهما عملاً يدفعه إليه اختياره ورضاه وحدهما.

ولكنّ عليّاً إذا اعترف للتجار والصناع ومن إليهم بحقهم في حرية العمل وبالفائدة التي يجنيها المجتمع من نشاط أبناء هذه الطبقة ، فإنه لا يغفل عن تقييد هذه الحرية بمصلحة الجماعة ساعة يتحول نشاط هؤلاء إلى نشاطٍ عدواني ، يلوذ بالاستئثار والاحتكار ويميل أصحابه إلى التسلط على الناس ، واستعبادهم بما استأثروا وبما احتكروا. فإذا به يضع قاعدةً لحكام زمانه هي بمثابة الأساس الجامع لقواعد أشمل وأعم تأتي مع الزمان ، فيقول:

«واعلم مع ذلك أنّ في كثيرٍ منهم - أي من التجار وأهل الصناعات - ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً في البياعات ، وذلك بابٌ مضرةٌ للعامة وعيبٌ على الولاة. فامنع من الاحتكار. ولكن البيعُ يباعُ سمحاً بموازين وأسعارٍ لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع. فمن قارف حُكراً من بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه من غير إسراف»^(١).

رابعاً: حرية الفكر، ومن آيات عليّ في إباحة حرية الفكر سماحه لمن خالفه في تصوّره وتفكيره ومسلكه ومذهبه، بأن يفكر وينظر ثم بأن يكون من أمره على ما يبدو له ، أي أنه كان يأذن له بأن يفكر حرّاً ، ويتّجه حيث دلّه التفكير الحرّ والنزعة المستقلة عن أي ضغط أو إكراه.

ثم إنّ عليّاً أكثر من دفع الناس إلى طلب العلم بمعناه العام وهو : المعرفة، وطلبُ المعرفة، مربوطٌ أضلاً وطبيعةً بحرية الطالب في التفكير ؛ لأنّ

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٠٠.

استيعاب المعارف يقتضي من الحرية حدوداً أوسع. فلا علم لمن لا يفكر، ولا فكر لمن لا يكون حراً.

فطلب العلم وحرية الفكر متلازمان متحدان، بل إنَّ عليّاً دقق في هذا الشرط تدقيقاً أعظم حين قال: «ما من حركة إلا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة»^(١).

ومن البديهيات في طلب المعرفة وفي استيعابها: حرية النظر وحرية التلقّي وحرية الأخذ وحرية العطاء، وهذه في جملتها لا تعني إلا حرية التفكير. أضف إلى ذلك تعظيمه لكلِّ مَنْ عَرَفَ أن يختار من الآراء أقربها إلى ذهنه وألصقها بنفسه، ساعة يقول: «مَنْ استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ»^(٢). فمن البديهي أيضاً أن استقبال وجوه الآراء للانتفاع بما يوافق، يستلزم الاختيار. ولا اختيار بلا حرية فكر، وبما أن الإنسان ينظر حراً ويختار بفعل هذه الحرية في النظر والتفكير، فإنَّ هو أحسن الاختيار فله وإن أساء فعله، و«مَنْ أساء عَذَّب نفسه»^(٣).

وإليك ما يقوله بصدد «المساواة في الحقوق» نصّاً صريحاً.

«الحق لا يجري لأحدٍ إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له»^(٤).

وليس في هذا المبدأ العلوي ما يحتاج إلى توضيح.

ثم إننا نجد في عهده إلى الأشر النخعي هذه القاعدة:

«إياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة»^(٥). أي احذر أن تخص نفسك أو غيرك

(١) تحف العقول: ١٧١، نهج السعادة: ٨ / ٢١١ من وصيته عليه السلام لكميل بن زياد.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم: ١٧٣.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، رقم: ٧٧٩٨.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٦ - ٢.

(٥) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ١٤٩.

من البشر بكثيرٍ أو قليلٍ من الأمور التي تجب فيها المساواة بين الناس وهي: الحقوق العامة. ثم يقول له ولسواه! «وليكن أمر الناس عندك في الحق سواء»^(١). ومعنى هذه العبارة - كما هو واضح - أن الناس متساوون في الحقوق ، لا فرق فيهم بين كبير وصغير ، أو بين قريب وبعيد ، أو بين مسلم وغير مسلم ، أو بين عربي وأجنبي ، لأن هؤلاء جميعاً هم الذين يُعتبر عنهم بلفظة «الناس». ثم يشدد عليّ على هذا المعنى خشية أن يلتبس على الولاة ما أراد، فينبه كلاً منهم إلى أصل الأصول ، وهو أن البشر جميعاً متساوون في الحقوق لأنهم متساوون في المولد ثم في صفة الإنسان قبل أن يكونوا أقارب وأبعد ومسلمين ومجوساً وعرباً وأعاجم ، قائلاً: «كل إنسان نظير لك في الخلق»^(٢). لذلك كان «للأقصى - في دستور عليّ - مثل الذي للأدنى»^(٣). ولذلك يقول في غير المسلمين: «أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا»^(٤) ما جاز عليهم جاز على غيرهم ، وما حرم عليهم حرم على غيرهم كذلك.

ويذهب عليّ بعيداً في معنى المساواة بين الناس في الحقوق ؛ فيرى أن الأموال التي تحت يديه وأيدي عماله «ليست له ولا لهم» وإنما هي ممّا أنتجته الجهود العامة إنتاجاً مشتركاً ليكون من حق الناس جميعاً ، وعليّ أول مفكرٍ شرقي قال قولاً صريحاً ، وبصيغة لا تقبل تأويلاً ، بأن الأموال العامة هي أموال الشعب بكامله ، فهي من ثمّ حقّ من حقوق الشعب كلّ. وفي هذا الضوء ساوى عليّ في العطاء بين الناس لا قريب فيهم ولا بعيد ، ولا شريف

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٩ - ١.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ٩.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٥٣ - ١٠٣.

(٤) شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٤٨/١٧، أصول السرخسي: ١٩٠/١، إيضاح الفوائد لابن العلامة: ٣٨٩ / ١.

الجزية وأحكامها: ١٤.

ولا غير شريف ، ولا سيما بعد أن نظر في أمر الناس ، وهم لديه أخوة متساوون متعاونون ، فإذا كثيروهم في فقرٍ مريع ، وإذا قليلهم في غنى فاحش فقال مخاطباً نفسه: «اضرب بطرفك حيث شئت من الناس، فهل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بَدَل نعمة الله كُفْراً»^(١). ولَمَّا جاءه ناصحٌ له يعاتبه على هذه التسوية في العطاء ويجعلها عليه مأخذاً قائلاً: «يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال وفَضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم» ، أجاب بقوة وهدوء: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور!»^(٢).

وكما كان عليّ أوّل مفكرٍ شرقي أعلن أن الأموال العامة هي أموال الشعب لا أموال الطبقة الحاكمة أو طبقات الأشراف ، كان كذلك أوّل حاكم في الشرق كلّه يصوغ هذه الحقيقة صياغةً تحمل طابع القانون. فالأموال العامة «ليست طعمةً للولاة» بل هي ملك الناس. والولاة في دستوره ليسوا - بالنسبة لهذه الأموال - أكثر من «خزان أموال الرعية». وهم في نص آخر : «خزان الرعية ، ووكلاء الأمة» ، وفي خطبة له نجد هذا القول الصريح: «تَرَبَّثْ يَدُ هذا المشتري^(٣) نُصْرَةً غَادِرٍ فَاسِقٍ^(٤) بِأموال الناس!»^(٥).

والسابقون من البشر لهم عملٌ في إنتاج هذا المال - في دستور عليّ - والحاضرون لهم عملٌ كذلك فيه ولللاحقين حقٌّ به. فجميع الناس هم أهل هذا المال. لذلك بعث عليّ إلى بعض عمّاله يقول: «أما بعد ، فإنّ ما بيدك من المال له

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٩ - ٤.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٢٦ - ١ ، الفارات للثقفى: ٤٨ ، تحقيق الخطيب.

(٣) يقصد معاوية.

(٤) يقصد عمرو بن العاص.

(٥) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١٧٨/١ ، الغدير للأميني: ١٥٣/١٠.

أهل قبلك ، وهو صائر إلى أهلٍ له بعدك»^(١). ونظرة عليّ هذه إلى المال هي النظرة التي يجب أن تُلقى على كلّ مولّدات الحضارة البشرية نتيجة جهود كلّ الناس في كلّ أرض وكلّ زمان. وإذا نحن أخذنا رأيَ عليّ في المال بوصفه نتاجَ جهودٍ عامةٍ مشتركة ، كمقياسٍ لكلّ ما تنتجه الجهودُ العامةُ المشتركة ، أفلا نراه قد أدرك القاعدة الأساسية في نتاج الحضارة الذي هو عملٌ يشترك فيه السابقون واللاحقون ، والقدامى والمحدثون؟ والذي عبّر عنه الفيلسوف الفرنسي باسكال حين قال: إنّه «يجب أن ننظر إلى سلسلة البشر خلال عصور التاريخ كأنها رجلٌ واحدٌ يعيش أبداً ويتعلّم بدون انقطاع». وأروع من ذلك كلّهُ ، وأشدّ منه إظهاراً لِمَا بين البشر من تعاون وتكافؤ ، قول عليّ:

«ثم جعل الله حقوقاً لبعض الناس على بعض ، فجعلها تكافاً في وجوهها ويوجب افتراضها بعضها بعضاً ، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض»^(٢).

وإنّي لم أعثر في أقوال مفكرّي العالم العظام ، على أروع من هذه الفكرة ، وهذا البيان في إظهار وحدة الجهود المشتركة بين البشر ، التي عبّر عنها عليّ بوحدة الواجبات ووحدة الحقوق!

وهذه النظرة العميقة الى اشتراك سلسلة البشر في إنتاج ما تحت أيدي البشر هي الأصل التي تبنى عليه نظرية المساواة بين الناس في كافّة الحقوق. ومن هنا كانت نظرة عليّ تلف المجتمع على أنّه مجتمع لكلّ أبنائه ، وفيهم القادر على العمل والعاجز عنه ، أمّا العاجز كالشيخ واليتيم ومن إليهما ،

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم: ٤١٦ - ٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢١٦ - ٥.

فعلى الدولة أن تكفيه وتيسر له معاشه تيسيراً كريماً لا مئة فيه ولا إحسان. وفي ذلك يقول عليّ في دستوره إلى مالك الأشر بصدد العاجزين عن العمل: «واجعل لهم قسماً من بيت المال وقسماً من الغلات في كل بلد، فإن الذي للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل قد استرعت حقه»^(١). ولما كان لهؤلاء نصيب من الأموال العامة هو حق لهم لا مئة من أحدٍ عليهم، ولما كانت هذه الأموال في أمانة الدولة، فعلى الدولة نفسها أن تبحث عنهم، وتصل إليهم بحاجتهم من المال، لأن عمل الدولة هو أن تحمي الناس وترفع عنهم العوز؛ مبادرةً منها لا استجابةً لمسألة من معوز، وفي ذلك يقول عليّ: «وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، فإن هؤلاء من الرعية أحوج إلى الأنصاف من غيرهم!»^(٢).

وبناءً على الحقيقة السابقة أيضاً، وهي اشتراك سلسلة البشر في إنتاج ما تحت أيدي البشر، وحق كل من الناس بهذا التاج، كانت نظرة عليّ تلف المجتمع على أنه مجتمع إنساني لا عنصري. وقد رأيت كيف ساوى بين العرب والأعاجم في العطاء فكانوا لديه سواء، فلامه في ذلك لائمه، فردّ عليه رأيه وأبى أن يكون للعرب من الحقوق فوق ما للأعاجم. وقد رأيت كيف ساوى بين زعماء قريش وهم عشيرته وأهله، وبين عامة العرب من مختلف القبائل، فلامه في ذلك لائمه، فردّ عليه رأيه، وأبى أن تكون قريش أفضل من سائر العرب فلا يتساوون في كل حق.

وإذا نحن نظرنا في سيرة عليّ رأيناه قد أوقع بالإجحاف اللاحق بأبناء زمانه، فمزق الأسطورة القائلة بامتياز طبقة عن طبقة في الحقوق، وسوى بها

(١) نهج البلاغة، الدكتور صبحي الصالح، الطبعة الأولى: ٦٠٢.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ١٠٤.

الأرض ، وجعل الناس سواسيةً عملاً بما تقتضيه سنة الطبيعة وسنة المجتمع القويم. وهنا يمكن التعليل الصحيح الأوحـد لثورة زعماء قريش عليه، وقد غلّ أيديهم عن نهب الناس ورفّع سلطانهم عن أعناق البشر ، وساوى بهم - وهم الوجهاء فيما يزعمون - كل من حمله وجه الأرض ، مطلقاً في وجوههم هذه الصيحة التي أرعدت فرائصهم ، ونفخت في رؤوسهم ورمحت جلودهم بالسنان فراحوا يرفعون ما بينهم من عداوات فيتكتلون عليه ويتآمرون به ، قائلاً لهم: «الذليل عندي عزيز حتى أخذ الحق له ، والعزيز عندي ذليل حتى أخذ الحق منه»^(١) ، سائراً على هذي الطبيعة السليمة ، مذكراً هؤلاء الأشراف: «أن الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب»^(٢) حتى إذا كبروا وظلّوا يكابرون وينزعون عن عقيدتهم بأنهم ورثة أمجاد وأبناء شرف، عاد إليهم بلهجة أعنف وأخذهم بواقع أشد ، متنبهاً إياهم إلى أنهم يفاخرون بالموت والحياة أولى بهذا الفخر ، وهي أمانة بالعمل موالية لصاحب الهمة ، قائلاً لهم: «الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية»^(٣).

وقصة علي مع قريش هي قصة كل مفكرٍ ، رأى أن المساواة في الحقوق هي السنة الطبيعية الوحيدة في نطاق المجتمع السليم. وسوف يأتي الكلام بالتفصيل على قصة التاريخ هذه التي يتمثل فصل من أوسع فصولها في أخبار علي وقريش ؛ وذلك في حديثنا اللاحق عن المؤامرة الكبرى على ابن أبي طالب.

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٧ - ٣.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ٣٨٧٣ ، وجاء فيها: إنما الشرف بالعقل والأدب ، لا بالمال والحسب.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم: ١٩٩١.

ولكي يزول كل التبايس من أذهان الولاة والناس، يعود عليّ ليخصص ويفضل في نطاق المساواة ، فيقول هنا وهناك: «وإنما يعاب من أخذ ما ليس له»^(١) و «لا تنظر إلى مَنْ قال ، وانظر إلى ما قال»^(٢) و «من أمنت أذيتَه فارغب في أخوته»^(٣) إلى غير ذلك من الأوامر والتعاليم التي تنبع من روح المساواة في الحقوق ، ونصب فيها. فإذا اعتَبَرَ حُماةُ القانون القائل لا القول ، بطلت المساواة أصلاً كما بطل القانون. وإذا أخذ امرؤ ما لا يبيحه له حقّه كان معتدياً على حقوق الآخرين، فبطلت المساواة كذلك. ومَنْ رَفَعَ عنك أذاه فهو أخوك أياً كان ، وأخوك مساوٍ لك في كل حق بنسبة مساواته لك في الصفة الإنسانية الشاملة. ومن روائع عليّ في تعطيل قيمة النسب المصطنعة ، وتعظيم معنى الكفاءة تأمينا لمبدأ المساواة في كل حق ، قوله: «قيمة كل امرئ ما يُحسن»^(٤). وقد لا يصحّ هذا القول في معنى وجود الفرد المطلق ؛ لأنّ الحياة بذاتها إنّما تحمل كل قيمها ، ولكنه صحيحٌ مائة بالمائة في معنى وجود الإنسان الاجتماعي.

وهذا المبدأ العام في المساواة اتفق البشر على حدوده، فقالوا إنّ المساواة في الحقوق إنّما تقوم على أربعة أصول رئيسية هي: المساواة في القانون ، والمساواة أمام القضاء ، والمساواة في الضرائب ، ثم المساواة في الوظائف.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٦٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ١٠١٨٩.

(٣) بحار الأنوار: ١٦٦ / ٧١.

(٤) الخصال للصدوق: ٤٢ ، نهج البلاغة الثاني للحائري: ٢٦٩.

أما المساواة في القانون فنجدها مقررةً عند عليّ في قوله السابق: «وليكن أمر الناس عندك في الحق سواء»^(١). ثم في هذا القول: «واعلموا أنّ الناس عندنا أسوة»^(٢). وهما قولان صريحان بمساواة الناس جميعاً أمام القانون لا احتمالان تأويلًا ولا يعتريهما إبهام. والمساواة في القانون هي - على كلّ حال - رأس المساواة في الحقوق.

أما المساواة أمام القضاء فلعلّي في شأنها فضل السابق والواضح والمنقذ. ولعلّ هذا الوجه من وجوه المساواة بين الناس هو الذي كثر الافتراء عليه في التاريخ وكثر تعطيله؛ ذلك لأن كلمة القضاء هي القول الفصل في الخلاف بين الناس؛ ولأنّ حكم القضاء في ما اختلف فيه المختلفون نافذٌ، يجري على الناس سواءً أكان عادلاً أو ظالماً! ففي رجال القانون من عطّلوا مساواة الناس أمام القضاء في الأصول نفسها، كذلك القانوني الانكليزي التافه «بركلي» الذي سبق أن أشرنا إلى قوله: بأنّ القانون إنما وُضع لخدمة الحكّام، أي أن المساواة أمام القضاء معطّلة بين الحكّام والناس. وليس غريباً على دارسي التاريخ أن يعرفوا غلق القوانين القديمة في تعطيل هذه المساواة تعطيلًا جذرياً، إذ لا يستطيع العبد بحكم القانون أن يقاضي الحرّ، وإذ لا يتمكّن ابنُ الطبقة الفقيرة من أن يقاضي النobile، ولا يجوز للعامة كذلك أن تقاضي واليها، وإذ لا يؤذن لهؤلاء جميعاً أن يفكروا بمقاضاة صاحب السلطان الأعلى. وهذه المساواة أمام القضاء إنّ هي أقرّت في قانونٍ من تلك القوانين،

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٩ - ١.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٧٠ - ٣، وجاء في هذه الفقرة: علموا أن الناس عندنا في الحق أسوة.

فإنها لم تكن لتجوز نطاقها النظريّ ، إذ قلّما وقعت هذه المساواة عملياً بين غنيّ وفقير ، أو بين نافذٍ وغير نافذ. وهكذا يكون الحكماء وأصحاب الامتيازات وذوو الوجاهات قد عبثوا بهذه المساواة وإن كانت مقرّرة نظرياً - في قوانينهم. ويشاركونهم في هذا العبث القضاة أنفسهم لأسبابٍ عدّة ، نذكرها فيما بعد.

والخطر الناجم عن تعطيل هذا الوجه من وجوه المساواة - سواءً أكان هذا التعطيل بالقانون أو بالظرف الذي يحمل القاضي على الالتواء - خطرٌ جسيمٌ قد يجرّ المجتمع كله إلى الحضيض ، ويقضي فيه على عوامل التعاون والتآخي والأمن والعدالة ، كما قد يشدّ أزر المغتصب والظالم ، وينكب المحروم المظلوم بحقه أو بحياته. ومن يُسلب حقه أو يُظلم أو يُهدّر دمه أو يُقتل باسم العدالة - وهي حجة القضاء والقاضي - كان إنساناً مسحوقاً بصيغة وجوده هذه ، في مجتمعٍ لا معنى لقيامه ولا خير في بقائه.

وقد أدرك عليّ أهمية المساواة أمام القضاء فجعلها قانوناً لا يقبل تأويلاً ولا يأذن بعبث. كما أدرك أهمية استقامة القضاة ، فوضع قواعد تحفظ المستقيم منهم في حاله ، وتيسر طرق الاستقامة لغير المستقيم ، وتقضي بعزل الجائر إذا هو لم يسلك طريق العدل وقد تيسر له ؛ تحقيقاً للمساواة بين الناس جميعاً أمام هذه السلطة من جانب القانون ، ومن جانب القاضي معاً.

والمساواة أمام القضاء هي على كلّ حالٍ شيءٌ من المساواة في الحقوق

العامة، فهي من ثم تتضمنها بوصفها بعضاً من كل. غير أن علياً يخصص فيتوجه إلى القاضي قائلاً: «والزم الحق من لزمه من القريب والبعيد»^(١). وإلى القضاة جميعاً: «وعليكم بالعدل على الصديق والعدو»^(٢) و «لا تبغوا على أهل القبلة ولا تظلموا أهل الذمة»^(٣)، وهي أوامر واضحة بالمساواة بين الناس أمام كل قضاء، فإنّ عدم المساواة إن كان فإنما يكون بين قريب وبعيد: أما القريب فهو من وصلتك به قرابة أو مودة، أو من له عليك نفوذ بالمال أو بالرئاسة، أما البعيد فهو من لا يصلك به شيء من هذا على الإطلاق. أما الصديق فتخصيص من القريب لأنّ هواك معه، وأما العدو فتخصيص من البعيد لأنّ هواك عليه، ولأنّ من العداوة ما يغيظك، ويثير فيك عوامل الانتقام. ثم إنك قاض مسلم في دولة تدين بالإسلام وتقضي بشرعه، فإياك أن تبغي على مسلم بحكم من الأحكام لأن المسلمين متساوون بالإسلام! وفي هذه الدولة بشر لا يدينون بالإسلام، هم اليهود والنصارى، وغيرهم من أصحاب العقائد المختلفة، فاحذر أن تظلم واحداً من هؤلاء، فهم متساوون والمسلمين بصفتهم الإنسانية!

وخلاصة هذا: أن الناس جميعاً متساوون أمام القضاء وأحكامه، وهؤلاء الناس لا يحدهم إلا كونهم أناساً وحسب. فالقريب والبعيد، والصديق والعدو، والمسلم وغير المسلم، سواء لا فرق بينهم أمام الحق. ولما كان أكثر العابثين بالقضاء وأحكامه، والمائلين بالقضاة عن جادة الحق، ومعطلي صفة العدالة فيه، هم الوجهاء والنبلاء والأثرياء والأمراء والولاة ومن إليهم من المترهلين، ولما كان هؤلاء لا يعبثون بالقضاء، ولا

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٥٣ - ١٢٩.

(٢) نهج السعادة: ٤٧٤ / ٧، تحف العقول: ٨٨، ينابيع المودة، الباب: ١٠٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٩٤ / ٤، الكامل لابن الأثير: ١٤٥ / ٣، شرح النهج للمعتزلي: ١٣٧ / ٣.

يميلون بالقضاة عن الحكم بالحق إلا لأنهم مغتصبون ظالمون، يريدون أن يظلموا في ما هم فيه من ظلم واغتصاب دون أن يؤخذ منهم ما اغتصبوه ، ودون أن يُنصفَ منهم للمظلوم ، فقد وقف عليّ منهم جميعاً موقفاً حازماً لا يساير ولا يلين ؛ تحقيقاً لهذه المساواة أمام القضاء. فقال في عهده للأشتر النخعي:

«إن للوالي خاصّة وبطانة فيهم استثناءً ، وتطاوُلٌ ، وقلةٌ إنصافٍ في معاملة ، فاحسّم مَادَّةَ أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال. ولا يطمعن أحدٌ من هؤلاء في اعتقاد عقدةٍ تضرّ بمن يليها من الناس ، في شربٍ أو عملٍ مشتركٍ يحملون مؤثنته على غيرهم»^(١). «ولا يكوننّ المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سواء ، فإنّ في ذلك تهديداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ، وألزم كلّاً منهم ما ألزم نفسه»^(٢). وقال: «ثم اعرّف لكلّ امرئٍ منهم ما أبلى - أي ما عمل - ولا تُضيفنّ بلاء امرئٍ إلى غيره ، ولا تقصرنّ به دون غايةٍ بلائه ، ولا يدعونك شرفُ امرئٍ إلى أن تُعظّم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضَعْفُ امرئٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً»^(٣).

والمعنى الخالص الذي نأخذه من كلّ هذه الوصايا التي هي بمثابة قواعد سنّها عليّ لعمّاله ، نوجزه بما يلي : إن البشر متساوون لا غنيّ فيهم أمام الحكم العادل ولا فقير ، ولا كبير ولا صغير ، بل فيهم المحسن والمسيء ، والعامل والكسول ، فليعاقب المسيء أيّاً كان بما أساء ، وليكافأ المحسن أيّاً كان بما أحسن. والعمل الطيّب المثمر هو مقياس الاعتبار بالنسبة لصاحبه ، لا الحساب ولا الجاه ولا النفوذ ، بل إن هؤلاء الخاصّة الراغبين في أن يكون القضاء لهم وحدهم ، فيهم استثناءٌ وتطاوُلٌ وقلةٌ إنصاف ، فيجب أن تُقطع مادّتهم.

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٣ - ١٢٦.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٣ - ٣٤.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٦٢.

ولمّا كانت شخصية عليّ من الأصلة والتماسك على ما أشرنا إليه، فقد ضرب بنفسه أروع الأمثال على المساواة المطلقة بين الناس أمام القضاء. من ذلك ما ذكرناه في فصل سابق عن المقاضاة التي كان هو فيها أحد الطرفين المتخاصمين. فعُد إليها ^(١) إذا شئت، فهي من الحوادث التي يعتزّ بها تراثُ الخلق الإنساني النازع عن الشعور الصافي بالمساواة بين البشر في كافة أحوالهم، وفيها أكثر من عبرة وأكثر من مثل. فيها ما نحن بصدد الكلام عليه من المساواة بين الكبير والصغير، والحاكم والمحكوم، والمسلم وغير المسلم. وفيها الاعتراف المطلق بحرية القاضي ورفع كلّ سلطة عنه ليحكم بالقانون وبالضمير حقاً، وهو مبدأ فضّل السلطة القضائية عن السلطة العامة؛ توفيراً للمساواة بين الناس وتمكيناً للقاضي بالحكم بالعدل. وفيها احترام القضاء عندما يكون حكمه صادراً عن قانون عام، ونظير سليم ووجدان صاف. وفيها، فوق ذلك جميعاً هذا التعقّف عن الطعن والمذمة، وهذا الاحترام العميق لكرامة الإنسان، الباديان في قوله «إنّها درعي ولم أبغ ولم أهب» ^(٢) فهو واثق أن هذه الدرع له، وأنّ خصمه قد سرقها. ولكنه لم يشأ أن يجرح كرامة هذا الخصم فيقول مثلاً: إنّها درعي وقد سرقها. فاكتمى بأن يقول: إنه لم يبعثها ولم يهبتها! والدرع التي لم تبغها ولم تهبتها ثمّ تجدها عند إنسان آخر، درعٌ مسروقةٌ بلا شك.

وأروع من هذا المثل في المساواة أمام القضاء، مثّل آخر ضربّه عليّ نفسه في خلافة عمر بن الخطّاب. فقد شكّا أحدُ الناس عليّاً إلى عمر بن

(١) راجع ص ٩٢ من هذا الكتاب (بحث الخلق العظيم).

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ٢ / ١٠٥.

الخطّاب في خصومةٍ ، وكان عمر خليفة. فأحضرهما وقال لعلّي : قف يا أبا الحسن بجانب خصمك ! فبدا التأثر على وجه عليّ. فقال له عمر : أكرِهتَ يا عليّ أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال عليّ : « لا يا أمير المؤمنين ! ولكني رأيْتُك لم تُسوِّ بيني وبينه ، إذ عَظَمْتَني بالتكنية ولم تُكُنّه ».^(١)

وفي قول عليّ هذا ، الغاية التي لا غاية بعدها في الشعور العميق بالمساواة بين الناس. وفيه الغاية التي لا غاية بعدها في الشعور العميق ، بما قد يُساور أحد المتقاضيين من شعورٍ خفيٍّ بالهوان والمذلة ساعة يحس أن في القضاء أدنى إيثارٍ لإنسانٍ على إنسان ، وأن لدى القاضي شعوراً سابقاً بقيمة خصمه. وفيه ما يجمع ذلك كله ويزيد عنه ، ألا وهو الخلق العظيم : مصدر كلّ قضاء شريف. عمل عليّ بهذه النزعة التي تدلّ على إيمانه ؛ بأن رئيس الدولة نفسه ليس بفوقٍ أن يمثل أمام القضاء ، ولا بفوقٍ أن يساوي رجلاً عادياً أمام القاضي ، ولا بفوقٍ أن يقبل الحكم عليه. فالقضاء في مذهبه ليس مؤسسة تُضاف إلى سائر المؤسسات التي أنشأها الأقوياء لأكل الضعفاء ، والظالمون لإرهاق المظلومين ، وأصحاب السلطان لأخذ السبيل على الناس بالعدوان والتنكيل. عمل بهذه النزعة ، ووضع قواعد وقوانين تحمل القضاة على أن يحتذوا ^(٢) خطاه في التسوية بين الخلق ؛ حتى أنه لم يهمل في ذلك كبيرةً أو صغيرةً إلا أشار إليها.

من ذلك أنه أوصى الأشر النخعي في عهده إليه - وهو عهدٌ بمثابة القانون والدستور - قائلاً: «واشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكوننّ

(١) شرح نهج البلاغة : ١٧ / ٦٥ ، مناقب الخوارزمي : ٩٨ .

(٢) يحتذوا : يتبعوا ، يقتدوا. انظر كتاب العين : ٢٨٤ / ٣ ، مادة «حذو».

عليهم سباً ضارياً تغتتم أكلهم»^(١). و «انصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعتك ، فإنك إلّا تفعل تظلم. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نعمته من إقامة على ظلم»^(٢). و «ليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعظمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية»^(٣). و «اجعل لذوي الحاجات منك قسماً تُفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عامّاً ، وتُعيد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرطك ؛ حتّى يكلمك مُتكلّمهم غير مُتّنعٍ»^(٤) ثم احتمل الخرق^(٥) منهم والعي^(٦) ونحّ عنهم الضيق والأنف^(٧)»^(٨).

وليست بنا حاجة للإشارة إلى ما في هذه الوصايا من قواعد تصحّ ولا يصحّ سواها في التسوية بين الناس أمام القضاء. فلا خاصة أمام القضاء ، ولا أهل ولا أقارب ولا أصحاب نفوذ وسلطان ، بل بشر متساوون. ولا هوى يشدّ صاحب القضاء إلى هنا أو هناك ، بل نظر سليم وحكم عادل.

وليست بنا حاجة كذلك للإشارة إلى ما في هذه الوصايا من حنان عميق ومن عطف كثير على البشر، ممّا ينزع عن وجه القضاء العُبوس والتقطيب ، وينزع من كلمة القاضي الجفاف والقسوة ، فإذا القضاء رحمةً بالناس ومحبةً لهم ، وتصريف عادل خيّر لشؤونهم. وإذا القاضي أخّ رحوم عطف لطيف ،

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٨ .

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ١٧ .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٢٠ .

(٤) التمتع في الكلام : التردد فيه من عجز وعي ، والمراد : غير خائف . انظر الصحاح : ١١٩١/٣ .

(٥) الخرق : العنف ، خذ الرفق .

(٦) العي : العجز عن النطق .

(٧) الأنف : الاستكفاف والاستكبار .

(٨) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ١٠٩ .

لا سبغ ضارٍ ولا وجهٌ متجهم. وإذا الناس لديه آمنون مطمئنون ، يتكلمون بحريةٍ ويقولون على مهل ، وهم واثقون بأنَّ صاحب الحق سينتهي إليه حقه ، لا حراس فوق رؤوسهم يُخيفونهم ولا شرط ولا أعوان ، ولا هم خائفون ولا عاجزون عن النطق بفعل هذا الخوف ، وكيف يتساوى الناس أمام القضاء وفيهم من يعجز عن النطق رهبةً أو خشيةً؟

وليست بنا حاجة كذلك للإشارة إلى هذا الإمعان في الرحمة بالمقاضين ، إذ يأمر عليُّ القضاة - أو العمال ساعة يقضون - بأن يحتملوا العنف والعِي من المتقاضين المتساوين ، فلا يستكبرون ولا يستنكفون ، ولا يسخطون ولا يثورون. بل إنه يحتمل القضاة مسؤولية الاستكبار والسخط إذا هم لجأوا إليهما تحت أعين المتقاضين ، تمكيناً لهؤلاء من ألا يستشعروا سخط القاضي فيجبنوا ويخافوا ، وتمكيناً للقضاة من أن يحكموا بعذلٍ، فلا تكون لسورة الغضب يدٌ في الحكم من ذلك ما أمر به شريحاً القاضي، إذ قال له : «لا تُسارَ أحداً في مجلسك ، لأنَّ في هذه المسارة ما يُشعر أحد المتخاصمين بأنَّ للقاضي هوئ في خصمه، ومثل هذا الشعور يؤدي الاطمئنان إلى المساواة ، وإن غضبتَ فقم ، ولا تقضين وأنت غضبان!»^(١).

وإذا امتلأ قلب القاضي بالرحمة كما يريد علي - لأنَّ القضاء في نظره إنصافٌ لمظلوم ورحمةٌ بالناس وحكمٌ بحق - فما عليه إلا أن يُشعر المتقاضين بأنهم سواء لديه ، وبأنه إنما يقضي بينهم بالرحمة. لذلك يجب ألا يقضي وهو غضبان - كما مر بنا - وألا يجلس إلى القضاء إلا وعلى وجهه بشاشة. وإن هو ضحك لخصم ، فعليه أن يضحك للخصم الآخر ، ليساوي بينهما حتى في

(١) تهذيب الأحكام : ٦ / ٢٢٧.

أبسط الأمور. فالمساواة بين الناس لدى القاضي يجب ألا تكون بقضائه فقط، بل بمجلسه وبوجهه حتى لا يطمع قوي في حيفه، ولا ييأس ضعيف من عدله. يقول علي مخاطباً من يجلس للناس مجلس القضاء: «اخفُض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وأبسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمح الأقوياء في حيفك»^(١) ولا ييأس الضعفاء من عدلك»^(٢).

ويتجاوز علي ذلك إلى تخصيص نصوص في ضرورة الانتصاف من ذوي الوجاهات الذين كانوا يحسبون أن القضاء مؤسسة خاصة بهم؛ وأن القضاة في خدمتهم، وأنهم غير متساوين بالعامة أمام الحق. وقد مرّت بنا نصوص توجّه بها إلى الأشر النخعي في هذا الشأن. ونزيد عليها الآن هذا الأمر الذي أصدره إلى شريح القاضي، قال: «انظر إلى أهل الملك والمطل من أهل اليسار، فخذ للناس بحقوقهم منهم وبغ فيها العقار والديار»^(٣).

فهذا علي الذي رأيناه يأمر ولاته بآلا يأخذوا الخراج من الناس إلا إذا كانوا قادرين، وبآلا يقسوا على أحد منهم، وبآلا يبيعوا لهم شيئاً من الأشياء؛ استيفاءً لما يترتب عليهم دفعه من مال هذا الخراج، نراه الآن، وقد هاله فجور طبقة الوجهاء، كما هاله استكبارهم ورغبتهم عن أن يتساووا مع جميع الناس أمام القضاء العادل، يأمر قاضيه بأن يحملهم قسراً على الاعتراف بهذه المساواة، كما يأمره بأن يسترجع بالقوة ما اغتصبوه من حقوق العامة، ويبيع لهم عقارهم وديارهم انتصافاً منهم للمظلوم. وهم الظالمون.

(١) الحيف: الحكم بالظلم.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٢٧ - ١.

(٣) الكافي: ٤١٢ / ٧، وفيهما وفي أغلب المصادر: «أهل المعك» بدل «أهل الملك».

ولا تظنن أن علياً يجور على هؤلاء الوجهاء ساعة يأمر القاضي ببيع عقارهم وديارهم بحقوق العامة. فإذا كان بين هؤلاء من لا يملك عقاراً ولا داراً ولا مالاً، فالحكم عليه ألا يظلم ولا يُظلم. لذلك يستدرك عليّ بعض أمره إلى القاضي فيقول في شأن هؤلاء الوجهاء : «ومن لم يكن له عقارٌ ولا دارٌ ولا مال، فلا سبيل عليه»^(١).

وقد سبق لنا أن قلنا : إن المساواة أمام القضاء قد تعطل إما بنص صريح يميز طبقةً من البشر عن طبقة ، وإما بالتواء القاضي وانحرافه عن الطريق المستقيم. فالقضاء قانونٌ أولاً ، وقاضٍ يحكم بموجبه ثانياً. أما المساواة أمامه بين جميع الناس ، فقد تكلّمنا عليها ، وبينا كيف جعل عليّ هذه المساواة قاعدة أساسية في القضاء لا يجوز الانحراف عنها كثيراً أو قليلاً : فالناس أمام القضاء متساوون ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا بين جنس وجنس ، ولا بين دين ودين.

أما في ما يختص بالقاضي نفسه، فإن علياً وضع لصلاحه واستقامته وتسويته بين الناس شروطاً لا تقلّ في أهميتها - من الناحية العملية - عن شروط المساواة في المبدأ. ولنر ما فعل:

درج الحكام القدماء في الشرق والغرب على تولية القضاء رجالاً ذوي صفاتٍ، تُعينها مصالح هؤلاء الحكام بأوسع معانيها، ومصالح الطبقات التي تتبادل مع حكام هذه المصالح، حتى إذا ساوى القانون بين طبقات الناس عطل القاضي هذه المساواة ، وحكم بهوى الحكام وأصحاب الامتيازات. وتاريخ أوروبا في القرون الوسطى يفيض بأخبار هذا النوع من القضاة.

(١) الكافي : ٤١٢ / ٧ ، تهذيب الأحكام : ٢٢٦ / ٦ ، وسائل الشيعة : ٣٤٣ / ١٨ ، و ٣٠٨ / ١٧ .

وكذلك تاريخ الشرق العربي أيام الأمويين والعباسيين والمماليك والأتراك وغيرهم. وإنّ الجرائم التي ارتكبتها القضاة المنحرفون هنا وهناك باسم العدالة لمّا يُخزي جبين الإنسانية ، ويستوجب اللعنة على رؤوس أولئك القضاة. فالجريمة التي تُقترف بحق أحد الناس، أو بحق جماعة من الناس باسم السياسة أو بتدبيرٍ سياسي، هي أخفّ وطأةً على النفوس - بالرغم من شناعتها - من تلك التي تُقترف باسم العدالة ، ويحكم بها قضاة هم المرجع الأخير للقانون وللضمير معاً.

وماذا فعل عليّ بصدد القضاة؟ وما هي القواعد التي ركّزها ليحول دون الغبن يلحق بالناس عن طريق القاضي ، كما حال دون هذا الغبن يلحق بهم عن طريق القانون؟

كان الشرط الأول الذي يجب أن يتوفر في شخص القاضي في دستور ابن أبي طالب الكفاءة العلمية، فبدون هذه الكفاءة يضطرّ القاضي إلى أن يحكم: إمّا بعلمه المحدود وإمّا بهواه، وكلاهما لا يكفي لأن يُقيم حدود المساواة بين الناس.

فالكفاءة العلمية تعني أولاً: استناد القاضي إلى خبرة الأجيال التي سبقته وإلى علوم الأوّلين والمعاصرين ، وإلى القوانين والشرائع التي اشتغلت في وضعها عقولٌ فذة، يتفوّق أصحابها على هذا القاضي بما درسوا وبما اختبروا . وبما جمعوا ، ثم بما أبدعوا ، ويدفعون إليه بنتاج عقولهم واختباراتهم ؛ لتكون قانوناً يسير عليه وهدياً يهتدي به. والكفاءة العلمية تعني ثانياً: استناد القاضي إلى قوانين موحدة يُعمل بها في أنحاء البلاد جميعاً . فلا يُصدر قاضي البصرة - مثلاً - حكماً في قضية يكون حاكم الكوفة قد أصدر

حكماً معارضاً له في قضيةٍ مشابهة لها ، ويكون حاكم المدينة قد أصدر كذلك حُكماً ثالثاً ، لا يتفق مع واحدٍ من هذين في أساسٍ ولا في فرع. وحين يتولى القضاء رجلٌ لا كفاءة علمية عنده ، لا يلبث أن يصبح آلةً للفساد والشر ، مهما كانت القوانين صالحة وعادلة بحكم جهله هذه القوانين.

وعليّ الذي يقول لكافة الناس: «أقلّ الناس قيمةً أقلّهم علماً»^(١) ، والذي يقول كذلك: «ما من حركةٍ إلّا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة»^(٢) أو يقول: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه»^(٣)، أحرى به أن يطلب مثل هذا العلم ممن يعدّ نفسه لمنصب القضاء؟ ولذلك يقول: «مَن أفنى الناس بغير علم لعنته الأرض والسماء»^(٤). ويهاجم في القاضي الجاهل جهله فيقول: «وآخر قد تسمّى عالماً وليس به. فافتبس جهائل من جهال ، وأضاليل من ضلال ، ونصب للناس شركاً من حبال غرور وقول زور. يؤمن من العظام ويهون كبر الجرائم ، يقول: أقف عند الشبهات»^(٥) وفيها وقع. فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان!»^(٦).

ويقول في مكان آخر ، في القاضي الجاهل الذي أوصلته إلى منصب القضاء أمورٌ غير الكفاءة :

«.. قد سمّاه أشباه الناس عالماً وليس به. فاستكثر من جفع ما قلّ منه خيرٌ ما كثر»^(٧)

حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجن واكتنز من غير طائل جلس بين الناس قاضياً ضامناً تخليص ما

(١) ينابيع المودة للقندوزي: ٤١٦/٢، كنز الفوائد للكرامكي: ١٣٨.

(٢) تحف العقول: ١٢٧، مستدرک الوسائل: ٢٦٨ / ٧.

(٣) المحاسن: ٢٣٠ / ١ ، من لا يحضره الفقيه: ٣٩٥ / ٤ ، الخصال: ٥.

(٤) الحديث نبوي في مسند زيد: ٤٤٤.

(٥) الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيه.

(٦) نهج البلاغة: الخطبة ٨٧-١٠.

(٧) أي: استكثر من جمع معلومات تافهة ، قليلها خير من كثيرها.

التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ حشواً رثاً من رأيه ثم قطع به. فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت»^(١).

فالكفاءة شرطٌ أساسي في من يجب أن يتولى القضاء في دستور عليّ. والقاضي يجب «ألا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه»^(٢)، وأن يقف عند الشبهات، فلا يحكم إلا وقد دلّه علمه على أصل الحادثة الصحيح، بعد الصبر الطويل على تكشّف الأمور، وبعد الأخذ بالحجج والمقاييس.

ولقيام هذه الحجج والمقاييس قياماً صحيحاً، كان يشترط على القاضي العالم ألا يسمع الدعوى لأحد الخصمين إلا بحضور الخصم الآخر، ليجيب عما اتهم به فتتعدل كفتا الميزان وتبين الحجة. وكان عليّ يجمع القضاة والفقهاء بين حين وحين؛ ليوحد الأسس التي تقوم عليها الأحكام في كافة الأمصار، ويجعل كلاً من القضاة على علم واسع بما بلغ إليه الاجتهاد. وكان يقول: «ترد على أحدهم القضية في حكمٍ من الأحكام، فيحكم فيها برأيه. ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه. ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً»^(٣).

والشرط الثاني الذي يجب أن يتوفر في شخص القاضي في دستور ابن أبي طالب شرطٌ خلقيّ، لا ينفع وجود الشرط الأول بدونه. وقد عرفنا أنّ عليّاً يبت حرارة الحنان ودفع القلب في كلّ ما يعمل ويقول ويشترع. وهو يريد مثل هذه الحرارة وهذا الدفع في شخصيّة القاضي شريطة أن يكونا فيه طبعاً لا كلفةً. فإذا توفر العلم والكفاءة في رجلٍ ما، ولم تتوفر فيه المزايا الخلقيّة

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٧ - ٦.

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٦٧.

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٨ - ٢.

الكريمة، فَإِنَّ عَلِيًّا يَمْنَعُهُ مِنْ تَوَلَّى الْقَضَاءِ. وقد فصل هذه المزايا في عهوده ووصاياه جميعاً، وفي دستوره إلى الأشر النخعي بصورة خاصة.

وقد اشترط عليّ في القاضي : سعة الصدر ، وضبط النفس ، وبشاشة الوجه ، وطيب القلب ، وسلامة الوجدان والرفق بالمتخاصمين ؛ حتى ولو أسمعوه كلاماً عنيفاً يضيق به الصدر. ويضع عليّ الرفق بالناس موضعاً عظيماً فيقول : «الرفق رأس العلم»^(١). كما اشترط فيه الحب المطلق للعدالة ، والميل الأصيل إلى رفع الظلم ، وعدم التسرع في الحكم ، وعدم الغضب ، والتبصر في الأمور تبصراً طويلاً ، وألا يُشرف على طمع ، وألا يخشى في الحق أحداً ، وألا يكون فيه حنينٌ إلى الخطوة لدى الوجهاء. يقول في عهده إلى الأشر النخعي :

«نَمِ اخْتَرْ لِلْحَكَمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورَ وَلَا تُمَحِّكُهُ^(٢) الْخُصُومَ ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الزَّلَّةِ ، وَلَا تُشْرَفُ نَفْسُهُ عَلَى مَطْمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ. وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَآخَذَهُمْ بِالْحَجَجِ ، وَأَقْلَمَهُمْ تَبَرُّمًا بِمِرَاجِعَةِ الْخُصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشِفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحَكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ ، وَأَوَّلُكَ قَلِيلٌ»^(٣). ويشترط عليّ في القاضي كذلك : أن يكون مسلكه في الناس مثلاً يُقتدى ، قائلاً للقاضي شريح : «واعلم أنه لا يحملُ الناسَ على الحقِّ إِلَّا مَنْ وَزَعَهُمْ - بسيرته - عن الباطل»^(٤). وأن يُعين على الحق أبداً ، وأن يرد الجور أبداً ، وألا يستثقل كلمة الحق تُقال له : «رَجِمَ اللَّهُ أَمْرًا رَأَى حَقًّا

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ، رقم : ٥٢٢٤ ، وجاء فيها : رأس العلم الرفق.

(٢) تمحكه : تضيق خلقه.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٦٩.

(٤) من لا يحضره الفقيه : ١٥ / ٣.

فأعان عليه ، أو رأى جوراً فَرَدّه ، وكان عَوْناً بالحقّ على صاحبه ، ومن استثقلَ الحقّ أن يقال له أو العدل أن يُعرَضَ عليه ، كان العملُ بهما أثقلَ عليه»^(١).

وبعد أن تتوفّر في القاضي هذه الشروط العلمية والخلقية التي لا بُدّ من توفرها لدى من يُؤلّى هذا المنصب الخطير، يأخذ عليّ السبيلَ عليه كي لا يضطرّ إلى الانحراف. ولم يضطرّ القاضي إلى الانحراف وهو بهذا العلم وهذا الخلق؟

إنّ عليّاً يدرك طبائع البشر - كما تدلّ سيرته وأقواله - كما يدرك طبائع التعامل بين الناس ، ومتى يستقيمون وكيف ينحرفون. وبهذا الإدراك توصّل إلى ضبط حقيقتين بالنسبة إلى اضطرار القضاة إلى الانحراف، أولاهما : ضغط السلطة التنفيذية عليه حتّى تحمله حملاً على ما تريد تحت طائلة النيل من الكرامة ، أو العزل أو العقاب أو القتل. وثانيهما : الحاجة إلى المال التي تضطرّه أحياناً إلى أن يميل بحُكمه حيث يُفقد. فهذان السببان قد يدفعان القاضي إلى أن يلقّق أحكاماً لا تقوم على أساس المساواة بين الناس، فيُظلم خلقٌ ويبطر آخرون. فإذا بعليّ يقضي على هذين السببين في الحال ، لا بالنصيحة والوعظ والتخدير فحسب ، بل بوضع قانون يستأصل السببين المذكورين من الأساس، إذ يقضي بحماية القاضي من طغيان السلطة التنفيذية ، ويقضي الحاجة التي قد تدفعه إلى الانحراف.

فالقاضي في نظر عليّ وفي الواقع إنسانٌ يخاف السلطة القائمة ، كما يخافها أيّ إنسان آخر إذا لم يتحصّن - عملياً - دونها. ولنا في تاريخ القضاة أيام بني أميّة والعباسيّين والأتراك ، ألف دليلٍ على قضاة شرفاء لم ينحرفوا،

فيعطّلوا المساواة بين الناس إلّا خوفاً من العقاب. فالقاضي ، كسائر الناس ، يخاف أن يُنهب ماله إذا غضبت عليه السلطة التنفيذية. ويخاف أن يُهدّر دمه. ويخاف أن يُقتل. ويخاف كذلك أن ينال الوجهاء من كرامته ويعتدوا عليه ؛ إذا حكم عليهم لمظلومٍ أو لغير وجيه. ويخاف - على الأقل - أن يُعزل من منصبه.

وتحت هذا الخوف قد ينحرف مهما كان خُلُقُه كريماً ، فيُصبح مرغماً وسيلة انتقامٍ من الفقراء والضعفاء ، وأداة تحكّمٍ برقاب العباد وأرزاقهم وحقوقهم ، من جانب الأغنياء والأقوياء.

وكانت السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، موحدة غير منفصلة في زمن عليّ. فإذا به يخطو خطوةً مبدئيةً إلى فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ، كي يُكسب القضاة حصانةً ويؤمنهم من عقاب السلطة ، فيكتب في عهده إلى مالك الأشتر ، يقول :

«واعطيه - أي القاضي - من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ؛ ليأمن بذلك اغتيالَ الرجال له عندك. وانظر في ذاك نظراً بليغاً...»^(١).

وبهذا يكون عليّ قد قضى على السبب الأول من أسباب انحراف القضاة، إذ خطأ هذه الخطوة المبدئية نحو فصل القضاء عن السلطة التنفيذية. كي لا يتأثر القضاة بأصحابها. وفضل القضاء عن السلطة التنفيذية هو من قوانين المدنّيات الحديثة ؛ لأنّ فيه سبباً من أسباب التسوية بين البشر أمام قضاءٍ يتولاه عالمٌ ، ذو خلق كريم ، متمتع بالحصانة.

أما السبب الثاني الذي قد يضطر القاضي إلى الانحراف ، وهو الحاجة ،

فقد عالجه عليّ فأحسن العلاج. وعليّ الذي أدرك أنّ «الفقر هو الموت الأكبر»^(١)، يدرك أنّ هذا «الموت الأكبر» قد يلفّ بجناحيه القاضي، كما يلفّ سواه. فإذا به يؤمنه اقتصادياً كي لا يطمع برشوة ولا يساير في سبيل منفعة. فيقول في عهده إلى الأشتر هذا القول الصريح: «وافسخ له - أي القاضي - في البذل ما يزيل علته، وتقلّ معه حاجته إلى الناس!»^(٢).

ثم إن القاضي قد ينحرف، بالرغم من كل أسباب الوقاية التي أحاطه بها عليّ في دستوره، بسبب واضح أو خفي. وعند ذاك تتولّى السلطة العليا مراقبته، والنظر في أحكامه ومراجعتها في ضوء العقل والوجدان. وهكذا يجعل عليّ السلطة مسؤولة عن أن تتعهد القاضي بالتفتيش، قائلاً لممثل هذه السلطة: «ثم أكثّر تعاهد قضاائه»^(٣).

وإذا عجز القاضي في خاتمة الأمر، عن أن يحكم بالعدل بين الناس، وأن ينتصف للمظلوم من ذوي الوجاهات والنبلاء والمعتدين بمولدهم، أو بما صاروا إليه، أو إذا عجز عن الحكم بالعدل ساعة تقع الخصومة بين أحد العامة وبين الوالي نفسه وقد يكون باغياً أثيماً، فإلام يؤول الأمر؟

لقد وقف عليّ هنا موقف العازم الحازم الذي يأبى على العدل أن ينكس رايته، وعلى المساواة أن يجوز عليها الظالم الباغي بما لديه من نفوذ الولاية أو الجاه، فأعمل فكره وقلبه ليفتح باب المساواة أمام القضاء على مصراعيه، فيدخله كل من ظلمه الولاية والحكام فتقر عينه ويُنصف، ويحس أنه مساوٍ - عملياً - لهؤلاء الولاية والحكام أمام العدالة. فإذا به يُبدع ما أسماه «النظر

(١) نهج البلاغة: قصاص الحكم ١٦٣.

(٢) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣ - ٦٩.

(٣) نهج البلاغة: الكتاب ٥٣ - ٦٩.

في المظالم» وهو مجلس يجلسه رئيس الدولة نفسه ؛ ليرفع إليه الذين بَغَى عليهم الولاة والأمراء ظلامتهم وشكاويهم.

وكان الناس يتوافدون عليه إذا جلس للنظر في المظالم. وكانوا يتوافدون عليه في ساعات راحته الخاصة، فيبش لهم في الحالين ، ويكرمهم ويستمع إلى ظلامتهم فيرفعها من فوره لا إبطاء ولا تأجيل. وكم عَزَلَ من والٍ لاعتدائه على أحد الناس ولو أقل اعتداء؟ وكم هَدَد من والٍ بالعزل بظلامةٍ يرفعها أحدهم إليه؟ وكم وِتَخ من والٍ أشد توبيخ ؛ لَمَّا بَدَرَ منه من ميلٍ إلى الاستعلاء على الناس ، أو إلى بخسهم أشياءهم؟ وقد مرّ بنا ما روثه إحداهنّ : - سودة بنت عمارة الهمدانية^(١) - ساعة جاءت إلى عليّ تشتكي من رجلٍ ولّاه إمارة الصدقات. ولم يكن اليوم ولا الساعة للنظر في المظالم، فأقبل عليها عليّ ببشاشة ، وقال لها بعطف ورأفة : «ألك حاجة؟» فأخبرته خبر أمير الصدقات، فبكى وقال : «اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك!». ثم أخرج من جيبه ورقة فكتب فيها : «.. أوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين! إذا أتاك كتابي هذا فاحفظ بما في يدك ؛ حتّى يأتي من يقبضه منك والسلام»^(٢). وكان يردّد كلما ذكر له الولاة الظالمون الذين بغوا على الناس ، وأكلوا حقوقهم، فما استطاع قاضٍ أن يكفّ عن الخلق طغيانهم وجورهم ، فعَزَلهم هو وأقصاهم ، وردّ مظالمهم عليهم : «بُعداً لهم وسحقاً!»^(٣).

وقد عرفنا هذه الوظيفة القضائية في العهد الفاطمي في مصر باسم :

(١) شاعرة من شواعر العرب ، ذات فصاحة وبيان ، كانت تحضّ الرجال على القتال في صفين ، وفدت على معاوية ، ورثت أمير المؤمنين (أعلام النساء: ٢ / ٢٧٠).

(٢) كشف الغطة للأربلي : ١ / ١٧٣.

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٧٠ - ٣.

«ولاية المظالم»، ودُعي قاضيه باسم : «قاضي المظالم». وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمي نفسه يشغل هذه الوظيفة.

وتتصل أسباب العدالة العاقبة بأسباب العطف ؛ اتصالاً قوياً مُحكماً في قضاء عليّ. فإذا هو أسبق القضاة الحكماء إلى إقرار ما نسمّيه اليوم بالحقّ العامّ ، الذي هو من خصوصيات النيابة العاقبة. وفي ذلك ما فيه من مراعاة لفكرة العدل بين الناس ، وفكرة المساواة ، على صعيدٍ يُرفع لكرامة الإنسان وقديسة حقوقه ، دونما نظرٍ إلى موقف الجانبين المتقاضيين. وفيه ما فيه من لفت أنظار الناس إلى واجباتهم نحو المجتمع الذي يعيشون فيه ، ونحو إخوانهم الذين يعايشونهم بالمساواة. وفيه كذلك صائبُ النظر إلى المجتمع على أنّه : وحدةٌ يرتبط فيها الأفراد بقوانين عاقمة ، واحترام متبادلٍ يعود الأمر فيه إلى المجتمع نفسه لا إلى الأفراد المتقاضين وحسب. فإثباتاً لهذه القوانين ومراعاةً لوضع المجتمع كوحدةٍ متعاونةٍ متساوية في الحقوق والواجبات وَضَعَ عليّ في قضاائه هذا الأصل الذي تعتمد عليه الشعوب المتحضرة اليوم في قضائها :

فقد سمع عليّ في إحدى الليالي صوتَ مستغيثٍ يدعو من يجيره ، فهرع إليه بنفسه يجري ويقول : «أتاك الغوث!» ، ثم ما لبث أن رأى رجلاً يُمسك برجلٍ آخر إمساكاً شديداً فما أقبل عليّ حتّى خلاه وقال : يا أمير المؤمنين! بعث هذا الرجل ثوباً بتسعة دراهم ، فأعطاني دراهم على غير الشرط، ثم لما طلبتُ إليه استعاضةً غيرها أبى ، ثم شتمني ولطمني لطماً موجعاً. فقال عليّ للمشتري : أبدلها له! ثم قال للمدعي : أين يبتئك على اللطمة؟ فجاءه بالبينة، فقال عليّ للضارب المعتدي : اقعذ هنا! ثم قال للمضروب : اقتص منه، فقال :

إني عفوتُ عنه! فأبى عليّ عند ذاك أن يطلب منه لَطَمَ المعتدي وقد عفا عنه^(١). والعفو خطةٌ اختطّها ابنُ أبي طالب لنفسه ، ولزِمَها في حدودها ، وأمرَ بها الناس ، لذلك سرّه من المدّعي أن يعفو عن المعتدي. ولكنّ ذهنَ عليّ الوقاد أشار إليه أنّ هنالك حقّاً عامّاً يجب أن يكون بالضرورة ، وأن يكون من شأنه معاقبة الآثم والمعتدي والمغتصب أياً كان ؛ محافظةً على صحّة العلاقات بين أفراد المجتمع ، ودفعاً للتفكير ثانيةً بهذر الحقوق. ولا شكّ في أن عليّاً قد ذكر في تلك الدقائق أنّ هنالك أقوياء من كلّ صنفٍ يعتدون ويغتصبون ويأثمون ، ولا يستطيع المظلومون بهم أن يقاضوهم عند ذاك ، إمّا لخوف في قلوبهم مستحکم ، وإمّا لغير ذلك. فهل تُهدّر حقوق المستضعفين إذًا؟ ومَن يكون مسؤولاً عن حماية هؤلاء حتّى وإن لم يرفعوا ظلامتهم إلى القضاء؟ ومَن يتولّى المحافظة على حقوقهم في مثل هذه الحال ، ويجعل في قلوبهم الاطمئنان، إلى أنّهم يعيشون في مجتمع يكون فيه الناس سواسيةً ، لا فرق بينهم في الحقوق العامة؟ وقد يَأْثُمُ أَحَدُ هؤلاء الغاصبين، فيقتل إنساناً ليس له قريبٌ أو وريث يطلب عدلاً بقتله ، فهل يذهب عند ذاك حقّه كإنسانٍ كان حيّاً وكان يجب أن يحيا ملءَ حياته؟

وهكذا خَلَى عليّ المعتدى عليه ، وأمسك بالضارب المعتدي على مشهدٍ من المضروب الذي عفا عنه ، وَلَطَمَهُ بيده تسعَ مرّاتٍ وقال : هذا حقّ السلطان .

وعليّ الذي رأيناه هنا يضرب معتدياً عفا عنه خصمَهُ أخذاً بالحق العام ، نراه في مكانٍ آخر يعطلّ الحَدَّ المقرّر فلا يُقيمه على زانيةٍ اعترفت بما فعلتْ ؛

ملاحظاً الظرف وملتفتاً إلى الضرورة. ومن أخباره الدالة على أنّ القضاء لديه عدلٌ ورحمة وانتصاف واحتكام إلى المنطق والوجدان ، لا قانونٌ جافٌ خالٍ من الروح يأخذ الأحياء ، كما يأخذ جمادات الطبيعة بالأرقام وما إليها ، هذا الخبر الذي رواه البيهقي في «السنن» قال :

أتى عمر بن الخطاب في خلافته بامرأةٍ جهدّها العطشُ ، فمرت على راعٍ فاستسقت ، فأبى الراعي أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ، ففعلتْ ، فشاور عمرُ الناسَ في رجمها ، فقال عليّ : هذه مضطرةٌ أرى أن يُخلى سبيلُها ، ففعل. (١)

ونظرة عليّ هذه هي نظرية الضرورة في القانون الجنائي الحديث. وهي نظريةٌ تجعلُ للقوانين وللأحكام الصادرة عنها طابعاً إنسانياً بعيداً عن الجفاف. ومن أعمال عليّ لجعل الناس سواسيةً أمام كلِّ قانون ، ولأخذ أهل الريبة بما يفعلون ، ثم لإثبات نظرية الحق العام، أنه استحدث في أجهزة الدولة جهازاً خاصاً يكون عيناً للقانون وعوناً للقاضي، وهو جهاز الشرطة الذي حوّله الأمويون والعباسيون وغيرهم فيما بعد إلى أداة انتقام، تديرها أيديهم في الخفاء وفي العلانية ضدّ خصومهم الأبرياء. وكلّ ما كان يُعرف قبل عليّ في هذا الموضوع ، وهو نظام العَسَس الذي أوجده عمر بن الخطاب. وهو الطواف ليلاً للبحث عن أهل الريبة.

وكان عليّ من الرحمة بحيث كان يحسن معاملة من تجري عليهم أحكام القضاء بالسجن. وهو أوّل من أجرى على أهل السجون ما يكفيهم من الرزق والكساء شتاءً وصيفاً. فإذا كان لواحد منهم مالٌ أنفق عليه من ماله، وإن لم يكن

له مالٌ أنفق عليه من بيت مال الأمة. وكان فوق ذلك يأذن لأهل السجن بأن يخرجوا منه أوقاتاً محدّدة؛ كي لا يبقى أحدٌ منهم في هوان الأسر طوال نهاره. ونحن اليوم نجد الإنفاق على أهل السجن أمراً عادياً؛ لأنّ أَلْفَنَاه بعد زمن الثورة الفرنسية، غير أنّا حين نعرف كيف عامل الأمويون والعباسيون - مثلاً - أهل السجن فيما بعد، وما كان هؤلاء يلقونه من الضرب والإهانة والتقييد بالأغلال والإرهاق والعنت والجوع والعري في أيام الدولة العبيدية في مصر وفي القرون الوسطى بأوروبا، وكيف كانت السجنون: «الداخل لها مفقود والخارج منها مولود»، ندرك قيمة ما عمله عليّ في هذا الشأن، كما ندرك مدى الرحمة التي كانت تعمر قلبه. وبعضُ دليلنا على ذلك ما يرويه المقرئزي إذ يصف السجنون وأهلها في زمانه - في القرن الخامس عشر - يقول:

«وأما الحبس الآن فإنّه يجمع الكثير في موضع يضيق عنهم. يؤذيهـم الحزّ في الصيف والبرد في الشتاء. يخرجون مع الأعوان في الحديد وهم يصرخون في الطرقات من الجوع! وجميع ما يُجمع لهم من صدقات الناس، يأخذه السجّان وأعوان الوالي. وهم مع ذلك يُستعملون في الحفر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة، والأعوان تستحثهم، فإذا انقضى عملهم ردّوا إلى السجن في حديدهم، من غير أن يُطعموا شيئاً.

وهكذا يكون عليّ قد سبق إنسان العصور الحديثة إلى خلق أربع وظائف قضائية أساسية؛ تركيزاً لعدالة القضاء، وتمكيناً للناس من أن يطمئنوا إلى أنّهم متساوون جميعاً أمام القاضي. أمّا هذه الوظائف، فأولها: الخطوة إلى فصل القضاء عن السلطات الباقية. والثانية: التفتيش القضائي. والثالثة: ولاية المظالم التي هي بمثابة مجلس الشورى؛ لأنّ أساسهما واحدٌ، وغايتهما

واحدة وإن اختلف الإسمان. فأنت اليوم لا يمكنك أن تطال الحكومة قضائياً أمام القاضي العادي، فتلجأ إلى مجلس الشورى الذي قد يحكم لك على الدولة. وكذلك الرجل القديم، فإنه لم يكن يستطيع أن يطال الوالي أو الحاكم قضائياً أمام القاضي العادي؛ حتى أوجد له علي «ولاية المظالم» التي قد تحكم له على الوالي: ممثل الدولة. والوظيفة الرابعة: النيابة العامة.

وهكذا يكون علي قد سبق إنسان العصور الحديثة، كذلك إلى نظرية «الضرورة» التي تعتمد القوانين الجنائية الحديثة. وإلى مبدأ «التأمين الاقتصادي» الذي يجعل القاضي في منجى من الانحراف بالرشوة، كما أوجد وظيفة الشرطة لتكون عوناً للقضاء في وضع الناس أمام القانون صفاً واحداً. هذا في ما يخص المساواة أمام القانون والمساواة أمام القضاء. ولنتحدث الآن عن المساواة في الضرائب ثم في الوظائف:

إن الضرائب بوصفها مالاً أو متاعاً يفرضه غازٍ على مغزوّ، أو حاكمٌ على محكوم، أو طبقةٌ من الناس على طبقة، أو قانون على جماعة، فيؤخذ قسراً، أو صلحاً أشبه بالقسر، أو حقاً لا يستقيم بدونه مجتمعٌ... هذه الضرائب تؤلف قضيةً رئيسية من قضايا التاريخ التي كانت من أجلها الفتوحات وارتكبت بسببها المظالم، وقامت في سبيلها الثورات، بل لعلها القضية الأساسية التي تستتر وراءها كل القضايا؛ وذلك لاتصالها بالوضع الاقتصادي للأفراد والجماعات.

فالبشر الأوائل، كالكلدان والآشوريين والحثيين، كانوا يخوضون الحروب تلو الحروب، ويدمرون أنفسهم كما يدمرون الشعوب التي يغزونهم، ويقضون أيامهم بين معركةٍ حاضرة، وذكرى معركةٍ سابقة،

واستعدادٍ لمعركةٍ لاحقة ، ولا يستقرّون ساعةً يستقرّ فيها جيرانهم إلا بعد أن يطمئنوا إلى أنهم حاصلون على ضرائب ، فرفضوها على شعبٍ غزّوه ، أو مدينة افتتحوها بعد حصار شديد دام شهوراً أو أعواماً. وحين ترى أنّ الثورة قد أُعلنت عليهم ، هنا أو هناك ، فاعلم أنّ وراءها شدة الدولة في تحصيل الضرائب. وحين ترى في الشعوب المغزوة ميلاً إلى حكومة الغازي ورغبة فيها، فاعلم أنّ هذا الغازي قد أسقط الضرائب عنها.

وكذلك الإغريق والرومان ومن جاء بعدهم من دعاة النصرانية والإسلام الذين بدأوا فتوحاتهم باسم الدين، ثم تحوّلوا إلى حكام يفرضون على الناس الضرائب بأسماء مختلفة ، وأشكال متباينة ، وجوهر واحد ، لا يبعد كثيراً أو قليلاً عن أن يكون ضريبةً من الضرائب.

وكلّ من له أدنى إلمام بالتاريخ يعرف أخبار الضرائب التي كان رجال الكنيسة يفرضونها على الناس تارةً باسم بناء البيع والأديرة ، وتارةً باسم شفاعاة القديسين ، وطوراً باسم الأوقاف أو باسم الصلاة عن أرواح الأحياء والأموات ، وحيازة نعيم الدنيا وجنة الآخرة. وكلّ من له أدنى إلمام بالتاريخ يعرف أخبار الضرائب التي كان حكام المسلمين يفرضونها على الناس ، تارةً باسم الخراج وتارةً باسم الجزية أو الغنينة أو العشور ، أو غيرها من الضرائب التي تختلف عليها الأسماء وهي ضرائب. وليس موضوعنا الآن أن نقدر إذا كانت هذه الضرائب عادلة أو غير عادلة، إنّما موضوعنا هو أن نقدر : أنّ الضرائب كانت قضية رئيسية من قضايا المجتمعات المسيحية والإسلامية، كما كانت قضية رئيسية في المجتمعات القديمة السابقة لهما. ومن أبسط الأدلة على ذلك وأقربها : أنّ الامبراطورية المسيحية في الغرب كانت ترضى عمّن لا يعتنقون مذهبها من الخلق إذا هم دفعوا لها ضرائب «معقولة» ، ومنها

أن كثيراً من ملوك بني أمية وعمّالهم كانوا يرفضون أن يسقطوا ضريبة الجزية عن الأعاجم الذين يُسلمون، وهي مخالفةٌ صريحة لقواعد الإسلام، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، إذ جعلوا الحصول على الضرائب هو الأساس الذي تقوم عليه دولتهم. فالجراح الحكمي أحد عمّال الأمويين على خراسان ، كان يكتب إلى الخليفة متخوفاً من مسارعة الناس إلى الإسلام ، وسقوط الجزية عنهم ، مشيراً إلى أنه يُؤثر أن يدفعوا ضريبة الجزية ويبقوا على دين المجوس. وكذلك كان موقف عدي بن أرطاة عامل ابن عبد العزيز على العراق ، فقد كتب له قائلاً: إنَّ الناس كثروا في الإسلام حتى خفتُ أن يقلَّ الخراج»^(١).

وإنما نعطيك هذه الأمثلة دليلاً على ما كان للضريبة من أهمية في تاريخ الشعوب جميعاً ، ممّا جعل مفكرى الثورة الفرنسية يعاجلون إلى النظر فيها ، ويضعونها موضع القضايا الرئيسية التي يعالجونها ، بصدد بحثهم في المساواة بين الناس. ولا ننس أن عدم المساواة في الضرائب كان من المحركات الرئيسية والمباشرة للثورة الكبرى.

نستطيع استنتاج هذا اللون من ألوان المساواة بين الناس في نهج علي ، من مبدئه العام في المساواة بوصفه بعضاً من كل ، وفرعاً من أصل. فالناس إذا كانوا سواء في الحقوق والواجبات كانوا سواء في الضرائب. وإذا كانت عمارة الأرض - لا تحصيل الخراج - هي همّ الوالي في دستور عليّ إذ يقول : «وَتَقْقَدْ أَمَرَ الخراج بما يُصلح أهله... وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأنّ ذلك لا يُدرك إلا بالعمارة ، ومَن طلبَ الخراجَ بغير عمارةٍ أخرجَ البلادَ وأهلك

(١) للمزيد راجع شرح نهج البلاغة : ١٧ / ٢٠ ، وجواب عمر بن عبد العزيز لعدي بن أرطاة.

العباد»^(١) ، فَإِنَّ المساواة بين الناس في هذه الضريبة أبسط وأيسر. والذي يجعل تحصيل الضرائب مرهوناً بعمارة الأرض أولاً ، وبرخاء الناس والتخفيف عنهم بما يُصلح أمورهم ، فإنه جاعلُ المساواة في هذه الضرائب أصلاً في توزيعها. ولعلَّ ابن أبي طالب يوصي بما هو أكثر وأجمل من هذه المساواة في ما يخصُّ الضرائب : فإذا تساوى الناس في الضرائب بفعل القانون وحسب قد يلحق بعضهم غبنٌ كثيرٌ ، إذ يُفرض عليهم أن يدفعوا هذه الضرائب - وقد سُويَ بينهم فيها - وهم عاجزون عن أن يدفعوها لقلة ما يُنتجون ، ولتقصير هذا الإنتاج نفسه عن أن يسدَّ حاجتهم الضرورية. عند ذاك يجعل ابن أبي طالب تحصيلَ الضريبة مرهوناً بيسر الناس - كما أسلفنا - لا بتطبيق قانون جامد. فعلى الدولة أن تحصل هذه الضرائب ، في دستور عليّ ، ولكنَّ تحصيلها فرعٌ ، أما الأصل فهو العمل على عمارة الأرض ، وإصلاح الوضع الاقتصادي والرحمة بالناس ، حتّى تكون الضريبة فضلاً من ثروة لا قوتاً ينتزع من أفواه الجياع انتزاعاً ، وحتّى تصبح الضرائب عطاءً من الشعب الموسر يُعطى ، لا أخذاً تغتصبه الدولة اغتصاباً ممّن هم أحوج إليه. لذلك يتابع عليّ أمره السابق قائلاً: «فإن شكوا ثِقَلًا^(٢) أو علةً أو انقطاع شربٍ ، أو إحالة أرضٍ اغتمرها غرقٌ ، أو أجحفَ بها عطشٌ ، فخفّف عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلنَّ عليك شيءٌ خففت به المؤونة عنهم!»^(٣).

ثم إنه يزيد فيما مرّ بالآل يؤخذ شيء من الضرائب إلّا من الموسرين ، وأن تسقط عن الذين لا يتمكنون من تأديتها ، وأن يُعملَ على إصلاح حالهم بدلاً

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٨٠ .

(٢) ثقل المضروب من مال الخراج .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٨١ .

من التضيق عليهم. ولما كان عمال بني أمية في أيام عثمان يُرهقون الناس بأمر الخراج فيبيعون لهم عقارهم ، ويخربون ديارهم ويضربونهم تحصيلاً للضرائب ، فقد رأى علي أن تكون القاعدة على العكس من ذلك ، فقال لكل من عماله على الخراج :

«ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها. ولا تضربن أحداً منهم سوطاً لمكان درهم. ولا تُقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرساً في شيء من الخراج. فإنما أمرنا أن نأخذ بالعفو!»^(١).

وهكذا فإن الناس ليسوا متساوين وحسب في الضرائب، بل إن الضريبة لا تؤخذ في دستور علي إلا من الموسر دون المعوز ، وفي حال عمارة الأرض ورضا الأهلين عن أوضاعهم وعن دولتهم. وهذه النظرة نابعة من المفاهيم العلوية العامة لمعنى الدولة ومعنى الحكومة ، وما يجب أن يتم من التعاطف والتعاون بين المحكوم الذي هو أساس المجتمع ، والحاكم الذي لا وظيفة له إلا خدمة العامة : أصحاب الحق في توليته وعزله.

أما الوظائف فالناس متساوون فيها كذلك في دستور ابن أبي طالب. فقد رأينا كيف أسقط فكرة الاستئثار بما الناس فيه أشوة ، وكيف رفع أيدي الأشراف والوجهاء عن كل عمل لا يكونون له أهلاً ليتولاه أهل الكفاءة من الناس. وقضية الكفاءة هي المقياس الأول والأخير ، في دستوره ، في إسناد الوظائف العامة إلى طلابها. وقد بدأ أولاً بالخلافة نفسها - بوصفها أعظم الوظائف - فخالف ما ارتآه بشأنها أهل زمانه أجمعين. ففيما كانوا يعترفون بهذا الحق إلا لأصحاب النبي من المهاجرين والأنصار ، أو لذوي قرابته؛ تعظيماً منهم لشأن هذه الوظيفة الخطيرة، كان علي وحده يخالف ما اجتمع

عليه رأيُ الآخرين ، فإذا به يصوغ ما ارتآه بشأنها صوغاً يدعونا لأن نعيد النظر في كلِّ ما دُتس عليه دُتساً في كتب التاريخ ، من تطلّعه الدائم إلى هذا المنصب^(١) ، قائلاً: «واعجبا! أتكون الخلافة بالصحابة والقراة؟»^(٢).

وإن لم تكن الخلافة بالصحابة والقراة ، فَيَمَ تكون؟

مهما استقبلت من وجوه الآراء للجواب عن هذا السؤال فإنك لن تجد جواباً معقولاً ومقبولاً إلا بالكفاءة، فهي السبيل الأوحـد في دستور ابن أبي طالب إلى هذا المنصب الخطير.

ولسوف نرى أن الناس حين اختلفوا في أمر عثمان قبيل مقتله وبعده، انقسموا قسمين : قسماً يرى أن في صحابة عثمان للرسول وفي قرابته منه ، وفي سبقه إلى الإسلام ومكانته من قريش ، ما يجب أن يمنع عنه سخط العامة مهما التوث سياسته ، ومهما أساء عماله وأيا كان موقف أعوانه ومستشاريه من دماء الخلق وأموالهم وأحوالهم، وعلى رأس هذا القسم : بنو أمية وعددٌ عظيم من وجهاء القوم وزعماء القبائل.

وقسماً يرى أن صحابة عثمان للرسول وقرابته منه ، وسبقه إلى الإسلام ومكانته من قريش ؛ ليست ممّا يوجب ارتقاءه إلى هذا المنصب ، وليست سبباً في منع سخط الأمصار ، وقد التوث سياسته وساءت أعمال وولاته وأعوانه ومستشاريه. وإنما كانوا يرون أن الكفاءة هي الأصل والركن ، ومن الكفاءة لمن يتولّى أمر الخلافة أن يسعى في رفع المستوى المالي لعامة

(١) لاشك في أن تألم الشيعة لما لحق بعلي من إجحاف ، جعل بعضهم ينسبون إليه أقوالاً تصوّره متألماً جازعاً لوقوف بعض الصحابة دون وصوله إلى الخلافة. وهي في جملتها أقوال بعيدة عن نفسية علي وعن منهجه العام. ومواقفه المختلفة الكثيرة التي تصرّح بقوة شخصيته ، تنقض هذا الجزع البادي في ما دُتس عليه من أقوال. وقد أشرنا إلى بعض هذه المواقف العظيمة.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٩٠.

الشعب ، وأن يسعى في رفع ما يلحق بهم من غبنٍ وحيفٍ^(١) وجور. وعلى رأس هذا القسم من الناس : عليّ بن أبي طالب وتلاميذه ورؤوس شيعته ، أمثال أبي ذر الغفاري ، وعمار بن ياسر ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي وغيرهم. وكان عليّ يوجز موقفه وموقف الناس من مصير عثمان بهذه الكلمات : «استأثر فأساء الأثرة... وقام معه بنو أمية يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع»^(٢).

وعلى كل حال ، فإنما «يُستدلّ على الصالحين - في نهج عليّ - بما يُجري الله لهم على الشن عباده»^(٣) و «قلوب الرعية خزان راعيها»^(٤).

أما الولاية فلن يكون شأنهم مع الولاية غير شأن الخلفاء مع الخلافة، فهو يختارهم لا عن هوى ولا عن ميلٍ شخصي ، ولا لنشوتهم في بيئة الشرفاء والارستقراطيين ، ولا لِمَا يتحصّنون به من المجد التليد والثروة الطارفة^(٥) أو السبق إلى الإسلام. وإنما يختارهم بعد أن يختبرهم في قلوب الناس ، ويعرف أنهم جُبلوا ليخدموا لا ليُخدَموا ، وأنهم ينظرون إلى جهود العامة نظرتهم إلى الأمر المقدس الذي لا يُمسّ ، وأنهم لا يرتشون ولا ينيهون ولا يفجرون ولا هم بالظالمين ولا بأعوان الظالمين.

ويطول بنا القول إذا نحن شئنا أن نذكر أوامر عليّ العامة بصدد اختيار الولاية والعمال. إلا أنها تتلخص جميعاً بأن العمال يجب أن يكونوا من ذوي الكفاءة، فالكفاءة هي السبيل الوحيد الذي يجب أن يسلكوه. ومن الكفاءة أن

(١) حيف : ظلم. المنجد: ١٦٤، مادة «حاف».

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٣ - ١١.

(٣) نهج البلاغة : ٩٣ / ٣، من عهده لِمالك الأشتر، نهج السعادة: ٦٠ / ٥، تحف العقول للبحراني: ١٢٦.

(٤) شرح نهج البلاغة : ٩٤ / ١١، عيون الحكم والمواعظ : ٣٧٠ وفيه : قلوب الرعية خزائن ملكها.

(٥) الطارفة : الثروة المستحدثة. المنجد: ٤٦٤، مادة «طرف».

يكونوا «خزّان أموال الناس» لا سابقة لهم في «معاونة أهل الظلم». وعلى هذا عزل عليّ جميع العَمّال الذين كانوا لعثمان ، وولّى مكانهم مَنْ عرف فيهم الرحمة والعدل والأمانة والصدق ، أيّاً كان مولدُهم ، وأيّاً كان نسبهم.

وموقف عليّ من وضع الولاة والعَمّال هو موقفه من وضع القضاة. وقد تحدثنا طويلاً عن أسلوبه في اختيار هؤلاء الموظفين وفي تشدّده في ما يجب أن يكونوا عليه. وإليك ما يقوله في إمارة الجند : «وَلَّ من جنودك أنفاهم جنيّاً - أظهرهم قلباً - وأفضلهم حِلماً ، ممن يُبطئ عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ويرأف بالضعفاء وينبو^(١) على الأقوياء ، ومَنْ لا يثيره العنف»^(٢).

وهكذا طارت - على يد عليّ - امتيازات الوجهاء والنبلاء ، وأصبح الناس في دستوره متساوين أمام الوظائف الكبرى ، فإذا بهذه المساواة تطفئ نجم «أصحاب البيوتات» لأنّ أداة السبق ، حين يتساوى الناس في الحقوق ، هي الكفاءة ، والكفاءة هي الطريق الصاعدة التي يصعب على نبلاء التاريخ أن يقطعوا فيها أكثر من خطواتٍ قلائل ، فكيف بالمسير الطويل ؟ أمّا المساواة في الوظائف الأخرى فأمرها أهْوَن ! فللمحسن أيّاً كان ما أحسن ، وللمسيء أيّاً كان ما أساء ، وهما في حالتهما ليسا سواء. ومَنْ أحسنَ عملاً وُلّيه ، ومَنْ أساءَ عملاً أقصِي عنه. قال عليّ في عهده إلى بعض ولاته : «ولا يكونَنَّ المحسن والمسيءُ عندك بمنزلةٍ سواء ، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة. وألزم كلّ منهما ما ألزم نفسه!»^(٣).

وإليك هذا القول الصريح في مَنْ يجب أن تُسند له الوظيفة أيّة كانت :

(١) ينبو على الأقوياء : يشتد ويعلو عليهم ليكف أيديهم عن ظلم الضعفاء .

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٥٢ .

(٣) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٣٥ .

«ثمَّ لا يكن اختيارُك إِيَّاهم - يقصد طالبي الوظائف - على فراستك واستنامتك وحسن الظنِّ منك ، فإنَّ الرجال يتعرَّفون لفراسات الولاة بتصنَّعهم ، وليس وراء ذلك من التضحية والأمانة شيءٌ. ولكن اختيرهم بما وُلِّوا للصالحين قبلك : فاعمَد لأحسنهم كان في العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً!»^(١). يأمر عليّ ألا يكون اختيار الموظفين تابعاً لميل الحاكم الخاص ، ولا لفراسته وتقديره الشخصي للأُمور ، فإنَّ طلاب الوظيفة عند ذاك قد يتصنَّعون ويدعون الأمانة والكفاءة. ولكنَّ عليه أن ينظر في أحسنهم خدمةً وأكثرهم أمانةً. والمقياس الوحيد في ذلك هو رضا الناس عنهم لكفاءتهم وصدقهم ونشاطهم في ما يعملون ، أمَّا الذين يحسبون أنَّ السَّلم إلى الوظيفة إنما هي الحسب والنشأة وما إليهما، فيتهكَّم عليّ بهم ثمَّ يلخصهم بهذه العبارة : «وجازوا عن وجهتهم وعولوا على أحسابهم»^(٢).

وكان عليّ يقول لكلِّ موظف : «إن كنت صادقاً كافيناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك»^(٣) ويقول للناس جميعاً : «لو سلَّمتم الأمر لأهله - لذوي الكفاءة - لسلمتم»^(٤). وعلى هذا فإنَّ الناس «يولدون ويظَّلون أحراراً ومتساوين في الحقوق».

(١) نهج البلاغة : الكتاب ٥٣ - ٩٣ .

(٢) نهج البلاغة : الكتاب ٣٢ - ٢ .

(٣) نهج السعادة : ٣٣٩/١ ، الكافي : ٧٨٧/٧ .

(٤) المسترشد للطبري : ٤٠٤ .

**بلاغة عليّ
في خدمة الإنسان**

حدود العقل والقلب

- وكان شديداً ، قاصفاً ، مُزْمِجاً ، كالرعد في ليالي الويل .
- فالينبوعُ هو ينبوعُ لا حساب في تجزيه لِليلٍ أو نهار .

مَنْ تتبّع سِيَر العُظماء في التاريخ لا فرق بين شرقيّ منهم وغربيّ ، ولا بين قديمٍ ومُحدّث أدرك ظاهرةً لا تخفى وهي : أنّهم على اختلاف ميادينهم الفكرية وعلى تباين مذاهبهم في موضوعات النشاط الذهني أدباء موهوبون على تفاوتٍ في القوة والضعف ، فهم بين منتج خلاق ، ومتذوق قريب التذوق من الإنتاج والخلق ، حتى لكأنّ الحسّ الأدبي - بواسع دنيواته ومعانيه وأشكاله - يلزم كلّ موهبة خارقة في كلّ لونٍ من ألوان النشاط العظيم .
فنظرة واحدة إلى الأنبياء ، مثلاً ، تكفي لتقرير هذه الظاهرة في الأذهان .
فما داود وسليمان وأشعيا وأرميا وأتوب والمسيح ومحمّد إلّا أدباء ، أو توا من الموهبة الأدبية ما أو توا من سائر المواهب^(١) . وهذا نابوليون القائد ، وأدوار هريو السياسي ، ولينين المشتزع والزعيم ، وأفلاطون الفيلسوف ، وباسكال الرياضي ، وجواهر لال نهرو رجل الدولة والفكر ، وباستور العالم

(١) من الثابت أن أنبياء الله (عليه السلام) معصومون ، وقد أكرمهم الله تعالى بصفات خُلقية وخُلقية من أجل أداء الرسالات .. وهم مختلفون في معاجزهم كلّ حسب ظروفه وعصره ومهنته . والجنبة الأدبية إحدى تلك الصفات المودعة فيهم وقد تجلّت في البعض منهم دون الآخر تبعاً للظرف الذي يقتضي إظهار تلك الصفة .

الطبيعي ، وجمال الدين الأفغاني المصلح الاجتماعي : إنهم جميعاً أدباء ، لهم في الأدب ما يجعلهم في مصاف ذوي الشأن من أهله. فلكلّ منهم لونٌ من ألوان النشاط الفكري حدّده الطبعُ والموهبة ، ثم رعتِ النزعةُ الجماليّةُ ما دخل منه في نطاق التعبير ، فإذا هو من الأدب الخالص.

هذه الحقيقة تتركز جليّة واضحة في شخصية عليّ بن أبي طالب ، فإذا هو الإمام في الأدب وسرّه البلاغة، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوقٍ وفي ما علّم وهدى، وآيته في ذلك «نهج البلاغة» الذي يقوم في أُسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أُسس، وتتصل به أساليبُ العرب في نحوٍ ثلاثة عشر قرناً فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيّدُها في نطاقٍ من بيانه الساحر.

أما البيان ، فقد وصل عليّ سابقه بلاحقه ، فضمّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتحد بالفطرة السليمة اتحاداً مباشراً ، إلى البيان الإسلامي الصافي المهذب المتحد بالفطرة السليمة والمنطق القوي ؛ اتحاداً لا يجوز فيه فصلُ العناصر بعضها عن بعض. فكان له من بلاغة الجاهلية ، ومن سحر البيان النبوي ، ما حدّا ببعضهم إلى أن يقول في كلامه إنه : «دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق»^(١).

ولا غرو^(٢) في ذلك ، فقد تهتأتْ لعلّي جميعُ الوسائل التي تعدّه لهذا المكان بين أهل البلاغة، فقد نشأ في المحيط الذي تسلم فيه الفطرة وتصفو ، ثم إنه عايش أحكم الناس «محمّد بن عبد الله» وتلقّى من النبي رسالته بكلّ ما فيها من حرارة وقوة. أضفْ إلى ذلك استعداداته الهائلة ومواهبه العظيمة، فإذا بأسباب التفوق تجتمع لديه من الفطرة ومن البيئة!

(١) نهج السعادة: ٥٥/٧، شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ٢٤/١، بحار الأنوار: ٢١٠ / ١٠٤.

(٢) لا غرو: لا عجب. كتاب العين: ٤٤١/٤، مادة «غرو».

أما الذكاء ، الذكاء المفرط ، فتلقى له بكل عبارة من «نهج البلاغة» عملاً عظيماً. وهو ذكاء حي ، قدير ، واسع ، عميق ، لا تفوته أغوار. إذا هو عمل في موضوع أحاط به بعداً فما يُفِلَّت منه جانب ولا يُظَلَم منه كثير أو قليل. وغاص عليه عمقاً ، وقلبه ثقلباً ، وعركه عركاً^(١) ، وأدرك منه أخفى الأسباب ، وأمعنها في الاختفاء ، كما أدرك أصدق النتائج المترتبة على تلك الأسباب ، ما قُرِبَ منها أشدَّ القرب ، وما بعد أقصى البعد.

ومن شروط الذكاء العلوي النادر ، هذا التسلسل المنطقي الذي تراه في النهج أتى اتجهت. وهذا التماسك بين الفكرة والفكرة ، حتى تكون كل منها نتيجة طبيعية لما قبلها ، وعلّة لما بعدها. ثم إن هذه الأفكار لا تجد فيها ما يُستغنى عنه في الموضوع المعالج ، بل لا تجد فيها ما يستقيم البحث بدونه. وهو ، لا تساع مداه ، لا يستخدم لفظاً إلا وفي هذا اللفظ ما يدعوك لأن تتأمل وتمعن في التأمل ، إذ لا تجد عبارة إلا وتفتح أمامك آفاقاً وراءها آفاق من النظر الجليل.

فعن أيِّ رَحْبٍ وسيعٍ من مسالك التأمل والنظر يكشف لك قوله : «الناس أعداء ما جهلوا»^(٢) أو قوله : «قيمة كل امرئ ما يُحسنه»^(٣). أو «الفجور دارُ حصنٍ ذليل»^(٤) وأيِّ إيجاز مُعجز هو هذا الإيجاز : «مَن تخفف لحق» وأيِّ جليلٍ من المعنى في العبارات الأربع وما تحويه من ألفاظ قلائل فُصِّلَت تفصيلاً ، بل قُل : أنزلت تنزيلاً!

(١) عركه عركاً : قلبه ظهراً لبطن.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٢ ، ٤٣٨ .

(٣) قصار الحكم : ٨١ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١٥٧ - ٥ .

ثم عن أيّ حدةٍ في الذكاء واستيعابٍ للموضوع وعمقٍ في الإدراك يشفّ هذا الكشفُ العجيب عن طبع الحاسد وصفةٍ نفسه وحقيقةٍ حاله : « ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلومٍ من الحاسد : نفسٌ دائمٌ وقلبٌ هائمٌ ، وحرزٌ لازمٌ ، مغتاضٌ على مَنْ لا ذنبَ له ، بخيلٌ بما لا يملك »^(١).

ويستمرّ تولّد الأفكار في « نهج البلاغة » من الأفكار ، فإذا أنت أمام حشدٍ منها لا ينتهي . وهو مع ذلك لا يتراكم ، بل يتساقق ويترتّب بعضه على بعض . ولا فرق في ذلك بين ما يكتبه عليٌّ وبين ما يُلقّيه ارتجالاً ، فالينبوع هو الينبوع ولا حساب في جزئه لليلٍ أو نهار .

ففي خطبه المرتجلة معجزاتٌ من الأفكار المضبوطة بضابط العقل الحكيم والمنطق القويم . وإنك لتدهش أمام هذا المقدار من الأحكام والضبط العظيمين ، حين تعلم أنّ عليّاً لم يكن ليعدّ خطبه ، ولو قبيل إلقائها بدقائق أو لحظات . فهي جائشة بقلبه منطلقة على لسانه عفوّ الخاطر لا عنت ولا إجهاد ، كالبرق إذ يلمع ولا خبرٌ يأخذه أو يعطيه قبل وميضه . وكالصاعقة إذ تزمر لا تُهيء نفسها لصعقٍ وزمجرة . وكالريح إذ تهب فتلوي وتميل وتكسح وتنصب على غايةٍ ، ثم إلى مداورها تعود ، ولا ما يدفعها إلى أن تروح وتجيء إلّا قانونُ الحادثة ومنطقُ المناسبة في حدودها القائمة ، لا قبل ولا بعد !

ومن مظاهر العقل القوي في « نهج البلاغة » تلك الحدود التي كان عليّ يضبط بها عواطف الحزن العميق إذ تهيج في نفسه . فإنّ عاطفته الشديدة ما تكاد تُغرقه في محيط من الأحزان والكآبات البعيدة ، حتّى يبرز سلطان العقل

(١) مستدرک الوسائل : ١٧/١٢ ، كنز الفوائد للكرجكي : ٥٧ ، تحف العقول : ٢١٦ .

بجلاء ومضاء ، فإذا هو أمرٌ مطاع.

ومن ذكاء عليّ المفرط في نهجه أنه نوع البحث والوصف فأحكم في كل موضوع ، ولم يقصر جهده العقليّ على ناحية واحدة من الموضوعات ، أو من طرق البحث. فهو يتحدّث بمنطق الحكيم الخبير عن أحوال الدنيا وشؤون الناس ، وطبائع الأفراد والجماعات. وهو يصف البرق والرعد والأرض والسماء. ويسهب في القول في التاريخ الطبيعي، فيصف خفايا الخلق في الخفّاش والنملة والطاووس والجرادة وما إليها. ويضع للمجتمع دساتير وللأخلاق قوانين. ويبعد في التحدّث عن خالق الكون وروائع الوجود. وإنك لا تجد في الأدب العربي كلّ هذا المقدار الذي تجده في «نهج البلاغة» من روائع الفكر السليم والمنطق المحكّم في مثل هذا الأسلوب النادر.

* * *

أما الخيال في «نهج البلاغة» فمديدٌ وسيع ، خفاق الجوانح في كلّ أفق ، وبفضّل هذا الخيال القوي ، الذي حُرّم منه كثيرٌ من حكماء العصور ومفكّري الأمم ، كان عليّ يأخذ من عقله وتجاربه المعاني ذات الموضوعية الخالصة، ثم يطلقها زاهيةً متحرّكة في إطارٍ تثبت على جنباته ألوانُ الجمال على أروع ما يكون اللون. فالمعنى مهما كان عقليّاً جافاً لا يمزّ بمخيّلة عليّ حتّى تنبت له أجنحةٌ تقضي فيه على صفة الجمود ، وتُبلور ما فيه من حقيقة.

فخيال عليّ هو نموذج للخيال العبقريّ الذي يقوم على أساس من الواقع العميق، فيحيط بهذا الواقع ويبرزه ويجلّيه ، ويجعل له امتداداتٍ من معدنه وطبيعته ، ويصبغه بألوان كثيرة من مادّته ولونه. فإذا الحقيقة تزداد وضوحاً ، وإذا بطلها يقع عليها أو تقع عليه.

وقد تميّز عليّ بقوة ملاحظةٍ نادرة ، ثم بذكرةٍ واعية تخزن وتتسع. وقد

مرّ من أطوار حياته بعواطفٍ جرّها عليه حقّد الحاقدين ومكرّ الماكرين ، ومرّ منها كذلك بعواطفٍ كريمةٍ أحاطه بها وفاء الطيبين وإخلاص المخلصين . فتيسّرت له من ذلك جميعاً عناصرٌ قوية تغذّي خياله المبدع . فإذا بها تتعاون في خدمة هذا الخيال وتتساقق في لوحات رائعة حيّة ، شديدة الروعة والحيوية ، تتركز على واقعية صافية تمتدّ لها فروغٌ وأغصان ، ذات أوراق وأثمار .

ومن ثمّ يمكنك - إذا شئت - أن تُحوّل عناصر الخيال القويّ في «نهج البلاغة» إلى رسومٍ مخطوطة باللون ؛ لشدة واقعيّتها واتساع مجالها وامتداد أجنحتها وبروز خطوطها . ألا ما أروع خيال الإمام إذ يخاطب أهل البصرة ، وكان بنفسه ألمّ منهم بعد موقعة الجمل ، قائلاً : «لَتَغْرِقَنَّ بِلَدْتُكُمْ ، حتّى كأنني أنظرُ إلى مسجدها كجزؤٍ طيرٍ في لُجّة بحر !»^(١) . أو في مثل هذا التشبيه الساحر : «فِتَنُ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ»^(٢) أو هذه الصورة المتحرّكة : «وإنّما أنا كَقُطْبِ الرّحى : تدور عليّ وأنا بمكاني»^(٣) أو هذه اللوحة ذات الجلال التي يشبّه فيها امتدادات بيوت أهل البصرة بخراطيم الفيلة ، وتبدو له سُرفاتهنّ كأنّها أجنحةُ النّسور : «ويلٌ لِسَيِّكِيكُم العامرة ، والدور المزخرفة ، التي لها أجنحةُ كَأَجْنَحَةِ النّسور وخراطيم كخراطيم الفيلة»^(٤) .

ومن مزايا الخيال الرّخْبِ قوّة التمثيل . والتمثيل في أدب الإمام وجهٌ ساطعٌ بالحياة . وإنّ شئتَ مثلاً على ذلك فانظر في صاحب السلطان الذي يغبطه

(١) الجوزجوز : الصدر . النهاية في غريب الحديث لابن الأثير : ٢٢٥/١ ، مادة «جوزجوز» .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٣ - ٤ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٢ - ٣ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١١٩ - ٣ .

(٥) نهج البلاغة : الخطبة ١٢٨ - ٥ .

بعضُ الناس ويتمتون ما هو فيه من حال ، ولكنّه أعلمُ بموضعه من الخوف والحذر ، فهو وإنْ أخافَ بمركوبه إلا أنّه يخشى أنْ يغتاله. ثمّ انظرْ بعد ذلك إلى عليّ كيف يمثل هذا المعنى ، فيقول : «صاحب السلطان كراكب الأسد : يُعَبِّط بموقعه ، وهو أعلمُ بموضعه»^(١). وإنْ شئتَ مثلاً آخرَ فاستمعْ إليه يمثل حالة رجلٍ رآه يسعى على عدوّ له بما فيه إضرارٍ بنفسه ، فيقول : «إنما أنت كالطاعن نفسه ليقْتَل رِدْفَه»^(٢) والرّدْف هو الراكبُ خلفَ الراكب. ثمّ إليك هذا الأسلوب الرائع في تمثيل صاحب الكذب : «إياك ومصادقةَ الكذاب فإنه كالسرّاب : يُقَرَّبُ عليك البعيد ويُبْعَدُ عنك القريب»^(٣).

أما النظرية الفنيّة القائلة بأنّ كلّ قبيح في الطبيعة يصبح جميلاً في الفنّ، فهي إن صحّت فإنّما الدليلُ عليها قائمٌ في حديث ابن أبي طالب عن سكّان القبور. فما أهولَ الموتَ وما أبشَعَ وجهه! وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجمل وقعَه! فهو قولٌ آخذٌ من العاطفة الفياضة نصيباً كثيراً ، ومن الخيال الخصب نصيباً أوفر. فإذا هو لوحةٌ من لوحات الفنّ العظيم لا تُدانيها إلا لوحات عباقرة الفنون في أوروبا ساعة صوّروا الموت وهوّله لوناً ونغمًا وشعرا.

فبعد أنْ يُذكّر عليّ الأحياء بالموت ويُقيم العلاقة بينهم وبينه، يوقظهم على أنّهم دائنون من منزل الوحشة بقولٍ فيه من الغربة القاسية لونٌ قاتمٌ ونغمٌ حزين : «فكأنّ كلّ امرئٍ منكم قد بلغ من الأرض منزلَ وخدته، فيأله من بيت وخذة ،

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٦٣ .

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٩٦ .

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٦٥٠ .

ومنزل وخشة. ومفترّد غربة^(١). ثم يهزّهم بما هم مسرعون إليه ، ولا يدرون بعباراتٍ متقطّعة متلاحقة ، وكأنّ فيها دويّ طبولٍ تُنذر تقول : «ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العُمر !»^(٢). بعد ذلك يُطلق في أذهانهم هذه الصورة الرائعة التي يأمر بها العقل ، وتُشعلها العاطفة ، ويجسّم الخيال الوثابُ عناصرَها ، ثم يعطيها هذه الحركات المتتابعة : وهي بين عيونٍ تدمع ، وأصواتٍ تنوح ، وجوارحٍ تثنّ ، قائلاً : «وإنّما الأيام بينكم وبينهم بوالٍ ونوائحُ عليكم»^(٣). ثم يعود فيُطلق لعاطفته وخياله العنان ، فإذا بهما يُبدعان هذه اللوحة الخالدة من لوحات الشعر الحي :

«ولكنّهم سُقُوا كأساً بدّلنهم بالتُطقِ خَرَساً ، وبالسَّمعِ صَمَماً ، وبالحركات سكوناً. فكأنّهم في ارتجال الصّفة صرعى سُبات»^(٤). جيرانٌ لا يتأنسون ، وأحباء لا يتزاورون. بليت بينهم عُرَى التعارف ، وانقطعت منهم أسبابُ الإخاء. فكأنّهم وحيدٌ وهم جميعٌ ، وبجانب الهجر وهم أخلاء ، لا يتعارفون لليل صباحاً ، ولا لنهار مساءً. أيّ الجديدين^(٥) طَعَنُوا فيه كان عليهم سَرَمُداً^(٦)»^(٧).

ثم يقول فيهم هذا القول الرهيب : «لا يعرفون مَنْ أناهم ، ولا يخفّلون مَنْ بكاهم ، ولا يجيبون مَنْ دعاهم»^(٨).

فهل رأيتَ إلى هذا الإبداع في تصوير هَول الموت ووخشة القبر وصِفّة

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٥٧ - ١٤ .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٨ - ٨ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ - ٧ .

(٤) ارتجال الصفة : وصف الحال بلا تأمل ، فالواصف لهم بأول النظر يظنّهم صرعى من السبات ، أي النوم .

(٥) الجديدان : الليل والنهار . الصحاح : ٤٥٤/٢ ، مادة «جدد» .

(٦) سرمد : أبدي ، الدائم . الصحاح : ٤٨٧/٢ ، مادة «سرمد» .

(٧) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ - ١٥ .

(٨) نهج البلاغة : الخطبة ٢٣٠ - ١٢ .

سكّانه في قوله : «جيرانُ لا يتأنسون وأحبّاء لا يتزاورون؟»^(١). ثم هل فطنت إلى هذه الصورة الرهيبة الأبديّة للموت التي لا ترسمها إلّا عبقرية عليّ : «أيّ الجديدين فطّعنوا فيه كان عليهم سزّمد»^(٢). ومثل هذه الروائع في «النهج» كثير.

* * *

هذا الذكاء وهذا الخيال في «نهج البلاغة» يتحدان اتّحاد الطبيعة بالطبيعة مع العاطفة الشديدة التي تمدّهما بوهج الحياة، فإذا الفكرة تتحرّك وتجري في عروقها الدماء سخيةً حارة. وإذا بها تخاطب فيك الشعور بمقدار ما تخاطب العقل لانطلاقها من العقل الذي تمدّه العاطفة بالدفء. وقد يصعب على المرء أن يعجب بأثرٍ من آثار الفكر أو الخيال في ميادين الأدب وسائر الفنون، إن لم تكن للعاطفة مشاركةً فعالة في إنتاج هذا الأثر. ذلك أن المركّب الإنساني لا يرضيه، طبيعياً، إلّا ما كان نتاجاً لهذا المركّب، وهذا الأثر الأدبي الكامل، وهو ما نراه في نهج البلاغة. وإنك لتحتس نفسك مندفعاً في تيّارٍ جارٍ من حرارة العاطفة بسائر ألوانها، وأنت تسير في نهج البلاغة من مكانٍ إلى آخر. أفلا يشيع في قلبك الحنان والعطفُ شيوعاً وأنت تصغي إلى عليّ يقول : «لو أحبّني جبلٌ لتهافت؟»^(٣) أو : «لا رأي لمن لا يُطاع؟»^(٤) أو : «دعوني والتمسوا غيري؟»^(٥) أو : «يا دنيا ! يا دنيا ، غرّي غيري!»^(٦) أو في هذا القول الموجز الزاخر

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ - ١٣.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٢٢١ - ١٥.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١١١.

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ٢٧ - ١٦.

(٥) نهج البلاغة : الخطبة ٩٢ - ١.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٧٧ - ١، وجاء فيها : يا دنيا يا دنيا... هيهات غرّي غيري ، لا حاجة لي فيك .

بالحنان : «فَقَدْ الْأَحَبَّةُ غَرِيبَةً»^(١) أو في قوله : «اللهم إني استَعْدِيكَ على قريش ، فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي ، وقالوا : أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَمْنَعَهُ ، فاصبر مغموماً أو متأسفاً. فنظرتُ فإذا ليس لي رافداً ، ولا ذاباً ولا مساعد إلا أهل بيتي!»^(٢).

وإليك هذا الجمال الطافح بالعاطفة ، وهذه القوة في الرقة واللوعة ، في كلام له عند دفن السيدة فاطمة ، ويخاطب به ابن عمه الرسول :
«السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك! قل ، يا رسول الله ، عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي ، إلّا أنّ لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك ، موضع تعزّا»^(٣) ومنه : «أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ، إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم»^(٤). ثم إليك هذا الخبر :

روى أحدهم عن نوف البكالي بصدد إحدى خطب الإمام عليّ قال :
خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف ، فقال عليه السلام ، في جملة ما قال :
«ألا إنه أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً. وأزعج الترحال عبادة الله الأخيار ؛ وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى ، بكثير من الآخرة لا يفنى. ما ضرّ إخواننا الذين شُفكت دماؤهم وهم بصفين أن لا يكونوا اليوم أحياء يُسيغون الغصص ، ويشربون الرزق؟!^(٥) قد ، والله ، لقوا الله فوقاهم أجورهم وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم! أين إخواني

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٦٥ .

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ٢١٧ - ٣ .

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٠٢ - ١ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ١٥١ - ١٣ .

(٥) الماء الرزق : الماء الكدر. غريب الحديث: ١٣٨/٢ .

الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عتار^(١)؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نُظَرَاؤُهُم من إخوانهم الذين تعاهدوا على النية؟»^(٢).
قال : ثمّ ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء.

وأخبر ضرار بن حمزة الضابي قال : فأشهد لقد رأيته - يقصد الإمام - في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في ظلامه قابض على لحيته يتململ تملل السليم ، ويبكي بكاء الحزين ويقول : «يا دنيا يا دنيا ، إليك عني ! أبي تعرّضت ، أم إليّ تشوّفت ؟ لا حان حينك ، هيهات ! غري غيري ، لا حاجة لي فيك ، قد طَلَقْتُكَ ثلاثاً لا رجعة فيها ! فعيذك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير . آه من قلة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر وعظيم المورد!»^(٣).

هذه العاطفة الحارة التي عرفها الإمام في حياته تُواكبه أنى اتّجه في «نهج البلاغة» وحيث سار. تُواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط ، كما تُواكبه في ما يثير العطف والحنان.

حتى إذا رأى تخاذل أنصاره عن مساندة الحق فيما يناصر الآخرون الباطل ، ويحيطونه بالسلاح والأرواح ، تألم وشكا ، ووتخ وأتب. وكان شديداً قاصفاً ، مزمجرأ ، كالرعد في ليالي الويل . ويكفيك أن تقرأ خطبة الجهاد التي تبدأ بقوله : «أيتها الناس المجتمعة أبدأنهم ، المختلفة أهواؤهم ، كلامكم يوهي الصمّ الصلاب .. الخ!»^(٤) لتدرك أية عاطفة متوجّعة ثائرة هي تلك التي تمدّ هذه الخطبة بنبض الحياة وجيشانها.

(١) يقصد عتار بن ياسر.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٨٢ - ٢٧ .

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٧ - ٢ .

(٤) نهج البلاغة : الخطبة ٢٩ - ١ .

وإنه لمن المعيني أن نسوق الأمثلة على تدفق العاطفة الحية التي تبثّ الدفء في مآثر الإمام، فهي في أعماله وفي خطبه وأقواله مقياس من المقاييس الأسس. وما عليك إلا أن تقرأ بعض آثاره في فصل «من روائع الإمام» من هذا الكتاب، كي تقف على ألوان من عاطفة ابن أبي طالب، ذات القوة الدافقة والعمق العميق.

الأسلوب والعبقريّة الخطابية

- بيانٌ لو نطقَ بالتفريع لانقَضَ على لسان
العاطفة انقضاءً. ولو هَدَدَ الفسادَ والمفسدينَ
لَتَفَجَّرَ براكينَ لها أضواءٌ وأصوات. ولو دعا إلى
تأملٍ لَرافقَ فيك منشأ الحسِّ وأصل التفكير،
فساقك إلى ما يريده سَوْفًا ووَصَلَكَ بالكون
وصلاً.

- ويندمجُ الشكل بالمعنى اندماج الحرارة
بالنار، والضوء بالشمس والهواء بالهواء، فما
أنت إزاءه إلّا ما يكونُ المرءُ قبالة السيلِ إذ
ينحدر والبحرُ إذ يتموّج والريحُ إذ تطوف.
- أمّا إذا تحدّثَ إليك عن بهاء الوجود وجمال
الخلق فإتّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم
السماء.

- ومن اللفظ ما له وميضُ البرق، وابتسامَةُ
السماء في ليالي الشتاء.

هذا من حيث المادّة. أمّا من حيث الأسلوب، فعليّ بن أبي طالب ساحر
الأداء. والأدب لا يكون إلّا بأسلوب، فالمبني ملازمٌ فيه للمعنى، والصورة لا
تقلّ في شيءٍ عن المادّة. وأيّ فنٍّ كانت شروط الإخراج فيه أقلّ شأنًا من
شروط المادّة؟

وإنّ قسطنطين عليّ بن أبي طالب من الذوق الفني - أو الذوق الجمالي - لميّتاً
يندر وجوده. وذوقه هذا كان المقياس الطبيعي الضابط للطبع الأدبيّ عنده.

أما طبعه هذا ، فهو طبعٌ ذوي الموهبة والأصالة الذين يرون فيشعرون ،
ويُدركون فتنتطلق ألسنتهم بما تجيش به قلوبهم ، وتنكشف عنه مداركهم
انطلاقاً عفويّاً. لذلك تَمَيَّز عليٌّ بالصدق كما تميّزت به حياته. وما الصدق إلا
ميزة الفنّ الأولى ، ومقياس الأسلوب الذي لا يخادع.

وإنّ شروط البلاغة ، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال، لم تجتمع
لأديبٍ عربيّ ، كما اجتمعت لعلّي بن أبي طالب. فإنشأؤه أعلى مثلاً لهذه
البلاغة ، بعد القرآن. فهو موجزٌ على وضوح ، قويٌّ جياش ، تامّ الانسجام لما
بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف ، حلّو الرّثة في الأذن موسيقى الوقع.
وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدة. ويشتدّ ويعنف في
غيرها من المواقف ، ولا سيّما ساعة يكون القول في المنافقين والمراوغين
وطلاب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق
المهدورة. فأسلوب عليّ صريحٌ كقلبه وذهنه ، صادق كطويته ، فلا عجب أن
يكون نهجاً للبلاغة!

وقد بلغ أسلوبُ عليٍّ من الصدق حدّاً تَرَفَّعَ به حتّى السجّع عن الصنعة
والتكلف. فإذا هو على كثرة ما فيه من الجمل المتقاطعة الموزونة المسجّعة
أبعد ما يكون عن الصنعة وروحها ، وأقرب ما يكون من الطبع الزاخر.

فانظر إلى هذا الكلام المسجع وإلى مقدار ما فيه من سلامة الطبع : « يعلم
عجيجٌ الوحوش في الفلوات ، ومعاصي العباد في الخلوات ، واختلاف النينان في البحار
العامرات ، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات^(١). أو إلى هذا القول من إحدى خطبه :

(١) نهج البلاغة : الخطبة ١٩٨ - ٢٠٠.

«وكذلك السماء والهواء، والرياح والماء، فانظر إلى الشمس والقمر، والنبات والشجر، والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتَفَجَّر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال، وطول هذه القلال، وتَفَرَّق هذه اللغات، والألسن المختلفة... الخ»^(١). وأوصيك خيراً بهذا السجع الجاري مع الطبع: «ثُمَّ زَيْنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَابِقِ»^(٢) وأجرى فيها سراجاً مستطيراً^(٣) وقمرأً منيراً، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ... الخ»^(٤). فإنك لو حاولت إبدال لفظٍ مسجوع في هذه البدائع جميعاً بآخر غير مسجوع لعرفت كيف يخبو إشرافها، ويبهت جمالها، ويفقد الذوق فيها أصالته ودقته، وهما الدليل والمقياس. فالسجع في هذه الأقوال العلوية ضرورةٌ فنيةٌ يقتضيها الطبع الذي يمتزج بالصنعة امتزاجاً، حتى لكأنهما من معدنٍ واحد، يبعثُ النثر شعراً له أوزانٌ وأنغامٌ تُزْفِقُ المعنى بَصُورٍ لفظية، لا أبهى منها ولا أشهى.

ومن سجع الإمام آياتُ ترذُّ التَّغَمُّ على التَّغَمِّ رَدّاً جميلاً، وتُذِيبُ الوقع في الوقع على قراراتٍ لا أوزنَ منها على السَّمْع ولا أحبَّ ترجيعاً. ومثال ذلك ما ذكرناه من سجعاته منذ حين، ثم هذه الكلماتُ الشهياتُ على الأذن والذوق جميعاً: «أنا يومٌ جديد، وأنا عليك شهيد، فاعمل في خيراً، وقُل خيراً»^(٥).

وإذا قلنا: إنَّ أسلوب علي توفَّر فيه صراحةُ المعنى، وبلاغةُ الأداء، وسلامةُ الذوق الفني، فإنما نشير إلى القارئ بالرجوع إلى نهج البلاغة ليرى كيف تتفجر كلماتُ عليٍّ من ينابيع بعيدة القرار في مادتها، وبأية حُلَّةٍ فنيةٍ

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥ - ١٩.

(٢) الثواب: المنيرة المشرقة. انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

(٣) سراجاً مستطيراً: منتشر الضياء، ويريد به الشمس. انظر المصدر السابق.

(٤) نهج البلاغة: الخطبة ١ - ١٧.

(٥) بحار الأنوار: ٧٤ / ٣٨٠، مستدرک سفينة البحار: ١٠ / ٦١٩.

رائعة الجمال تمورٌ وتجري. وإليك هذه التعابير الحسان في قوله : «المرء مخبوءٌ تحت لسانه»^(١) وفي قوله : «الحلم عشيرة»^(٢) أو في قوله : «مَن لان عوده كثفت أغصانه»^(٣) أو في قوله : «كَلَّ وعاءٌ يضيق بما جعل فيه إلّا وعاء العلم فإنه يتسع»^(٤) أو في قوله أيضاً : «لو أحببني جبلٌ لتهافت»^(٥). أو في هذه الأقوال الرائعة : «العلم يحرسك وأنت تحرس المال»^(٦). رُبَّ مفتونٍ يحسن القول فيه^(٧). إذا أقبلت الدنيا على أحدٍ أعارته محاسنٌ غيره ، وإذا أدبرث عنه سلبتَه محاسنٌ نفسه^(٨). ليكن أمر الناس عندك في الحقِّ سواءً^(٩). افعلوا الخير ولا تحقرُوا منه شيئاً فإنَّ صغيره كبيرٌ وقليله كثير^(١٠). هلك خُزان المال وهم أحياء^(١١). ما مُتّع غنيٌّ إلّا بما جاع به فقير»^(١٢).

ثم استمع إلى هذا التعبير البالغ قمة الجمال الفني وقد أراد به أن يصف تَمَكُّنه من التصرف بمدينة الكوفة كيف شاء ، قال : «ما هي إلّا الكوفة أقصُّها وأبسطُها...»^(١٣).

فأنت ترى ما في أقواله هذه من الأصالة في التفكير والتعبير ، هذه

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٨ و ٣٩٢.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤١٨.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢١٤.

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٠٥ ، وجاء فيها : ... فإنه يتسع به.

(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١١١.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٧ - ٣.

(٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٦٢.

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٩.

(٩) نهج البلاغة، نهج البلاغة : الكتاب ٥٩ - ١.

(١٠) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٢٢.

(١١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٧ - ٦.

(١٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٨ ، وفيه : فما جاع فقير إلّا بما متّع به غني.

(١٣) نهج البلاغة : الخطبة ٢٥ - ١.

الأصالة التي تلازم الأديب الحق بصورة مطلقة ولا تفوته إلا إضافته الشخصية الأدبية ذاتها.

* * *

ويبلغ أسلوب علي قمة الجمال في المواقف الخطائية ، أي في المواقف التي تنور بها عاطفته الجياشة ، ويتقد خياله فتعلج فيه صور حارة من أحداث الحياة التي تمرّس بها. فإذا بالبلاغة تزخر في قلبه وتتدفق على لسانه تدفق البحار. ويتميز أسلوبه ، في مثل هذه المواقف ، بال تكرار بُغية التقرير والتأثير ، وباستعمال المترادفات وباختيار الكلمات الجزلة^(١) ذات الرنين المتدفق عذوبة ومتانة، وقد تتعاقب فيه ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام إلى تعجب إلى استنكار. وتكون مواطن الوقف فيه قوية شافية للنفس. وفي ذلك ما فيه من معنى البلاغة وروح الفن. وإليك مثلاً لهذا خطبة الجهاد المشهورة ، وقد خطب عليّ بها الناس لما أغار سفيان بن عوف الأسدي على مدينة الأنبار بالعراق وقتل عامله عليها:

«هذا أخو غامد قد بلغت خيله الأنبار ، وقتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين.

وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينزغ حجلها ، وقلبها ، وزعائها ، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم ، ولا أريق لهم دم ، فلو أنّ امرأة مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به مَلوماً ، بل كان به عندي جديراً^(٢).

(١) الجزلة: جزالة الكلام: قوة الكلام. لسان العرب: ١٠٩/١١، مادة «جزل».

(٢) جدير: خليق ، حري ، قمين. غريب الحديث: ١٩٧/٢.

فيا عجباً ، والله يميت القلب ويجلب الهمّ اجتماع هؤلاء على باطلهم وتفرقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم حين صرتم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تُغزّون ، ويُعصى الله وترضون»^(١).

فانظر إلى مقدرة الإمام الفنية في هذه الكلمات الموجزة ، فإنه تدرج في إثارة شعور سامعيه حتى وصل بهم إلى ما يصبو إليه. وسلك إلى ذلك طريقاً تتوفّر فيه بلاغة الأداء وقوة التأثير. فإنه أخبر قومه بغزو سفيان بن عوف الأنبار ، وفي ذلك ما فيه من عارٍ يلحق بهم. ثم أخبرهم بأن هذا المعتدي إنما قتل عامل أمير المؤمنين في جملة من قتل ، وبأن هذا المعتدي لم يكتف بذلك فأغمد سيوفه في نحور كثيرة من رجالهم وأهلهم.

وفي الفقرة الثانية من الخطبة توجه الإمام إلى مكان الحمية من السامعين ، إلى مثار العزيمة والنخوة من نفس كل عربيّ وهو شرف المرأة. وعلي يعلم أنّ من العرب من لا يبذل نفسه إلا للحفاظ على سمعة امرأة وعلى شرف فتاة ، فإذا هو يعتف هؤلاء القوم على القعود دون نصرة المرأة التي استباح الغزاة حماها ثم انصرفوا آمنين ، وما نالت رجلاً منهم طعنة ولا أريق لهم دم !

ثم إنه أبدى ما في نفسه من دهشٍ وحيرةٍ من أمرٍ غريب : فإن أعداءه يتمسكون بالباطل فيناصرونه ، ويدينون بالشر فيغزون الأنبار في سبيله ، فيما يقعد أنصاره حتى عن مناصرة الحق ، فيخذلونه ويفشلون عنه.

ومن الطبيعي أن يغضب الإمام في مثل هذا الموقف ، فإذا بعبارته تحمل كلّ ما في نفسه من الغضب ، فتأتي حارةً شديدةً مسجعةً مقطعةً نائمةً : «فقبحاً

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٧ - ١٠.

لكم وترحاً حين صرُّتم غرضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَّون ولا تُغزَّون ويُعصى الله وترضون!»^(١).

وقد تثور عاطفته وتقطع ، فإذا بعضُها يزحم بعضاً على مثل هذه الكلمات المتقطعة المتلاحقة : «ما ضَعُفْتُ ، ولا جَبُنْتُ ، ولا خُنْتُ ، ولا وَهَنْتُ!»^(٢) وقد تصطلي هذه العاطفة بألمٍ نائرٍ يأتيه من قومٍ أرادَ لهم الخيرَ وما أرادوه لأنفسهم لغفلةٍ في مداركهم ووَهْنٍ في عزائمهم. فيخطبهم بهذا القول الشائر الغاضب ، قائلاً: «ما لي أراكم أيقاظاً تُوما ، وشهوداً غُيباً ، وسامعةً صمَّاء ، وناطقةً بكماء الغ...؟»^(٣).

* * *

والخطباء في العرب كثيرون ، فالخطابة من فنونهم الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام ولا سيمًا في عصر النبي والخلفاء الراشدين ؛ لما كان لهم بها من حاجة. أما خطيب العهد النبوي الأكبر فالنبي لا خلاف في ذلك. أما في العهد الراشدي ، وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبة ، فإنَّ أحدًا لم يبلغ ما بلغ إليه علي ابن أبي طالب في هذا النحو. فالنطق السهل لدى عليٍّ كان من عناصر شخصيته ، وكذلك البيان القوي بما فيه من عناصر الطبع والصناعة جميعاً ، ثم إنَّ الله يسر له العدة الكاملة لما تقتضيه الخطابة من مقومات أخرى على ما مرَّ بنا. فقد ميَّزه الله بالفطرة السليمة ، والذوق الرفيع ، والبلاغة الآسرة^(٤) ، ثم

(١) نهج البلاغة : الخطبة ٢٧ ، ١ / ٦٩ ، الكافي للكليني : ٥ / ٥ ، الفارات : ٢ / ٤٧٦ (تحقيق المحدث) ، نهج

السعادة : ٥ / ٣١٥ ، أنساب الأشراف ترجمة الإمام علي (عليه السلام) باب غارة سفيان الغامدي : ٤٤٢.

(٢) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٤ ، ١ / ٢٠٠.

(٣) نهج البلاغة : الخطبة ١٠٨ ، ١ / ٢٠٧ ، شرح نهج البلاغة : ٧ / ١٨٧.

(٤) البلاغة الآسرة : البلاغة التي تسحر لب سامعها.

بذخيرة من العلم انفردَ بها عن أقرانه ، وبحجةٍ قائمة ، وقوةٍ إقناعٍ دامغة ، وعبقريّةٍ في الارتجال نادرة. أضفْ إلى ذلك صدقَه الذي لا حدود له ، وهو ضرورةٌ في كلّ خطبةٍ ناجحة ، وتجاربُه الكثيرة المَرّة التي كشفتْ لعقله الجبار عن طبائع الناس وأخلاقهم وصفات المجتمع ومحركاته. ثم تلك العقيدة الصلبة التي تصعب مداراتها ، وذلك الألم العميق الممزوج بالحنان العميق ، وبطهارة القلب وسلامة الوجدان وشرف الغاية.

وإنّه لمن الصعب أن تجد في شخصيات التاريخ مَنْ اجتمعت لديه كلّ هذه الشروط التي تجعل من صاحبها خطيباً فذاً ، غير عليّ بن أبي طالب ، ونفّر من الخلق قليل ، وما عليك إلاّ استعراض هذه الشروط ، ثمّ استعراض مشاهير الخطباء في العالمين الشرقي والغربي ، لكي تدرك أنّ قولنا هذا صحيح لا غلو فيه.

وابن أبي طالب على المنبر رابط الجأش ، شديد الثقة بنفسه وبعُدل القول ، ثمّ إنّ قوتي الفراسة سريع الإدراك ، يقف على دخائل الناس وأهواء النفوس وأعماق القلوب ، زاخرُ جنائهُ بعواطف الحرّية والإنسانية والفضيلة ، حتّى إذا انطلق لسانه الساحر بما يجيش به قلبه ادركَ القومَ بما يحرك فيهم الفضائل الراقدة والعواطف الحامدة.

أمّا إنشأؤه الخطابي فلا يجوز وصفه إلاّ بأنه أساسٌ في البلاغة العربية. يقول أبو هلال العسكري صاحب «الصناعتين» : ليس الشأن في إيراد المعاني - وحدها - وإنما هو في جودة اللفظ ، أيضاً ، وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب والخلق من

أود النظم^(١) والتأليف.

من الألفاظ ما هو فخْمٌ كأنه يجتزّ ذبول الأرجوان أنفَةً وتيها. ومنها ما هو ذو قعقة كالجنود الزاحفة في الصفيح. ومنها ما هو كالسيف ذي الحدّين. ومنها ما هو كالنقاب الصفيق يُلقى على بعض العواطف ليستر من حدّتها، ويخفّف من شدّتها. ومنها ما له ابتسامة السماء في ليالي الشتاء، فمن الكلام ما يفعل كالمقرعة وهو كلام الانتقاد والتنديد. ومنه ما يجري كالنبع الصافي وهو المعذ للرضى والغفران. ومنه ما يضيء كالشهاب وهو كلام التعظيم. كذلك من الكلام ما ليس له طابع خاص، فيؤتى به لتقوية الجملة ودعم المعنى، فهو يلائم كلّ حال.

كلّ ذلك ينطبق على خطب علي في مفرداتها وتعابيرها. هذا بالإضافة إلى أنّ الخطبة تحسن إذا انطبعت بهذه الصفات اللفظية على رأي صاحب الصناعتين، فكيف بها إذا كانت كخطب ابن أبي طالب تجمع روعة هذه الصفات في اللفظ إلى روعة المعنى وقوّته وجلاله؟

وإليك ما جاء في فصلٍ سابقٍ لنا من هذا الكتاب تحت عنوان «الضمير العملاق» بصدد بيان الإمام علي، لا سيّما ما كان منه في خطبه :

نهجٌ للبلاغة آخذٌ من الفكر والخيال والعاطفة آياتٍ تتصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الإنسان، وما بقي له خيالٌ وعاطفةٌ وفكر، مترابطٌ بآياته متساوق، متفجّر بالحس المشبوب والإدراك البعيد، متدفّق بلوعة الواقع وحرارة الحقيقة والشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع، متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج، حتى ليندمج التعبير بالمدلول، أو الشكل

(١) أود النظم : أود الشيء : اعوجّ. القاموس المحيط : ٢٧٥/١، مادة «أود».

بالمعنى ، اندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء. فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر ، والبحر إذ يتموج والريح إذ تطوف ، أو قبالة الحَدَث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة على ما هو كائنٌ عليه من الوحدة، لا تفرّق بين عناصرها إلا لتمدح وجودها وتجعلها إلى غير كَوْن!

بيانٌ لو نطق بالتقرّيع لانقَضَ على لسان العاصفة انقضاءً! ولو هَدَدَ للفساد والمفسدين لتفجّر براكينٌ لها أضواءٌ وأصوات! ولو انبسط في منطقي لَخاطَبَ العقولَ والمشاعر فأَقْلَلَ كُلَّ بابٍ على كُلِّ حِجَّةٍ غير ما ينبسط فيه! ولو دعا إلى تأملٍ لَرافَقَ فيك منشأ الحسِّ وأصل التفكير، فساقك إلى ما يريدُه سَوَقاً ، ووَصَلَكَ بالكون وضلاً ، ووَحَدَ فيك القوى للاكتشاف توحيداً. وهو لو راعاك لأدركتَ حنانَ الأب ومنطقَ الأبوة وصدَقَ الوفاء الإنساني وحرارةَ المحبّة التي تبدأ ولا تنتهي. أما إذا تحدّثَ إليك عن بهاء الوجود وجماليات الخلق وكمالات الكون ، فإنما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء.

بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة ، وتنزيلٌ من التنزيل. بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون، حتّى قال أحدهم في صاحبه : إنّ كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

وخطَبَ عليّ جميعاً تنضح بدلائل الشخصية ، حتّى لكَانَ معانيها وتعاييرها هي خوالج نفسه^(١) بالذات ، وأحداث زمانه التي تشتعل في قلبه كما تشتعل النار في موقدها تحت نفخ الشمال. فإذا هو يرتجل الخطبة حسّاً دافقاً وشعوراً زاخراً ، وإخراجاً بالغاً غاية الجمال.

(١) خوالج النفس : نوازع النفس ، يقال تخالجه : تجاذبه وتنازعه. تاج العروس: ٣٥/٢، مادة «خليج».

وكذلك كانت كلمات علي بن أبي طالب المرتجلة ، فهي أقوى ما يمكن للكلمة المرتجلة أن تكون من حيث الصدق ، وعمق الفكرة ، وفنية التعبير ، حتى إنها ما نطقت بها شفتاه إلا ذهبث مثلاً سائراً.

فمن روائعه المرتجلة قوله لرجلٍ أفرط في مدحه بلسانه وأفرط في اتهامه بنفسه : «أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك»^(١).

ومن ذلك أنه لما اعتزم أن يقوم وحده لمهمة جلييلة تردّد فيها أنصاره وتخاذلوا، جاءه هؤلاء وقالوا له ، وهم يشيرون إلى أعدائه : يا أمير المؤمنين! نحن نكفيكهم. فقال من فوره : «ما تكفوني أنفكم فكيف تكفوني غيركم؟ إن كانت الرعايا قلبي لتشكو حيف رُعائها، فإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأني المقود وهم القادة»^(٢).

ولما قتل أصحاب معاوية محمد بن أبي بكر فبلغه خبر مقتله قال : «إن حزننا عليه قدر سرورهم به ، ألا إنهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً»^(٣).

وسئل: أيهما أفضل: العدل أم الجود؟ فقال: «العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يُخرجها من جهتها، والعدل سائس عام، والجود عارض خاص، فالعدل أشرفهما وأفضلهما»^(٤).

وقال في صفة المؤمن ، مرتجلاً :

«المؤمن بشره في وجهه ، وحزنه في قلبه ، أوسع شيء صدراً ، وأذل شيء نفساً.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٨٣

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٦١

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٢٥

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٣٧

يكره الرفعة ، وَيَشْنَأُ السَّعَةَ^(١) ، طَوِيلَ غَمِّهِ ، بَعِيدُ هَمِّهِ ، كَثِيرُ صَمْتِهِ ، مَشْغُولُ وَقْتِهِ ، شُكُورُ صَبُورٍ ، سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَيْنُ الْعَرِيكََةِ^(٢) .

وسأله جاهل متعنّت عن معضلة ، فأجابه على الفور : «اسأل تفقّها ولا تسأل تعنّتاً ، فإنّ الجاهل المتعلم شيءٌ بالعالم ، وإنّ العالم المتعسف شيءٌ بالجاهل المتعنّت»^(٣) .
والخلاصة أنّ عليّ بن أبي طالب أديبٌ عظيمٌ ، نشأ على التمرّس بالحياة ، وعلى المرونة بأساليب البلاغة فإذا هو مالكٌ ما يقتضيه الفنّ من أصالةٍ في شخصية الأديب ، ومن ثقافة تنمو بها الشخصية وتتركز الأصالة .

أما اللغة ، لغتنا العربية الحبيبة التي قال فيها مرشّوس في المجلّد الأوّل من كتابه «رحلة إلى الشرق» هذا القول الذكيّ : «اللغة العربية هي الأغنى والأفصح والأكثر والألطف وقعاً بين سائر لغات الأرض . بتراكيب أفعالها تتبع طيران الفكر وتُصوِّره بدقّة ، وبأنغام مقاطعها الصوتية تقلّد صراخ الحيوانات ، ورقرة المياه الهاربة ، وعجيج الرياح وقصف الرعد» ، أمّا هذه اللغة ، بما ذكر مرشّوس من صفاتها وبما لم يذكر ، فإنّك واجدٌ أصولها وفروعها ، وجمال ألوانها وسحرَ بيانها ، في أدب الإمام عليّ .
وكان أدباً في خدمة الإنسان والحضارة .

(١) يشنأ السعة : يبغضها ، ويكرهها . كتاب العين : ٢٨٧/٦ ، مادة «شنأ» .

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٣٣ - ٣ .

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٢٠ .

من روائع الإمام

طائفة من أقواله

في رسائل الإمام عليّ وفي عهوده ووصاياه ، وفي خطبه وسائر أقواله .
روائع خالدة تناوَلها من الإنسان جوهرأً وغاية ، ومن الكون معنىً وشكلاً ،
ومن أحوال زمانه وأحداث عصره ، ودفعها عقله الحكيم إلى خياله وقلبه
حقائق علمية خالصة ، فإذا بها لا تمرّ على خياله الخصب وعاطفته الحارة إلا
لتتحرك وتنمو وتنبعث ، وفيها امتدادات وتنبؤ وخفوق ، فما هي إلا حياة
من الحياة.

وإنها لتراث عظيم للإنسانية بوصفها دستوراً جليلاً في الأخلاق الخاصة
والعامة ، لا تسمو عليه دساتير الأنبياء والمفكرين والحكماء في مختلف
العصور والأمكنة.

ونلفت أنظار القراء - بصورة خاصة - إلى ما يبدو في هذه الآثار العلوية
من دعوة إلى السلم ، والمؤاخاة والتصافي في سبيل الانطلاق إلى الميادين
الإنسانية الرحبة ، وفي سبيل إكرام الحياة واحترام الأحياء. وإنه ليجدر بمثيري
الحروب اليوم ، ومستبتي ويلات الشعوب والأفراد ، أن يسمعوا كلمات جبار
الفكر العربي ، وعملاق الضمير الإنساني : علي بن أبي طالب ، ويعوها ،
ويطأطئوا رؤوسهم لصاحبها العظيم.

وقد أثبتنا في هذا الفصل روائع اتخذناها شواهد هنا وهناك في هذا الكتاب. وروائع أخرى كثيرة لم تُذكر إلا بهذا الفصل من المختارات. وأهملنا إثبات روائع غير قليلة لورودها على صورة بارزة في أبحاثٍ سابقاتٍ ولاحقاتٍ. وإليك الآن هذه الطائفة من آثار العقل والقلب والوجدان :

مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ. ^(١)

لَا تَظُنَّنْ بِكَلِمَةٍ خَرَجْتَ مِنْ أَحَدٍ سَوْءًا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُخْتَمَلًا. ^(٢)

أَسْأَلُ النَّاسَ حَالًا مَنْ لَمْ يَثِقْ بِأَحَدٍ لِسَوْءِ ظَنِّهِ ، وَمَنْ لَمْ يَثِقْ بِهِ أَحَدٌ لِسَوْءِ فَعْلِهِ. ^(٣)

لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ بِالظَّنِّ عَلَى الثِّقَةِ. ^(٤)

سَوْءُ الظَّنِّ يَدْوِي ^(٥) الْقُلُوبَ ، وَيَتَّهَمُ الْمَأْمُونِ ، وَيُوحِشُ الْمُسْتَأْنَسَ ، وَيَغَيِّرُ مَوَدَّةَ

الْإِخْوَانِ. ^(٦)

مَا الْمَجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَعْظَمِ أَجْرًا مِمَّنْ قَدَرَ فَقَعَفَ : لَكَادَ الْعَفِيفُ أَنْ يَكُونَ

مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. ^(٧)

الْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ. ^(٨)

مَا كَلَّ مَفْتُونٌ يُعَاتَبُ ^(٩). ^(١٠)

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٤٨، والكتاب : ٣١ - ١٠٣، وفيها : وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٣٦٠.

(٣) نهج البلاغة، غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٧٤٨ وفيها : شَرَّ النَّاسِ مَنْ لَا يَثِقُ بِأَحَدٍ لِسَوْءِ ظَنِّهِ ، وَلَا يَثِقُ بِهِ أَحَدٌ لِسَوْءِ فَعْلِهِ.

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٢٠، وفيها : لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ.

(٥) يدوي : يصيبه بالداء.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٠٨ / ٢.

(٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٧٤.

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢١١ - ١.

(٩) أي : لَا يَتَوَجَّهُ الْعَتَابُ وَاللُّومُ إِلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي فِتْنَةٍ ، فَقَدْ يَدْخُلُ فِيهَا مَنْ لَا مَحِيصَ لَهُ عَنْهَا لِأَمْرِ اضْطِرَّهِ فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ.

- أولى الناس بالعمو أقدرهم على العقوبة. (١)
- استز عورة أخيك واغتفر زلة صديقك. (٢)
- عليك بالصدق في جميع أمورك. (٣)
- لا سوء أسوأ من الكذب. (٤)
- الكذب يخيف نفسه وهو آمن. (٥)
- علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضررك على الكذب حيث ينفعك. (٦)
- جانبوا الكذب، فإن الصادق على منجاة وكرامة، والكاذب على شقاء مهواة وهلكة. (٧)
- الكذاب والميت سواء ، لأن فضيلة الحي على الميت الثقة به ، فإذا لم يوثق بكلامه فقد بطلت حياته. (٨)
- إن كنت صادقاً كافيناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك. (٩)
- لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا في أن يعد أحدكم صيته ثم لا يلي له. إن الكذب يهدي إلى الفجور. (١٠)
- خير المقال ما صدقته الفعال. (١١)

(١٠) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٥.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٥٢.

(٢) تحف العقول : ٩٨ ، شرح أصول الكافي : ١١ / ٢٣٢.

(٣) نهج السعادة : ١ / ٣٤٥.

(٤) فروع الكافي : ٨ / ١٩.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٩٤.

(٦) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٥٨.

(٧) تحف العقول ، للحزاني : ١٥١.

(٨) شرح أصول الكافي : ١ / ١٨٦.

(٩) فروع الكافي : ٧ / ٧٨.

(١٠) الدر المنثور : ٣ / ٢٩٠ ، والقول للنبي ﷺ.

(١١) عيون الحكم والمواعظ : ٢٤٠.

إِنَّ مَنْ عَدِمَ الصَّدَقَ فِي مَنْطِقِهِ فَقَدْ فُجِعَ بِأَكْرَمِ أَخْلَاقِهِ. (١)
 ما السيف الصارم في كَفِّ الشَّجَاعِ بِأَعَزِّ لَهُ مِنَ الصَّدَقِ. (٢)
 أَفْبَحُ الصَّدَقِ ثَنَاءُ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ. (٣)
 ذَمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةً. (٤)
 اعْتَصِمُوا بِالذِّمِّ. (٥)
 لَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ وَلَا تَخْتَلَنَّ عِدْوَكَ. (٦)
 أَوْفُوا إِذَا عَاقَدْتُمْ ، وَاعْدِلُوا إِذَا حَكَمْتُمْ ، وَلَا تَفَاخَرُوا بِالْأَبَاءِ. (٧)
 لَا تَكُنْ مَتْنٌ يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي ، وَيَصِفُ الْعَبْرَةَ وَلَا يُعْتَبِرُ ، فَهُوَ عَلَى
 النَّاسِ طَاعَةٌ وَلِنَفْسِهِ مُدَاهَنٌ. (٨)
 لَا تَصْحَبِ الْمَانِقَ (٩) ، فَإِنَّهُ يَزِينُ لَكَ فَعْلَهُ وَيُوَدِّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ. (١٠)
 إِيَّاكَ وَمَصَادَقَةَ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيُضْرِكُ! وَإِيَّاكَ وَمَصَاحِبَةَ الْبَخِيلِ فَإِنَّهُ
 يَتَبَعُكَ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ! وَإِيَّاكَ وَمَصَادَقَةَ الْكَذَّابِ فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ : يَقْرَبُ عَلَيْكَ
 الْبَعِيدَ وَيُبْعِدُ عَنْكَ الْقَرِيبَ. (١١)

(١) معدن الجواهر ، للكراجكي : ٢٣ ، شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٣٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٩٦ .

(٣) عيون الحكم والمواعظ : ١١٨ ، ميزان الحكمة : ٤ / ٢٨٦٥ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦ - ١ .

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٥ .

(٦) نهج البلاغة ، الكتاب ٥٣ - ١٣٦ .

(٧) تحف العقول : ١٥١ .

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٠ - ١٠ .

(٩) المائق : الأحق . لسان العرب : ٣٥٠ / ١٠ ، مادة «موق» .

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٩٣ .

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٨ - ٤ .

لا صديق لمتلّونٍ ، ولا وفاء لكذوب ، ولا راحة لحسود ، ولا مروءة لدنيء. (١)

إياكم والخديعة فإنّها من خُلق اللّثام. (٢)

والله ما معاوية بأدهى منّي ، ولكنّه يغدر ويفجر ، ولولا كراهيةُ القدر لكنّنتُ أدهى

الناس. (٣)

انتهزوا فَرَصَ الخير. (٤)

إفعلوا الخير ولا تخفّروا منه شيئاً ، فإنّ صغيره كبيرٌ وقليله كثير. (٥)

قولوا الخير تُعرفوا به ، واعملوا الخير تكونوا من أهله. (٦)

الساعي بالخير كفاعله ، أمّا الساعي بالشرّ ومحاوية الخير فهو عدوّ الله والبشر.

ولا يقولنّ أحدُكم : إنّ أحداً أولى بفعل الخير منّي فيكون والله كذلك. (٧)

إذا تحرّكت صورة الشرّ ولم تظهر ولدت الفزع ، فإذا ظهرت ولدت الألم. وإذا تحرّكت

صورة الخير ولم تظهر ولدت الفرج ، فإذا ظهرت ولدت اللذة. (٨)

الكَيْش مَنْ كان يومه خيراً من أمسه. (٩)

مَنْ اعتدل يوماه فهو مغبون. (١٠)

إذا رأيتم الشرّ فاعرضوا عنه. (١١)

(١) تحف العقول : ٣٧٦ ، وفيه : لا مروءة لكذوب ، ولا راحة لحسود...

(٢) تحف العقول : ٨١

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٠ - ١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٥٠١.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٢٢.

(٦) المحاسن ، للبرقي : ١٥ / ١.

(٧) وسائل الشيعة : ١١٨ / ١.

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢٨٢ / ٢.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٧٩٧.

(١٠) بحار الأنوار : ٣٧٦ / ٧٤.

(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٧ - ٥.

مَنْ مَنَّ بِمَعْرُوفِهِ أَفْسَدَهُ. ^(١)
 لَا يُزْهَدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُكَ. ^(٢)
 أَهْلُ الْمَعْرُوفِ إِلَى اصْطِنَاعِهِ أَحْوَجُ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. ^(٣)
 لَا تَسْتَصْغِرْ شَيْئاً مِنَ الْمَعْرُوفِ قَدَرْتَ عَلَى اصْطِنَاعِهِ إِثَاراً لِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ، فَإِنَّ الْيَسِيرَ فِي حَالِ الْحَاجَةِ أَنْفَعُ مِنَ الْكَثِيرِ فِي حَالِ الْغِنَى عَنْهُ. ^(٤)
 قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ. ^(٥)
 فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ. ^(٦)
 لَا تَعْمَلِ الْخَيْرَ رِيَاءً وَلَا تَتْرَكْهُ حِيَاءً. ^(٧)
 مَنْ لَا يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهِيمَةِ. ^(٨)
 إِسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُقَوِّيكَ عَلَى الْعَمَلِ بِكُلِّ خَيْرٍ. ^(٩)
 لَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. ^(١٠)
 أَطْلُبُوا الْخَيْرَ وَأَهْلَهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْراً مِنَ الْخَيْرِ مَعْطِيهِ، وَشَرّاً مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ. ^(١١)
 كُنْتُ أَنَا وَالْعَبَّاسُ وَعَمْرُنْتَذَاكَرُ الْمَعْرُوفِ، فَقُلْتُ أَنَا: خَيْرُ الْمَعْرُوفِ سِتْرُهُ.
 وَقَالَ الْعَبَّاسُ: خَيْرُهُ تَصْغِيرُهُ. وَقَالَ عَمْرٌ: خَيْرُهُ تَعْجِيلُهُ. فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ

(١) مَنْ لَا يَحْضُرُهُ الْفَقِيه : ٤ / ٣٩٠.

(٢) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، قِصَارُ الْحُكْمِ : ٢٠٤.

(٣) كَشَفُ الْغُتَّةِ، لِلْأَرْبَلِيِّ : ٣ / ١٣٩.

(٤) مِيزَانُ الْحِكْمَةِ، لِلرِّيِّ شَهْرِي : ٣ / ١٩٣٦.

(٥) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، مِنْ وَصِيَّتِهِ لِلْإِمَامِ الْحَسَنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) : ٣ / ٥٢.

(٦) نَهْجُ الْبَلَاغَةِ، الْكَلِمَاتُ الْقِصَارُ : ٣٢.

(٧) عَيُونُ الْحُكْمِ وَالْمَوَاقِفُ : ٥٢٢.

(٨) تَحْفُ الْعُقُولِ، لِلْحَزَنِّيِّ : ٩٩.

(٩) نَهْجُ السَّعَادَةِ : ٥ / ١٢.

(١٠) مُسْتَدْرَكُ الْوَسَائِلِ : ٢ / ٣٦٨.

(١١) تَحْفُ الْعُقُولِ، لِلْحَزَنِّيِّ : ٥٧.

الله ، فقال : فيم أنتم ؟ فذكرنا له ، فقال : خيره أن يكون هذا كله فيه.^(١)
 ما من يوم يمر على ابن آدم إلا قال له : أنا يوم جديد ، وأنا عليك شهيد ، فقل في خيراً
 واعمل في خيراً فإنك لن تراني بعد هذا أبداً!^(٢)
 قال في صفة الإنسان الشريف : ينوي كثيراً من الخير ، ويعمل بطائفة منه ،
 ويتلهف على ما فاتته كيف لم يعمل به.^(٣)
 وقال فيه أيضاً : قد ألزم نفسه العدل ، يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية إلا
 أمها ، ولا مظنة إلا قصدها^{(٤) (٥)}.
 أحصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك.^(٦)
 من استحسّن القبيح كان شريكاً فيه.^(٧)
 إذا أردت أن تعرف طبع الرجل فاستشره. فإنك تقف في مشورته على عدله وجوره ،
 وخيره وشره.^(٨)

ليس في البرق الخاطف مستمتع^(٩) لمن يغوص في الظلمة.^(١٠)
 ما خير خير لا ينال إلا بشر^(١١) ويسر لا ينال إلا بعسر.^(١٢)

(١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٠

(٢) من لا يحضره الفقيه : ٣٩٧/٤ .

(٣) تحف العقول : ٢١٢ .

(٤) مظنة خير : موضع ظن لوجود خير .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ٨٧ - ٩ .

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٨ .

(٧) بحار الأنوار : ٨٢ / ٧٥ ، وفيه : من استحسّن قبيحاً...

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٢ .

(٩) مستمتع : متعة .

(١٠) عيون الحكم والمواعظ : ٤١١ .

(١١) يقول : أتى خير في شيء سماه الناس خيراً وهو متا لا يناله الإنسان إلا بفعل الشر .

(١٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٨٧ - ٣١ .

إقبل عذر من اعتذر إليك ، وأخر الشر ما استطعت. (١)
 ليكن أمر الناس عندك في الحق سواء. (٢)
 من تعدى الحق ضاع مذهبه. (٣)
 من صارع الحق صرعه. (٤)
 لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل. (٥)
 ألا وإنه بالحق قامت السماوات والأرض فيما بين العباد. (٦)
 ما شككت في الحق مذ رأيت. (٧)
 اتبعوا الحق وأهله حيث كانوا. (٨)
 لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة ، وما أكره الموت على
 الحق. (٩)

ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه. (١٠)
 من طلب عزاً بباطلٍ أوردته الله ذلاً بحق. (١١)
 أعلم أنه لا يحمل الناس على الحق إلا من وزعهم (١٢) عن الباطل. (١٣)

-
- (١) دستور معالم الحكم ، لابن سلامة : ٦٩ .
 (٢) نهج البلاغة : الكتاب ٥٩ - ١ ، وفيه : فليكن...
 (٣) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ - ١١١ .
 (٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٠٨ .
 (٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣٠ - ٣ ، وغرر الحكم : ٩٤٨٢ .
 (٦) بحار الأنوار ، ٣٣ / ٤٩٣ .
 (٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ٤ - ٥ .
 (٨) المسترشد ، للطبري : ٤٠١ .
 (٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣٦ - ٦ .
 (١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٦١ .
 (١١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٠٩ .
 (١٢) وزعهم : ردعهم . النهاية في غريب الحديث : ١٨٠ / ٥ ، مادة «وزع» .
 (١٣) من لا يحضره الفقيه ، للصدوق : ٣ / ١٥ .

- مَنْ اسْتَغْلَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ. ^(١)
- لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكَبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ وَإِنْ طَالَ السُّرَى. ^(٢)
- لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهَدَى لِقَلَّةِ مَنْ يَسْلُكُهُ. ^(٣)
- اعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلُ لَغَيْرِ اللَّهِ يَكِلُهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ. ^(٤)
- لِلْمُرَائِي ثَلَاثَ عِلَامَاتٍ : يَنْشَطُ إِذَا رَأَى النَّاسَ ، وَيَكْسِلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ وَيَحِبُّ أَنْ يَحْمَدَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. ^(٥)
- مَنْ أَسْعَفَ أَخَاهُ مُبْتَدَأً وَبَرَّهَ رَاغِباً فَلَهُ الْأَجْرُ. ^(٦)
- لِيَكُنْ دَنُوكَ مِنَ النَّاسِ لِينًا وَرَحْمَةً. ^(٧)
- عَاتَبَ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَارْدُدْهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ. ^(٨)
- صَلِّ مَنْ قَطَعَكَ ، وَاعْطِ مَنْ حَرَمَكَ ، وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، وَقِلْ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ. ^(٩)
- إِنْ كُنْتَ مِنْ أَخِيكَ عَلَى ثِقَةٍ فَاذْهَبْ لَهُ مَالَكَ وَيَدِكَ. ^(١٠)
- أُزْجِرِ الْمُسِيءَ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ. ^(١١)

(١) بحار الأنوار : ٢٧ / ٢٥٣ ، و ٧٤ / ٣٥٩ ، نهج السعادة : ٢ / ١٨٦ ، شرح نهج البلاغة : ١١ / ١٠١ .

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢ .

(٣) مستدرك الوسائل : ١٢ / ١٩٤ .

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٥٣٤ ، ونهج البلاغة ، خطبة : ٣٣ - ٦ .

(٥) مستدرك الوسائل : ١١٤ / ١ .

(٦) وسائل الشيعة : ٧ / ٢٢٧ .

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٣ - ٢٧ ، وفيها : ودنوء ممن دنا منه لين ورحمة .

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٨ .

(٩) نهج السعادة : ٣٥٣ / ٧ ، كنز العمال : ٣٥٨ / ٣ .

(١٠) تحف العقول ، ٢٠٥ .

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٧ .

إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر. (١)
 خذْ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين (٢). (٣)
 إن لم تكن حليماً فتحلّم ، فإنه قلّ من تشبّه بقومٍ إلا أوشك أن يكون منهم. (٤)
 ليس جزاء من سرك أن تسوءه. (٥)
 ما ظفر من ظفر الإثم به ، والغالب بالشرّ مغلوب. (٦)
 من أساء خلقه عذب نفسه. (٧)
 كفى بحسن الخلق نعيماً. (٨)
 لا تَعِدَنَّ عِدَةً تحقرها قلّة الثقة بنفسك ، ولا يغرّتك المرتقى السهل إذا كان المنحدر
 وغراً. (٩)
 أوصيك بالحلم عند الجهل ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ،
 واجتناب الفواحش. (١٠)
 إرحم تُرحم ، قلّ خيراً تُذكر بخير ، اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار. (١١)
 ليرأف كبيركم بصغيركم. (١٢)

(١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣١٤.

(٢) الظفرين : الذي يكون نتيجة القتال ، وذلك الذي يكون نتيجة الإحسان.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ١٠٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٠٧.

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ١٠٥.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٨٣٠ ، ونهج البلاغة : قصار الحكم : ٣٢٧.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم : ٨١٥٦.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢٩.

(٩) شرح النهج : ٢ / ٢٦٠.

(١٠) بحار الأنوار : ٤٢ / ٢٤٥.

(١١) أمالي الصدوق : ٢٧٨.

(١٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٦ - ١.

مَن وعظ أخاه سرّاً فقد زانه ، ومن وعظه علانيةً فقد شانه. ^(١)
 عليكم بكلمة الحق في الرضا والغضب ، وبالعدل على الصديق والعدو. ^(٢)
 عليك لأخيك مثل الذي لك عليه. ^(٣)
 الغيبة جُهدُ العاجز. ^(٤)
 سامع الغيبة أحد المغتابين. ^(٥)
 نَظَر إلى رجل يفتاب آخر عند ابنه الحسن ، فقال : يا بني ! نَزَّ سمعك عنه ، فإنه نظر إلى
 أخبث ما في وعائه فأفرَّغه في وعائك. ^(٦)
 امحُض أخاك النصيح وساعذه على كلِّ حال ، ولا تصرم أخاك على ارتياب ولا تقاطعه
 دون استعتاب ، فلعَلَّ له عذراً وأنت تلوم. ^(٧)
 أكثر البرِّ ما استطعتَ لجليسك. ^(٨)
 كفى أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك. ^(٩)
 الويل كلَّ الويل لمن استحسن لنفسه ما يكرهه لغيره ، وأزرى على الناس بمثل ما
 يأتي. ^(١٠)

(١) تحف العقول : ٤٨٩.

(٢) نهج السعادة للمحمودي : ٧ / ٤٧٤ ، تحف العقول : ٨٨ ، ينابيع المودة : الباب ١٠٠.

(٣) فروع الكافي : ٧ / ٢٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٦١.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٥٨٣.

(٦) الاختصاص للمفيد : ٢٢٥.

(٧) تحف العقول : ٨٢.

(٨) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩١.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤١٢ ، وفيه : كفاك أدباً...

(١٠) تحف العقول : ٩١.

ليس بعاقلي من انزعج من قول الزور فيه ، ولا بحكيم من رضي ببناء الجاهل عليه. (١)
من تجرأ لك تجرأ عليك. (٢)

من مدحك بما ليس فيك من الجميل وهو راضٍ عنك ذمك بما ليس فيك من القبح ،
وهو ساخط عليك. (٣)

عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح! وعجباً لمن قيل فيه الشر وليس فيه
كيف يغضب! (٤)

لتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك. (٥)
من استحيا من الناس ولم يستح من نفسه فليس لنفسه عنده قدر! (٦)
رأس العلم الرفق. (٧)

ما كان الرفق في شيء إلا زانه. (٨)
وإن غائباً يحدوه الجديدان - الليل والنهار - لحري بسرعة الأوبة. (٩). (١٠)
طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس. (١١)

(١) تحف العقول : ٢٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٣٤٢.

(٣) عيون الحكم والمواعظ ، لعلي بن محمد الواسطي : ٤٤٠.

(٤) شرح نهج البلاغة : ١١ / ١٠٣.

(٥) المصدر السابق : ٢٠ / ٢٧٤.

(٦) المصدر السابق : ٢٠ / ٢٦٥.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٢٢٤.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ٩٥١٧.

(٩) يحدوه : يسوقه. الأوبة : الرجوع. لسان العرب : ٢١٨/١، مادة «أوب».

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٦٤ - ٤.

(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٦ - ٣٥.

- مَنْ نَظَرَ فِي عِيُوبِ النَّاسِ فَأَنكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَاكَ الْأَحْمَقُ بَعِينُهُ. ^(١)
- مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ شُغِلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ. ^(٢)
- مَنْ نَسِيَ زَلْلَهُ اسْتَغْظَمَ زَلْلَ غَيْرِهِ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ. ^(٣)
- وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ لَا يَعْرِفَ قَدْرَهُ. ^(٤)
- الْجَاهِلُ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلُ. ^(٥)
- مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ. ^(٦)
- هَلْكَ امْرُؤٌ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَهُ. ^(٧)
- أَنْظُرْ وَجْهَكَ كُلَّ وَقْتٍ فِي الْمَرْأَةِ ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا فَاسْتَقْبِحْ أَنْ تُضِيفَ إِلَيْهِ فَعْلًا قَبِيحًا
وَتَشِينَهُ بِهِ. وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا فَاسْتَقْبِحْ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ! ^(٨)
- الْإِنْسَانُ مِرَاةَ الْإِنْسَانِ ، يَتَأَمَّلُهُ وَيَسَدِّدُ فَاقَتَهُ. ^(٩)
- إِذَا كَانَ فِي رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِقَةٌ فَانْتَظَرُوا أَخَوَاتَهَا ^(١٠). ^(١١)
- شِيرَاؤُكُمْ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمَفْرَقُونَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ ، الْمُبْتَغُونَ لِلْأَبْرِيَاءِ الْمَعَايِبَ. ^(١٢)

(١) تحف العقول : ٨٩ .

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٩ - ١ .

(٣) فروع الكافي : ١٩ / ٨ .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦ - ٩ ، وغرر الحكم ودرر الكلم : ٧٠٥٤ .

(٥) تحف العقول : ١٣٩ .

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم : ٧٩٤٦ .

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٩ .

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢٧١ / ٢ .

(٩) مستدرک الوسائل : ٩ / ٤٩ ، وفيه المؤمن مرآة المؤمن ، لأنه يتأمله...

(١٠) الخلة : الخصلة. الصحاح : ١٦٨٥ / ٤ .

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٤٥ .

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٢ .

لا سؤدد مع انتقام ، ولا صواب مع ترك المشورة. (١)

لا أقبل شهادة الفاسق إلا على نفسه. (٢)

إذا حُيِّتَ بتحيةٍ فحيّ بأحسن منها ، وإذا اسديت إليك يدٌ فكافئها بما يربى عليها ،
والفضل في ذلك للبادي. (٣)

إذا بلغ المرء من الدنيا فوق قدره ، تنكرت للناس أخلاقه. (٤)

إذا رفعت أحداً فوق قدره فتوقع منه أن يحطّ منك بقدر ما رفعت منه. (٥)

لا تشمت بالمصائب ولا تدخل في الباطل ولا تخرج من الحق. (٦)

لا تفرح بسقطة غيرك ، فإنك لا تدري ما تتصرف الأيام بك. (٧)

أكرم نفسك عن كلّ دتية. (٨)

لا يأبى الكرامة إلا حمار. (٩)

من حمل نفسه ما لا يطيق عجز. (١٠)

من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب. (١١)

(١) مناقب الخوارزمي : ٣٧٥.

(٢) وسائل الشيعة : ١٦ - الباب ٦ ، الحديث رقم ١.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٢.

(٤) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٢.

(٥) المصدر السابق : ٢ / ٢٩٨.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٣ - ٢٥ ، وفيها : المتقي : ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق.

(٧) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٩.

(٨) نهج البلاغة : الكتاب ٣١ - ٨٦.

(٩) معاني الأخبار للصدوق : ١٦٣.

(١٠) مستدرک سفينة البحار : ١٠ : ٣٠٠.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٤.

- مَنْ عَزَى الشُّكْلَى فَقَدْ أَظْلَمَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ. ^(١)
 أَدَبُ الْيَتِيمِ بِمَا تَوَدَّبَ بِهِ وَلَوْلَاكَ. ^(٢)
 سَاوُوا ضِعْفَاءَكُمْ فِي مَا كَلِمَتِكُمْ. ^(٣)
 لَا يَطْمَعُ قَرِيبُكَ فِي حَيْفِكَ ^(٤) وَلَا يَيْأَسُ عَدُوُّكَ مِنْ عَدْلِكَ. ^(٥)
 إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ. ^(٦)
 لَا تَصْحَبَنَّ فِي سَفَرٍ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِنَ الْفَضْلِ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا يَرَى لَهُ مِنَ الْفَضْلِ عَلَيْكَ. ^(٧)
 إِنَّ مَشْيَ الْمَاشِي مَعَ الرَّاكِبِ مَفْسَدَةٌ لِلرَّاكِبِ وَمِثْلَةٌ لِلْمَاشِي. ^(٨)
 لَا تُسَارِ أَحَدًا فِي مَجْلِسِكَ ، وَإِنْ غَضِبْتَ فَقُمْ ، وَلَا تَقْضَيْنَ وَأَنْتَ غَضْبَانٌ. ^(٩)
 أَلَا فاعْمَلُوا فِي الرِّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرِّهْبَةِ. ^(١٠)
 إِذَا طَرَقَكَ إِخْوَانُكَ فَلَا تَدْخُرْ عَنْهُمْ مَا فِي الْبَيْتِ ، وَلَا تَتَكَلَّفْ لَهُمْ مَا وَرَاءَ الْبَابِ. ^(١١)
 شَرُّ الْإِخْوَانِ مَنْ تَكَلَّفَ لَهُ. ^(١٢)
 إِنَّاكَ وَكُلُّ عَمَلٍ إِذَا ذُكِرَ لِمَا حَبِهَ أَنْكَرَهُ! ^(١٣)

(١) الذكري ، للشهيد الأول : ٧١.

(٢) وسائل الشيعة : ١٥ - الباب ٨٥ من أحكام الأولاد ، الحديث الأول.

(٣) مصباح المتعبد ، للطوسي : ٧٥٧ ، بحار الأنوار : ٩٤ / ١١٧.

(٤) حيفك : ظلمك.

(٥) فروع الكافي ، ٤١٣ / ٧ ، من لا يحضره الفقيه : ١٥ / ٣ ، تهذيب الأحكام للطوسي : ٢٢٦ / ٦.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٦ ، المعيار والموازنة ، للأسكافي : ١٣٧.

(٧) وسائل الشيعة ، ٣٠٢ / ٨ ، الكافي للكليني : ٢٨٦ / ٤.

(٨) المحاسن ، للبرقي : ٦٢٩.

(٩) مجمع الفائدة ، للأردبيلي : ٤٣ / ١٢.

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٥٢ - ٤.

(١١) المحاسن : ٤١٥ ، وفيه : لا تدخرن شيئاً مما في بيتك ولا تتكلف شيئاً مما وراء الباب.

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٩.

(١٣) شرح أصول الكافي : ٢٩٨ / ٩.

مَنْ عَمِلَ فِي السِّرِّ مَا يَسْتَحْيِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ ؛ فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ. ^(١)
 مَنْ أَصْلَحَ سِرِّيَّتَهُ أَصْلَحَ عِلَانِيَّتَهُ. ^(٢)
 لِيَتَزَيَّنَ أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ كَمَا يَتَزَيَّنُ لِلْغَرِيبِ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يَرَاهُ فِي أَحْسَنِ الْهَيْئَةِ. ^(٣)
 صَدِيقُكَ مِنْ نَهَاكَ وَعَدْوُكَ مِنْ أَغْرَاكَ. ^(٤)
 مَنْ حَذَرَكَ كَمَنْ بَشَرَكَ. ^(٥)
 حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سَقَمِ الْمَوَدَّةِ. ^(٦)
 مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الْحَاسِدِ: نَفْسٌ دَائِمٌ وَقَلْبٌ هَائِمٌ وَحُزْنٌ لَازِمٌ ، مَغْتَاطٌ
 عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، بِخَيْلٍ بِمَا لَا يَمْلِكُ. ^(٧)
 لَا يَرْضَى عَنْكَ الْحَاسِدُ حَتَّى يَمُوتَ أَحَدُكُمَا. ^(٨)
 التَّوَاضُعُ نِعْمَةٌ لَا يَفْطِنُ لَهَا الْحَاسِدُ. ^(٩)
 قَالَ لِرَجُلٍ أَفْرَطَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ لَهُ مَتَّهَمٌ : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ وَفَوْقَ
 مَا فِي نَفْسِكَ. ^(١٠)
 الثَّنَاءُ بِأَكْثَرٍ مِنَ الْإِسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ ، وَالتَّقْصِيرُ عَنِ الْإِسْتِحْقَاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ. ^(١١)

(١) كنز الفوائد : ٢٨٣.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٢٣.

(٣) تحف العقول : ١٠٢.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ٥٨٥٧.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٥٩ ، و غرر الحكم : ٧٩٨٢.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٨.

(٧) كنز الفوائد : ٥٧.

(٨) شرح نهج البلاغة ، للممتمزلي : ٢ / ٢٨١.

(٩) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠١.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨٣.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٧.

خالطوا الناس مخالطةً إن مَتَّ معها بكوا عليكم ؛ وإن عَشْتُمْ حَنُوا إليكم. ^(١)
 لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاثٍ : في نكبته وغيبته ووفاته. ^(٢)
 عدوٌ عاقل خيرٌ من صديق جاهل. ^(٣)
 من أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم ^(٤). ^(٥)
 أكبر الأعداء أخفاهم مكيدةً. ^(٦)
 مَنْ كساه الحياءُ ثوبه لم يَرِ الناسُ عيبه. ^(٧)
 ما جَعَتِ الدموعُ إلَّا لقسوةٍ في القلوب ، وما قستِ القلوبُ إلَّا لكثرةِ الذنوب. ^(٨)
 إسأل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار. ^(٩)
 الكرمُ أعطفُ من الرحم. ^(١٠)
 تحتاج القرابة إلى مودة ، ولا تحتاج المودة إلى قرابة. ^(١١)
 ربّ قريبٍ أبعد من بعيد. وربّ بعيدٍ أقرب من قريب. والغريب من لم يكن له
 حبيب. ^(١٢)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٢٦ - ١.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٣٤.

(٣) كشف الخفاء : ٥٦ / ٢.

(٤) أي عدم التفاته إلى عيوب الناس وإشاعتها وإن علمها.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢٢.

(٦) عيون الحكم والمواعظ ، للواسطي : ١٢٦.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢٣.

(٨) علل الشرائع ، للصدوق : ٨١.

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ١١٥.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٤٧.

(١١) شرح نهج البلاغة : ٣٠٥ / ٢.

(١٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ١١١.

المودة قرابةً مستفادة. (١)

فقد الأحيّة غربة. (٢)

من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه ، وحينه إلى أوطانه ، وحفظه قديم
إخوانه. (٣)

الطمع رقب مؤبد. (٤)

أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. (٥)

كم من عقلٍ أسير تحت هوى أمير. (٦)

إن كنت جازعاً على ما تقلت من يدك ؛ فاجزع على كل ما لم يصل إليك. (٧)

الهوى مطية الفتنة. (٨)

في تقلب الأحوال علمُ جواهر الرجال. (٩)

إذا أسرت فكلّ الرجال رجالك ، وإذا أعسرت أنكرت أهلك. (١٠)

إذا أقبلت الدنيا على أحدٍ أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبت
محاسن نفسه. (١١)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١١ - ٣.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٥.

(٣) كنز الفوائد ، للكراچكي : ٣٤.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٢٦ ، وفيها : الطمع رقب. و ٧٥٥ و ٩٨٣ ، وفيهما : الطمع رقب مخلد.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٩.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١١ - ٣.

(٧) غرر الحكم ودرر الكلم : ٣٧١٦.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠٩٨.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٧.

(١٠) شرح نهج البلاغة ، ٢ / ٢٨٩.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٩.

قَوْتُ الحاجة أهُونُ مِنْ طلبها إلى غير أهلها.^(١)
 ثلاثة يُرَحَمون : عاقلٌ يجري عليه حُكْمُ جاهلٍ ، وضعيفٌ في يد ظالمٍ قويٍّ ، وكريمٌ
 يحتاج إلى لثيم.^(٢)
 إذا سألت كريماً حاجةً فدغّه يفكّر ، فإنه لا يفكّر إلا في خير. وإذا سألت لثيماً حاجةً
 فعاجله ، فإنه إن فكّر عاد إلى طبعه.^(٣)
 الرغبة إلى الكريم تُحرّكُه على البذل ، وإلى الخسيس تُغريه بالمنع.^(٤)
 الكريم لا يلين على قسر ، ولا يقسو على يُسر.^(٥)
 وجهوا آمالكم إلى مَنْ تحبّه قلوبكم.^(٦)
 البخل جامعٌ لمساوي العيوب ، وهو زمامٌ يُقاد به إلى كلّ سوء.^(٧)
 البخل جلباب المسكنة.^(٨)
 البخلاء من الناس يكون تفاؤلهم عن عظيم الجزم ؛ أسهلّ عليهم من المكافأة على
 يسير الإحسان.^(٩)
 السخاء ما كان ابتداءً ، فأما ما كان عن مسألة فحياءٌ وتذمّم.^{(١٠) (١١)}

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٦٦.

(٢) شرح نهج البلاغة : ٥ / ٢٧٥.

(٣) المصدر السابق : ٢٠ / ٣٠٦.

(٤) المصدر السابق : ٢ / ٢٧٤.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٩١.

(٦) جواهر المطالب ، لابن الدمشقي : ٢ / ١٦٧.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٧٨.

(٨) تحف العقول : ٩٠.

(٩) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٧٥.

(١٠) التذمّم : الفرار من الذمّ ، كالتأثم والتخرج.

(١١) شرح نهج البلاغة : ١٨ / ١٨٤.

يا ابن آدم ، ما كسبت فوق قوتك أنت فيه خازنٌ لغيرك. ^(١)
يا ابن آدم ، كن وصي نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك. ^(٢)
من يكن له مالٌ فليفك به العاني والأسير. ^(٣)
لم يذهب من مالك ما وعظك. ^(٤)
من كرمته عليه نفسه هان عليه ماله. ^(٥)
الحرص والكثير والحسد دواعٍ إلى التقهّم في الذنوب. ^(٦)
لا تهضمن محاسنك بالفخر والتكبر. ^(٧)
يكون الصبر على قدر المصيبة. ^(٨)
المصيبة واحدة فإن جزعت كانت اثنتين. ^(٩)
إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحمد. ^(١٠)
أكبر الفخر ألا تفخر. ^(١١)
عوذ نفسك الصبر على المكروه. ^(١٢)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٢.

(٢) شرح نهج البلاغة : ١٩ / ٩٥ ، منازل الآخرة ، للقمي : ٢٧٣.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٤٢ - ٢.

(٤) غرر الحكم ، ودرر الكلم : ٧٤٣٣ - وفيها : لن يذهب من مالك ما وعظك ، وحاز لك الشكر.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٤٩ ، و غرر الحكم ودرر الكلم : ٨٧٧١ ، وفيهما : من كرمته عليه نفسه هانت عليه شهوته ، أو : شهوته.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٧١ - ٣.

(٧) شرح نهج البلاغة ، للمعتزلي : ٢٠ / ٢٥٨.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٤ ، وفيها : ينزل الصبر على قدر المصيبة.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٦٢٣.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٥٩.

(١١) المصدر السابق.

(١٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ١٦ ، وفيها : وعوذ نفسك التصبر على المكروه.

- لا يُعَدُّ الصبور الظفر وإن طال به الزمان. ^(١)
- لا تجزعوا من ضراء الدنيا وبؤسها. ^(٢)
- عند تناهي الشدة تكون الفرجة. ^(٣)
- الصبر مطية لا تكبو. ^(٤)
- الصبر صبران : صبرٌ على ما تكره وصبرٌ عمّا تحبّ. وأفضلهما الصبر على ما تكره. ^(٥)
- الدهر يومان : يومٌ لك ويوم عليك. فإن كان لك فلا تبطز وإن كان عليك فاصبر. ^(٦)
- مَنْ صَبَرَ صَبَرَ الْأَحْرَارَ ، وَإِلَّا سَلَا سُلُوكُ الْأَغْمَارِ ^(٧). ^(٨)
- لا تكن عند النعماء بطراً ولا عند البأساء فشلاً. ^(٩)
- التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينه. ^(١٠)
- مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نَالَهُ أَوْ بَعْضُهُ. ^(١١)
- المرء مخبوءٌ تحت لسانه. ^(١٢)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٣.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٩ - ٥.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٥١.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٤٩.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٨٩٢.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٩١٧.

(٧) الأغمار : جمع غمر ، وهو : الجاهل الذي لم يجزّب الأمور. النهاية في غريب الحديث : ٣٨٥/٣ ، مادة «غمر».

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ٣٧١٢ ، وفيها : إن صبرت صبر الأحرار وإلا سلوت سُلوُكُ الْأَغْمَارِ.

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣٣ - ٤.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠ - ٢٩٨.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٨٦.

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٨ و ٣٩٢.

هانت عليه نفسه من أمر عليه لسانه. ^(١)

لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحق وراء لسانه. ^(٢)

لا خير في الصمت عن الحكم ، كما أنه لا خير في القول بالجهل. ^(٣)

أمسك عليك لسانك فإنّ تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك. ^(٤)

إذا فعلت كلّ شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً. ^(٥)

لا تسأل عما لا يكون ، ففي الذي قد كان لك شغل. ^(٦)

الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله. ^(٧)

إنّ الأمور إذا اشتبهت اعتبر أولها بآخرها. ^(٨)

أصاب متأمل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد. ^(٩)

ما أكثر العجز وأقل الاعتبار! ^(١٠)

العاقل من وعظته التجارب. ^(١١)

رأي الشيخ أحب إليّ من جلد الغلام ^(١٢). ^(١٣)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٠.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٨٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : الكتاب ٣١ - ٩٠.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٨.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٦٤.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٥٩.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٦.

(٩) غرر الحكم : ١٢٢٩ ، ميزان الحكمة : ٣ / ١٨٣٤.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٩٧.

(١١) غرر الحكم ودرر الكلم : ١١٨٩.

(١٢) جلد الغلام : صبره على القتل . انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

(١٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨٦.

قيل له : صف لنا العاقل . فقال : هو الذي يضع الأشياء مواضعها . فقيل :
فصف لنا الجاهل : فقال : قد فعلت^(١).
مَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ فَانْظُرُوا إِلَى خُلُطَانِهِ^(٢).
إِذَا كُنْتُ فِي إِدْبَارٍ ، وَالْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ ، فَمَا أَسْرِعِ الْمُلْتَقَى !^(٣)
مَنْ تَذَكَّرُ بُعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ^(٤).
نَفْسُ الْمَرْءِ خَطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ^(٥).
كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكْلَاتٍ^(٦).
الْخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْيَ^(٧).
لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ^(٨).
قَالَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الْخَوَارِجِ «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» : كَلِمَةً حَقٌّ يَرَادُ بِهَا بَاطِلٌ !^(٩)
مَنْ جَهَلَ شَيْئًا عَابَهُ^(١٠).
النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا^(١١).
مَنْ لَانَ عُودَهُ كَثَفَتْ أَغْصَانُهُ^(١٢).

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٣٥ .

(٢) صفات الشيعة ، للصدوق : ٦ .

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٩ .

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٠ .

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٤ .

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧١ .

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٥ .

(٨) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٧ - ١٦ ، وفيها : ولكن لا رأي لمن لا يُطَاع .

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٨ ، والخطبة : ٤٠ - ١ .

(١٠) بحار الأنوار : ٤٠ / ١٦٣ ، وفيه : مَنْ جَهَلَ شَيْئًا عَادَاهُ . كشف الغمة : ٣ / ١٣٧ .

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٢ و ٤٣٨ .

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢١٤ .

- العفة مع الحرقة خيرٌ من السرور مع الفجور. ^(١)
- نومٌ على يقين خيرٌ من صلاةٍ على شك. ^(٢)
- فقيهٌ واحد أشدَّ على إبليس من ألف عابد. ^(٣)
- أفضل الزهد إخفاء الزهد. ^(٤)
- ليست الصلاة قيامك وقعودك إنما الصلاة إخلاصك. ^(٥)
- كم من صائمٍ ليس من صيامه إلا الظمأ ، وكم من قائمٍ ^(٦) ليس له من قيامه إلا السهر والعناء. حبذا نوم الأكياس ^(٧) وإفطارهم. ^(٨)
- أشدَّ الذنوب ما استهان به صاحبه. ^(٩)
- لا تحتقرن صغيراً يمكن أن يكبر ، ولا قليلاً يمكن أن يكثر. ^(١٠)
- يأتي على الناس زمانٌ لا يُقَرَّب فيه إلا الماحل ^(١١) ولا يُظَرَف فيه إلا الفاجر ^(١٢) ولا يُضَعَف فيه إلا المُنصِف ^(١٣). ^(١٤)

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ٩١.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٩٧ ، وفيها : نوم على يقين خير من صلاة في شك.

(٣) بحار الأنوار : ١٦ / ٢.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٣٢٥ / ١.

(٦) أي قائم للصلاة.

(٧) أكياس : جمع كئيس وهو الماقل. النهاية في غريب الحديث : ٢١٧/٤ ، مادة «كئيس».

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٥.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٧ و ٣٤٨.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢٨٣ / ٢٠.

(١١) الماحل : الساعي في الناس بالوشاية عند السلطان. مجمع البحرين : ١٧٦/٤.

(١٢) لا يظرف : لا يعد ظريفاً.

(١٣) لا يضعف : لا يعد ضعيفاً.

(١٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٠٢ - ٢.

الدنيا حمقاء لا تميل إلّا إلى أشباهها.^(١)

أنا كابُّ الدنيا لوجهها ، وقادِرُها بقدرها ، وناظرُها بعينها.^(٢)

أيها الناس ! إني والله ما أحثُّكم على طاعة إلّا أسبقكم إليها ، ولا أنهاكم عن مَغصية إلّا أتناهى قبلكم عنها.^(٣)

مَنْ نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلّم نفسه ومؤدِّبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدِّبهم.^(٤)

ينبغي لمن ولي أمر قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيتِه ؛ وإلّا كان بمزلة من رام استقامة ظلِّ العُود قبل أن يستقيم ذلك العود.^(٥)

واعبّاه! أ تكون الخلافة بالصحابة والقرابة.^(٦)

أشقى الرُّعاة مَنْ شقيتْ به رعيتُه.^(٧)

ما أقبح الغدر من السلطان!^(٨)

لا زعامة لسيء الخلق.^(٩)

إذا كان الراعي ذنباً ، فالشاة مَنْ يحفظها ؟^(١٠)

الراعي بلا عملٍ كالرامي بلا وتر.^(١١)

(١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٩٤.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٢٨ - ٣.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٥ - ٦.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٧٣.

(٥) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٩.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٩٠.

(٧) شرح نهج البلاغة : ١٢ / ٩٢.

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٨٦٤ ، وفيها : الغدر بكل أحد قبيح ، وهو بذوي القدرة والسلطان أقبح.

(٩) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠٥٩٧ ، وفيها : لا سؤدد لسيء الخلق.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠٠.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٣٧ ، وفيها : الداعي بلا عمل....

لَا تَقْبَلَنَّ فِي اسْتِعْمَالِ عَمَالِكَ وَأُمْرَائِكَ شَفَاعَةً إِلَّا شَفَاعَةَ الْكَفَايَةِ وَالْأَمَانَةِ. ^(١)

مَنْ فَسَدَتْ بَطَانَتُهُ كَانَ كَمَنْ غَضَّ بِالْمَاءِ ، فَإِنَّهُ لَوْ غَضَّ بِغَيْرِهِ لَأَسَاغَ الْمَاءُ غَضَّتَهُ. ^(٢)

العدل صورة واحدة ، والجور صور كثيرة. ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحزّي العدل ، وهما يشبهان الإصابة في الرماية والخطأ فيها. وإن الإصابة تحتاج إلى ارتياض ^(٣) وتعهّد ، والخطأ لا يحتاج إلى شيء من ذلك. ^(٤)

قَدِّمِ الْعَدْلَ عَلَى الْبَطْشِ ، وَلَا تَسْتَعْمَلِ الْفِعْلَ حَيْثُ يَنْجَعُ ^(٥) الْقَوْلُ. ^(٦)

شَرَّ النَّاسِ إِمَامٌ جَائِزٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ. ^(٧)

البغي آخر مدّة الملوك. ^(٨)

عدل السلطان خيرٌ من خضب الزمان. ^(٩)

المسؤول حرٌّ حتى يعد. ^(١٠)

قلوب الرعية خزائن راعيها ، فما أودّعها من عدلٍ أو جورٍ وجدّه فيها. ^(١١)

ولا تلتفتوا إلى ناعق نَعَقَ إِنْ أُجِيبَ ضَلُّ وَإِنْ تُرِكَ ذَلٌّ. ^(١٢)

(١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق : ٢٠ / ٣٠٨.

(٣) ارتياض : مران. انظر مفردات الخطبة المرقمة في نهج البلاغة.

(٤) المصدر السابق : ٢٠ / ٢٧٦.

(٥) ينجع : ينفع. انظر مفردات الخطبة.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٧٨.

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٤ - ٧.

(٨) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٣٤.

(٩) مطالب السؤول : ٥٦ ، بحار الأنوار : ١٠ / ٧٥.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٣٦.

(١١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٦٨٢٥.

(١٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٢٢ - ٦.

ألا وإنّي أقاتل رجلين : رجلاً ادعى أن لا نسب له ، وآخر منع الذي عليه. ^(١)
 واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة ! ^(٢)
 يد الله فوق رأس الحاكم ترفرف بالرحمة ، فإذا حاف ^(٣) وكلّه الله إلى نفسه. ^(٤)
 قال في الله تعالى : وقَلَعَ جبالها ونَسَفَها ودَكَ بعضُها بعضاً من هيبة جلالته. ^(٥)
 الحمد لله الذي لا توارى عنه سماءٌ ولا أرضٌ أرضاً. ^(٦)
 على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعامّة. ^(٧)
 بنى رجل من عمّاله بناء فخماً ، فقال : أَطْلَعَتِ الْوَرِقُ ^(٨) رؤوسها. إنّ البناء يصف
 لك الغنى. ^(٩)
 ثلاثة يؤثرون المال على أنفسهم : تاجر البحر ، وصاحب السلطان ، والمرثي في
 الحكم. ^(١٠)
 إذا غضب الله على أمة غلّت أسعارها وغَلَّتْها أشرارُها. ^(١١)
 اللهم ! اغفر لي ما أنت أعلم به مني. فإنّ عدتُ فيدّ عليّ بالمغفرة ، اللهم اغفر لي

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٣ - ٣.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ٣٩.

(٣) حاف : ظلم. لسان العرب : ٦٠ / ٩ ، مادة «حيف».

(٤) الكافي : ٤١٠ / ٧ ، من لا يحضره الفقيه : ٧ / ٣.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٠٩ - ٢٨.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٢ - ١.

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٠٩ - ٤ ، وفيها : إنّ الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس.

(٨) الورق : الفضة. غريب الحديث : ٧٧ / ١.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٥٥.

(١٠) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٩٧.

(١١) ثواب الأعمال للصدوق : ٢٥٦.

رمزاتِ الألفاظ^(١) وسقّطاتِ الألفاظِ وشهواتِ الجنانِ وهفّواتِ اللسانِ.^(٢)

اللهمّ اجعلنا خيراً ممّا يظنون ، واغفر لنا ما لا يعلمون.^(٣)

عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت ، فقال : مالك لا تقول؟ قال : إن قلتُ لم أقل إلا ما تكره ، وليس لك عندي إلا ما تحب.^(٤)

لا تدعونّ إلى مبارزة.^(٥)

إياكم والمرء والخصومة فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق!^(٦)

مَنْ أمنتَ مِنْ أذيتِهِ فارغبْ في أُخوّتِهِ.^(٧)

إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم.^(٨)

أعينوا الضعيف وانصروا المظلوم وتعاونوا.^(٩)

تعاطوا الحق بينكم وتعاونوا به ، وخذوا على يد الظالم السفيه.^(١٠)

أعينوا الضعيف وانصروا المظلوم ، وأحسنوا إلى نساءكم وأصدقوا الحديث ، وأدّوا

الأمانة ، وأوفوا بالعهد ، وكونوا قوامين بالقسط.^(١١)

اللهمّ! إني لم آمرهم بظلم خلقك.^(١٢)

(١) رمزاتِ الألفاظ : الإشارات والإيماءات. انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٧٨ - ٢.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٣ - ١٥.

(٤) شرح نهج البلاغة : ٩ / ٢٣ ، باختلاف يسير.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٣٣.

(٦) شرح أصول الكافي : ٩ / ٣٠٦.

(٧) كنز الفوائد ، للكرجكي : ١٧٢.

(٨) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٠٣ - ١١.

(٩) تحف العقول : ١٥٢ ، مستدرک الوسائل : ٦ / ١٦٠.

(١٠) الكافي للكليني : ١ / ١٤٢.

(١١) مصباح المتهجد ، للطوسي : ٦٦٤.

(١٢) بحار الأنوار : ٤١ / ١١٩.

يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم.^(١)
 شيعتنا الذين إن غَضَبُوا لم يَظْلَمُوا ، بركة على من جاوروا سلم لمن خالطوا.^(٢)
 رحم الله امرأ رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فردّه ، وكان عوناً بالحق على صاحبه.^(٣)

البغي والزور يُزريان بالمرء.^(٤)
 وقد خابَ من حمل ظملاً.^(٥)
 استعملِ العدلَ واحذر السيفَ والخيْفَ فإنَّ العسفَ يعود بالجلاء^(٦) ، والخيْفَ يدعو إلى السيف.^(٧)

ما أقبح القسوة على الجار!^(٨)
 هلكَ من ادعى وخابَ من افترى.^(٩)
 من امتشق سيفَ البغي قُتلَ به^(١٠) . ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها.^(١١)
 من زرع العدو ان حصد الخسران.^(١٢)

-
- (١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٤١ .
 (٢) الكافي للكليني : ٢ / ٢٣٧ .
 (٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠٥ .
 (٤) بحار الأنوار : ٣٢ / ٥٣٧ ، نهج السعادة : ٤ / ٢٧٤ ، شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٢٦ ، وقعة صفين : ٤٩٣ .
 (٥) الآية ١١١ من سورة طه ، وقد استشهد بها الإمام (عليه السلام) .
 (٦) العسف : الشدة في غير حق . والجلاء : التفرق والتشتت . والخيْف : الميل عن العدل إلى الظلم . بهذا القول ينزع علي بالمظلومين إلى القتال رفعا للظلم .
 (٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٦ .
 (٨) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٠ .
 (٩) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦ - ٨ .
 (١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٩ - ١ ، وفيها : من سلَّ سيفَ البغي ...
 (١١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٨٧٨٧ ، وفيها : من حفر لأخيه المؤمن بئراً أوقع فيها .
 (١٢) غرر الحكم ودرر الكلم : ٨٠٣٣ .

بئس العدوان على العباد.^(١)

الظلم يدعو إلى السيف.^(٢)

إن السباع همتها التعدي ، وإن البهائم همتها بطونها.^(٣)

إصبروا على البلاء ، ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم^(٤) !^(٥)

لا تقوين سلطانك بسفك دم حرام.^(٦)

إختز أن تكون مغلوباً وأنت منصف ، ولا تختز أن تكون غالباً وأنت ظالم.^(٧)

وأيُّ الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولاخذن الظالم بخزائمه ، حتى أوردته منهل الحق

وإن كان له كارهاً.^(٨)

ألأم الناس من سعى بإنسان ضعيف إلى سلطان جائر.^(٩)

ظلم الضعيف أفحش الظلم.^(١٠)

وأما الذنب الذي لا يُغفر ، فظلم العباد بعضهم لبعض.^(١١)

لا تكن للظالم معيناً.^(١٢)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٢١ .

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٧٦ ، وفيها : والحيث يدعو إلى السيف .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٣ - ١٢ ، وفيها إن البهائم همتها بطونها ، وإن السباع همتها العدوان على غيرها .

(٤) ينهى المحاربين عن التعجل في حمل السلاح ؛ تلبية لقول يقوله أحدهم في غير وقته .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٠ - ١٧ .

(٦) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٣ - ١٤٢ .

(٧) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٨ .

(٨) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣٦ - ٢ .

(٩) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠٣ .

(١٠) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ٩٣ .

(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٧٦ - ٣١ إلى ٣٣ .

(١٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٨ ، ١٩٩ ، وفيه : كونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً .

للظالم ثلاث علامات : يظلم مَنْ فوقه بالمَغصية ، وَمَنْ دونه بِالغَلبة ، ويظاهرُ القومَ الظَّلمةَ^(١) .^(٢)

العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به شركاء ثلاثة.^(٣)
الراضي بفعل قوم كالدخل فيه معهم ، وعلى كل داخل في باطل إثمَان : إثم العمل به ، وإثم الرضا به.^(٤)
قيل له : أي الأمور أعجلُ عقوبةً وأسرعُ لصاحبها صرعةً ؟ فقال : ظُلم من لا ناصرَ له إلا الله ، واستطالةُ الغني على الفقير.^(٥)

اذكر عند الظلم عدل الله فيك ، وعند القدرة قدرة الله عليك.^(٦)
ما زلتُ مظلوماً منذ قبض الله نبيّه حتى يوم الناس هذا. ولقد كنت أظلم قبل ظهور الإسلام. ولقد كان أخي عقيلٌ يُدنبُ أخي جعفر فيضربني^(٧) !
الفجور دارٌ حصنٍ ذليل لا يمنع أهلّه ولا يُحرزُ مَنْ لجأ إليه^(٨) .^(٩)
لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها.^(١٠)
إنما يجمع الناس الرضا والسخط : فمَنْ رضي أمراً فقد دخل فيه ، وَمَنْ سخطه فقد خرج منه.^(١١)

(١) الغلبة : القهر. يظاهر : يعاون. الظلمة : جمع الظالم.

(٢) الخصال للصدوق : ١٢١ ، عيون المواعظ والحكم : ٤٠٤ .

(٣) الخصال للصدوق : ١٠٧ ، تحف العقول : ٢١٦ .

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٤ .

(٥) نهج السعادة : ١٣٦ / ٨ .

(٦) مستدرك الوسائل : ١٢ / ١٠٣ ، شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٢٨ ، عيون المواعظ والحكم : ٧٧ .

(٧) شرح نهج البلاغة للمعتزلي : ٢٨٣ / ٢٠ .

(٨) يحرز : يحفظ .

(٩) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٧ - ٥ .

(١٠) مستدرك سفينة البحار : ٧ / ٣٦٦ .

(١١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٠١ - ٢ .

- لكل امرئ ما اكتسب. (١)
- قيمة كل امرئ ما يحسن. (٢)
- واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون. (٣)
- لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال. (٤)
- لا حسب كالتواضع ولا شرف كالعلم ولا قرين كحسن الخلق. (٥)
- أشرف الأشياء العلم ، والله تعالى عالم يحب كل عالم. (٦)
- من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه. (٧)
- اعمل لدينك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. (٨)
- من قصر في العمل ابتلي بالهم. (٩)
- لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل ويُرجى التوبة بطول الأمل. (١٠)
- الشرف بالهمم العالية لا بالرّمم البالية. (١١)
- الشرف بالعقل والأدب ، لا بالأصل والنسب. (١٢)

(١) الآية الشريفة (١١) من سورة النور : ﴿ لكل امرئ منهم ما اكتسب ﴾ وقد استشهد الإمام بهذه الآية.

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨١ ، وفيها : ما يحسنه.

(٣) أصول الكافي : ١ / ٥١ ، تحف العقول : ٢٠٨.

(٤) عيون الحكم والمواعظ : ٥١٧ ، مناقب الخوارزمي : ٣٧٥.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١١٣ - ٣.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٨٨.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٣ و ٣٨٩.

(٨) مستدرك الوسائل : ١٣ / ٥٨ ، والحديث للإمام الحسن (عليه السلام).

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٢٧.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٥٠ - ١.

(١١) عيون الحكم والمواعظ : ٦٠.

(١٢) شرح مائة كلمة ، للبحراني : ٦٥.

- تعلّموا العلم وإن لم تنالوا به حظاً، فلأن يُدَمَّ الزمانُ لكم أحسنُ من أن يُدَمَّ بكم! ^(١)
- ما من حركة إلا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة. ^(٢)
- العاملُ بغير علمٍ كسائرٍ في غير طريق ، فلا يزيده بُعدُه عن الطريق إلا بُعداً عن حاجته.
- والعامل بالعلم كسائرٍ على الطريق الواضح ، فليُنظَرُ ناظرُ أسائرٍ هو أم راجع؟ ^(٣)
- الفكرة تورث نوراً ، والغفلة تورث ظلمة. ^(٤)
- سل تفقّها ولا تسأل تعتاً! ^(٥)
- أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه. ^(٦)
- من استبدَّ برأيه هلك ، ومن شاورَ الرجال شاركها في عقولها. ^(٧)
- من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ. ^(٨)
- لا كنز أنفع من العلم ، ولا عزّ أرفع من الحلم. ^(٩)
- قَطَعَ العلمُ عذَرَ المتعلّين. ^(١٠)
- العلم يحرسك وأنت تحرس المال. ^(١١)
- ليس الخير أن يكثر مالك وولّدك، ولكنّ الخير أن يكثر علمك. ^(١٢)

(١) شرح نهج البلاغة ، ٢٠ / ٣١٠.

(٢) تحف العقول : ١٧١ ، مستدرک الوسائل : ١٧ / ٢٦٨.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٤ - ٧.

(٤) تحف العقول : ٨٩ ، بحار الأنوار : ٧٤ / ٢٣٧.

(٥) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٢٠.

(٦) الخصال للصدوق : ٥ ، الأمالي للصدوق : ٧٣.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦١.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٧٣.

(٩) فروع الكافي : ٨ / ١٩ ، تحف العقول : ٩٣.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٤.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٧ - ٣.

(١٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٩٤ - ١.

هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر. ^(١)
 الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك. ^(٢)
 العالم حي وإن كان ميتاً ، والجاهل ميت وإن كان حياً. ^(٣)
 العلم إحدى الحياتين ، والمودة إحدى القرابتين ، والذكر الجميل أحد العمرين. ^(٤)
 قال لأبناء زمانه : جاهلكم مُزداد ، وعالمكم مُسَوِّف. ^(٥) ^(٦)
 ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ،
 وأسرع السنين في العمر! ^(٧)
 لا يستحق أحد إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم ، ولا يستحق أحد إذا لم يعلم
 الشيء أن يتعلمه. ^(٨)
 ما أكثر ما تجهل من الأمر وتحتير فيه رأيك ، ويفضل فيه بصرك ، ثم تبصره بعد ذلك! ^(٩)
 لا فقر أشد من الجهل. ^(١٠)
 لا يؤمنك من شر جاهل قرابة ولا جوار ، فإن أخوف ما تكون لحريق النار أقرب ما
 تكون إليها. ^(١١)

(١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٤٧ - ٦ ، وفيها : هلك خزان الأموال ...

(٢) مستدرک سفينة البحار ، ١ / ٤٤٣ .

(٣) عيون الحكم والمواعظ : ٤٥ .

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٦٢٦ ، ١٦٢٨ .

(٥) أي : جاهلكم يغالي ويزداد في العمل على غير بصيرة وعالمكم يسوّف بعمله ، أي يؤخره .

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٨٣ .

(٧) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٨ - ٨ .

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٨٢ - ٢ .

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ٤٢ .

(١٠) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠٦١٩ .

(١١) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٣٠٥ .

إذا أَرَدَلِ اللهُ عبداً حَظَرَ عليه العلم.^(١)
 كُلُّ وعاءٍ يَضِيقُ بما جُعِلَ فيه إِلَّا وعاءُ العلمِ فإنه يَتَّسِعُ.^(٢)
 إِنَّ هذه القلوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ، فابْتَغُوا لها طرائفَ الحِكْمةِ.^(٣)
 لَهَبُ الشَّوْقِ أخَفُّ مَحْمَلاً من مَقاساةِ المَلالةِ.^(٤)
 كفى العلمُ شرفاً أن يَدَّعيه مَنْ لا يُحْسِنُه، ويفرح إذا نُسِبَ إليه مَنْ ليس مِنْ أهله. وكفى
 بالجهلِ خمولاً أن يَتَبَرَّأَ منه مَنْ هو فيه، ويفضِّضُ إذا نُسِبَ إليه.^(٥)
 أَقَلُّ الناسِ قِيَمَةً أَقَلُّهم عِلْماً.^(٦)
 العلمُ دينٌ يُدَانُ به.^(٧)
 العلمُ أَكْثَرُ من أن يَحْصَى فخذوا مِنْ كُلِّ شيءٍ أَحْسَنَه.^(٨)
 مَنْ أَفتى بِغيرِ عِلْمٍ لَعَنَتْهُ الأَرْضُ والسَّمَاءُ.^(٩)
 العلماءُ غرباءُ لكثرةِ الجَهَّالِ.^(١٠)
 ما أَخَذَ اللهُ على أَهلِ الجَهْلِ أن يَتَعَلَّمُوا حتَّى أَخَذَ على أَهلِ العلمِ أن يَعْلَمُوا. شَكْرُ
 العالمِ على عِلْمِه أن يَبْذُلَه لِمَنْ يَسْتَحِقُّه.^(١١)

-
- (١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٨٨.
 (٢) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٢٠٥.
 (٣) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٩٧.
 (٤) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٣.
 (٥) المجموع، للنووي : ١ / ١٩، منية المريد، للشهيد الثاني : ٧٢، ١١٠، بحار الأنوار : ١ / ١٨٥.
 (٦) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٥، أمالي الصدوق : ٧٣، معاني الأخبار للصدوق : ١٩٥، روضة الواعظين
 للفتال التيسابوري : ٨، كنز الفوائد للكراچكي : ١٣٨، مشكاة الأنوار للطبرسي : ٢٤١، الأربعون حديثاً
 للشهيد الأول : ٥٥، ينابيع المودة للقندوزي : ٢ / ٤١٦.
 (٧) نهج البلاغة، قصار الحكم : ١٤٧ - ٥، وفيها : معرفة الدين ذين يدان به.
 (٨) غرر الحكم ودرر الكلم : ١٨١٩.
 (٩) مستدرک الوسائل : ٢٤٣/١٧، دعائم الإسلام : ١ / ٩٦.
 (١٠) عيون الحكم والمواعظ للواسطي : ٥٢، بحار الأنوار : ٧٥ / ٨١.
 (١١) نهج البلاغة، قصار الحكم : ٤٧٨.

ذو الهمة وإن حطَّ نفسه يأبى إلّا علوّاً ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلّا ارتفاعاً. (١)

إذا جلست إلى عالمٍ فكُنْ إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تقول. (٢)
 العلم مقرونٌ بالعمل : فمن علمَ عملَ . والعلم يهتف بالعمل : فإن أجابه وإلّا ارتحل. (٣)
 باحتملة العلم أتحملونه؟ فإنما العلم لمن علم ، ثم عمل بما علم ووافق عمله علمته. (٤)
 إنّ العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله ، بل الحجة عليه أعظم. (٥)

لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكاً. إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقتم فاقدموا. (٦)
 ما أحسن العمل يزينه الرفق! (٧)
 قلتم : إنّ فلاناً أفاد مالاً عظيماً ، فهل أفاد (٨) أياماً ينفعه فيها؟ (٩)
 ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتّى يُسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعما عمل فيم علم؟ (١٠)
 مجاوزتك ما يكفيك فقر لا منتهى له. (١١)

(١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٨٩.

(٢) المحاسن للبرقي : ٢٣٣/١ ، الاختصاص للمفيد : ٢٤٥.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٦٦.

(٤) نهج البلاغة : ٢ / ٢٦٧.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١١٠ - ٧.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٢٧٤.

(٧) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٩ ، تفسير الثعالبي : ٤ / ٢٧٧.

(٨) أفاد : استفاد.

(٩) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٩٧.

(١٠) معدن الجواهر ، للكراجكي : ٤٩ ، بحار الأنوار : ٧٤ / ١٦٠ ، شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٥٩.

(١١) شرح نهج البلاغة : ٢ / ٢٨٨.

ما أصعب على من استعبدته الشهوات أن يكون فاضلاً! (١)

مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ (٢). (٣)

منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال. (٤)

التاجر فاجر ، والفاجر في النار ، إلّا مَنْ أَخَذَ الْحَقَّ وَأَعْطَى الْحَقَّ. (٥)

قال في جامع المال : لَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ ، وَمَنْ حَقُّ مَتَعِهِ. (٦)

الفقر الموت الأكبر. (٧)

الفقر يخرس الفطن والفقير غريب في بلده. (٨)

الفقر في الوطن غربة. (٩)

ليس بلدٌ بأحقَّ بك من بلد ، خير البلاد ما حملك (١٠). (١١)

لو تمثّل لي الفقرُ رجلاً لقتلته. (١٢)

اللهم! إنّي أعوذ بك أن أفترق في غناك. (١٣)

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٥٨.

(٢) استأثر : استبد وخصّ نفسه بكلّ مفنم.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦٠.

(٤) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٥٧.

(٥) كنز العمال : ١٣٦/٤ ، وسائل الشيعة : ٣٨١/١٧.

(٦) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٤٤ - ٢.

(٧) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦٣.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣ ، وفيها : والفقر يُخرس الفطن عن حجّته ، والمقلّ غريب في بلدته.

(٩) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٥٦.

(١٠) يقول : كل البلاد تصلح سكناً ، وإنما أفضلها ما حملك ، أي : أعزّك وأراحك وأطعمك وآواك.

(١١) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٤٤٢.

(١٢) لم نوفق للعثور على هذا الحديث.

(١٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢١٥ - ٤.

ألا وإن من البلاء الفاقة! (١)

ما جاع فقيرٌ إلا بما مُتّع به غني. (٢)

ما رأيت نعمةً موفورة إلا وإلى جانبها حقٌ مضيع. (٣)

لا تُنال نعمةٌ إلا بفراق أخرى. (٤)

لا تُنال نعمةٌ إلا بعد أذى. (٥)

الخطأ في إعطاء من لا يبتغي ومنع من يبتغي واحد. (٦)

إذا استغنيت عن شيء فدعه، وخذ ما أنت محتاج إليه. (٧)

إنما يُعاب من أخذ ما ليس له. (٨)

ما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا ترك سُدى فيلغو. (٩). (١٠)

إياكم والذين! (١١)

الذين مذلة. (١٢)

واحدروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثالات لسوء أفعالهم، فتذكروا في الخير والشر

(١) غرر الحكم ودرر الكلم : ٢٧٧٥

(٢) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٢٨.

(٣) دراسات في نهج البلاغة ، لمحمد مهدي شمس الدين : ٤٠.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٤٥ - ٢.

(٥) من لا يحضره الفقيه : ٤ / ٣٩٢.

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٠ / ٢٦٠.

(٧) شرح نهج البلاغة : ٣ / ٢٤٨ ، ٢٠ / ٢٦٢.

(٨) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ١٦٦ ، خصائص الأئمة للشريف الرضي : ١٠٩.

(٩) يلهو : يتلهى بلذته. يلغو : يأتي باللفو ، وهو ما لا فائدة فيه.

(١٠) نهج البلاغة ، قصار الحكم : ٣٧٠ ، بحار الأنوار : ١٢٤ / ٧٠ ، ١٣٢ ، و ٦ / ٧٥ ، شرح نهج البلاغة : ١٩ / ٣٠٠.

(١١) الكافي للكليني : ٥ / ٩٥.

(١٢) علل الشرائع للصدوق : ٢ / ٥٢٧ ، وفيه : والذين فإنه مذلة.

أحوالهم! واحذروا أن تكونوا أمثالهم! واتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم! (١)

لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم! (٢)

قلوب الرجال وحشية، فمن تألفها أقبلت عليه. (٣)

لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً! (٤)

كلُّ ما حملت عليه الحرُّ احتَمَلَهُ ورآه زيادة في شرفه إلا ما حَطَّه جزءاً من حرّيته، فإنّه يأباه ولا يجيب إليه. (٥)

وليس لي أن أحملك على ما تكرهون. (٦)

قد أذنت لك أن تكون على ما بدا لك. (٧)

الهم نصف الهرم. (٨)

لا أعاقب على الظنة. (٩)

لا يجوز القصاص قبل الجناية. (١٠)

من تعاضم على الزمان أهانه.

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ - ١٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٠ / ٢٦٧.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٥٠.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١ - ٨٧.

(٥) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٧٩.

(٦) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠٨ - ٢.

(٧) الإمامة والسياسة: ١ / ٥٠، وفيه: وكن من أمرك على ما بدا لك.

(٨) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٤٣، ٤ / ٣٤، من لا يحضره الفقيه: ٤ / ٤١٦.

(٩) الجمل، للمفيد: ٨٩، وفيه: يا ابن عباس، أتأمرني بالظلم أبداً، وأعاقب على الظنة..

(١٠) بحار الأنوار: ٢٧٩/٤٢، وفيه: لا يجوز القصاص إلا بعد الجناية، الأنوار العلوية، للنقدي: ٣٧٤، كما في

بحار الأنوار.

أنهاك عن التسرع في القول والعمل!^(١)

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ الْبَقَاعِ وَالْبَهَائِمِ!^(٢)
وَاللَّهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمُ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهُ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُهَا لَبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُ. وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي أَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمٍ جَرَادَةٍ.^(٣)

طائفة من رسائله وعهوده ووصاياه

حقوق الإنسان :

راجع رسالة عليّ إلى الأشر النخعي عامله على مصر ، وقد أثبتناها في باب «عليّ وحقوق الإنسان» تحت عنوان «دستور الإمام في الولاية»، وهي من جلائل وصاياه وأجمعها لقوانين المعاملات المدنية ، والحقوق العامة والتصرفات الخاصة.

* * *

من وصية له إلى عسكره قبل لقاء العدو في صفين :

لا تقاتلوهم حتى يبدؤكم ، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تصيبوا مُغوراً ، ولا تُجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم!^(٤)

* * *

من كتاب له إلى زياد بن أبيه وهو على البصرة :

(١) نهج السعادة: ١٣٩/٨، الأمالي للشيخ الطوسي: ٧، وفيهما: أنهاك عن التسرع في القول والعمل.
(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦٧ ، ٢ / ٨٠ ، شرح نهج البلاغة : ٢٨٨ / ٩ .
(٣) نهج البلاغة ، الخطبة ٢٢٤ ، ٢ / ٢١٨ ، رسائل المرتضى : ٣ / ١٤٠ ، الصراط المستقيم ، للعالمي : ١ / ١٦٣ ، حلية الأبرار للبحراني : ٢ / ٢٠١ ، بحار الأنوار : ٤١ / ١٦٢ و ٧٢ / ٣٦٠ .
(٤) نهج البلاغة ، الكتاب : ١٤ - ٢ .

وإني أقسم بالله صادقاً ، لئن بلغني أنك خُنت من فِئء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً
لأشدنَّ عليك شدة تدعُكَ قليلَ الوَفَر ، ثَقِيلَ الظَّهَر ، ضئِيلَ الأمر! ^(١)

* * *

من عهدٍ له إلى محمد بن أبي بكر حين قلَّده مصر :
فاخفضْ لهم جناحَكَ ، وابسطْ لهم وجهَكَ ، وآسِ بينهم في اللحظة والنظرة ، حتَّى لا
يطمَع العظماءُ في حيفِكَ لهم ، ولا يئأسَ الضعفاءُ من عدلكَ عليهم! ^(٢)

* * *

من وصية له كتبها لابنه الحسن من صفين :
يا بني! اجعلْ نفسك ميزاناً فيما بينك وبين الناس ، فأحبِّ لغيرك ما تُحبُّ لنفسك ،
واكرهْ له ما تكرهْ لها ، ولا تظلمْ كما لا تحبُّ أن تُظلمَ وأحسِنْ كما تُحبُّ أن يُحسِنَ إليك ،
واستقبِجْ من نفسك ما تستقبِجْ من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا
تقلْ ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم ، ولا تقلْ ما لا تحبُّ أن يُقالَ لك .
ومن ظنَّ بك خيراً فصدِّقْ ظنَّه ، ولا تُضيعنَّ حقَّ أخيك اتِّكالاً على ما بينك وبينه ، فإنَّه
ليس لك بأخٍ مَن أضغَتَ حقَّه ، ولا يكنْ أهلك أشقى الخلق بك ، ولا يكوننَّ أخوك على
مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا يكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان. ^(٣)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٢٠ .

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٢٧ - ٢ ، والكتاب : ٤٦ - ٤ .

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ١٠٥ .

من كتاب له إلى بعض عمّاله :

بلغني أنّك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت يديك ، فارفع
إليّ حسابك! ^(١)

من كتاب له إلى المنذر بن الجارود العبدي ، وقد خان الأمانات العامّة في بعض ما
ولاه من أعماله :

أما بعد ، فإنّ صلاح أيك غزني منك ، وظننت أنّك تتّبع هديّة ، وتسلك سبيله . فإذا
أنت فيما رُقيّ إليّ عنك ، لا تدعُ لهواك انقياداً . ولئن كان ما بلغني عنك حقّاً ، لَجَمَلُ أهيك
وَشِنْعُ نعلِك خيرٌ منك ! ومن كان بصفتك فليس بأهلٍ أن يُسدَّ به ثغرٌ ، أو يُنفذَ به أمرٌ ، أو
يُعلَى له قدرٌ ، أو يُشرك في أمانة ، أو يؤمّن على خيانة ، فأقبل إليّ حين يصل إليك كتابي
هذا إن شاء الله. ^(٢)

* * *

من كتاب له إلى العامل السابق نفسه :

كيف تُسيع شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنّك تأكل حراماً وتشرب حراماً ، وتبتاع الإماء
من مال اليتامى والمساكين ؟ فاتقِ الله وارددْ إلى هؤلاء القوم أموالهم ؛ فإنك إن لم تفعل ثم
أمكنني الله منك لأعذرنّ إلى الله فيك ، ولأضربنّك بسيفي الذي ما ضربتُ به أحداً إلّا
دخل النار. ^(٣)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤٠ - ٢.

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٧١ - ٤.

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤١ - ١١.

من كتاب له إلى مختف بن سليم عامله على أصبهان وهمدان :
وإنا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين استأثروا بالفيء ، وأماوا الحق وأظهروا
في الأرض الفساد واتخذوا القاسطين وليجةً ، فإذا ظالمٌ ساعدهم على ظلمهم أحبّوه ،
وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين.^(١)

* * *

من كتاب له إلى عامله على أردشير وقد بلغه أن يقسم الأموال في بني قومه :
بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إهلك وأغضبت إمامك ، فوالذي قلّق الحبة
وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقاً لتجدن بك عليّ هواناً ، ولتخفن عندي ميزاناً!^(٢)

* * *

من كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصاري ، وهو عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه
دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها :

وأما بعد ، يا ابن حنيف! فقد بلغني أنّ رجلاً من فتيّة أهل البصرة دعاك إلى مأدبة
فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام
قومٍ عائلهم مجفوّ^(٣) وغنيهم مدعوّ. ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمزيه^(٤) ومن طعمه
بقرصيه ، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهاد ، وعقّة وسداد.
فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً.
ولو شئت لا هتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ ،

(١) وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم : ١٠٤ ، المعيار والموازنة ، للإسكافي : ١٢٤ ، نهج السعادة : ٤ / ٢٢٤ ، بحار
الأنوار : ٣٢ / ٤٠٠ .

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤٣ - ٣ .

(٣) عائلهم : محتاجهم . مجفوّ : مطرود . انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة .

(٤) الطمر : الثوب العتيق الخلق . النهاية في غريب الحديث : ١٣٨ / ٣ .

ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، ويقودني جشعي إلى تخبير الأطعمة ، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي وأكباد حزي؟ أأفنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر؟ وكأني بقائلهم يقول : «إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان!» ألا وإنّ الشجرة البرية أصلبُ عُوداً ، والروائع الخضيرة أرقّ جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً ، وأبطأ خموداً. والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها.^(١)

* * *

من كتاب له إلى عمّاله على الخراج :

فأنصفوا الناس من أنفسكم ، واصبروا لحوائجهم ، ولا تحميموا أحداً عن حاجته ولا تجسوه عن طلبته ، ولا تبيعنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضربنّ أحداً سوطاً لمكان درهم!^(٢)

* * *

ومن كتاب له إلى سهل بن حنيف الأنصاري أيضاً ، وهو عامله على المدينة :
أما بعد ، فقد بلغني أن رجالاً ممّن قَتَلَكَ يتسلّلون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم ، فإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومسرعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا أنّ الناس عندنا في الحقّ أسوء ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعداً لهم وسحقاً! إنهم - والله - لم ينفروا من جور ، ولم يلحقوا بعدل!^(٣)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٤٥ - ١٩ .

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥١ - ٤ .

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٧١ - ٤ .

من كتاب له إلى أمراء الأجناد ، لما استخلف :
أما بعد ، فإنما أهلك من كان قبلك أنهم متّعوا الناس الحق فاشتروه^(١) ، وأخذوهم
بالباطل فاقتدوه^(٢) .^(٣)

* * *

من كتاب له إلى أحد عمّاله :
أما بعد ، فلا يكن حظك في ولايتك مالا تستفيده ، ولا غيظا تشفيه ، ولكن إماتة
باطل وإحياء حق!^(٤)

* * *

ومن كلام له قاله قبل موته على سبيل الوصية ، بعد أن ضربه ابن ملجم ، وفيه يأمر
أهله وأتباعه بالعفو عن قاتله :
أنا بالأمس صاحبكم ، واليوم عبدة لكم ، وغداً مفارقكم . إن أبق فأنا ولي دمي ، وإن
أقن فالفناء ميعادي ، وإن أغف فالعفو لي قرينة ، وهو لكم حسنة ، فاعفوا!^(٥)

* * *

من كتاب له إلى قثم بن العباس ، وهو عامله على مكة :
أما بعد : فعلم الجاهل ، وذاكر العالم ، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ، ولا
حاجب إلا وجهك . ولا تحبّبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فإنها إن زيدت عن أبوابك في أول
وزدها لم تُحمد ، فيما بعد ، على قضائها . وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى
من قبلك من ذوي العيال ؛ مُصيباً به مواضع الفاقة والخلات . وما فضل عن ذلك فاحمله
إلينا لنقسّمه في من قبلنا.^(٦)

(١) أي حببوا عن الناس حقهم ، فاضطر الناس لشراء الحق بالرشوة .

(٢) أي : كلّفوهم باتيان الباطل فأتوه ، فصار الباطل قدوة يتبعها الأبناء بعد الآباء .

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب : ٧٩ .

(٤) نهج السعادة : ٥ / ٣٤٨ .

(٥) نهج البلاغة ، الكتاب : ٢٣ - ٣ .

(٦) نهج البلاغة ، الكتاب : ٦٧ - ٤ .

من كتاب له إلى أمرائه على الجيوش :

أما بعد : فإن حقاً على الوالي أن لا يغيّره على رعيته فضل ناله ، ولا طولُ حُصن به ، وأن يزيده ما قَسَمَ الله له من نِعَمِهِ دُنُوّاً من عباده وعطفاً على إخوانه. ألا وإنّ لكم عندي أن لا أحتجزَ دونكم سِيراً إلّا في حزب ، ولا أطوي دونكم أمراً إلّا في حُكم ، ولا أوخر لكم حقّاً عن محلّه . وأن تكونوا عندي في الحقّ سواء. وإن أنتم لم تستقيموا على ذلك لم يكن أحدٌ أهونَ عليّ ممّن اعوجّ منكم ، ثم أعظمُ له العقوبة ولا يجد عندي فيها رُخصةً.^(١)

طائفة من خطبه

يا أشباه الرجال!

من خطبة له بعد أن غزا سفيان بن عوف من بني غامد ، بلدة الأنبار الواقعة على الشاطئ الشرقي للفرات ؛ وقد بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق تهويلاً على أهله :

وهذا أخو غامد قد وردت خيلُه الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكريّ وأزال خيلكم عن مسالحتها^(٢). وقتل منكم رجالاً صالحين. ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة^(٣) فينتزع جَنَلَهَا^(٤) وقَلْبَهَا^(٥) وقلائدَها ورِعَائَهَا^(٦) ما تُمنعُ منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام^(٧). ثم انصرفوا وافرّين ما نال رجالاً منهم كَلَمٌ ولا أريق لهم دم. فلو أنّ امرأةً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ؛ ما كان به مَلُوماً ، بل كان به عندي

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٥٠ - ٦.

(٢) مسالحتها : جمع مسلحة ، وهي الثغر والمرقب حيث يخشى طروق الأعداء.

(٣) المعاهدة : الذمية ، أي الدخلة في ذمة المسلمين وفي حمايتهم ، وأهل الذمة هم أهل الكتاب من غير المسلمين.

(٤) الحجل : الخللخال. الصحاح : ١٦٦٦/٤ ، مادة «حجل».

(٥) القلب ، بالضم ، كقفّل : السوار. المنجد : ٦٤٩.

(٦) رِعات جمع رعة : القرط. غريب الحديث : ١١٠/١.

(٧) الاسترجاع : ترديد الصوت بالبكاء ، والاسترحام : أن تناشده الرحم.

جديراً. فيا عجباً! والله يميئ القلب ويجلبُ الهمَّ اجتماعُ هؤلاءِ على باطلهم ، وتفرُّقكم عن حقكم. ففُجِّحاً لكم وتَرَحَّأً! ^(١) حين صرتم غَرَضاً يُرمى : يُغار عليكم ولا تُغيرون ، وتُغزَّون ولا تغزَّون ، ويُعصى الله وترضَّون! فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتُم : هذه حمارة القَيْظ ^(٢) أمهلنا يُسْتَبَخْ عَنَا الحَرَّ ^(٣)! وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتُم : هذه صِبَاة القَرِّ ^(٤) أمهلنا ينسلخ عَنَا البَرْدُ، كُلُّ هذا فراراً من الحَرِّ والقرِّ، فأنتم والله من السيف أقرُّ. يا أشباه الرجال ولا رجال! حُلُومُ الأطفال وعقول ربات الحجال ^(٥)، لَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَرْكُم ولم أعرِّفكم! معرفةً ، والله جرَّتْ ندماً وأعقبتْ سَدَمًا ^(٦) قاتلكم الله!

لقد شحتنم صدرِي غيظاً وجرعتُموني نُقَبَ التَّهْمَامِ أنفاساً ^(٧) وأفسدتُم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : إنَّ ابن أبي طالب رجلٌ شجاع ، ولكن لا علمَ له بالحرب!

لله أبوهم! وهل أحدٌ منهم أشدَّ لها مراساً ^(٨) وأقدمُ فيها مقاماً مني؟! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، وها أنا ذا قد ذرَّفتُ على الستين ^(٩) ، ولكن لا رأيي لمن لا يُطَاع! ^(١٠)

(١) ترحاً: همأ وحزنأ. تاج العروس: ١٢٧/٢.

(٢) حمارة القَيْظ ، بتشديد الراء : شدة الحر. النهاية في غريب الحديث: ٤٢٢/١ .

(٣) يَسْتَبَخْ : يخفف ويسكن. مجمع البحرين: ٣٢٥/٢.

(٤) القَرِّ : برد الشتاء. صِبَاة القَرِّ : بتشديد الراء : شدة القَرِّ. النهاية في غريب الحديث: ٩/٣ .

(٥) حجال : جمع حجلة وهي القبة ، وموضع يزين بالسُتُور ، والثياب للمروس . وربات الحجال : النساء.

لسان العرب: ١٤٤/١١.

(٦) السدم : الهم مع الأسف والغيظ. لسان العرب: ٢٨٣/١٢.

(٧) النغب : جمع نغبة وهي الجرعة. الصحاح: ٢٢٦/١. التهمام : الهم الكثير . أنفاساً : أي جرعة بعد جرعة.

انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٨) مراساً : مصدر مارس ، أي عالج وزاول وعانى. المنجد: ٧٥٥.

(٩) ذرَّفت على الستين : زدت عليها. غريب الحديث: ١١٥/٢.

(١٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٧ - ١٦.

غيبية الناس

من كلام له في النهي عن غيبة الناس ورحمة أهل الذنوب :
 وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب
 والمعصية ويكون الشكر هو الغالب عليهم وإلى جزلهم عنهم ، فكيف بالغائب الذي غاب
 أخاه وغيره ببلواه؟ أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي غاب
 به؟ وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله؟! يا عبد الله! لا تفعل في عيب أحد بذنبه فلعله مغفور
 له! (١)

* * *

أقولاً بغير علم؟

من خطبة له :

أيها الناس! المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم : كلامكم يوهي الصمّ الصلاب ،
 وفعلكم يطمع فيكم الأعداء ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم! أي
 دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من عززتموه ، ومن فاز
 بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيّب. أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ،
 ولا أوعد العدو بكم . ما بالكم؟ ما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم أقولاً بغير
 علم؟ وغفلة من غير ورع؟ وطمعاً في غير حق؟! (٢)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٤٠ - ٤٠٤

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢٩ - ٦٠

ويزداد الظالم عتوًّا!

ومن خطبة له :

أيها الناس! إنا قد أصبحنا في دهرٍ عنود وزمنٍ كؤود ، يُعَدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم عتوًّا! لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوف قارعةً حتى تحلّ بنا. من الناس من لا يمتنع الفساد إلا مهانةً نفسه وكلاله حدّه^(١) ونضيض وفره^(٢). ومنهم المُضِلُّ سيفه والمعلن بشره ، والمُجِلِبُ بخيله ورجله ، قد أشرط نفسه لخطام يستهزه أو منبر يفرعه^(٣). وَلَيْسَ المتجرُّ أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا!^(٤)

* * *

حُبّ السلم

من كلام له وقد استبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال بصقّين!
أما قولكم : أكلّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي أدخلت على الموت أو خرج الموت إليّ! وأما قولكم : أشكّا في أهل الشام؟ فوالله ما دفعْتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفةٌ فتتهدي بي وتعشوا إلى ضوئي^(٥) ، وذلك أحبّ إليّ من أن أقاتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوءُ بآثامها!^(٦)

* * *

(١) كلاله حدّه : ضعف سلاحه عن القطع في أعدائه ، يُقال : كَلَّ السيف كلاله إذا لم يقطع ، والمراد إعوازه من السلاح.

انظر مفردات الخطبة في نهج البلاغة.

(٢) نضيض وفره : قلّة ماله ، فالنضيض القليل ، والوفر : المال.

(٣) منبر يفرعه - قَرَعَ المنبر - بالفاء : علاه.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ٣٢ - ٥.

(٥) تعشوا إلى ضوئي : تستدلّ عليه ببصر ضعيف.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة : ٥٥ - ٢.

أسفلكم أعلاكم

من كلام له يجري مجرى الخطبة ، لما بوع بالمدينة :
والذي بعثه بالحق ، لَتَغْرِبَنَّ غَرْبَةً ، وَلَتَسَاطَنَ سَوَاطِنُ الْقَدَرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلَاكُمْ ،
وَأَعْلَاكُمْ أَسْفَلُكُمْ ! وَاللَّهِ مَا كَتَمْتُ وَشَمَّةً ، وَلَا كَذَبْتُ كَذِبَةً! (١)

* * *

زجر النفس

ومن خطبة له :
زُنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَوَزَّنُوا ، وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحَاسِبُوا ، وَتَنْقَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ
الْخَنَاقِ ، وَانْقَادُوا قَبْلَ غُفِّ السِّيَاقِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعِنِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا
وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ! (٢)

* * *

عتب العاتب

من خطبة له لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان :
دَعُونِي وَالتَّمَسُوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْهٌ وَأَلْوَانٌ ؛ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا
تَثْبِتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ . وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتِ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ ، وَاعْلَمُوا إِنْ أَجَبْتُمْكُمْ رَكِبْتُ
بِكُمْ مَا أَعْلَمُ ، وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعْتَبِ الْعَاتِبِ . وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ ، وَلَعَلِّي
أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لَيْنٌ وَلَيِّمُوهُ أَمْرَكُمْ . وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا! (٣)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٦ - ٤ .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٠ - ٩١ .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٢ - ٣ .

يا أهل الكوفة!

من خطبة له في أهل الكوفة :

يا أهل الكوفة! مُنِيتُ منكم بثلاثٍ واثنين : صمُّ ذوو أَسْمَاعٍ ، وبُكْمُ ذوو كَلَامٍ ، وعميُّ ذوو أَبْصَارٍ ، لا أحرار صدقي عند اللقاء ، ولا إخوان ثقةٍ عند البلاء! يا أشباه الإبل! غاب عنها رُعَاتُهَا : كلِّما جُمِعَتْ من جانب تفرَّقت من جانب!^(١)

* * *

العدالة في القسمة

من كلام له يجري مجرى الخطبة لما عوتب على التسوية في العطاء :
أُتَامِرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصَرَ بِالْجَوْرِ فِي مَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ؟ وَاللَّهِ مَا أَطُورُ^(٢) بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ
وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا! أَلَا وَإِنْ إعطاء المال في غير حقِّه تَبْذِيرٌ وإسراف.^(٣)

* * *

الظالم والمرتشي

وقد علمتم ، أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يَكُونَ الْوَالِي عَلَى الدَّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةَ
الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلَ ؛ فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ ، وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ ، وَلَا
الْجَافِي فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ ، وَلَا الْحَائِفُ^(٤) لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي
الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحَقُوقِ!^(٥)

* * *

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ٩٧ - ١٠٠ .

(٢) أطور به : أمر به .

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٢٦ - ٢ .

(٤) الحائف : الجائر . الدول : جمع دولة ، بالضم ، وهي المال ، لأنَّه يتداول به ، أي ينتقل من يد ليد .

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣١ - ٧ .

إنصاف المظلوم من الظالم

من كلام له في غاية البيعة والخلافة والحكم السليم :
 لم تكن تبتغىكم إيتاي فلتةً ، وليس أمري وأمركم واحداً : إني أريدكم الله ، وأنتم تريدوني لأنفسكم . أيها الناس ! أعينوني على أنفسكم ! وإني الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ، ولأقودن الظالم بخزائمه ^(١) حتى أورده منهل الحق وإن كان له كارهاً ^(٢)

* * *

الكفّ عن البغي وإنصاف الخلق

من خطبة له تسمى «القاصعة» :
 لقد نظرتُ ، فما وجدتُ أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الأشياء إلا عن علةٍ تحتلّ تموية الجهلاء ، أو حجةٍ تليط بعقول السفهاء ، غيركم ؛ فإنكم تتعصبون لأمرٍ لا يُعرف له سبب ولا علة . فإن كان لابد من العصية ؛ فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور والأخلاق الرغبية ، والأحلام العظيمة والآثار المحمودّة ! فتعصبوا لخلال الحمد : من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذمام ، والطاعة للبرّ والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي ، والإنصاف للخلق ، واجتناب الفساد في الأرض !

آلًا وقد أمرني الله بقتال أهل البغي والنكث ^(٣) والفساد في الأرض : فأما الناكثون فقد قاتلتُ ، وأما القاسطون ^(٤) فقد جاهدتُ ، وأما المارقة فقد دوّختُ ، وأما شيطان

(١) خزائمه : الخيانة - بالكسر - حلقة من شعر تجعل في وتره أنف البعير ليشد فيها الزمام ويسهل انقياده .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٣٦ - ٢ .

(٣) النكث : نقض العهد .

(٤) القاسطون : الجائرون عن الحق .

الردهة^(١) فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه ورجة صدره. وبقيت بقية من أهل البغي .
ولئن أذن الله في الكثرة عليهم لأدين منهم إلا ما يتشذر في أطراف البلاد تشذراً^(٢).

* * *

الحق والناس

من خطبة له بصفين :

أما بعد ، فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم. فالحق أوسع الأشياء في التواصف ؛ وأضيقتها في التناصف ، لا يجري لأحد إلا جري عليه ، ولا يجري عليه إلا جري له.

وإن من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس أن يُظنَّ بهم حبُّ الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر. وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أنني أحب الإطراء واستماع الثناء، فلا تكلموني بما تُكَلِّم به الجابرة. وإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أنقل عليه ، فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل ، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ!^(٣)

* * *

الحق لا يبطله شيء

من خطبة له عقب البيعة :

أيها الناس! إنما أنا رجلٌ منكم ، لي ما لكم وعلي ما عليكم. ألا إن كلَّ قطيعةٍ أقطعها عثمان ، وكلَّ مالٍ أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء.

(١) الردهة : النقرة في الجبل . وشيطان الردهة : يعني به أحد رؤساء الخوارج وقد وجد مقتولاً في ردهة.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٢ - ١١٤.

(٣) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢١٦ - ٢٤.

ولو وجدته قد تزوج به النساء وفرق في البلدان لرددته. فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيّق.^(١)

أيها الناس! ألا لا^(٢) يقولن رجال منكم غداً - قد غمّرتهم الدنيا - فامتلكوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرققة^(٣)، إذا ما منعهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون -: حرّمنا ابن أبي طالب حقّقنا! ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته، فإن الفضل غداً عند الله. فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يُقسّم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحدٍ على أحد!^(٤)

* * *

ومن خطبة له يدعو الناس إلى قرض الدنيا على منهاج موسى وداود والمسيح ومحمد :

وإن شئت قلت في عيسى بن مريم (عليه السلام)، فلقد كان يتوسّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشّب، وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاريها، وفاكهته وريحانه ما تُنبِت الأرض للبهائم. ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يُذله، دأبته رجلاه وخادمه يداه!^(٥)

* * *

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥ - ١، وفيها: ومن ضاق عليه العدل.

(٢) أثبتناها من المصادر.

(٣) في أكثر المصادر: «الروقة» بدل «المرققة».

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣٧ / ٧، بحار الأنوار: ٢٧ / ٣٢.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ١٦٠، ٥٨ / ٢، شرح أصول الكافي: ١ / ٢٣٢، مكارم الأخلاق للطبرسي: ٩، بحار الأنوار: ١٤ / ٢٣٨.

في الإنسان الخير

من خطبة له جلييلة يصف بها الإنسان الصادق الخير ، أو الإنسان كما يجب أن يكون. ونلفت نظر القارئ إليها بصورة خاصة ، لما فيها من صفات عليّ بن أبي طالب نفسه :

يمزج الحِلْمَ بالعلم والقول بالعمل ، الخير منه مأمول والشرّ منه مأمون ، يعفو عمن ظلمته ويعطي من حرمة ، بعيدٌ فحشه لئن قوله غائب منكّر حاضراً معروفاً ، مقبلٌ خيره مدبرٌ شرّه ، لا يحيفُ على من يُبغض ولا يأنم في من يحب ، يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه ، لا يناز بالآلقاب ولا يُضارّ بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق ، نفسه في عناء والناس منه في راحة ، بعده ممّا تباعد عنه زهدٌ ونزاهة ، ودنوّه ممّن دنا منه لئن ورحمة . ليس تباعده بكبٍ وعظمة ، ولا دنوّه بمكٍ وخديعة. ^(١)

* * *

في صفة المنافقين

من خطبة له في وصف المنافقين :

يتلَوْنون ألواناً ويفتنون ^(٢) افتناناً ، ويعيدونكم بكلّ عِماد ويرصدونكم بكلّ مرصاد. يمشون الخفاء ويدبون الضراء. مؤكّدوا البلاء ومقنطو الرجاء ، لهم بكلّ طريق صريع وإلى كلّ قلبٍ شفيغٍ ولكلّ شجورٍ دموع ^(٣). يتقارضون الشاء ويتراقبون الجزاء. إن عَدَلُوا كشفوا وإن حكموا أسرفوا. قد أعدّوا لكلّ حقٍّ باطلاً ولكلّ قائمٍ مانلاً ، ولكلّ حيٍّ قاتلاً ، ولكلّ

(١) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٣ ، ٢ / ١٦٤ ، كتاب التمهيد للإسكافي : ٧٣ ، أمالي الصدوق : ٦٦٩ .

(٢) يفتنون : يأخذون في فنون من القول لا يذهبون فيه مذهباً واحداً .

(٣) الشجور : الحزن ، أي يكون تصنعاً ونفاقاً متى أرادوا .

باب مفتاحاً، ولكلّ ليلٍ مصباحاً. يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، ويُنفقوا به أَعْلَاقهم. يقولون فيشبهون ويصفون فيوهمون. قد هَوَّنوا الطريق وأضلعوا المضيق، فهم لُمةُ الشيطان.^(١)

* * *

اللَّهُمَّ جَنِّبِ الْمُنْتَصِرَ الْبَغْيَ!

من خطبة له لما عزم على لقاء القوم بصفين:
اللهم! رب هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومذرجاً للهوام والأنعام وما لا يُحصى ممّا يُرى وممّا لا يُرى، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً، إن أظهرتْنا على عدوّنا فجنّبنا البغي وسدّدنا بالحق. وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة!^(٢)

* * *

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُم!

من خطبة له بصفين وقد سمع قوماً من أصحابه يستبون أهل الشام ردّاً على سبّ أهل الشام إياه :
إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتُم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إيتاهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدِهِم من ضلالتهم ؛ حتّى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به!^(٣)

* * *

(١) نهج البلاغة، الخطبة : ١٩٤ / ٢ / ١٦٦، عيون الحكم والمواعظ : ٥٥٤، بحار الأنوار : ١٧٧ / ٦٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة : ١٧١ / ٢ / ٨٤، مستدرک الوسائل : ١١ / ١٠٩ الحديث رقم ١٢٥٥٢، شرح نهج البلاغة : ٣٠١ / ٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة : ٢٠٦ / ٢ / ١٨٦، مستدرک الوسائل : ١٢ / ٣٠٧ الحديث ١٤١٥٩، عيون الحكم والمواعظ : ٦٦، بحار الأنوار : ٥٦١ / ٣٢.

خلقة الجرادة

من خطبة له في وصف خلقه الجرادة :

وإن شئت قلت في الجرادة : إذ خلق الله لها عيني حمراوين ، وأسرج لها حدقتين حمراوين^(١) ، وجعل لها السمع الخفي ، وفتح لها الفم السوي ، وجعل لها الحس القوي ، ونايين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض^(٢) . يرهبا الزراع في زرعهم ولا يستطيعون ذبها^(٣) ، ولو أجلبوا بجمعهم ؛ حتى ترد الحزث في نزواتها^(٤) وتقضي منه شهواتها . وخلقها كله لا يكون إصبعاً مستدقة^(٥).

* * *

خلقة النملة

ومنها في وصف النملة :

أنظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنال بلحظ البصر ولا بمستدق الفكر ، وكيف دبت على أرضها وصبت على رزقها ! تنقل الحبة إلى جحرها وتعدّها في مستقرّها . وتجمع في حرّها لبردها ، وفي ورودها لصدرها ، مكفولة برزقها مرزوقة بوقفها^(٦) ، لا يُغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولو في الصفا والحجر الجامس^(٧) . ولو

(١) أي مضيئين كأن كلّاً منهما ليلة أضاءها القمر.

(٢) أراد بالمنجلين هنا : رجليها ، لاعوجاجهما وخشونتهما.

(٣) ذبها : دفعها وإبعادها.

(٤) نزوات ، جمع نزوة وهي : الوثبة.

(٥) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٥ ، ٢ / ١١٨ ، الاحتجاج : ٣٠٦ / ١ ، بحار الأنوار : ٣ / ٣٧ و ٦١ / ٤٠ ، مستدرک

سفينة البحار : ٢ / ٥٠ .

(٦) الصدر : الرجوع بعد الورود . بوقفها ، أي : بما يوافقها من الرزق ويلائم طبعها.

(٧) الجامس : الجامد.

فكرت في مجاري أكلها ، وفي علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها^(١) وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً. ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النحلة، لدقيق تفصيل كل شيء وغامض اختلاف كل حيي.^(٢)

* * *

خلقة الخفاش

من خطبة له يذكر فيها بديع خلقة الخفاش :

ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكل حيي، وكيف عشيّت أعينها عن أن تستمدّ من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، وتصل بعلائية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها بتلاؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها^(٣)، وأكّنها في مكانتها عن الذهاب في بلج ائتلاقها^(٤)، فهي مسدلة الجفون في النهار على أحداقها، وجاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها ، فلا يردّ أبصارها إسداف ظلمته^(٥) ولا تمتنع من المضي فيه لفسق دجنته، فإذا ألفت الشمس قناعها وبدت أوضاع نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب^(٦) في وجارها، أطبقت الأجفان على

(١) الشراسيف : أطراف الأضلاع التي تشرف على البطن والواحد شرسوف.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٨٥ ، ١١٧ / ٢ ، الاحتجاج للطبرسي : ٣٠٦ / ١ ، بحار الأنوار : ٣ / ٣٦ و ٦١ / ٣٩ .

مستدرک سفینه البحار : ٦ / ٣٧٨ ، درر الأخبار : ٥٤ ، شرح نهج البلاغة : ١٣ / ٥٦ .

(٣) سبحات النور : درجاته وأطواره .

(٤) البلج ؛ الضوء ووضوحه . الائتلاق : اللمعان الشديد .

(٥) أسداف الليل : أظلم .

(٦) الضباب : جمع ضب وهو الحيوان المعروف .

مآقيها وتبَلَّغت^(١) بما اكتسبت من فيء ظلم لياليتها . فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً ، والنهار سكناً وقراراً ، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش ولا قصب ، إلا أنك ترى مواضع العروق بيّنة أعلاماً ، لها جناحان لَمَّا يرقاً فينشقاً ولم يغلظاً فيثقلأ ؛ ولدها لاصقٌ بها لاجئٌ إليها : يقع إذا وقعت ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتى تشتدّ أركانها ، ويحمّله للنهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه ، فسبحان الباري لكلّ شيء على غير مثالٍ خلا من غيره.^(٢)

* * *

اللهم! قد انصاحت جبالنا

من خطبة له في الاستسقاء ، وهي التي تزخر بالعاطفة والحنان ، وبالتواضع لخالق الكون وهيبة الوجود :

اللهم! قد انصاحت^(٣) جبالنا ، واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا وتحيرت في مراضها ، وعجت عجيج الثكالي على أولادها ، وملّت التردّد في مراتعها والحنين إلى مواردها . اللهم! فارحم أنين الآنة ، وحنين الحانة . اللهم! فارحم حيرتها في مذاهبها ، وأنينها في موالجها^(٤) . اللهم! خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين وأخلفتنا مخايل الجود^(٥) ، فكنت الرجاء لمبتس والبلاغ للملتمس : ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ، وهلك السوام ، أن تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبثق والربيع المغدق ، والنبات المونق سخاً وابلاً^(٦) تحيي به ما قد

(١) تبَلَّغت : اكتسبت أو اقتاتت .

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٥٥ ، ٢ / ٤٧ ، بحار الأنوار : ٦١ / ٣٢٤ ، شرح نهج البلاغة : ٩ / ١٨٢ ، الكنى والألقاب ، للقي : ١٧ / ٢ .

(٣) انصاحت : جفّت أعالي بقولها وبست من الجذب .

(٤) موالجها : مداخلها في المراض .

(٥) مخايل : جمع مخيلة ، كمصيبة ، وهي السحابة تظهر كأنها ماطرة ثم لا تمطر . والوجود : المطر .

(٦) سخاً : صَباً . الوابل : الشديد من المطر الضخم القطر .

مات وتردّ به ما قد فات. اللهم! سقياً منك ، محييةً مرويةً ، تامّةً عامّةً ، طيبةً مباركةً ، هنيئةً مريّةً^(١) ، زاكياً نبتها ، ثامراً فرعها ، ناضراً ورقها ، تُعشّش بها الضعيف من عبادك وتحيي بها الميت من بلادك! اللهم! سقياً منك تُعشّب بها نجادنا^(٢) وتجري بها وهادنا وتخصب بها جانبنا^(٣) وتُقبل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشينا ، وتندى بها أقاصينا ، وتستعين بها ضواحيننا ، من بركاتك الواسعة.^(٤)

* * *

التضامن والقوة

ومن أمثال عليّ :

أنوارٌ ثلاثةٌ كنّ في أجمة : أبيضٌ وأحمرٌ وأسود ، ومعهنّ فيها أسد ، فكان لا يقدر منهنّ على شيءٍ لاجتماعهنّ عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدلّ علينا في أجمتنا إلّا الثور الأبيض ، فإنّ لونه مشهور ، ولوني على لونكما ، فلو تركتاني آكله صفت لنا الأجمة ، فقالا له : دونك فكله . فأكله . فلما مضت أيامٌ ، قال للأحمر : لوني على لونك فدعني أكل الأسود لتصفو لنا الأجمة! فقال : دونك فكله . ثمّ قال للأحمر إني آكلك لا محالة ، فقال دعني أنادِ ثلاثاً . فقال افعل . فنادى : ألا إني أُكِلْتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض^(٥).^(٦)

(١) مريّة : خصيّة .

(٢) نجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض .

(٣) الجنب : الناحية .

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة : ٢١٦ - ٤ .

(٥) رأينا أن نشبت هذا المثل هنا ، لأنّه من أجمل الأمثال العربية التي جاءت حكاية عن الحيوان . ثمّ لأنّه أوّل هذه الأمثال ، وفيه دعوة إلى الاتحاد وتغيير من الفتنة . ومن الغريب أن يكون هذا المثل الذي ثبتت نسبته لعلي بن أبي طالب ، غير مذكور في نهج البلاغة على اختلاف طبعاته وكثرة شارحيه والمعتنين به .

(٦) كنز العمال : ١٣ / ٨٩ ، الحديث : ٣٦٣٠٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٢١٦/٧ ، تاريخ المدينة ، للشمسيري :

ملوك و تفاهات

المؤامرة في الإسلام

إذا أُلقيت نظرةً على عناصر التاريخ عامةً ، منذ أقدم العصور الاجتماعية والسياسية حتى يومنا هذا، أدركت أنّ الصراع من أجل السلطان كان أكثر هذه العناصر مصدراً للدسائس والمؤامرات . وليس بين أطماع الإنسان ، منذ قامت المجتمعات والدول ، ما أذكى في نفسه الميل إلى التآمر مثل السلطان والسيادة . يستوي في ذلك الأفراد والجماعات دولاً كانت أم أحزاباً أم طوائف من نماذج شتى . ولكم غرقت الشعوب في دمائها من جرّاء هذا الصراع العنيف الطويل تُذَكِّيه مطامعُ الرئاسة والسيادة في التاريخ ، حتى إنّ شعباً واحداً لم ينجُ من المجازر الرهيبة التي خلقتها هذه المطامع .

وكانت المجتمعات القديمة أحفل مجتمعات التاريخ بمعارك الملك والسلطان، ذلك لأنّ مغريات السلطة كانت من القوة بحيثُ تصعب مقاومتها ؛ وبحيث تحمل مَنْ له بعض الأمل في إدراك الملك ، على أنّ يضحي في سبيله حتى بحياته ، فالملك في المجتمعات القديمة، ولا سيما ذات الأنظمة الاستبدادية منها، كان النعمة كلّها ، والأمر كلّه ، والإرادة التي لا تُردّ ، والسلطة التي لا تُحدّ ، والخيرات المادية التي يرتع فيها الأفراد على حساب الألوف والملايين . ثمّ إنه مطلقٌ في كلّ شيء ، وغيرُ مسؤولٍ عن شيء ، وقد يعتزّ بذاته ويشمخ حتى ليدنو من القدسية . هذا ، على ما في نفوس طلاب الملك في تلك الأعصر السحيقة من

نذالة وغباء، يُشبه غباء البهائم في أكثر الأحيان.

وفي سبيل الوصول إلى هذا المُلْك إذا كان بعيداً ، وفي سبيل المحافظة عليه والقضاء على الطامعين فيه إذا كان قريباً، كانت المؤامرات «السياسية» التي ملأت صفحات التاريخ سواداً وأجرت دماء الشعوب أنهاراً. وإنه ليمكننا أن نلخص تاريخ الملوك الأوائل بأنه قصة استعدادٍ للقضاء على قريبٍ منافس، أو لإخضاع ملوكٍ أباعدٍ يبدو عليهم بعضُ الضعف في الحيلة وأساليب المغالبة، أو لقهْر شعبٍ يحاول أن يتخلص من جورٍ وطغيان. فتاريخ أولئك الملوك ليس والحالة هذه، إلا حكاية لصوِّص، أدنياء النفوس لا يحملون من القيم والمعاني أكثر مما تحمل الضبَاعُ القذرة، وهي تهاجم فرائسها في ليالي الشتاء.

غير أن هنالك مؤامراتٍ سياسية من نوع آخر يقدها لنا التاريخ، وتكمنُ بواعثها في النزوع إلى استرداد الحزبيات التي قضت عليها مؤامراتُ الملوك، وإلى رفع كابوس الظلم أياً كان نوعه. فمن المؤامرات السياسية ما كان شراً وما أشبه قطع الطرق، وأعني مؤامرات الطامعين في السلطان، ولا غاية لهم من وراء ذلك إلا الرتوع في نعيم المُلْك، ولو قام على سلسلة من المعارك الدامية والمجازر الرهيبة. ومن المؤامرات السياسية ما كان خيراً وما أشبه البطولة، وأعني مؤامرات الطامحين إلى تهديم أركان العبودية، واسترجاع الحزبيات المفقودة والثروات المنهوبة. ومصدر هذا النوع من المؤامرات إنما هو الشعب ذاته.

لقد عرف التاريخ هذين النوعين من المؤامرات السياسية، وإن كانت مؤامرات الطغاة هي الأوفر من حيث العدد، والأعنف من حيث القسوة وإهراق الدماء.

أما التاريخ العربي ، فقد عرف المؤامرات هو أيضاً كما عرفها تاريخ سائر الشعوب. بدأت المؤامرات والمجتمع العربي ما يزال في بدء تكوينه. ومن هذه المؤامرات ما اكتسب طابعاً من العنف مريعاً. ومنها ما انحطت به النفس البشرية إلى الدرك الأسفل والمنزلة المهينة. ولكي نعطيك صورة عن مؤامرات فظيعة جرت في بلاد العرب ولم يكن لها من هدف إلا هوى خسيس في نفس عبث ؛ ولكي نبزر ما نعتنا به الملوك القدامى حين قلنا : إنهم لصوص أدنياء ، نروي لك هذا الخبر الرهيب عن مؤامرة رهيبة ، حاكها ملك عربي ، ورواها المؤرخون الإغريق والروم والعرب ؛ لتكون شاهداً على حقيقة من حقائق التاريخ.

في أواخر القرن الخامس الميلادي كان على دولة كندة في نجد الملك الحارث بن عمرو ، جد امرئ القيس الشاعر الشهير. ولسبب من الأسباب توافدت إليه قبائل العرب من مُضَرَ وربيعة ، وطلبت منه أن يولي عليها من أبنائه من يحكمها فيبطل ما كان قائماً بينها من خلاف. ففرق في هذه القبائل أربعة من أولاده تولى كل منهم بعضهما. فرضيت أسد وغطفان بحُجر بن الحارث - والد امرئ القيس - ملكاً عليها. ورضيت قبيلة بكر بن وائل ، بأخيه شرحبيل بن الحارث. وتولى معدي كرب بن الحارث ، قبائل قيس عيلان جميعاً. أما سلمة بن الحارث فقد تولى قبائل تغلب والنمر بن قاسط.

ولم تطل حياة أبيهم الحارث فمات بعد ذلك بقليل. وشاءت المصادفات أن يهرب قبل موته من الحيرة عاصمة المناذرة اللخمين ، وأن يلحق به الملك المنذر المعروف : بابن ماء السماء يريد قتله للتسليّة والمجد والشرف الرفيع ؛ فلحق الحارث بأرض قبيلة كلب ونجا ، فذهب المنذر ماله ومطايه. وأسر ثمانية وأربعين نفساً من عائلة ملك كندة وفيهم ابنه عمرو ومالك -

وهما عما امرئ القيس الشاعر - فتلقى بهم المنذر زمناً قليلاً ثم قتلهم وطرّحهم في العراء للوحش والطيور. وقد رثاهم امرؤ القيس بقصيدة موجعة. وبعد موت الحارث ظلّ أولاده الأربعة على ما ملكوه. فراح المنذر يحيك المؤامرات لقتلهم تشقياً وانتقاماً ، وإظهاراً لعنجهية الملوك الغليظة. فسعى أول الأمر في الإفساد بينهم مستخدماً في هذا السبيل كلّ وسيلة ممكنة. وما زال بهم حتى أغرى اثنين منهما فتحاربا. أما الإثنان فهما سلمة أمير تغلب وأخوه شرحبيل أمير بكر. ودارت الدائرة في هذه القتال على شرحبيل فقتل. فلما علم أخوه سلمة بمقتله جزعَ جزعاً عظيماً، وأدرك أنّ المنذر بن ماء السماء إنما أراد أن يقتل بعضهم بعضاً ، فأصبح لا يؤمن على نفسه. وخرج من تغلب والتجأ إلى قبيلة بكر ، فقال له البكريون : لا يحكمنا بعد أخيك غيرك. فاغتاز المنذر لا لأمرٍ إلا الهوس الملوكي السخيف ، فبعث إلى البكرتين يدعوهم إلى طاعته والدخول في أمره والتخلي عن كلّ ما ارتضوه لأنفسهم من شؤونهم الخاصة. وكان من الطبيعي أن يأبى البكريون مثل هذا الأمر، فثارث نخوة الجهل والغباوة والمُلْك في رأس المنذر ، وأقسم بـ «شرف أبيه» لئيسيرن إلى البكرتين فإنّ ظفّر بهم لَيَذْبَحْنَهُمْ على قمة جبل «أواره» حتى بلغ الدم الحضيض^(١).

وسار في جموع من أشباهه الأغبياء إلى البكرتين الذين كانوا يقاسون من الفقر والتعاسة والبؤس ما لا مزيد عليه، وبمؤامرة ملكيّة حقيرة دُبِرت سلفاً ، التقوا بجبل «أواره» فاقتتلوا اقتتالاً شديداً أبدى فيه البكريون من البسالة والشرف شيئاً كثيراً. وانكشفت الواقعة عن هزيمة البكرتين ، وأسر

(١) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل. النهاية في غريب الحديث: ٣٨٥/١.

يزيد بن شرحبيل الكندي، فأمر المنذر بن ماء السماء بقتله فقتل ، وذبح معه من البكرتين خلق كثير. وأسر المنذر من بقي حياً ومن لم يستطع النجاة من البكرتين ، ثم أمر بذبح الأسرى جميعاً ويبلغون الألوف ، فذبحوا على جبل أواره المذكور فجعل الدم يجمد فلا يبلغ الوادي كما كان الملك قد أقسم ، فقال له كلاب الزلفي^(١) والنفاق وكأنهم يحرضونه : «أبيت اللعن! لو ذبحت كل بكري على وجه الأرض لم يبلغ دمه الحضيض ، ولكن لو صببت عليه الماء». ففعل الملك ، فسال الدم إلى الحضيض. ثم نظر إلى النساء فإذا هن كثيرات ملوعات أسى وحزناً ، فأمر بهن أن يُحرقن بالنار وهن على قيد الحياة حزناً بطيئاً. وهكذا انتهى أمر الكثرة الكثيرة من القبيلة البائدة.^(٢)

وهنا يتساءل المرء عما يكون عليه أمر هؤلاء الملوك في التاريخ ، وعما تكون عليه مؤامراتهم من البشاعة والنذالة حين يكون وراء هذه المؤامرات حفاظ على ملك ، أو سعي في سبيله ، طالما أن الغرور والهوس وحدهما أنتجا مثل هذه المؤامرة التي انتهت بهذه البشاعة المريعة.

ومثل هذه المؤامرة في تاريخ العرب قبل الإسلام كثير. وتكاد قصة حنك المؤامرات وتنفيذها أن تكون كل تاريخ الملوك السبئيين ، والحميريين ، والغساسنة ، والمناذرة.

ثم كانت مؤامرات جاهلية في مطلع الدعوة الإسلامية ، والمجتمع العربي ما يزال بعيداً عن روح هذه الدعوة ، وعن مقاصدها الأدبية والاجتماعية. وكان ذلك يوم ائتمرت قريش بمحمد وصحبه ؛ دفاعاً عن سلطة ونفوذ ومغنم ، وتوطيداً لأنظمة اجتماعية وتقاليده محلية ومعتقدات دينية ، تخدم

(١) الزلفي والزلفة : القربة والمنزلة. وأزلفه : قربه. كتاب العين: ٣٦٨/٧، مادة «زلف».

(٢) المدة لابن رشيح ج ٢ ص ١٦٨.

أصحاب الوجاهات وتجور على العامة ، وتستذل المستضعفين وتسميهم عبيداً أرقاء.

وقد اتخذت مؤامرات القرشيين الكثيرة على محمد بن عبد الله صيغةً دينيةً للتمويه والتضليل ، وظهر أصحابها كأنهم يريدون التخلص من صاحب الدعوة الجديدة ؛ دفاعاً عن دينهم ودين آبائهم. وهي في الواقع لم تكن تستهدف إلا غايةً سياسيةً معينةً ، وراءها غاياتٌ طبقيّةٌ خالصة. كانت تستهدف القضاء على الدعوة الجديدة ؛ لِمَا يترتب عليها من تحطيمٍ لزعامات قريش الدينية ، وما تجرّه هذه الزعامات من منفعة وسلطان. وكان من خواص الملك السياسي في هاتيك العصور أن يستند إلى الدين ؛ وأن تمتزج السلطان المدنية والدينية في زعامةٍ واحدة.

وازداد كيد القرشيين وتعاضم سخطهم ، يوم ترامى إليهم أنّ النبي عازمٌ على الهجرة إلى المدينة بعد أن انتقل إليها صحبه. فتجهّم جوّ مكة واسودّت قلوب القوم. فاجتمعوا بدار الندوة بمن استطاعوا إغراءهم من زعماء القبائل العربية الأخرى ، وتفاوضوا في أمر الرجل - ويعنون به النبي - وقَرَّ عزْمُهم على أن يقتلوه مهما كلف الأمر. وأسندوا أمرَ تنفيذ الجريمة إلى عددٍ عظيم من الرجال الأشداء يمثل كلّ منهم قبيلةً معينةً ؛ كي يتخذ قتله صفةً عامةً ، فلا يكون على أحدٍ منهم مسؤولية قتله ولا يكون لقبيلةٍ دون أخرى ، مثلُ هذا «الشرف» في ارتكاب الجريمة. ثم إنّ دم محمد يَفَرِّق - بهذه الطريقة - على القبائل العربية جمعاء، فلا يستطيع أنصاره الاثثار له منهم جميعاً.

ويُنبئنا تاريخ مطلع الإسلام ، أنّ سلسلة المؤامرات القرشية على الرسول وصحبه لم تنتهِ إلّا بعد أن تمكّن الرسول من أنْ يشق طريقه إلى النصر بين صفوفٍ من الأذى والسخرية والانتقام ، ويجمع حوله أنصاراً من ذوي الخلق

العظيم ، وأنصاراً كثيرين من المضطَّهدين والمستضعفين. فلم تنتهِ المؤامرة . ولم يُلقِ المتآمرون سلاحهم إلا ساعة وطَدَ النبي أركان الدعوة الجديدة ، وكَبَتَ ما في نفوس الجماعة من كيدٍ له ولأصحابه.

ثم كانت من جانب المسلمين أنفسهم مؤامراتٌ، ولكنها من نوعٍ آخر. مؤامرات تُساند الخيرَ ضدَّ الشرِّ وضدَّ الشعوذة والنفاق. وأهمُّ هذه المؤامرات : تلك التي انتهت بمقتل الأسود العنسي. وقصة ذلك أن نجاح الدعوة الإسلامية القائمة على أساس من العدل والسموّ والتفهُم لروح العصر وعقلية الناس، أغرى بعضَ الناس في ادِّعاء النبوة. وفاتَّهم أنَّ الينابيع التي استقى منها محمد بن عبد الله رسالته الجليلة هي غير الادِّعاء المجرَّد ، الذي لا يستقون - هم - إلا منه ، ولا سلاح بأيديهم سواه.

وكان أقوى هؤلاء الادِّعاء وأوسعهم نفوذاً مشعوذٌ بارُعٌ يُدعى الأسود العنسي. وقد تمكَّن العنسي من أن يجمع حوله خلقاً كثيراً ويسير بهم إلى اليمن حيث يمتدُّ نفوذه، فينطلق فيما بعد إلى سائر أنحاء الجزيرة.

ولم يكن غريباً إذ ذاك أن يرتدَّ كثيرٌ من أهل اليمن المسلمين، ويلتفتوا حول هذا المشعوذ. فإنَّ دينهم كان ما يزال رقيقاً ، لأنَّهم لم يكونوا على صلوات ثابتة بحقيقة الرسول وينبوع الرسالة؛ ذلك لأنَّ بين الحجاز مهد الإسلام واليمن موئل العنسي المشعوذ ، فلواتٍ وقفاراً. ولَمَّا كان للشعوذة أنصارٌ في كلِّ زمن فقد خشي النبي من محاولة هذا المنافق في أرضٍ لم يكن نور الإسلام قد سطع فيها بعد ، خصوصاً بعد أن أنشأ الأسود العنسي حكومةً في اليمن ، تُحاول أن تنافس حكومة المدينة في زعامة الجزيرة العربية، فكتب إلى عماله في اليمن أن يسعوا في التخلص من العنسي ، وأن يسعوا في ذلك بما يرون. فما كان من العمال هؤلاء إلا أن اثتمروا بالدعي ، وآثروا اغتياله اتقاءً لخطره وبأسه.

فساهتدوا إلى منزله ذات ليلة ، فدخلوه وقتلوه ، وانتهت بذلك نبوءته وانهارت دولته.

* * *

ثم كانت دولة الخلفاء الراشدين ، وأول هؤلاء أبو بكر الصديق. وكان من المستحيل إذ ذاك أن يتغافل المسلمون عن واقع الجزيرة العربية ، وعن الأحقاد والأطماع والأهواء التي كبتّها الإسلام في صدور الزعماء والنافذين وأصحاب المنافع الشخصية. لذلك لم يكن بدّ من أن تقترن السياسة بالدين والمُلك بالخلافة ؛ كي تُضبط الأمور ، وتُخمد أطماع أولئك الزعماء ، الذين يترتبصون بالإسلام ويتحينون الفرصة لاسترجاع وجاهاتهم المنهزمة. فإنّ النبي ما كاد يُقبض ؛ حتّى أخذت تلك الأطماع والأهواء تتفتح في صدور الوجهاء. فإذا هم يتآمرون على الدعوة التي اعتنقوها تظاهراً ، ويرتدون إلى ما كان من ضلالهم. فإذا بالخليفة الأول ، وبيده السلطان ، يقضي شطراً من سنيّ خلافته في محاربة هؤلاء الخارجين.

واستمرّ الأمر على الإسلام كذلك في عهد عمر بن الخطاب. فإنّ عمر ما كاد يدفع الإسلام في ميادين جديدة من الظفر ، ويوطد أركان الدولة العربية على أنقاض عروش كسرى وقيصر ؛ حتّى امتدت إليه يدُ أئيمة لتقضي عليه بطعنة قاتلة. وإنّه لمن الصعب علينا أن نثق بأن أسباب مقتل عمر، إنّما كانت أسباباً شخصية لا تمتدّ إلى أبعد من حفيظةٍ عليه في نفس قاتله أبي لؤلؤة ؛ فقتله بهذه الحفيظة.

فبالرغم من أن أكثر المؤرّخين العرب ، وأكثر المستشرقين الأجانب يُجمعون على أن السبب في مقتل عمر إنّما هو هذه الضغينة في نفس أبي لؤلؤة ؛ من أجل خراج درهمين اثنين ، بالرغم من ذلك يمكننا أنّ نشكّ في

صحة هذه الرواية من حيث أسبابها. إذ ليس ببعيد أن يكون مصرع الخليفة الثاني نتيجة مؤامرة مدروسة؛ أتقنها ونفذها نفّر من الوجهاء الذين عزّ عليهم أن لا يُطلق عمر أيديهم في نهبٍ أو اختلاس أو نفوذ. والذين يضمرون في أعماق نفوسهم كثيراً من أهواء الزعامة والاستئثار، فساءهم من عمر ألا يلين وألا يصانع، وأن يسحق هذه الأهواء وما يمتنون به نفوسهم، فدفعوا إليه بمن يطعنه فيصرعه.

أما ثالث الخلفاء الراشدين: عثمان بن عفان، فهو أيضاً من ضحايا هذه المؤامرة، وإن اختلفت أسبابها التي قُتل بها عن أسباب تلك التي قتل بها عمر. فإن عثمان أحاط نفسه ببطانة ظنّ بهم الخير، وكان على رأسهم مروان بن الحكم الذي لم يكن «نصحه» له في شتى الأمور إلا شراً عليه وعلى المسلمين. وبحكم هذه البطانة السيئة طُبعت سياسة عثمان بطابع الأثرة والمصلحة العائلية. فإنه ما كاد يستلم الحكم حتى عزل الولاة والعمال الذين كان عمر قد اختارهم ولقنهم أصول السيرة العادلة؛ وجعل مكانهم جماعة من أقربائه وذويه. ثم إنه استأثر بكل سلطة، واتبع هوى العائلة في تدبير الأمور وتبذير الأموال التي هي ملك الشعب. وأطلق يد عتاله - ومُعظمهم من أهله - في الأمصار فاستبدّوا بها ونكّلوا بأهلها وأفسدوا مرافقها وجمعوا أموالها لأنفسهم، حتى كادت الخلافة تنقسم في عهده بطابع المنفعة الخاصة التي تستبيح^(١) ما ينهى عنه الإسلام، وما يخالف أبسط مبادئ العدالة الاجتماعية. ولما جاءت وفود الأمصار لتشكو إلى عثمان عتاله واستبدادهم وركوبهم الأهواء، ورجوه في أن يكون بعده بعض الإنصاف الذي كان بعهد

(١) تستبيح: تنتهك وتنتهب. كتاب العين: ٣/٣١١، مادة «بوح».

عمر ، وعدّهم خيراً وصرفهم يحلمون بتحقيق هذه الوعود. ولمّا كانوا في بعض الطريق إلى ديارهم ضبطوا كتاباً من مروان بن الحكم، يأمر به العمال بقتل زعماء الوفود ساعة يصلون. فارتدّوا إلى المدينة عاصمة الخلافة ، وطلبوا من عثمان أن يسلمهم المجرم -أي مروان- فأبى. وأصرّ زعماء الوفود على طلبهم وأصرّ كذلك عثمان على ألاّ يجيب لهم طلباً. واشتدّ سخط الساخطين وزادت بهم النقمة، حتى اضطر الخليفة إلى ملازمة داره.

وسعى عليّ بن أبي طالب لدى عثمان في أن يحسم الخلاف بطريقة يقرّها المنطق، فلم يُجدِ سعيه إذ بقي عثمان على هواه. فما زاد موقف الخليفة الساخطين إلّا عناداً وإصراراً. وقوي جانبهم حين انضمّ إليهم خلق كثير من المدينة وغيرها. فحاصروا دار الخلافة بضراوة وشراسة، ولمّا تعاظم الخطر على من في الدار تخلّى عن عثمان حتى أبناء عائلته الأمويّون الذين كانوا السبب في ما صار إليه أمره وأمر المسلمين ، على ما سيتبيّن لنا في هذا الكتاب. وآثروا أن يهربوا خفيةً إلى الشام حيث ينتظرهم نسيبهم معاوية بن أبي سفيان عامل الخليفة عليها. فيما بقي ولدا علي : الحسن والحسين على رأس القوم الذين يلازمون أبواب دار الخلافة ؛ لعلّهم يمنعون عن الخليفة الأذى وسوء المصير.

وطال الحصار مدة أربعين يوماً ، وأخصام الخليفة يزدادون ضراوة في الحصار والاثّار. وطال دفاع المدافعين عنه. ولكن الخليفة الشيخ كان مصيره محتوماً، إذ انتهى الحصار بأن تسلّق سور الدار جماعة من المتآمرين ، وفتكوا به.

وبعد ذلك كانت المؤامرة الكبرى في التاريخ العربي!
المؤامرة على الإمام عليّ بن أبي طالب ، ثمّ على من سار على ضوئه من

وُلِّدَهُ وَأَنْصَارَهُمْ جَمِيعاً ، وَمِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ كَالْأُمَوِيِّ الْعَظِيمِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، الَّذِي سَلَكَ فِي قَوْمِهِ وَفِي النَّاسِ مَسْلَكَ الْعَدَالَةِ وَالْحَقِّ ، وَشَاءَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ سَوَاسِيَةً كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ ، وَأَمَرَ بِوُقُوفِ الْفَتْوحِ وَنَهَبِ الْأَرْزَاقِ ، فَتَأَمَّرَ بِهِ قَوْمُهُ الْأُمَوِيُّونَ وَقَتَلُوهُ.

المؤامرة التي احتضنت مؤامرات ، وانتهت بشقّ المسلمين شقّين كبيرين ، وبتنكيل المتآمرين بشيعة عليّ ، وباضطهاد الطالبيين ونفيهم وتشريدهم وتقتيلهم مدّة تاريخٍ طويل.

وقبل أنْ نستعرض تفاصيل المؤامرة الكبرى على عليّ لابّدَ لنا من إلقاء بعض النور على حقيقة البيت الأموي ، صاحب المبادرة في هذه المؤامرة ، ومن مقابلة موجزة بين نفسية الأمويين ونفسية الهاشميين في تلك الحقبة البعيدة ؛ ليتسنى لنا فهم الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى هذا النضال الدامي الطويل بين المسلمين.

بيتا قريش

- إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله
دُولاً وعباد الله خولاً! (١)
النبى

- وهؤلاء أكلة الرُشا الذين لو وُلّوا عليكم لأظهروا
فيكم الغضب والفخر والتسلط والجبروت والفساد
في الأرض! (٢)
على

أصاب النبى ساعة قال : «هلاك أمتي على أيدي أُغَيْلِمَةٍ من قريش» (٣).
وما أروع هذه الـ«أُغَيْلِمَة» تنطلق من لسان النبى لتُنصب في دارٍ للدسائس
والمؤامرات يُقيم فيها خليعٌ مثل يزيد بن معاوية!
بل ما أعظم النبى وهو يرى خصومه - خصومه يومَ جاهدوه دفاعاً عن
رئاسةٍ ، ويومَ أسلموا طمعاً في رئاسة - فيشخصُ بأنظاره إلى أطراف الأفق، ثم
يقول متألماً متحسراً : «هلاك أمتي على أيدي أُغَيْلِمَةٍ من قريش!».
وأصاب النبى كذلك ساعة نظر في أحوال الأمويين في زمانه ، وقد
عرفهم واحداً واحداً. وسَبَر أغوارهم حتى لا يفوته من حقيقتهم خفيٌّ،

(١) العمدة ، لابن البطريق ص ٤٧٢ الحديث رقم ٩٩٣ ، كنز العمال ج ١١ ص ١٦٥ .

(٢) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٧٨ .

(٣) المستدرك ، للحاكم النيسابوري ج ٤ ص ٤٧٩ ، فتح الباري ج ١١ ص ٤٧١ ، التاريخ الكبير ، للبخاري ج ٢
ص ٤٩٩ الحديث رقم ١٦٦٢ .

فأوصله الاستنتاج المنطقي إلى إدراك ما سيكونون عليه ، في زمنٍ يأتي من الميل الشديد إلى الاستئثار والتسلط والاستهانة بكرامة الأحياء ، وإلى تداول أسباب المنفعة الخاصة فيما بينهم ، فقال في معشرٍ منهم هذا القول البصير : «إذا بلغ بنو العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مالَ الله دُولاً وعبادَ الله حَوَلاً».

أما هؤلاء القوم ، أو هؤلاء الـ«أغيلمَة القرشيون» : فاستعرض معي تاريخ قريش من ناحية النزعة والهوى ، تدركهم واحداً واحداً !

* * *

يبدأ الخلاف بين الأمويين والهاشميين -ومن هؤلاء بنو طالب - قبل أن يبدأ بينهم النزاع على السلطة - مع الفارق العظيم بين النظرتين إلى مفهوم السلطة - وقبل أن يكون الإسلام. وهو خلافٌ يأخذ أصوله العميقة من الفروق البعيدة بين الجماعتين في التربية والنشأة والعمل والمفاهيم العامة لحقيقة الأشياء ، ومن ذلك كله فرقٌ عظيم بين الجماعتين في المناقب والأخلاق وأساليب التصرف والتدبير.

كان الأمويون والهاشميون في الجاهلية يشغلون مناصب الرئاسة سواء بسواء. غير أن الهاشميين كان نصيبهم أن يكونوا رؤساء دينيين على أسلوب الجاهلية في الدين ، فيما كان الأمويون أصحاب زعامة سياسية ، وأصحاب تجارة ورئاسة مدنية.

ويجمع المؤرخون من عرب وأجانب : على أن الهاشميين لم يكونوا لينهجوا مناهج الكهنة المشعوذين ، الذين يبرزون عادةً في الديانات الوثنية القديمة ، ويتخذون من كهاناتهم وسائل للتغريب بالسذج والبسطاء ، واستغلال إيمانهم على نحوٍ يعود على هؤلاء الكهنة المرائيين بالمال والنفوذ، وألوان الزعامة التي تتوخى منفعة أصحابها وإحاطتهم بالعصمة وما إليها. بل كانوا على

العكس من ذلك : أصحاب إيمان برب البيت وما يحلّل أو يحترّم ، وأصحاب عقيدة أدبية فيها من المروءات شيء كثير .

وكانوا صادقين في إيمانهم لا يخادعون فيه ولا يواربون^(١) . من ذلك أن عبد المطلب الهاشمي - جدّ النبي وعليّ بن أبي طالب - أوشك أن يذبح أحد بنيهِ فذِيَّةً لربّ البيت الذي يؤمن به ، وتحقيقاً لوعده قطعهُ على نفسه إذ نذر : لئن عاش له عشرة بنينَ لينحرنَ أحدهم على الكعبة إكراماً لربّها . ولم يتحلّل من نذره هذا إلّا بعد أن هداه إيمانه ، على لسان عزّافة ، إلى أن ذبح ابنه لن يرضي ربّ الكعبة .

وكانوا صادقين في عقيدتهم الأدبية ، وخلاصتها : نصرَةُ المظلوم ونجدةُ المستغيث ورفعُ الحيف عن المظلوم وذي العوز والفاقة . من ذلك أنهم كانوا الداعين إلى الحلف الشهير الذي اتفقوا عليه مع جماعة من القرشيين ، دون الأمويين ، وقد جاء فيه : « ليكونَ مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقّه ، وليأخذنَ أنفسهم بالتأسي في المعاش والتساهل في المال ؛ وليمنعنَ القويّ من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب »^(٢) .

وقصّة هذا الحلف : أنّ رجلاً من قريش اشترى بضاعةً من رجل غريب ، على أن يدفع له ثمنها بعد حين . ثم أحجم عن دفع ما عليه اتكالاً على قوّته ونسبه وموطنه من جهة ، وعلى فقر الرجل وضالّة نسبه وابتعاده عن دياره من جهةٍ أُخرى . فما كان من الهاشمين إلّا أن تناذوا النصرَة الغريب المظلوم ومعاقبة القُرشِيّ المغتصب ، إنصافاً وعدلاً . وكان الحلف الذي أشرنا إليه .

(١) يواربون : يقال : أفسد عليه رأيه ، داهاه وخاتله وخادعه . المنجد : ٨٩٥ ، مادة « وارب » .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٠٤ .

أما الأمويون ، فلم يكن هذا الحلف من هَواهم ؛ لذلك كانوا حرباً عليه .
ولعل الزعامة الدينية التي توارثها الهاشميون في الجاهلية كانت ممّا
يلائم طبائعهم وأخلاقهم المثالية . وقد تمكّنت فيهم هذه الميول وهذه الطبائع
تراكمت من سيرة الآباء في عقول الأبناء ، وبما عاش حياً في قلوب الأواخر
من عقيدة الأوائل ، وهم عليهم ناشئون . تمكّنت هذه الخلائق فيهم
وتمكّنت... حتى بُعث محمد فكان تعبيراً طبيعياً عن البيت الهاشمي ، كما كان
من بعده علي بن أبي طالب .

وإنك لتذهب مع التاريخ جيلاً أو جيلين أو خمسة أجيال بعد الإسلام .
فيهزك ما تراه من أن أعقاب الأسرة الهاشمية - ونحصرها ، بعد موت النبي .
بالطاليتين - هم في جملتهم صوّر حية عن آبائهم من حيث المروءة ،
والشجاعة ، والصراحة ، والصدق ، والوفاء ، وبلاغة القلب واللسان . ولولا
أصالة السمائل وقوة الشخصية الإنسانية في هذا البيت ، لما تمتع أفراداه
بالمثالية الرائعة ، في عصورٍ غلبت فيها الأثرة والأنانية والملق والانحدار في
الأخلاق والطبائع . وسيل الانحدار أيسر من طريق الصعود أو الثبات ، في
مثل الأعصر التي ثبت فيها الطاليتون .

* * *

أما بنو أمية ، فقد كانوا على نقیض ذلك !

كانوا ، في الجاهلية ، أصحاب تجارة ، أو رئاسة سياسية . والتجارة في
الجاهلية ، أو الرئاسة السياسية ليست أكثر من عملٍ جاهدٍ في سبيل المال
والنفوذ والسلطان المدني وحضرها جميعاً في فردٍ واحدٍ أو أفراد بيتٍ واحدٍ .
ولعلك لا تجهل السبيل التي لا بد لأصحاب هذه الأعمال من سلوكها .
وأيسرُها الظلم ، والاحتكار ، والانتفاع عن طريق التلاعب والربا

والمماكسة^(١) والمداورة والتحتيز والتزييف!

لقد اختار الأمويون هذه الأعمال لأنها تلائم طبائعهم. كما اختار الهاشميون أعمالهم تلك التي تلائم خلائقهم أيضاً. وهم إذا لم يكونوا ليختاروها فقد تميزوا بها طويلاً ونشأوا على أصولها ومعانيها وأشكالها في أخلاقٍ هي أشبه ما تكون بالمساومة على كسبٍ وبالحيله على نفوذ. فها هم يقعدون عن نصره الغريب المظلوم لأنّ في نصره المظلوم ما يخالف أسلوئهم في الانتفاع وحيلتهم في الكسب، وفيها ما يقوم حجةً عليهم في ما يفعلون.

وها جدّهم أمية لا تمنعه مثالية كمثالية الهاشمتين عن أن يتعرض للنساء تعرّضاً فيه وجوه المساومة والحيله من حيث المعنى والمفاد. فإذا تنافّر عبد المطلب الهاشمي - جدّ علي - وحرب بن أمية - جدّ معاوية - إلى نفيل بن عديّ قضى نفيل بن عديّ هذا لعبد المطلب وأكرمّه، ثم قال لحرب بن أمية هذا القول الذي يوجز حقيقة الهاشمتين وحقيقة الأمويين في الجاهلية :

أبوك مُعاهِزٌ، وأبوه عَفٌّ وذادَ الفيلَ عن بلدٍ حرامٍ
ويقصد نفيل بن عديّ خبرَ والد عبد المطلب يوم نهض وردّ فيل أبرهة الذي أغار به على البيت الحرام. ثم نعت أمية - والد حرب وأصل الأمويين - بأنّه «مُعاهِزٌ» لأن أخباره في التعرّض للنساء تشير إلى ما في نفسه من ميلٍ إلى الحيلة والمساومة. ومن أخباره أنّه تعرّض مرّةً لامرأةٍ من بني زهرة تعرّضاً لا يليق، فضرّبه بالسيف وأخطأوا منه المقتل. وكان لأمية هذا غرائب الأخبار في هذا الباب.

(١) المماكسة : المناقصة. مكس الشيء مكساً : نقص. وفي البيع : نقص الثمن. تاج العروس : ٢٤٩/٤ .

وكانت دعوة النبي الهاشمي ، فكان أبو سفيان بن حرب الأموي رأس أعدائه وقائد قريش ضده ورأس المؤامرات و«بطل» أساليب التنكيل بأنصار الدعوة الجديدة ولو كان خروج أبي سفيان بن حرب على محمد بن عبد الله مبنياً على أساس من العقيدة الدينية ، أو من الدفاع عن تقاليد روحية وأخلاقية معينة، لكان له بعض العذر في ما فعل؛ لأن صاحب العقيدة له من إيمانه وصدقه عاذر مهما كان شأنه ومهما كانت قيمة العقيدة التي يؤمن بها ، وقيمة التقاليد الروحية والأخلاقية التي يدفع عنها خطر الجديد.

ولكن الأمر لم يكن كذلك في قلب أبي سفيان وعلى لسانه، بل كان الأمر في نظره يدور حول سلطان موروث في بني أمية ، قائم على أركان من التجارة والتحكم والاستثمار واستعباد الضعفاء ، ومهدد بالزوال على يد صاحب الدعوة الجديدة التي تعصف بمثل هذه الأركان الواهية التي يقوم فيها سلطان بني أمية.

وظل أبو سفيان ، بحكم غريزة المنفعة الذاتية التي يصح أن نسميها الغريزة الأموية - في معرض المقابلة مع الشرائع الهاشمية - ظل أبو سفيان حتى بعد إسلامه ينظر إلى الدعوة الإسلامية نظرتة إلى انتقال الملك من بني أمية إلى بني هاشم ، دون أن يكون في نفسه من سيرة النبي ومن صمود أصحابه وتضحياتهم ومن معنى الرسالة أي قبس من نور القيم الإنسانية. فهو عندما رأى النبي في غزوة الفتح وحوله كتائب الأنصار ، وبين يديه جيش ضخم من المؤمنين تلقت إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي، وكان بجانبه قائلاً له : «والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً!..».

قال ذلك دون أن يعبر بخاطره معنى واحد من تلك المعاني التي أدركها الهاشميون إدراكاً بديهيّاً مباشراً، وجاهدوا في سبيلها ، وماتوا.

وكان إسلام بيت أبي سفيان أعسرَ إسلام عُرف بعد فتح مكة ؛ لأنه كان في نظر الرجل ، وفي نظر زوجته هند بنت عتبة ، شيئاً من استسلام المغلوب. فقد نظر أبو سفيان مرةً إلى النبي وهو بالمسجد نظرة الحائر، وهو يخاطب نفسه قائلاً : «ليت شعري ، بأي شيء غلبتني ؟» فأقبل عليه النبي وضرب يده بين كتفيه ، وقال له : «بالله غلبتك يا أبا سفيان!».

وبالرغم من إكرام النبي لأبي سفيان تدليلاً على روح التسامح في نفسه ، فقد ظلّ المسلمون يأبون أن ينظروا إليه أو يجالسوه ؛ حتى تؤسّل إلى النبي أن يجعل ابنه معاوية كاتباً بين يديه لعلّه يحظى ببعض العطف في نفوس القوم. ولما قبض الرسول واختلف كبار الصحابة من أنصارٍ ومهاجرين على مبايعة الخليفة طاب لأبي سفيان هذا الخلافُ وخال^(١) أن به ممراً ينفذ منه إلى استعادة سلطانه وبناء أمجادٍ جديدة على حساب الإسلام. وسعى جاهداً في إذكاء روح المنافسة التي قد تؤول في حسبانهِ إلى خلافٍ ، فقتالٍ فتدخّل من جانبه. وفي ما كان من خبره وخبر الإمام عليّ بهذه المناسبة كشف عن جوهر الرجلين ، وتوضيحٌ لحقيقة الأمويين والهاشميين :

دخل أبو سفيان على عليّ وعمّه العباس بن عبد المطلب على أثر مبايعة القوم لأبي بكر الصديق ، وجعل يثيرهما على أبي بكر ويعرض عليهما مساعداته الكثيرة ، قائلاً لهما: «يا عليّ! وأنت يا عباس! ما بال هذا الأمر في أذل قبيلةٍ من قريش وأقلها؟ - يعني قبيلة أبي بكر - والله لو شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجالاً وآخذنها عليه من أقطارها!»^(٢).

وفات أبا سفيان أنه يتحدث إلى عليّ بن أبي طالب الذي يبيع الدنيا

(١) خال: حسب ، ظن. احتمال. المنجد: ٢٠٢، مادة «خال».

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٤٩.

بكلمة حق ، والذي لا يخفى عليه أن أبا سفيان لم يغضب ؛ لأنّ الخلافة لم تستقر في بني هاشم وهي لو استقرت فيهم لانتحر كيداً ، أو لحاول مع زمرته أن يثيروا الدنيا على الهاشميين. فنظر عليّ إليه وقال بهدوء وثقة وإيمان :

«لا والله! لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجالاً ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها»^(١). وزاده مؤتباً : «يا أبا سفيان! إنّ المؤمنين قومٌ نصحةٌ بعضهم لبعض. وإنّ المنافقين قومٌ غشّةٌ بعضهم لبعض ، متخاونون وإنّ قربت ديارهم وأبدانهم!»^(٢).

بهذه الصفة وسمّ عليّ بن أبي طالب أبا سفيان وأعوانه.

لقد «كان أبو سفيان إقطاعياً مُترفاً ، من هؤلاء الأرسقراطيين الإقطاعيين المترفين ، الذين يرون لأنفسهم ولطبقتهم شرفاً على الناس ، فهم سادةٌ وغيرهم عبيد. وكان ينظر إلى الإسلام من هذه الزاوية على أنّه حركة نفعية ، استخدمت مبادئها التطورية سلاحاً لا يختلف بروحه عن اصطناع الوثنية في وقتها ، للنفع. فهذه المبادئ التي نادى بها محمد ، كالأصنام عنده ، إنّما تفرض على العامة والجماهير من الناس كي يستقيموا للسادة والأشراف ، ويخدموا الطبقات النبيلة لا أكثر. والفرق عنده بين الأداتين إنّما هو بنتائجها. فهذه المبادئ أفضل ، لأنّها أنفع وأنفذ وأخدم للرؤساء. فإذا لم تخدم الرؤساء ، ولم تفرض نفوذَ طبقتهم ، بطلَ نفْعُها وزهبت فائدتها ووجب تبديلها بالنافع المفيد للتبلاء والرؤساء وطبقتهم»^(٣).

وحين آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان الأموي ، شعر أبو سفيان بأنّ بعض أمجاده العائلية قد عاد إلى الظهور وأخذ يتركز من جديد ، فمشى به

(١) كنز العمال ج ٥ ص ٦٥٧ ، تاريخ مدينة دمشق ج ٢٣ ص ٤٦٥.

(٢) كنز العمال ج ٥ ص ٦٥٣ ، تاريخ مدينة دمشق ج ٢٣ ص ٤٦٥.

(٣) حليف مخزوم لصدر الدين شرف الدين ، ص ١٥٦.

الحقد الثأري المستفز إلى قبر حمزة - عم النبي وأبي طالب - فركله برجله وهو يقول : «انهض . فقد صار إلينا المُلْك الذي حاربنا عليه»^(١) في نزوة جاهلية لا نعرف في النزوات أنبض منها بالطيش ؛ ولا أولع منها بالتشفي .

* * *

ولما استخلف أول الراشدين وثانيهم ، لم يكن في مقدور الأمويين أن يتظاهروا بما في نفوسهم من كيدٍ وترقبٍ للظروف التي تتيح للخلافة أن تنقلب على أيديهم إلى مُلك . وإنه من السذاجة الاعتقادُ بأن بني أُمَيَّة كانوا من المؤمنين بمعاني الخلافة ، وبما يميّزها عن المُلْك من طابع الخير .

فإن إسلامهم كان ما يزال رقيقاً وقد أسلموا مكرهين ، وإن عصبيتهم الجاهلية كانت ما تزال تشدهم إلى الوراء . وإن ظهور النبوة في أسرة بني هاشم كان مما يثير حفاظهم على منافسيهم القدماء . ولكن أبا بكر وعمر لم يكونا من التغافل بحيث يفسحان المجال أمام الطامعين والعابثين ، فسكت الأمويون على مضض ، ولبثوا يتحتمون الفرص لاسترجاع المجد المفقود .

وكانت خلافة عثمان بن عفان الأموي مرحلةً أولى يجوزها بنو أُمَيَّة لتحقيق مطامعهم ، على غير رغبةٍ من الخليفة الشيخ . فهو ما كاد يستخلف حتى اجتمع حوله «الشَّمْل» وأبعدوه عن كل اتصال مباشر بالشعب ، ومنعوا عن الناس أن يوصلوا إليه شكاياتهم ، وجعلوا بطانته أُموية خالصة وعلى رأسها مروان بن الحكم الذي كان أول من أثار حفيظة المسلمين على المسلمين ، وحفيظة الشعب على الخليفة ، وأول من جاهر - عملياً - بأن المُلْك خير من الخلافة ، وبأنه وقَّف على بني أُمَيَّة وحقٌّ من حقوقهم . وكان ذلك بأن حَمَلَ

(١) حليف مخزوم ص ١٦٢ .

عثمان على عزل الولاية والعمال واستبدالهم بعمال وولاة أمويين. وبأن جعل الدولة أموية خالصة لا مطمع بخيراتها وأموالها ومناصبها إلا لمن كان من أمة أولاً، ومن حزبها ثانياً.
وكان أول الغيث... بحرأ !

وسيتبين لنا في الفصول التالية مقدار الإثم الذي كانت تنطوي عليه نفس رجل كمروان بن الحكم، ومقدار تعلقه بالحكم ولو على رؤوس الضحايا يوم أشار بإصرار على عامل يزيد بن معاوية في المدينة بأن يضرب عنق الحسين بن عليّ تخلصاً منه. ويوم وبخه توبيخاً شديداً على أنه لم يفعل.
لقد كان مروان بن الحكم رجلاً يبتغي الملك ونعيمه، أسوةً بأجداده في الجاهلية. فإن لم يكن الملك له - هو - فلأحد الأمويين أعوانه وإخوانه وأبناء أسرته. وكان أسلوبه في إدراك الملك - بمقياس الإنسان لا بمقياس التاجر - أسلوباً يدل على نفسية غير محببة لم يكن الملك بقادر على تشريفها.

معاوية و خلفاؤه

- فاقتل من لقيته متن ليس هو على مثل رأيك.
وانهب أموال كل من أصبت له مالا متن لم يكن له
دخل في طاعتنا! (١)

معاوية

- كانت نفسية الأمويين مركبة على الطمع في الغنى إلى
حدّ البشم (٢) ، وحبّ الفتح بقصد النهب.

كازانوف

- كان «حلم» معاوية يتسع حتى ليهب ابن العاص
مصر وأهلها. وكان يضيّق حتى ليملك على مصر
وأهلها كل حق لهم في الحياة فيعطيه هدية لرجل.

إنّ أبرز الأمويين لخصائص أمة في الإسلام إنما هو معاوية بن أبي
سفيان. وأول ما يطالعنا من صفات معاوية إذا درسناه درساً دقيقاً أنّه لم يكن
على شيء من إنسانية الإسلام وخلق المسلمين في ذلك العهد الطيب من عهود
الناس. فإذا اعتبرنا الإسلام ثورة على قديم العرب في أكثر مذاهبهم ومنها
الأثرة الخالصة ، والعمل للمصلحة الفردية الخالصة ، والنظر في أحوال
الجماعة على أنها قطعاً يُغزى بها وتُغزى ، وعلى أنها مصدر قوة وثروة
لصاحب الوجهة والنفوذ والمال، تأكّد لنا أنّ معاوية لم يكن على شيء من
الإسلام ، كما سيتبين لنا تفصيلاً في هذا الكتاب. وإذا اعتبرنا الإسلام - من

(١) تاريخ البغوي ج ٢ ص ١٤١.

(٢) البشم : التخمّة. والبشام : شجر طيب الريح ، يُستاك به. الصحاح : ١٨٧٣/١٥.

جانب آخر - ديناً يتجه بأوامره ونواهيه اتجاهها مباشراً إلى الخلق الفردي والمسلک الشخصي ، ويسعى في إصلاح الأفراد عن طريق ربطهم بإرادة السماء وإنذار الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنة، تأكّد لنا كذلك أنّ معاوية لم يكن على شيء من الإسلام ، وقد شهد على نفسه بذلك. فإنه كان يلبس الحرير ويشرب في آنية من الذهب والفضة ، حتّى أنكر عليه ذلك أبو الدرداء فقال له: إني سمعتُ رسولَ الله يقول : «إنَّ الشاربَ فيهما لتُجرَّجُرُ في جوفه نارُ جهنّم» فقال معاوية بلا مبالاة : أمّا أنا فلا أرى بذلك بأساً^(١) !

فإذا نحن أدركنا تشدّد المسلمين الأوّلين في أمر دينهم ، وأخبارهم في الاستشهاد في سبيله ، وإنكارهم كلّ ما ينهى عنه ، وتخوّفهم من الإثم ساعة يأثمون ، واحترامهم العظيم لكلّ كلمةٍ نطق بها الرسول إنّ أمراً وإنّ نهياً ، ثمّ رأينا إلى هذه اللامبالاة ينجّبه بها معاوية من يُنكر عليه عملاً يخالف أمرَ الرسول ويسوق صاحبه إلى نار جهنّم تستعرُ في جوفه ، وإلى هذه المخالفة الصريحة لإرادة صاحب الشريعة بما يعكسها أو يُبطل عملها، أدركنا أنّ معاوية لم يدخل في جماعة المسلمين بوصفهم قومًا يدينون بعقيدة روحية أخلاقية ذات أوامر بالمعروف ونواهٍ عن المنكر ، كما أنّه لم يدخل في جماعة المسلمين بوصفهم جنوداً في ثورة اجتماعية وسياسية تستهدف الإصلاح العام ، في مجتمع كانت تسوده الفردية والعصبية منذ حين. فالمهم في الأمر ما يراه معاوية لا ما يراه باعثُ تلك الثورة.

وأيّ شيءٍ غير رقةٍ إسلام معاوية يراه القارئ وراء هذه الكلمة العابثة التي أرسل بها إلى عليّ بن أبي طالب وهو رسولُ القيم الكبرى في نظر أنصاره وخصومه على السواء ، قال : أمّا بعد ، فاتّق الله في دينك يا عليّ! إنّ في هذه

الكلمة يتوجه بها معاوية إلى عليّ، كلّ العبث وكل الاستهانة بمدلول الكلمات وكلّ النفسية التي تستخدم قيماً، آمن بها المؤمنون لمصلحة رجل لم يكن على شيء من هذا الإيمان. وإنّ معاوية في الإسلام لم يكن إلّا كأبيه أبي سفيان في الجاهلية، وجيهاً يستعمل الناس في خدمته، ويؤوّل أحوالهم وعقائدهم وكلّ ما هم فيه تأويلاً يوثق ما يضع في أعناقهم من أغلال. وهو لم يُسلم إلّا مكرهاً ولم يثبت على التظاهر بالإسلام إلّا مكرهاً كذلك أو متنعاً. ومن أخبر بمعاوية ومعنى الإسلام في نفسه من معاصريه أنصاراً وخصوماً! أفلم يتهموه جميعاً على ما سوف نراه؟ أولم يكن عليّ أعلم الناس به وأصدقهم تعبيراً عن حقيقته حين بعث إليه يقول: «فقد سلكت مدارج أسلافك بادعائك الأباطيل وإقحامك غرور المّين^(١) والأكاذيب؟»^(٢) أو يكون مسلماً في عهد النبي والراشدين من يدعي الباطل ويكذب؟ أو يكون من مسلمي ذلك العهد الطيّب من يقول له عليّ ولأبناء بيته: «وما أسلم مسلمكم إلّا كرهاً!»^(٣).

أما بعض مزايا الرجل الطيبة - من حيث المظهر - كالحلم والرفق والجود وسعة الصدر، فإنّما هي وسائل لجأ إليها يوم دله ذكاؤه على أنّها قد تكون أنجح في تبليغه ما يريد بلوغه من ملكٍ وسلطان. وإنّي أرجح أنّ سيرة آبائه ومعاصريه الأمويّين، وشعور الناس بضالة بني أميّة وضالة أمجادهم الحالية إزاء الدعوة الجديدة، قد جنّحاه عن قصدٍ وتصميم لأنّ يلقي على الأنظار ستائر من الحلم والجود فلا تنفذ إلى الحقيقة إذا هي استعرضت الأمويّين على صعيد الشمائل والكفاءات!

(١) المّين: الظنون السيئة. مجمع البحرين: ٢٥٦/٤، مادة «مين».

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٥ - ١.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٤ - ٢.

إنّ الحلم والجود لدى معاوية لم يكونا إلاّ طريقاً إلى اصطناع الناس بغية المُلك ، وما أسهل أن يصطنع الجود الناس! وطريقاً إلى ستر التالد والطريف من سيئات الحقيقة الأموية.

فأيّ حلم وأيّة مروءة يجد المُطنبون^(١) في مدح معاوية الذي كانت سياسته محصورةً في منطق القاهرة مع المقهور ، وفي تصرف الوجيه القوي مع الضعيف البائس، فهي سياسة عنفٍ وقسوةٍ وأثرةٍ وَصَّعَ خطوطها لمن جاء بعده من أُمّةٍ فاستغلّوها على أنين الملايين من البشر في أنحاء الإمبراطورية الأموية.

أيّ حلم وأيّة مروءة يجد هؤلاء في معاوية؟ إذ سيّر المجرم بسر بن أرطاة إلى المدينة ليشغب^(٢) على عليّ وزوّده بهذه الوصية : «سير حتى تمرّ بالمدينة فاطرد الناس وأخف من مررت به ، وانهب أموال كلّ من أصبت له مالاّ ممّن لم يكن له دخلٌ في طاعتنا!»^(٣).

أيّ حلم وأيّة مروءة يجد هؤلاء في معاوية؟ إذ سيّر سفيان بن عوف الغامدي إلى العراق للشغب على عليّ وزوّده بهذه الأقوال: «إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق! تُرعب قلوبهم وتُفرح كلّ من له فينا هوى منهم ، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر. فاقتل من لقيته ممّن ليس هو على مثل رأيك ، وأخرب كلّ ما مررت به من القرى ، وأحرب الأموال فإنّ حرب الأموال شبيهة بالقتل وهو أوجع للقلب»^(٤) إلى آخر هذه «النصائح» بقتل

(١) المُطنبون : المبالغون. مجمع البحرين: ٦٣/٣، مادة «طنب».

(٢) ليشغب : من الشغب ، وهو تهيج الشر، وشغب الجند. الصحاح: ١٥٧/١، مادة «شغب».

(٣) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٤١ ، شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٣ نقلاً عن كتاب الغارات ، الفدير ج ١١ ص ٢٣.

(٤) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٦.

الضعفاء والبائسين ممّن لا يريدون أن يحملوا بني أُمّية على أعناقهم! وقد زوّد معاويةُ السَّقَاحَ الضَّخَّاكَ بن قيس الفِهْري بمثل هذه الوصايا حين أرسله في غارةٍ على بعض ولايات عليّ. ونقذ الضَّخَّاك هذه الوصايا كما نقّذها غيره ، فنهَب وقتل وأكثر من الاعتداء والافتراء.

بل أيّ حلم وأيّة مروءة يجدونها في هذا الرجل؟ وقد قال في الموالي ، وهم مئآت الألوف من البشر لهم عقولٌ وقلوب وأبدان : «فقد رأيتُ أن أقتل - منهم - شطراً ، وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق!»^(١) ولو لم يرده الأحنف بن قيس عن هذه الفعلة لنقذ ما رأى ، ولَقَتَلَ من الخلق عشرات الألوف ولا ذنبَ لهم إلّا لأنّهم موالي ، ولا سترق مئآت الألوف واستغلّهم كما تُستَغَلّ الآلة والبهيمة ولا ذنبَ لهم كذلك.

كان معاوية رفيقاً حليماً كريماً، ساعة يجمعه الزمان بصاحب جيش أو نفوذٍ يخشى خطره على عرشه ، فإذا قسا عليه ونال منه وقال فيه قولاً كأنه السمّ أو أنفذ ، ملك نفسه واسترضى الغاضبَ وقبلَ منه ما يقول. وقد يشتدّ عليه نافذٌ بتوبيخ أليم وهو في حاشيته وبين أعيانه ، فإذا به «يرفق ويحلم» خشيةً البأس ، وقد يأمر أمناءه إذ ذاك بتسجيل كلمة التوبيخ هذه قائلاً لهم : «هذه حكمة فاكتبوها!» أمّا إذا كان المرء لا جيش عنده ولا نفوذ فإنّ معاوية لا يرفق عند ذاك ولا يحلم، حتّى ولو لم يتوجّه إليه بتوبيخ أو تأنيب أو تذكير. وقد يطيب له أن يأمر بأن «يُقْتَلَ - هذا المرء - قتلةً لم يُقْتَلْها أحدٌ في الإسلام»^(٢).

(١) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ج ٣ ص ٤١٣.

(٢) هذه المقولة لابن زياد حين أراد أن يقتل مسلم بن عقيل ، مقاتل الطالبين ص ٦٧ ، الإرشاد للمفيد

وكان معاوية رفيقاً حليماً كريماً ساعة تجمعه المصلحة الخاصة بمن ينفع به... فيقبل منه كل قول وكل عمل شريطة أن يسنده في تثبيت ملكه وإن جار ، وعند ذاك قد يعطيه مصر وأهلها... ملكاً حلالاً لا ينازعه فيه منازع . على نحو ما أعطاها عمرو بن العاص .

كان حلم معاوية يتسع حتى ليهب عمرو بن العاص مصر وأهلها ، وكان يضيق حتى ليملك على مصر وأهلها كل حق في الحياة ، ويعطيهم هدية «منه» لشريك له .

أما إذا كان هذا هو الحلم والرفق والكرم ، فليس من سقاح في التاريخ إلا وهو حليمٌ رفيقٌ كريم .

والذي يمعن النظر في سياسة معاوية يهوله هذا المقدار من قوى الشر والاحتيال التي تألف منها أسلوبه في أخذ الناس وفي ما سماه أنصاره «بناء الدولة» . فهو أسلوب ميكيافيلي خالص لا ينقصه شيء من تفاصيل الميكيافيلية المجرمة . فالنهب والترويع والتقتيل من سياسة معاوية المدروسة . ومنها الوعد والوعيد ، وكذلك الفتك بالأبرياء والأحرار . واصطناع الخونة والمأجورين وأهل الإجرام . ومنها استخدام الدعاية في تمثيل السماء أرضاً والأرض سماء . ومنها الاحتيال على كل قيمة إنسانية قُصد الكشب والاستفادة . ومنها مساومة أصحاب الضمائر السود على حساب الحق والعدل . ومنها الاستئناس بمعونة السفاحين الذين نذروا أنفسهم لخدمة «الأمير» وما تقوم خدمته إلا بالمهارة في نهب أموال الشعب ، وكبت حرياتهِ وسوق أبنائه عبيداً مطيعين لصاحب السلطان .

وقد شهد معاوية على نفسه مراراً بأنه لم يُنصف في سياسته ولم يعدل ، ولم يقف وقفةً في حياته إلى جانب حقٍّ ظهر أو عدلٍ سطع . ومن شهادته على

نفسه : حديثٌ له يدور على جانب من سياسته ، ثم على نظرته العاقبة إلى معنى العدل في الناس وإلى قيمته. فقد حدّث المطرف بن المغيرة بن شعبة قائلاً:

كنت أدخل مع أبي على معاوية ، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه. وجاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ، ورأيتُه مغتماً ، فانتظرتُه ساعةً وظننتُ لأمرٍ حدّثَ فينا ، فقلتُ : ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال : يا بني! جثتُ من عند أكفر الناس وأخبتهم ، قلت : وما ذاك؟ قال: قلتُ له وقد خلوتُ به : إنك قد بلغتَ سنّاً يا أمير المؤمنين! فلو أظهرتَ عدلاً وبسطتَ خيراً وقد كبرت! ولو نظرتَ إلى إخوتك من بني هاشم فوصلتَ أرحامهم ، فوالله ما عندهم اليوم شيءٌ تخافه ، وإنّ ذلك ممّا يبقى لك ذِكْرُه وثوابُه! فقال : هيهات هيهات! أيّ ذكْرٍ أرجو بقاءه؟ ملكٌ أخو تيم - يعني أبا بكر - فعَدَل وفعل ما فعل فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل «أبو بكر» وملكٌ أخو عديّ - يعني عمر - فاجتهد وشمرَ عشرَ سنين ، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل «عمر» وإنّ ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمسَ مِزات «أشهد أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله» ، فأَيّ عملٍ يبقى وأيّ ذكرٍ يدوم بعد هذا؟ لا أباً لك.^(١)

كان معاوية من الذين نشأوا على كره أصحاب الرسالات السامية بحكم مولده في بيت أبيه أبي سفيان. ثم إنّه شهد «مآثر» أبيه وهو يؤلب الجموع على صاحب الدعوة ويسير في طليعتهم إلى حربهِ ، ويوقع بصحبهِ ويسعى جاهداً في أن يوقع بالرسول ذاته ؛ لتدوم له زعامتُه السياسية ومكاسبُه المادية ، ويظلّ سيّداً على قومه ولو كلفَتْ هذه السيادةُ أن يخسر العربُ عظيماً

(١) وسائل الشيعة ، للعالملي ج ١ ص ٣٧ ، شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ١٣٠. وفيهما وفي أغلب المصادر: ... فأَيّ عملٍ يبقى وأيّ ذكرٍ يدوم بعد هذا - لا أباً لك - لا والله إلا دفناً دفناً.

كمحمد ، وعظماء كصاحبه الثائرين على القديم، وديمقراطية كروح الرسالة. وهو في ذلك سرّ أبيه الأول : أمية بن عبد شمس.

ولم يكن تأثير والد معاوية في تربيته وتنشئته على هذه الروح التاجرة ، وعلى الدفاع عن مجدٍ غابرٍ ومكسبٍ طريفٍ بأكثر من تأثير أمّه هند آكلة الأكباد. ومن تكون هند هذه؟

لعلّ تاريخ المرأة العربية لم يحفل بصور الأنانية والأثرة والشراسة والخلق العربية وسائر ما يحفل به تاريخ هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان! فقد كانت هذه المرأة من المساواة بحيثُ يعزّ على أشد الرجال أن يكونوا أكثر ضراوةً وبربريةً ووحشية منها.

فحين جعلت قريش تبكي قتلاها وكانوا المعتدين على المسلمين ناحت نساؤها شهراً كاملاً على هؤلاء القتلى. ثم مشين إلى هند زوجة أبي سفيان يقرن لها : ألا تبكين مثلنا على قتلنا وفيهم أهل بيتك؟ فقالت بعنادٍ وقساوة لا تعرفهما المرأة : أبكيهم فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بني الخزرج! لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه! والدهن عليّ حرام حتى نغزو محمداً ثم راحت تحرّض الناس على محمد وأصحابه حتى كانت موقعة أحد الشهيرة.

أرأيت كيف أن روحاً خشنه تطفئ على كيائها؟ فإذا هي لا تحس حاجة إلى أن تبكي ذويها ؛ أسوء سائر النسوة وتلبيةً لنداء القلب الأنثوي ، بل تنظر إلى الأمور بعقلية من ترى الدنيا منازعةً على بأس ، ومغالبةً على نفوذ ، ومجاهدةً من أجل رفع لواء.

وحين كان التهتؤ لموقعة أحد هذه أثبت هند بنت عتبة إلا أن تسير على رأس فرقة نسائية لتحريض الرجال على قتل محمد وصحبه وتروي ظمأها

لرؤية الدماء تسيل والرجال تُصرع. وصاحب في وجه من يعترض خروج النساء إلى تلك الموقعة، تقول : «نعم ، نخرج فنشهد القتال!»^(١).

وكان لأم معاوية ما أرادت ، فخرجت مع قريش على رأس نسائها، وهي على أشد ما يكون عليه الإنسان طلباً للثأر وتحريضاً على الانتقام. ولما كانت الموقعة الكبرى جعل نساء قريش يمشين خلال صفوفها يضررن بالدفوف والطبول وعلى رأسهن هند بنت عتبة ، وهن ينشدن :

وَيْهَاهُ^(٢) بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَيَهَاهُ حُمَاةُ الْأَذْبَارِ
ضَرْباً بِكُلِّ بَتَّارِ^(٣)

وينشدن أيضاً :

إِنْ تُقْبِلُوا نَعَانِقُ وَنَفْرُشُ النَّمَارِقِ
إِنْ تُدْبِرُوا نُفَارِقُ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ^(٤)

وكانت هند قد وعدت وخشيت الحبشي شيئاً كثيراً إن هو قتل من المسلمين ، ولا سيما حمزة بن عبد المطلب عم النبي ، وكان ثبلة عظيماً وكان حقدُها عليه يتأجج. ونكلت قريش بالمسلمين في هذه الموقعة، وكادت تطير فرحاً بانتصارها. وكان من قتلها حمزة، قتلته وحشي الحبشي بتحريض من هند، كما قرأنا. وصاح أبو سفيان: «يومُ بيوم بدر والموعِد العام المقبل»^(٥). أما زوجته هند فلم يكفها هذا النصر ولم يكفها قتل حمزة بن عبد المطلب، بل جمعت حولها النسوة القرشيات اللواتي كن معها ، وانطلقت بهن تمثل

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٤ ص ٢١٦.

(٢) ويهاً : إذا أغراه بالشيء يقال : ويهاً يا فلان ، وهو تحريض كما يقال : دونك يا فلان. لسان العرب :

١٣ / ٥٦٣، مادة «ويه».

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨.

(٤) مجمع الزوائد للهيتمي ج ٦ ص ١٠٩، شرح نهج البلاغة ج ١٤ ص ٢٣٥، تاريخ الطبري ج ١ ص ٦١٠.

(٥) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٦، البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٨.

بالقتلى، على صورةٍ يعف عنها برابرةُ الرجال فكيف بله النساء. راحت تجدع الآذان والأنوف وتجعل لنفسها منها قلائد وأقراطاً. ثم إنها بقرت بطن حمزة وجذبت بين يديها كبده بعنفٍ وحماقة وجعلت تلوكها بأسنانها، تريد أن تأكلها فلا تستطيع مضغها وإساعتها. وقد بلغ من شناعة ما فعلت من الفظائع أن تبرأ من أعمالها حتى زوجها أبو سفيان، فقال يخاطب أحد المسلمين: «إنه قد كان في قتلاكم مثلٌ، والله ما رضى وما سخط وما نهى وما أمرت!»^(١).

ولقبت هند هذه بأكلة الأكباد!

ولما أسلم أبو سفيان بن حرب مكرهاً عند فتح مكة، كانت هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد إسلام زوجها: «اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه. قُبِح من طليعة قوم. هلا قاتلتهم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم؟» قالت ذلك وهي لا تزُن بميزانٍ ما لقيت هي وزوجها وابنها وبيتها من رحمة محمد بن عبد الله ومن عفوه وسماحه!

على أيدي أبي سفيان هذا وزوجته هند بنت عتبة هذه كانت نشأة معاوية، بالإضافة إلى ما في نفسه من خواص قومه وآبائه الأولين، وأقلها حب الرئاسة والتوصل إليها عن طريق السياسة المموهة بالطلاء والخداع والمواربة والاصطناع والتشريد وما إليها جميعاً. إنه ربيب القوم الذين يصفهم الإمام علي بأنهم: «أكلة الرثا، المشترون الغادر الفاسق بأموال الناس؛ الذين لو وُلوا على الناس لأظهروا فيهم الغضب والفخر والتسلط والجبروت والفساد في الأرض!»^(٢).

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٢٧٢ نقلاً عن سيرة ابن إسحاق.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٧٨.

ولما كانت ولايته على الشام في عهد عمر بن الخطاب جعل يعمل بهذه العصبية الجاهلية في الخفاء وتحت ستار كثيف من الدهاء والتملق.

وبدأ الستار ينكشف عن خداع معاوية في عهد نسيبه عثمان بن عفان، إذ جعل يرکز ولايته على أساس من العمل لنفسه ووُلده دون الخلافة ودون الإسلام. وأحاط الرجل نفسه بالقوة والثروة. واصطنع الرجال على حساب بيت المال وهو للمسلمين لا لأُمّية. ولبث يترقب الفرصة ويستعد للبقاء الطويل في دولة تكون له وللأمويين من بعده ولا سيما بنيه. لبث يترقب الفرصة لتحقيق ما أدرك أبوه بالرسالة يوم قال للعباس عم النبي: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»^(١). لتحقيق هذا الإدراك فيه وفي بنيه، لا في ابن أخي العباس الذي لم يسلك إلى الملك طريقاً.

وسنحت^(٢) هذه الفرصة بمقتل عثمان الذي سئى أن لمعاوية نفسه يداً في مقتله، كما كان لنسيبه الأموي مروان بن الحكم.

وهنا تبدأ فصول من نبوغ معاوية في الخداع والمواربة. وهنا يبدأ الصراع بين المثالية والاستقامة وصفات الفروسية التي يمثلها علي بن أبي طالب، وبين النزعة إلى السلطان والسياسة الميكيفيلية والاصطناع والمماكسة، وسائر الصفات التي يمثلها معاوية وقومه، ورُثاء الخصائص الأموية!

ففيما كان شعار علي بن أبي طالب هذا القول: «لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنيا في أمري»^(٣) أو هذا القول: «أحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، ولا يكونن أخوك على الإساءة أقوى منك على

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٢/٢، شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ١٧٥/١٥.

(٢) سنحت: عرضت. المنجد: ٣٥٤، مادة «سنح».

(٣) تاريخ الطبري: ٤٦١/٣ مع اختلاف يسير.

الإحسان»^(١). كان شعار معاوية : «إِنَّ اللَّهَ جُنُودًا مِنَ الْعَسَلِ»^(٢). وهو يعني العسل الذي يُداف بالسِّم فيقضي على أخصامه أيّا كانوا ؛ ليخلّوا أمامه طريق الحكم. وأخصام معاوية هم كل أولئك الذين يعترضون طريقه من أهل الخلق العظيم! بهذا «العسل» قتل معاوية الحسن بن عليّ. وبالأموال العاقمة اشترى الناس واصطنع الأنصار والمحاربين. وكان يقول للناس يوم خَفَّ إلى مكة يقنعهم ببيعة ابنه يزيد ومعه الجند وحقائب الأموال : «وَأُرِدْتُ أَنْ تَقْدُمُوا يَزِيدَ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ تَعْزِلُونَ وَتُؤَمِّرُونَ وَتَجْبُونَ الْمَالَ وَتَقْسِمُونَهُ!»^(٣).

وهو إذ تأفف^(٤) الناس من يزيد وأبوا أن يبايعوه ، قال لهم متوعداً : «أعذر من أنذر. إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس. فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدُكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمةٌ غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجلاً إلا على نفسه!»^(٥).

وهو إذا عوتب في تبذير مال الشعب الذي كان عليّ بن أبي طالب يحميه للشعب وحده، أجاب بهذا القول الأموي : «الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذ من الله فهو لي ، وما تركته منه كان جائزاً لي!»^(٦). أمّا إذا تحرّكت الضمائر والألسن في الناس تطلب منه أن يدع الناس أحراراً في ما يرون ، فإنّه يجيب

(١) نهج البلاغة ، الكتاب : ٣١ - ٥٥ و ١٠٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٥٦ / ٣٩١.

(٣) العقد الفريد: ٢ / ٣٠٢.

(٤) تأفف : ضجر ، وتملل . القاموس المحيط: ١١٧/٣ ، مادة «أف».

(٥) المصدر السابق.

(٦) النصائح الكافية ، لابن عقيل: ١٣١.

بمثل هذا القول : «نَدْعُ النَّاسَ مَا لَمْ يَحُولُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَلَكِنَا!»^(١).

وعلى مثل هذا الجَوَّ من الطغيان الفردي يعلّق محمد الغزالي صاحب «الإسلام والاستبداد السياسي» بقوله : «إِنَّ طُغْيَانَ الْفَرْدِ فِي أُمَّةٍ مَا جَرِيْمَةٌ غَلِيْظَةٌ ، وَإِنَّ الْحَاكِمَ لَا يَسْتَمْدُ بَقَاءَهُ الْمَشْرُوعَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ ذَرَّةً مِنَ التَّائِيدِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ مُعْتَبَرًا عَنْ رُوحِ الْجَمَاعَةِ وَمُسْتَقِيمًا مَعَ أَهْدَافِهَا»^(٢). ثم يقول في مكان آخر : «إِنَّ الْاِسْتِبْدَادَ الْأَعْمَى عَدُوٌّ لِلَّهِ ، وَعَدُوٌّ لِرَسُولِهِ ، وَعَدُوٌّ لِلشُّعُوبِ». وقد ظهر أَنَّ تفكير المستبدين واحد على اختلاف العصور ، وأنهم لا يتركون غرورهم مهما تلطف المصلحون معهم.

بمثل هذه السياسة الميكيفيلية اغتصب معاوية السلطة وحول الخلافة إلى ملك والشورى إلى وراثة في بنيه. وهو في ذلك كله تعبير صميم عن النفسية الأموية في الجاهلية والإسلام.

فإن علي بن أبي طالب ما كاد يُصرَع بيد ابن ملجم حتى راح معاوية بن أبي سفيان يعدّ المهالك لكل من لا ينادي به خليفة رب العالمين. وأعلن أنه لن يدع الناس في حالٍ من أحوالهم إلا إذا كانوا له عبيداً ، قائلاً : «نَدْعُ النَّاسَ مَا لَمْ يَحُولُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُلْكِنَا». أعلن أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ ، ثُمَّ لَبَنِي أُمِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَيْسُوا أَحْرَارًا إِلَّا فِي التَّخْلِى عَنْ حَزَبَاتِهِمْ وَحَقُوقِهِمْ فِي سَبِيلِ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَسُلْطَانِهِمْ. وراح يأخذ الناس بالتهمة والشبهة والظنة على غير ما عرف الناس في السابقين. وأمعن في تقتيل الصحابة والتابعين وغيرهم ممّن يمثل الرأي العام ويسلك مسلكاً صحيحاً صريحاً.

ثم إنه ما استوثق له الأمر حتى جعل يسجّل الناس وما يملكون وراثَةً

(١) تاريخ مدينة دمشق ج ٦٨ ص ١٣٥.

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٩.

لابنه الخليع يزيد. وهو من أجل هذا «التسجيل» كان يلبس ويخلع من الأردنية والأغطية ما يوافق مصلحة هذا الابن. وإليك صورةً من ألف صورة ممّا لجأ إليه معاوية لأخذ البيعة ليزيد رغم الأنوف. وهي كافية لأن تدلّك على الأسس التي قامت عليها خلافة يزيد ومعظم من سليله من الأمويين :

عقد معاوية اجتماعاً لوفود الأمصار كي يقسّروهم على مبايعة يزيد في حياته فيطمئن إلى مصير الملك. وفيما القوم مجتمعون وبينهم معاوية وابنه وقف أحد المتزلفين المنافقين واسمه يزيد بن المقفع ، فقال :

أمير المؤمنين هذا! وأشار إلى معاوية.

ثم قال: فإنّ هلك فهذا! وأشار إلى يزيد.

ثم قال: فمنّ أبى فهذا! وأشار إلى سيفه.

فقال له معاوية: اجلس فإنّك ستد الخطباء! (١)

ثم كانت لمعاوية في أهل الحجاز - وقد أبوا مبايعة يزيد بالرغم من الجند والمال - أخبارٌ عِجاب! فقد هدّدهم يقول: «فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحدكم كلمةً في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمةٌ غيرها، حتى يسبقها السيف إلى رأسه. فلا يبقين رجلاً إلّا على نفسه!» وأقام رجلين على رأس كلّ من أهل الحجاز وأمرَ صاحبَ شرطته قائلاً: «إنّ ذهب رجلٌ منهم يرّد كلمةً بتصديقي أو تكذيب فليضرباه بسيفهما!» (٢).

وراح الأمويون إذ ذاك ينزعون عن مدى تصوّرهم الجاهلي الأوتوقراطي لأنفسهم وللناس ، فإذا هم يضربون بالسيف الأعناق التي تأبى بيعة يزيد ، وينقشون على أكف المبايعين علامة الاستبداد والاسترقاق.

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٢، الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٢١٤، البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣٠٠.

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٨٦، النصائح الكافية، لابن عقيل ص ٧١.

وكان خلفاء معاوية من أمة أكثر الخلق ضللاً به وأسيرهم على نهجه. منهم من أضاف إلى سنيته سنيات دون أن يُصيبهم أيسر نصيبٍ من حظ معاوية في الظاهر من الحسنات. لذلك قاسى الناس في أيامهم الصعاب وحُمِلوا قسراً على أن يتركوا أرزاقهم وأعناقهم للأمويين وعمّالهم وكانوا عمّالاً فَجَرَةً خالصين. وقد ساموا^(١) سكّان البلاد التي احتلّوها أو وُلّوا عليها كلّ خشفٍ وكلّ عذاب وأذاقوا غير العرب من الشعوب التي أسلمت كلّ هوانٍ وكلّ مذلةٍ واستعبدوهم أشدّ استعباد. وحطّوا من شأن أهل الذمة على غير ما يوصي به الإسلام، وكان يوصي بهم خيراً وبسائر الخلق. وقتلوا من العرب كلّ من لا يريد أن يُطعمهم لحمه ويُشربهم دمه راضياً مختاراً. وسلّطوا على جميع الناس من ينوع عليهم الضرائب ويزيدها، ثمّ يحصلها بأشدّ ألوان العنف وأبشع صوّر القسوة. ولذلك كلّه كان سعيد بن العاص أحد عمّالهم على العراق يقول: «ما السواد إلّا بستان قريش، ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه»^(٢). ولذلك قال عمرو بن العاص لصاحب «أخنا» عندما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية: «إنما أنتم خزنة لنا!»^(٣).

لقد كان همّ الخلفاء الأمويين أن ينهبوا بيوت المال نهباً، وأن يوسّعوا لحاشيتهم في كلّ ملك وكلّ إثراء. وراح عمّالهم على الأمصار يختلسون كلّ ما تقع عليه أيديهم من مالٍ ومتاع، بالإضافة إلى ما كانوا يتقاضونه من المرتبات الضخمة لقاء مساندة الملوك الأمويين في ما يريدون. مثال ذلك: أن أحد عمّال هشام بن عبد الملك على العراق، واسمه خالد بن عبد الله القسري، كان

(١) ساموا: أولوه إياهم، وأرادوه لهم. المنجد: ٣٦٥، مادة «سام».

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٧١، تاريخ ابن خلدون ق ٢ ج ٢ ص ١٤٠.

(٣) معجم البلدان للحموي ج ١ ص ١٢٤، تاريخ التمدن الإسلامي: ٧٩/٢ - ٨٠.

يتناول من بيت المال مرتباً سنوياً قدره مليون درهم ، ويختلس من أموال الناس مائة مليون!

وعلى أيدي بني أمية انهارت قواعد العدل العلوي والعدل الإسلامي ، وُخُلِقَتْ في المجتمع الطبقيّة، فأثرى قومٌ وجاع آخرون. واستبدّت فئة وظلّمت فئات! ففيما كان في الناس من لا يأكل الرغيف كان أحد ملوك بني أمية يهب - من مال الجماعة - اثني عشر ألف دينار لمعبد ، لأنّ تنعمَ معبدٍ يرضيه. وفيما كان الناس يطمحون لأن يعيشوا أحراراً كان من العبيد والأرقاء قبيل خلافة سليمان بن عبد الملك عشرات الألوف، يدلك على ذلك أنّه أعتق وحده سبعين ألف مملوك ومملوكة.

وفي عهد بني أمية هذا شمخت العنصرية العائلية والقبلية والقومية على نحوٍ لا يريده الإسلام، ولم يوص به الإمام. فإذا القيسيّ غير اليمنيّ في الحقوق، وإذا العربيّ غير الأعجمي. وفي عهد بني أمية كثّر المترهلون^(١) المقرّبون الذين يأكلون ولا يعملون ، أو الذين يُنعم عليهم البيث المالك بالوظائف الاسمية ، فيفرغ في جيوبهم أموال العامة ويُثيبهم على غير جهد ، كما هي الحال في بعض البلدان العربية اليوم، حتّى ليخبرنا التاريخ أنّ الوليد بن عبد الملك ألغى من أهل الديوان بشراً كثيراً بلغ عددهم عشرين ألفاً. أضف إلى ذلك جميعاً طريقة الأمويين عامة - باستثناء عمر بن عبد العزيز - في أخذ البلاد بالقسوة والعنف على ما تقدّم. فعبد الملك بن مروان، - مثلاً - حكم الدولة حكماً أوتوقراطياً هانت به الأرواح. «أمر بردم العيون والآبار في البحرين ليُفقر أهلها فيلبنوا للحكّام^(٢)». وجعل على الحجاز والعراق ذلك السقّاح الحقيّر

(١) المترهلون: المسترخون ، يُقال: رهل لحمه ، اضطرب واسترخى. الصحاح: ١٧١٤/٤، مادة «رهل».

(٢) راجع ملوك العرب لأمين الريحاني الجزء الثاني ص ٢٠٦ ، وكتاب النكبات للريحاني أيضاً ٦٤.

الذي اسمه الحجاج بن يوسف.

ومن الطرائف التي تدلّ على أسلوب عددٍ من ملوك بني أمية في النظر إلى قيمة «الرعايا» وفي الاستهتار بمعنى الخلافة ومعنى الشعب على السواء ، ما ذكره المؤرّخون من أنّ يزيد بن عبد الملك بن مروان سكرَ يوماً سكرّاً شديداً وعنده حباية إحدى جواريه فلما طرب قال: دعوني أطيّر! فقالت حباية: على من تدع هذه الأمة؟ قال: عليك!

يقول أمين الريحاني ، والحديث عن بني أمية: «أما العدل في الرعية ، العدل الذي هو أساس الملك ، فهو ينعكس من الجالس على العرش. وقد عرفت أرباب العروش - الأموية - وفيهم العاجز والسفيه والخليع والسكرير والظالم»^(١) ولا نغفل - أخيراً - عن أسلوب بني أمية المستهجن^(٢) في شتم عليّ ابن أبي طالب وبنيه على منابر الأمصار.

أما الخليفة الأمويّ العظيم عمر بن عبد العزيز الذي شرفت سيرته الملك في تاريخ الشرق ، وزادت في شرف الإنسان نفسه ، والذي بدأ سلطته برفع المظالم عن الناس كلّ الناس ، وأعاد لكلّ ذي حقّ حقه ، وعزل الولاة الجائرين وأبدل بهم ولاة عادلين ، وشدد عليهم في أخذ الخلق أخذاً لئناً عادلاً رفيقاً ، وساوى بين العرب الأعاجم والمسلمين وغير المسلمين مساواة حقيقية لا شك فيها ، وأمر بوقف الفتوحات محافظةً على حريات الناس وحقوقهم وحياتهم ، وأسقط كلّ ضريبة عن الناس إلّا تلك التي يقدمونها للدولة عن رضئ واختيار ، ورفع شتم عليّ بن أبي طالب ، وعظّم شأنه وسعى في أن يسلك في الناس مسلكه الجليل ، وجرد الأمراء والوجهاء من

(١) النكبات ص ٧٠. تاج العروس: ٣٦٦/٩.

(٢) المستهجن: المستهجن أو الأسلوب القبيح.

المنهوبات ، وأمرهم بأن يعملوا فياً كلوا. أما هذا الرجل العظيم الحق فقد تآمر به قومه الأمويون وأنصارهم فقتلوه فلم يدم حكمه إلا قليلاً. وكانوا من قبل قد قتلوا معاوية الثاني ابن يزيد لأنه صارحهم بمظالمهم ، وأنكر عليهم استهتارهم بالحقوق العامة وخطأ جده وأباه ، ورغب في العافية.

ولسوف يأتي كلامٌ كثيرٌ في حينه على حقيقة بني أمية، وفي معنى الولاية كما تصوّروا وفعلوا. وإنه لمن المستغرب حقاً أن يتصدى بعضُ الكتاب المعاصرين للدفاع عن هذه الطغمة من ملوك بني أمية وعمّالهم وأنصارهم، بأقوالٍ لا تدفع شيئاً ولا تدافع عن شيء ولا تُقنع حتى مَنْ يقولها. وما هي إلا العصبية لكل قديم لنا تلك التي تدفع أمثال هؤلاء الكتاب لمثل هذا الدفاع المستهجن الفاشل^(١). فلم يكن معاصرو بني أمية وشاهدو حكمهم أعلم وأصدق حين قالوا فيهم ، بأيّامهم ذاتها ، قولاً ينقض مثل هذا الدفاع ويدين بني أمية إدانةً صريحة.

بماذا يجيب هؤلاء المتطوّعون للدفاع عن النفسية الأموية ، والذهنية الأموية ، والأساليب الأموية في الحكم ، ساعة يستمعون إلى الرواية التالية؟
التقى يوماً عبدة بن هلال الشكري وأبو حراة التميمي ، فقال عبدة:
يا أبا حراة! إنني أسألك عن أشياء أفتصدقني عنها في الجواب؟ قال: نعم! قال
عبدة: ما تقولون في أئمتكم الأمويين؟ قال أبو حراة: يُبيحون الدم الحرام!
قال: فكيف فعلهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حِلّه ويُنفقونه في غير

(١) إذا شئت دليلاً على ذلك فارجع إلى التعليقات الكثيرة، التي وضعها الكاتب المصري الدكتور حسين مؤنس، في حواشي الصفحات التي يتحدث بها جرجي زيدان في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» عن مظالم بني أمية وعن حقيقة حكمهم. فهي تعليقات لا تستند إلا على عاطفة مع بني أمية ، لا تزيد عن ذلك شيئاً.

وجهه! قال عبدة: فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال أبو حرابة: يظلمونه ماله ويمنعونه حقه وينكحون أمه! قال: ويحك يا أبا حرابة! أمثل هؤلاء يُتبع؟ قال: قد أجبْتُك فاسمِعْ ودع عتابي! ^(١)

وفي قول أبي حرابة هذا «دع عتابي» تصريحٌ ضمنيٌّ بأنَّ المرء لا يجزئ في حكم بني أمية وعمالهم أن يرى رأيهم ويقول قوله. بماذا يجيب هؤلاء المتطوعون للدفاع عن بني أمية ساعة يقفون على آراء أهل المدينة في حكاهم الأمويين بعد أن طردهم منها أبو حمزة الخارجي، وأقبل يسأل الناس عما أصابهم على أيدي خلفاء الشام وولاتهم فيعترفون بأنَّ الأمويين كانوا يقتلون الآدميين بالظنِّ والشبهة، ويستحلون كلَّ ما حرَّمه الإسلام والعقل والضمير والنفس الكريمة؟ ومما جاء في خطبة أبي حمزة هذه الأقوال:

«ألا ترون إلى خلافة الله وإمامة المسلمين كيف أضيعت حتى تداولها بنو مروان، فأكلوا مال الله أكلاً وتلعّبوا بدين الله لعباً واتخذوا عباد الله عبيداً، يورث الأكبرُ منهم ذلك الأصغر؟ لقد ملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلطَ ربويّةٍ، بطشهم بطش الجبابرة يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب ويأخذون بالظنِّ، ويعطلون الحدود بالشفاعات ويؤمنون الخونَةَ، ويعصون ذوي الأمانة ويتناولون الصدقةَ من غير فزضها يضعونها غير موضعها!» ^(٢)

بماذا يجيب هؤلاء ساعة يسمعون الشاعرَ البحرّي وهو يعبر عن آراء الناس في حكومة الأمويين وهم على عهدٍ قريبٍ منهم إذ يقول:

(١) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ١٦٩.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ١١٧.

إِنَّا نَكْفُرُ مِنْ أُمِّيَّةٍ عَصَبَةٌ طلبوا الخلافةَ فجرةً وفسوقاً^(١)
والذي ثبت للمتقدمين من أخبار الأمويين وأسلوبهم اللفظ في الحكم،
وغايتهم منه ثبت للمتأخرين. وما وثق به المؤرخون العرب من حدوث
المظالم المريعة على أيدي الأمويين، وثقَّ به المؤرخون الأجانب. وهذا ما
يعترف به المدافعون عن بني أُمِّيَّة من الكتاب المعاصرين في مصر وغير
مصر. مثال ذلك ما يرويه أحدُهم^(٢) بمعرض «الدفاع» عن أُمِّيَّة إذ يقول: إنَّ
معظم المؤرخين في الشرق والغرب يحملون على بني أُمِّيَّة حملاتٍ عنيفة ما
عدا يوليوس فلها وزن، فله اتجاهٌ خاصٌ معتدل بعض الشيء. ويلاحظ القارئ
أنَّ هذا المستشرق الفرد الذي لا يرى رأيَ زملائه في بني أُمِّيَّة، إنما هو
«معتدلٌ بعض الشيء» لا كَلَه! وفي هذا القول اعترافٌ من الكاتب المصري
نفسه بأنَّ المستشرق الفرد لم يجد من الأدلة ما يمهد أمامه طريقَ الدفاع عن
الأمويين؛ ليكون معتدلاً كُلَّ الشيء لا بعضه. غيرَ أَنَّا ندلُّ الكاتب المصري
المذكور على مستشرقٍ آخر نسيه ولو فطن له لأدرك أنَّ في الأوروبيين مَنْ
دافع عن الأمويين كُلَّ الدفاع لا بعضه، ونريد به المستشرق الفرنسي لا مانس
الذي استخدم علمه الغزير في مآرب خاصة له.

أما العدد الأكبر من المستشرقين فقد صَوَّروا من الحقيقة الأموية ما لا
يرضي المدافعين عن ابن أبي سفيان ووُلد مروان. وفي طليعة هؤلاء
المستشرق الفرنسي كازانوف الذي يقول: «كانت نفسية الأمويين على الإطلاق

(١) شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٧٤، راجع ديوان البحري ص ١٤٥ من قصيدة أولها: أفاق صبُّ من هوى فافيقاً.

(٢) راجع تعليقات الدكتور حسين مؤنس على أبحاث جرجي زيدان في كتابه «تاريخ التمدن الإسلامي» الجزء الثاني ص ٢٣.

مركبة على الطمع في الغنى إلى حدّ البشم^(١) ، وحبّ الفتح بقصد النهب ،
والحرص على التسود لتمتّع بملذّات الدنيا!.

وعلى كلّ حالٍ فإنّ المؤرّخين العرب والأجانب لم يصفوا النفسيّة
الأموية أكثر ممّا وصفها - بعفويّة خالصة - الخليفة الأمويّ الوليد بن يزيد
ببعض شعره. ففي هذا الشعر ما يُفصح عن الروح التي مارَس بها الأمويّون
الزعامة في الجاهلية والمُلْك في الإسلام ، وعن الذهنيّة التي عالجوا بها في
العهدين أحوال الناس. ومنه هذه الأبيات:

فدغ عنك اذكارك آل سعدي فنحن الأكثرون حصيّ ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً نسوئهم المذلّة والتّكالا
ونوردُهم حياض الخسفِ دُلّاً وما نألُوهم إلا خبالاً^{(٢)(٣)}

فإذا ردّ هؤلاء الكتابُ المدافعون عن أُميّة ما قاله المؤرّخون في النفسيّة
الأمويّة والذهنيّة الأموية ، وما قاله العربُ والفرنجة ، والقدامى والمحدّثون ،
والخاصّة والعامة ؛ فهل يردّون على الوليد بن يزيد شعره هذا؟!

(١) البشم: التخمّة. الصحاح: ١٨٧٣/٥ مادة «بشم».

(٢) الخبال: الفساد. النهاية في غرب الحديث: ٩/٢، مادة «خبيل».

(٣) الأخبار الطوال ص ٣٤٨، الخبال: الفساد .

كآبة الؤبرين

- إن جملة الؤوابء الؤي عاشها الؤسين تقطع بأنه في
مقياس الأخلاق سماء أي سماء! وإن جملة الؤوابء
الؤي عاشها يزيد تقطع بأنه في مقياس الأخلاق أرض
تحت أرض! وؤؤئك مأساة كربلاء دليلاً ذا السنة
تقول، وأيدؤؤير!
- وأما يزيد فؤدكان سيكيراً خيميراً يلبس الؤريز
ويؤرب بالطناير.

ومن الأفراد الؤذين تتمثل فيهم خصائص البيتين كأظهر ما يكون:
الؤسين بن عليّ ويزيد بن معاوية. وإذا كانت خصائص الفرد تعبيراً صادقاً
عن محيطه الؤذي نشأ فيه، ففي هذه الصورة العاجلة الؤي سنرسمها لكل من
الؤسين ويزيد إبراز لخصائص المحيطين.

ولد الؤسين من فاطمة بنت الرسول وعليّ بن أبي طالب، فأؤذه جؤه
وكبر في أؤنيه ليسكب في روجه روجه، ويجعل منه معنى من معاني
وجوده، ويعلمه أن لؤياته - منذ وُلد - مبدأً ولسيرته قاعدة، وكلاهما من
روح الرسالة. ثم ليصل كيانه بكيانه فيرفع به فوق الضراوة والإساءة؛ ويبلغ
به آفاقاً واسعة من الؤخير الكؤثير والإنسانية المهبّذة والؤخلق الكريم. لقد
اؤتلفت الؤياة اؤتلاجة نابعة من الصفاء المطلق في قلب النبي، ساعة أؤخذ
ؤفيدة فهمس في أؤنه بهذه الاؤتلاجة همساً سيؤيا في أعماقه وفي دمه،

صوتاً صريحاً يوجه ضميره ويسوق خطاه إلى العمل الصالح ، فلا تقوى عليه فتون الدنيا إذا رافقها ظلمٌ أو أذى ، ولا تميل به عن الطريق التي هي طريقُ جدّه وأبيه.

وفي اليوم السابع من مولده أخذه النبي بين يديه مستبشراً متهللاً وقال: لقد أسميته حسيناً.

وراح الطفل ينمو وفي سريرته روحُ جدّه ، وفي قلبه خلجات قلب أبيه وفي أعماقه بذورُ رسالة الخير. وراحت خصائص آبائه الأقربين وآبائه الأولين الذين كان لهم اتصالٌ مباشرٌ بقيَم الإنسان العالية ، وبالضمير المستوثق المطمئن وبالشعور الداخلي الدافع إلى التخلص من مهالك الأنانية والفردية والجشع ، تتجمع في كيانه وتتحد وتنمو مع نموّ العضوي. وانتقال الخصائص الشعورية والصفات النفسية من الآباء إلى الأبناء قانونٌ طبيعي لا شك فيه . شأنه في ذلك شأن انتقال الخصائص المادية. وهي إذا احتاجت إلى مبرراتٍ من المعاشة والمساكنة ، فقد تمتّ لها هذه المبررات.

وعاش الحسين في رعاية جدّه النبي سبع سنين. ولما قبض النبي جعل الصحابة من بعده يقتدون به حبّ الحسين ، ولا سيما وهو يشبه جدّه شَبهاً عظيماً في الصفة والشكل على ما يروي من شاهدوا النبي وسبّطه.

وإنّ في الأسماء التي تواكب منشأ الحسين وتنطبع صورُ أصحابها في خياله فتتحد صفاتهم في صفاته اتحاداً طبيعياً بحكم الوراثة ، ثم بحكم المعاشة والمساكنة ، لتمثيلاً رائعاً لما يراه العلماء المحدثون في فلسفة المنشأ ونموّ الأخلاق. ونأخذ مثلاً على ذلك تمثيل العلامة الإيطالي «بستالوزي» للمنشأ والتربية، قال:

«تتمثل لي التربية بشجرة مثمرة بجانب جدولٍ مياهٍ جارٍ ، وما أصلها إلّا

حبة صغيرة أودع الخالق فيها شكل هذه الشجرة وخواصها وأثمارها. فلما غُرست وتعهدها الزارع بما يساعد الطبيعة على عملها ظهرت تلك الحبة في شكل نبات ، ثم نمث وترعرعت حتى كبرت وأينعت وأثمرت ، وما هي إلا الحبة الصغيرة مكبرة نامية.

«وهذه هي الحال في الطفل الذي أودع فيه الخالق تلك القوى التي تنمو وتظهر معه بالتدريب ، فتتمو أعضاؤه وملكاته تدريجاً حتى يصبح من مجموعها وحدة. فيجب على المربي أن يساعد قوى الطفل البدنية والأدبية والعقلية على النمو الطبيعي ، دون استعمال الطرق الصناعية. يجب أن ينتهي الإيمان - مثلاً - في الطفل لا بواسطة الكلام النظري ، بل بما يُنشأ عليه الطفل بتصديقه الفعلي ورسوخ الاعتقاد في نفسه^(١).

ثم وعى الحسين أباه العظيم وعائشه في استقامته وعدله وحنانه ونصرته للمظلوم، وعقابه للظالم ومُبادرته الأعداء بالإحسان. كما عايشه في مآسيه وقد شاهد فصول شجاعته النادرة المثال إذ كان إلى جانبه في يوم الجمل ، ثم في موقعة صفين ومعركة النهروان ، يتلقى عنه دروساً في آداب القتال من أجل الخير وفي التضحية بالنفس لرفع الحيف عن كافة الناس.

ومن أروع ما انتظم في نفس الحسين - فيما نرى - من آثار تلك الروافد من الآباء الأقربين والأولين تجري إليه وتمده بمعاني السموّ وتحيا في أعماقه وتؤلف كيانه ، تلك المسحة الكثيبة التي لم تفارقه أبداً ، والتي كانت في قلبه نتيجة محتومة للصراع الذي سمع أخباره عن آبائه الأولين وهم يفادون الحق^(٢) ويصمدون في وجه الباطل ، ونتيجة محتومة كذلك للصراع الذي

(١) عن كتاب «تأريخ الحسين» للعلامة عبد الله العلايلي ص ١٧١ طبعة دار الجديد ١٩٩٤.

(٢) يفادون الحق: يفدون بالغالي والنفيس ، أو بالنفس والمال. لسان العرب: ١٤٩/١٥، مادة «فدي».

شده طوآل أآامه بآن الصءق والنفاق فآ أعماق الناس؁ وبعن الصراحة والمواربة؁ وبعن العءالة والانءراف. وكان له من آآاة أبعه عاملاً قوآآ على ءفآآر آنابآع الآزن العمآق فآ نفسه؁ كما كان له مثل هءا العامل فآ آآاة الأقربآن إآله آمعاً.

وُلء الآسآن من أمّه ولها من العمر عشرون رآبعاً. وكانت رآآقة القلب كثآرة الآنان. ومن هءة الرقة وهءا الآنان ءولءء فآ نفسها أمواج من الأسآ البعء القرار آشآره وآفآآره ما كان آصآب أباها وذوآها من كآء قرش ومن ءمآلهم بالقتلآ من أنصار صاحب الرسالة ومن ذوآه. وشاعء الكآبة فآ نفسها بصورة آاصة؁ وبلغ بها الآزن والأسآ مبلغاً عمآقاً؁ آوم كانت آزوة أُءء الآآ فءك بها القرشآون بالمسلمآن ومقلوا بقتلاهم. وما كان أوقع منظر والءها النبآ فآ نفسها وهو آبكي عمّه حمزة وولءه بالآبنآ آآء بن آارءة بءموع سءآآا ذكراها فآ نفسها آتى الموت!

فآ آمرة هءا الأسآ العمآق الءآ آصآب فاطمة كان الآسآن ما آزال آنآناً. فآءا بها ءورء ولآءها فآما بعء هءة الآآآرات العنآفة والآزن المرّ. وكانت آآار هءة الوراءة ظاهرة فآ طفولة الآسآن وفآ شباآه: فقد كان مآباً للآزلة ءائم الآفكآر قآآل المرآ شءآء الآساسآة لأقلّ مظاهر الآزن ءآلم بالآآرآن.

ثم آنه ما كاء آآلآ السابعة من عمره آتى رآآ طوائف الناس ءبكي آءه وكان ذلك له مصدر آبّ وآنان عظمآن. وآرى الوفوء ءؤم بآته والءموع ءنهم من عآونها والكآبة ءطفآ على وآوها وءعقء ألسنها.

ولبء إآآ آانب أمّه وهآ معءكفة فآ بآتها لا ءآرآ منه أباء؁ ءسءعآء ذكراآها مع أبعها فءبكآها أشء بكاء؁ وءبكآه. وما آذكر الآرآآ أن أم الآسآن

ضحكت مرةً بعد وفاة والدها. وظلّت كذلك حتى لحقت به. ويُروى أن أنس بن مالك استأذن يوماً على فاطمة وطفق^(١) يتوسل إليها أن ترحم نفسها من هذا الحزن وهذا البكاء ، وأن تصبر. فلم تُجبه إلا بهذا القول:

«كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جنةً رسول الله؟»^(٢).

وتفجعت فاطمة. وانطلق أنس بن مالك في بكاءٍ شديد ، وانصرف عنها واللوعة تملأ قلبه لما رأى لوعتها وحزنها.

وكان الحسين يشهد ذلك كله ، وكان يشهد أخته الكئيبة الواجمة^(٣) زينب في مهد الأسى هذا ، فينقبض قلبه ويخلو إلى نفسه متحسراً واجماً!

كان الحسين ينظر إلى أمه وأخته وكأنه يستشف في الغيب البعيد صُورَ أحزانٍ يخبئها القدرُ لهما ، وله ، ولأبنائهم جميعاً. كان يستشعر أنه سيبيكي وأخته زينب أُمهما بعد قليل ، وأتتهما سيبيكيان والدّهما بعد ذلك ، ثم أخاهما الحسن ، وأن آلَه جميعاً مُقبلون على سلسلةٍ من المآسي الرهيبة!

وسمع الحسين أمه ، بعد أيامٍ قلائل ، توصي شقيقته زينب أن تصحب أخويها الحسن والحسين وترعاهما وتكون لهما من بعدها أماً!

وتوفيت أمه بعد وفاة والدها بثلاثة أشهر. ووقف الحسين يودّعها الوداع الأخير ، وينظر إلى زينب وقد وجمت من الحزن ، وإلى أبيه العظيم يتمهل عند قبر الزهراء يبكيها مودعاً كئيب القلب.

وهكذا نشأ الحسين نشأته الأولى، في جوٍّ من الكآبة لا ينتهي.

وكان شاباً حين وقف على شباك القوم تُلقَى هنا وهناك في طريق أبيه

(١) طفق: بدأ. المنجد: ٤٦٧.

(٢) العقد الفريد: ٣ / ٢٣٧. الصحاح: ٢٠٤٩/٥، مادة «وجم».

(٣) الواجمة: الواجم الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

وزاده موقفٌ عائشة وأنصارها من الإمام حزناً من جهة ؛ واندفاعاً للوقوف إلى جانب أهل الحق من جهةٍ ثانية كما فجر في نفسه أمواجاً من العطف على كلّ مظلوم. ثم رأى من غدر معاوية وعمر بن العاص وأنصارهما بأبيه ما مسح الدنيا بمسحةٍ جديدةٍ من الكتابة أمام عينيه ، وما جعل الحياة هزيلة المعنى لديه إن لم يندفع في تقويم الاعوجاج بذات الجرأة النادرة التي اندفع بها أبوه.

وتمت له أسباب الأسى يوم امتدت يد أئمة بالسيف إلى جبين أبيه وهو في المسجد ، يطلب إلى الله أن يعينه في إصلاح ما فسد من السرائر ، فما لبث بعدها إلا يومين وفارق الدنيا ؛ لتقوم من بعده دولة لأهل الجور.

وقُتل أخوه الحسن مسموماً. ثم هاله^(١) أن يرى الأمويين وأنصارهم يرمون جنازة أخيه بالسهام. وعرف أن معاوية أمر بأن يسب أبوه علي وأخوه الحسن على منابر دولة بني أمية. بل إنه بأذنيه سمع معاوية يسب أباه.

وراجت أسباب الحزن تتراكم في نفسه من جديد. هذه الأسباب التي ستبلغ منتهاها عدداً وقوةً ، غداً في كربلاء ، حيث ستعقد الجريمة البشعة في قوادٍ وجنودٍ أدنياء يرتكبون الأهوال مع القلة القليلة من أخوته وآله وأطفالهم وأنصارهم.

أما مأساته هو فسيترك آثارها لشقيقته زينب وولده زين العابدين. هذا ما كان من نشأة الحسين، إراثاً وتربية، وما كان من أسباب الحزن في نفسه ، هذا الحزن الذي لاحقه منذ رأى النور ، كما لاحق جدّه وأمه وأباه ، فانطبعث به نفسه ولان به خلقه وجنحت به أسبابه إلى مشاركة الناس آلامهم ومعاودة من يلحقون الأذى بالآخرين، حتى الفداء.

(١) هاله: صعب عليه ، راعه. المنجد: ٨٧٧ مادة «هول».

وعلى هذه الأصول من الإرث والتربية كان الحسين بن علي يقول ويحيا مثل هذه الأقوال: «الحلم زينة والوفاء مروءة، والاستكبار صلف والسفة ضعف ومجالسة أهل الفسق ريبة»^(١). و «لا تتناول إلّا ما رأيت نفسك له أهلاً»^(٢). و «لا أرى الحياة مع الظالمين إلّا بَرَمًا!»^(٣). و «الصدق عز والكذب عجز!»^(٤).

* * *

أما يزيد بن معاوية فمن يكون؟

لقد ورث هذا الرجل خصائص البيت الأموي في النشأة والمسلك، والنظر إلى الأمور وزاد عليها ممّا أفاض^(٥) الشيطان في خلق الأشرار والتافهين. ولم يرث من أبيه حتى هذه الصفات التي يعتونها بأنها حسنة، وهي في الواقع إنما كانت مجنّدة لخدمة الملك والسلطان، بل قلّ إن يزيد جامعٌ لسيئات قومه دون ما قد يميّزهم من صفاتٍ طيّبات! فليس بين الأمويين من قتلته لذته كما قتلت اللذة يزيد، ويروون أنه كان يسابق قرداً فسقط عن فرسه سقطت كان فيها هلاكه. ومن سجعات^(٦) الأولين المعتبرة عن رأي الناس في يزيد هذا القول الطريف: «كان سكّيراً خميّراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير»^(٧).

وبقدر ما كان الحسين بن علي امتداداً للغرسة النبوية واستمراراً للخلق

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ٢٤٢، بحار الأنوار ج ٧٥ ص ١٢٢.

(٢) أسرار الحكماء ص ٩٠، أعيان الشيعة ج ١ ص ٦٢١.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٥، تحف العقول ص ٢٤٥، شرح الأخبار ج ٣ ص ١٥٠، بحار الأنوار ج ٧٥ ص ١١٧.

(٤) تاريخ يعقوبي ٢ / ٢٤٦.

(٥) أفاض: أسبغ، أفرغ. المنجد: ٦٠٢، مادة «فيض».

(٦) سجعات، السجع: الكلام المقفّى. الصحاح: ١٢٢٨/٣، مادة «سجع».

(٧) شرح نهج البلاغة ٢ / ٢٦٢.

العلوي ، كان يزيد انحداراً للنفسية السفيانية.

وبقدر ما تراكم في نفس الحسين من أسباب الأسى الذي تُجَبِّلُ به نفوسُ الطيبين في الشدائد التي تحصر الناس في طائفتين من ظالمين ومظلومين ، تراكم في نفس يزيد من أسباب الوقاحة العابثة القائمة بأسبابها ونتائجها إزاء كآبة الخيرين.

نشأ يزيد في بيتٍ ينظر إلى الإسلام نظرته إلى حركةٍ سياسية من شأنها أن تنقل الرئاسة من أسرة إلى أسرة ، ولا يعرف للمواطنين من قيمةٍ إلا بمقدار ما يكونون جنوداً للحاكم في كلِّ حال، ولا يعترف لهم بغايةٍ من وجودهم أبعدَ من أنهم مصادر ثروةٍ لبيت المال الذي تصير محتوياته إلى صاحب السلطان وحده. ولما كانت نشأة يزيد في مثل هذا البيت كان لابدَّ له من أن يسلك الطريق نفسها التي سلكها أهلُه وذووه في الجاهلية والإسلام. أضف إلى ذلك أنه ترعرع في بيت أبيه الذي تتدفق عليه أموال المسلمين، فتُهدَّر على رغائب السلطان ورغائب ذويه. وإذا اجتمعت الثروة إلى الجهل وإلى النشأة التي لا تشعر بالمسؤولية كان العبث وكان المجون. وهكذا عُرف يزيد بالإدمان على شرب الخمر ، وعلى اللعب بالكلاب على عادة أهل الغباء من المترفين. وقد تصرَّف حين آل إليه الملكُ المقتَصِبُ على أساس من رغائبه وشهواته الخاصة، فكان يُنهب مواليه وجواريه وندماءه ومُغَنِّيه الأموال العاقمة. وكان يُلبس كلابَ الصيد الكثيرة التي يملكها أساور من الذهب وخلاخل من الفضة ومنسوجاتٍ من ثمين الدَّمَقْس ، فيما كانت سياط عمَّاله تُلهب ظهور الفقراء لجمع أموال الخراج والجزية.

وكانت ولايته ثلاث سنوات وستة أشهر، ملأها بالمخزيات التي ترتبت على سياسةٍ أموية لا تخدم إلا شهواتٍ آثمة. فبالإضافة إلى ما ذكرنا من نهجه

في الحياة ، قتل الحسين بن علي وأهله وأنصاره ، وسبى نساءهم في السنة الأولى من ولايته. وفي السنة الثانية منها نهب مدينة الرسول ، لا تردعه حشمة ولا إجلال، وأباحها لجنوده ، وقتل من أهلها أحد عشر ألفاً فيهم سبعمئة من المهاجرين والأنصار أصحاب النبي ، وانتهك حرمة ألف عذراء أو ما يزيد.

وفيما كان من طبع الحسين أن يحارب الظلم والبغي أسوةً بجده وأبيه ، نراه يقول: «لا أرى الحياة مع الظالمين إلا برماً»^(١) ، كان يزيد يُعلي من قدر السفاحين وأهل الجور والانتقام الرخيص ، ويشدهم إليه ويكافئهم على كل جريمة بشعة يقتربونها. ويوصي بإكرامهم، مثال ذلك: أنه جلس ذات يوم إلى شرابه وعن يمينه والي الكوفة الحقير عبيد الله بن زياد أحد «رموز» فاجعة كربلاء ، وكان ذلك بعد مقتل الحسين بقليل ، فنادى ساقيه يقول:

اسقني شربةً ترقوي فؤادي ثم صل فاشق مثلها ابن زياد
صاحب السر والأمانة عندي ، ولتسديد مغنمي وجهادي^(٢)

وما أشبه حاله وهو يُكرم مجرماً كعبيد الله بن زياد على هذا النحو ، بحال خليفه عبد الملك بن مروان وهو يوصي بنيه بإكرام المجرم الأكبر الحجاج بن يوسف!

والخلاصة: أنه إذا كان «الله جنوداً من العسل» المداف بالسم في عهد معاوية ، فإن «جنود الله» في عهد يزيد هي السم دون أن يكون مدافاً بشيء من العسل! وفي عهد هذا الرجل تبلورت العصبيّة الأموية الجاهلية التي جعلت

(١) تحف العقول ص ٢٤٦، شرح الأخبار ٣ / ١٤٩، مناقب ابن شهر آشوب ٣ / ٢٢٤، بحار الأنوار ٤٤ / ١٩٢،

٤٤ / ٣٨١، تاريخ الطبري ٣ / ٣٠٧.

(٢) شرح الأخبار ٣ / ٢٥٣.

من الإسلام نفسه محرّكاً لهذه العصبية. وإنّ حادثة واحدة في التاريخ لا تدلّ على رجل كان أقلّ حظاً في المعاني الإنسانية من يزيد منفذ مأساة كربلاء! كما أنّ حادثة واحدة في التاريخ لا تدلّ على رجل كان أعظم خلقاً من الحسين شهيد مأساة كربلاء! فهناك المعاني السود ، وهنا جلائل الصفحات! هناك تجارات أمية ، ورئاساتها ، وأرقاؤها ، وجلادوها ، وهنا مثاليّة الطالبيتين ، وفروسيّتهم ، وأحرارهم ، وشهداؤهم.

* * *

وإذا كان للحوادث منطق في تقرير حقيقة من الحقائق لا يرقى إليه منطق الاستنتاج ، وإذا كان في الوقائع كلّ برهانٍ قاطع وكلّ دليل ، فإنّ جملة الحوادث التي عاشها الحسين بن عليّ تقطع بأنّه في مقياس الأخلاق سماءٌ أيّ سماء! وإنّ جملة الحوادث التي عاشها يزيد بن معاوية تقطع بأنّه في مقياس الأخلاق أرضٌ تحت أرض. وحسبك مأساة كربلاء دليلاً ذا ألسنة تقول وأيدٍ تُشير. وحسبك - قبل هذه المأساة - حادثة! طرفاها الحسين ويزيد: الحسين الذي يجسّم كآبة الخيرين التي تنمو في نفوس أصحابها على كراهية الظلم حيث يكون الظلم. ويزيد الذي يجسّم وقاحة العابثين التي تنمو في نفوس أصحابها على وهن الخلق وميوعة الشخصية والتنكر لكلّ مسؤولية. وهي في الوقت ذاتها حادثة تعيد إلى الأذهان قصّة الحلف الذي أشرنا إليه في الفصل السابق ، والذي وقف منه آباء يزيد في الجاهلية موقف المُنكرين والأعداء ، ووقف منه آباء الحسين موقف الداعين إليه المؤيدين له «ليكونوا فيه مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقّه... ويمنعوا القويّ من ظلم الضعيف

والقاطن من عنف الغريب»^(١).

أجل، إنها حادثة طرّفاها الحسين وآله جميعاً ، ويزيد والأمويون إلا أقلّهم. وإليك خلاصتها:

سمع يزيد بن معاوية بجمال زينب بنت إسحاق زوجة عبد الله بن سلام القرشي. وكانت من أجمل نساء وقتها وأحسنهن أدباً وأكثرهن مالاً. ففُتِن بها. فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصّة أبيه واسمُه رفيق. فذكر ذلك لمعاوية وقال له: إنّ ابنك يزيد قد عيل صبره وضاق ذرعه بها.

فبعث معاوية إلى يزيد فاستفسره عن أمره ، فبثّ^(٢) يزيد له شأنه. فقال معاوية: مهلاً يا يزيد! فقال له: علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل؟ فقال له معاوية: أكتّم أمرك يا بني، فإنّ البوح به غير نافعك ؛ والله بالغ أمره فيك ، ولا بدّ ممّا هو كائن.

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مُناه. فكتب إلى زوجها عبد الله ابن سلام - وكان قد استعمله على العراق - أن أقبل حين تنظر كتابي لأمرٍ فيه حظك إن شاء الله ، فلا تتأخّر عنه!

فأسرع عبد الله بن سلام وقَدِم ، فأنزله معاوية منزلاً كان قد هَيَّءَ له. وكان عند معاوية يومئذٍ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء ، فقال لهما معاوية:

لقد بلغت لي ابنة أريد زواجها والنظر في اختيار مَنْ يصلح لها زوجاً ، لعل من يكون بعدي يقتدي فيه بهديي ويشبع فيه أثري. فإنه قد يلي هذا الملك بعدي من يغلب عليه الشيطان فيحمله على حبس البنات عن الزواج ظلماً ، فلا يرون لابنتي كُفءً ولا نظيراً. وقد رضيتُ لها عبد الله بن سلام القرشي ،

(١) شرح نهج البلاغة ج ١٥ ص ٢٠٤.

(٢) فبثّ: أظهر ، كشف. المنجد: ٢٦، مادة «بث».

لدينه وشرفه ، وفضله ومروءته! فقالا له: إن أولى الناس برعاية نِعَم الله وشكرها ، وطلبِ مرضاته في ما اختصّه ، لأنّك!

فقال لهما معاوية: فأذكرا له ذلك عني! وقد كنتُ جعلتُ لها في نفسي سُورى ، غير أنّي أرجو ألا تخرج من رأيي إن شاء الله .

فخرج أبو هريرة وأبو الدرداء من عند معاوية ، وأتيا عبد الله بن سلام وذكر له القصة.

ثم دخل معاوية على ابنته وقال لها: إذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة ، فعرضاً عليك أمّر عبد الله بن سلام ، وطلبا إليك أن تسارعي إلى الأخذ برأيي في الزواج من ابن سلام ، فقولِي لهما: إنه كفء كريم ، وقريبٌ حميم ، غير أنه متزوجٌ من زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يعرض لي من الغيرة ما يعرض للنساء ، فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه ، فيُعَذِّبني عليه ، ولستُ بفاعلةٍ حتى يفارقها.

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله بن سلام وأخبراه بقول معاوية ، ردّهما إليه يخطبان له منه. فأتياه. فقال: لقد علمتما رضائي به وحزني عليه ، وكنتُ قد أخبرتُكما بالذي جعلتُ لها في نفسي من السُورى ، فادخلا عليها وأعرضا عليها الذي رأيتُ لها.

فدخلا على ابنة معاوية وأخبراهما. فقالت لهما ما قاله أبوها لها. فرجعا إلى ابن سلام وأعلماه بما قالت.

فلما ظنّ عبد الله بن سلام أنه لا يمنع ابنة معاوية منه إلا فراق زوجته زينب ، أشهد الرسولين بطلاقها وأعادهما إلى ابنة معاوية.

فأتيا معاوية وأعلماه بما كان من فراق عبد الله لزوجته زينب رغبةً في الاتصال بابنته. فأظهر معاوية كراهة فعله وفراقه لزينب ، وقال ما استحسنتُ

له طلاق امرأته ، ولا أحببته. فانصرفا في عافية ، ثم عودا إليها وخذا رضاها. فقاما ثم عادا إليه. فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ، وقال: لم يكن لي أن أكرهها وقد جعلتُ لها الشورى في شؤونها الخاصة. فدخل عليها فأعلمها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته. وذكر أمرين فضله وحسن نسبه. فقالت لهما: إنه في قريش لرفيع القدر ، وقد تعلمان أن الأناة في الأمور أرفق لِمَا يُخاف من المحذور. وإني سائلة عنه حتى أعرف دِخْلَةَ أمره ، وأخبركما بعد ذلك بالذي يزيتنه الله لي ، ولا قوة إلا بالله. فقالا: وفقك الله. وانصرفا عنها حتى إذا جاء عبد الله بن سلام وأخبراه بقولها ، أنشد قول الشاعر:

فإنَّ يُكْ صدرُ هذا اليوم ولَّى فإنَّ غدًا لِنَاظره قريبُ
وتحدّث الناس بما كان من طلاق عبد الله زوجته زينب ، وخطبته ابنة معاوية ، ولاموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه ؛ لِمَا يعرفونه من فساد يزيد واحتيال معاوية.
ثم استحثَّ عبدُ الله أبا هريرة وأبا الدرداء فأتيا ابنة معاوية وقالا لها: اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله فإنه يهدي من استهداه. فقالت: أرجو أن يكون الله قد خار لي ، وقد استقصيتُ أمورَ عبد الله بن سلام حتى عرفتُها كلَّ المعرفة ، وسألتُ عنه ، فوجدتُه غير ملائم ولا موافق لِمَا أريد لنفسي. وقد اختلفَ من استشرته فيه ، فمنهم الناهي عنه ومنهم الأمر به ، واختلافهم أوّل ما كرهتُ.

فلَمَّا بلغ الرسولان كلامها عبدُ الله بن سلام علم أنه مخدوع! وذاع أمره وفشا في الناس. وقالوا: خدّعه معاوية حتى طلق امرأته! وإنما

أرادها معاوية لابنه يزيد. وقبحوا فعله.^(١)

وتم الفصل الأول من مكيدة معاوية استجابةً لرغبة يزيد في الفساد. غير أن المقادير أتت بخلاف تديره. وكان ذلك على يد الحسين بن عليّ الناشئ على سيرة أبيه العظيم في نصرة المظلوم. وإليك ما كان:

لما انقضت عدة زينب مطلقة عبد الله بن سلام، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد. فخرج أبو الدرداء حتى قدم الكوفة، وبها يومئذ الحسين بن عليّ. فبدأ أبو الدرداء بزيارة الحسين احتراماً منه لمكانته. فسلم عليه الحسين وسأله عن سبب مقدمه إلى الكوفة. فقال أبو الدرداء:

وجئني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق.

وأخبره بفصول الحادثة واحداً واحداً. فقال له الحسين:

لقد كنت أردت الزواج من زينب بنت إسحاق، وقصدتُ الإرسال إليها إذا انقضت عدتها، فلم يمنعني من ذلك إلا انتقاء مثلك. فقد أتى الله بك. فاخطب زينب عليّ وعلى يزيد لتختار هي نفسها من اختاره الله لها. وهي أمانة في عنقك حتى تؤذيها إليها. وأعطيتها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه. فقال أبو الدرداء: أفعل إن شاء الله.

فلما دخل أبو الدرداء على زينب، قال:

أيتها المرأة إن الله قد خلق الأمور بقدرته وكونها بعزته، فجعل لكل أمرٍ قدرًا، ولكل قدر سبباً. وليس لأحدٍ من أمر الله مهرّب. فكان ممّا قُدِّر عليك فراق عبد الله بن سلام إيتاك. ولعلّ ذلك لا يضرك. وقد خطبك يزيد بن معاوية والحسين بن عليّ، وقد جئتُك خاطباً عليهما فاختاري أيهما شئت!

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٢٢٠، النصائح الكافية لمحمد بن عقيل ص ١٢٩.

فسكنتُ زينب طويلاً، ثم قالت:

لو أنّ هذا الأمر جاءني وأنت غائب لأشخصتُ فيه الرُّسلَ إليك ، واتبعتُ فيه رأيك. فأما إذ كنتَ أنت المرسل ، فقد فوّضتُ أمري بعد الله إليك وجعلته في يدك فاختر لي أرضاهما لديك. فقال:

أيتها المرأة ، إنّما عليّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك. قالت: عفا الله عنك! إنّما أنا ابنة أخيك ولا غنى لي عنك.

فلما لم يجد بداً من القول والإشارة ، قال إنّ الحسين أحب إليّ وأرضى عندي!

قالت: قد اخترته ورضيته.

وهكذا زوجت نفسها من الحسين. وساق لها الحسين مهرها. وبلغ ذلك معاوية فعظم لديه الأمر ، ولام أبا الدرداء لوماً شديداً ، وقال: مَنْ يُرسل ذا بَلَهٍ يركب خلاف ما يهوى!

ثم عزل معاوية عبد الله بن سلام عن العراق ، وقطع عنه جميع روافده ، لما بلغه من أنّه يسيء فيه القول ويتهمة بالخداع والاحتتيال. وضائق الحال بابن سلام في الشام وقتل ما في يده. فرجع إلى العراق وكان قد استودع زينب قبل الطلاق مالاً كثيراً. وظنّ أنّها ستجده لسوء فعله بها وطلاقها من غير شيءٍ كان منها.

ولما قدم العراق لقي الحسين فسلم عليه ثم قال:

قد علمتُ ما كان من خبري وخبر زينب ، وإنّي كنتُ قد استودعْتُها مالاً ولم أقبضه. ثم أثنى عليها وقال له: أذكّرُ لها أمري واطلب إليها أن تردّ عليّ مالي.

فلما انصرف الحسين إليها ، قال لها: قد قدّم عبد الله بن سلام ، وهو

يُحسن الثناء عليك ويمتدح حسن صحبتك وسمو نفسك وما آنسه قديماً من أمانتك. فسرني ذلك منه وأعجبني. وذكر أنه كان قد استودعك مالاً ، فأذني إليه أمانته وردني عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ولم يطلب إلا حقاً.

فقالت: صدق ، استودعني مالاً لا أدري ما هو. فادفعه إليه بطابعه! فأثنى عليها الحسين خيراً ، وقال بأدبه الجَمِّ: ألا أدخلك إليك حتى تتبرئي إليه من ماله كما دفعه إليك؟ ثم لقي عبد الله بن سلام ، فقال: ما أنكرت مالك ، وأنها زعمت أنه ما يزال بطابعك ، فادخل إليها وتسلم مالك منها.

فخجل عبد الله بن سلام من نفسه وقال للحسين: أو ما تأمر من يدفعه إلي؟ قال: لا! بل تقبضه منها كما دفعته إليها.

ودخل عليها الحسين وقال: هذا عبد الله قد جاء يطلب وديعته. فأخرجت إليه أكياس المال فوضعتها بين يديه ، وقالت: هذا مالك! فشكر وأثنى!

وخرج الحسين عنهما وخلّاهما وحدهما. وفضّ عبد الله بن سلام أحد الأكياس وأفرغ لزئنب متافيه وقال: خذي ، فهو قليل مني! فاستعبرا جميعاً حتى علّت أصواتهما بالبكاء أسفاً على ما ابتليا به. فدخل الحسين عليهما في الحال ، وقال برقةٍ وعطف:

أشهد الله أنني طلقتهما! وأشهد الله أنني لم أتزوجها رغبةً في مالها ولا جمالها ، ولكنني أردتُ إحلالها لزوجها.

وعرف عبد الله بن سلام منهما أن الحسين لم يتزوج زينب إلا زواجاً صُورياً يقصد منه إبعادها عن يزيد بعد خدعة أبيه ، ثم جعلها حلالاً لزوجها ابن سلام ؛ لأن الأحكام تقضي بالآ تَعُود إليه بعد طلاقها إلا إذا زوّجت بسواه ثم طلق من جديد.

وهكذا بقيت زينب لزوجها - الذي خُدع - عفيفةً كما تركها لم يمسنها

أثناء غيابه بشر.

وسأل عبد الله بن سلام زينب أن تصرف إلى الحسين ما كان قد ساقه إليها من مهر ، فأجابته على ذلك ، فلم يقبل الحسين وقال: الذي أرجوه الثواب خير لي! ^(١)

قال علي بن أبي طالب الهاشمي: «فوالله ما كنزٌ من دنياكم تبراً ، ولا أذخرٌ من غنائمها وفراً ، ولا أعددتُ لبالي ثوبي طمرا. ولو شئتُ لاهتديتُ الطريقَ إلى مصقى هذا العسل ولباب هذا القمع ونسائج هذا القرّ ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة! ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ، ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطاناً وحولي بطونٌ غرثي وأكبأٌ حرّى! أقنع بأن يُقال أمير المؤمنين! ولا أشاركهم مكاراة الدهر؟» ^(٢).

وقال علي في رسالةٍ منه إلى عامله على الأهواز: «وإني أقسم بالله صادقاً ، لئن بلغني أنك تُخنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً ، لأشدنّ عليك شدةً تدعك قليل الوفّر ، ثقیل الظهر ، ضئيل الأمر!» ^(٣).

أما معاوية بن أبي سفيان الأمويّ ، فيقول: «الأرض لله وأنا خليفة الله! فما آخذُ من مال الله فهو لي ، وما تركته منه كان جائزاً لي!!» ^(٤).

وأما معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم الأمويّون ، فيُنهبون أنصارهم أموال الشعب تدعيماً لنفوذ وتشييداً لملك ، ويقطعون الرقاب. ولهم جنودٌ من العسل المداف بالسمّ ، أو من السمّ دون العسل!!
وللفريقين أنصاراً!

(١) النصائح الكافية لابن عقيل ص ١٣٠، الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ٢١٧/١ - ٢٢٣ .

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤٥ - ١٤ .

(٣) نهج البلاغة ، الكتاب: ٢٠ .

(٤) النصائح الكافية لابن عقيل ص ١٣١ .

أنصار الفريقين

- والله لو قاتلونا بسلامهم وأوصلونا إلى سقات

هجر؛ لعلنا أننا على حق وأنهم على باطل!

عتار بن ياسر

- نسوت معك!

أنصار الحسين بن علي

- كم تهب لنا؟

أنصار يزيد بن معاوية

كان أبرز ما يميز أنصارَ الطالبيتين ، وأظهر ما يجمع صفاتهم في واحدة: تلك الأريحية التي تسمو بالطباع وتجعل الحياة معنىً من معاني الجهاد في نصرة مظلوم وتغليب عقيدة وفدية حق. ولا يعيب هؤلاء أنهم قليل ، فأصحاب الأريحية قليل ، ونتاج الأريحيين عظيمٌ جليل! وكثيراً ما تكون القلة في العدد أدل على جلال الهدف وسمو الغاية. وقد تُطبق النفس الواحدة من جلائل الأمور ما لا تطيقه النفوس في الألوف من الأفراد! ذلك ما تشير إليه حقيقة أعوان الطالبتين الثابتين في ما اقتنعوا به وعقدوا عليه النية.

فهؤلاء محبّو علي بن أبي طالب يُغريهم معاوية بما يغري به أعوانه من مالٍ ونفوذ ليجاروه في سب علي وبنيه، فيأبون^(١) وإن عظم الإغراء. ثم ها هو يتوعدهم بأشد العقاب إن لم يفعلوا ، لعل في العقاب ما هو أشد من الإغراء حملاً على السباب ، فيأبون كذلك وإن عظم العذاب!

جلس معاوية بن أبي سفيان يوماً وعنده وجوه الناس ، وفيهم

(١) يأبون: يرفضون ويأنفون ويزترقون. المنجد: ٢، مادة «أبى».

الأحنف بن قيس سيد تميم. فدخل رجلٌ من أهل الشام ، فقام خطيباً ، فكان آخر كلامه: أن لَعَنَ علياً على عادة أهل الشام في ذلك الزمان ، وقد أرادها معاوية ومَن حوله ، فأطرق الناس جميعاً. وتكلم الأحنف قال: يا معاوية! إن هذا القائل لو علم أن رضاك في لعن المرسلين لَلعنهم ، فاتقِ الله ، ودعْ علياً ، فقد لقي الله وكان والله - ما علمنا - الطاهر في خلقه ، الميمون النقيية ، العظيم المصيبة.

قال معاوية: يا أحنف! لقد أغضيتَ العين على القذى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وإيم الله لتضعَدَنَّ على المنبر فلتلعننَّه طائعاً أو كارهاً! فقال الأحنف: إن تعفني فهو خيرٌ ، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري به شفتاي!

فقال معاوية: قم فاصعد! قال: أما والله لأنصفنَكَ في القول والفعل! قال معاوية: وما أنتَ قائلٌ إن أنصفتني؟ قال: أصعد فأحمد الله وأثنى عليه ، وأصلي على نبيته ثم أقول: أيها الناس! إن معاوية قد أمرني أن ألعن علياً ، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا وادعى كل واحدٍ منهما أنه مبغى عليه وعلى فئته ؛ فإذا دعوتُ فأمتنوا رحمكم الله. ثم أقول:

اللهم العنْ أنتَ وملائكتك وأنبيائك ورسلك وجميعُ خلقك ، الباغي منهما على صاحبه ، والفئةَ الباغية على المبغى عليها. آمين يا رب العالمين! فقال معاوية: إذن نعفيك يا أبا بحر!^(١)

وقد يلح معاوية على أنصار علي في التنكر له فلا يطيقون على إلحاحه صبراً فيشتمونه هو وبنيه ؛ وعلي في الرمس ومعاوية ملكٌ شديد البأس

(١) المقد الفريد، لابن عبد ربه ٢ / ١٤٤ ، المستطرف في كل فن مستظرف ١ / ٥٤ ، الغدير ١٠ / ٢٦٢.

طويل اليد.

ويذكر التاريخ ، باشمئزاز كثير ، أنَّ معاوية هذا قتل حُجَرَ بن عدي الكندي وأصحابه ؛ لأنهم كانوا ينكرون سب علي وأبنائه على المنابر ، على ما سيجيء الكلام عنه.

ويشتد أنصار علي في رعاية عواطف النبل الإنساني التي بذرها في نفوسهم وتعهدتها وأنماها ، لا فرقَ فيهم بين رجلٍ وامرأة أو بين كبيرٍ وصغير. فحين حجَّ معاوية في سنةٍ من سنيه سأل عن امرأة من بني كِنانة يقال لها: دارمية فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجيء بها ، فقال: أتدرين لِمَ بعثْتُ إليك؟ بعثْتُ إليك لأسألك: علامَ أحببتِ علياً وأبغضتيني ، وواليتَه وعاديتني؟ قالت: أو تعفيني يا أمير المؤمنين! قال: لا أعفيك. قالت: أما إذ أبيت ، فإني أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية. وأبغضتُك على قتال من هو أولى منك بالأمر! وواليتُ علياً على حبه المساكين ، وعاديتك على سفكك الدماء وشقِّك العصا وجورك في القضاء وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك - وكانت دارمية كثيرة اللحم - فقالت: يا هذا، بهند والله كان يُضرب المثل في ذلك لابي. وهند أم معاوية!

فقال لها: يا هذه، هل رأيتِ علياً؟ قالت: إي والله لقد رأيته. قال: فكيف رأيته؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه المُلْك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال: هل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم والله ، كان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيت من الصدأ.

قال: صدقت ، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم. قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلُّها وراعيها. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحلَّ عندك محلَّ علي؟ قالت: فتى ، ولا كمالك ، سبحان الله! تريد تفضيل علي

عليه؟ فأعطاه معاوية ما أرادت ، ثم قال لها: أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً. قالت: لا والله ولا وبرّةً واحدة من مال المسلمين!

ودخل عديّ بن حاتم الطائي على معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة في دمشق ، فقال له معاوية: ما فعلت الطرفات - يعني أولاده - فقال عديّ: قُتلوا مع عليّ بن أبي طالب. قال معاوية: ما أنصفك عليّ ، قتل أولادك وأبقى أولاده! قال عديّ: ما أنصفك عليّ إذ قُتل هو وبقيت أنت! فقال معاوية: أما أنّه قد بقيت قطرة من دم عثمان لا يمحوها إلا دمّ شريف من أشرف اليمن - يعرض بعديّ بن حاتم - فقال عديّ: والله إنّ قلوبنا التي أبغضناك بها لفي صدورنا ، وإنّ أسيفنا التي قاتلناك بها لعلّى عواتقنا. ولئن أدنيت لنا من الغدر فترا لنلدنو إليك الشرّ شبراً. وإنّ حرّ الحلقوم وحرّجة الحيزوم لأهون علينا أن نسمع منك المساءة في عليّ بن أبي طالب ، فسلمّ السيف يا معاوية لباعث السيف! قال معاوية: هذه حكمة فاكْتُبها^(١). وسكت!

وخرج معاوية للحجّ ، فلما كان في المدينة دعا إليه سعد بن أبي وقاص لمصاحبتة ، فلبّى دعوته. وإذا انتهيا من أعمال الحجّ دخلا دار الندوة وراحا في حديثٍ طويل ، وشاء معاوية أن يعرف إلى أيّ مدى يسايره هذا الصحابي في موقفه من عليّ ، وكان قد غرّه فيه أن لبّى دعوته وخرج معه إلى الحجّ ، فشرع في سبّ الإمام ، وقال لسعد «متلطّفاً»: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب - يعني عليّ بن أبي طالب - ؟ فتجهّم أسارير سعد وقال في حدّة وغضب:

«أجلستني في سريرك ثم شرعت في سبّ عليّ! والله لأن يكون لي خصلة واحدة من خصال كانت لعلّي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس.

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٣، اختيار معرفة الرجال ، للطوسي ١ / ٢٥٥، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤.

لا أدخل عليك داراً بعد اليوم!»^(١).

قال ذلك ونفض رداءه غضباً واستنكاراً وخرج!

ومن أنصار الطالبيتين عمرو بن الحَمِق الذي قتلَه زياد بن أبيه بمولاته لعلِّي ، وبعث برأسه إلى معاوية، فكان أوَّل رأس أُهدي في الإسلام. وكذلك امرأة عمرو هذا وقد أسمعت معاوية، كلاماً قاسياً في سياسته وأسلوبه بأخذ الناس.

ومنهم البطل الشهيد ميثم التمار وكان ميثم هذا قد عايش ابنَ أبي طالب ، وأدرك مكانته بين صنوف الرجال. ومما رُوي أنَّ عليّاً كان يقضي بعض أوقاته في دكان ميثم، فإذا غاب ميثم لحاجةٍ لم يجد عليّ ما يمنعه من أن يبيع له التمر حتى يعود. ولما قُتل عليّ وابنه الحسين وخلا الجوّ في الكوفة للمجرم عُبيد الله بن زياد هدّده بالموت إنَّ هو ظلّ عليّ ولأثله لابن أبي طالب ، وقال فيه خيراً وفي عدالته ، وأغراه بالخيرات على أيدي أسياده الأمويّين إنَّ هو مشى في ركابهم. وكان أنَّ تكلم ميثم مرّةً وابن زياد لا يعرفه فأعجب بمنطقه وسداد رأيه وناصح حجّته ، فقال له متملّق يدعى عمرو بن حريث: أتعرف هذا المتكلّم أيها الأمير؟ فقال زياد: ومَن هو؟ قال: هذا ميثم التمار الكذاب مولى الكذاب عليّ بن أبي طالب فاستوى ابن زياد جالساً وقال لميثم: ما يقول؟ فقال ميثم: كذبٌ ، بل أنا الصادق مولى الصادق عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين حقّاً! فغضب ابنُ زياد وقال له: لَتَبْرَأَنَّ من عليّ ولتذكرَنَّ من مساوئه ، وتتولّى عثمان وتذكر محاسنه أو لأقطعَنَّ يديك ورجليك ولأصلبتك! فما كان من ميثم التمار إلّا أن امتدح عليّ بن أبي طالب وبكى

(١) اختيار معرفة الرجال ١ / ١٩٨.

لذكره ، ولما كان من عدله وسماحه وحبّه الصادق العظيم للناس . ثم هاجم ابن زياد والأمويين بقولٍ عنيفٍ يشتدّ بالنقمة على الجور وأهله . فامتلاً ابنُ زياد غيظاً ثم قال له : والله لأقطعن يديك ورجليك ولأدعن لسانك حتى أكذبك وأكذب مولاك ! وأمر به في الحال فُقطعت يداه ورجلاه ، ثم أُخرج فأمر به أن يصلب بعد ذلك . فما كان من ميثم إلا أن نادى بأعلى صوته يقول : أيّها الناس ! من أراد أن يسمع حديثاً عن عليّ بن أبي طالب فليأت إليّ . فاجتمع الناس إليه فراح يحدثهم عن عليّ . وفيما هو كذلك خرج المتملّق الحقيّر عمرو بن حريث وهو يريد منزله ، فقال : ما هذه الجماعة ؟ قالوا : ميثم التمار يحدث عن عليّ بن أبي طالب . فانصرف ابنُ حريث مسرعاً حتى بلغ مكانَ ابن زياد فقال له : أصلح الله الأمير ، بادِرْ فابعثْ إلى هذا من يقطع لسانه فإني أخشى أن يغير قلوبَ أهل الكوفة فيخرجوا عليك ! فالتفت عبید الله بن زياد إلى حراس فوق رأسه قائلاً لهم : اذهبوا فاقطعوا لسانه ! فأتاه الحراس فقالوا له : يا ميثم ! أخرج لسانك فقد أمرنا الأمير بقطعه ! فقال ميثم : ألا زعم ابنُ الفاجرة أنه يكذبني ويكذب عليّ بن أبي طالب ؟ هاكم لساني فاقطعوه !^(١) .

ومات ميثم بعد ذلك بقليل ، فأمرت الخسة في نفس ابن زياد بصلبه بعد أن كان قد مات وقُطعت يداه ورجلاه ولسانه .

ومن سلسلة الذين استشهدوا للحق وأنكروا الدنيا مع الباطل رشيد الهجري أحد أصحاب ابن أبي طالب . وقصته لا تختلف كثيراً عن قصة ميثم التمار . فقد دعا عبید الله بن زياد إلى البراءة من عليّ ، فأبى أن يتبرأ منه ، فقال له : فبأي ميتة تريد أن تموت ؟ ثم أمر به فُقطعت يداه ورجلاه .

(١) الاختصاص، للمفيد ص ٧٦، اختيار معرفة الرجال ١ / ٢٩٧، بحار الأنوار ج ٤٢ ص ١٣٢ .

ويكفيك من أنصار علي ومن معنى انتصارهم له أنهم والوه راضين مختارين ، وهم لا يطلبون على ذلك أجراً إلا أن يكونوا مع الحق ، وأن يموتوا عليه ، شأنهم في هذا الموقف من علي شأن المسلمين الأول من المهاجرين والأنصار من محمد بن عبد الله. وقد عبّر واحد من كبار أنصار علي ، وأعني به عمار بن ياسر ، عن حقيقتهم جميعاً ، إذ قال قبل لقاء الأمويين وأنصارهم بصقين وهم جيشٌ كثيف: «والله لو قاتلونا بسلاحهم وأوصلونا إلى سعفات هجر لعلّمنا أننا على حق وأنهم على باطل!»^(١).

ولا يختلف أنصار الحسين عن أنصار أبيه في معنى الانتصار له وفي غايته.

فهذا الحسين يقيم ليلته الأخيرة في كربلاء وهو لا ينتظر إلا الموت بعد ساعات ، فيقول لأصحابه القليلي العدد أن يفارقوه ، فلماذا يموتون! ويرغب إليهم في أن يُخلّوه تحت جنح الليل ويتخذوا من الظلمة ستاراً دون كل عين فلعلهم يخجلون أن يتعدوا عنه في ضوء النهار أو لعلهم يخشون من يخشون ، وفي ذلك ما فيه من سمو نفس الحسين. فيأبون جميعاً إلا أن يموتوا دونه وكأنهم ينزعون عن قلب واحدٍ ولسان واحد. ويجيبه مسلم بن عوسجة الأسدي بقوله: «أنحن نتخلّى عنك ولم نُعذر إلى الله في أداء حقك؟ أمّا والله لا أفارقك حتى أكرس في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما بقي قائمٌ بيدي. ولو لم يكن معي سلاحي لقدفنتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك!»^(٢).

(١) الاختصاص ص ١٤، أمالي الطوسي ص ١٤٣، الاحتجاج للطبرسي ١ / ٢٦٨، الجمل لابن شدقم ص ١٢٧.

بحار الأنوار ٤٢ / ٢٦٦، مناقب الخوارزمي ص ١٢٦.

(٢) الارشاد للمفيد ٢ / ٩٢، تاريخ الطبري ٤ / ٣١٨، اللهوف لابن طاووس ص ٥٦.

وَبَرَّ بَقْسَمَهُ وَمَاتَ مَعَ الْحُسَيْنِ رَاضِياً مُخْتَاراً!.

وهذا حبيب بن مظاهر يدنو من مسلم بن عوسجة وهو - أي مسلم - يجود بنفسه فيقول له: «لولا أنني أعلم أنني في أثرك لاحتق بك لأحببت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل!» فيجيبه مسلم بهذه الكلمات التي كانت آخر ما قاله: «أوصيك بهذا، رحمك الله، أن تموت دونه!». وأشار بيده إلى الحسين! (١)

وهذا الحرّ بن يزيد الرياحي يتيقّظ ضميره، ويرغب عن أمجاد الدنيا ساعة يستعرض مساوئ يزيد بن معاوية وأنصاره، ونبل الحسين وإيمان أنصاره وإيثارهم وفداءهم. وقصة ذلك أن الحرّ بن يزيد كان من قواد بني أمية الذين وُعدوا بالخيرات إذا هم اشتركوا في قتال الحسين وقضوا عليه وعلى أنصاره.

ووكّل إليه، بالذات، عبيد الله بن زياد والي الكوفة أن يقوم بهذه الجريمة البشعة. فما كان منه إلا أن أخذ يقترب من معسكر الحسين اقترباً راب أصحابه. ثم ضرب فرسه وحث السير حتى دنا من الحسين يقول له: «... وإني قد جئتكم تائباً مما كان مني إلى ربي، مؤاسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك!».

ومات بين يديه!

وهؤلاء هم أنصار الحسين جميعاً بضع عشرات من الرجال، يقفون في وجه أربعة آلاف، ويلج عليهم العطش والضيق، وينتظرون الموت واحداً واحداً وكلهم اطمئنأ إلى نبل الموت وجلال الشهادة!

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٣٢٢، البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ١٩٧.

وَقَتَلَ الحُسَيْنَ بنَ عَلِيٍّ! واستتبَّ الأمرُ ليزيدَ بنِ معاويةَ وأَعوانه!
 وذهبَ الأملُ في دولةِ الطالبين، وفي خيراتِ الأرضِ تأتي الناسَ على
 أيديهم. ولكنَّ يقطعةَ الروحِ الشريفِ لدى أنصارهم لم تخمد، بل ازدادت
 وتعاضمت. من ذلك أنَّ الحُسَيْنَ بنَ عَلِيٍّ يومَ نُعي في الكوفة، نهضَ واليها
 عبيد الله بن زياد ونادى إلى الصلاة الجامعة. ولَمَّا صعد المنبر، خطب فقال:
 «الحمد لله الذي أظهر الحقَّ وأهله، ونَصَرَ أمير المؤمنين يزيدَ بن معاويةَ
 وحزبَه، وقتلَ الكَذابَ ابنَ الكَذابِ الحُسَيْنَ بنَ عَلِيٍّ وشيعتَه!».

فما أتمَّ هذا الكلامَ حتى نهضَ من جانبِ المسجدِ شيخٌ عجوز هو عبد الله
 ابن عفيف الأزدي، صاحب علي بن أبي طالب في موقعيَّي الجمل وصفين،
 وصاح بالوالي وهو في يوم زهوه وكبريائه وانتصاره على الطالبين: «يا ابن
 مرجانة! أتقتل أبناءَ النبيِّين وتقوم على المنبر مقامَ الصديقين؟ إنَّما الكَذابُ
 أنت وأبوك والذي ولَّاك وأبوه!»^(١).

فما كان الصباحُ إلَّا والشيخُ العجوزُ مصلوبٌ في ساحةِ الكوفة!
 وهذا الفرزدق الشاعر، يصعقُ بني أُمَيَّةَ بقصيدته الشهيرة في زين
 العابدين بن الحسين، وبنو أُمَيَّةَ في ذروة سلطانهم، ولا يخشى عقاب الموت!
 وهو لم يمدح زين العابدين والطالبين بقصيدته إلَّا مدفوعاً بعاطفة الإعجاب
 بهم، والتشجيع لهم دون أجرٍ من الدنيا أو ثواب.

وقصَّةُ ذلك أنَّ هشامَ بن عبد الملك الأمويَّ حجَّ على عهد أبيه، وطاف
 بالبيت وجهَدَ أن يستلم الحجرَ الأسود فلم يتمكن لكثرة الزحام ووفرة
 الناس، ولأنَّ الناسَ لم يُسلَكوه إليه طريقاً؛ وكلَّهم كارهٌ لبني أُمَيَّة. وفيما هو

كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين ، فطاف بالبيت حتى إذا انتهى إلى الحجر الأسود انشقت له الصفوف وطأطأ القوم رؤوسهم إجلالاً ، ومكنوه من استلام الحجر ، فقال رجلٌ من أهل الشام لسيده هشام بن عبد الملك وليّ عهد أبيه: «مَنْ هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟» وكان هشام يعرف «من هذا» ولكنه لم يجرؤ على ذكر اسمه أمام أصحابه خوفاً من أن يرغبهم فيه ، فتجاهل وقال: «لا أعرفه!» ووقعت هذه الكلمة في أذن الفرزدق الشاعر ، فقال من فوره: «أنا أعرفه!» ثم وقف على مكانٍ مرتفع والحماسة تتلظى في نفسه ، وقذف كلمته الخالدة في تاريخ الشعر العربي ومطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه ، والحِجْلُ ، والحَرَمُ
فغضب هشام بن عبد الملك فحبس الشاعر بين مكة والمدينة ، فهجاه الشاعر وعرض ببني أمية دون أن يخشى على ذلك عقاباً. ومما قاله في هشام:
يقلّبُ رأساً لم يكن رأسَ سيّدٍ وعينٌ له حولاءٌ بادٍ عيوبُها^(١)
هذا قليلٌ جداً من أخبار أنصار الطالبين في العهود الأولى للإسلام. ولكنه قليلٌ يعطيك صورة جليّة عن حقيقة هؤلاء الأنصار الذين صهر نفوسهم الفداء والاستشهاد، فكانوا مَنْ كانوا في مقياس الكرم الإنساني!

أما أولئك ، أعوان الأمويين ، ففريقان: فريق اجتذبتهم الرشوة وما أرخصها ثمناً للضمان التي تباع! وفريقٌ تمرّس بالخسة وكزه الخيرين من الناس انتقاماً لتقائص الطبيعة والمزاج ، وتلبيةً لنداء الجريمة المتأصلة في بعض النفوس!

(١) الإرشاد ٢ / ١٥١، الاختصاص للمفيد ص ١٩١، الأمالي للمرّضى ١ / ٤٨، عيون المعجزات لابن عبد الوهاب ص ٦٣، الخرائج والجرائح، للراوندي ١ / ٢٦٧، مناقب ابن شهر آشوب ٣ / ٣٠٦، العمد، لابن البطريق ص ٢٥٣، بحار الأنوار ٤٦ / ١٢١.

من الفريق الذي اجتذبتْه الرشوة كان أنصار أبي سفيان بن حرب على تباينٍ في مفهوم الرشوة لدى الأفراد المختلفين ، وعلى تباينٍ في نوع الوعود المقطوعة للمرشحين. فمنهم من كان أبو سفيان وصحبه يرشونه بالعطاء. ومنهم من رشوه باعتاقه من العبودية كوحشي الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب ، وقد مرّ ذكره. ومنهم من وُعد بخيرات الجاهلية إذا هو أعانهم في محاربة محمد فقتلوه وقتلوا أصحابه وثبت فيهم السلطان!

ومن هذا الفريق أيضاً عمرو بن العاص يد معاوية اليمنى في قتال عليّ بن أبي طالب، وسوف يأتي عنه الكلام في فصل آت.

ومن هذا الفريق جند أهل الشام الذين سترهم معاوية لمحاربة عليّ في صفين. وكان همّ هؤلاء أن ينصروا من يُجري عليهم الأرزاق من مال الشعب الذي يجمعه وُلاة بني أُمّية اغتصاباً وجوراً، ومن يمتّيتهم بالوعود إذا هم انتصروا على عليّ وجيشه.

ومن هذا الفريق أيضاً جند يزيد بن معاوية الذين رشاهم يزيد وعملاؤه إما بالعطاء وإما بالتأمين على حياتهم. فإنّ الكثيرين منهم كانوا مسوقين سوقاً إلى مقاتلة الطالبيين خوفاً من العقاب إذا هم أحجموا ، وليس لكلّ الناس قوّة على التضحية والفداء، والأخبار عن هذه الحقيقة تملأ كتب التاريخ. من ذلك أنّ الحسين بن عليّ سأل الفرزدق الشاعر فيما كان في طريقه من مكة إلى الكوفة ، قال: كيف أحوال الناس في الكوفة؟ فقال الفرزدق: قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أُمّية !

وسأل الحسين مثل هذا السؤال مجمعاً بن عبّيد العامري ، فقال مجمع: أمّا أشراف الناس فقد أعظمتْ رشوتُهم ومُلئتْ غرائرهم ، فهم ألب واحد عليك. وأمّا سائر الناس بعدهم فإنّ قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غداً

مشهورة عليك! (١).

* * *

أما الفريق الثاني من أعوان بني أمية ، وأعني بهم أولئك الذين تمرسوا بالخسة وكزه أهل الخير من الناس انتقاماً لنقائص في الطبيعة والمزاج ، وتلبية لنداء الجريمة المتأصلة في النفوس ، فهم كُثر.

هذا الفريق من المجرمين كان لهم بعض العذر في محاربة الطالبيين وموالاة بني أمية لو أنهم قاتلوا مع أسيادهم في النطاق الذي يفرضه الميدان على المقاتلين. ولكانوا إذ ذاك شيئاً من الفريق الأول ، عبيد الدنيا. غير أن ما يؤخذ عليهم هو تلك القسوة التي تترفع عن مثلها الوحوش الضواري وذلك الروح الانتقامي الفظيع الذي لا موجب له إلا ما في نفوسهم من حقارة ، وما في قلوبهم من شهوات تنتكس جريمةً مرعبة ، وذلك التمثيل الذي تعف عنه حيوانات الدنيا ، وتلك الدناءة في التشقي من الأطفال وإذلال النسوة المغولات!

وفي طليعة هؤلاء الجلادين أو كلاب الطراد كما أسماهم بعض المؤرخين ، السقاح الحقيقير بُسر بن أرطاة. وقد ينتفع القارئ بأن يعرف قليلاً من سيرة هذا المخلوق الذي يجسم نفسية الفريق الثاني من أنصار الأمويين تجسماً حياً ويمثل نمطاً من الخلق الدنيء اعتاد المؤرخون في هذا الشرق التمس أن يروه عظيماً ، ويعتبر بما عمل وبما كوفئ عن حقيقة سيده وأمره معاوية تعبيراً أكيداً.

أولى الصفحات التي خطها بُسر بن أرطاة في تاريخ أنصار الأمويين

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٠٦، البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٨٨، مقتل الحسين، لأبي مخنف ص ٨٨.

كانت يوم بعثه معاوية إلى اليمن في جيشٍ كثيفٍ ، وأمره أن يقتل كلَّ من كان في طاعة عليّ بن أبي طالب أيةً كانت حاله في الشقاء والنعيم. وكان ذلك في العهد الذي بدأ معاوية فيه يبعث أنصاره ليغيروا على أطراف دولة ابن أبي طالب ، فيردّوا الناس ويحملوهم على طاعة والي الشام. فامتثل بُسر لأمر معاوية وأغار على اليمن فقتل خلقاً كثيراً ، وقلَّ أن نجا من أهله طفلٌ صغيرٌ أو شيخٌ بائسٌ أو امرأةٌ شقية. ومن دناءاته التي تعفّ^(١) عن مثلها الوحوش الضواري أنه فيما كان عائداً من اليمن إلى الشام التقى طفلين وحيدين ، فسأل من يكونان؟ فقبل له: إنهما ابنا عبيد الله بن عباس عم النبي وعليّ وكان عبيد الله عاملاً لابن أبي طالب على اليمن، فهجم عليهما وذبحهما ذبحاً بيده!

ومما كان يفخر به بُسر هذا أن يروي لمعاوية أخبار فتكه بالشيوخ العاجزين والأطفال. ومما رواه له على أثر غزوةٍ من غزواته أنه قتل في غزوةٍ واحدة ثلاثين ألفاً وحرّق مثلهم بالنار! وقد قيل في جرائم هذا السفاح شعراً كثير ، ومما قاله يزيد بن مفرغ مشيراً إلى التقتيل والتحريق:

إلى حيثُ سار المرءُ بُسرٌ بجيشه فقتلَ بُسرٌ ما استطاع ، وحرّقا^(٢)
أما سائر الصفحات التي خطتها بسر في تاريخ أنصار الأمويين ، فهي إعادة لهذه الصفحة القاتمة السواد.

ومن هؤلاء المجرم زياد ابن أبيه الذي أطلق لنفسه العنان في سياسة التقتيل بالعراق على صورة هائلة مريعة. وقد ولّاه معاوية البصرة بعد أن والاه فاستلحقه بنسبه وأسماء زياد بن أبي سفيان ليستميله أبداً. فهو ما كان يُقدم على البصرة حتى ألقى في الناس خطبته المعروفة بالبراء. ثم جدّ في تشديد

(١) تعفّ: تترفع ، تأبى. المنجد: ٥١٤، مادة «عفّ» .

(٢) الغارات للثقي ٢ / ٦٤٠، شرح نهج البلاغة ٢ / ١٧.

أمر الأمويين ، وقتل بالظنة وعاقب على الشبهة. وما من أمرٍ كان أسهل على أنصار بني أمية وهم ولاة من تقطيع أيدي المعارضين وأرجلهم وصلبهم على جذوع النخل ، أو سجنهم ونهب أموالهم وهدم دورهم ، وتشريدهم وامتهانهم أحياءً وأمواتاً. ولم يكن بين ولاة بني أمية من فاق زياد بن أبيه في ذلك إلا الحجاج. ومن خطبته البتراء الدالة على أسلوبه في أخذ الناس هذه الكلمات العجاب:

«وإني لأقسم بالله لآخذنّ الولي بالمولى^(١) والمقيم بالطاعن^(٢) والمقبل بالمُدبر والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتّى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: «انجُ سغدُ فقد هلك سعيد^(٣)» أو تستقيم قناتكم». «حرامٌ عليّ الطعام والشراب حتّى أسويها^(٤) بالأرض هذماً وإحراقاً! إيتاي ودلج الليل فإني لا أوتى بمُدلج إلا سفكتُ دمه! وإيمُ الله ، إن لي فيكم لصراً عى كثيرةً ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي!»^(٥).

وفي اليوم الأول الذي ولي فيه زياد أمر الكوفة ، بعد البصرة ، قطع أيدي ثمانين رجلاً من الكوفيين وهو جالس في مكانه على باب المسجد. وراح زياد يتقرب من معاوية ورهطه بأعمال البطش والتقتيل والتقطيع يصيبُ بها أنصار عليّ بن أبي طالب في الكوفة. يقول المدائني: «إن زياد بن سمية - يريد زياد ابن أبيه - كان يتتبع شيعة عليّ في الكوفة ، وهو بهم عارفٌ لأنه كان منهم أيام عليّ ، فقتلهم تحت كل حجر ومدّر ، وأخافهم ، وقطع الأيدي

(١) الولي: السيد ، والمولى: العبد. المنجد: ٩١٨ - ٩١٩، مادة «ولي».

(٢) الطاعن: الراحل. النهاية في غريب الحديث: ١٥٧/٣، مادة «ظعن».

(٣) مثل يضرب في تنابع الشر. النهاية في غريب الحديث: ٣٦٧/٢.

(٤) يقصد البصرة.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٦ / ٢٠٣، تاريخ الطبري ٤ / ١٦٧.

والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبقَ به معروفٌ منهم!

أما خبر زياد مع حجر بن عدي فسوف نرويه في خاتمة هذا الفصل.
ومن كلاب الطراد هؤلاء عبيد الله بن زياد ابن أبيه «بطل» واقعة كربلاء ، وقاتل عمرو بن الحمق وميثم التمار والشيخ العجوز عبد الله بن عفيف الأزدي والألوف من الخلق على الصورة التي ذكرناها. فإن ابن زياد هذا لم يكن أهون لديه من تقطيع الأيدي والأرجل والصلب والتقتيل والتمثيل بسبب وبغير سبب. يقول مسلم بن عقيل بن أبي طالب فيه: «ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئاً»^(١). وقد تمثلت وحشية هذا الجلاد على أبشع صورها يوم تصدى لمقاتلة الحسين بن علي ، تمثلت وقاحته ودناءته على أبشع ما يكون بعد مقتل الحسين!

أما شمر بن ذي الجوشن ، فلا يقل خسةً عن صاحبه ومولاه عبيد الله بن زياد. فقد تميز هذا المخلوق بما يحمل في نفسه من حقد على جميع الناس الطيبين ، وبانحطاط أسلوبه في الانتقام الذي لا سبب له إلا وحشية أصيلة في نفسه. فقد أمارت هذا الوحش عدداً من أطفال الطالبيين عطشاً والماء يجري تحت أنظارهم. وأمر رجاله أن يطأوا بخيولهم جثة الحسين تنفيذاً لتواطؤ بينه وبين ابن زياد على التمثيل الشنيع بابن علي بن أبي طالب. فوطئوها مُقبِلين ومُذبرين حتى رضوا صدره وظهره ، بعد أن خطفوا ما كان عليه من كساءٍ مزقته الطعون حتى كادوا يتركونه عارياً! وتنفيذاً لأوامر شمر بن ذي الجوشن

(١) الإرشاد للمفيد ٢ / ٦٢، تاريخ الطبري ٤ / ٢٨٣، البداية والنهاية ٨ / ١٦٨.

هذا كان الطفل ما يكاد يخرج من خيمته في معسكر الحسين حتى يبادره فرسان الأمويين تمزيقاً بالرماح والسيوف.

وماذا تقول بالحصين بن نمير؟ فإنه حين اشتدّ عطش الحسين في كربلاء بعد أن منعوا عنه الماء ، دنا من الفرات الجاري أمام عينيه ليطفئ غلته ، فما كان من الحصين هذا إلا أن رماه بسهم وقع في فمه ، حتى امتلأ فمه وراحته بالدم الغزير ، وانثنى يقهقه بوقاحة المجرمين!

ومن هؤلاء عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع سيده المجرم عبيد الله ابن زياد في وقعة كربلاء ، وكان أميناً في تنفيذ أوامره ويده ألا ينقذ وألا يطيع. وساق نساء الطالبين ، بعد مقتل الحسين ، على جثث القتلى المطروحة في العراء ، بعد أن أشهد الجنود على أنه أول من رمى أبناء عليّ بسهم.

وهذا أحد أصحاب يزيد من أهل الشام ، ينظر إلى فاطمة بنت الحسين هي من أجمل خلق الله وأرفعهم خلقاً ، وكانت في الذين ساقهم عبيد الله بن زياد إلى قصر الخلافة الأموية بعد مأساة كربلاء، ويقول ليزيد بوقاحة سافرة: «هب لي هذه الجارية!»^(١).

ومن أنصار الأمويين السفاح مسلم بن عقبة الذي ارتكب من الفضائع والمنكرات ما لا مزيد عليه. فقد أرسله يزيد بن معاوية على رأس جيش إلى الحجاز ، فأطلق العنان لحقده ووحشيته ، وراح يُعمل السيف في أهل المدينة جزراً كأنهم الأغنام ؛ حتى غرقت الأقدام في الدماء. وأباح المدينة ثلاثة أيام ، وهتك حرمتها وقتل رجالها وفتك بنسائها وحطم عظام الأطفال تحت أعين

(١) الإرشاد ، للمفيد ج ٢ ص ١٢١ ، الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٣٨ ، مثير الأحران ، للحلي ص ٨٠ .

الأمهات ، وحزّ الرقاب على صورةٍ هائلة ، ونهَبَ المتاع وهَدَمَ الدور ، ولم يُبقِ على أحدٍ ممّن أدركه من أبناء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد. وقد بلغ مجموع القتلى في هذه الأيام الثلاثة ألفاً وسبعمائة من الأنصار والمهاجرين وعشرة آلاف من سائر الرجال ، هذا عدا الألوف من النساء والأطفال! وإليك فقراتٍ قلائل من الكتاب الذي أرسله مسلم هذا إلى يزيد بعد انتهاء المجزرة في المدينة الحزينة ، وفي هذا الكتاب يفخر مسلم بما جنت يده ، وسوف يلاحظ القارئ عظيمَ نفاقه ساعة يعزو أعماله هذه إلى إرادة رب العالمين. قال:

«فإنّي أخبر أمير المؤمنين - أبقاه الله - أنّي خرجت من دمشق ونحن على التعبئة التي رأى أمير المؤمنين يوم فراقنا بوادي القرى ، فرجع معنا مروان بن الحكم وكان لنا عوناً على عدونا! وكان ، أكرم الله أمير المؤمنين ، من محمودٍ مقامٍ مروان بن الحكم وجميل مشهده وشديد بأسه وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين ما لا إخال ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين وخليفة رب العالمين إن شاء الله! وسلّم الله رجال أمير المؤمنين فلم يُصَبَّ أحدٌ منهم بمكروه ، ولم يَقم لهم عدوهم ساعةً من ساعات نهارهم ، فما صليتُ الظهر إلّا في مسجدهم بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم ، وأوقفنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مُدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها - أي المدينة - ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين أعزّ الله نصره... فالحمد لله الذي شفى صدري بقتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقيماً ما طغوا!«^(١).

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٢٤٠ و ١٨٦ / ١.

أما سيد هؤلاء المجرمين من أنصار بني أمية فالحجاج بن يوسف... ابن جَلَا وطلّاعُ الثنايا!

سار الحجاج إلى الحجاز بأمرٍ من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ؛ لمقاتلة عبد الله بن الزبير وأنصاره. وكان من شأنه أن حاصر مكة وعبد الله فيها ، ثم قصّفها بالمنجنيق ورماها بالنيران حتى هدم جانباً من الكعبة. ولما ظفر بخصوم بني أمية احتزّ رؤوس كبارهم وبعث بها إلى دمشق. ثم صلب جثمان عبد الله بن الزبير بعد أن قتله واحتزّ رأسه إمعاناً في التنكيل وتفجيراً لِمَا يتأجج في نفسه الشريفة الممزقة في شرّها من براكين الفظاظة والقسوة والحقْد على الآدميين. ولم يكتفِ بذلك بل خلى الجثمان على الصليب أياماً طويلاً ، فجاءته أم عبد الله بنت أبي بكر وكانت عجوزاً مهتمةً حزينة لا تكاد تبصر ، فقالت له وهي تشير إلى ابنها المعلق على الصليب:

أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟

فعبس الحجاج وبَسَر^(١) ، ونَهَرَ العجوز المسكينة بخشونة ووقاحة ، وبالغ في تأنيبها وتوبيخها.^(٢)

ومكافأة له على هذه «المآثر» ولأه عبد الملك بن مروان الحجاز. فراح يمعن في أهله انتقاماً وتنكيلاً وتعذيباً وإذلالاً ، على صَوَرٍ مريعةٍ رهيبة ، تجعلك تدهش من هذا التصلّب العجيب أمام العذاب الإنساني والمآسي البشرية! والحجاج بن يوسف - كما يصف نفسه - «لجوجٌ لدودٌ حقودٌ

(١) بَسَرَ: كَلَعَ وجهه. الصحاح: ٥٨٩/٢، مادة «بسر».

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ١٣٦، تاريخ الإسلام للذهبي ٣ / ١١٤، المستدرک للحاكم ٣ / ٥٥٢، تاريخ مدينة

دمشق ١٢ / ١٢٠، و ٢٨ / ١٧٢.

حسود»^(١) يكره الجنس الآدمي ويتميز بشعورٍ همجيّ قد يحار العلمُ في تفسيره لو سعى فيه.

ثم إنَّ عبد الملك ما لبث أن ولّاه العراقَ ورمى أهلهم به لتوطيد «الأمن» وإقرار «السلام». فقدم الحجاج إلى الكوفة في قليلٍ من الجند لا يتعدون الاثني عشر. وقبل أن يدرك المدينة العلوية بعثَ أحدَ رجاله يخبر أهلها بقدومه. فما كان منهم إلّا أن هرعوا إلى المسجد ينتظرونه. وكان اليوم من رمضان.

وفيما كانوا يتحدثون عن استيائهم من قدوم هذا الطاغية إليهم ، أدركهم وعلى رأسه عمامة خبز حمراء ؛ حجبَتْ أكثرَ وجهه ومعه سيفٌ وقوس. وواصل سيره ببطءٍ وهو صامتٌ والقوم صامتون ، حتى بلغ منبر المسجد فاعتلاه ثم قال: «علّي بالناس!» فاجتمع الكوفيتون في المسجد ولبثوا ينظرون إليه باهتمامٍ وصمتٍ شديدٍ. وأطال الحجاج السكوت وأطال القوم الانتظار. ثم راحوا يتهايمسون بكلمات الاستنكار. وتناول أحدهم حصيّ يريد أن يرميه بها ، فإذا بالحجاج يتكلم ، وإذا بالحصى تتناثر من يد حاملها وهو لا يشعر مخافةً ورعباً. قال الحجاج وهو يحسر اللثام عن وجهه ، والعيونُ شاخصةٌ إليه:

أنا ابن جَلّا وطلّاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني^(٢)
«إني ، والله ، لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاوله ، ورؤوساً قد أينعتُ
وحان قِطافُها ، وإنني لصاحبُها. وكأني أنظر إلى الدماء ترققُ بين العمام
واللحي.

ألا وإنَّ أمير المؤمنين نشر كِنانته وعَجَمَ عيدانها فوجدني أصلبها عوداً ،

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٦٧ ، البداية والنهاية ٩ / ١٥١.

(٢) ابن جلا: رجل يُضرب به المثل في شدة البأس. والثنايا جمع ثنية وهي العقبة في الجبل: كناية عمن يقدم على الأمور الصعبة والمشقات دون أن تؤثّر في عزمه وعورة المسلك!

وأشدّها مكسراً ، فوجهني إليكم ، ورماكم بي...

أما والله يا أهل العراق! ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق لألحونكم^(١) لحوّ العصا ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.»

«يا أهل العراق ، عبيد العصا وأولاد الإماء! أنا الحجاج بن يوسف. والله ما أحلف إلا ما وقيت ، فأيتاي وهذه الجماعات! أما والذي نفس الحجاج في يده ، لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده. فاقبلوا الإنصاف ، ودعوا الإرجاف^(٢) قبل أن أوقع بكم إيقاعاً: يترك النساء أيامي ، والولدان يتامى. وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد ثلاثة من بعث المهلب إلا سفكت دمه وأنهبت ماله ، وهدمت منزله...»^(٣).

أرأيت هذا الأسلوب في التهديد والوعيد ، وإلى هذه الخطة في المبادرة التي اعتمدها الحجاج ساعة وطئت قدماه أرض الكوفة؟ ثم إلى هذا الإعلان عن سفك الدماء وإنهاب المال وهدم المنازل ، وقطف الرؤوس التي حان قطافها ؛ حتى لكأنّ صاحبنا ينظر ، منذ اللحظة الأولى ، إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحي .

ثم هل أمعنت النظر في هذه المبادرة لإذلال النفوس ، ومحاولة تحطيم كل مقاومة معنوية في قلوب أهل العراق «معدن الشقاق والنفاق ومساوئ

(١) لألحونكم لحو العصا: لحا العصا لحوّاً: قشّرها. ولحا فلاناً: لامه وعذله ولحا الله فلاناً: قبحه ولعنه. ولاحاه: نازعه وخاصمه ولامه. المنجد: ٧١٧، مادة «لحي».

(٢) الإرجاف: واحد أراجيف الأخبار. وقد أرجفوا في الشيء ، أي خاضوا فيه. لسان العرب: ١١٣/٩، مادة «رجف».

(٣) الفائق للزمخشري ج ٣ ص ٤٢٤، شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٤٣، تاريخ دمشق ج ١٢ ص ١٣١، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤١، البداية والنهاية ج ٩ ص ١٣، غريب الحديث لابن قتيبة ج ٢ ص ٣٢٣.



الأخلاق ، وعبيد العصا وأولاد الإماء؟».

ولعل أكثر من هذا كله في مجال الاستهانة والإذلال والنكاية المرة ، دعوة أهل الكوفة للالتحاق بجيش المهلب بن أبي صفرة للمحاربة دفاعاً عن بني أمية وتوطيداً لعرشهم... حتى إن من تخلف عن الالتحاق بجيش المهلب بعد مضي أيام ثلاثة على بعثه سفك دمه وأنهب ماله وهدم داره!
أما هذا التهديد فقد نقذه الحجاج كلاً ، وزاد عليه!

واشتد أمر الحجاج على المعارضة. يقول المؤرخون: «وأتى الحجاج بعد عبيد الله بن زياد قاتل الحسين وآله ، فقتلهم - أنصار علي - كل قتل وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق وكافر أحب إليه من أن يقال له من أنصار علي»^(١).

وعلى هذا المبدأ أخذ الحجاج يعمل. ولم يكن هنالك ما يروي ظمأه الشديد الملح للتكيل بالناس وسفك دمائهم وإهدار كراماتهم.

شغل الطاغية أهل الكوفة بالاستعداد للقتال أياماً ثلاثة ، حتى إذا انقضت بعثهم إلى الغزو دون أن يستثنى حتى المراهقين من الصبيان. فكانت المرأة تجزع فتجيء إلى ابنها الصبي فتضمه وتقول له: «بأبي» لشدة خوفها عليه. فسمي ذلك الجيش «جيش بأبي». وفي هذه الأثناء جاء الحجاج عمير بن ضابئ الحنظلي فقال له: أصلح الله الأمير! أنا شيخ كبير ضعيف ، وابني هذا أشب مني وأتم أداة! فقال الحجاج: هذا خير لنا من أبيه. ثم سأله: ومن أنت؟ قال: أنا عمير بن ضابئ الحنظلي. قال الحجاج: ألسنت الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال: بلى! قال الحجاج: يا عدو الله! وما الذي حملك على ذلك؟ قال: إنه

(١) شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٤، الدرجات الرفيعة لابن معصوم ص ٦، يناير المودة ٣ / ٢٧٨.

حبس أبي وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً ، ولم يطلقه حتى مات في سجنه. فقال الحجاج: أو لست أنت القائل:

هممتُ، ولم أفعل، وكدتُ، وليتني تركتُ على عثمانَ تبكي حلائلَهُ
إني لأحسب أن في قتلِكَ أيُّها الشيخ صلاحَ المِصرين! إنَّ عذرَكَ لو اُضح ،
وإنَّ ضعفَكَ لبين ، ولكنتي أكره أن يجترئ بك الناس علي^(١). ثم أمر به
فُضرب عنقه وأُنهب ماله وهدمت داره!

وانتشر الخبر في الكوفة فذعر أهلها وهرعوا إلى المعسكرات مزدحمين
حتى ضاق بهم جسرٌ على الفرات مزوا عليه، فسقط منهم خلقٌ كثير في مياه
النهر. وحتى راحوا يرسلون إلى ذويهم من المعسكرات قائلين: «زودونا
ونحن في مكاننا»^(٢).

واستعمل على الكوفة رجلاً دائماً العبوس ، طويل الجلوس ، سمين
الأمانة ، أعجمي الخيانة ، اسمه عبد الرحمن بن عبيد التميمي. ولما اطمأن إلى
الحالة في الكوفة سار منهم إلى البصرة وكانت المعارضة فيها قوية. فلما بلغها
خطب أهلها وتوعدهم بخشونة وعنف إن هم لم يلحقوا بالمهلب بعد ثلاثة
أيام، على نحو ما فعل بالكوفة. ولما نزل عن المنبر حدث أن جاءه شيخٌ عجوز
يدعى شريك بن عمرو اليشكري وكان أعور وبه فتق ، فقال له: أصلح الله
الأمير! إنَّ بي فتقاً ، وقد عذرتني بشرُّ بن مروان - شقيق الخليفة ووالي
البصرة - قبل الحجاج. فأجابه الحجاج: إنك عندي لصادق. ولكته ما لبث أن

(١) شرح نهج البلاغة ٤ / ١٨٢، تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٣٢، الكامل لابن الأثير ٣ / ١٤٦، تاريخ الطبري ٤٤ / ٥.

(٢) البداية والنهاية ٩ / ١٤ وفيه: فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبّر عليه في ساعة واحدة أربعة آلاف..

أمر بضرب عنقه. فلم يبقَ بالبصرة كبيرٌ ولا صغيرٌ إلّا لحقَ بجيش المهلب. ثم إنَّ الحجاج كان جالساً إلى مائدته ، ذات يوم ، يتغذى مع نفرٍ من جماعته. فإذا بأحد رجال شرطته قد أتاه بحائكٍ من البصرة ، وقال له: أصلح الله الأمير! هذا رجلٌ عاصٍ! فجعل الحائكُ يرتجف خوفاً وهلعاً ، وقال للحجاج: أنشدك الله أيها الأمير في دمي فوالله ما قبضتُ ديوناً قط ، ولا شهدتُ عسكرياً ، وإني لحائكٌ أخذتُ من تحت الحَقِّ - يعني قصبة الحياكة^(١). فلم يتردد الحجاج لحظةً في أن يأمر بضرب عنق الحائك الذي سجد ساعة أحسَّ بالسيف يعلو رقبته ، فلحقه السيف وهو ساجد. وتابع الحجاج غداءه. فيما توقف مؤاكلوه وامتنعوا عن الطعام استنكاراً واشمئزاً ؛ وقد صفرت أيديهم واصفرت وجوههم وحدت أنظارهم. فالتفت إليهم الحجاج وقال بلهجة غاضبة: «ما لي أراكم صفرت أيديكم واصفرت وجوهكم ، وحدت نظركم من قتل رجل واحد؟ إنَّ العاصي يجمع خلافاً تخلُّ بمركزه... والوالي مخيرٌ فيه ، إن شاء قتل ، وإن شاء عفا...»^(٢).

على هذه الصورة كان الحجاج يرى «صلاح المصريين». وما هذه النماذج التي أعطيناها عن أسلوبه في التنكيل بالمعارضة إلّا من الأشياء العابرة البسيطة التي لا تُذكر في حياة الحجاج إلى جانب تقتيله الجماعات. فلما كانت ثورة ابن الجارود عليه ، وكان هو السبب فيها ، اعتقل معظمَ الثائرين بعد أن ظفر بهم ، وقطع رؤوسهم وأرسلها إلى المهلب ليعرضها على الناس ؛ ترهيباً لكلِّ من تحدّثه نفسه بأن يعصي له أمراً. ثم إنّه راح يجتد عشرات الألوف من الكوفة والبصرة ليقاتل بهم ، دون جُنْد الشام ، أعداء بني أمية في كلِّ مكان ، فينتقم

(١) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ١٨٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ١٨٤.

من شيعة عليّ ، ويستخدمهم لأغراضه في وقتٍ معاً. حتّى لم يكن في المدينتين صبيٌّ طرّ شاربه إلا وكان مُعدّاً لأن يُقتل بسيف الحجاج أو بسيف خصومه!

وتوالث ثورات العراقيين على الحجاج وفظائعه ، ولكنها كانت ضعيفةً متقطعة لا يلبث القائمون بها أن يقعوا في يد الحجاج فريسةً للتعذيب والتنكيل والتقتيل. وامتد سيف الحجاج إلى الجماعات يستعرضها ويحصدها منها الألوف تلو الألوف. وفاضت سجون العراق بالرجال والنساء حيث يقيمون على المهانة والعذاب انتظاراً لأن يأتي دورهم فيجزرهم سيف الطاغية. وراح الجوع يفتك بمن لم تقع عليه عينُ الحجاج وجنّده بعد. وعاش العراق المعارض في جوٍّ رهيبٍ من الكآبة والمذلة واليأس.

وازداد هذا الجوّ عبوساً بعد انتصار الحجاج على ابن الأشعث في معركة الزاوية التي أسر بها الحجاج أحد عشر ألفاً من العراقيين ، خدعهم بإعطائهم الأمان ، ثم قتلهم عن بكرة أبيهم. وفي معركة «دير الجماجم» التي وهنت بها عزائم أهل العراق واشتدّ بهم الجوع وانتشر بينهم الطاعون، فوقع الثائرون في قبضة الطاغية فلم يرحم منهم رجلاً واحداً.

ومع ذلك فإنّ «الأمن» لم يسد بالكوفة والبصرة. ولم يركن العراق إلى الهدوء لما أصابه من وهنٍ بفعل هذه المظالم. فراح الحجاج يمعن في التنكيل بمن بقي في عداد الأحياء ، ويضيف إلى صرعاة ضحايا جديدة في كل يوم وكل ساعة. وكان للحجاج شغفٌ بربريٌّ عجيبٌ في إذلال العراقيين وتحقيرهم وسحق معنوياتهم قبل أن يضرب أعناقهم. وبألغ في هذا الإذلال كما بالغ في إراقة الدماء ، حتى بات الناس ولا حديث لهم ساعة يتلاقون في المساجد أو المحافل أو الأسواق إلا في من قتل أميس ، وفي من يصلب اليوم ، وكيف ذُبِح

فلان ، أو كيف أهين قبل مصرعه.

وكانت الكلمة المأثورة عن الحجاج في أمصار العراق ، تلك التي كان ينطق بها أبداً ويرددها في كل ساعة كلما نادى إليه رجلاً من العراق: «يا حرسِي»، اضرب عنقه!»^(١).

وبلغ به حبُّ الانتقام من أنصار عليّ بن أبي طالب ، أنه كان يأمر بقتل كلِّ مَنْ دُعي عليّاً أو حسيناً أو سمي باسم طالبيّ، حتى إنّ البائسين من هؤلاء كانوا يأتونه فيعتذرون له عن أسمائهم. من ذلك أنّ رجلاً وقف للحجاج فقال له: أيها الأمير! إنّ أهلي عقّوني فسمّوني عليّاً ، وإني فقيرٌ بائس ، وأنا إلى صلة الأمير أخوّج!

وضُرب المثل بجور الحجاج. وكان الشيعة بصورة خاصة موضوع هذا الجور. وأحصي مَنْ قتلهم مدّة ولايته فكانوا مائة وعشرين ألفاً، وكان في سجنونه ساعة موته خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة! أما الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان ، فقد قال لبنيه ساعة حضرته الوفاة: «أكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد وأذلّ الأعداء.»^(٢) وحُفظت الوصيّة ، فأقرّه الوليدُ بن عبد الملك بعد موت أبيه على إمارته في العراقين والمشرق!

* * *

ولن نختم هذا الفصل قبل أن نروي حادثةً غريبةً في بابها ، كثيرةً في ما تحمل من خصائص الأمويّين والطالبين ، وأنصار أولئك وشيعة هؤلاء في وقتٍ معاً. وقد خطّت هذه الحادثة في التاريخ العربيّ صفحةً هي العظيمة كلّها

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٢ / ١٨١ و ٥٦ / ٣٥٢.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٣ / ٥٨، الإمامة والسياسة ٢ / ٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٦٣ / ١٧١.

لما حملت من معاني السمّ لدى أنصار عليّ بن أبي طالب ، وهي الصغار كلّها من حيث ما جمعت من صور الانحدار لدى أنصار الأمويّين.

وموجز هذه الحادثة: أنّ حُجْرَ بن عُديّ الكنديّ أبيّ إلّا أنّ يظلّ على حبه لعليّ بن أبي طالب ولما يمثله من عظمة الإنسان الحقّ. ولما كانت خلافة معاوية اضطرّ حُجْرَ إلى مبايعته ؛ أسوةً بمن حُمِلوا على المبايعة من الناس. غير أنّ ذلك لم يكن يضطرّه إلى التنكّر لعليّ أو إلى التبرؤ منه ولا سيّما وهو يسعى لأن يسير في الناس سيرة ابن أبي طالب نفسه ، فكان صادقاً صريحاً حرّاً محبّاً للسلم كارهاً للقتال ، راغباً في العدالة الاجتماعية إلى أقصى حدودها. ثم إنّ السلطان لم يكن في نظره أكثر من وسيلة لخدمة الجماعة على نحو ما كان في نظر استاذة العظيم عليّ بن أبي طالب، فإنّ كان كذلك ماشاه وإنّ اختلف إلى الفساد والمُنكر عاداه أشدّ عداً ، وسخط عليه أشدّ سُخطاً! وكان من الطبيعيّ لرجل كهذا الرجل أنّ يُنكر ما يلجأ إليه بنو أميّة من شتم عليّ على المنابر ، وأنّ يُعلن عن إنكاره عليهم ولو أدى ذلك إلى ما يريده به السلطان! ويروى أنّ المغيرة بن شعبه وقف ذات مرّة على منبر الكوفة يشتم عليّاً وأصحابه بعد موت الحسن. فما كان من حُجْرَ إلّا أن نهض وراح يغلظ له القول في وجهه ، ويطالبه بأنّ يُنصف الناس ويعدل فيهم ويؤدّي إليهم ما أخرج من عطائهم عوضاً عن أن يتابع سيرته المنكّرة في شتم عليّ وأصحابه. وآزر حُجْرَ في ذلك كثيرٌ من الناس ، فاضطرّ المغيرة إلى قطع حديثه والنزول عن المنبر.

وظلّ الأمر كذلك حتى مات المغيرة ، فخلفه زياد بن أبيه والياً على الكوفة من قبل معاوية. وكان زياد وحُجْرَ بينهما صداقة. إلّا أنّه حدث ما أفسد هذه الصداقة بينهما. وخلاصة ما حدث أنّ عريباً مسلماً قتل ذميّاً ، فلمّا رُفع الأمر إلى زياد بن أبيه رفض أن يقتض للذميّ القتل من المسلم، بل اكتفى بأن

يقضي بالدية. فنفر أهل القتيل من ذلك وأبوا قبول الدية وقالوا: كنا نُخَبِّرُ أَنْ الإسلام يسوّي بين الناس ، ولا يفضل عربياً على غير عربي. ولما كان حجر بن عدي مسلماً مؤمناً بنُبُل الرسالة التي يقول صاحبها: «الخلق كلهم عيال الله»^(١) و «الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» و «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»^(٢). ولما كان مؤمناً كذلك بضرورة العدالة التي استشهد علي في سبيلها ، بعد أن اتخذ منها دستوراً لحياته الخاصة والعامة ، فقد أنكر أشد إنكار هذا الأسلوب في القضاء ، وغضب حتى لا يستطيع السكوت، وأبى إلا أن يُعامل المسلم كغير المسلم لا فرقَ بينهما وهما من عيال الله. وسأندّه في هذه الغضبة معظم المسلمين من شيعة عليّ ، وراحوا يعدّون للثورة عدتها حتى يُعدّل فيساوَى بين الناس في كلّ حال ؛ وفقاً للحقيقة الإسلامية ولوصايا النبي والإمام. وخشي زياد وصحبه الفتنة ، فأمر بمعاقة القاتل مكرهاً . ثم كتب إلى معاوية يشكو حُجراً ومؤازريه من أنصار عليّ. فأجاب معاوية يأمر زياداً بأن ينتظر بحُجْر وبأصحابه أوّل حجة تقوم عليه وعليهم.

ويطول الحديث في ما كان بعد ذلك من أمر زياد وحُجر وأصحابهما ، وما كان من إنذار زياد وتحذيره ، ومن معارضة حُجر وجماعته لتصرفات زياد، ومقاطعتهم إياه في كلّ خطبة يخطبها. ثم كثرَت بين الجماعتين التناوشات ، إلى أن أمرَ زياد جماعةً من أهل الكوفة أن يأتوا حُجراً فيردّوه عن طريق المعارضة ويسيروا به في سبيل الموالاة. فعادوا إلى زياد يخبرونه بأنهم لم يتمكنوا ، ولن يتمكنوا ، من أن يزعموا في حُجْر عقيدةً يعتقدونها أو رأياً يراه. إذ ذاك أرسل زياد من يدعو حُجراً إليه ، فامتنع حجر. فأمر الشرطة

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٨٦ / ١٠ الحديث رقم ١٠٠٣٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ٤١١.

أن يأتوه به ، فامتثل الشرطة لأمره ، وكان بينهم وبين أصحاب حُجْرٍ قتال . ولكنهم لم يظفروا به وقد استخفى عنهم . فثقل الأمر على زياد ، فأخذ محمد بن قيس بن الأشعث وهو كبير أنصار حُجْرٍ ووجيه كندة ، فتوَعَّده بالسجن ، وبأنه سيمثل به ثم يقتله إذا هو لم يَسْعَ في أن يُؤْتى بحُجْرٍ إليه .

وأبى حُجْرٌ أن يمثل بصاحبه هذا ، فأقبل على زياد بعد أن أخذ له الأمان على نفسه ووعد بأن يُرسل إلى معاوية فيتقاضيا ! وماكاد حُجْرٌ أن يقف بين يدي زياد حتى أمر بسجنه ، ثم بطلب ذوي الرأي والقيادة من أصحابه . فاستطاع أن يقبض على بضعة عشر من هؤلاء بعد تنكيلٍ وتقتيل . ثم طلب من أهل الكوفة أن يشهدوا على هؤلاء بشهادةٍ تؤذيهم ، ولجأ إلى التهريب في طلب هذه الشهادة . فشهد بعضهم أنَّ حُجْرًا وأصحابه يوالون علياً ولا يوالون سواه ، وأنهم يعيرون عثمان بن عفان ويدقون معاوية بن أبي سفيان . غير أنَّ هذه الشهادة لم يكتفِ بها زياد ، فهو يريد لها أقطع وأشدَّ مَجْلَبَةً للمكروه . فشهد أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري بأن حُجْرًا وأصحابه «خلعوا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وبرّثوا من خلافة معاوية ، وهموا بإعادة الحرب»^(١) . ولمَّا كتب ابن أبي موسى هذه الشهادة طلب زياد إلى أهل الكوفة أن يمسوها ، فمضاها نحو سبعين منهم . ولم يتوزع زياد من الكذب والتزوير إذ أضاف إلى هذه الأسماء ، أسماء جماعةٍ لم يشهدوا ولم يكونوا حضوراً ، ومن هؤلاء شريح القاضي العادل الذي مرَّ ذكره في مكانٍ سابق ، والذي مالبث أن بعث إلى معاوية يبرئ نفسه من الشهادة المزورة ، بل ويشهد أنَّ حُجْرًا رجل صالح من خيار الناس .

(١) تاريخ يعقوبي ٢ / ٢٣١ ، البداية والنهاية ٨ / ٥٢ .

وسيقَ حَجْرٌ وأصحابُه إلى معاوية وقرأ كتابَ زياد إليه وشهادة الشهود في حُجْر، ثم كان أن قُرئ الكتاب والشهادة على الناس. ونصح بعض الناس إلى معاوية أن يكتفي بحبسهم ، وأشار آخرون عليه بأن يفرّقهم في قرى الشام فلا يعودوا إلى العراق. واستأني معاوية وكاتبَ زياداً في أمرهم ، وفي جملة ما قاله زياد: إن كانت لك حاجةٌ بالعراق فلا تردّهم إليّ^(١).

وبعد زمنٍ قليل أرسلَ معاوية إلى حَجْر وأصحابه من يعرض عليهم أن يتبرّأوا من عليّ بن أبي طالب ويلعنوه ، ويتولّوا عثمان بن عفّان ، فمن فعل ذلك منهم بات آمناً على حياته ومن أبى منهم قُتل.

وعُرضت على هؤلاء البراءة من عليّ فأبوا بعنادٍ وإصرار ، فراحوا يقتلونهم واحداً واحداً في قصّةٍ طويلةٍ تروىها كتبُ التاريخ بدموع وآهات. وفي تفاصيلها ما يرفع من قيمة الإنسان ومن شرفه ، إذ يأبى أن يتبرّأ من ضميره ولو لدقائق معدودات أمام حفرة الموت ، وكان جماعة معاوية قد حفروا الكلّ من رهط حَجْر بن عديّ حُفرة بمقياس جسمه أمام عينيه يُقتل ثم يُطرح فيها إن لم يتبرّأ من عليّ. ومما جاء في رواية مقتل هؤلاء أن اثنين هالهما ما رآيا من «السيوف المشهورة والقبور المحفورة والأكفان المنشورة»^(٢) فطلبا أن يحملا إلى معاوية فإنهما يريان رأيّه في عليّ وعثمان كما أظهرّا. فحملا إلى معاوية فيما قُتل الآخرون. أما أحدهما فقد أظهر البراءة من عليّ بلسانه دون قلبه ، وأما الآخر فإنه لما كان أمام معاوية وجها لوجه ، امتدح عليّاً وأصحابه وشمّم معاوية وأصحابه ، وأسمعه في عثمان ما لا يطيق.

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٢ .

(٢) هذه الكلمات من وصف حَجْر بن عدي لما أعدّ له ولصحبته.

تاريخ مدينة دمشق ٨ / ٢٦ .

فأمر معاوية بأن يُساق إلى زياد بن أبيه ، ثم بعث إلى زياد يأمره بأن يقتله قتلَةً لم يُقتلها أحدٌ في الإسلام. فما كان من زياد إلا أن أمرَ به فدفن حياً! وأما حُجْر بن عُدَيّ فقد قال حين قُدّم إلى السيف: «الله بيننا وبين أمتنا ، شهد علينا أهل العراق وقتلنا أهل الشام!»^(١).

لقد كان الأمويون من أبرز من يمثلون الملوك في التاريخ وميلهم إلى الحكم الفردي الاستبدادي ، وخصائصهم في الاستئثار والاحتكار ، وجعل الأرض والناس منهباً لهم وعبيداً. وكان علي بن أبي طالب وبنوه الأولون من أبرز من يمثلون إنسانية التفكير ، وخيرية العمل وديموقراطية الحكم ، وإباحة الأرزاق للشعب وحده ، دون الوجهاء والزعماء والمتنفذين والمترهلين. ومن طبيعة الفريقين كانت طبيعة أنصارهم ومحبيهم. فمال الوجهاء والمستنفعون إلى بني أمية؛ طمعاً بما يضربون إليه من مغنم مادية ومكاسب معينة. ومال معهم من الناس خلق كثير. لأن الناس في ذلك الزمان لم يكونوا قد بلغوا المستوى الذي يمكنهم من معرفة ما ينفعهم أو يؤذيهم في المدى الطويل البعيد ، فإذا هم يميلون إلى ما يحسبونه نفعاً لهم ، وما كان نفعاً إلا في المدى القصير القريب ، فلا يغيب عنهم رجلٌ خذله وأنكروه كابن أبي طالب ، ولا تظهر لهم حقيقة من والوه ونصروه من خصومه ، حتى يندموا على ما فعلوا ندماً كثيراً ، ولات ساعة مندم... فقد غاب وجه العدالة الاجتماعية الصافية ، وظهرت عليها وجوه من المكر والحيلة والجور والحكم الاستبدادي المقيت! ومال إلى ابن أبي طالب وبنيه أنصارٌ ومحبتون ، كانوا من طبيعتهم ومن خلقهم ، فظلوا على الحق وظلموا ولقوا من الحكام والنافذين وأنصارهم

(١) تاريخ مدينة دمشق ٨ / ٢٣ ، تاريخ الطبري ٤ / ٢٠٣ وفيه: شهد علينا الأعداء والأطناء...

الأغبياء كلُّ مُرٍّ من العيش ، وكلُّ مظلمٍ قاتمٍ كليلالي البؤس وسُخْبِ الشقاء الطويل ، واستشهدوا في هذه الطريق مجردين إلّا عن رغبتهم في العدالة الاجتماعية أسوةً بأستاذهم العظيم علي بن أبي طالب.

فكما سمّت بهذه النفوس إلى الآفاق الصافية من التجرد والشهامة والحنان والرغبة في ديموقراطية الحكم وعدالة النظام نصرة علي بن أبي طالب وبنيه السابقين، كذلك هبطت بأولئك الوجهاء إلى الأغوار المردولة من الأنانية والروح التاجرة والقسوة الفاجرة ومساندة الاستبداد والأثرة نصرة بني أُمّة!

* * *

وأشير هذه المزة أيضاً إلى «آراء» بعض الكتاب العرب في أحوال تاريخنا ورجاله ، دون أن نردّ عليها ؛ لأنّ في ما ذكرناه بهذا الفصل ردّاً كثيراً. وقد اخترتُ محمد كرد علي نموذجاً لهؤلاء الكتاب ، واخترتُ رأيّه في الأمويّين وأنصارهم ؛ نموذجاً لآرائهم في معنى البطولة والعظمة.

يقول محمد كرد علي: في معاوية وفي السّفّاحين الذين بعثهم لتقتيل الناس ، ونهب أرزاقهم وتهديم دورهم ، وذبح أطفالهم وتحريق نسائهم ، توفيراً للمال ينفقه على نفسه وعلى أنصاره ثمّ على جنوده الذين يُكثر عطاءهم من دم الملايين ليحافظوا عليه وعلى ابنه يزيد ونسيبه مروان وأعوانهم النافذين المجرمين ، ويساعدوهم على قتل علي بن أبي طالب والحسين بن علي وعمار بن ياسر وحُجّر بن عدّي وغيرهم من شرفاء الخلق: «... وأهمّ ما قام به - معاوية - تنظيم الجيش فضاءعَ عطاءه... ووُفّق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم: زياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة ، والضّحّاك بن قيس ، ومسلم بن عقبة ، وبسر بن أرطاة!».



ينعت محمد كرد علي هؤلاء السفّاحين بأنهم «أكبر رجال الإدارة وأعظمهم» في كتاب ألفه وأسماه «الإسلام والحضارة العربية» ومن حقّه أن يُظهر براءة الإسلام من أمثال هؤلاء ، وبراءة كلّ حضارةٍ عربيّة كانت أو غير عربيّة منهم. يقول هذا القول العجيب دون أن يحاسب نفسه عمّا يقول ، ودون أن ينتصف للقرن العشرين من ظلّلمات التاريخ ودون أن يأبه لهذه العبارة التي ذكرها في الصفحة التالية إذ قال: «إنّ أحد الصّلحاء سئل أيّام معاوية كيف تركتّ الناس؟ فقال: تركتهم بين مظلومٍ لا يُنتصف وظالمٍ لا ينتهي!». ولكن لماذا يحاسب نفسه وينتصف للقرن العشرين ، ويأبه لهذه العبارة وهو الذي يعود فيعلّق على رأي صاحبها، قائلاً: «... كأنه يريد أن تكون إدارة المُلْك على عهد معاوية بن أبي سفيان كما كانت على عهد عمر بن الخطّاب ، وفاته أن لكلّ عصرٍ طريقته ورجاله»^(١).

وفات الناس أن أكثر الباحثين في موضوعات الحضارة في أيامنا هذه هم من العصور الخوالي!

الذين قتلوا عثمان!

- أئما عامل لي ظلم أحداً قبلتني مظلّمه فلم اغتيزها
فأنا ظلمته! (١)
عمر بن الخطاب
- وصاذر ابن الخطاب عمرو بن العاص ، وأبا هريرة ،
وخالد بن الوليد ، وزد الأموال في بيت مال الشعب.

لو تجرّد المرء عن كلّ هوىٍّ مع الإسلام أو عليه ونظرَ في الأمور نظراً
إيجابياً خالصاً، لو ثِقَ أن الإسلام إنما كان باعثاً على يقظةٍ عظيمةٍ بعد غفلة عاش
فيها العرب ، فظلّوا ناسين منسيين أجيالاً طويلاً. وأنه ما تمكّن من هذا البعث
إلا لأنه كان ثورةً اجتماعيّةً في الدرجة الأولى. أمّا أبرز ما في هذه الثورة من
الناحية الاجتماعية فذلك النظر الكثير الذي نظره الإسلام في حال الطبقاتِ
غنيّها وفقيرها ، عزيزها وذليلها ظالمها ومظلومها ، فاجتث من أسباب هذا
التفاوت ما تقبله المرحلة التاريخية التي كان فيها يومذاك وما يقبله الإطار
المكانيّ كذلك ، وخفّف من وطأة الاستغلال على العرب ما هو في نطاق
زمانه ، ودربهم على أن يشعروا بأنهم أخوة متعاونون متكافلون في مجتمع
كبير يضمّهم إلى غيرهم من الشعوب، ويجعل لواحد منهم من الفضل على الآخر
بمقدار ما يعمل وما يُحسن.

ولو تجزّد المرء عن كلّ هوىٍّ مع المسلمين أو عليهم في عهدهم الأول ، ونظر في أحوالهم نظراً إيجابياً خالصاً ، لو ثِقَ أنّ ذلك العهد القصير إنما كان من أغنى عهود الإنسانية في شرف النفس والضمير ، وفي المشاعر الحية التي تجعل من الإنسان الفرد وحدةً كاملة تجسّ وتفكر وتقول وتعمل ، فلا تجد العمل والقول والتفكير والإحساس إلّا وحدةً لا تتجزأ ، ثم في الإخلاص لمبادئ تلك الثورة الاجتماعية إخلاصاً يبلغ حدّ التضحية في أغلب الأحيان .

ولمّا كانت قضية عثمان مرتبطة أشدّ ارتباطاً بالجانب الاجتماعي من أحوال المسلمين في عهده وقبل عهده ، فقد بات من العبث أن نحاول إدراك الأسباب الحقيقية في الفتنة ، وفي ما كان لها من ذيولٍ وما استتبعث من مآسي ، خارج هذا الجانب الاجتماعي ، كما أنّه من العبث ومن الكذب على التاريخ والحقيقة أن نحصر أسباب تلك الفتنة وتلك المآسي في عوامل دينية خالصة . فإنّ وقائع التاريخ ، وشروط الحياة ، وأحوال النفوس ، تدلّنا على أنّه ليس ثمة من حركةٍ عامّةٍ قامت باسم دينٍ من الأديان أو ضده إلّا وكان لها مضمونٌ اجتماعي سواء أكان هذا المضمون واضحاً بيّناً أو مطوّياً خفياً .

في السنوات الأولى لبدء الدعوة الإسلامية يبرز أمرٌ شديد الجلاء ، هو أنّ أكثرية المسلمين كانوا من الطبقات المغلوبة على أمرها في الجاهلية ، وأنّ أشدّهم حماسةً للدعوة الجديدة كانوا المرهقين والمستضعفين والمظلومين ، إلى جانب نفرٍ متّين مذهبهم الله بنور الوجدان فأنصفوا وساندوا محمداً وهم غير مستضعفين ، كما يبرز أمرٌ آخرٌ شديد الجلاء أيضاً ، هو أنّ أكثرية خصوم الدعوة كانوا من الطبقات الغالبة المستغلة التي يسوؤها أن تتبدّل الحال ، فتُحرّم أمجادها وما هي فيه من استعلاء المترفين ، وأنّ أشدّ الناس حماسةً ضدّ الدعوة الجديدة كانوا أكثرهم مالاً وجاهاً ونفوذاً واستبداداً . وفي موقف

النبي من أولئك الذين جعلوا «مَالَ اللَّهِ دُولاً وِعِبَادَ اللَّهِ خَوَلاً» وبَطَرُوا وَأَنفُوا أَنْ يَكُونُوا نَاساً كَسَائِرِ النَّاسِ لَهُمْ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ. وفي مؤاخاة النبي لأولئك المستضعفين الذين أرادهم أَنْ يَكُونُوا بَشَرًا يَحْيُونَ فِي الْأَرْضِ وَيُرْزَقُونَ مِنْ خَيْرَاتِهَا ، لَا آلَاتٍ يَمْلِكُهَا أَسْيَادُ تَافَهُونَ وَيَسْتِيرُونَهَا وَفُقَ مَا رَبَّهُمْ ، وفي حُبِّهِ واحترامه للعاملين المنتجين ، في كُلِّ ذَلِكَ مَا يَفْسِّرُ لَنَا مَوْقِفَ الْمُضْطَهَّدِينَ مِنْ دَعْوَتِهِ وَمَوْقِفَ أَصْحَابِ الرِّجَالِ. فَقَدْ هَالَهُ هَؤُلَاءِ وَطَابَ لِأُولَئِكَ مِنَ النَّبِيِّ أَنْ يَقُولَ: «النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ»^(١) ، وَأَنْ يَرْفَعَ مِنْ شَأْنِ الْعَبِيدِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُظْلُومِينَ وَيَسَاوِيَهُمْ بِالْأَسْيَادِ فِي كُلِّ حَقٍّ وَكُلِّ وَاجِبٍ.

وفي فصلٍ عقدهناه بعنوان «قبل الإمام» إيضاحٌ موجزٌ لحقيقة الإسلام من الناحية الاجتماعية ، ثم لموقفه الثوري من نَظْمِ عصره وأحوال المستبدين والوجهاء والمستضعفين والفقراء ، فَإِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ إِلَيْهِ. وَخِلَاصَةُ ذَلِكَ :

إِنَّ النَّبِيَّ طَلَعَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ ذَلِكَ بِمَا لَمْ يَعْرِفُوهُ مِنْ قَبْلُ ، فَمِنْ سُنَنِ رِسَالَتِهِ أَنَّ الْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ سَوَاءٌ وَكَذَلِكَ الْعَرَبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ وَلَا فَضْلَ إِلَّا بِالْعَمَلِ. وَأَنَّ الْمُسْلِمَ وَغَيْرَ الْمُسْلِمِ سَوَاءٌ كَذَلِكَ ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَهُوَ مُسْلِمٌ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ. وَفِي قَلْبِهِ لِذَلِكَ كَانَ خَضَمًا لِكُلِّ مَنْ آذَى ذِمَّتَهُ أَوْ أَسَاءَ إِلَى إِنْسَانٍ ، وَالْإِنْسَانُ أَخُ الْإِنْسَانِ أَحَبُّ أُمَّ كَرِهَ. وَمِنْ سُنَنِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْأَسَاسِيَةِ رِعَايَةُ الْحَقِّ وَانْتِهَاجُ كُلِّ سَبِيلٍ إِلَى الْعَدَالَةِ الاجتماعية، فَلَا ظَالِمَ فِي النَّاسِ وَلَا مُظْلُومَ وَلَا قَاهِرَ وَلَا مَقْهُورَ ، وَلَا غَنِيَّ مُتَخَمٍّ وَلَا فَقِيرَ مُحْرَمٍ ، وَمَا آمَنَ - فِي مَذْهَبِ مُحَمَّدٍ - مَنْ بَاتَ شَبَعَانً وَجَارَهُ جَائِعٌ! وَالْمَالُ فِي سِتْنَةِ مَالِ الْأُمَّةِ.

(١) المبسوط للسرخسي ٢٣ / ٥ ، مسند الشهاب ١ / ١٤٥ ، كنز العمال ٩ / ٣٨ الحديث ٢٤٨٢٢ و ٢٤٨٢٣.

وقد عاش النبي هذه المبادئ الرفيعة لا يحيد عنها قيد شعرة. وكثيراً ما كان يأخذ الأموال التي في قبضة الأغنياء فيوزعها على المغوزين توزيعاً عادلاً. وكان يمنع على عماله أن يقبلوا هديةً أو يرتشوا بدرهم ، ويقدم الضعيف على القوي في كل ما يعرض له من شؤون وحاجاته ، ويسقه الظالمين ويأخذ على يدهم ويجعلهم عبرة للمعتبرين ، ويحط من شأن المنافقين ، ويدعو الناس جميعاً إلى التعاون في الاقتصاد تعاوناً تخف به عنهم وطأة العوز والحاجة.

وقد أثرت سيرة النبي بأصحابه وعماله تأثيراً عظيماً ، حتى لثرى عجباً في أخبار أولئك الذين نشأوا في الجاهلية على سنة آبائهم في أن يُجيزوا لأنفسهم الاستثناء بكل ما طالته أيديهم ويطلبوا المزيد ، فإذا هم من أعدل الناس ومن أشرفهم نفوساً تحت عين محمد وعلى نور مسلكه. فهذا عبد الله بن رَوَاحَة يبعثه النبي إلى خيبر وفيها عشرون ألف مقاتل ليقدر عليهم تمرهم ، فيحاول الخيبريون أن يرشوه فلا يشتد عليهم في ما يقدر من تمورهم ، فيستأثروا به وحدهم دون فقراء الناس ، فإذا هم يحملون إليه حلياً من حلي نسايتهم فيقولون: هذا لك وخفف عنا وتجاوز في ما تقدر. فيقول عبد الله: يا أهل خيبر! إنكم لمن أبغض خلق الله علي ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم وأظلمكم. وأما ما عرضتم علي من الرشوة فإنها السحت وإننا لا نأكلها فيقول أهل خيبر: بهذا قامت السماوات والأرض! (١)

وتوفي النبي والناس بين وجهه يحزن إلى وجاهته في الجاهلية فلا يستطيع إلى العودة إليها سبيلاً ، وراضٍ مطمئن إلى إنسانية هذه الثورة وإلى نتائجها

العملية يجاهد في سبيلها ولا يتطلع إلى الوراء.

واستخلف أبو بكر الصديق فظهرت في أيامه نتائج الحنين إلى الوجاهات التي حطّمها الإسلام، كما ظهرت نتائج الرضى والاطمئنان. فثار وجهاء القبائل مرتدين فحاربهم أبو بكر بالراضين المطمئنين. فتغلب عليهم وقضى على أحلامهم في العودة إلى ما اعتادوه من حياة الاستغلال والنفوذ والحصول على العيش بدون أي نصيب من الجهد. وسار أبو بكر في الناس سيرة ركزت في قلوبهم وأذهانهم كثيراً من معاني الخير في رسالة محمد. ونهَجَ منهجاً لا يختلف عن منهج أستاذه الرسول فكان يقول: «فإن أحسنتُ فأعينوني وإن أسأتُ فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. ولكم عليّ إذا ما وقع في يدي - المال - ألا يخرج منها إلا في حقّه. ولكم عليّ ألا أقيكم في المهالك. وإذا رغبتُم في البعوث فأنا أبو العيال!»^(١).

أجل إنه أبو العيال. وقد بلغ به صدقُ هذا الشعور حدّاً كان معه يحلب للضعفاء متن حوله أغنامهم، حتى إذا تولى شؤون الخلافة سمع ابنةً لبعض هؤلاء تقول: اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا! فقال لها في الحال: بلى لعمرى لأحلبتها لكم^(٢)! وظلّ يحلبها. أمّا مسكنه المتواضع فقد أبى أن يتركه بعد أن ولي أمر الجماعة، كما أبى أن يغيّر شيئاً من محتوياته القليلة، بل إنه زاد على ذلك فكان يوزّع ماله الخاص على الناس، فلا يستبقي لنفسه منه شيئاً. وكان يأمر ولاته بمثل هذا الأمر الذي وجهه إلى خالد بن سعيد: «فثبّت العالم، وعلم

(١) شرح نهج البلاغة ج ٦ ص ٢٠ وج ١٧ ص ١٥٩، الدر المنثور ج ١ ص ٢٢١، الثقات لابن حبان ج ٢ ص ١٥٧،

تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٥٠.

(٢) كنز العمال ج ٥ ص ٦١٠ الحديث ١٤٠٧٧، تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٢١، الطبقات الكبرى ج ٣ ص ١٨٦.

الجاهل ، وعاتب السفيه المترف»^(١). وكان يهدد بالعزل كل من تُدَاخِلُه نخوةُ الشيطان من الولاة والقواد. ومما قاله ليزيد بن أبي سفيان لما وجهه إلى بعض البقاع السورية: «إني قد وليتك لأبلوك واجزبك واخرجك ، فإن أحسنت رددتُك إلى عملك وزدتُك ، وإن أسأت عزلتُك!»^(٢).

ولم تطل أيام أبي بكر ، فخلفه عمر بن الخطاب. والناس آخذون بالعود على أن الخلافة إنما قامت لمصالحهم وللاتتصاف من الظالم ، ثم لإشاعة العدالة في كل أرض. كما أنهم آخذون بالعود على أن الإسلام ثورة مستمرة لا يمكن أن يوقف مجراها أو تُحوّل عن طريقها. وفي عهد عمر اتسعت رقعة الدولة ، فاتسعت أعمال الإدارة وعظمت المهام ، وكثرت بالضرورة عدد الولاة والعمال وبعثت مراكزهم عن عاصمة الخلافة. غير أن ابن الخطاب كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته - كما يقول الجاحظ - كعلمه بمن بات معه في مهايدٍ واحد وعلى وسادٍ واحد. فلم يكن له في قطرٍ من الأقطار ولا ناحية من النواحي عاملٌ ولا أمير جيش إلا وعليه له عينٌ لا يفارقه ما وجدّه. فكانت ألفاظ من بالشرق والمغرب عنده في كل مُنْسَى ومُضْبَح. وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله وعمّالهم. وكان يشيع عماله وهو يقول لهم: «إنما استعملتكم لتقضوا بين الناس بالحق وتقسموا بينهم بالعدل»^(٣).

وكان عمر يشير المظلوم على ظالمه حتى يجعل طلب الاقتصاص من الظالم واجباً من واجبات المظلوم، فكان يقول: «مَنْ ظَلَمَهُ عاملُهُ بمظلمةٍ فلا إذن له عليّ إلا أن يرفعها إليّ حتى أقضه منه». فيقال له: أرايت إن أذب أميرٌ

(١) تاريخ مدينة دمشق ج ١٦ ص ٨٣.

(٢) كنز العمال ج ٥ ص ٦١٨، الحديث رقم ١٤٠٨٩.

(٣) تاريخ الطبري ٣ / ٢٧٣.

رجلاً من رعيته أتقصه منه؟ فيقول: «وما لي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه!»^(١) ويروى أن رجلاً قال مرةً لعمر: إنَّ عاملك فلاناً ضربني مائة سوط. فسأل عمر العامل قائلاً: فيم ضربته؟ فأجاب العامل بما لم يقنع عمر، فما كان منه إلا أن قال للرجل: قم فاقصص منه!^(٢) وكان عمر يقول: «أيتما عاملٍ لي ظلم أحداً فبلغتني مظلُمته فلم أغيرها فأنا ظلمتُه!»^(٣).

وحرم عمر الهدايا يؤتى بها إلى العمال كما حرمها النبي. وكتب مرةً إلى عماله يقول: «أما بعد، فإياكم والهدايا فإنها من الرشا!»^(٤) وكان لا يستعمل رجلاً لمودةٍ أو لقربة، وكان يقول: «مَن استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر كان مثله!»^(٥) واشتدَّ عمرُ بن الخطاب على القرشيتين لما يعرف من ميل الأكرية فيهم إلى الاستئثار ومن حُبهم للثروة، فحبسهم في أماكنهم لا يخرجون منها ولا يطلبون مالاً ووجاهة!

ولما كان عمر على مثل هذه الشدة فقد كان معظم عماله على سيرته إلا من أبى خدمة الحق؛ فإنَّ عمر لا يتلكأ في عزله عند ذاك. كما كان بعض هؤلاء العمال يخطبون الناس بما يخطبهم به ابنُ الخطاب نفسه، ويُضمر من الميل إلى رعاية العدالة مثل ما يُضمر مولاه. فهذا عمير بن سعيد عاملُ الخليفة الثاني على حمص يعتلي منبراً ويخطب الناس يقول: «وليس شدة السلطان قتلاً

(١) مسند أحمد ١ / ٤١، المستدرک ٤ / ٤٣٩، وفيه أن السائل عمرو بن العاص، السنن الكبرى ٩ / ٤٢.

(٢) كنز العمال ١٢ / ٦٥٩ الحديث رقم ٣٦٠٠٧ الطبقات الكبرى ٣ / ٢٩٤.

(٣) كنز العمال ١٢ / ٦٥٩ الحديث رقم ٣٦٠٠٨، الطبقات الكبرى ٣ / ٣٠٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٢ / ٩٣.

(٥) كنز العمال ٥ / ٧٦١، وفيه: فهو مثله الحديث رقم ١٤٣٠٦.

بالسيف ولا ضرباً بالسوط ولكن قضاءً بالحق؟»^(١).

وكيف يرى شدة السلطان بالقتل والضرب من يسخط على نفسه إن هو آذى إنساناً بكلمة قالها في غير مكانها. فهذا عمير يخلي حمص ، ويقبل على ابن الخطاب فيسأله عما عمله فيقول: بعثتني حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهله فوليتهم جباية فيثهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به. فيقول عمر: فما جئتنا بشيء؟ فيقول: لا! فيقول عمر: جددوا العمير عهداً. فيقول عمير: لا عملت لك ولا لأحد بعدك ، والله ما سلمت بل لم أسلم. لقد قلت لنصراني: أخذك الله! فهذا ما عرضتني له يا عمر! وإن أشقى أيامي يوم خلقت معك يا عمر!^(٢).

وكان عمر يقول للعامل العادل: «أنت أخي وأنا أخوك!» ومن كانت هذه حقيقته فإنه يأبى طبعاً أن يستبد بالرأي والعمل دون سواه من الناس ؛ ذلك لأن غايته أن يعمل فيفيد لا أن يقال إنه عمل. هكذا كان ابن الخطاب يطلب المشورة في كل ما يحتمل الخطأ والصواب. وطالما استنجد بعلي بن أبي طالب يستشير فيشير عليه. وأخباره في الاستعانة بعلي مشهورة. وكذلك أخباره في استشارة أصحابه جميعاً ، وقد قال يوماً لهم: أشيروا علي ودلوني على رجل أستعمله في أمر قد دهمني فقولوا ما عندكم ، فإني أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان فيهم هو أميرهم كان كأنه واحد منهم! فقالوا: نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثي ؛ فنشير على أمير المؤمنين به. فأحضره وولاه ، فوفق في عمله ، فشكر عمر لمن أشاروا عليه

(١) الطبقات الكبرى ٤ / ٣٧٥ ، تاريخ مدينة دمشق ٤٦ / ٤٨٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٦ / ٤٩٠ ، مجمع الزوائد ٩ / ٣٨٣ ، شرح نهج البلاغة ١٢ / ١١٥ ، كنز العمال ١٣ / ٥٥٨ الحديث رقم ٣٧٤٤٥.

بولاية الربيع!»^(١).

ولطالما شهد عمر بن الخطاب بما كان لمشورة علي وآرائه من فضلٍ عليه في تدبير الأمور ومواجهة الصعاب. أو ليس هو القائل: «لولا عليّ لهلك عمر!»^(٢) و«لا بارك الله في معضلة لم تحكم فيها، يا أبا الحسن!»^(٣).

ويعرف الناس نصائح عليّ لعمر في الشدائد خصوصاً وفي الوقائع الخطيرة، منها هذه النصيحة التي توجه بها إلى الخليفة الثاني قبيل وقعة «نهاوند» نثبتها هنا شاهداً على مقدار ما كان لعليّ من عظيم الشأن في معاونة عمر، ثم لما فيها من منطق عليّ السديد ونفاذ بصيرته في كل معضلة من المعضلات التي يواجهها رجال الدولة وقواد الجيوش في الأزمات. قال عليّ يخاطب عمر، وكان عمر عازماً على أن يسير بنفسه بالجيش إلى محاربة العجم في وقعة نهاوند:

«إنك إن أشخصت أهل الشام سارت الروم إلى ذراريهم. وإن سیرت أهل اليمن خلّفت الحبشة على أرضهم. وإن شخصت أنت من هذا الحرم انتفضت عليك الأرض من أقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما قدامك. وإن العجم إذا رأوك عياناً قالوا: هذا ملك العرب كلّها، فكان أشدّ لقتالهم. اكتب إلى الأمصار يشخص الثالث منهم ويقيم الثلثان!».

فقال عمر: هذا هو الرأي!^(٤) وعمل بنصيحة عليّ. وكان هم عمر ألا يفتح للناس باباً للشكوى وألا يغني أفراداً ويفقر أمة.

(١) كنز العمال ٥ / ٧٦٣ الحديث رقم ١٤٣١١، الطبقات الكبرى ٦ / ١٥٩.

(٢) ينابيع المودة للقندوزي: ١٧٢/٢، نهج السعادة: ١٤١/٧.

(٣) نهج السعادة: ١٤١/٧.

(٤) مناقب ابن شهر آشوب ١ / ٤٠٦، شرح نهج البلاغة: ١٠٠/٩، الأخبار الطوال للدينوري: ١٣٤، وفيها:

يشخص الثلث.

لذلك نراه يصادر عمّاله الذين كانوا يستأثرون بشيء من مال العاقّة، أو يؤثرون قوماً بالعطاء دون قوم. من ذلك أنه صادر عمرو بن العاص عامِلَه على مصر حين بلغه أنّ عمراً يقتني من المتاع والآنية والرقيق والخيل وغيرها، ممّا لم يكن له حين وليّ مصر، فادّعى عمرو إدّعاءً لم يقتنع به ابنُ الخطّاب، فصادره وأخذ منه كلّ ما فاض عن حاجته. وصادر كذلك أبا هريرة عامِلَه على البحرين، والنعمان بن عدّي عامِلَه على ميسان، ونافع بن عمرو الخزاعي عامِلَه على مكّة، ويعلي بن منيّة عامِلَه على اليمن، وسعد بن أبي وقاص عامِلَه على الكوفة، وخالد بن الوليد عامِلَه على الشام. واشتدّ على خالد بن الوليد، وكان عمر قد أمره بأن يجعل المال من نصيب أهل الحاجة، فأعطاه خالد أصحاب النفوذ وأصحاب الوجاهة وأصحاب الفصاحة والشاعرية، فغضب عمرُ على خالد؛ ودعا إليه الذين حصلوا على المال فأخذه منهم ورده في بيت مال الأمة.

وكان عمر يُطعم أهل الحجاز بمال الشام وأهل الشام بمال الحجاز إذا دعت الحاجة إلى مثل هذا التدبير. من ذلك ما حدث أيام المجاعة في عام الرمادة، إذ رأى عمرُ أن الحجازيين يهلكون جوعاً، فأمر عمّاله في مصر والشام والعراق أن يوافوه بكلّ ما في بلادهم من مطعم، فأتته القوافل تحمل المأكّل وغيرها من الضرورات، فوُتّع على أهل الحجاز وأنقذهم من الهلاك جوعاً، وكان قد قطع الطعام عن نفسه أسوةً بالناس.

ولم يكن عمر يُقيم وزناً لمظاهر العبادة إلا إذا رافقها العمل الاجتماعي الصالح، بل إنه كثيراً ما كان يقيم وزناً لعمل المرء، وإنّ هو لم يتعبّد ولم يُراعِ السنّة العاقّة في أشكال العبادة. وإليك هذه الرواية نسوقها دليلاً على موقف عمر الصريح هذا:

شهد عند عمر شاهدٌ مرّةً في إحدى القضايا وكانت الشهادة ضرورية للوصول إلى الحكم الصريح. فلما مثل الشاهد بين يديه سأله عمر: أثبتني بمن

يعرفك فأتاه الشاهد برجل ، فأثنى الرجل عليه كثيراً ، فقال له ابنُ الخطاب: أنت جازُه الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال الرجل: لا! قال عمر: كنتَ رفيقه في السفر الذي يستدلُّ به على مكارم الأخلاق؟ قال الرجل: لا! قال عمر: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال: لا! قال عمر: أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن يُخفي رأسه تارةً ويرفعه أخرى؟ قال الرجل: نعم! فقال عمر: اذهب ، فلستَ تعرفه! ثم قال للشاهد: اذهب فائتني بمن يعرفك! (١)

وكان عمر يسعى أبدأً في تحطيم الفوارق بين الناس سواءً أكانت فوارق مادية أو وراثية. وقد خطبَ مرّةً يقول: إنَّ رأيتُم في أعوجاجاً فقوموني. فأجابه رجلٌ من العامة قال: لو وجدنا فيك أعوجاجاً لقومناه بحدّ سيوفنا. فنظر إليه عمر وقال: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقومه بحدّ سيفه! (٢)

أما قصة «إضرِب ابن الأكرمين» فأشهر من أنْ مضطَرَّ إلى ذكرها في هذا المقام. وغيرها من القصص المعتبرة عن معنى الولاية أيام عمر.

وإليك الآن بعض أخباره التي تدور جميعاً حول محورٍ واحدٍ من الاهتمام بالناس المتساوين بالحق ، والواجب في دولة ابن الخطاب القائل: «لو ماتت شاةٌ على شاطئ الفرات لظننتُ أنَّ الله سألني عنها!» (٣) والقائل: «لا يقعدن أحدُكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني! فقد علم أنَّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضةً ، وإنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض!» (٤).

* * *

(١) المجموع ، للنووي ٢٠ / ١٣٤ ، سبل الإسلام ، للعسقلاني ٤ / ١٢٩.

(٢) القول منسوب لأبي بكر.. ولم نعر على من نسبته إلى عمر.

(٣) الجرح والتعديل للرازي ١ / ١٩٣ وفيه لو هلكت شاة على شاطئ الفرات ضياعاً ظننت أن الله عز وجل سيسألني عنها.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ٧٠ / ١٥٩ والحديث لأُم الدرداء..

رأى عمر في السوق إبلاً سماناً فقال: لمن هذه الإبل؟ فقالوا له: لعبد الله ابن أمير المؤمنين. فقال: يا عبد الله بن عمر! بخ بخ^(١)، ابن أمير المؤمنين!! فسعى ابنه عبد الله إليه فقال له عمر: ما هذه الإبل؟ قال عبد الله: إبلٌ اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون. فقال له عمر: يقال ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل أمير المؤمنين. يا عبد الله بن عمر! اغدُ على رأس مالك واجعلُ باقيه في بيت مال المسلمين^(٢) ففعل ذلك عبد الله، وضمَّ جميع أرباحه إلى بيت المال.

وشدة عمر بالحق على أهله وذويه من خصاله المشهورة. فقد كان يجمعهم لدى كل مسألة ينهى الناس عنها قائلاً لهم: إني نهيتُ الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظراً الطير إلى اللحم، وأقسم بالله، لا أجد أحداً منكم فعّله إلا أضعفتُ عليه العقوبة!

ومن أخبار عمر أخبارٌ تزخر بالرفق بالناس. من ذلك: أنه استعمل رجلاً من بني أسد على عملٍ، فجاء الرجل يأخذ عهده ليذهب إلى حيث ولّاه، فلمّا كان بين يديه أقبل أحد أولاد عمر، فأخذه عمر فقبّله بحنان، فقال الرجل الأسدي: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبّلتُ ولداً قط! فقال عمر: فأنت والله بالناس أقلّ رحمةً، هاتِ عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً!^(٣) واسترد عهده ودفع الرجل الأسدي عن ولاية الناس.

ولكنّ عطف عمر على أبنائه، هذا العطف لم يكن ليحمّله على أن

(١) بخ بخ: بوزن بل، و (بخ) كلمة تُقال عند المدح والرضا بالشيء، وتكرّر للمبالغة، فإن وصلتْ خففتْ ونوّنتْ فقلتُ: بخ بخ. الصحاح: ٤١٨/١، مادة «بخخ».

(٢) السنن الكبرى ١٤٧/٦.

(٣) السنن الكبرى ٤١/٩، كنز العمال ٥/٧٦٧ الحديث رقم ١٤٣٢٦.

يخالف عدالة الإسلام في شيء مما يعني هؤلاء الأبناء. وقد رأى الناس في عهده أمراً عجباً كان تجسيمياً لهذه العدالة وما تقتضيه. فإن أبا لؤلؤة ما كاد يغدر بعمر بن الخطاب حتى سار عُبيد الله بن عمر إلى بيت الهرمزان الفارسي فوجده فيه فقتله في الحال. وكانت حجتة في ذلك أنه عليم بأن أبا لؤلؤة كان على صلة وثيقة بالهرمزان ، وكان كثير الدخول إلى داره كثير الخروج منها ، فهما إذاً متفقان على قتل عمر. فلما كان عمر في حالة بين الموت والحياة وبلغه ما فعله ابنه عبيد الله ، دعاه إليه ووبّخه ثم أمر الناس بأن يُقاد للهرمزان من ابنه إذا ما مات. أي أنه أمر بأن يُقتل ابنه ؛ لأنه اعتدى فقتل رجلاً من الناس لم تثبت عليه تهمة ولم يُدنه قضاء.

وكان عمر من الرفق بحيث رأى أن للحيوان - بوضفه كائناً حياً - حقاً على الناس ، يوجب عليهم أن يخلوا عنه فيأكل من نبت الأرض عشباً أخضر ويرتوي ماءً طيباً. وكان لا يرى مانعاً من أن يعاقب رجلاً شرساً حمل بهيمة ما لا تطيقه من الأحمال الثقيلة. ولما وفد الأحنف بن قيس على عمر مرة ، أتى عمر مناخ رواحل الوفد وجعل يتفقدها ويقول: «ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقاً؟ ألا خليتم عنها ، فأكلت من نبت الأرض؟»^(١).

وقضى عمر الشطر الأكبر من أيام خلافته في تفقد أحوال الناس في أخبار هي المودة والحنان الخالصان ، وهي رعاية الأب لأبنائه وهي شرف الحاكم ومعناه. ولما كانت هذه الأخبار كثيرة لا يتسع لها المجال في هذا الفصل رأينا أن نوجزها بخبر واحد يدل على روحها جميعاً:

(١) شرح نهج البلاغة: ١٢ / ١٩ ، كنز العمال: ١٢ / ٦٧١ ، تاريخ ابن عساکر: ٤٤ / ٢٩١.

روى العباس بن عبد المطلب عم النبي ، قال :
خرجتُ في ليلةٍ حالكةٍ قاصداً أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب عليه السلام.
فما وصلتُ إلى نصف الطريق إلّا ورأيتُ شخصاً أعرابياً جذّبي بثوبي
وقال: «ألزمني يا عباس!». فتأملتُ الأعرابي فإذا هو أمير المؤمنين عمر وهو
متنكر. فتقدمتُ إليه وسلمتُ عليه وقلت له: «إلى أين يا أمير المؤمنين؟!»
قال: «أريد جولةً بين أحياء العرب في هذا الليل الدامس» - وكانت ليلةً قزّ -
فتبعته فسار وأنا ورائه وجعل يجول بين خيام الأعراب ويوتهم ويتأملها ،
إلى أن أتينا على جميعها وأوشكنا أن نخرج منها، فنظرنا وإذا هناك خيمةٌ
وفيها امرأةٌ عجوز ، وحولها صبيّةٌ يغولون عليها ويبكون. وأمامها أثنائي
عليها قدّرٌ وتحتها النار تشتعل وهي تقول للصبيّة: «رويداً رويداً بُني! قليلاً
وينضج الطعام فتأكلون!».

فوقفنا بعيداً وجعل يتأمل العجوز تارةً وينظر إلى الأولاد أخرى. فطال
الوقوف. فقلت له: «يا أمير المؤمنين! ما الذي يوقفك؟ سرّ بنا» فقال: «والله لا
أبرح حتى أراها قد صبت للصبيّة فأكلوا واكتفوا».
فوقفنا وقد طال وقوفنا جدّاً ، ومللنا خوفاً أن تستريب بنا العيون،
والصبيّة لا يزالون يصرخون ويبكون ، والعجوز تقول لهم مقالها: «رويداً
رويداً بُني ، قليلاً وينضج الطعام فتأكلون».

فقال لي عمر: «ادخل بنا عندها لنسألها» فدخل ودخلتُ ورائه، فقال لها
عمر: «السلام عليك يا خالة» فردّت عليه السلام أحسن ردّة، فقال لها: «ما بال
هؤلاء الصبيّة يتصارخون ويبكون؟» فقالت له: «لما هم فيه من الجوع»، فقال
لها: «ولم لم تطعمهم ممّا في القدر؟» فقالت: «وماذا في القدر لأطعمهم؟
ليس هو إلّا علالة فقط إلى أن يضجروا من العويل فيغلبهم النوم. وليس لي
شيء لأطعمهم» فتقدّم إلى القدر ونظر إلى ما فيها فإذا هي حصباء وعليها الماء

يفلي. فتعجب من ذلك وقال لها: «ما المراد بذلك؟» فقالت: «أوهمهم أن فيها شيئاً يطبخ فيؤكل ، فأعَلَّهم به حتى إذا ضجروا وغلب النوم عبونهم ناموا. فقال لها عمر: «ولماذا أنتِ هكذا؟» فقالت له: «وأنا مقطوعة لا أخ لي ولا أب ولا زوج ولا قرابة» فقال لها: «لِمَ لَمْ تعرضي أمرك على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيجعل لك شيئاً من بيت المال؟» فقالت له: «لا حياءُ الله عمر ، والله إنه ظلمني». فلما سمع عمر مقالها ارتاع من ذلك وقال لها: «يا خالة! بماذا ظلمك عمر بن الخطاب؟» فقالت له: «نعم والله ظلمنا ، إن الراعي عليه أن يفتش على حال كل من رعيته لعله يجد فيها من هو مثلي ، ضعيف اليد كثير الضيعة ، ولا معين ولا مساعد له ، فيتولى لوازمه ويسمح له من بيت المال بما يقوته وعياله أو صبيته». فقال لها عمر: «ومن أين يعلم عمر بحالك وما أنت به من الفاقة مع كثرة الضيعة؟ كان يجب عليك أن تتقدمي وتعلميه بأمرك» فقالت: «لا والله ، إن الراعي يجب عليه أن يفتش على احتياجات رعيته» فقال عمر: «صدقت يا خالة! ولكن علي الضيعة والساعة آتية».

ثم خرج وخرجت معه وكان قد مضى من الليل ثلثه الأخير ، فمشينا والكلاب تنبحنا وأنا أطردها وأذبها عني وعنه ، إلى أن انتهينا إلى بيت الذخيرة. ففتحه وحده ودخل ، وأمرني فدخلت معه. فنظر يميناً وشمالاً فعمد إلى كيس من الدقيق. فقال لي: «يا عباس! حمله على كتفي» فحملته إياه ، ثم قال لي: «احمل أنت هاتيك ، جرة السمن». وأشار إلى جرة هناك فحملتها وخرجنا ، وأقفل الباب ، وسرنا ، وقد انهار من الدقيق على لحيته وعينه وجبينه!

فمشينا إلى أن أنصفنا ، وقد أتعبه الحمل لأن المكان كان بعيداً ، فعرضت نفسي عليه وقلت له: «بابي وأمي يا أمير المؤمنين! حوّل الكيس

عنك» فقال: «لا والله ، أنت لا تحمل عتي جرائمى وظلمي يوم الدين. واعلم يا عباس! أن حملَ جبال الحديد وثقلها خيرٌ من ظلامية كبرث أو صغرث ولا سيما هذه العجوز تُعلل أولادها بالحصى. يا له من ذنبٍ عظيم. سز بنا وأسرع يا عباس قبل أن تضجَرَ الصَّبِيَّةُ من العويل فيناموا كما قالت».

فسار وأسرع وأنا معه ، وهو يلهث من التعب إلى أن وصلنا إلى خيمة العجوز. فحوّل كيس الدقيق عن كتفه ووضعتُ جرة السمن أمامه. فتقدم وأخذَ القدر وكبّ ما فيها ، ووضعَ فيها السمنَ وجعل بجانبه الدقيق. ثم نظر فإذا النار كادت تُطفأ. فقال للعجوز: «أعندكِ حطب؟» قالت: «نعم يا ابني». وأشارت له إليه. فقام عمر وجاء بقليل منه ، وكان الحطب أخضر ، فوضع منه في النار ووضع القدر ، فوالله إني رأيتُ دخانَ الحطب يخرج من خلال لحيته ، ولم يزل هكذا حتى اشتعلت النار وذاب السمنُ وبدأ غليانه. فجعل يحرك السمنَ يعود في يده الواحدة ، ويخلط من الدقيق مع السمن في يده الأخرى إلى أن نضج ، والصَّبِيَّةُ حوله يتصارخون.

ثم طلب من العجوز إناءً فأثته به. فجعل يصب الطبخ في الإناء وينفخه ليزده ويلقم الصغار. ولم يزل يفعل هكذا معهم واحداً بعد واحد حتى أتى على جميعهم وشبعوا واكتفوا. وقاموا يلعبون إلى أن غلب عليهم النوم فناموا. فالتفت عمر عند ذلك إلى العجوز وقال لها: «يا خالة ، أنا في قرابة أمير المؤمنين عمرَ وسأذكر له حالك. فأتيني غداً في دار الخلافة فتجدني هناك ، فارجي خيراً».

ثم ودّعها عمر فخرج وخرجتُ معه ، فقال لي: «يا عباس! والله إني حين رأيتُ العجوز تُعلل صِبْيَتَها بالحصى أحسستُ أن الجبال قد زلزلت واستقرت على ظهري. حتى إذا جنّت وأطعمتهم بما طبختُهم لهم واكتفوا وجلسوا يلعبون ويضحكون ، فحينئذٍ شعرتُ أن الجبال قد سقطت عن ظهري».

ثم دخل عمر داره وأمرني فدخلتُ معه وبتنا ليلتنا. ولما كان الصباح أتت العجوز فجعل لها ولصبيتها راتباً من بيت المال تستوفيه شهراً فشهرًا^(١). هذه السيرة التي سلكها النبي في الناس ، وسلكها من بعده أبو بكر وعمر ابن الخطاب ، كانت هي الطعنة القاتلة التي وُجّهت فيما بعد - بصورة غير مباشرة - إلى سياسة عثمان بن عفان وإلى حكمه. ومعنى ذلك أنّ الناس قد تعودوا أن يروا حقوقهم تصير إليهم ، وأن يشهدوا مصيرَ الظالمين من العَمال والوُلاة ، وكيف يُصادرون ويُؤخذ منهم ما ليس لهم فيردّ على أصحابه ، وأنّ يشعروا بأنّ الحاكم إنّما هو راع لمصالحهم لا مستأثر ولا مستغفل ، وبأنّ القريب والبعيد في الحقّ سواء. ثمّ إنهم تعودوا أنّ يروا كبار الصحابة كعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري وغيرهما منائر حقّ وهداية يلجأون إليها في الصعاب ، فإذا جميع المسلمين يتعاونون على رفع العوّز عنهم ، ورفع الخيف واحترام حقوقهم في الحياة. فلما آلت الخلافة إلى عثمان بطل الحق وساد الجور ، وجاعت أمة ليبطر في خيراتها الأهل والوجهاء ، فرأى الناس غير ما عهدوا وغير ما يحبون وأحسوا أنّ ذهنيّة جاهليّة لا تعرف من الإسلام شيئاً قد طغت واستحكمت ، فثاروا.

ولكنّ ، إلّا ما صارت أحوالُ الناس على أيدي وجهاء الزمان في عهد عثمان؟

(١) لم نوفق للمثور على هذا النص ، لا في أبواب الفضائل من الصحاح والمسانيد ولا في كتب التواريخ المعروفة ، والمعتبرة..

وهناك رواية مشابهة ينقلها ابن شهر آشوب في مناقبه: ١١٥ / ٢ ، ولكن عن الإمام علي (عليه السلام) فيها أنه خدم امرأة ذات صبيان وحمل لها زنبيلًا ، فقيل له ، أعطنا نحملة عنك ، فقال: من يحمل عني وزري يوم القيامة.. إلى آخر الرواية..

هجماء الزمان

- لقد فتَّتِ الفنائمُ العرب. (١)

أبو بكر

- كَأَنِّي بكَ قَدْ حَمَلْتُ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ. (٢)

عمر

- سَيُولُونُ عِثْمَانَ وَلِيُحْدِثَنَّ الْبِدْعَ وَالْأَحْدَاثِ. (٣)

علي

- إِذَا التَّاجِرُ الْهِنْدِيُّ جَاءَ بِفَارَةٍ

مِنَ الْمِشْكِ رَاحَتْ فِي مَفَارِقِهِمْ تَجْرِي (٤)

شاعر مجهول

من هذا الاستعراض الخاطف لحقيقة بني أُمَيَّة وحقيقة الطالبيتين ،
ثم لأنصار الفريقين سواء أكان ذلك في الجاهلية أو الإسلام ، يبدو
لنا أنَّ شهوة الرئاسة والمُلْك والاستئثار لها أصولٌ وفروع في الأسرة
الأموية وامتداداتٌ بعيدةٌ في أنصارها وأعوانها، ومَن هم مِن طينة أُمَيَّة
ومن مذهبها.

وقد تَبَيَّنَ لنا من قبل أنَّ الأمويين وأنصارهم إنما كانوا حرباً على النبي

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٧٩ ، الدرجات الرفيعة لابن ميمون: ٣٥١.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ٧ / ٥٥ ، المصنف لمبد الرزاق: ٥ / ٤٨١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٩٢ ، بحار الأنوار: ٣١ / ٣٩٧.

(٤) المغني لابن قدامة: ٤ / ٢٧٧ ، الفائق في غريب الحديث للزمخشري: ١ / ٣٨٤.

ودعوته ، بذهنية الوجهاء الذين يابون أن يزحزحهم الجديد عن عاداتهم وعن نُظُمهم الاجتماعية التي كانت لا تفيد إلا أصحاب التجارات والأموال، وكانت تقهر الطبقات الشقية البائسة.

وفي أثناء الدعوة ، منذ انطلاقها حتى فتح مكة ، أسلم وجهاء قريش على اختلاف مهورهم ورغائبهم جميعاً ، وكانوا بإسلامهم ثلاثة أقسامٍ فيما نرجح وفيما تبرّره الحوادث:

قسماً رأى في الإسلام حقاً وعدلاً فأسلم راضياً مختاراً ، وهو القليل القليل بين هؤلاء الوجهاء. ومن هذا القسم طلحة والزبير ، وعثمان بن عفان ، الذي كان إسلامه طعنةً موجهةً إلى وجهاء قريش عامةً والأمويين منهم بصورة خاصة.

وقسماً كان مُعذراً لأن يرقب كفة النصر وكيف تميل: فإن كانت مع قريش كان معها ، وإن مالت مع المسلمين لجأ إليهم وقال ما يقولون ، فكأنه بذلك يريد الإسلام مفتعماً له كما أراد الجاهلية ، ومن هذا القسم عمرو بن العاص الذي سنروي خبر إسلامه في فصلٍ آتٍ نريد به الحقيقة عن موقفه من عليٍّ ومعاوية.

وقسماً ثالثاً لم يُسلم إلا مُكرهاً معزولاً عن وجاهاته مترتبصاً بالإسلام مترقباً العودة إلى الجاهلية. ويمثل هذا القسم من الوجهاء أبو سفيان بن حرب والد معاوية ، وزعماء القبائل التي ارتدت بعد موت النبي، فحازبهم أبو بكر حرباً ظافرة.

أما القسم الأول من هؤلاء الوجهاء فقد ظل على إسلامه وعلى عهده. ولكنه كان يخلط بين إسلامه وما في نفسه من رسوبات الوجهاء خلطاً لا يعيه ولا يعنيه فيلتبس عليه الأمر، فهو بهذا غير ملوم إلا قليلاً.

أما القسمان الآخران فقد كان الجانب الاقتصادي وامتداداته الاجتماعية المخوّر الذي دارت عليه سياستهما القريبة والبعيدة. فوجهاء هذين القسمين لم يكونوا مرةً إلا لمصالحهم وحدها. فإما أن تتفق مصالحهم فيتساندوا جميعاً ويتعاونوا ، وإما أن تختلف هذه المصالح فيعمل كلٌ منهم عند ذاك على حِدة. أما في موضوع الفتنة وفي أسبابها فإن المسؤولية تقع على هؤلاء الوجهاء جميعاً بأقسامهم الثلاثة، وإن كان نصيب القسمين الأخيرين منها أوفر وأعظم. فقد كان من طبيعة هؤلاء أن يستسبحوا الفرصة للمغنم والمكسب دونما نظرٍ إلى الرسالة الملقاة على عاتق المسلمين يومذاك. وقد بدت بوادر هذا الميل إلى المغنم لدى الوجهاء منذ استخلاف أبي بكر. ومن الحوادث والكلمات المعبرة عن هذه الحقيقة تعبيراً صريحاً ما فعله خالد بن الوليد وما قاله أبو بكر وعمر في خالد، وخلاصة الخبر:

إنَّ خالدًا قتل مالك بن نويرة في بعض حروبه اعتداءً وظلماً ، ورغبةً في مغنمٍ غير مشروع وغير مشرف ، فهال الخبرُ أبا بكر وآذاه فقال كلمته المشهورة: «لقد فتنت الغنائمُ العرب ، وترك خالد ما أمرته!» ثم قدم خالدٌ وفي عمامته ثلاثة أسهم فلما رآه عمر بن الخطاب قال: «أرياء يا عدو الله! أما والله إن أمكنني الله منك لأرجمتك!» ثم تناول عمرُ الأسهمَ الثلاثة من عمامة خالد فكسرها تحت عينيه ، وخالدٌ ساكت لا يجرو أن يردّ عليه ، ظناً منه أن ذلك عن أمر أبي بكر وعن رأيه. فلما دخل خالدٌ إلى أبي بكر وحذّثه صدّقه أبو بكر فيما حكاه وقيلَ عذره ، فراح عمرُ يحرضُ أبا بكر على خالد ويشير عليه أن يقتص منه بدم مالك بن نويرة ، فقال أبو بكر: «إيهاً

أيا عُمَرَ! ما هو بأول مَنْ أخطأ!»^(١)

وقد حاول وجهاء العرب الذين فتنّتهم الغنائم أن يكونوا لأنفسهم ومطامعهم وحدّها في عهد عمر بن الخطّاب ، والأدلة على ذلك كثيرةٌ لا تحصى ، ويكفيك منها الآن ما بعث به أحدُ الشعراء إلى ابن الخطّاب يخبره فيه بأن الوجهاء في بعض الأمصار والأقاليم يستأثرون بكلّ مغنّم ويسعون في إخفاء ذلك عنه ، وأنّ العاقبة مستأوون من هذا الاستئثار ولهم في كلّ مالٍ حقٌّ فوق حقّ الوجهاء فيه. ومما قاله الشاعر لهذه الأبيات الكثيرة للتعبير عن أحوال الوجهاء أيام الفتوحات ، وعمّا في نفوس العاقبة منهم ، والدالة على ثقة هؤلاء العاقبة بأن الانتصاف من الجائر والمستأثر أمرٌ ممكن ، بل إنّه ضرورةٌ وحقّ:

نحجّ إذا حجّوا ، ونغزو إذا غزّوا فأنّى لهم وفّرّ ولسنا بذوي وفّرٍ؟
إذا التاجرُ الهنديُّ جاء بفأرةٍ من المسك راحت في مفارقهم تجري
فدونك مال الله حيثُ وجدته سيرضون إن شاطرتهم منك بالشرِّ!^(٢)
أقول: إنّ وجهاء العرب الذين فتنّتهم الغنائم حاولوا أن يستأثروا وأن يجوروا في عهد ابن الخطّاب ، غير أنّ ابن الخطّاب لم يكن ممّن يجوز في عهدهم مثلُ هذا البطر ، فأمعن في الوجهاء حبساً وعزلاً ومصادرةً ، واشتدّ عليهم فباتوا لا يجرؤون على استغلالٍ أو ظلمٍ أو مُنكر ، على ما بيّناه في الفصل السابق.

(١) شرح النهج: ١ / ١٧٩ ، الكنى والألقاب للقمي: ٤٣ / ١.

(٢) كنز العمال ، للمتقي الهندي: ٥ / ٨٥٣ ، لسان العرب: ٤ / ٤٠٦ ، وفيه أن الأبيات للشاعر أبي المختار الكلابي.

وكانت خلافة عثمان فاستشرى داءُ الوجاهة ، وأفلتت المطاعمُ من عقّالها ، وتناصّر الوجهاء بزعامة الأمويين التي كانت تستتر حيناً وتتكشف أحياناً ، فعَمَّ البلاء من كلِّ جانب. ورأى العامة من وجهاء الزمان في عهد عثمان ما لم يألفوه في عهود السابقين أيامَ النبيّ وأبي بكر وابن الخطاب ، وما الذي هالَ الناسَ في عهد عثمان وأثار النفوس .

لا بأس أن نعود قليلاً إلى كلمةٍ قالها عمر بن الخطاب لعثمان ، لنرى مقدارَ ما كان العارفون ينتظرون من وقوع الشرِّ والفتنة على أيدي الأمويين وأنصارهم ، ومقدارَ ما كانوا يعرفون من حقيقة هؤلاء فيما إذا وُلّوا على الناس . أقبل عمرُ مرّةً على عثمان فقال له : « هيهأ إليك ! كأنّي بك قد قلّدتك قریش هذا الأمرَ ، فحملت بني أُمّية وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء فسارت إليك عصابةٌ من ذُئبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً ! والله لئن فعلوا لتفعلنَ ولئن فعلتَ ليفعلنَ ! » ثم أخذ بناصيته فقال : « فإذا كان ذلك فاذكروا قولي فإنّه كائن ! »^(١).

ولا بأس أن نعود كذلك إلى كلمةٍ قالها علي بن أبي طالب في عثمان والأمويين قبل أن يُستخلف عثمان ؛ إظهاراً للحقيقة ذاتها التي رمى إليها عمر بن الخطاب . فمرّةً قال عليّ لعمّه العباس : « أما إني أعلم أنّهم سيولون عثمان ، وليحدثن البدع والأحداث ، ولئن بقي لأذكرنك وإن قُتِل أو مات ؛ ليتداولنها بنو أُمّية بينهم ! »^(٢).

فإلى أيّ حدٍّ صدق قولُ ابن الخطاب وابن أبي طالب في أيام عثمان ؟

* * *

(١) شرح نهج البلاغة : ١ / ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق : ١ / ١٩٢ .

فأول ما ولي عثمان أمر الجماعة اصطدم بقضايا معقدة غاية في التعقيد ، فما كان من الأمويين إلا أن زادوها تعقيداً ، عوضاً عن أن يساعدوا في حلها لو صفت لهم نية ، أو أجمعوا الرأي على خدمة الإسلام. وزادوا على ذلك أنهم استثمروا ما في نسيبهم الخليفة من لين في الجانب ، فراحوا يعملون على أساس من العصبية العائلية والنفوذ الشخصي ، والاستهتار بالمصالح العامة واستخدام مرافق الدولة لمنافعهم في الرئاسة والمال ، وتحويل أنظمة الإسلام الاشتراكية إلى نظام رأسمالي خالص ، يجعل من الشعب أداة إنتاج لهم وموضوع استغلال ، ويحول الخلافة إلى ملك ، ويُلقي إمكانات هذا الملك في أيديهم وأيدي أعوانهم وعبيدهم خالصة صريحة. وإليك هذه الحادثة التي تدل - في جملة الحوادث - على موقف الأمويين من الناس في عهد عثمان ، وعلى نظرهم لحال الدولة:

بدأ عثمان خلافته بأن راح يوطئ بني أمية رقاب الناس ، ويوليهم الولايات ويقطعهم القطائع ، ثم يحمي مصالحهم ومصالح أنصارهم ومن والاهم حماية سافرة ، ويجعل المال دولة بين الأغنياء على أسلوب خالص لمصلحة الطبقة المادية التي دكها الإسلام في حدود زمانه ، فإذا الوجهاء ينمون نمواً مالياً غير مألوف ، وإذا بالعامّة تنوء تحت أثقالهم وفي أغلالهم. فها هو يفتح أرمينية فيأخذ الخمس كله فيهبه لنسيبه مروان بن الحكم ، فيستنكر الناس هذه البدعة. ويقول فيها عبد الرحمن بن حنبل قولاً ينزع به عن رأي العامة:

أَحْلِفُ بِاللّهِ رَبِّ الْأَنْبَاءِ مَا تَرَكَ اللَّهُ شَيْئاً سُدَى

ولكن خلقت لنا فتنةً لكى نبتلى بك أو نُبتلى
 فإنّ الأُميين^(١) قد بَتِنَا منارَ الطريق عليه الهدى
 فما أخذوا درهماً غيلةً ولا جعلوا درهماً فى هوى
 وأعطيت مروانَ خمسَ البلاد ، فهيهاتَ سفيك مَتَن سعى^(٢)
 ثم أقطع مروان فوق ذلك «فَدكا» وهى كلُّ إرث فاطمة ابنة النبي من
 أبيها. وزاده فأعطاه مائة ألف درهم من بيت مال العامة. وطلب منه عبد الله بن
 خالد بن أسيد الأموي صلةً فأعطاه أربع مائة ألف درهم ، دون مبرّر لمثل هذا
 الإسراف فى العطاء. ووصل نسيبه الحكم بن العاص - وكان من أعداء الإسلام
 وطرداء النبي - بصلةً بلغت مائة ألف درهم. وكان فى المدينة سوقٌ تُعرف
 بسوق «نهر روز» وقفها النبي على فقراء المسلمين، فأقطعها عثمان الحرث بن
 الحكم شقيق مروان. وكان حول المدينة مراعى خضراء أباخها النبي وأبو بكر
 وعمر لمواشي المسلمين جميعاً، فانتزعها عثمان من أيدي المسلمين ومن
 أفواه مواشيهم، وخماها وجعلها وقفاً على ماشية بني أمية وحدهم. وأعطى
 عبد الله بن سرح جميع ما هو فى ملك المسلمين من فئء أفريقيا كلها من
 مصر إلى طنجة من غير أن يُشرك فيه أحداً سواه. وأعطى أبا سفيان بن حرب
 مائتي ألف من بيت المال فى اليوم الذى أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة
 ألف ، فجاءه زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ، فوضعتها بين يدي
 عثمان باكياً فقال عثمان: أتبكي أن وصلتُ رحمي؟ فقال زيد: والله لو
 أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً! فقال عثمان: ألقى المفاتيح فإنّا

(١) الأُميين: أبو بكر وعمر.

(٢) الاستيعاب (المطبوع بهامش الاصابة): ٢ / ٤١٤ ، أسد الغابة: ٣ / ٣٣٥ ، تاريخ ابن عساکر: ٣٤ / ٣٢١.

سنجد غيرك! (١)

وأنته من العراق أموال كثيرة فوزعها على بني أمية. ولما زوج الحرث بن الحكم ابنته عائشة أعطاه مائة ألف فوق ما كان قد أعطاه سابقاً. وقدمت إبل من إبل الصدقة من بعض الولايات فوهبها لصهره الجديد. ثم ولّاه صدقات قضاة فبلغت ثلاثمائة ألف - أي ثلاثة ملايين - فوهبها له أيضاً (٢). وكتبه مرة في ذلك نفر من كبار الصحابة في طليعتهم علي بن أبي طالب ، فقال: إن له قرابةً ورحماً. فقالوا: أفما كان لأبي بكر وعمر قرابةً وذوو رحم؟ فقال عثمان: إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما ، وأنا أحتسب في إعطاء قرابتي! فقالوا: فهذه هما والله أحب إلينا من هذيك (٣)!

وانتهز الوجهاء هذه الفرصة للإثراء على حساب الجماعة «بل دُللت لهم في كثير من الأحيان هذه الفرص على عمدٍ؛ ليُشرَّكوا بالأوزار ويُقعدوا عن المعارضة» (٤).

فهذا طلحة بن عبيد الله قد ابتنى بالكوفة قصرًا منيفاً ، عُرف عند العرب بعد ثلاثة قرون بدار الطلحتين على ما جاء في مروج الذهب للمسعودي. وكانت غلته من العراق وحده كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك. كان ذلك بالكناس ، أما بناحية سراة فأكثر ممّا ذكرنا على رواية المسعودي أيضاً. أمّا بالمدينة فقد شيد طلحة داراً تشبه دار عثمان.

وهذا عبد الرحمن بن عوف يبتني دوراً فيوسعها ويوقف على كل

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ١٩٩ ، الاستغاثة: ١ / ٥١.

(٢) نهج البلاغة: ١ / ٩٨.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٣٥ ، بحار الأنوار: ٣١ / ٢١٩.

(٤) حليف مخزوم لصدر الدين شرف الدين: ١٧٣.

مربط له مائة فرس ، ويملك ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وتبلغ ثروته النقدية ما يوازي الملايين الثلاثة من الدنانير.

أما زيد بن ثابت فيخلف وراءه من الذهب والفضة ما يُكسر بالفؤوس على ما جاء في مروج الذهب ، ويخلف من الأموال والضياع ثروة ضخمة. وهذا يعلى بن أمية لا يموت إلا عن خمسمائة ألف دينار ، وعن ديونٍ على الناس الفقراء وعقارات!

أما الزبير بن العوام فيذكر المسعودي أنه كان يملك في عهد عثمان ألف عبدٍ وألف أمة. ويبتني القصور الشاهقة بالبصرة والكوفة ومصر والإسكندرية ؛ وحيث طالت له باع. أما ثروته النقدية ، وأما خيله وإبله ، فحدث عنها ما يطيب لك الحديث! ويعلق المسعودي على هذا بقوله:

«وهذا بابٌ يتسع ذكره ويكثر وصفه ، في مَنْ تملك من الأموال في أيامه - أي أيام عثمان. ولم يكن مثل ذلك عصرُ عمر بن الخطاب. بل كانت جادة واضحة وطريقة بيّنة!»^(١)

ولم يبقَ أحدٌ من الذين رضي عنهم عثمان والأمويون إلا أثرى على حساب الجماعة ، بل على فقرها وبؤسها. فاقتنى هؤلاء من الضياع والأموال ما لا عهد للناس بأن يروه في حوزة الفئة القليلة. وكان لعثمان نفسه من هذه الممتلكات نصيبٌ عظيم. فلقد وجد الناس له عند خازنه - وذلك بعد مقتله - خمسين ومائة ألف دينار وألف درهم. وكانت قيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف درهم. وخلف إبلًا وخيلاً كثيرة^(٢). أما الجواهر

(١) مروج الذهب للمسعودي: ١ / ٤٣٣.

(٢) راجع كتاب عثمان لصادق عرجون.

والحلي الكسروية التي كانت في بيت المال وهي ممّا أفاءت الفتوح على عمر بن الخطاب ، فقد رآها الناس تتوهج في ضوء الشمس كالجمر المتقد ، ولكنّ على صدور بنات عثمان! ورأوا بها حقوقهم مجمدة في تجسيد هازئ مخيف في أيدي الأسرة الحاكمة^(١).

وممّا جاء في مروج الذهب للمسعودي هذا القول في عثمان: « كان عثمان في نهاية الجود والكرم والبذل... فسلك عمّالُه وكثيرٌ من أهل عصره طريقته. وبنى داره في المدينة وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة»^(٢).

وأطلق عثمان لأنسابه بني أمية يأمرّون وينهبون ويولّون ويعزلون ويجمعون الأموال ويشرون، ويجعلون من أرجاء الدولة الواسعة ميادين لنفوذهم وأماكن لتأسيس دولتهم. وكان عنصر السوء الأوّل في ما لجأ إليه عثمان من تدابير مستشاره ووزيره مروان بن الحكم.

وهكذا كانت سياسة عثمان المالية - والإدارية ومستلزماتها - تشطر الناس شطرين على ما لا عهد لهم به: الحكّام والأنسباء وحصّتهم الشراء والطغيان. والعامة ونصيبها الحرمان واحتمال الجور. وقد تركّزت هذه السياسة الرأسمالية الخالصة بعد اقتراح عثمان بنقل الفيء إلى الناس حيث أقاموا من بلاد العرب. فكان الترف والتبطل من نصيب الأثرياء الذين أفادوا من هذا التدبير. يقول طه حسين:

«ونشأ عن ذلك أولاً ، أن ظهرت الملكيات الضخمة في العراق وغيره

(١) حليف مخزوم: ١٦٥.

(٢) مروج الذهب ، للمسعودي: ١ / ٤٣٣ ، وعنه الفدير للأميني: ٨ / ٢٨٦.

من الأقاليم. فالذين استطاعوا أن ينتفعوا بهذا الاقتراح إنما هم أصحاب الأموال الضخمة ، الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيات الصغيرة ما يملكون. فاشترى طلحة ، واشترى مروان بن الحكم ، وكثر النشاط المالي في ذلك العام من بيع وشراء ، واقتراض واستبدال ومضاربة. ثم لم يقتصر ذلك على الحجاز والعراق ، وإنما شمل بلاد العرب كلها من جهة ، والأقاليم المفتوحة كلها من جهة أخرى. فوجدت الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة من جهة ، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي والأحرار من جهة أخرى. فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي: طبقة البلوتوقراطية التي تمتاز إلى ارستقراطيتها التي تأتيها من المولد بكثرة المال ، وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً.

ونشأ عن ذلك ثانياً أن الذين اشتروا الأرض في بلاد العرب عامة وفي الحجاز خاصة قد أرادوا أن يستغلوا أرضهم. فاجتلبوا الرقيق وأكثروا من اجتلابه. ولم يمض وقتٌ طویل حتى استحال الحجاز إلى جنة من أجمل جنات الأرض وأخصبها وأحسنها ثمرأ وأعودها على أهلها بالغنى ، وما يستتبع الغنى من الترف والفراغ. وما هي إلا أن تنشأ في الحجاز نفسه ، في مكة والمدينة والطائف ، طبقةٌ من هذه الارستقراطية الفارغة التي لا تعمل شيئاً ، وإنما يعمل لها ما جلبت من الرقيق ، والتي تنفق وقتها في فنون اللهو والعبث والمجون. وكانت الفنون التي تنشأ عن الترف والتبطل ، فكان الغناء والإيقاع والرقص والشعر الذي لا يصور جداً ولا نشاطاً ، وإنما يصور بطالةً وفراغاً وتهالكاً من أجل ذلك على اللذة ، أو عُكوفاً من أجل ذلك على النفس وتعمقاً لما ينتابها من الهم. وإلى جانب هذه الطبقة الارستقراطية الفارغة

عاش الرقيق الذين كانوا يملكون سادتهم ويدبّرون حياتهم. وما يكون في هذه الحياة من النشاط الباطل ، وما يكون فيها من العواطف والأهواء. ثم إلى جانب السادة الأرقاء ، والأرقاء السادة ، عاشت طبقةٌ أُخرى من العرب البادين المحرومين، لم تملك قط أرضاً في الحجاز لتبيعها بأرضٍ في العراق، ولم تملك قط أرضاً في العراق لتشتري بها أرضاً في الحجاز.

ونتيجة هذا كله أنّ النظام الذي استحدثه عثمان عن رأيه هو - أو عن رأي مشيريه - لم يكن له نتائج سياسية وحدها من نشأة هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى ، التي استهوت الناس وفزقتهم أحزاباً وتنازعت السلطان فيما بينها بفضل هذه التفرقة ، وإنما كانت له نتائج الاجتماعية أيضاً: فقد بلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا الانقلاب فوجدت طبقة الارستقراطية العليا ذات الثراء الضخم والسلطان الواسع. ووجدت طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة. ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقةً متوسطة هي طبقة العامة من العرب ، الذين كانوا يقيمون في الأمصار ويُغيرون على العدو ويحمون الثغور، ويزودون عمّا وراءهم من الناس وعمّا وراءهم من الثراء.

وهذه الطبقة المتوسطة هي التي تنازعها الأغنياء ، ففزقوها شيعاً وأحزاباً. والذي يتتبع تاريخ المسلمين يلاحظ أنّ الصراع الأول إنما كان بين الأغنياء، ثم بين هذه الطبقة الوسطى وهؤلاء الأغنياء. فأما الطبقة الثالثة: طبقة العاملين في الأرض والقائمين على المرافق المختلفة ، فلم يظهر أمرها إلا

بعد ذلك»^(١).

وكان العرب حتى ذلك الحين ما تعودوا الأثرة تطفئ على الحكام وتوجه سياستهم وأحكامهم، بل كان ما تعودوه تغليب المصلحة العامة في قلوب ذوي السلطان على المنافع الخاصة.

كانوا قد تأثروا بسيرة النبي وعذله وإيثاره الآخرين على نفسه ، وتمرسوا بتعظيم شأن السلطة على أنها سلطة العامة لا الخاصة ، وسلطة العدل دون الجور، وسلطة من يُعينون الشعب على مكاره الدهر لا من يُعينون على الشعب. وكان تمرسهم بهذه المفاهيم على أيدي الخليفين السابقين: أبي بكر وعمر بن الخطاب ، وعزّنهما العظيم علي بن أبي طالب، ولم يكن قد استُخلف بعد. ولعله كان من سوء حظ عثمان أنه جاء وهو على هذه السيرة ، بعد عمر بن الخطاب مباشرة ، وكان الناس ما يزالون يذكرون - في ما يذكرون - أن عمر حجّ مرةً فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً ، فقال لولده عبد الله: لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا! فلما طلع عليهم عثمان بهذه السياسة هالهم الأمر. وشكوا الخليفة وكرّروا الشكوى. وأظهروا استياءهم من ولاته وعمّاله الأمويين ومن نهج نهجهم. وعالّوا عثمان بأنهم لن يتمكنوا من احتمال مظالم هؤلاء الولاة وهذه السياسة. وقد يندم عثمان لبعض أعماله ويصغي إلى شكايات المتذمرين ، ويعيدهم بإقضاء أعوانه وعمّاله. فلا يلبث أعوانه أولئك أن يغلبوه على مشيئته ، فيبقوا حيث هم ويمنعوا في سلب الأموال وفي الاستئثار ، ثم في التنكيل بالخصوم

(١) عثمان ، صادق عرجون : ١٠٥ - ١٠٩.

نكاية وانتقاماً.

وكثيراً ما كان الولاية يقتلون أعضاء الوفود التي تشكوهم إلى الخليفة ساعة تعود هذه الوفود إلى ديارهم. وقد أخذت وعوداً بالإصلاح فيعود من بقوا أحياء من هؤلاء ويشكون جُور الولاية إلى أجلاء الصحابة فينصرهم الصحابة عند الخليفة ، فيأمر الخليفة بتعيين والٍ جديد مكانَ والي الجائر. فإذا سار هذا والي إلى استلام منصبه ، سار قبله رسولٌ يحمل كتاباً للوالي المعزول ، فيه أمرٌ بقتل والي الجديد ساعة يصل ، وفيه أمرٌ بقتل الوفد الذي شكاه إلى الخليفة! فيثبت والي القديم في مكانه وينقذ ما أمر به من قتل ، ثم يمعن في مظالمه ونكاياته.

وهكذا سارت سياسة عثمان بوحى الوجهاء وفي مصلحة الوجهاء. وقهرت العامة قهراً كثيراً راح خلالها العامة يعتبرون عنه بكظم الغيظ حيناً وبالقول أحياناً. وكان للشعر نصيبٌ في تصوير حالة البائسين هذه وأحوال المترفين. وكان في الناس نفرٌ ممن اجتمع لهم صفاء الوجدان وذكاء القلب وبلاغة اللسان وجلال المكانة في قلوب المسلمين ، فهالهم ما هال العامة من بأس السواد الأعظم ، وترَف الفئدة القليلة، فراحوا يعارضون سياسة البلوتوقراطية هذه التي انتهجها عثمان والأمويون وأنصارهم. وكانت معارضتهم نزيهةً شريفةً تترفع عن كل مطمع وكل هوى. فماذا كان من شأنهم في عهد الوجاهات؟

التكيد بالممارسة

- إذا اختلف الناس كان عثار مع الحق! (١).

النبي

- يا أمير المؤمنين! إن هذا العبد - يعني عثارة - قد آلبَ عليك الناس! وإنك إن قتلته نكَلتَ به من ورائه (٢).

مروان

- ما أظَلَّت الخضراء ولا أظَلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذَرٍّ! (٣).

النبي

- أشيروا عليّ في هذا الكَذاب - يعني أبا ذَرٍّ - إنا أنْضربه أو أجسه أو أقتله! (٤).

عثمان

رأينا أنْ أعوان عثمانَ وبطانته من الأمويين وسائر الوجهاء وعلى رأسهم مروان ، هم المسؤولون عن كافة السيئات في الحكم وأساليبه ، وفي السياسة المالية في عهد عثمان. وعلى عثمان نفسه مثلُ هذه المسؤولية أيضاً ، إذ لجأ إليهم ورضي عنهم وأمرَ بما يأمرُون به ونهى عما ينهون عنه ،

(١) مناقب أمير المؤمنين ، لمحمد بن سليمان الكوفي: ٢ / ٣٥٣ ، مجمع الزوائد للهيتمي: ٧ / ٢٤٣ ، شرح نهج البلاغة: ٣ / ٩٨.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١ / ٥١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٥ / ١٩٧ ، مجمع الزوائد للهيتمي: ٩ / ٣٣ ، وهذا الحديث متواتر لدى جميع المسلمين.

(٤) أنساب الأشراف: ٥ / ٥٢ ، طبقات ابن سعد: ٤ / ١٦٨ ، مروج الذهب: ١ / ٤٣٨ ، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٤٨ ، شرح نهج البلاغة: ١ / ٢٤٠ ، فتح الباري: ٣ / ٢١٣.

فكانوا عليه أرساداً وكان لهم مطيعاً. وقد مثل علي بن أبي طالب حقيقة عثمان مع بطانته تمثيلاً لا أصدق منه ولا أحكم في المنطق، إذ أنزل الخليفة الثالث من بطانته منزلة من غص من طعامه وشرابه بالماء. والغاص بالماء كيف يتأتى له أن تساغ غصته والماء آخر علاج في مثل هذه الغصة؟ قال علي: «إن من فسدت بطانته كان كمن يفض بالماء فإنه لو غص بغيره لأساغ الماء غصته!»^(١).

وكما أطلق عثمان أيدي الأمويين في استغلال النفوذ وأيادي الوجهاء في الاستئثار والاحتكار وجمع المال، أطلق أيدي مستشاريه منهم في تكبيل حرية المعارضين: من أجلاء الصحابة والداعين إلى العدالة الاجتماعية بين الناس، وساندتهم وماشاهم، وكثيراً ما كان يكفيهم التنكيل بأصحاب الفكر الحر فيلحق بهم الأذى بمشورة مروان وعن رأيه، ولا ينظر إليهم إلا كأعداء يريدون أن يقصوا عنه خير مروان وخير أخيه الحرث! لقد عمل عثمان بآراء مستشاريه الأمويين خاصة في كل صغيرة وكبيرة، حتى كان ضحيتهم، وهم الذين استغلوه في الحكم راضياً أو غير راضٍ، وتربصوا به وألبوا عليه سراً؛ لعل الخلافة تكون من نصيب سواه من الأمويين الطامحين إليها. وساعدتهم في ذلك أنصارهم جميعاً. وتخلوا عنه كما تخلص عنه أنصارهم ساعة نوى الثائرون أن يفتكوا به.

لقد أقصى عثمان عنه كل من تصلح بمشورته الأمور ويستقيم أمر الخلافة بالحق، وارتضى لنفسه بطانة راحت تستشير ثم تشير عليه بالتنكيل بالمصلحين الذين تلبسهم ثوباً من العداة للخليفة لم يختاروه ولم يلبسوه. ففيما كان رجلٌ مسيءٌ كمروان أثيراً لدى عثمان، لم يكن لمثل

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠ / ٣٠٨، تاريخ ابن عساکر: ٢٤ / ٣٤٧.

علي بن أبي طالب شيء من الحظوة لديه. وهو لو كان له رأي في سياسة الخلافة عند ذلك لاستطاع بنافذ بصيرته وقوة حكمه على الأمور أن يجنب الخليفة سياسة الأثرة والاصطناع ، ويسير الدولة على أساس أثبت وأجدي يقوم على تغليب المنافع العامة ورفع الجور عن الناس. وقد بلغ من آثار هذه الحظوة التي كانت لمروان لدى عثمان ، أنه لم يكن ينتهي من تدبير مؤامرة أو ارتكاب جريمة ، حتى يعود إلى الخليفة ليُفرغ في نفسه أن علي بن أبي طالب وغيره من كبار الصحابة إنما هم الذين يكيدون له ويشيرون الناس عليه ، وأن السبيل الوحيد إلى توطيد الأمن وسلامة الخلافة هو أن يقتل عثمان هؤلاء الصحابة وفي طليعتهم علي ، ويحصر الأمر كل الأمر في عشيرته الأموية، فهم أقرب الناس إليه وأشدّهم غيرّة على سلطانه.

وفي المؤتمر الذي عقده عثمان للتشاور في شأن الإصلاح بعد أن طغى الفساد لم يدع إليه إلا الأمويين وأنصارهم من الذين يشكونهم الصحابة وسائر الناس. وحين أدلى كل منهم برأيه في كيفية الوصول إلى الإصلاح ، تبين أنهم بين راغب في بقاء الحال على ما هي عليه ؛ تيسيراً لتنفيذ مؤامرة يدرسها ، أو توسيعاً لفرجة يريد اجتيازها إلى مأرب له ، وبين راغب في الإصلاح على أساس من الاحتفاظ بولايته ونفوذه. وكان المؤتمرون جميعاً ، من خصوم عليّ والمؤيّلين عليه الذين يخشون عدله على جورهم ، وصدقه على حيلتهم ، وزهده على ترّفهم واسرافهم ، وديموقراطيته على أرستقراطيتهم. ويكفي أن يكون فيهم معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعمر بن العاص.

غير أن علي بن أبي طالب لم يكن ليقف عند مثل هذه الأمور من إبعاده أو تقريبه. فالذي يعيره عليّ اهتمامه هو أن يستقيم الأمر بالعدل، ولو وقف

منه الخليفة وأعوانه موقف المخاصمين. وقد ظلّ عليّ حتّى الساعة الأخيرة من أيام عثمان ينصح له بأن يعدل فيستقيم له الأمر. فحين اجتمع الناس مرّةً بالسخط على عثمان لم يجد عليّ بداً من أن يرفق بهؤلاء الناس وبالخليفة في وقتٍ واحد ، فأهمل ما كان من أمر عثمان والأمويّين معه ، ودخل على الخليفة وقال له:

«الناس ورائي وقد كلّموني فيك. والله ما أدري ما أقول لك ، وما أعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم. ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشيء فنبلغكّه ، وما خصصنا بأمر دونك.

وقد رأيتُ وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلّم ونلت صهره. وما ابن أبي قحافة - يعني أبا بكر - بأولى بعمل الحقّ منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك. وإنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم رحماً. ولقد نلت من صهر رسول الله (ﷺ) ما لم ينال ؛ ولا سبقاك إلى شيء. فالله الله في نفسك ؛ فإنك ، والله ، ما تبصّر من عمي ولا تعلّم من جهل ، وإنّ الطريق لواضح بين. تعلّم يا عثمان! أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل ، هديّ وهدي. وإن شرّ الناس عند الله إمام جائر ، ضلّ وضلّ به. وإنني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر ، فيلقى في جهنّم)»^(١).

فلم يستطع عثمان أن يردّ على منطق عليّ بمنطقي مثله، بل اكتفى بأن يعتذر بأنّه ما جاء منكراً إذا هو وصل رحماً وقزب قريباً وأغدق المال على نسيب.

واختلط الحقّ بالباطل والخير بالشرّ. وأمعن الأمويون في الاساءات واستسلم لهم عثمان. وقد أوجز الإمام عليّ - فيما بعد - واقع الخلافة آنذاك

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٦٤ - ٨.

بقوله في عثمان: «استأثر فأساء الإثرة»^(١) ثم في أنسابه الأمويين: «وقام معه بنو أمية يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع»^(٢).

وهكذا أعد الأمويون وجماعتهم مصيراً محتوماً لشهيد أثرتهم عثمان. ولم يكن ذلك ليخفي على السيدة نائلة زوج عثمان. ولم يكن خافياً عليها كذلك أن علي بن أبي طالب إنما هو أصفى نية وأشدّ إخلاصاً وأرجح عقلاً وأحسن توجيهاً ونصحاً. وكانت إذا طلبت إلى الخليفة أن يستشير علياً ويعمل برأيه، انبرث بطانة السوء تلتف حول عثمان وتزين له عكس رأيها، وتقنعه بالآل يعير المرأة انتباهاً فهي ضعيفة الرأي. وقد قال مروان مرة لعثمان: «والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها، أجمل من توبة تخوف عليها»^(٣).

إذاً، فالخطيئة موجودة في سياسة الخلافة باعتراف مروان نفسه، ولكنها أيسر من التوبة وأجمل. ثم إن النصيحة يجب ألا تبلغ أذني الخليفة إلا إذا جاءت على لسان مروان. ولم يكن مروان هذا ليكلّم الناس إلا باسم الخليفة. ولم يكن ليكلّمهم باسم الخليفة إلا زجراً ونهراً وإصراراً على مُتكر. وفي بعض ذلك ما يكفي لإذكاء الفتنة على عثمان. وقد قال مرة لقوم حاصروا الدار: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا؟!»^(٤).

في هذا القول أيضاً ما يدل على حقيقة مروان والأمويين في عهد عثمان. فالقوم لا يجتمعون، في نظر مروان، إلا لنهب! أما المطالبة بحق، وأما الرجاء بالحكم العادل ومنع الاغتصاب وإقامة الحدود على الظالمين والعاثين بحقوق الناس، أما هذه الأمور التي من أجلها اجتمع الناس فلا

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٠ - ٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣ - ١١.

(٣) الجمل، للمفيد: ١٠٣.

(٤) المصدر السابق.

يمكن أن تكون موضوعاً ذا خطر في نفس مروان وعلى لسانه. ثم إن هذه الخلافة مُلكٌ وسلطان ؛ لا رعايةٌ لشعب ولا محافظةٌ على رسالة. وهي إلى ذلك مُلكٌ في بني أُمّية طالما استسبحوا الفرصة ليصير إليهم ، فيستعيدوا به أمجادهم الضائعة ؛ فما لهؤلاء القوم يريدون انتزاع الملك من... مروان؟!

* * *

ثم إن جميع الذين عارضوا الأسلوب الأموي في الحكم وسياسة المال معارضةً نزيهة خالصة تعرّضوا لفضب عثمان ونقمته بتأثير مروان بن الحكم وغيره من رجال الحاشية. من هؤلاء الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود. ولكي تدرك ما كان للإساءات التي ألحقها الأمويون بابن مسعود من أثرٍ في نفوس الناس، لابدّ من أن نعرّف به تعريفاً موجزاً قبل ذكر هذه الإساءات:

كان عبد الله بن مسعود من أوّل الناس إسلاماً حتّى روي أنّه سادس ستّة أسلموا، وهاجر الهجرة الأولى إلى أرض الأحابيش في من هاجر إليها، ثمّ الهجرة الثانية إلى المدينة. ولازم النبي فكان في التفرّد الذين أحبتهم محمّد حبّاً كثيراً وأكرمهم لمّا هم عليه من صدق وإيمانٍ بالخير. وعده المسلمون الأوّلون من كبار علمائهم ممّا حمل عمر بن الخطّاب أيام خلافته على أن يبعثه إلى الكوفة معلّماً وهادياً بالرغم من حاجته إليه المدينة. وممّا كتبه عمر إلى أهل الكوفة يوم أرسله إليهم: «إني بعثتُ إليكم عبد الله بن مسعود معلّماً ووزيراً، وآثرتكم به على نفسي، فخذوا عنه!»^(١) فأخذ عنه كثيرٌ من الكوفيين ، ولزمه تلاميذ له يتعلمون عنه العلم ويهتدون به ، وقد كثر عددهم وعظم شأنهم حتّى قال فيهم سعيد بن جبّير: «كان أصحاب عبد الله بن مسعود سُرج هذه القرية -

يعني الكوفة - !»^(١) وقد أقتر له المسلمون بوافر علمه حتى إنهم جعلوه مرجع أهل الكوفة في الفتوى والاجتهاد أيام عُمر لا يرجعون إلى سواه.

وكان ابن مسعود مرجعاً في التفسير ، كذلك في درجة عبد الله بن عباس في ما يلي درجة علي بن أبي طالب. ولابن مسعود تلاميذ في التفسير ، اشتهر منهم فيما بعد قتادة بن دعامة السدوسي ومسروق بن الأجدع.

وفي القرن الأول والثاني للهجرة اشتهرت في العراق «مدرسة الرأي». وكان كثير من التابعين وتابعيهم من هذه المدرسة ، ومنهم الحسن البصري. وكان لوجود عبد الله بن مسعود في العراق أثر كبير في خلق التيارات الحرة التي أوجدت هذه المدرسة فيما بعد ، وذلك لما عُرف به من ميل ضد الجمود في التفكير ، خلق في تلاميذه وتابعيهم جنوحاً إلى الأخذ بالرأي المصيب. ولبعض الباحثين قول يجعل من ابن مسعود أضلاً من أصول المعتزلة ، وهم يحتجون لذلك بأن له قولاً يدل على أن الإنسان حر في إرادته يرى الحسن والقبح العقليتين فيحكم برأيه. وعلى كل حال فقد كان عبد الله بن مسعود في زمانه من أكبر الشخصيات تأثيراً في الأمصار ، ومن أجل الصحابة في قلوب المسلمين الذين يعرفون ما كان له من منزلة كريمة في نفس النبي.

هذا الصحابي الجليل ماذا فعل به عثمان؟

كان ابن مسعود ممن عارضوا سياسة الأمويين في عهد عثمان وأعلنوا عن استيائهم لا يتهيبون ولا يترددون. وكان يقول بالكوفة كل يوم جُمعة: «إن شر الأمور مُحدثاتها وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في

(١) مسند ابن الجعد: ٢٦٥، طبقات ابن سعد: ٦ / ١٠، تاريخ مدينة دمشق: ٢٣ / ٥٤، والقول فيه: لملي بن

أبي طالب عليه السلام.

النار»^(١) معرضاً بعثمان وما أحدثه من أمورٍ تخدم الأمويين والوجهاء والأغنياء ولا تخدم المسلمين. ومن أقواله فيه كذلك: «ما يزن عثمان عند الله جناح ذباب»^(٢) وحديث ما روي عنه في عثمان يطول. وغضب الوليد بن عقبة مما جاء على لسان ابن مسعود في عثمان. وكان الوليد فاجراً خليعاً، ولآه عثمان الكوفة على كرهٍ من أهلها ومن كافة المسلمين ، وهو أخوه لأُمّه! فكتب إليه فيه ، فكتب عثمان يستقدم ابن مسعود عليه. ورُوي أنه لما خرج من الكوفة إلى المدينة خرج معه الناس يشيِّعونه وهم يقولون له: «ارجع فإننا لا نأمنه عليك» فيقول ابن مسعود: «أمرٌ سيكون»^(٣).

ودخل ابن مسعود المدينة ليلةً جُمُعة ، فلما علم عثمان بدخوله جمع إليه الناس في المسجد وقال: أيها الناس ، إنّه قد طرركم الليلة دويبة - يقصد ابن مسعود - ... الخ»^(٤) فردّ عليه ابن مسعود وردت عليه عاتشة وردّ عليه آخرون. ثم أمر به عثمان شُرطته وعبيده فأخرجوه من المسجد إخراجاً عنيفاً فأخذوه حتى بلغوا به باب المسجد فجَلَدوا به الأرض جُلداً شديداً ، وأمعنوا في ضربه حتى حُمِلَ إلى البيت مكسّر الأضلاع مهشماً. ولم يكتفِ عثمان بهذا المقدار من إهانة الصحابيِّ الجليل ومن تكسير أضلاعه على باب المسجد ، بل أتبع ذلك كله بقطع العطاء عنه. وأمعن في الانتقام منه فحرّم على الناس عيادته في البيت ؛ حتى إذا مات وصلى عليه عمار بن ياسر ودَفَنه سرّاً ، وعلم عثمان بذلك ، غضب غضباً كثيراً.

(١) أنساب الأشراف: ٥ / ٣٦ ، حلية الأولياء: ١ / ١٣٨ (بتفاوت يسير) ، سبل السلام لابن حجر: ٢ / ٤٨ ، نيل الأوطار للشوكاني: ٣ / ٣٣٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٤٢ ، مجمع النورين ، للمرندي: ٢٦١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٤٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٤٢ ، الفدير: ٩ / ٤ نقلًا عن الواقدي.

ومن هؤلاء الذين تصدّوا الغضب عثمان وسائر الأمويين عمار بن ياسر وهو من أجَل مَنْ عرف التاريخ العربي قيمةً إنسانيةً وخُلُقاً كريماً. وقد عرف النبي قيمةَ عمار وما هو عليه من عظيم الصفات، فأثنى عليه بما يستحقّه وقال في جملة ما قاله فيه: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية - يعني عماراً - مع الحق!»^(١) واختلف الناس كثيراً في صدر الإسلام الأول، فكان عمار مع علي بن أبي طالب، وما رآه النبي في عمار رأى مثله علي. وأحبّ المسلمون عماراً حبّاً لا ريبة فيه، وعاداه الأمويون ومَنْ كانوا على مذهبهم.

كان أول ما نقمه عمار بن ياسر على عثمان أنه: «جعل المال دُولةً بين الأغنياء». كما قال، فكان يختلف إليه فينصح له بأن ينهج في الشعب نهجاً عادلاً سليماً، وأن يكفّ عن الانقياد للعصبية العائلية وتوطئة الأهل والأقربين رقاب الناس. فيخذله عثمان كما يخذل غيره من المصلحين. ومما رُوي أنه كان في بيت المال بالمدينة سقط فيه حليّ وجوهر، فأخذ منه عثمان ما حلى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعنَ عليه في ذلك، وكلموه فيه بكلّ كلام شديدٍ حتّى أغضبوه، فخطب فقال: لناخذن حاجتنا من هذا القيّء وإن رغمت به أنوف أقوام! فقال له علي بن أبي طالب: إذا تُمنع من ذلك ويحال بينك وبينه! فقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفي أول راغمٍ من ذلك! فقال عثمان لعمار: أعلّي يا ابن ياسر تجترئ؟ خذوه!

فما كان من مروان بن الحكم إلّا أن وقف بين عمار والخليفة قائلاً لعثمان:

- يا أمير المؤمنين! إنّ هذا العبد قد ألّب عليك الناس، وإنك إن قتلتَه

(١) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٩٨، كنز العمال: ٧٢١/١١.

نَكَلْتُ بِهِ مَنْ وَرَاءَهُ! (١)

فسرعانَ ما رأى عثمان رأي مروان ، فأخذ عصاه وضرب بها عمّاراً ضرباً موجعاً ، ثم أعانه على الرجل غلماناً له والحاضرون من بني أمية ، فمدّوا عمّاراً على الأرض وأوسعوه ضرباً شديداً ، ثم وَطَّئَهُ عثمانُ امتهاناً واستخفافاً وضربه برجليه. ولم يكفّوا عنه حتّى مزّقوا جنباته وأطرافه ، وفتقوا بطنه وألقوه على جانب الطريق تحت المطر والصقيع والزمهرير والرياح! فإذا هو بين الموت والحياة ، أو هو إلى الموت أقرب!

وَمِنْ أَجْلَاءِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ تَعَرَّضَ لَهُمْ عِثْمَانُ وَالْأُمَوِيُّونَ بِالْأَذَى الشَّدِيدِ الْمَصْلُوحُ الْعَظِيمُ: أَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ أَحَدُ أَعْلَامِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَدَالَةِ فِي التَّارِيخِ ، وَصَدِيقُ التَّاعَسِينَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَالثَّائِرُ الْخَيْرِ ، وَنَصِيرُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَرَأْسُ شِيعَتِهِ.

وإليك هذه النبذة اليسيرة من تاريخ رجلٍ عظيمٍ مِنْ أَجَلٍ مَنْ حَمَلَتْ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِهَا ، تَوْضِيحاً لِحَقِيقَةِ مَنْ خَاصَمَ سِيَاسَةَ عِثْمَانَ ؛ ثُمَّ تَوْضِيحاً لِسِيرَةِ بَنِي أُمَيَّةَ فِي عَهْدِهِ.

كان أبو ذرّ الغفاري من فقراء الناس في الجاهلية ، وإن كان سيد قومه. فلما بلغت أذنيه أخبارُ النبيِّ محمد وأخبار الدعوة ، هبط مكة وهو متلقّع بعباءة ممزّقة ، وجعل يطوف في أحيائها إلى أن أعياه السير ، فاتخذ عن عمامته وسادة واضطجع على الأرض في مكان قريبٍ من الكعبة. فمرّ عليّ بن أبي طالب على مقربةٍ منه فشاهده ، فرقّ لحاله ، فمظهره يدلّ على أنّه فقيرٌ غريب لا يعرف من الناس أحداً ولا يعرفه أحد. فتعارفا ، ثم تحدّثا ، فدعاه عليّ إلى منزله ، ثم سار به إلى النبيّ ؛ فسارع أبو ذرّ لقبول الدعوة فكان

خامس المسلمين.

وكان أبو ذرّ من الإخلاص والجرأة بحيث وقف في الكعبة وأعداء الرسالة من قريش مجتمعون فيها ، فسخر من آلهتهم ودعاهم إلى الدين الجديد. وما كان للمسلمين يومذاك مثل هذه الجرأة الغريبة على قريش. فتدافع القوم إليه حتى أمسكوا به وانقضوا عليه ضرباً مبرحاً وتركوه على الأرض طريحاً مُثخناً بالجراح. ثم إنه كان من أقرب الصحابة إلى النبيّ بفضل علمه الواسع ، ورأيه المصيب ، وحبّه للإصلاح ، وميله إلى الفقراء والمستضعفين ، ودفاعه عنهم.

وظلّ أبو ذرّ موضع الثقة العامة كما كان موضع ثقة النبي. واحترمه الصحابة وأجلّوه. ورفع عليّ شأنه حتى قال فيه: «إنه رجل وعى علماً عجز عنه الناس»^(١).

ولما آلت الخلافة إلى عثمان هال أبا ذرّ الأمر. إذ كيف يُستخلف عثمان وعلى رأس المسلمين عليّ بن أبي طالب العالم العادل الزاهد إلّا في الحق؟ غير أنه لم يأتِ أمراً وعليّ لا يريد الفتنة. ثم ما لبث أن رأى عامة الناس فقراء مهمّلين. ورأى الأمويّين الأرستقراطيين في نعيم. وأدرك أنّ عثمان يستأثر بحقوق الجماعة ، على النحو الذي ذكرنا في أكثر من مكان. فأنكر على هؤلاء جميعاً كنز الأموال واحتكار المنافع والفرق في الترف فيما يبيت السواد الأعظم من الناس على الطوى. ثم أعلن عن غضبته على هذه السياسة المنكرة التي ينهجها الأمويّون ، فتزيد في ثراء المترفين وتقضي على الفقراء بالموت جوعاً ؛ وتقسم المجتمع العربي إلى طبقتين. وانطلق يخطب الناس قائلاً:

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة: ٤ / ٦٤ ، بحار الأنوار: ٢٢ / ٤٢٠ ، الغدير: ٨ / ٣١١.

«لقد حَدَّثْتُ أَعْمَالُ ما أَعْرِفُها. والله ما هي في كتاب الله ، ولا سِتَّة نبيته. والله إنِّي لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصدقاً مكذباً ، وأثرَةً بغير تقى! يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء! وبشر الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار ، تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم اتخذتم ستورَ الحرير ، ونضائد الديباج ، وألِفتم الاضطجاع على الصوف الأذربي ، وكان رسول الله ينام على الحصير. واختلِفَ عليكم بألوان الطعام ، وكان رسول الله لا يشبع من خبز الشعير»^(١).

وراح أبو ذرٍ يطالب بإنصاف الفئة المحرومة من الفئة الحاكمة الباغية ، ويحرّض الفقراء على استرجاع حقوقهم بالقوة ويحث الناس على أن يرفعوا الحاجة عن مجتمعهم ويقضوا على الفقر: أساس الرذيلة وعدو الفضيلة. وكان يردّد هذه الكلمات الروائع: «عجبتُ لمن لا يجد القوتَ في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»^(٢). و«إذا ذهب الفقر إلى بلدٍ قال له الكفر: خذني معك!»^(٣).

وقد بلغ كرههُ للأثرة الأموية أن تَرَكَ الحجاز ، وجاء إلى الشام كي لا يرى بعينه إسرافَ عثمان ومروان ؛ فإذا به يرى من أمر معاوية ما يهون لديه أمر الخليفة ومستشاره. رأى أن معاوية مُطلَق اليد في أموال الخزينة ، وجهود الشعب ورقاب الناس ، فازداد سخطاً وثورة. ولما بنى معاوية قصر الخضراء في الشام بعث إليه أبو ذرٍ يقول: «يا معاوية! إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الإسراف»^(٤).

(١) أنساب الأشراف: ٥٣ / ٥ ، شرح نهج البلاغة: ٥٥ / ٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٤٧ / ٧٠ ، وفيه: كيف لا يخرج على الناس بالسيف .

(٣) الإمام الصادق عليه السلام ، لعبد الحليم الجندي: ٣٦٥.

(٤) أنساب الأشراف: ١٦٧ / ٦ ، تاريخ مدينة دمشق: ١٧٤ / ٦٦.

مثل هذا الرجل الحرّ لم يكن الأمويون ليرضوا عنه ، أو يحتملوا وجوده بين الناس. وقد بلغ الأمرُ بمروان أن راح يحترّض عليه عثمان ويُغريه بالتخلّص منه. وبلغ بعثمان أن وكلّ إلى معاوية أمر «تأديب» أبي ذر. وبلغ بمعاوية أن أخرجه من مجلسه ، ونهى الناس عن الاجتماع به ، وأن خاطبه بمثل هذا القول العجيب: «يا عدوّ الله! تؤلّب الناس علينا وتصنع ما تصنع! فلو كنتُ قاتلاً رجلاً من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين ، لقتلتك»^(١). فقال أبو ذر: «ما أنا بعدوّ الله ولا لرسوله ، بل أنت وأبوك عدوّان لله ولرسوله ، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر»^(٢).

ولم يأبه أبو ذر لتهديد معاوية ووعيده، بل واصل نشاطه الإصلاحى في الشام على صورة أخافت معاوية وأقضت مضجعه^(٣). وتأذى الوجهاء والأغنياء بالشام ، كما تأذوا بالمدينة وخافوا على منهوباتهم من أبي ذر ومن دعوته ، وكثرت عليهم سلاطة الفقراء والمحرومين ، فباتوا لا يجدون خلاصاً إلا أن يذهب عنهم أبو ذر ، ويحبس لسانه عن مخزياتهم. وجاء مخلوق يُدعى جندب بن مسلة الفهري إلى معاوية ، فقال له بلسان الناصح المُشفق ونفسيّة العبد الأمين:

- «إنّ أبا ذر لمُفسِدٌ عليكم الشام ، فتداركْ أهله إن كانت لكم حاجة فيه!»^(٤).

فتردّد في خاطر معاوية أن يقتل أبا ذر ، ولكنه خشي غضبة الناس إن هو فعل. فإنّ ابن أبي سفيان الذي «لم يغمذ سيفه وفي قلبه حقٌّ على أحد» كما

(١) شرح نهج البلاغة: ٨ / ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أقضت مضجعه: أقلقت مضجعه ، موضع هجوعه. لسان العرب: ٢٢١/٧ ، مادة «قضى».

(٤) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٥٥.

يقول عنه الحسن البصري ، لم يُحجم عما حدثته به نفسه من قتل هذا العظيم إلا خشية المسلمين ، لا خشية عثمان كما ادعى! فكتب إلى عثمان يشاوره في أمره ، فأجابه عثمان قائلاً: «احمل أبا ذر على أغلظ مركب وأوعره ، ثم ابعث به مع من ينخش به نخشاً عنيفاً حتى يقدم به علي!»^(١).

فعمل معاوية بأمر عثمان ، وأركب أبا ذر على قتب^(٢) بدون وطاء. فلم يبلغ المدينة إلا وقد أكل القتب لحم فخذه وانكسر ظهره من السير الطويل الحثيث يحمله عليه من دمشق إلى المدينة حزاش غلاظ الأكباد ، أجلاف لم يأذنوا له ، على بُعد المسافة ، أن يستريح من حرّ أو من عياء ، في نهار أو ليل! دخل أبو ذر منهوكةً واهن القوى على عثمان ، فقال له عثمان في الحال: أنت الذي فعلتَ وفعلتَ! فقال أبو ذر: نصحتك فاستغششتني ، ونصحت صاحبك - يعني معاوية - فاستغشني. فقال عثمان: كذبت ، ولكنت تريد الفتنة وتحبها وقد أنغلت الشام علينا! فقال أبو ذر ببساطةٍ وهدوءٍ وثقة: اتبع سنة صاحبك - يعني أبا بكر وعمر - لا يكن لأحدٍ عليك كلام! قال عثمان: مالك ولذلك لا أم لك؟ فقال أبو ذر: والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم كثر القول بين الرجلين ، وأبو ذر يشير إلى أن عثمان راكبٌ هواه عاصٍ ربّه مسيءٌ إلى عباده. فصرخ عثمان يقول لمن في مجلسه: «أشيروا عليّ في هذا الشيخ الكذاب إما أن أضربه أو أجسه أو أقتله ، فإنه فزق جماعة المسلمين ، أو أنفيه من أرض الإسلام!»^(٣).

فامتعض عليّ بن أبي طالب وكان في المجلس. وهاله أن يوجه عثمان

(١) شرح نهج البلاغة ، ٣ / ٥٥ و ٨ / ٢٥٨.

(٢) القتب: الرجل الصغير على قدر سنام البعير. (ج) أقتاب. المعجم الوسيط، مادة «قتب».

(٣) أنساب الأشراف: ٥ / ٥٢ ، طبقات ابن سعد: ٤ / ١٦٨ ، فتح الباري: ٣ / ٢١٣.

نفسه مثل هذا القول للمصلح الكبير والصحابي الجليل على رقة سنّه. فنظر إلى عثمان قائلاً: يا عثمان ، سمعتُ رسول الله يقول: «ما أَظْلَمَتِ الخضراء ولا أَقْلَتِ الغبراء من ذي لهجةٍ أَصدق من أبي ذرٍّ!»^(١).

وراح عثمان ينكّل بأبي ذرّ فحظر على الناس أن يجالسوه أو يكلموه. ثم خطر له أن يسترضيه ، فحاول ذلك على أسلوبٍ أُمويٍّ خالص: إذ بعث إليه بمائتي دينار يستعين بها على فقره. فقال أبو ذرّ لرسول عثمان: «هل أعطى من المسلمين أحداً مثلاً ما أعطاني؟» فقال الرسول: لا! فقال أبو ذرّ: «فإنما أنا رجلٌ من عاقبة المسلمين يَسْعُنِي ما يَسْعُهُمْ!»^(٢). ورَدَ الدنانير إلى عثمان! ولم يكن في بيت أبي ذرّ حينذاك إلا رغيفاً شعيراً ، قد أتت عليهما أيام! وعرض عثمان أبا ذرّ الغفاري على الجلّادين. ثم ارتأى أن ينفيه إلى «الربذة» وهي مكانٌ قَفْرٌ لا يعيش فيه حيٌّ من إنسانٍ أو حيوانٍ أو نبت ، اللهم إلا ما كان من نبت العَبَب^(٣). ولَمَّا كان موعد رحيله عن المدينة أمر عثمان بآلأ يودّعه أحدٌ ، إمعاناً في الإهانة والإيلام. فما جَرَّؤُ على توديعه إلا خمسةٌ هم: عليّ ابن أبي طالب ، وأخوه عقيل ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وعَمَار بن ياسر. وكان مروان بن الحكم -مصدر المساوئ ورأس الشرور- هو الذي راقب ترحيل أبي ذرّ إلى منفاه ، ونفَذَ أمر عثمان بمنع الناس من تكليمه أو توديعه أو توديع أحدٍ من زوجته وبنيه. وقد بلغ بمروان الأمرُ أن حاول منَع عليٍّ ومَن معه مِن توديع أبي ذرّ. فنَهره عليٌّ وطَرَدَه إذ بادَرَهُ بالسوط وهتَفَ يقول: تَنَحَّ ، نخاك الله إلى النار! ثم نظر إلى أبي ذرّ وقال له مودّعاً:

(١) سبق تخريج الحديث وهو متواتر لدى المسلمين.

(٢) نهج الصياغة: ١١ / ٣٥ نقلاً عن رجال الكشي.

(٣) العَبَب: نبت ذو حبّ ينبت في القفار.

«يا أبا ذر! إنك غضبت لله فارح من غضبت له. إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه. فما أحوجهم إلى ما منعهم ، وما أغناك عما منعوك! وستعلم من الرابع غداً! ولو أن السموات والأرض كانتا على عبيد رتقاً ثم اتقى الله لَجَعَلَ الله له منهما مخرجاً! ولا يؤنسك إلا الحق ، ولا يوحشك إلا الباطل! فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرّضت منها لأمينوك!«.

ثم قال علي لعقيل وعمار: «ودّعا أخاكما!» وقال لولديه الحسن والحسين: «ودّعا عمكما!»^(١).

وبلغت الحادثة عثمان ، فغضب علي علي!

* * *

وهنا يتساءل المرء ، ومن حقّه أن يتساءل: لماذا سكّت علي عن مثل هذا الجور الذي يصيب أبا ذر رأس شيعة العظيم وكبير أعوانه الثائرين في سبيل الحقوق العامة؟ وفي استطاعة علي أن يمنع عثمان من نفّي أبي ذر. وفي استطاعته أن يُشعلها ثورة لاهبة على بني أميّة وهو صاحب الرأي الوجيه في المسلمين والقول المسموع؟ ثم ، ما هو عذره في مثل هذا السكوت؟ وجواباً عن مثل هذا التساؤل الذي توجهت به إلى نفسي ، كما توجه به الكثيرون غيري إلى أنفسهم على ما أرجح ، لا بد من القول: إن في الأمر ما هو واضح كلّ الوضوح ، وإن فيه ما هو غامض كلّ الغموض:

أما ما هو غامض ، فمرده إلى عصر علي وما فاض به من ملابسات خفية ، هي من الدقة بحيث يعسر علينا في القرن العشرين أن نُحكّم رأينا فيها، وأن نعرف نسيجها خيطاً خيطاً. وبحيث يصعب النظر فيها نظراً صادقاً سليماً إلا إذا كان الناظر مندمجاً فيها اندماجاً واعياً كلّ سبب فيها وكل نتيجة.

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٣٠، شرح نهج البلاغة: ٢٥٢ / ٨.

وهذا ما لا يتيسر لنا في هذا الزمن. وما لا يدرك كُنْهَه الباحثون والدارسون قديماً وحديثاً على كثرة ما بحثوا وما درسوا، فقد خفي على هؤلاء جميعاً ما لم يخفَ على عليّ بن أبي طالب من دقائق الشؤون في زمانه ، فتتصرف بمقتضياتها تصرفاً يعرف - هو - أسبابه ونتائجه.

أما ما هو واضح كل الوضوح فخلاصته: أن عليّاً مفضوئاً على التضحية بكل ما هو خاص في سبيل ما هو عام. تنبئنا بذلك سيرته صفحةً صفحة ، وتخبّرنا به حياته طوراً طورا. وكان به من روح المحافظة على الرسالة الإسلامية ما يجعل كل أمر - مهما بلغت خطورته - هيناً لديه إزاء ما قد يسيء إلى الرسالة في معنى الاستمرار والانتشار. وهو يعلم من سيرة بني أمية في الجاهلية والإسلام ما يجعله يتحفظ في أن يعلن ثورة عليهم أو يأمر باشتباك معهم ؛ دفعاً لِمَا قد يصيب المسلمين على أيديهم عند ذاك من انشقاق.

وهو يعلم علم اليقين أن من نوايا الأمويين في خلافة عثمان التخلّص من الفئة التي قام بها الإسلام الصحيح واستمر في عافية. أو لم يكن مروان بن الحكم يشير على عثمان ، بمناسبة وبغير مناسبة ، أن يقتل عليّاً وأبا ذر وغيرهما من عظماء المسلمين، الذين لا يستطيع مروان ورهطه أن يعبثوا ويفسدوا وهم على قيد الحياة؟

ثم ، ماذا يُلمّ بالمجتمع العربي من طغيان وفساد إذا تمت مشيئة مروان؟ أفليس من المنطق - إذاً - أن يكتفي عليّ بموقفه هذا من قضية أبي ذر ، وهو الذي وقف من قضاياها الخاصة مثل هذا الموقف ؛ محافظةً على وحدة الصفوف وعلى ثقة الناس بعضهم ببعض؟

ألم يسبق له من قبل أن رضي من عمر بن الخطاب بعد بيعة السقيفة أن يدخل عليه ، وبِيتُه كعبة الناس ، فيأخذه بحمالة سيفه إلى بيت

الخلافة لمبايعة أبي بكر الصديق، والناس حولَه بين متعجبٍ ومتذمرٍ وساخطٍ وكلهم رهنٌ إشارةٍ منه؟ أو لم يكن باستطاعته عند ذاك أن يُشعلها ثورةً لاهبةً دون هذه المعاملة يبادر بها وهو ركنُ الإسلام وحصنُ العدالة وقبله الناس؟ ولكن ، ماذا كان من أمره عند ذاك؟

لقد دهش الناس ساعةً رأوا أنَّ عمر يأخذ علياً بحمالة سيفه إلى دار الخلافة. ولكنَّ دهشهم كان أعظم ساعة نظروا إلى وجه عليٍّ فإذا هو منبسّطٌ مطمئنٌ ، لا يأمر بفتنةٍ ولا يحدث باشتباك! بل إنَّ دهشهم تعاضم ساعةً راحوا يصغون إلى ابن أبي طالب يجادلُ القومَ هادئاً رصيناً يُثير ولا يثور ، فلا تثبت أمام منطقهم للقوم حجةٌ ، ولا يصمد لهم برهان. إذًا ، فهو على حقٍّ في الموقف الذي اتَّخذه. وهو مدركٌ كلَّ الإدراك ما له وما عليه. فلماذا يرضى بمثل هذه الحالة ومثل هذه المعاملة؟ حقاً إنَّ دهش أصحابه لعظيم! غير أنَّ أمراً واحداً فاتهم عند ذاك ، وهو الأمر الذي لم يفتَّ علياً ، بل كان مرتبطكز تفكيره ، والعلّة الأولى في انبساط وجهه واطمئنانه: لقد ساهم في بناء الإسلام أجلّ مساهمة ، فهو لذلك مطمئنٌ. وها هو اليوم يدفع من ذاته ثمناً جديداً بقي الرسالة خطراً عظيماً ، فيما إذا انشقت الصفوف واشتبك الناس بعضهم ببعض ، فهو لذلك مرتاح. وماذا عليه وهو من طينة العظماء الحقيقيين أهل التضحية ، إنَّ هو قام بتضحيةٍ جديدة في سبيل الرسالة؟ أمّا موقفه من قضية أبي ذرّ ساعة نفاه عثمان ، فمن الواضح أنَّه أشبه بموقفه هذا من قضيتِهِ هو.

* * *

وماذا كان من أمر أبي ذرّ في منفاه؟

لقد مات الشيخ الجليل جوعاً هو وامراته وبنوه ، على صورة مروعة فاجعة ، هي أحقُّ بأن تُبكي الجمادَ وتستثير عطفَ الجمود!

ويُروى من خبر مأساته في ذلك الفقر: «أنه بقي ورفيقته ، بعد موت أولاده ، أيتاماً لا يأكلان شيئاً. ثم قال لها: قومي بنا إلى الكتيب نطلب العُتَب. فصارا إلى الكتيب ، والريح تثنّ وتصفر ، فلم يجدا شيئاً. فأصاب أبا ذر الدهولُ ، وطفق يمسح العرق الذي ينضح رُغمَ البرد الشديد. ونظرت إليه زوجته وإذا بعينه قد انقلبنا ، فبكت! قال: ما يبكيك؟ فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت في فلاةٍ من الأرض وليس عندي ثوبٌ يَسَعُنَا كَفَنًا لي ولا لك ، ولا بد لي من القيام بجهازك. فأشفق الشيخ عليها وقال لها وقله يقطر أسى: فابصري الطريق لعل هنالك أحداً من المؤمنين. فقالت: أتني ، وقد ذهب الحاج وتقطعت الطريق! فقال ، وقد ذَكَرَ كلمةً قالها له الرسول: اذهبي فتبصري ، فإن رأيت أحداً فقد أراحك الله من القلق والعذاب ، وإن لم تري أحداً فمدي الكساء على وجهي ، وضعيني على قارعة الطريق ، وقولي لأول ركب يمر بك: «هذا أبو ذر صاحب رسول الله قد قضى نَحْبَهُ ولقي ربّه فأعينوني عليه!» فأنشأت تهرع إلى الكتيب فتتظر ثم ترجع إليه فتمرّضه. فبينما هي ترسل نظرها الحزين في الأفق الغائم ، إذا برجالٍ على رحالهم كأنهم الرّخم تنحب بهم رواحلهم فألاحت ثوبها ، فأقبلوا حتّى دنوا منها فقالوا: يا أمة الله! مالك؟ قالت: امرؤ من المسلمين تكفّنونه وتؤجرون فيه. قالوا: ومن هو؟ قالت: أبو ذر الغفاري! قالوا متسائلين ، وقد أنكروا لأوّل وهلة أن يموت ذلك الصحابي الجليل وحيداً في الفلاة: «صاحب رسول الله؟» قالت: نعم! فقالوا: بآبائنا وأمهاتنا هو! لقد أكرمنا الله بذلك». ثم وضعوا سياطهم في نحورها ، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا عليه.

فتفرّس الشيخ المحتضر في وجه القوم وقال لهم: «والله ما كذبت ، ولو كان عندي ثوبٌ يَسَعُنِي كَفَنًا لي ولا مرأتي لم أُكفّن إلا في ثوب هولي أولها.

وإني أنشدكم الله أن لا يكفني رجلٌ منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً». فنظر القوم بعضهم إلى بعض حائرين ، إذ لم يكن فيهم أحدٌ إلا وقد قارف من ذلك شيئاً ، إلا فتى من الأنصار قال له: أنا أكفّنك يا عمّ في ردائي هذا الذي اشتريته بمالٍ كسبته بعملٍي ، وفي ثوبين من غزلٍ أمتي حاكتهما لي كي أحرم فيهما. فقال: أنت الذي تكفّني ، فتوبك هو الطاهر الحلال»^(١).

وكان أبا ذرٍ قد اطمأنّ إلى هذا القول وسكن ، فأغمض عينيه ، ولفظ أنفاسه الطاهرة في هدوءٍ وتسليم. بينما كانت السحب تتراكم في السماء كأشباحٍ هائمة والرياح تلعب بالرمال السوافي ، كأنّ بلّقع «الربذة» الخاوي قد تحوّل إلى بحرٍ عاصف. ووقف الفتى الأنصاري على قبره فقال: «اللهم هذا أبو ذرٍ صاحب رسول الله ، عبّدك في العابدين ، وجاهد فيك المشركين ، لم يُغيّر ولم يبدل ، لكنه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه حتّى خُفي^(٢) ونُفي ، وحُرم واحتُقر ، ثم مات وحيداً غريباً.. اللهم فاقصم من حرّمه ونفاه من مهاجره وحرّم رسول الله!» فرفعوا أيديهم جميعاً وتمتموا بحرارة وخشوع: آمين^(٣). مات هذا العظيم وهو يقول: «ما ترك الحق لي نصيراً»^(٤).

وسلامٌ على أبي ذرٍ يومَ ثارٍ ويومَ ماتٍ ويومَ آمنَ بالإنسانٍ وحقّه ، عظيماً كريماً لا يهوله موْتُ ولا تُغريه حياة!

* * *

وكانت مأساة أبي ذرٍ وزوجته وأولاده هذه ، التي حرّكت القلوب بالعطف على البيت المنكوب ، من الأسباب التي أوغرت الصدور على

(١) رجال الكشي: ١٧ ، صحيح ابن حبان: ٥٨/١٥ ، بحار الأنوار: ٢٢ / ٣٩٩.

(٢) خُفي: جُفي من الجفاء.

(٣) مسند أحمد: ٥ / ١٦٦ ، شرح نهج البلاغة: ١٥ / ١٠٠.

(٤) نهج السعادة للمحمودي: ١ / ١٥٩ ، كشف الخفاء: ٢ / ١٨٣ وفيه: صديقاً.

عثمان ، فتعاظمتْ نعمة الناس عليه وعلى أنسابه بني أمية.

أضفْ إلى ذلك أن الناس لَيَهولهم هذا التنكيلُ بَمَن عارضوا سياسة الأثرة والانتفاع العائلي ، فيلقى عظيمُ كَأبي ذرٍّ مثْلَ هذا المصير الرهيب ، ويهان الصحابيَّان عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر ويُضربان ويُحَرَّمان ، فيما يستولي القاسطون من بني أمية وذويهم ومَن سار في ركبهم على ما أَظَلَّت السماء من رزقٍ ومالٍ وجاء ؛ وفيما يُكْرَمون مِن حَقِّهم أن يُبْعَدوا.

ومن التنكيل الذي لحقَ بالمعارضة ما جرى للذين جاءوا إلى المدينة يشكون إلى الخليفة أمر الوليد بن عقبة. وخبرٌ ذلك: أنَّ عثمان خلع الصحابيَّ سعد ابن أبي وقاص عن ولاية الكوفة، وبعثَ بدله والياً عليها الوليد بن عقبة أخا عثمان لأُمِّه. فاستعظم الناس ذلك ، حتَّى لتقول الرواية: إنَّ الوليد لَمَّا دخل الكوفة مرَّ على مجلس عمرو بن وزارة النخعي ، فوقف عمرو هذا فقال: يا معشر بني أسد! بِئْسَما استَقْبَلْنَا به ابنُ عَقان! أَمِنَ عَذْلُه أن ينزع عَنَّا سعدَ بن أبي وقاص الهَيِّنَ اللَّيِّنَ السَّهْلَ القريب ، ويبعث بدله أخاه الوليد الأحمق الماجن الفاجر قديماً وحديثاً؟! وقال أهل الكوفة بعد أن وُلِّي عليهم الوليد: «أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد»^(١)!

واستُعْتَب عثمان في أخيه كثيراً فلم يعزله، ولم يأبه للعاتبين وأكثرهم من الصحابة المصلحين. وكان شأنه مع الوليد شأنه مع سائر أنسابه لا يرضى فيهم عتياً ولا يقبل رأياً. وفي هذا الرفض كثيرٌ من تصلب عثمان في خدمة ذويه ، ومن إنكاره حقَّ المعارضين في أن يُسَمَعَ لهم قولٌ أو يُعَمَلَ برأي يروونه.

وفي العقد الفريد لابن عبد ربه عن سعيد بن المسيب أنه قال: «إنَّ

(١) أنساب الأشراف: ٥ / ٣٢، شرح نهج البلاغة: ١٧ / ٣.

عثمان لما ولي كره ولايته أصحاب رسول الله ؛ لأن عثمان كان كثيراً ما يولي بني أُمّة. وكان يجيء من أمرائه ما يكره أصحاب رسول الله ؛ فكان يُستَغْتَب فيهم فلا يعزلهم»^(١).

ولم يسلم الوليد من لسان الحطيثة ، فقال في هجوه كثيراً جاء في بعضه: **شَهِدَ الحُطَيْثَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنْ الوليدَ أَحَقُّ بِالْغَدْرِ** نادى وقد نفذت صلاتُهُمْ أَزِيدُكُمْ ، ثَمِلاً ، ولا يدري؟^(٢) وجاء عثمان شهوذاً من الكوفة ، يشهدون على أخيه الوليد بأُمورٍ أتاها وهي تسيئُهُمْ ، فأوعدهم عثمان وتهددهم عوضاً عن أن يصغي إلى شكواهم. وضرب الشهود بالسياط ، وما من ذنبٍ اقترفوه إلا لأتتهم عرضوا له قضيةً وبسطوا له رأياً وشكوا إليه ما أنكروا من أخيه.

أما أشد ما سعى الأمويون في أن يلحقوه من الأذى بالمعارضين ، أو من أنزلوا منزلة المعارضين لأنهم أرادوا أن تكون الخلافة للناس جميعاً لا لأُمّة دونهم ؛ فهو ما جرى لابن أبي بكر والمصريين وهم في طريقهم إلى مصر. وسوف نرجئ الكلام على هذه القضية إلى فصل آتٍ ، لأنها تتعلق مباشرة بالفتنة ؛ ثم لأنّ لبعض الكتاب رأياً خاصاً فيها سنعرضه ونقول رأينا فيه.

(١) المقد الفريد: ٣٦/٥ - ٣٧ ، مقتل عثمان بن عفان. وراجع في أنساب الأشراف: ٥ / ٢٦ ، وتاريخ ابن عساكر: ٤١٦ / ٣٩.

(٢) الأغاني للأصفهاني: ٤ / ١٧٦ ، تهذيب الكمال: ٣١ / ٥٨.

الحقيقة عن مقتل عثمان

- إِنَّ الْبِلَادَ قَدْ تَمَخَّضَتْ عَلَيْكَ (١).

علي

- وَاللَّهِ لَا طَرَحَنَ هَذِهِ الْجَامِعَةُ فِي عُنُقِكَ ، أَوْ لَتَتَرَكَنَ
بِسَطَانَتِكَ هَذِهِ الْخَبِيْثَةُ: مِرْوَانَ وَابْنَ عَامِرٍ وَابْنَ
أَبِي سَرَحٍ (٢).

جبله بن عمرو

- إِنَّكُمْ تَرِيدُونَ الْجِهَادَ فَهَلْتُوا إِلَيْنَا ، فَإِنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ
قَدْ أَفْسَدَهُ خَلِيفَتُكُمْ ، فَاخْلُمُوهُ (٣)

أهل المدينة

انقضت إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر والناس في نقمة على سياسة عثمان. وتعاضم استياء الفئات الشعبية في الأمصار حتى غدا ثورة مكظومة. وهال المسلمين أن يجدوا المفاهيم والمقاييس التي أحسوها وأحبوها في عهد النبي وخليفتيه الأولين تنقلب رأساً على عقب. ففيما تعودوا أن يروا في الخليفة حامياً لحقوقهم ، مدافعاً عنهم ، منصفاً لهم من العمال إذا جاروا أو أساءوا ، إذا بهم يفاجأون بعثمان يسدل الستار على ما ألفوه من فصول تلك السياسة العادلة، ويضع لسياسة الأثرة أسساً لم يعرفوها من قبل ، ولم

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤٥ / ٢ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤٩ / ٢ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠٠ ، البداية والنهاية: ٧ / ١٩٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٤٩ / ٢ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠١ ، الكامل في التاريخ: ٥ / ٧٠.

يستسيغوها من بعد.

هال الناس استثنائاً البطانة والوجهاء بالمنافع ، واحتكارهم للأرزاق. وهالهم هذُر الحقوق العامة وازدراء الوفود الشاكية أفراداً وجماعات. وأنفوا أن تجري تحت أعينهم فصول من إذلال عظماء الصحابة: كأبي ذر وعمار وابن مسعود. وأنفوا كذلك أن يُرغموا على القبول بؤلاة جاثرين، ويُنزَع من بينهم قسراً بؤلاة أحبّوهم ووثقوا بعدلهم. ولم يرَض طيِّبو المسلمين - فوق ذلك - أن يُجار على أهل الذمة على أيدي بؤلاة عثمان^(١) وهم منهم ناش في الناس أخوة متفاهمون. ولم يرضوا كذلك عن تسمّم المجتمع في عهد عثمان بالأثرة والأنانية، وتفضيل مَنْ أسموه مشروفاً على مَنْ أسموه شريفاً.

وبدأ الناس يجرأون على عثمان في آخر عهده جرأة ستدفعهم للثورة عليه ولا شك ؛ لأن أسبابها قائمة في سياسته وكذلك أهدافها. وكان أوّل وهنٍ دخل عليه بسبب هذه السياسة: أنّ عثمان مرَّ برجلٍ يُدعى جبلة بن عمرو الساعدي وهو في نادي قومه وفي يده جامعة، فسلم عثمان فردّ القوم عليه، فقال جبلة: «لِمَ تردّون على رجلٍ فعلَ كذا وفعلَ كذا؟» ثم التفت إلى عثمان يقول له: «والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك ، أو لتتركنّ بطانتك هذه الخبيثة: مروانَ وابن عامر وابن أبي سرح!»^(٢).

ومن جرأة الناس على عثمان في آخر عهده ما رواه ابنُ أبي الحديد، إذ قال: إنّ الخليفة الثالث خطب يوماً ويده عصاً ، كان النبيّ وأبو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها رجلٌ يُدعى جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته. ولم يكن طمع الناس في عثمان على هذه الصورة إلّا بداية الثورة على

(١) راجع التشريع الإسلامي لغير المسلمين: ص ١١٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠٠ ، البداية والنهاية: ١٩٧ / ٧.

سياسته ، بعد أن تكاثرت أحداث مروان وغيره من البطانة .
ثم ما لبثت هذه الجراءة أن خرجت من نطاق الأفراد إلى النطاق
الجماعي ، فكتب أهل المدينة إلى من بالآفاق يقولون : «إن كنتم تريدون
الجهاد فهلموا إلينا، فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه!»^(١).

واختلفت قلوب العامة على عثمان في كل أرض . فلم تدخل سنة خمس
وثلاثين للهجرة، حتى تكاتب أهل الأمصار يحرض بعضهم بعضاً على
التخلص من الأمويين وخلع عثمان وعزل عماله حيث كانوا . واتصل ذلك
بعثمان ، فكتب إلى أهل الأمصار يسترضيهم . ثم استقدم نفراً من عماله فلما
قدموا عليه جمّعهم واستشارهم . فكان فيهم من نصح له بأن يعدل فيلزم طريق
أبي بكر وعمر . وكان فيهم من حاور وداور فلم يُعطِ الخليفة نصيحة واضحة ،
كـمـعاوية . وكان في هؤلاء من لا يستحق أن يُدلي برأيٍ لما في رأيه من هوى
وهوس ، ومن هؤلاء سعيد بن العاص الذي أشار على عثمان ، يقول : «وهذه
أمورٌ مصنوعة تلقى في السرّ فيتحدث بها الناس ، ودواء ذلك السيف!»^(٢).

وانتهى الاجتماع دون أن يُسفر عما يعالج الحالة من رأيٍ أو نهج؛ ذلك
لأنّ عمال عثمان إنّما كان هواهم في سياسته الراهنة لما يصيبهم بها من مغام
فلم يُخلصوا النصيحة .

أضف إلى ذلك أن نفراً من هؤلاء كانوا يسعون في التخلص من عثمان
بالسرّ حيناً، وبالجهر على ما سنرويه ونبيّن أسبابه في فصل آت . ثم إن مروان
كان بالمرصاد لكل من يشير على الخليفة بتبديل أو تعديل . فلو أخلص
الناصحون لعثمان لَمَّا أجبت النصيحة وفي البطانة مروان .

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٠١ ، الكامل: ٥ / ٧٠ ، شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٣٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٣٧ .

وكانت الثورة!

ففيما كان الناس في الأقاليم والأمصار في سخطٍ شديد على سياسة الخلافة التي يضع مناهجها ويوجهها مروانُ ومن إليه ، أقبل أهل مصر على عثمان وهو بالمدينة يشكون له الكثير من عامله على مصر عبد الله بن أبي سرح. فقبل عثمان شكواهم وتلّوهم على ابن أبي سرح، ووعد القوم بإنصافهم منه. ثم كتب إلى عامله ينهيه عن أن يعود إلى تصرفاته السابقة مع أهل مصر ، ويتهدده إن هو لم يفعل بما جاءه من أمر. وكان ذلك على كره من مروان الذي خرج من دار الخلافة وردّ القوم ردّاً عنيفاً ؛ ثم راح يحول عثمان عما أعطى من عهد.

وغضب ابن أبي سرح لدى قراءته كتاب عثمان وأبى أن يفعل بما جاءه من أمر. وبلغ به الغضب أن قتل أحد أعضاء الوفد المصري الذي حمل الشكوى إلى عثمان. وكان في صلة عبد الله بن أبي سرح بالخليفة ما يترّ له مثل هذا التمرد ، ومثل هذا التصرف. فهو أخوه من الرضاة ، وبهذه الأخوة ولّاه مصر.

سخط المصريون أشد سخطٍ على ابن أبي سرح بما جرّؤ عليه ، وبما جنّت يده. فألفوا وفداً جعل بعضهم عدده ألفاً للخروج إلى المدينة ثانية. فدخلوا المدينة محتلين ونزلوا المسجد ونادى مناديتهم في أهل المدينة: «من لزم دأره فهو آمن ، ومن كف عنا أذاه فهو آمن!». ثم اجتمع رؤساؤهم إلى أجلاء الصحابة يشكون ما جرّه عليهم ابن أبي سرح من ويلات ، ويأخذون عليه عنقه وقساوته وقتله رجلاً منهم لا ذنب له، إلا أنه كان في وفدٍ يطالب بحمايةٍ وعدلٍ وحق. فدخل على عثمان بعض الصحابة فكلّموه في شأن أهل مصر. ثم دخل عليه قومٌ كثير، كان على رأسهم علي بن أبي طالب الذي خاطب

عثمان يقول بمنطقه العادل الحكيم:

«إنما سألوكم رجلاً مكانَ رجل ، وقد ادَّعوا قبيله دماً ، فاعزلْه عنهم واقضِ بينهم وبينه ، فإنه قد وجب عليه حقٌ ، فأنصِبْهم منه!».

فأكد عثمانُ العهدَ للقوم ، وطمأنَهم إلى أنه داخلٌ في رضا العاقبة. ثم قال لهم: اختاروا رجلاً أوَّلَه عليكم مكانَ ابن أبي سرح ، فنظر القوم في الأمر ثم أشاروا عليه قائلين: وَلَ محمد بن أبي بكر. فولَّاه ، وأخرجه إلى مصر في جماعةٍ من المهاجرين والأنصار ومعه العهدُ بالولاية^(١).

وفيما كان محمد بن أبي بكر ومرافقوه من المهاجرين والأنصار في بعض طريقهم إلى مصر وقد خلَّوا المدينة من ثلاثة أيام، لحظَ أصحابُ محمدٍ غلاماً أدكن اللون على ظهرٍ بغيرٍ يخبط الأرض على غير هدىً ، كأنه هاربٌ أو طالب. فاستغربوا شأنَ الغلام فسألوه قائلين: ما شأنُك يا غلام؟ فظلَّ البعيرُ يخبط الأرض والغلام على ظهره لا يسمع ولا يقول. فكَرَّرَ أصحابُ محمدٍ السؤالَ. فقال: أنا غلامٌ أمير المؤمنين وجَّهني إلى عامل مصر. فقال أصحاب محمد:

- هذا عامل مصر معنا! قال:

- ليس هذا أريد!

وبلغ محمدٌ ما كان من خبر هذا الرسول وأصحابه ، فنادى به ، فأقبل عليه فقال له محمد:

- غلامٌ من أنت؟ فقال:

- غلامٌ أمير المؤمنين! ثم أنكر قوله الأوَّل ، مجيباً:

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٦ ، تاريخ المدينة ، للنميري: ٤ / ١١٥٨ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٣٩ ، الثقات لابن حبان: ٢ / ٢٥٧.

- بل غلام مروان!
ثم راح يُنكر قولاً بقول ، فيزعم مرّةً أنه غلام عثمان ومرّةً أنه غلام مروان! وسأله محمد:
- إلى من أرسلت؟ قال:
- إلى عامل مصر؟
- وبماذا أرسلت إلى عامل مصر؟
- برسالة!
- وهل تحمل كتاباً بما أرسلت به؟
- لا!

وأمر محمد بتفتيشه ففتشوه ، فوجدوا في أحد مطاويه كتاباً من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح عامله على مصر ، فدفعوا الكتاب إلى محمد ، فجمع محمد القوم وفتح الكتاب على مشهدٍ من أصحابه جميعاً وقرأ:
«إذا جاء محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتلّ لقتلهم وأبطلّ كتابهم، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي. واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله»^(١).

وساد القوم الصمتُ واعتراهم الوجوم هل يبيت أمير المؤمنين لرعاياه وعمّاله وأنصاره ومهاجريه وأصحابه مثل هذه الرغبة في مثل هذا المصير؟ وهل يجوز القتل في قوم لم يأتوا عملاً مُنكراً؟ وهل باتت حياة الناس - وفيهم الأخيار والطيبون - رهينةً بزّوغة جنانٍ وفلتةٍ لسانٍ وصرّةٍ قلمٍ على قرطاس؟

(١) الثقة ، لابن حبان: ٢ / ٢٥٧ ، تاريخ ابن عساكر: ٣٩ / ٤١٦ ، تاريخ المدينة: ٤ / ١١٥٨ ، الإمامة والسياسة:

وختم محمد بن أبي بكر الكتاب بخواتم من معه من المهاجرين والأنصار ثم ارتأى أن يعودوا جميعاً إلى دار الهجرة حيث يواجهون الصحابة بحقيقة الأمر. فلما كانوا في المدينة قرأوا الكتاب عليهم وفيهم علي بن أبي طالب. فأقام الصحابة على حزن كثير من هذا الكيد للناس وللإسلام. وأخبر أهل المدينة بخبر الغلام والكتاب فلم يبق فيهم أحد إلا سخط على عثمان ومروان. فلقد تعودوا غير هذا في خلافة الصديق وابن الخطاب. وتعودوا غير هذا مما لقنهم إياه الإسلام الصحيح وهم حديثو عهد بصاحب الرسالة. لذلك سخطوا كثيراً وأمعنوا في السخط، وتنادوا يتباحثون ويتشاورون ويتذمرون. وزادهم سخطاً ما كانوا يعرفونه من شؤون دار الخلافة في ذلك العهد. ثم زادهم سخطاً كذلك ما تذكروه عند ذاك مما أصاب أبا ذر الغفاري وعبد الله بن مسعود وغيرهما من أجلاء الصحابة.

وألّف أصحاب النبي في الحال وفداً فيه عمار بن ياسر وسعد بن أبي وقاص وعلى رأسه علي بن أبي طالب الذي دخل طليعة القوم على عثمان وفي يده الكتاب ومعه الغلام وبعيره ، فقال لعثمان: هذا الغلام غلامك؟ فقال عثمان: نعم! قال: وهذا البعير بعيرك؟ قال: نعم! قال علي: وهذا الخاتم خاتمك؟ قال عثمان: نعم! قال علي: فأنت كتبت الكتاب؟ قال: لا! ثم أطلق القسم قائلاً: والله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر قط!

وأدرك الصحابة أن عثمان لا يقول باطلاً. وأمعنوا النظر في الخط فإذا هو خط مروان لا يقل ولا يزيد. وطلبوا إلى عثمان أن يُريهم وجه مروان ؛ ليجادلوه في الأمر ويمتحنوه ويعرفوا خبر الكتاب. فأبى عثمان أن يجيبهم إلى هذا الطلب وكان مروان عنده في دار الخلافة. ولم يجزء مروان فيندفع من

نفسه إلى مجادلة القوم ، ورفع غضبهم عن الخليفة الذي يحميه. وخرج الصحابة من دار الخلافة وهم ساخطون على مروان ، ناقمون على عثمان ، متحققون من أن الخط إنما هو خط مستشار الخليفة لا خط سواه. وعزموا على ألا يُبَرِّثُوا الخليفة إلّا ما يدفع إليهم مروان حتى يمتحنوه ويعرفوا حقيقة هذا الكتاب ، وكيف يأمر صاحبه بقتل رجال من أصحاب النبي بغير حق. وقالوا: فإن يك عثمان كتبه عزلناه ، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا في أمره. وألح الثائرون بصورة خاصة في مطالبة عثمان بأن يسلمهم مروان ليتحققوا مما هو فيه. فأبى عثمان ذلك. وتلاحقت الحوادث سريعة على ما هو معروف في كتب التاريخ. وشاء علي بن أبي طالب أن يحسم الخلاف بين الثائرين والخليفة وأن يحقن الدماء. فدخل ثانية على عثمان ، فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناس منه ، ليسكنوا إلى ما يعدهم به من إصلاح ، وقال له: «إن البلاد قد تمخضت عليك ولا آمن أن يجيء ركب من جهة أخرى فتقول لي: يا علي ، اركب إليهم!» فخرج عثمان فخطب خطبة وأعطى الناس من نفسه التوبة ووعدهم بأن ينزل عند إرادتهم ؛ وأن ينحي مروان وذويه. ففرق الناس له وبكوا حتى خصلوا الحاهم وبكى هو أيضاً.^(١)

فلما نزل عن منبر المسجد وجاء بيته وجد مروان وسعداً ونفراً من بني أمية في منزله قعوداً لم يكونوا قد شهدوا خطبته ولكنها بلغتهم. فلما جلس قال له مروان: يا أمير المؤمنين! أأتكلم أم أسكت؟؟ فقال عثمان: تكلم! فقال مروان وكأنه يوتخ: ما زدت على أن جرأت عليك الناس! فقال عثمان وكأنه يندم: قد كان من قولي ما كان ، وإن الفأث لا يُرَد. قال مروان: إن الناس

(١) تاريخ المدينة: ٤ / ١١٥٩ ، تاريخ ابن عساکر: ٣٩ / ٤١٧.

قد اجتمعوا ببابك أمثال الجبال، أنت دعوتهم إلى نفسك فهذا يذكر مَظْلَمَة ، وهذا يسأل عن نزاع عاملٍ من عمالك عنه ؛ هذا ما جنيتَ على خلافتك ، ولو استمسكتَ وصبرتَ كان خيراً لك. فقال عثمان: فاخرج أنتَ إلى الناس فكلّمهم فإنّي أستحي أن أكلّمهم وأرذهم!

وهكذا أفسد مروان ما أصلحه عليّ. فإنّ هذا الحوار ما كاد ينتهي حتى خرج مروان إلى الناس ، وقد ركب بعضهم بعضاً من شدة الازدحام فقال: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب؟! شامت الوجوه! أتريدون أن تنزعوا مُلْكنا من أيدينا؟ اغربوا عنا ، والله إنّ رُفتمونا لَنُمرّنَ عليكم ماحلاً ، ولَنُحلّنَ بكم ما لا يسرّكم، إرجعوا إلى منازلكم فإنّا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا»^(١).

فرجع الناس خائبين يشتمون ويهتدون. وأتى بعضهم عليّاً فأخبره الخبر. وكان باستطاعته ألا يعود بالمشورة على عثمان عند ذاك وقد ترك قوله وسمع قول مروان. ولكن عطفه على الخليفة الشيخ ، ورغبته في صلاح ذات البين بين الناس ، وما بقي في نفسه من أملٍ في عودة عثمان إلى الصواب، أموّز دفعته إلى أن يعود فيدلّ الخليفة على الطريق من جديد. فلما جاءه عثمان ليلاً ، برأى زوجته العاقلة السيدة نائلة ، ليعتذر إليه ويعده من نفسه الجميل ، قال له عليّ: «أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك؟» فلام عثمان نفسه. وعاد عليّ إلى نصحه قائلاً له: «والله إنّي لأكثر الناس ذبّاً عنك. ولكنني كلّما جئتُ بشيءٍ أظنه لك رضا، جاء مروان بغيره فسمعتَ قوله

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤٦ / ٢.

وتركتَ قولِي!».»

وصدق قول علي. فقد جاء مروان هذه المرة أيضاً بما أفسدَ على الخليفة كل شيء.

وعاد الثائرون إلى المطالبة بتحقيق ما كانوا قد وعدوا به ، فأبطله مروان. وعادوا إلى المطالبة بتسليمهم مروان ليقاضوه. فتصلّب عثمان في دفاعه عن ابن الحكم ، وتصلّب الثائرون وأبوا إلا امتحان الرجل ومقاضاته. فلما تعاظمت ثورة الثائرين هنا ، وثبت عثمان في موقفه هذا عازماً على ألا يسلمهم مروان ، حاصر الساخطون دار الخلافة وأطالوا الحصار. ومنعوا الخليفة الماء أو يذعن لِمَا يريدون ، فأطل الخليفة عليهم قائلاً: أفيكم علي؟ قالوا: لا! قال: أفيكم سعد؟ قالوا: لا. قال: ألا أحدٌ يُبلغ عليّاً فيسقيناه ماءً؟ فلما بلغ ذلك عليّاً اندفع بشهامته المعروفة ، وتحدى الثائرين في سبيل مَنْ منعوا عنه الماء ، وبعث إليه مع قوم من أنصاره وإخوانه ثلاث قَرَبٍ مملوءة ماءً ، وأمرهم أن يوصلوها إلى عثمان ولو دفعوا حياتهم ثمناً لذلك. فصارع حاملوها الثائرين وجرح بعضهم بعضاً حتى أوصلوها^(١).

وهكذا أضاف الإمام فصلاً جديداً من الشهامة العلوية إلى فصول حياته. هذه الشهامة التي جعلته في الذروة من السخط على الاحتكار والاستثمار والظلم ، وجعلته كذلك في الذروة من العطف على الّادمتين ومنهم عثمان: الإنسان الذي أوقعه الأمويّون في أشراكهم ، فأضلّوا سبيلَه إلى القلوب ، وألقوا في طريقه إلى الانصاف كلّ ما يصعب اجتيازُه من عقبات، فإذا هو محاصرٌ في داره يبتغي القومُ قتله ويمنعونه الماء الجاري في جنبات الأرض.

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٨ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٧.

إنهم يريدون دمَ عثمان هذا ما بلغ عليّاً. فإذا به يخرج من منزله على عجل ، ويسوق أمانه ولديه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر بن الخطاب ونفراً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، حتى إذا كانوا جميعاً على مشهدٍ من الثائرين خطبهم ووعدهم وفرّقهم. ثم دخلوا على عثمان لعلهم يتفقون على حلّ لهذه العقدة. ولكنهم لم يتفقوا. فخرج عليّ من دار الخلافة إلى المسجد الجامع يريد الصلاة. فناداه الناس: يا أبا الحسن! تقدّم فصلّ بالناس. فقال: «لا أُصليّ بكم والإمام محصور ، ولكني أُصليّ وحدي»^(١).

ثم غادر المسجد إلى بيته ، بعد أن أمر ولديه الحسن والحسين بأن يحرسا دار الخلافة على رأس نفرٍ من أبناء الصحابة ذوي المكانة في قلوب الناس. وقال للحسن والحسين: «إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعأ أحداً يصل إليه بمكروه!»^(٢).

ولم يكن في نية الثائرين أن ينالوا عثمان بمكروه. وإنما كانت غايتهم ساعتذاك أن يستتيبوه فيتوب ، ويسوموه أن يخلع نفسه. يدلك على ذلك أنّ رجلاً يقال له: نيار بن عياض وكان من الصحابة ، وقف في الصفّ الأمامي من الثائرين وأسمع عثمانَ صوته وهو يناشده أن يخلع نفسه فيسلم ، فبينما هو يسومه خلع نفسه رماه كثير بن الصلت الكندي وكان من اصحاب عثمان من أهل داره بسهم فقتله. فصاح المصريون وغيرهم من الثائرين قائلين: ادفعوا لنا قاتل ابن عياض. فقال عثمان: لم أكن لأدفع إليكم رجلاً نصرني فثاروا إلى الباب فأغلق دونهم، فجاءوا بنارٍ فأحرقوه وأحرقوا السقيفة التي عليه^(٣). ثم راحوا يرمون دارَ الخلافة بالسهم من كلّ مكان ، حتى خضب الحسن بن عليّ

(١) الغدير: ٢٣٨ / ٩ ، نقلًا عن الرياض النضرة ، وتاريخ الخميس.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٤١٨ / ٣٩ ، تاريخ المدينة: ٤ / ١٣٠٤ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٥٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥٥ / ٢.

بالدماء وهو على باب الدار يمنع القوم عن ولوجها بأمر أبيه. وشج رأس آخرين من أنصار علي. وخشي الثائرون أمر بني هاشم ومن يواليهم من القرشيين إذا هم آذوا الحسن والحسين ، وقال نفرٌ منهم: «إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد، ولكن مزوا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد»^(١).

وعملوا بما أجمعوا عليه الرأي فتسور محمد بن أبي بكر وإثنان من أصحابه دار الخليفة من بيت رجل ، يقال له محمد بن حزم الأنصاري ، حتى إذا بلغوا مكانه وجدوه وإلى جانبه امرأته نائلة ، فوجأه صاحباً ابن أبي بكر بنصالٍ حادة حتى قتلاه. ثم خرج الثلاثة من حيث دخلوا ، وصاحت نائلة: لقد قتلوا أمير المؤمنين! وبلغت الصيحة الحسن والحسين ومن معهما من أبناء الصحابة فدخلوا الدار فإذا الخليفة مقتول ، فأكتبوا عليه ييكون.

أما علي ، الذي لم يكن أقدر على دفع الناس عن عثمان من عثمان نفسه لو استمع إلى نصيح ، فإنه ساعةً بلغه الخبر راعه ذلك وصاح في المخبر: «تباً لكم آخر الدهر!» وهرع إلى دار الخليفة القتل ، غاضباً ساخطاً حتى إذا التقى ولديه الحسن والحسين قال لهما: «كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟» ثم أشبعهما لطماً وضرباً، وشم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ومن إليهما من أبناء المهاجرين والأنصار. فبادره طلحة قائلاً: «مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟! لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قُتل!»^(٢).

* * *

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٨ ، تاريخ المدينة: ٤ / ١٣٠٤.

(٢) تاريخ المدينة: ٤ / ١٣٠٥ ، تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٤١٩.

وهكذا فالذين قتلوا عثمان قسمان: قسمٌ ثار للحقِّ واستتباب الرجل فأبى أن يتوب فحصره في داره ثم قضى عليه، وهو يتألف من الكافة في الحجاز ومصر والعراق وسائر البلاد. وقسمٌ آخر فتنته الغنائم فكان معه إماماً مطاعاً، وخذله مهيضُ الجناح^(١) محاصراً. أما القسم الأول فقد سبق الكلام عليه، وأما القسم الثاني فسوف نُرجئ الحديث عنه إلى مطلع باب «المؤامرة الكبرى»، لاتصال ما فعل وما أحدث بالكيد لعلّي وللمغلوبين على أمرهم الذين جاء الإسلام ليرفعهم مما كانوا فيه من غبنٍ، فأبى الوجهاء. فاستمرت الثورة. أما الآن فلنقف قليلاً مع نفرٍ من المؤلفين المعاصرين لنسمعهم يقولون ويسمعونا في أمورٍ وأحداثٍ تتعلق بأسباب الفتنة ومعناها.

(١) مهيض الجناح: مكسور الجناح. المنجد: ٨٨١ مادة «هيض».

أقوال وردود

- وفي الشرق كتابٌ لا يعنيه من التاريخ واقعٌ ولا من الحياة حالٌ أو ظرفٌ، فإذا بهم يملّون ثورةَ المظلومين على أ أيام عثمان، ويحصرون أحداثَ عصرٍ بل عصور، بإرادةٍ فردٍ يطوّفُ في الأمصار والأقطار، ويؤلّبُ الناسَ على خليفةٍ ودولة.

تلك هي الأسباب الحقيقية في ثورة الجماهير على عثمان وبطانته. وتُضحكك - ولا شك - تعليقاتُ بعض الباحثين، إذ يرمون بأبحاثهم إلى رفع كل مسؤولية عن كل مسؤول حقيقي في مقتل الخليفة الثالث لثلاث يأخذ الناس عليهم مأخذاً في الإيمان! فإذا هم كالذين يسعون في تحويل مجاري المياه من تحت إلى فوق. وأمثال هؤلاء كثير. ومعظمهم يجيزون الغفلة في قرائهم، وإلا لما أجازوا المنطق الساذج والرأي المسكين. من هؤلاء مؤلف «عائشة والسياسة»^(١) فإن صاحبنا هذا وضع كتاباً طويلاً عريضاً ليُقنع قارئه في فصولٍ طويلةٍ عريضة بأن السبب الأول والأخير في ما آلت إليه أحوال العالم العربي في عهد عثمان وفي مصرع الخليفة الثالث، ثم في ما حدث بعد ذلك من أحداثٍ جسام إنما هو محصورٌ في وجود رجلٍ يدعى عبد الله بن سبأ وفي تصرفاته!

والنتيجة العملية لمثل هذا الزعم وهذا الافتراء هي: أن الدولة في عهد

(١) راجع كتاب عائشة والسياسة لسعيد الأفغاني .

عثمان ووزيره مروان إنما كانت دولةً مثاليّةً ، وأنّ الأمويّين والولاة والارستقراطيين إنما كانوا رُسُلَ العدالة الاجتماعية ، والإخاء البشري في أرض العرب. غير أنّ رجلاً فرداً هو عبد الله بن سبأ أفسدَ على الأمويّين والولاة والارستقراطيين صلاحهم وبرّهم ، إذ جعل يطوف الأمصارَ والأقطار مؤثِّباً على عثمان وأمرائه وولّاته الصالحين المُصلحين. ولولا هذا الرجل الفرد وطوافه في الأمصار والأقطار لعاش الناس في نعيمِ مروان وعذْل الوليد وحلم معاوية عيشاً هو الرّغادة وهو الرخاء.

وفي مثل هذا الرّغم افتراءٌ على الواقع واعتداءٌ على الخلق ، ومسايرةٌ ضئيلة الشأن لبعض الآراء ، يلفّ ذلك جميعاً منطقٌ ساذجٌ وحجّةٌ مصطنعةٌ واهية. وفيه ما هو أخطر من ذلك: فيه تضليلٌ عن حقائق أساسية في بناء التاريخ ، إذ يحاول صاحب هذا المسعى الفاشل أن يحصر أحداثَ عصرٍ بكامله ، بل عصورٍ كثيرة بإرادة فردٍ يطوف في الأمصار ويؤثِّب الناس على دولةٍ فيثور هؤلاء الناس على هذه الدولة لا لشيءٍ إلّا لأنّ هذا الفرد طاف بهم وأثارهم.

أمّا طبيعة الحكم وسياسة الحاكم وفساد النظام الاقتصادي والمالي والعمراني ، وطغيان الأثرة على ذوي السلطان ، واستبداد الولاة بالأرزاق ، وحمل بني أُميّة على الأعناق ، والميل عن السياسة الشعبية الديموقراطية إلى سياسة عائلية ارستقراطية رأسمالية ، وإذلال مَنْ يضرهم لهم الشعبُ التقدير والاحترامَ الكثيرين ، أمثال أبي ذرٍّ وعَمّار بن ياسر وغيرهما ، أمّا هذه الأمور وما إليها جميعاً من ظروف الحياة الاجتماعية فليست بذات شأن في تحريك الأمصار وإثارتها على الأسرة الأموية الحاكمة ومَنْ هم في ركابها في نظر المؤلف المذكور! بل الشأن كلّ الشأن في الثورة على عثمان لعبد الله بن سبأ

الذي «يلفت الناس عن طاعة الأئمة ويُلقى بينهم الشر» كما يقول المؤلف مستشهداً بقول سيّواه! (١)

أليس من الخطر على التفكير أن ينشأ في هذا الشرق من يعلّلون الحوادث العامة الكبرى ، المتصلة اتصالاً مُحْكَمًا وثيقاً بطبيعة الجماعة وأُسُس الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية بإرادة فردٍ من عامة الناس ، يطوف في البلاد «بأذراً للضلالات والفساد في هذا المجتمع السليم» كما يقول المؤلف المذكور ، ويعني بـ «هذا المجتمع السليم» مجتمع مروان بن الحكم؟ أليس من الخطر على التفكير أن نعلّل الثورات الإصلاحية في التاريخ تعليلاً صبيانياً، نستند فيه إلى رغبات أفرادٍ في التاريخ شاؤوا أن يُحدثوا «شغباً» فطافوا الأمصارَ وأحدثوه؟

انظر كيف يتحدّث مؤلّف كتاب «عائشة والسياسة» عن خطر عبد الله بن سبأ ، أو ابن السوداء كما يسمّيه ، وكيف يسعى بصورةٍ لا شعوريةٍ في تعظيم معاوية على ضالة شأنه في مقاييس الرجال ، وفي تحطيم أبي ذر الغفاري على عظمة شخصيته في كلّ مقياس. وهو بذلك ينزع عن لسان أكثر الباحثين ، الذين يطلبون الجنة بما يؤلّفون ، يقول:

«لقد طاف - عبد الله بن سبأ - أقطار المسلمين قطراً قطراً. بدأ بالحجاز باثناً ضلالاته كما تقدّم ، ثم انعطف إلى الشام ، والشام يومئذ بيد بصير بأمر معاوية ابن أبي سفيان الذي فطن إلى خطره فأبعده، إلّا أنه على حدّره قد أصابه رشاش من إفساده... لقد قدر ، وزرع ، وحرك على معاوية صحابياً جليلاً أذعن عامة الشاميين لأقواله ، وضاق به ذرعاً معاوية الداهية الحليم ، واضطرّ إلى أن

(١) للمزيد راجع كتاب عبد الله بن سبأ للسيد مرتضى العسكري.

يطلب من الخليفة عثمان إخراجَه من الشام ، ذلك هو أبو ذر ، وحادثه مشهور!«.

فالذي يُستخلص من هذا القول أنّ ولايات الدولة العربية في عهد عثمان كانت في نعيم ، وخصوصاً ولاية الشام التي كانت يومذاك بيد «بصير بأمره» هو معاوية. وأنّ أبا ذر الغفاري المصلح العظيم لم يكن شيئاً مذكوراً، لولا أن يأتيه عبد الله بن سبأ ويوقظه. ثم إنّ عبد الله بن سبأ لم يوقظ أبا ذر إلا على إفسادٍ وتضليل وتخريب! ذلك لأنّ عبد الله كان - في زعم المؤلف - أصل الفساد والخراب ، ولم تكن له رغبة من «طوافه في أقطار المسلمين قطراً قطراً» إلا فيهما. فبات من الطبيعي عند ذاك أن يسعى أبو ذر في ما أراده عبد الله بن سبأ وهو بث الضلّالات وإلقاء الشرّ بين الناس والميل بهم عن طاعة الأئمة.

ويشفق المؤلف على العرب ، والمسلمين ، والتاريخ ، من مساعي أبي ذر في «تأليب الفقراء على الأغنياء وخوف معاوية على الشام منه» حتى «ضاق معاوية الحليم ذرعاً بأبي ذر» فأخرجه من الشام رحمةً بالعرب ، والمسلمين ، والتاريخ.

وبعد ، أفلا يذكرك منطقُ هذا المؤلف الذي يخاف على الشام من أبي ذر فوق ما يخاف منه معاوية ، وعلى الأغنياء من الفقراء ، وعلى سلامة المجتمع البشري من عبد الله بن سبأ ، بمنطقِ حكام التاريخ وأصحاب الذهنية التي تزن الوجودَ بميزان الفرد ، وتحصر هذا الفرد بشخص الحاكم ، وتخشى على الحاكم من هينمات النسيم ولمس الورود ، فكل من طالب بحق الجماعة في الحياة هو في نظر هذا الحاكم ومن يليه مُفسدٌ مُشاغب يبت الشرّ ويُلفت الناس عن طاعة الأئمة؟.

أفلا يدهشك أن يدرك المؤرخون القدامى من أسباب الفتنة ما لا يدركه المخدثون، وآلة هؤلاء من ثقافة العصر تفوق آلة أولئك، وعدتهم أيسر من عدة السابقين؟ فإذا بصاحب «عائشة والسياسة» يسند أسباب الثورة على عثمان إلى طواف ابن سبأ في الأمصار ويقول فيه ما ذكرناه، وإذا بالطبري ومن هم دونَه وفوقه وفي مستواه يعللونها تعليلاً صحيحاً، ويسندون أسبابها إلى عوامل مادية سليمة الشروط، فيقول الطبري في جملة ما يقول: «إن الذين لا سابقة لهم في الإسلام ولا قدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة في المجالس والرياسة والحظوة. ثم إنهم - وهم السواد الأعظم - كانوا يعيبون العطاء ويجعلونه جفوة لأن نصيبهم منه قليل. فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي أو محرّر، استحلّ كلامهم، فكانوا في زيادة - يقصد الطبقات الناقمة على عثمان - وكانت الطبقة الراضية في نقصان حتى غلب الشر»^(١).

ومن الغريب حقاً أن يقع في مثل هذه الأغلاط في النظر والرأي باحث معاصر آخر كأحمد أمين، إذ يرى في أبي ذر الغفاري رجلاً ساذجاً يقوده عبد الله بن سبأ ويغريه بآراء مزدكية^(٢) لكي يعينه على خراب البلاد. ومن الأغرب أن يستشهد أحمد أمين على اقتناع أبي ذر بآراء ابن سبأ المزدكية بهذا القول الذي رواه الطبري قال: «قام - أبو ذر - بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء! واسوا الفقراء، بشر الذين يكتزون الذهب والفضة... الخ»^(٣). فكيف يرى أحمد أمين أن مطالبة الأغنياء بمؤاساة الفقراء رأي مزدكي، ولا يرى أنها رأي إسلامي خالص؟ ثم، ألا يرى اللحمة والانسجام بين قول أبي ذر:

(١) تاريخ الطبري: ٣/٣٣٣.

(٢) المزدكية: فرقة منحرفة اسم مؤسسها «مزدك».

(٣) راجع فجر الإسلام ص ١١٠.

«يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء!» وبين ما يليه من قول: «بشّر الذين يكتزون... الخ»^(١) وهو آية قرآنية؟! أو لم يكن أبو بكر وعمر يعلمان ما يقوله أبو ذر فيؤاسيان الفقراء ، ويأخذان على أيدي الأغنياء؟ فلماذا لم يخترع لهما أحمد أمين مزدكياً غير ابن سبأ ؛ ليقول إنهما تتلمذا له وأخذا عنه آراء مزدكية؟

ويؤكد أحمد أمين في مكان آخر من فجر الإسلام: أن عبد الله بن سبأ «هو الذي حرك أبا ذر الغفاري للدعوة الاشتراكية ، وهو الذي كان من أكبر من ألّب الأمصار على عثمان»^(٢) وفي مكان آخر يقول: «وحاول أن يفسد على المسلمين دينهم وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة. وكان قد طوّف في بلاد كثيرة: في الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر ، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذر حسن النية في اعتقادها»^(٣).

كل هذا ولا يخطر لمؤلف فجر الإسلام أن يطرح على نفسه هذا السؤال: ما هو الجديد الطارئ في آراء أبي ذر على الإسلام؟ أفليس من تعاليم الإسلام أن للفقراء حقوقاً على الأغنياء ، وأن المسلمين سواء ، وأن كانزي الذهب والفضة إنما يكتزون ما تكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم في جهنم^(٤) كما تقول الآية القرآنية؟ فأبي جديد مزدكي على المسلمين في هذه الآراء التي حملها أبو ذر ودافع عنها ؛ وهو إنما يدفع بذلك شرّ الذين حاربهم الإسلام

(١) إشارة إلى الآية ٣٤ من سورة التوبة.

(٢) فجر الإسلام: ص ٢٦٩.

(٣) فجر الإسلام: ص ١١٠.

(٤) إشارة إلى الآية ٣٥ من سورة التوبة.

وأنذرهم بنار جهنم؟

ثم ما الذي يُغَوِّزه رجلٌ كأبي ذر كان خامسَ المسلمين ، وصاحبَ النبي ورفيقَ الخليفَتين الأولين ، ورأسَ شيعة علي ؛ لكي يدرك أنَّ المالَ للجماعة يعيشون به لا للأفراد يكتنزونونه ، وأنَّ هذا المبدأ حقٌّ وواجب؟

وما الذي يغوزه رجلٌ كأبي ذر لكي يدرك أنَّ مال الجماعة قد استأثرت به القلةُ القليلة في عهد عثمان ، وأنَّ للجهور دولةً وسلطاناً ، وأنَّ الإسلامَ غيرُ هذا، فعلى المسلمين أن يغيروا في أرضهم أشياء؟

وأخيراً ، هل كان أبو ذر بحاجةً إلى عبد الله بن سبأ ، لأن يدله ويدلَّ المسلمين على أنَّ عثمان سلك طرقَ القياصرة والأباطرة في إثارة أقرابه وأنصاره بالحكم والنفوذ والمال ، فيدرك أبو ذر أنَّ الحاكمين قد ضلُّوا ويدرك المسلمون أنَّهم محرومون مغبونون فيثور الغفاري ويثور معه الناس؟!

لقد فطن هؤلاء المؤلفون لعبد الله بن سبأ والمزدكية ، ولم يفتنوا لأبي ذر والإسلام. وهالهم «تأليب ابن السوداء الناس على الأئمة» فراحوا يجدون فيه سببَ النعمة على عثمان ، ولم يهملهم ما أنكره المسلمون على عثمان وما ينكره كلُّ شعبٍ على كلِّ حاكمٍ في كلِّ عصرٍ من إثارة الفئة القليلة على الجماعة الكثيرة ، ومن استئساد هذه الفئة برأي الحاكم وبَعونه ؛ لهذا راحوا يسألون الساقيةَ الناضبة البعيدة عن مصدر الغيث ، ولم يسألوا البحر المحيط القريب.

* * *

ويختلف الباحثون في كثيرٍ من الحوادث التي آلت إلى مصرع عثمان. وأبرز هذه الحوادث التي يختلفون فيها: قصَّة محمد بن أبي بكر ، والكتاب الذي وُجِه من المدينة إلى مصر وفيه أمرٌ للوالي القديم بقتل الوالي الجديد وقد ذكرناها بالتفصيل.

ولنتوقف قليلاً ، لكي نرى رأياً في هذه القصة التي أثبتتها قومٌ وأنكرها آخرون واطمأن إلى صحتها باحثون واستغرب وقوعها باحثون. وأجلّ الآراء التي عرضها منكمرو هذه القصة رأي الأستاذ الكبير: الدكتور طه حسين صاحب النظرات القيمة في تاريخ الإسلام والعرب، بل أجلّ من رأى وعرض رأياً في مشكلات الأتولين. يقول طه حسين في كتابه الفذ عثمان:

«وهنا تأتي قصة الكتاب الذي يقول الرواة إنّ المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر فكثروا راجعين. فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها. وليس أدلّ على ذلك ممّا يقول الرواة أنفسهم: من أنّ أصحاب النبي لم يكادوا يجادلون القوم في كتابهم هذا ، ويسألونهم كيف علم أهل الكوفة وأهل البصرة بأنكم قد أخذتم هذا الكتاب، وقد ذهب كل فريقٍ منكم إلى وجهه؟ حتى عجزوا ولم يعرفوا كيف يجيبون ، وقالوا: ضعوا هذا الأمر كيف شئتم ، فلا حاجة لنا بهذا الرجل. وليس بمعقولٍ ولا بمقبول أن يكيّد عثمان للمسلمين هذا الكيد ، فيعطي فريقاً منهم الرضا ، ثم يرسل إلى عامله سرّاً من يُبلغه الأمر أن يبطش بهم ويرهقهم من أمرهم عسراً. وليس بمعقولٍ ولا مقبول أن يجترئ مروانُ على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويُمضيه بخاتمه ويرسله مع غلامه على جملٍ من إبله. والأمر أيسرُ من هذا. تلقى أهل الأمصار وغداً من إمامهم فاطمأنوا إليه ، ثم تبيّنوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، فأقبلوا ثائرين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وآلا يعودوا حتّى يفرغوا منه ، فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد تهيّأوا للقتالهم ، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتّى إذا عرفوا أنّ هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا في دورهم كثروا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال!«.

ليس من قضية في التاريخ أثبتتها قومٌ بما رُوِيَتْ عليه وهم مُغالون

وأنكرها قومٌ ولو قامت عليها البيّنات وهم مُغالون كذلك ، إلا وجاز في أمرها الشكّ والارتياب. وأخصّ بالذكر تلك القضايا التي تخدم أغراضاً حزبية أو تؤيد مذاهب دينية لدى هذا الفريق من الخلق أو ذاك. ولا يزول هذا الشكّ إلا بشاهدٍ من التاريخ نفسه لا يمكن إنكاره، أو بتعليلٍ معقولٍ يقوم بنفسه شاهداً ودليلاً. وقضية الكتاب المذكور جديرة بأن تثير لدى الأستاذ الجليل طه حسين فكرة الارتياب بصحتها. ومستند الارتياب لديه جديرٌ بأن يُسلم به لولا أمورٌ في الخاطر تعترض مثل هذا التسليم.

أما ما يراه الأستاذ الجليل من عجز القوم عن أن يجيبوا كيف تأتى لأهل الكوفة وأهل البصرة أن يعلموا بأنهم قد أخذوا هذا الكتاب وقد ذهب كلّ فريقٍ منهم إلى وجهه ، فليس حجةً كافيةً لإنكار خبر الكتاب من أساسه ، وكان في كلّ روايةٍ السببَ المباشر في عدول محمد بن أبي بكر وأصحابه عن متابعة الطريق إلى مصر والعودة إلى المدينة، وقد بعدوا عنها مسيرَ ثلاثة أيام أو ما ينيف. وأن يكون القوم قد عجزوا عن أن يجيبوا إجابةً شافية وهم في حنقٍ وسخط واضطراب وثورة ، ليس بأمرٍ ثابتٍ كذلك.

أما الأمر الثابت في كلّ رواية وفي منطق الحوادث وتسلسلها ، فهو: أنّ عثمان ولى محمد بن أبي بكر وأخرجه إلى مصر في قومٍ من المهاجرين والأنصار. وأنّ محمداً وأصحابه وثقوا بما أعطاهم عثمان من عهد وساروا في طريقهم، ثم ما لبثوا أنّ قفلوا راجعين قبل أن يبلغوا إلى أرض مصر. فلماذا عادوا؟ ولماذا عادوا حانقين ، واضطروا إلى المداورة كي يتمكنوا من دخول المدينة من غير قتال؟

لا يحدثنا التاريخ ولا الحوادث ولا تُنكرو حدوث القصة عن سببٍ غير هذا الكتاب في عودتهم هذه. ثم إنّ المهاجرين والأنصار الذين أوفدهم

الخليفة مع محمد بن أبي بكر كي ينظروا بين أهل مصر وابن أبي سرح ،
ويمهدوا الطريق لابن أبي بكر ، لم يكونوا بحكم المنطق إلا متن اجتماعوا
على طاعة عثمان. وهم إن لم يكونوا كلهم من عثمان بمنزلة الأنصار والأعوان
فقليلهم كان منه ، ولا ريب بهذه المنزلة. وإذا كانوا كذلك ، وهم كذلك ،
فكيف يُجمعون على تزوير كتاب بلسان الخليفة وهو منهم براء؟ وإذا كان
غيرهم قد زوره فكيف يجمعون على الاعتراف بصحته؟

وإذا كانت قصة الكتاب ملفقةً من أصلها ، فلم يكن هنالك كتاب ولم
يرجع محمد بن أبي بكر وأصحابه إلى المدينة بسببه ، بل اخترع قصته
المخترعون من الذين حازبوا على عثمان بعد مقتله، فكيف يعترف الرواة
والمؤرخون وفيهم الدكتور طه حسين نفسه ، بأن أصحاب النبي جادلوا القوم
في كتابهم هذا؟ وسألوهم: كيف علم أهل الكوفة وأهل البصرة بالأمر وقد
ذهب كل فريقٍ منهم إلى وجه؟

فالكتاب موجودٌ باعتراف طه حسين نفسه، إذ يقتر بأن أصحاب النبي
جادلواهم في أمره وأطالوا الجدل.

ولكن ، مَنْ دس هذا الكتاب وكاد هذا الكيدَ لمحمد بن أبي بكر ومَنْ
معه مِنَ المهاجرين والأنصار وكل من يناصره ويغاضب ابن أبي سرح من
أهل مصر؟

يستغرب الدكتور طه حسين أن يصدر مثل هذا الأمر عن عثمان نفسه
فيقول: «وليس بمعقول ولا بمقبول أن يكيد عثمان للمسلمين هذا الكيدَ
فيعطي فريقاً منهم الرضا، ثم يرسل إلى عامله سرّاً مَنْ يُبلغه الأمر أن يبطش
بهم ويرهقهم من أمرهم عسراً».

هذا قولٌ حق، فليس بمعقول ولا بمقبول أن يكيد عثمان للمسلمين هذا

الكيد، ولكن مزاج عثمان اللين كان يدفعه أكثر الأحيان لأن يعمل بإرادة بني أبيه بني أمية، وهم من هم في الكيد والافتراء والاجتراء. ويُخبرنا تاريخ عثمان أنه كان يُفتي بعمل معين ثم يعود ويندم حتى يبكي ندماً، مما يدل على أن القوم من بني أمية كانوا يلحون عليه حتى يُخرجوه عن طبعه السليم وتخلقه الرحيم، فيفعل ما لا يلبث أن يندم على فعله. من ذلك أنه أساء إلى أبي ذر أشد إساءة، ثم سعى جاهداً في أن يبذل له أبو ذر رضاه. ثم ما برح أن نقم على أبي ذر فنفاه وأماته وزوجه وأولاده الميتة المريضة التي تحدثنا عنها في فصل سابق.

ومن ذلك أنه أهان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، وأمر به فُضربت به الأرض فذقت ضلعه، وقُطع عنه العطاء. ثم ما لبث أن اعتذر له واستغفر. ومن أخباره أيضاً أنه كان يأمر علياً بمغادرة المدينة، ثم يطلب إليه أن يعود إليها ويلزمها، ويفعل ذلك مراراً حتى يقول علي: «ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جماً ناضحاً بالغرب أقبل وأدبر: بعث إلي أن أخرج، ثم بعث إلي أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إلي أن أخرج!»^(١).

وها هو يُطلق يد عبد الله بن أبي سرح في مصير أهل مصر، فيقسوا بن أبي سرح ويُسِيء، فيقبل المصريون عليه في المدينة ويشكون عامله عليهم، فيخطب عثمان الناس ويثني على أهل مصر، ويعطي التوبة ويستغفر ويبكي ويعطيهم العهد بعزل الوالي الجائر. ثم يعود إلى دار الخلافة، فإذا بمروان يلوي به عما عقد عليه النية وعما بذله من رضا، وإذا الخليفة لا ينفذ شيئاً مما أعطى من عهد.

(١) نهج البلاغة الخطبة ٢٤٠، شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٢٩٦.

وليس أمرُ أبي ذرّ وعبد الله بن مسعود بأيسر لديه من أمر محمد بن أبي بكر. وليست دعوتهما للإصلاح بأثقلَ على بطانته من تمرد المصريين على دار الخلافة بالمدينة ، ودار الولاية بمصر مرّةً بعد مرّة. ثم إنّ ابن أبي بكر من المشنّعين على سياسة عثمان ، وابنُ أبي سرح من العاطفين عليها. واتّجاه المصريين إلى هنا أو هناك ، بسياسة العامل ، يقوّي عثمان أو يُضعفه. فليس من المستغرب على ضوء هذه الحقائق أنّ يندم عثمان على تولية ابن أبي بكر مكان ابن أبي سرح ، وأنّ يعطي المصريين عهداً وهو خارجٌ من إرادة مروان، ثم ينقض هذا العهد بتأثير مروان ومن إليه من بطانته وذويه. ويعرف العارفون أن نصائح مروان ورهطه للخليفة تكاد تنحصر في دائرةٍ من التعنيف والنفي والتشريد والتقتيل، سواءً في ذلك الثائرون والمتمردون من أصحاب محمد وعامة الناس.

نسوق هذا الحديث لا تبريراً لمن يزعمون أنّ عثمان هو في الواقع صاحب الكتاب ، بل توضيحاً لواقع عثمان بين طبعه الرقيق وعاطفته اللينة الطيعة وبين كيد مروان وآل الحكمّ ، القابضين منه على اليد والعصا. فإذا لم يكن بمعقولٍ ولا بمقبول أن يكيد عثمان للناس على هذه الصورة، فإنّ المعقول والمقبول أن يحمله مروان حملاً على ما يريد ويشتهي.

كلّ هذا ولا نزال نرفض أن يكون عثمان صاحب الكتاب؛ ذلك لأسبابٍ كثيرةٍ منها: أنّا نستبعد أن يُدعّن لمشورة مروان في مثل هذا الأمر. ومنها أنّ الأدلة التي تدين مروان نفسه أثبتت وأوضح. ولنعدّ إلى حديثنا مع الأستاذ الجليل طه حسين: يرى طه حسين - كما تبين - أنّ قصة الكتاب هذه ملققة من أصلها للسببيين اللذين تحدثنا عنهما، ثم لسببٍ ثالث نراه نحن أضعف الأسباب الثلاثة في الإقناع بأنّ القصة مخترعة. ويقوم هذا السبب بإنكاره

رواية مَنْ يسندون هذا الفعل لمروان بن الحكم؛ لأنه «ليس بمعقولٍ ولا مقبولٍ أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويمضيه بخاتمه ويرسله مع غلامه على جَمَلٍ من إبله!».

ليس غريباً أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب ويرسله مع غلامه. ولكن الغريب! أن يستبعد المرء مثل هذا الاجترأ من مروان. هذا إذا صحَّ أن نسمي هذا العمل اجترأً بالنسبة لمروان الذي يرى الملك ملكه، والدنيا دنياه، والناس عبده ومواليه يُحيي منهم مَنْ يشاء ويُميت من يشاء بغير حساب. ولكي نرى رأيًا في استغراب الدكتور طه حسين الروايات القائلة بأن الكتاب إنما هو من صنع مروان، وأن المؤامرة إنما هي نتاج منهجه في السياسة وأسلوبه في الحكم - وكان هو الحاكم الفعلي في عهد عثمان - لا بد من الاستناد إلى أمور ثلاثة:

أما الأمر الأول: فالأسانيد التاريخية التي أجمعت - على اختلاف مذاهب أصحابها في شؤون الخلافة - على أنَّ علياً دخل على عثمان على رأس وفدٍ من الصحابة، فيهم عمار وطلحة والزبير وسعد، وهو يحمل بيده الكتاب ومعه الغلام وبعيره، فجادل الخليفة الثالث في شأن الكتاب وبعد حينٍ تبين للصحابة هؤلاء أنَّ الخطَّ لمروان، فطلبوا أن يمثل مروان أمامهم لامتحانهِ، فلم يُجنِّبهم عثمان إلى ما طلبوا فخرجوا مغضبين. وقد روينا هذا الخبر بالتفصيل في ما سبق فارجع إليه إذا شئت.

أما الأمر الثاني: فجلاء نظرة مروان إلى خلافة عثمان. هل كان عثمان في نظر ابن الحكم خليفةً كأبي بكر وعمر، أم أمويّاً لا بد أن يستعيد بنو أمية على يديه ما أفقدهم إياه الإسلام من السلطان على الرقاب واستعباد الناس واسترقاق بني آدم، فما على الفرصة أن تفوتهم وقد آل إليهم الأمر بعد

انتظار طويل؟!

إنّ تاريخ مروان يفيض بهذه الروح الأموية التي تدور في نطاقٍ متن خصائصها الجاهلية الخالصة، كما تفيض الإسفنجة في قعر اليمّ بالماء. ففضية الخليفة في قلبه وعلى لسانه ، وفي مدى تصوّره ، ليست قضية عثمان القرشي المهاجر ، الذي والى النبي وأخلص للرسالة ، واختاره عمر بن الخطاب واحداً من ستة هم أهل الشورى ، ثم انتخبه المسلمون ، في ظرف خاص ، ليكون الخليفة الثالث، ويسير على نهج سلفيه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. بل إنّ قضية عثمان في قلب مروان وعلى لسانه ، وفي مدى تصوّره ، هي قضية عثمان الأموي المنحدر من أسرةٍ يجب ألا تغرب شمسُ أمجادها بعد اليوم.

وقضية الخلافة في قلب مروان وعلى لسانه ، وفي مدى تصوّره ، ليست حكماً بعدلٍ ، وانصافاً للمظلوم من الظالم ، وسهراً على الحقوق العامة واستمراراً لسيرة النبي والصدّيق وابن الخطّاب في الناس ، بل هي ملك «أضاعه» أبو بكر وعمر فلم يورثاه وُلدهما ، وعلى عثمان الأموي ألا «يرتكب الغلطة ذاتها» فيشعر الناس بأن الخلافة منهم وإليهم ، وأنّ وجوده إماماً لهم إنّما هو مرتبطٌ بمقدار ما يُبيح للناس من الحرية ، وما يحفظ لهم من حقوق ويرفع من كرامات. بل عليه أن يقف منهم موقف «الملك» الحازم من عبيده ورعاياه، فلا يترك لهم مجالاً لأن يتذمروا من نقصٍ أو يطمعوا في مزيد! وهو إنّ عجز عن مثل هذا التسلط بحكم إيمانه ورقّة مزاجه ، فمروان له ينصحهُ ويُشير عليه لا يترك كبيرةً ولا صغيرةً من شؤون «الملك والرعيّة» إلا وتمرّ بين يديه. وقد أفضنا في الحديث عن حقيقة مروان وعن مدى تصوّره لشؤون زمانه في فصلي «بيتا قريش» و«الحقيقة عن مقتل عثمان» فلسنا بحاجة هنا لأن نردّد ما أوضحناه، وإنّما هي الإشارة اللازمة في هذا المقام. وما

فاتنا أنّ الرجل قال لمن حاصروا دار الخلافة: «ما شأنكم قد اجتمعتم علينا ، كأنكم جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا؟».

لقد كانت الخلافة ملك مروان الأموي... فليس من حق «الرعية» أن يرفعوا وجوههم ليقاضوا «ملكهم» في أمور معاشهم وحزيتهم. فهو ملك من أمة وهم ناس عبيد!

ومن كان ينظر إلى الخليفة والخلافة هذه النظرة ، ويصدر بأحكامه عن مثل هذا التصور ، هل يرضى بأن يُطمع «الناس» في ملك نسيبه عثمان أو ملكه هو لا فرق ، فيرضخ^(١) «الملك» لما يريدون ، ويعزل عاملاً موالياً للأُمويين وملكهم عن ولاية ذات شأن في المال والرجال وسعة الأرض ، مستبدلاً به محمد بن أبي بكر الناقم عليهم في جملة الناقمين، الموالي لعلّي بن أبي طالب زعيم الفئة الخيرة التي هالها أن تنحرف حاشية عثمان هذا الانحراف عن مبادئ العدالة الاجتماعية؟ ثم إننا لا ننسى أنّ الثائرين والمستائنين من الصحابة ومن وراءهم هم الذين أشاروا على عثمان بتولية ابن أبي بكر، دون أن يؤخذ في أمره رأي مروان. وما كان مروان ليرضى بهذا «الاعتداء» على سلطانه!

وحين يبدو لنا أن حقيقة النظرة المروانية إلى الخلافة تدور في مثل هذا النطاق، فلا تجوز نظر الأمويّ الجاهلي إلى مجد انتزع منه ثم أعيد إليه. وحين يبدو لنا أنّ حقيقة النظرة المروانية إلى عثمان إنما هي نظرة من يرى في الخليفة الثالث ممثلاً للعنصرية الأموية والزعامة الأموية، يصبح من السهل علينا أن نقبل اجتراء مروان على نسيبه وحاميه عثمان. نقبل هذا الاجتراء على

(١) فيرضخ ، رضخ: انصاع ، خضع، أذعن. المنجد: ٢٦٥، مادة «رضخ».

أنه في قلب مروان وفي منطقته وعلى لسانه ، ليس اجتراءً ولا افتراءً ، بل حقاً يمارسه أمويٌّ جاهليٌّ لم يوغل الإسلام في نفسه كثيراً ولا قليلاً ، ويوجهه في الإشارة على نسيبه الخليفة، وفي النصيح له على ما يراه ويرغب فيه.

والشواهد التي تدلّ على ما يسمّيه الأستاذ الجليل «اجتراءً» من مروان على عثمان ، أكثر ممّا نحتاج إليه في هذا الحديث. فهو الذي اجتراً على أصحاب النبي وعلى عثمان ساعة أسدى إلى الخليفة نصحه بقتل هؤلاء جميعاً، وفيهم عليّ بن أبي طالب وعتمار بن ياسر وأبو ذرّ الغفاري وغيرهم. وهو الذي اجتراً على ابن مسعود وعثمان ساعة أصدر أمره إلى الخليفة مشيراً إلى ابن مسعود يقول: إنه أفسد عليك الكوفة ، فلا تدعه يفسد عليك الشام! فاستجاب عثمان لقوله دون معارضة أو جدال. وهو الذي اجتراً على أبي ذرّ ومودّعيه عليّ وابنيه وأخيه ورفيقه، فما كف عن اجترائه حتى لعنه عليّ وساط راحلته وكاد يسوطه. وهو الذي اجتراً على عثمان في أخرج ساعاته بأن قام يرذّ الوفود عن دار الخلافة نهراً وزجراً وتعنيفاً على هواه والخليفة سامعٌ ناظر، وهو الذي اجتراً على عمار وعثمان ساعة أمر عثمان بقتل عمار أمراً صريحاً.

ومن اجتراء مروان على الخليفة الثالث أكثر من ذلك أيضاً. لقد اجتراً مروان على السيدة نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان ، وعثمان يرى ويسمع. وخبرٌ ذلك: أن نائلة كانت عاقلةً حكيمة تسوّها سياسة مروان، وتدفع زوجها إلى الأخذ بنصيحة عليّ بن أبي طالب. ولما كانت خطبة عثمان التي أظهر فيها التوبة لوفود الأمصار المتذمرة الشاكية ، وأعطاهم العهد على الإصلاح ، جاءه مروان يريد منه أن يرجع عما أعطى وأن يرذّ ما فات ، فبدأ كلامه بهذا السؤال: يا أمير المؤمنين! أأتكلّم أم أسكت؟ فقالت نائلة: (لا بل تسكت!

فأنتم والله قاتلوه ومُيْتِمُو أطفاله!) إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها! فما كان من مروان إلا أن أجابها يقول: «وما أنتِ وذاك؟ والله لقد مات أبوك وما يُحسن أن يتوضأ»^(١) أفليس اجتراء مروان على عثمان بأمر الكتاب وعثمان لا يعلم من أمره شيئاً، بأيسر من اجترائه عليه إهانة زوجته على مسمع منه؟

وقد عرف الناس في عهد عثمان فصولاً من جرأة مروان على الخليفة لم يُنكروها ولم يُخفوها، بل حملوها إلى مسامع عثمان توبيخاً وتأنيباً، فما استطاعوا بذلك أن يُخرجوه عن رأي مروان. أفلم يدخل عليّ على عثمان فيكلمه باسم الجماعة، قائلاً: «فلا تكوننّ لمروان سَيِّقَةً»^(٢) يسوقك حيث شاء بعد جلال السن! فإنك معه كجمل الظعينة، يقاد حيث يُسار به. وإني لأراه يُوردك ولا يُصدرك»^(٣).

وأن اجتراء مروان على عثمان كان شيئاً من اجتراء الناس جميعاً عليه في آخر حكمه، كما كان سبباً في اجتراء الناس. فقد مرّ معنا خبر عثمان مع جبلة بن عمرو الساعدي، وكيف طلب جبلة من الناس ألا يردّوا على عثمان سلاماً، وكيف قال له: «والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركنّ بطانتك هذه الخبيثة... الخ». فأين ما يستغربه الدكتور طه حسين من اجتراء مروان على الخليفة بأمر الكتاب، من اجتراء جبلة بن عمرو عليه هذا الاجتراء العجيب، وهو رجل من عامة الناس؟ أو لم يكن مروان أدرى الخلق بـبلين عثمان، وبما له عليه من سلطان؟

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤٦ / ٢.

(٢) السّيقة: ما استاقه المدوّ من الدواب. لسان العرب: ١٦٧ / ١٠، مادة «سوق».

(٣) نهج البلاغة، الخطبة - ١٦٤، شرح نهج البلاغة: ٢٦٢ / ٩، تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٨ (مع اختلاف يسير).

المؤامرة الكبرى

- قد أعدوا لكلِّ حقٍّ باطلاً، ولكلِّ قائمٍ
مائلاً، ولكلِّ حيٍّ قاتلاً، ولكلِّ بابٍ مفتاحاً،
ولكلِّ ليلٍ مضباحاً^(١)

عليّ

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٤ - ٩.

المحرّضون على عثمان

- إنهم لَيُطلبون حقاً هم تركوه ، ودماً هم سفكوه! (١)

علي
- ويلي من طلحة! أعطيه كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي! (٢)

عثمان
- ولكنتك ، يا معاوية! أردت أن أُقتل فتقول: أنا وليّ الثأر! (٣)

عثمان
- أُقتلوا نعتلاً! (٤) (٥)

عائشة
- والله إني كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان! (٦)
عمرو بن العاص

رأينا أنّ الثورة على عثمان بدأت في صفوف العامة بالمدينة والأقاليم
والثغور على السواء ، وأنها كانت أول الأمر تذمّراً تتبعه الشكوى ، ثم تحوّلت
إلى عصيانٍ فحصارٍ فمأساة. ورأينا أنّ الذين عارضوا سياسة عثمان
ومستشاريه من كبار الصحابة ، فنكّل بهم الخليفة وعمّاله وذووه ، إنّما

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٢ - ٢ و ١٣٧ - ١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣٥ / ٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ١٧٥ / ٢.

(٤) نعتلاً ، النعتل: الشيخ الأحق. كتاب العين: ٣٤١ / ٢، مادة «نعتل».

(٥) فتوح ابن أعثم: ٦٤ / ١ ، الجمل لزامر المدني : ص ٢٤ ، الفتنة ووقعة الجمل لسيف: ص ١١٥ ، تاريخ

الطبري: ٤٧٧ / ٣ ، الإمامة والسياسة: ٧٢ / ١.

(٦) أنساب الأشراف: ٧٤ / ٥ ، الكامل في التاريخ: ١٦٣ / ٣.

عارضوا نفوراً من الأثرة ، وميلاً إلى العدالة ودفاعاً عن الإسلام. ولم يكن هؤلاء يعارضون طموحاً إلى حكم ، أو طمعاً في مالٍ أو رغبةً في جاه ، فهم صفوة المسلمين في أسلم عهدٍ من عهود الإسلام ، يشعرون بمسؤولياتٍ هي في نفوسهم أشبه بمسؤوليات أصحاب الرسالات ؛ أو هي هذه المسؤوليات في الذات. فما كانت معارضة عليّ لسياسة الإقطاع التي انتهجها عثمان مع أقاربه وذويه ، لطمع منه في أرضٍ يقطعها لنفسه ، وهو الذي كانت في يديه فذلك من كلِّ ما أظنَّته السماء ، فشخت عليها نفوس قومٍ فأخذت منه فقال: «وما أصنع بفذلك وغير فذلك والنفس مظانها في غدٍ جدت تنقطع في ظلمته آثارها وتغيب أخبارها!»^(١) ولم تكن معارضته لسياسة عثمان المالية منفذاً يريد ولوجه إلى مالٍ أو ثراء ؛ وهو من عرفنا زهده بالمال فلا حاجة بنا للمزيد. ولم تكن معارضته لسياسة الإيثار العائلي التي سار عليها عثمان ، وللذهنية الأموية التي تبرز من خلالها ثاراً لمجدٍ عائليّ يريده ؛ وهو ركن الإسلام وابن عم النبيّ وصهره ووالد سبطيه ، ثم صاحب هذا القول الذي يحوبه كلُّ مجدي يرثه المرء من عائلة أو قبيلة: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»^(٢).

أما معارضة أبي ذرٍّ وعمارٍ ومن هم على نهجهما ، فلم تكن لتختلف في موضوعها وغايتها عن معارضة ابن أبي طالب ، لذلك لم يكن لهؤلاء رأيٌ في معارضةٍ تنتهي بمصرع من يعارضون ، وإنما كان لهم رأيٌ في معارضةٍ تُنصف المظلوم وترفع الحيف وتوجه الحاكم في الطريق المستقيم ؛ فلا يقتل ولا يقتل بل يكون للناس أباً ويكونون له أبناء.

وكان من الطبيعي في دولةٍ مترامية الأطراف كالدولة الإسلامية في عهد

(١) نهج البلاغة ، الكتاب: ٤٥ (من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري).

(٢) نهج البلاغة ، الكلمات القصار ، رقم ٨١.

عثمان أن تنشأ معارضةً من نوع آخر ، هي معارضة الطامحين إلى الحكم ، والراغبين في مزيدٍ من النعم ، والطامعين بدائرةٍ للنفوذ أوسع فيما إذا وليّ الأمر غيرُ واليه. وهذا النوع من المعارضة عرفته كلُّ بلدان الأرض في عصور التاريخ جميعاً. وأصحابه لا يزالون يبدلون نهجاً بنهج وموقفاً بموقف ويلبسون لكلِّ حالةٍ لبوسها حتى يستقيم لهم الأمر. وهم في أحوالها هذه لا يجدون شراً في ارتكاب جريمةٍ ثم في نسبة ما ارتكبوه إلى خصومهم ومن يخشون خطرهم.

هذا النوع من المعارضين سواء الكاسبون أيام عثمان والساخطون لمغنم لم يُصيبوه ، والأمويون من بطانة عثمان ومن عمّاله ، وأنصاره الذين وطّأهم رقاب الناس ، وعثمان نفسه ، هم الذين قتلوا الخليفة الثالث. أما كيف أعان عثمانُ على نفسه وكيف أعان عليه مروانُ وسائر مستشاريه ، فقد مرّ عليه الكلام. وقد أدرك هذه الحقيقة أقربُ الناس إلى عثمان وأعرفهم بحاله. فإنَّ محمد بن مسلمة كان يموت فيقول له أحدُهم: «عثمان مقتول» فيجيب: «هو قتلَ نفسه»^(١). وإنَّ نائلة زوجة عثمان تخاطب مروانَ ومن وراءه من البطانة بهذه العبارة: «فأنتم والله قاتلوه ومُيْتِمُو أطفاله»^(٢) ، وتخاطب عثمان قائلة: «فإنك متى أطعت مروان قتلَكَ»^(٣).

وأما الأمويون من عمّاله ، وأنصاره الذين وطّأهم رقاب الناس ، والمعارضون الكاسبون والساخطون ، فسوف نتحدّث عنهم واحداً واحداً لاشارك العدد الأكبر منهم في المؤامرة الكبرى على عليّ بن أبي طالب ، التي

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٨/٣.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤٥ / ٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٤٧ / ٢ ، تاريخ الطبري: ٣٩٧ / ٣ ، البداية والنهاية: ١٩٣ / ٧.

لم يشهد تاريخُ المؤامرات في الشرق لها مثيلاً ، والتي حاكها المحرّضون على عثمان والمؤلّبون عليه وقَاتِلوه ؛ إذ اتهموا عليّاً بقتل عثمان فحملوا قميصَ ضحيتهم وراحوا يتظاهرون بأنهم يثأرون له من عليّ.

* * *

كان معاوية بن أبي سفيان المطالب بدم الخليفة الشهيد - علي زعمه - جاهدًا في توطيد ملك له ولبنيه على الشام ثم على سائر الأمصار ، لا يعنيه من أمر عثمان حيّاً وميتاً إلا أن يمدّه بالقوّة ، ويخلق له الفرصة المؤاتية لتحقيق حلمه هذا. لم يكن يعنيه من أمر عثمان وهو خليفة إلا أن يُطلق يده في كلّ ما يعمل ، وإلا أن يكون ستاراً لرغائبه في الرئاسة والاستقلال بالحكم. وهو ، إذا قُتل عثمان ، لا يعنيه من أمره كذلك إلا انتهاز الفرصة ؛ ليرث الخليفة الراحل ويتخلص من الخليفة الجديد.

فهو حين صار الملك إليه ، فماذا كان من شأنه مع قاتلي عثمان؟ إنّه لو كان من الذين آذاهم مصرع الخليفة لتفدّ العقاب بهؤلاء القتلّة ، وفي يده أن يعاقب. نسي معاوية قصّة عثمان ساعة آل إليه المُلك ، كما نسي أن يقتصّ من قتلّة الخليفة وهو من أجل هذا الاقتصاص - كما يزعم - ثار وأراق الدماء وخرج على الخليفة الجديد. وأكثر من ذلك أيضاً ، لقد كان باستطاعة معاوية وهو صاحب الجند الكثير في الشام وصاحب الرأي فيها أن يجهّز جيشاً يحمي به الخليفة في أيام الحصار الأربعين وقبل الحصار ، بل كان باستطاعته أن يسدي إليه نضحاً يقيه خطرَ الانزلاق في معاندة الرأي العام وهو على ذلك قدير. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ؛ لأن طمعه في أن يصير المُلك إليه بعد عثمان كان مخوّر تفكيره ومدارَ أعماله وتدابيراته.

فمنذ اليوم الذي جمع فيه عثمانُ أخصّاءه وفيهم معاوية لمعالجة الحال

وانتهى الاجتماع إلى غير نفع، أنشب معاوية أظفاره في الخلافة؛ لأنه غلب على ظنه قتل عثمان. ورأى أن الشام بيده وأن أهلها يطيعونه ، وأن له حجةً يحتج بها عليهم ويجعلها ذريعةً إلى غرضه ، وهي قتل عثمان إذا قُتل ، وأنه ليس في أمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش ، واستمالة الوجهاء والنافذين بالعطاء وبالتهديد، فبنى أمره من هذا اليوم على الطمع في الخلافة. ألا ترى إلى قوله لأحد الناس من قبل: «إنه ليس أحدٌ أقوى مني على الإمارة ، وإنَّ عمر استعملني ورضي سيرتي»^(١).

لقد كان معاوية من المؤمنين بضرورة توارى عثمان عن الأنظار، وقد أصبح له من القوة في الشام ما يجعله جديراً بأن يفكر في تحقيق ما يطمع فيه. ويذكر اليعقوبي في تاريخه ما خلاصته: إنه حينما اشتدَّ الحصار على الخليفة الثالث كتب إلى معاوية إلى الشام يطلب تعجيل القدوم عليه. فتوجه إليه معاوية في قوم كثير، ثم قال لهم: «كونوا مكانكم في أوائل الشام حتىأتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره» فأتى عثمان ، فسأله عن العدة ، فقال: «أتيْتُ لأعرف رأيك وأعود إليهم - أي إلى القوم - وأجيئك بهم» فقال له عثمان: «لا إله إلا الله! ولكنك يا معاوية أردت أن أقتل فتقول: أنا ولي الثار! ارجع فجنني بالناس!»^(٢) فرجع ولم يعد إليه.

وحين زار معاوية المدينة بعد مقتل عثمان دخل بيت الخليفة القتيل فسمع هذه الصيحة من عائشة ابنته تبكي وتقول: «وَأَبْتَاهُ!». فقال - يعزِّبها - : «يا ابنة أخي! إنَّ الناس أعطونا طاعةً وأعطيناهم أماناً. وأظهرنا لهم حلماً تحتها غضب ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حقد. ومع كلِّ إنسانٍ سيفُهُ وهو يرى مكانَ

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٧٥.

أنصاره. فَإِنْ نَكُنْثُنَا بِهِمْ نَكُنْثُوا بَنَا ، وَلَا نَدْرِي أَعْلَيْنَا تَكُونُ أَمْ لَنَا. وَلَأَنْ تَكُونِي بِنْتُ عَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونِي امْرَأَةً مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ»^(١).
 إِذَا، فَقَضَىٰ عَثْمَانُ تَنْتَهِي فِي نَفْسِ مَعَاوِيَةَ وَفِي كَلَامِهِ ، بِأَنْ يَصِيرَ الْحَكَمُ إِلَيْهِ هُوَ ، وَبِأَنْ تَصْبِحَ بِنْتُ عَثْمَانَ ابْنَةُ عَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ! وَمَا كَانَ أَشَدَّ الْعَقْدَةَ وَالْخِلَافَةَ فِي يَدِ عَلِيٍّ! لَقَدْ بَلَغَ مَعَاوِيَةَ مَا كَانَ يَصْبُو إِلَيْهِ مِنْ تَحْقِيقِ وَصِيَّةِ أَبِيهِ أَبِي سَفْيَانَ ، إِذْ قَالَ يَوْمَ صَارَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى عَثْمَانَ: «يَا بَنِي أُمِّيَّةَ ، تَلَقَّفُوا تَلَقَّفَ الْكُرَةِ! فَوَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سَفْيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ ، وَلِتَصِيرَ إِلَى صَبِيَانِكُمْ وَرَاثَةً!»^(٢).

وَعِدًا سَتَصِيرُ الْخِلَافَةُ مِنْ بَعْدِ مَعَاوِيَةَ إِلَى صَبِيَّةٍ يَزِيدُ ، ثُمَّ إِلَى سَائِرِ الصَّبِيَانِ!

وَفِي الْكُتُبِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا عَلِيٌّ إِلَى مَعَاوِيَةَ إِشَارَاتٌ صَرِيحَةٌ إِلَى قَعُودِ مَعَاوِيَةَ عَنْ نَصْرَةِ عَثْمَانَ لَمَّا اسْتَنْصَرَهُ فِتْرَاخِي عَنْهُ ، وَلَمْ يَبْعَثْ إِلَيْهِ أَحَدًا رَغْبَةً مِنْهُ فِي أَنْ يَقْتُلَ عَثْمَانَ فَيَصِيرَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَمَتَا جَاءَ فِي كِتَابٍ مِنْهُ إِلَى مَعَاوِيَةَ جَوَابًا:

«ثُمَّ ذَكَرَتْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عَثْمَانَ ، فَلَمْ أَتَجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَجِيمِكَ مِنْهُ»^(٣).
 فَأَيُّهَا كَانَ أَعْدَى لَهُ^(٤) وَأَعْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ، أَمِنْ بَدَلٍ لَهُ نَصْرَتُهُ فَاسْتَعْدَّ^(٥) وَاسْتَكْفَهَ؟ أَمْ مَنْ اسْتَنْصَرَهُ فِتْرَاخِي عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ^(٦) حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ؟»^(٧).

(١) شرح الأخبار للنعمان المغربي: ١١٤ / ٢ ، ضمفاء المقيلي: ٤٢١ / ٣ ، تاريخ مدينة دمشق: ١٥٥ / ٥٩.

(٢) مروج الذهب: ٣٤٢ / ٢ ، اختيار معرفة الرجال ، للطوسي: ١٢٨ / ١.

(٣) يقول: لقرايتك منه يصح الجدل معك فيه.

(٤) أعدى: أشدَّ عدواناً.

(٥) من بذل النصرة: علي نفسه. واستعده عثمَان: طلب قعوده ولم يقبل نصرتَه.

(٦) يقول إِنَّ عَثْمَانَ اسْتَنْصَرَ مَعَاوِيَةَ فَلَمْ يَنْصُرْهُ بَلْ خَذَلَهُ وَخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوْتِ فَكَأَنَّمَا بَثَّ عَلَيْهِ.

ومتما جاء في كتاب آخر: «فإنك إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك ، وخذلته حيث كان النصر له»^(٨)»^(٩).

* * *

وما يقال في الأمويين بصدد مقتل عثمان ومثلهم جميعاً مثل معاوية ومروان ، يقال في سائر الذين أشرنا إليهم ، بل يقال في خصوم عليّ جميعاً والمتآمرين عليه فيما بعد. فالمسؤولية في ذلك تنالهم دون الخليفة الرابع. وإن لم يكن التحريض السافر لينال بعضهم ، فالرغبة والرّضا.

فهذا عمرو بن العاص أحد الشركاء الكبار في تليفق التهمة ضدّ عليّ وفي المؤامرة عليه ، يحرض على عثمان ويُغري به ؛ لأنّ عثمان عزّله عن ولاية مصر. ويشتدّ في التآليب عليه ويعترف هو بذلك فيقول والقسم ملء شفتيه: «والله إنني كنت لألقى الراعي فأحرّضه على عثمان ، فضلاً عن الرؤساء والوجوه!»^(١٠). فلما سحر الشرّ بالمدينة خرج عمرو إلى منزله بفلسطين. وفيما هو بقصره ومعه ابنه عبد الله ومحمد ، مرّ به راكبٌ من المدينة فسأله فقال: قُتل عثمان. فقال عمرو: «أنا عبد الله ، إذا نكأتُ^(١١) قرحةً أدميتها»^(١٢) يريد بذلك أنّه حرّض على عثمان فلقّي تحريضه الصدى الذي يريده بمقتل الخليفة.

أمّا طلحة بن عبيد الله الذي بايع لعليّ مكرهاً ، ثمّ ثار عليه ليطالبه بدم

(٧) نهج البلاغة ، الكتاب: ٢٨ - ٢٤.

(٨) يقول: انتصرت لعثمان بعد أن قتل لأن في هذا الانتصار له فائدة لك إذ تتخذ ذريعة لجمع الناس إلى غرضك. أما وهو حي وكان انتصارك يفيد ، فقد خذلك وأبطأت عنه.

(٩) نهج البلاغة ، الكتاب: ٣٧ - ٢.

(١٠) أنساب الأشراف: ٥ / ٧٤.

(١١) (نكأت) نكأ القرحة - نكأ: قشرها قبل أن تبرأ فتدبت. لسان العرب: ١٧٣/١، مادة «نكأ».

(١٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٤ ، جواهر المطالب لابن الدمشقي: ٢ / ٢٢٤.

عثمان كما زعم، فإن له عملاً كثيراً في تحريض الناس على قتل عثمان. ويحدث الرواة أنَّ عثمان كان يستعين على طلحة بعلي، وأنَّ علياً كان يستجيب له فيعينه على طلحة. من ذلك أنَّ علياً ذهب مرة إلى طلحة وكان عثمان قد استعان به عليه، فرأى عنده حشداً عظيماً من الثائرين، فأدرك أنَّ لطلحة في حصار عثمان أثراً كبيراً، وأنَّ طلحة راغبٌ في التخلص من الخليفة، فوبخه يقول: يا طلحة! ما هذا الأمر الذي صنعتَ بعثمان؟ وسعى في أن يردّه عن خطته هذه، فأبى، فما كان من عليٍّ إلّا أن أتى بيتَ المال فقال: افتحوه. فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب وفرّق ما فيه من المال على هؤلاء الذين جمعهم طلحة لقتل عثمان، فانصرفوا من عند طلحة حتّى بقي وحده. فسّر عثمان بذلك وأدرك، متأخراً، أنّه ما من ناصحٍ له مشفقٍ عليه مصلحٍ لأمر الجماعة إلّا علي. وقد أراد طلحة بعد هذه الحادثة أن يعتذر فدخل على عثمان، قائلاً: «يا أمير المؤمنين! أستغفر الله وأتوب. أردتُ أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتُك تائباً» فقال عثمان: «إِنَّكَ وَاللَّهِ مَا جِئْتَ تَائِباً، وَلَكِنَّكَ جِئْتَ مَغْلُوباً، اللَّهُ حَسِيبُكَ يَا طَلْحَةُ!»^(١).

ويروي الطبري: أنَّ الثوّار ما كادوا يحاصرون عثمان في داره حتّى راح طلحة يعدّ نفسه ليكون خليفة، فكان أوّل ما لجأ إليه أن اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيحَ وحراساً.

وكان عثمان يقول في أشدّ أيام الحصار: «اللهم اكفني طلحة، فإنّه حمل هؤلاء القوم وألبهم علي. والله لأرجو أن يكون منها - يقصد الخلافة - صفرأ يُسفك دمه»^(٢). وفي هذا القول ما يدلّ على أن عثمان كان واقفاً على رغبة

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ١٤٨ و ٨ / ١٠، تاريخ المدينة: ٤ / ١١٩٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤١١.

طلحة في الخلافة بعد التخلص من الخليفة الثالث. ولطالما أطلق عثمان يد طلحة في بيت المال، ولكن الرجل لم يكن ليرغب في ما هو أقل من الخلافة. وكان عثمان في الأيام الأخيرة من الحصار يردّد قوله هذا: «وئلي من طلحة! أعطيتُه كذا وكذا ذهباً وهو يروم دمي!»^(١). وقد حدّث بعضهم أنّه رأى طلحة يوم مقتل عثمان يرمي دار الخليفة ويقود بعضّ الثائرين إلى منافذ يهبطون منها إلى مقرّه!

وقال عليّ مرّةً لطلحة: أُنشدك الله ألاّ كففت عن عثمان! وكان يقول بعد مقتل عثمان: لحّا الله ابن الصعبة - يعني طلحة - أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به ما فعل!«^(٢).

ولابن أبي طالب في طلحة كلامٌ يشير إلى أنّه كان أشدّ الناس تحريضاً على عثمان ، وأكثرهم حرصاً على أن يُقتل ، قال:

«... والله ما استعجل متجرّداً للطلب بدم عثمان^(٣) إلاّ خوفاً من أن يطالب بدمه لأنّه مظنّته ، ولم يكن في القوم أحرص عليه منه^(٤)؛ فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ثلبس الأمر^(٥) ويقع الشك!»^(٦).

أما الزبير بن العوّام ، فيروي الرواية أنّه لم يكن له نشاطٌ ملحوظ في ردّ الثائرين على عثمان. ويزيدون قائلين: إنّ هواه كان معهم ، وإنّ الملحوظ إنّما كان ميله إلى التخلص من عثمان لعلّ الأمر يصير إليه من بعده. وقد صرح عليّاً بأنّه يريد الأمر لنفسه يوم التقاه قُبيل معركة الجمل، فسأله عليّ: ما جاء بك؟

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٥ / ٩.

(٢) الجمل ، لابن شدقم المدني: ص ١٩ ، شرح نهج البلاغة: ١٦١ / ٢.

(٣) متجرّداً: كأنه سيف تجرّد من غمده.

(٤) لم يكن في القوم أحرص على سفك دم عثمان من طلحة.

(٥) يلبس الأمر: يشتهه فلا ينجلي.

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٧٤ - ٢.

«فقال الزبير: أنت ، ولا أراك لها أهلاً ولا أولى بها مئاً!»^(١).

وهذه عائشة زوج النبي تبالغ في التحريض على قتل عثمان. فقد طالما توجهت إلى الخليفة الثالث بالنقد الموجه، وطالما ألّبت القوم عليه. فإنها يومً نقص عثمان عطاءها غضبت وتربصت به^(٢) حتى رآته يخطب الناس فنهضت وهي تحمل بيدها قميص النبي ونادت تقول: «يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته!»^(٣) ويروي ابنُ أبي الحديد عن معاصري عائشة أنها كانت تستقبل كلَّ من تراه بالتأليب على عثمان ، فيقول:

أخرجتُ ثوباً من ثياب رسول الله فنصبته^(٤) في منزلها ، وكانت تقول للداخلين عليها: «هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته»^(٥).

ويروي البلاذري: أن عبد الله بن عباس مرَّ بعائشة مرّةً ، وقد ولّاه عثمان موسم الحجِّ بمكة ، فقالت له عائشة هذا القول الصريح: «يا ابن عباس! إنّ الله قد آتاك عقلاً وفهماً وبياناً ، فأياك أن تردّ الناس عن هذا الطاغية!»^(٦). وينسب البلاذري إلى عائشة قولاً في عثمان إن صحَّ كان دليلاً على كرهه قلماً حمَل مثله إنسانٌ لإنسان. قالت عائشة لمروان:

«يا مروان! وددتُ والله لو أنه - أي عثمان - في غرّة من غرائري هذه

(١) تاريخ الطبري: ٤ / ٥٠٩ ، وعنه الغدير: ٩ / ١٠١.

(٢) تربصت به: انتظرت. لسان العرب: ٣٩٧، مادة «ربص».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣ ، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ١٧٥.

(٤) نصبته: أقامته ، ونشرته. المنجد: ٨١١ ، مادة «نصب».

(٥) شرح نهج البلاغة: ٩ / ٣.

(٦) أنساب الأشراف: ٨٨ / ٥.

وأنتي طوّقتُ حملة حتى ألقيه في البحر!»^(١). وكثيراً ما كانت تردّد هذا القول: «اقتلوا نعثلاً - أي عثمان - فإنّ نعثلاً قد كفر!»^(٢).

لقد كان هوى عائشة في قتل عثمان من القوة بحيث راحت تأمر بقتله جهراً على ما رأيت؛ ذلك لأنّها كانت تعتقد أنّ الأمر سيصير من بعده لطلحة دون عليّ. ومما يؤيد هذا الزّعم أنّها يوم بلغها نبأ مقتل عثمان وهي بمكة، قالت من فورها: «بُعْدًا لِنَعْتَل! إيه يا صاحب الأصبع! إيه يا أبا شبل! إيه يا ابن عمّ! لكأنّي أنظر إلى إصبعه وهو يُبَايع له حتّى الإبل!»^(٣). وصاحب الإصبع كنية طلحة منذ قُطعت إصبعه في موقعة أُحُد. وكان محمد بن طلحة يُشرك أباه وعائشة في دم عثمان حين يُسأل رأيّه في المأساة، وعلى ما يقوله صاحب البدء والتاريخ: «كان أشدّ الناس على عثمان طلحة والزبير وعائشة!»^(٤).

وغير هؤلاء اشتركوا في دم عثمان تحريضاً وتأليباً، منهم عبد الرحمن ابن عوف الذي ضوعف ثراؤه في عهد عثمان، ثمّ سمّعه عُوَادُه يقول: «عاجِلوه - أي اقتلوه على عجل - قبل أن يتمادى»^(٥) في مُلكه!»^(٦). ومنهم مُعْظَمُ مَنْ خاصموا عليّاً فيما بعد وطالبوه بدم الخليفة القتيل.

«فالأشداء من قريش على عثمان رجعوا إليه بعد مصرعه. ولعلّ موقف عائشة في هذه المأساة أوضح صورة؛ للتناقض الغريب المدهش في موقف قَتَلَة عثمان من هؤلاء القرشيين الطامعين. قتلتها عائشة بتحريضها العنيف

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٦ / ٢١٥.

(٤) نقله عنه العلامة العسكري في أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١ / ١٦٠، وراجع أنساب الأشراف: ٥ / ٢٠٥.

وشرح نهج البلاغة: ٦ / ٢١٥.

(٥) يتمادى: يبلغ في ملكه مداه.

(٦) شرح نهج البلاغة: ٣ / ٢٨، جواهر المطالب: ٢ / ١٧٦.

السافر وسغيها الحثيث النشيط ، وهي تأمل عودة الحكم إلى تميم^(١) في شخص ابن عمها طلحة. وقتله طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص بأموالهم ودسائسهم. وقتله معاوية وحزبه بتخليهم عنه. وقتله مروان وآل الحكم ورفاقهم من آل أبي معيط بأنانيتهم واستخفافهم. فلما قُتل وصار الأمر إلى علي بإجماع المسلمين انقلب هؤلاء جميعاً دون توطئة ولا تمهيد ، فإذا عثمان الظالم الكافر أمس ، شهيدٌ مظلومٌ اليوم»^(٢).

واليك ما قاله سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة حين التقيا الجموع الزاحفة من مكة إلى البصرة لمقاتلة علي في مكانٍ من خيبر، وفي قوليهما اعترافٌ بأن طلحة والزبير مسؤولان عن قتل عثمان. أما سعيد فحين أشرف على الجيش قال لعائشة: أين تريدن يا أم المؤمنين؟! فقالت: أريد البصرة ، قال: وما تصنعين بالبصرة؟ قالت: أطلب بدم عثمان. قال: فهؤلاء هم قَتَلَة عثمان معك. ثم قال لمروان بن الحكم: وأنت ، أين تريد أيضاً؟ قال: البصرة، قال سعيد: وما تصنع بها؟ قال مروان: أطلب قَتَلَة عثمان، قال: فهؤلاء قَتَلَة عثمان معك ، إنَّ هذين الرجلين - طلحة والزبير - قَتَلَا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه قالوا: نغسل الدم بالدم والحبوة بالتوبة».

أما المغيرة بن شعبة فقد قال للناس: إن كنتم خرجتم مع أمتكم فارجعوا بها خيراً لكم، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم على علي شيئاً فبئس ما نقمتم عليه. أنشدكم الله ، أفتتبن في عامٍ واحد؟»^(٣).

* * *

(١) عائشة بنت أبي بكر ، وأبو بكر قرشي من قبيلة تيم.

(٢) حليف مخزوم: ص ١٨٣.

(٣) الإمامة والسياسة: ١ / ٨٢ ، وعنه في الفدير: ١٠٧ / ٩.

هذا ما كان من أمر المحترضين على عثمان وقاتليه الذين حملوا قميصه فيما بعد مطالبين بدمه علياً. أما علي فقد مزّت بنا أحاديث تدل على حقيقة موقفه من الفتنة.

علمنا أنّ علياً لم يكن ذا حظوة عند الخليفة القتيل. وأن مروان كان ينصح سيده بقتل علي والصحابة إذا أمكن ، تخلصاً من الضمائر السليمة التي تراقب الأموتين والوجهاء في ما يعملون ؛ وتنكيلاً بمن وراءهم من الخترين. غير أنّ التبل الذي يتميز به علي كان يرتفع به عن مخاصمة الآخرين إذا كان هو بالذات موضوع الخصومة. فليس أبعد عن رجل كابن أبي طالب من أن يغضب على الخليفة بعلّة الإبعاد ، أو يميل إليه بسبب التقريب. فالإبعاد والتقريب سيّان في قلب علي، وهما لا يعدلان ما في طبيعته من السماح والحب والميل إلى الخير من حيث أتى وكزه الاشتباك إلا إذا كان الاشتباك دفعاً لظلم وتوطيداً لعدل! لذلك لم يكن علي ليخل على عثمان بالنصح ساعة يمكن النصح، ولو على غير رغبة من أصحاب الخليفة. ولا بالدفاع عنه ساعة يجب الدفاع عن نفس يهددها خطر الموت.

وكثيراً ما كان يدفع عنه القوم ، حين يتخطون الخليفة إليه ليعرضوا الخلافة عليه ، ويلقاهم بالتهديد والإنذار. وكثيراً ما كان يتهم المتألبين على عثمان بإفساد الأرض دفاعاً عن الخليفة الذي تركّز السوء في بطانته ، وفتحاً لفرجة من الأمل في الإصلاح في تلك الغيوم الدكناء من الأثرة والاستهتار، أو من اليأس والقنوط. من ذلك أنّ القوّار لما جاؤوه يحملون إليه دليل التهمة التي يتهمون بها حاشية عثمان ومستشاريه - وهو الرسالة التي وجدوها في طريق مصر مع غلام عثمان على ما رأينا - وقف علي يريد أن يجعل التهمة والمسؤولية فيهم ، امتحاناً لهم من جهة ، وتخفيفاً لسورة الغضب في نفوسهم

من جهة ، قائلاً لهم: وما الذي جمعكم في طريق واحد، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى جهة؟ وقد مزت بنا نصيحة علي لعثمان ساعة اجتمع الناس عليه فعالجه بالنصح على كره من مستشاري الخليفة، وأولها: «الناس ورائي وقد كلموني فيك... الخ»^(١).

وكانت غاية علي من ذلك ألا تتسع شقة الخلاف بين الشعب ومركز الخلافة ، فتكون البادرة التي لا تعود على المسلمين بالخير. وكان إيمانه وطيداً بأن الإصلاح أمر ممكن دون معالجة الفساد بإهراق الدم وتفريق الكلمة.

وبلغت الشهامة من نفس علي مبلغاً قلماً تدركه النفوس، فإذا هو يتغلب على تلك الحيرة التي اشتدت عليه لما كان من أمره وأمر عثمان ، حين جعل الخليفة يأمره بمغادرة المدينة حيناً وبالعودة إليها أحياناً، فيمثل لأمره دون أن يسأل توضيحاً لما يريد في مثل هذا التصرف.

ومحور الشهامة في موقف علي هو رغبته في الإحسان إلى الآخرين ، وإقامته على أساس من الرأفة بهم والعطف عليهم يوم تشتد عليهم الحال. فلطالما امتثل لإرادة عثمان ساعة كان يأمره بمبارحة المدينة ؛ ليغيب عن أنظار محبيه ومريديه ، فلا يعودون إلى الهتاف باسمه. ولطالما امتثل لأمره كذلك ساعة يعود ويستدعيه إلى المدينة ليخطب الناس ويدفعهم عنه. وقد تكرر ذلك ، حتى إذا جاء ابن عباس علياً مرةً يحمل إليه أمر عثمان بمغادرة المدينة - على ما مز بنا - قال: «يا ابن عباس! ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جملأ ناضعاً بالغرب - أي الذلو - أقبل وأدبر، بعث إلي أن أخرج. ثم بعث إلي أن أقدم. ثم هو الآن يبعث إلي أن أخرج! والله لقد دفعتُ عنه ؛ حتى خشيتُ أن أكون آثمأ!»^(٢). ويروي

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٣٧٦، البداية والنهاية: ٧ / ١٨٨.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٤٠ ، المقدم الفريد: ٢ / ٢٧٤.

محمد بن الحنفية أنَّ عليّاً قال مرّةً: «لو سَيَّرَنِي عثمان إلى صرارٍ لسمعتُ وأطعتُ»^(١)
حفاظاً على السلام وقطعاً لأسباب الفتنة .
وَمِنْ أروع ما صوّر براءة عليّ من دم عثمان هذا القولُ لعليّ نفسه
يخاطب به معاوية: «فَطَلَبْتَنِي بما لم تجنِ يدي ولا لساني!» و«إن كان الذنب إليه
إرشادي وهدايتي له ، فَرُبَّ مُلُومٍ لا ذنب له!»^(٢).

* * *

لقد أحسن عليٌّ إلى عثمان حيّاً وميتاً ، ونصح له وسعى في أن يقوم
طريقه فيستقيم ويستقيم له الناس ، ودافع عنه بدم ابنَيْه ، حتّى إذا قَتَلَه قَاتِلُوهُ
جاروا واتهموا عليّاً زوراً فصدقَ فيهم وفيه قولُ ابن سيرين الوارد في العقد
الفريد وما أصدقه إذا قال:
«ما علمتُ أنَّ عليّاً اتهم في دم عثمان حتّى بُويِعَ ، فلَمَّا بُويِعَ اتَّهَمَهُ
الناس!»^(٣).

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٦٩٢ / ٨ ، تاريخ مدينة دمشق: ٣٩ / ٣٦١ ، تاريخ المدينة: ٤ / ١٢٠١ ، كتاب الفتن ،
لنعم بن حماد: ص ٤٨ .

(٢) نهج البلاغة ، الكتاب: ٢٨ - ٢٦ .

(٣) العقد الفريد: ٤ / ٣٠٥ ، مصنف ابن أبي شيبة: ٧ / ٢٧٩ ، جواهر المطالب: ٢ / ١٧٢ .

إعصار يلف الدولة

- لا نجد غيرك - يا عليّ - ولا نرضى إلا بك! (١)

الناثرون

- ليت هذه انطبقت على هذه - تريد الأرض والسماء -
إذا تمّ الأمرُ لعلّي! (٢)

عائشة

- لقد كان عثمان بين أظهركم فخذتموه ، فمتى
استبطنتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي؟ (٣)

المنذر بن الجارود

- ما علمتُ أنّ عليّاً أتهم في دم عثمان حتى بُويع ، فلتنا
بُويع اتهمته الناس. (٤)

ابن سيرين

بقيت المدينة أياماً بعد مقتل عثمان والناس يلتمسون فيها مَنْ يجيبهم
إلى القيام بالأمر. والمصريّون خاصةً يُلخّون على عليٍّ وهو يأبى. ومن كلامه
في تلك الأزمة ما خاطب به الجمهور، قائلاً:
«دعوني والتمسوا غيري ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعليّ أسمعكم وأطوّعكم
لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خيرٌ مني لكم أميراً» (٥)» (٦).

(١) الفارات: ١ / ٣١٠ ، شرح نهج البلاغة: ٦ / ٩٦ ، الإمامة والسياسة: ١ / ١٧٦ .

(٢) الجمل ، لابن شدقم المدني: ص ١٢٨ .

(٣) الإمامة والسياسة: ١ / ٨٠ .

(٤) العقد الفريد: ٤ / ٣٠٥ .

(٥) للتوسع في الاطلاع على نظرة علي إلى الولاية راجع فصل «الولاية من الجماعة» من كتابنا هذا. (المؤلف)

(٦) نهج البلاغة ، الخطبة: ٩٢ - ٣ .

وظل يأبى إلى أن كان يومُ اجتماع فيه الناس إليه وألخوا عليه وهم يزدحمون ، حتى ظنَّ أنَّ بعضَهم قاتلُ بعضٍ ، وقالوا له: «لا نجد غيرك ولا نرضى إلا بك. فبايعتنا لا نفترق ولا نختلف»^(١). ثم أخذ الأشر النخعي بيده فبايعه وبايعه الناس وكلهم يقول: «لا يصلح لها إلا علي!»^(٢).

وهتف الناس باسم عليٍّ على عادة الناس إذ يُولّون عليهم خبيراً بحاجاتهم ، مؤمناً بحقهم خالصاً لهم ، عالماً حكيماً ، أباً كريماً. وسُزوا بقبوله الولاية حتى لكأنهم يُطلّون على أملٍ لا ينتهي ، بعد أن عاشوا طويلاً في ظُلماتٍ دامساتٍ أمويّاتٍ من المهانة والحرمان.

وقد وصف هو نفسه بَيَعَتَهُ بالخلافة وُضفاً جميلاً ، قال:

«وبلغ من سرور الناس بَيَعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ابْتَهَجَ بِهَا الصَّغِيرُ ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا الْكَبِيرُ ، وَتَحَامَلَ نَحْوُهَا الْعَلِيلُ ، وَحَسَرَتْ إِلَيْهَا الْكِعَابُ»^(٣)^(٤).

فلَمَّا كان يومُ الجُمُعَةِ وصعد عليٌّ على المنبر بايعه مَنْ لم يبايعه بالأمس ، وكان أوّل مَنْ بايعه طلحة ، ثم الزبير ، وقد قال كلُّ منهما بعد المبايعة: «إنما بايعتُ عليّاً واللج على عنقي»^(٥).

وماذا يعني قول طلحة والزبير هذا؟ إنه يوجز رأيَ الجانب الأكبر من القرشيين وأصحاب الوجاهات والطامعين بالحكم في انتهاء الأمر إلى علي. فهم يحقدون عليه إما حسداً وإما انتقاماً ؛ لزامةٍ ونفوذٍ وجاءٍ يرغبون فيها ولا

(١) الغارات: ٣١٠ / ١.

(٢) البداية والنهاية: ٢٥٤ / ٧.

(٣) هــج: مشى مشية الضعيف. والكعاب جمع كاعب وهي: الجارية إذا بلغت ونهد صدرها. وحسرت: كشفت عن وجهها. يقول: كشفت الكعاب النواهد عن وجهها متوجهة إلى البيعة لتعقدها بلا استحياء.

(٤) نهج البلاغة ، الخطبة: ٢٢٩ - ٢.

(٥) الفتنة ووقعة الجمل ، لسيف: ص ١٢٢ ، تاريخ الطبري: ٤٥٧ / ٣ و ٤٨٠ ، البداية والنهاية: ٢٥٤ / ٧.

سبيل لها على يديه. فعليّ لن يضع المعروف في غير حقّه ، وعند غير أهله. ولن يساير هؤلاء وهؤلاء على حساب الجائع والعارى. أضف إلى ذلك أنّ النافذين منهم - جميعاً - يطمحون إلى الخلافة، ولا سيما طلحة والزبير. وقد أشار عليّ أكثر من مرّة إلى معاداة قريش له إشارة صريحة لا تحتمل تأويلاً، وأعلن عن موقفه منهم قائلاً:

«مالي ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين ، ولأقاتلتهم مفتونين. وإني لصاحبهم بالأس كما أنا صاحبهم اليوم!»^(١).

إن القرشيين في مُعظمهم يكرهون عليّاً. وكم من قرشي انتضى عليه سيفَ عداوته^(٢) - كما يقول - وكم من باغٍ نصب له شراكه! غير أنّهم - وفي طليعتهم طلحة والزبير - لم يجدوا مفرّاً من مبايعة عليّ ، لأنّ الرأي العام في المجموعة العربية وفي الأقطار المفتوحة ولا سيما مصر لم يكن يجيز استخلاف أحدٍ سوى ابن أبي طالب؛ ذلك لأنّ صفاته هي الصفات التي تنشدها الثورة الاجتماعية في شخصيّة الخليفة. فالثورة تنشد العدل في الأمصار والرأفة بالمستضعفين ، وتأميم بيت المال ومنع الاحتكار في المنافع العامة، وجعل الحكم توجيهاً وتطبيقاً لمفاهيم العدالة. وما كان لذلك غير عليّ. أمّا أشد منافسي عليّ طمعاً بالخلافة! وأعظمهم أملاً ببلوغها ، فهما طلحة والزبير. وهذان لم يتوقّرا فيهما شيء من صفات الحاكم الذي تريده الثورة. فهما يُشبهان بطانة عثمان في أكثر ما تمرّد عليهم من أجله المستضعفون والمحرومون. فقد كانا من الراغبين في الملك والمال والجاه. وقد مرّ بنا قول عثمان في أحدهما طلحة: «ويلي من طلحة! أعطيته كذا وكذا ذهباً وهو

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ٣٣ - ٥.

(٢) انتضى عليه سيف عداوته: سلّ عليه سيف عداوته. المنجد: ٨١٥، مادة «نضي».

يروم دمي!»^(١).

وأدركت العامة هذه الحقيقة عن المرشحين للخلافة إدراكاً عفوياً مباشراً ، فكانوا إلى جانب عليّ ، وحملوا طلحة والزبير قسراً على مبايعته . يقول عليّ في مبايعتهما إياه ثم في خروجهما عليه ، وذلك قبيل موقعة الجمل : «لقد دخلا بوجه فاجر وخرجا بوجه غادر»^(٢). إشارة إلى أنهما لم يدخلا في ما دخل به الناس ، عن رغبة في الإصلاح الذي تجنّد له عليّ ، وإلى أنهما لم يخرججا عليه إلا غدرأ به وبمسلكه القويم .

وبدأ عليّ من يومه الأول يجتد قواه للإصلاح ، ويقوم ما عوج من شؤون الناس . فإذا هو يعزل الولاة الذين ظلموا وخرجوا على القواعد الإنسانية التي يدين بها ، ويعاقب الذين استباحوا جهود الناس واحتكروا الثروات وأطمعوا محاسبيهم في دم الشعب . سار على هذه السياسة النافعة ، لا يحابي ولا يساير ولا يأبه لسخط أصحاب الوجاهات ، ولا يُعير النافذين الناقمين إلتفاتاً .

لقد استقبل عليّ عهد خلافته بأيام مظلمة كثيفة الظلمة . فالنافذون قد أجمعوا الرأي على معاداته ، وكذلك المستنفعون ، وهم كثيرون . وبات عليه أن يحارب على جبهتين تتسعان ، وتبعد أطرافهما وتثقل عليهما وطأة الليل : بات عليه أن يُشيع العدل في الناس ويرفع عنهم الجورَ ، ويبني دولة تقوم على أسس اقتصادية واجتماعية وأخلاقية صحيحة ، وأن ينظر في أمر مُعاديهِ الكثيرين من النافذين وأصحاب الولايات والجيوش والأموال . ودخل المعركتين بهمة لا تعرف الملل ، وصبر لا يعرف الحدود ، وإيمان لا تزعه النكبات . وعقد العزم على أن يجلو الظلمات واحدة واحدة ، ويُسقط

(١) شرح نهج البلاغة: ٣٥ / ٩ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ٩٨ / ٢ .

نور الشمس على كل سهل وجبل. وكيف كان ذلك؟

ما كادت الثورة الاجتماعية تختار علياً زعيماً لها ، وقائداً يسلك بها الطريق المستقيم إلى غاياتها الطيبة ، حتى جمع بنو أمية ما لهم من رجال وأموالٍ وسلاح في المدينة وغيرها من الأمصار، واختفوا عن الأنظار. هربوا بأموالهم وأنصارهم وأسلحتهم إلى مكة ، حيث يستطيعون أن يعملوا في الخفاء لإحباط أمر علي ، وتأليب الناس عليه والحق بمعاوية في الشام إذا أغوَّزهم ذلك ، ولم يكونوا في حاجة لمثل هذا التدبير لو أخلصوا النية ورجبوا عن الملك في سبيل المنفعة العامة. غير أن رغبته في الملك وأملهم في أن يصير الأمر إليهم ولا يخرج منهم إذا هم استطاعوا إبعاد علي عن الخلافة ، أمران جعلاهم يلجأون إلى ما لجأوا إليه. ثم إن الأموال الضخمة التي حصلوا عليها في عهد عثمان تغريهم بأن يحملوها ويهربوا بها عن الخليفة العادل فيزدادوا بها منعة وقوة عليه.

وأدرك علي ما يبته له الأمويون وما يعني هربهم إلى مكة بالمال والسلاح ، فاشتد على القرشيين ومنعهم من الخروج، يريد بذلك أن يدفع خطرهم عن العهد الفتى.

وفيما كانت الأزمة على حالٍ من الشدة ، دخل علي بعض الصحابة وفيهم طلحة والزبير فقالوا له: «يا علي! إننا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل - يقصدون عثمان - وأحلوا بأنفسهم». فقال علي: «يا إخوتاه! إنني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعزائكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا. فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟» فقالوا: لا. قال: «فلا والله لا أرى رأياً ترونه إن شاء الله. إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا ؛ حتى

يهدأ الناس وتقع القلوب موافقها وتؤخذ الحقوق. فاهدأوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا»^(١).

لقد جاؤوه يحملون الشك في حقيقة أمره وأمر الناس فجاءهم بما يزيل هذا الشك ويستبدل به الخبر اليقين.

جاؤوه يشترطون عليه إقامة الحدود على قوم لا يملكهم ولا يملكونهم ، وفيهم عبدانهم ومواليهم وأعرابهم ، فجاءهم بالحجة التي انتزعت اعترافهم بأنه يعلم فوق ما يعلمون ، ويسعى فوق ما يسعون ، ويأبه للأمر فوق ما يأبهون^(٢)، ولكنهم ضلوا حيث اهتدى وتعجلوا في موقف التريث والتبصر. جاؤوه يشركون الناس جميعاً في حال واحد من النظر إلى مقتل الخليفة الشهيد ، جاءهم بفضل من علمه ، يريهم أن الناس فرق وشيع وليسوا على ما يحسبون.

جاؤوه بعواطف وأهواء ، وجاءهم بمنطقي ودليل. جاؤوه يقولون: يا علي! وفي القول اجترأ وقسوة ، وجاءهم يقول: يا إخواناه! وفي القول لين ورحمة وحب كثير. جاؤوه يطالبون بدم عثمان وفيهم من أعان عليه ، وجاءهم بالسماح والعفو ينبعان من قلبه ويجريان على لسانه ، وهو من كل منكر براء. وعاد يشتد على قريش من جديد فلا يفسح لهم في مجال الفتنة ، وكان في موقفه حصافة^(٣) وسداد.

* * *

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٥٨ ، ونهج البلاغة ، الخطبة: ١٦٨ - ٥.

(٢) يابهنون: تأهب: تعظم. المنجد: ٢، مادة «أبه».

(٣) حصافة: حصف الشيء حصافة: كان مُحْكَمًا لا خلل فيه ، ويُقال: حَصَفَ فلان: استحكم عقله ، وجاد رأيه ، فهو حصيف. لسان العرب: ٨/٤٨، مادة «حصف».

وراح عليّ يعزل عمّال عثمان واحداً بعد واحد ، وهو لا يرى فيهم من يصلح للبقاء في عمله ، بعد أن طغى جورهم وفسادهم واستهتارهم ، حتى كانت الثورة على عثمان. وأبى أن يُقيهم لحظة واحدة في مناصبهم ؛ والحق لا يسائر بالباطل ، والجور لا يُدفع بالإبقاء على علته. ونصح له ابنُ عباس ونصح له كثيرون أن يُقرّهم على أعمالهم إلى أن تستقرّ به الحال ثم يكون من أمره معهم ما يكون. فأبى أن تكون الاجتهادات السياسية مرجعاً في إدارة الدولة المثالية ، وأبى كذلك أن يجعل من رضى المستنفعين سبيله إلى الاستقرار ، فاعتصم بذمته وعقله وسيفه ، وأصرّ على أن يجلو هذه الغمرات واحدةً واحدة.

وأهّمته ولاية الشام ، وكان من أمره وأمر معاوية ما ذكرناه. فأصرّ عليّ على عزله وأصرّ معاوية على ألا يبايع. ودخل على عليّ زياد بن حنظلة يريد أن يعرف ماذا سيقضي في أمر معاوية لتبليغ إرادته إلى الناس ، فما هي إلا فترة تنقضي حتى قال عليّ لزياد: تيسّر يا زياد! فقال: لأني شيء يا أمير المؤمنين؟! قال عليّ: «غزو الشام» ، قال زياد: الزفق والأناة أمثل. قال عليّ: متى تجمع القلب الذكي ، وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم^(١) وعَبَأَ عليّ جيشه استعداداً لغزو الشام وتأديب معاوية. وتحرك الناس بموقف عليّ بين مؤازرٍ له ومحاربٍ عليه. وجاءه طلحة والزيبر فقالا: «يا أمير المؤمنين! إنْذُنْ لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك، وإن تسرّ نتبعك» فنظر إليهما عليّ قليلاً ثم قال: «نعم ، والله ما العمرة تريدان. إمضيا إلى

(١) الفتنة ووقعة الجمل ، لسيف: ص ١٠٧ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٦٥.

شأنكما»^(١) وانصرف طلحة والزبير إلى مكة.

* * *

راح الأمويون وطلحة والزبير يأترون بمن حملته الثورة الاجتماعية إلى الخلافة ، ويكيدون له ويبدلون المال في التأليب عليه ، يعاونهم في ذلك عمال عثمان الذين عزلهم عليّ ، فاتخذوا مكة مقرّاً لهم ؛ وقد حملوا إليها ما تحت أيديهم من مالٍ وسلاح. وكانت عائشة بنت أبي بكر وزوج الرسول ، الباعث النشيط على الصراع الرهيب ، الذي بدأ يوم استُخلف عليّ ولم ينته في قرون طوال. وإليك كيف تلقت عائشة خبر استخلاف عليّ: لقيها رجلٌ من أخوالها من بني ليث يقال له: «عبيد بن أبي سلمة» ، فسألته ، فقال لها: اجتمعوا على عليّ بن أبي طالب ، فقالت: «ليت هذه انطبقت على هذه - تريد الأرض والسماء - إن تمّ الأمر لعليّ!»^(٢) وكانت إذ ذاك خارجةً من مكة ، فارتدت إليها وهي تقول كلمتها: قُتِلَ ، والله ، عثمانٌ مظلوماً. والله لأطلبن بدمه! فسألها عبيد: ولم؟ فوالله ، أن أول من أمار حرقه لأنت! كنت تقولين: اقتلوا نعلًا^(٣) فقد كفر! فأجابت: إنهم استتابوه ثم قتلوه. وقد قلت وقالوا: «وقولي الأخير خيرٌ من قولي الأول»^(٤). وهنا يروي الطبري أحياناً قالها عبيد لعائشة ، وفيها يلقي التبعة عليها في مقتل عثمان:

فمنك البداء ، ومنك الغيّر ، منك الرياح ، ومنك المطر

(١) شرح نهج البلاغة: ١ / ٣٣٢ ، الإمامة والسياسة: ١ / ٧١.

(٢) الجمل لابن شدقم المدني: ص ١٢٨.

(٣) نعلًا: النعل: الذكر من الغياع. والشيخ الأحقق. والنعل: الحمق. لسان العرب: ١١ / ٦٦٩ ، مادة «نعل».

(٤) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٧.

وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا إنه قد كفر
 فهبنا أطعنك في قتله وقاتله عندنا من أمر
 ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر^(١)
 وسارت عائشة إلى مكة لا تلوي على شيء. فلما بلغتها لقيها طلحة ،
 فأخبرها بما كان من أمر علي وأمره مع الناس قائلاً: «بايعوا علياً ثم أتوني
 فأكرهوني حتى بايعت». فقالت: «وما لعلّي يستولي على رقابنا؟ لا أدخل
 المدينة ولعلي فيها سلطان!». ^(٢) وهناك جعلت تثيرها فتنة طاغية على ابن أبي
 طالب، وتحرض الناس على قتله إثناراً لعثمان. والذي يتابع سيرة عائشة في
 هذه المرحلة يدرك أي كره هو ذاك الذي كانت تضره لعلّي. ولكي ينجلي
 موقفها أكثر لا بد من الإشارة إلى أسباب ما تحمل في نفسها من علي.

إن كرهه عائشة لعلّي قديم يعود تاريخه إلى اليوم الذي دخلت فيه بيت
 الرسول على ما يذكر أكثر المؤرخين. ومن أسباب كرهها لعلّي منذ تلك
 الساعة: أنه زوج فاطمة ، وفاطمة بنت خديجة التي شغلّت وجدان النبي بنبليها
 وسمو أخلاقها، شغلّت وجدانه في حياتها وتركّت فيه بعد موتها مكاناً لم
 تستطع عائشة بكل ما فيها من مزايا أن تزاحمها فيه. وقد جاء في «مجلة
 الأزهر» هذا القول:

«وكانت - عائشة - رضوان الله عليها إلى ما خصّها الله به: بعيدة الهمة ،
 طمّاحة^(٣) إلى ذروة المجد. لم يكفها أن حظيت بأسمى مكانة من صواحبها
 لدى النبي ﷺ ، حتى رغبت أن تحتلّ من قلبه المكان الأول ، مكان

(١) تاريخ الطبري: ٤٧٧ / ٣.

(٢) الإمامة والسياسة: ١ / ٦٦ ، الصراط المستقيم للعاملي: ١١٩ / ٣.

(٣) طمّاحة: شرفة. الصحاح: ٣٨٨ / ١، مادة «طمح».

الصديقة الأولى - أي خديجة - والحبيبة الفضلى ، التي لا يفتأ يذكرها ويشرها ، ويكرم من أجلها خلائها ، ويثني عليها ثناءً كريماً يسابق الدهر. وعبثاً حاولت الصديقة بحسن الدلّ ، ولطف الحيل ، وفنون الذكاء والنبيل ، أن تُقنع سيّد الأوفياء ، وأكرم النبلاء ، بأن الله أبدله خيراً من خديجة.. فلتلق السلم إذأ ، ولا تجادل في الحق بعدما تبين ، ولتعلم أنّ المجادلة والمنافسة والغيرة من أعقل العقائل وفضلى الفواضل ، ومَن لها قِدَمُ الصدق وفضلُ السبق، لا تزيد صاحبته التي لم ترها إلا صدقاً من عاطر الثناء وخالد الذكر»^(١). وعن عائشة أنها قالت:

«ما غرّت على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غرّت على خديجة ، وما رأيْتُها ، ولكن كان النبي يكثر ذكرها ، وربّما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعث بها في صدائق خديجة. فربّما قلتُ له: كأنّه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة! فيقول: إنها كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد»^(٢). فإنّ عائشة تعترف بأنّ النبي كان يُؤثّر خديجة على زوجاته جميعاً. وإنّه لمن الطبيعي أن يُؤثّر ذلك في نظرتها إلى فاطمة بنت خديجة ، ثم في موقفها من عليّ زوج فاطمة ووالد سبطي الرسول حفيدي خديجة.

ومن أسباب كرهها الشديد لعليّ أيضاً ما يعود إلى موقفه منها يوم كانت قصّة الإفك وأشار على الرسول بطلاقها. ثم إنها كانت ترغب في أن تؤول الخلافة إلى طلحة بعد مقتل عثمان، على ما تبين لنا بصورة قاطعة. وقد مرّ بنا ما كان من اغتباطها بمصرع عثمان وأملها أن يُستخلف طلحة. وجمعت عائشة الجموع لدى وصولها إلى مكّة. واشتدّ ساعد الأمويين

(١) مجلة الأزهر: الجزء العاشر - المجلد السابع والعشرون - ١١ مايو ١٩٥٦ ص ١٠٦٣ - ١٠٦٤.

(٢) البداية والنهاية: ١٥٨ / ٣.

وطلحة والزبير ومَن والاهم بهذا الموقف العدائي الصريح الذي تقفه عائشة من عليّ وخلافته، فإذا هم كتلةٌ واحدة في الخروج على ابن أبي طالب. ورفع رأسه كلٌّ مَن كان قد استتر من بني أمية في الحجاز وغيره. واستغلّوا خروج المثلث القرشي النافذ على الخليفة الجديد، فضموا أصواتهم إلى صوته وبذلوا الأموال التي كانوا قد نهبوا من الأمصار والولايات تأييداً للمعارضة، وإفساداً لأمر عليّ. وأقبلوا من كلِّ حدبٍ وصوب إلى مكة يعينون عائشة في إثارة الجماهير، ويحتجون في ذلك بدم شهيد أثرتهم عثمان. وطفق معاوية بصورة خاصة يستسنع هذه الفرصة كي يُضعف عليّاً ويبلغ مأربه عن طريق خصوم الخليفة، وإن اختلفت غايته وغاية طلحة والزبير من حيث إن كلاً منهم يريد الأمر لنفسه فيما إذا تمّ لهم النصر على عليّ.

وتمّ لعائشة جيشٌ في مكة عدّته بضعة آلاف. واختلف رؤساء القوم في طريق الزحف وكيف يتجهون أول الأمر؟ ومَن تتبع أخبار زعماء المعارضة في هذه المرحلة، وتقصّى ما يريد كلٌّ منهم بهذا الزحف الذي يتشاورون فيه، أدرك أنّ هؤلاء لم يجتمعوا للمطالبة بدم عثمان كما يزعمون، ولا لإصلاح الأمر الذي لم ينهض عليّ لإصلاحه كما يدعون، ولا لشيء يتظاهرون به، وبه يخطبون الناس ويؤلبون الجماهير، بل اجتمعوا وكلٌّ منهم ينظر إلى الأمر من جهته الخاصة، يريد انتقاماً لأملٍ ضائع في الخلافة، أو لرأيٍ شخصيٍّ يراه في عليّ، أو لمجدٍ عائلي يراه قد انهار ولا سبيل إلى استعادته وعليّ هو الخليفة.

أما عائشة، فقد كان هواها في أن يتجهوا تَوّاً إلى المدينة عاصمة الخلافة لتقويض خلافة عليّ قبل أن يتمكن من تعبئة جيشٍ يقابل به جيشُ مكة. واعترض بعضهم قائلاً: بل نقصد الشام، فاندفع بنو أمية صفّاً واحداً في إسقاط

هذا الرأي؛ ذلك لأنّ الأمويين جميعاً ينزعون عن رأي واحد، هو إبعاد الخطر عن الولايات التي تثبت بها أقدامهم. فهم يعلمون أن الأمر مستتبّ لمعاوية في الشام، لذلك يسعون في ألا يجعلوا أرض الشام موطناً لسنايك الخيل، وفي أن يبقوا عليها موثلاً لهم إذا هم انهزموا أمام عليّ في المعركة المقبلة. ومعاوية - على كلّ حال - يضع الحجر الأساسي للملك الأمويّ، فلماذا يعرقلون مسعاه؟ ولماذا لا يشغلون عليّاً وخصومه من أهل الحجاز والعراق بمواقع دامية تبعد عن جنان دمشق ودسائس ابن أبي سفيان؟

أما طلحة والزبير فقد كان هواهما في ترك المدينة والشام والاتجاه إلى البصرة، وحبّتهما في هذا المذهب: أنّ لهما في البصرة وشقيقتها الكوفة أنصاراً وأعواناً، فهما أصلح الأمصار، وهما بهذا التوجيه يصدران عن حقيقة موقفهما من الموقعة التي يتهيأون لها ومن نتائجها البعيدة فيما إذا تمّ لهما النصر. فإنّ المعارضة إن انتصرت على أيدي أهل البصرة، أو الكوفة آل الأمر إلى أحدهما لا شك: إلى الذي يكثّر في هذا النصر أو ذاك أعوانه ومريدوه.

ووافق هذا الرأي هوى الأمويين، فأيدوه وجاءوا جميعاً يعرضون الأمر على عائشة، قائلين: «يا أمّ المؤمنين! دعي المدينة فإنّ من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها، واشخصي معنا إلى البصرة فإنّا نأتي بلداً مضيئاً، وسيحتجون علينا فيه ببينة عليّ بن أبي طالب، فتنهضنهم كما أنهضت أهل مكة ثمّ تقعين. فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدن، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد!»^(١).

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٠.

وبذل بنو أمية المال بسخاء لهذا الخروج ، ونادى المنادي يقول: «إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقاتل المُحلّين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركبٌ ولم يكن له جهاز، فهذا جهاز وهذه نفقة!»^(١).

* * *

لمّا عزمّت عائشة أن تسير بهذا الجيش إلى البصرة أقبلت عليها أم سلمة تنصح لها، قائلة: «إني كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول ، وما كان اسمه عندك إلا نعشاً!»^(٢) ثم دعته إلى لزوم دارها دون الخروج على عليّ. فلما استحال عليها أن تقنع عائشة بالقيود عن هذا الزحف أرسلت ابنها عمر إلى عليّ بن أبي طالب حاملاً إليه هذه الرسالة: «يا أمير المؤمنين! لولا أن أعصي الله عز وجل وأنت لا تقبله مني لخرجتُ معك. وهذا ابني عمر ، والله لهو أعز عليّ من نفسي: يخرج معك فيشهد مشاهدك!»^(٣).

وسعت عائشة في أن تصطحب معها أزواج النبي إلى البصرة. فرغبن جميعاً عن هذا الخروج إلا حفصة بنت عمر التي مالت إلى مسامرة عائشة في محاربة عليّ ، فجاءها أخوها عبد الله بن عمر ، وطلب إليها أن تلزم بيتها فلا تخرج أسوةً بغيرها من أزواج الرسول. فعملت برأي أخيها معتذرةً إلى عائشة تقول: «إن عبد الله حال بيني وبين الخروج!»^(٤).

(١) المصدر السابق.

(٢) المعيار والموازنة ، للإسكافي: ص ٢٧ ، بحار الأنوار: ٣٢ / ١٦٩.

(٣) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧١.

(٤) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٧٠ ، الثقة لابن حبان: ٢ / ٢٨٠.

وسارت الجموع تحت لواء عائشة في اتجاه البصرة. ولما كانوا في بعض الطريق إليها ، على مقربة من خيبر، التقاهم سعيد بن العاص الأموي والمغيرة بن شعبة فخطباهم بما مرّ الكلام عليه. ثم سعى ابن العاص ، بعد ذلك ، في إثارة المعارضين بعضهم على بعض عملاً بالخطة الأموية العامة التي كانت ترمي إلى إضعاف أنصار علي وخصومه على السواء ؛ كي يصير الأمر إلى الأسرة الأموية دون سواها. فقد خلا سعيد بن العاص إذ ذاك بطلحة والزبير وسألهما، قائلاً: إن ظفرتما فلن تجعلان الأمر؟! اصدقاني! قالوا: لأحدنا ، أيتنا اختاره الناس ، قال سعيد: بل اجعلوها لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه، قالوا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم، قال سعيد: لا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف»^(١). وسعى مروان في مثل ما سعى به ابن العاص من إلقاء بذور الخلاف بين المعارضين، بطريقة فيها كثيرٌ من المداورة والدهاء، وبلغ علياً أن جيشاً كثيفاً قد تحرّك من مكة إلى البصرة للطلب بدم عثمان. فألمه أن تكون الكلمة قد أشرفت على التفريق، وآلمه أن يكون في هذا التفريق ما يعوق حركة الإصلاح عن أن تستمر وتسير إلى غاياتها ، فإن في خروج أهل مكة عليه لإيثاراً للفوضى ، وإيذاناً بحركة عصيانٍ واسعة النطاق قد يلجأ إليها العمال المتمردون في بعض الأمصار أسوةً بمعاوية. وهو ما بلغه الخبر حتى جمع أهل المدينة فخطبهم، قائلاً:

«إن الله ، عز وجل ، جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة ، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة. فمن لم يسغه الحق أخذ بالباطل. ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سخط إمارتي ، ودعوا الناس إلى الإصلاح. وسأصبر ما لم أخف على



جماعتكم ، وأكفّ إن كلفوا واقتصر على ما بلغني عنهم»^(١).

وشاء أن يقضي على الفتنة قبل أن يستفحل خطرها ، فرأى أن الحؤول دون وصول المكّيين إلى المدينة أجدى في قمع الفتنة وحقن الدماء ، فاستخلف على المدينة سهل بن حنيف ، وخرج في اتجاه مكّة بجيشه الذي كان قد أعدّه لغزو الشام. ولحق به قومٌ كثير من أهل البصرة والكوفة. فلما بلغ بجيشه قفر الربرة ، أخبر أن جنود المثلث القرشي قد غادروا مكّة ، وفاتوا المكان الذي هو فيه ، وأن هدفهم إنما كان البصرة. فأقام قليلاً حيث هو يُخكم أمره ويسعى في إصلاح ما فسد من رغبات القوم. وبعث إلى عائشة يقول:

«أما بعد ، فإنك خرجت من بيتك عاصيةً لله ولرسوله ، أنطلين أمراً كان عنك موضوعاً ، ثم تزعمين أنك تريدان الإصلاح بين الناس؟ فخبّريني: ما للنساء وقود العساكر؟ وزعمت أنك طالبة لدم عثمان وعثمان رجل من بني أميّة ، وأنت امرأة من بني تميم مرّة! ولعمري إن الذي عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى اغضبيت ، وما هجبت حتى هُيجت. فاتقي الله يا عائشة ! وارجمي إلى منزلك واسبلي عليك سترك ، والسلام»^(٢).

أراد عليّ أن يعذر عائشة لخروجهما عليه وقودها العساكر فأشار إلى أنها «أغضبت وهُيجت» وفي ذلك ما فيه من مراعاة شعور المرأة واحترام جانبها. ثم وجد لها مخرجاً مما حُمِلت عليه من المعصية - على حدّ تعبيره - فخطأ الذي عرضها للبلاء وحملها على الخروج من بيتها ، وجعل أعظم ذنباً من قتلة عثمان. ثم نصح لها بأن تتقي الله وترجع إلى منزلها ففي ذلك أمنٌ للبلاذ ورضا للناس.

(١) نهج البلاغة ، الخطبة: ١٦٩ - ٤.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ٣٣٨ / ٢ ، مناقب الخوارزمي: ص ١٨٤ ، الإمامة والسياسة: ٧٠ / ١.

غير أنّ عائشة لم تلتفت إلى هذه النصيحة ، بل مضت في ما هي ماضية فيه ، وبعثت إليه بهذه الكلمة الموجزة التي حدّثت بها موقفها منه ، وأعلنت عن عدائها الشخصي له ، وكانت القول الفصل في الحرب والسلم: «يا ابن أبي طالب! جلّ الأمر عن العتاب ، ولن ندخل في طاعتك أبداً ، فاقض ما أنت قاض ، والسلام!»^(١). وجاءه مثل هذا القول من طلحة والزبير!

* * *

لما كان جيش عائشة على مقربة من البصرة تشاور قادة الرأي في أمر دخول المدينة. فهم مدركون أنّ في البصرة أنصاراً لابن أبي طالب غير قليل. فمن الحكمة أن يتشاوروا في أمرهم ، ويراسلوهم ليقفوا منهم على مبلغ طاعتهم للإمام علي. وأجمعوا الرأي على أن يؤثّبوا رؤوس أهل البصرة على عليّ قبل أن يدخلوها ، فكتب طلحة والزبير إلى القاضي كعب بن سور: «أما بعد ، فإنّك قاضي عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة وسيّد أهل اليمن. وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى ، فاغضب له من القتل والسلام» فأجابهما، قائلاً «فإن يك عثمان قُتل ظالماً فما لكما وله؟ وإن قُتل مظلوماً فغيركما أولى به! وإن كان أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل!»^(٢). وكتباً معاً إلى المنذر بن الجارود:

«أما بعد ، فإنّ أباك كان رئيساً في الجاهلية وسيّداً في الإسلام ، وإنك من أبيك بمنزلة المصلّى من السابق: يقال: كاد أو لحق ، وقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام!»^(٣). فأجابهما يقول:

(١) الإمامة والسياسة: ٥٥ / ١ ، جمهرة رسائل العرب: ٣٧١ / ١ ، فتوح ابن أعثم: ٣٠٢ / ٢ .

(٢) الإمامة والسياسة: ٨٠ / ١ .

(٣) المصدر السابق.

«أما بعد ، فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه فمتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي؟»^(١). وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان: «من عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ، أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرننا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس على علي!» فكتب إليها يقول:

«من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما بعد: فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من نابذك!»^(٢). وفي العقد الفريد وجمهرة رسائل العرب ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن الجواب كان على هذه الصورة:

«سلام عليك ، أما بعد ، فإن الله أمرك بأمرٍ وأمرنا بأمر: أمرك أن تقر في بيتك ، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة. فترك ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به. فأمرك عندي غير مطاع ، وكتابك غير مُجاب ، والسلام»^(٣).

أما الأمويون فلم يكونوا ليراسلوا أنصارهم جهاراً كما فعل طلحة والزبير وعائشة ، بل راحوا يكتبون سراً كل من يرجونه في أن يعين على الإمام علي ويزعزع أركان خلافته. وكان في هذه المراسلة السرية دلائل نفسية تفضح

(١) المصدر السابق.

(٢) نابذك: حاربك. كتاب العين: ١٩١/٨، مادة «نبد».

(٣) تاريخ الطبري: ٤٩٢/٣.

(٤) العقد الفريد: ٦٣/٥، جمهرة رسائل العرب: ٣٧٩/١، شرح نهج البلاغة: ٢٢٦/٦.

حقيقة أمرهم في حكم التاريخ. فلو أنهم خرجوا على علي للطلب بدم عثمان كما يزعمون ، لَمَّا وافقهم أن ينفردوا بمراسلة أنصارهم سراً. ولو أنهم خرجوا على علي نصرةً للمثلث القرشي في خروجه على الخليفة ، لَمَّا نظروا في أمورهم على حدة من حيث لا يشعر الناس. لقد كانوا يعملون على توجيه الأمر ناحيتهم وحدهم ، ويتصلون بمن يرجون على يده نصرتهم وحدهم ، فكان من ثم هذا العمل السري.

ففيما كان رؤساء جيش عائشة يرسلون أهل البصرة على النحو الذي أعطيناك صورةً عنه. كان ابن أبي سفيان في دمشق ينظر في أحوال الثائرين على علي جميعاً ، وفي أحوال الذين لم ينهضوا لمحاربته جميعاً ، فيجعل لكل من هؤلاء حساباً ، ويهيء لكل من أولئك مصيراً ، وينزع في الحالتين عن رغبة خالصة في أن يوهي الثائرون أمر علي فيمكنوه آنذاك ، وهو أقوى الأمويين من أن يتجه بالتاريخ العربي اتجاهاً أموياً خالصاً.

راح ابن أبي سفيان يستنهض سراً كل من لم ينهض لمعارضة علي ، وهو يعلم أن طلحة والزبير ورؤوس المعارضة جميعاً ، لن يلبثوا أن يختلفوا ساعة يتمكنون من التغلب على ابن أبي طالب ، لأنه يدرك الغاية التي تجمعهم فيخلو عند ذاك الجوّ للأمويين ، وهو يعسوبهم. وقد كتب معاوية في ما كتب إلى سعد بن أبي وقاص يقول:

«إن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره. وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر ونظيراك في الإسلام، وخفت له أُم المؤمنين. فلا تكرهنّ ما رضوا

ولا تردّنّ ما قبلوا!«^(١).

فانظر إلى هذا الدهاء ، وإلى هذه المراوغة في دغدغة عواطف سعد ، أحد أصحاب الشورى الستة الذين رشّحهم عمر بن الخطاب للخلافة ، ثم إلى هذا الاحتيال في إخفاء الغاية التي يهدف إليها ابن أبي سفيان من استنهاض الناس على الإمام. غير أنّ سعد بن أبي وقاص لم يخفّه هذا الدهاء وهذا الاحتيال ، ولم تفتّه الغاية التي يرمي إليها معاوية بهذه الرسالة ، وهو القرشي الخبير بأحوال الأمويين في الجاهلية والإسلام ، الواقف على أهدافهم القريبة والبعيدة ، وعلى وسائلهم المختلفة بين اللين والشدّة ، والممالأة والتعنيف ؛ لبلوغ هذه الأهداف. ولم يفته كذلك أن يخبّط معاوية بما لم يكن ينتظره من تعظيم شأن عليّ ، وإيثاره على من عاداه ، والتصريح بأنّ عليّاً فيه من الفضائل والمزايا ما ليس في خصومه والموالين له جميعاً. فكتب إليه بذلك ، وزاد خبراً بأنّه أدرك الناس برغبة معاوية في تأليب الناس على ابن أبي طالب كي يصير الأمر له ، ولكن الأمر لن يصير له ، لأن الخلافة لا تحلّ لمثله ، وقد رأى عمر بن الخطاب قبله هذا الرأي فما أدخله في أصحاب الشورى. قال سعد في جوابه:

«وأما بعد ، فإن عمر لم يدخل في الشورى إلّا من حلّ له الخلافة ، فلم يكن أحدٌ منا أحقّ بها من صاحبه إلّا باجتماعنا عليه ، غير أنّ عليّاً قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه. وأما طلحة والزبير فلو لزمّا بيوتهما كان خيراً لهما. والله يغفر لأمّ المؤمنين!«^(٢). وفي هذا الجواب أيضاً رأي سعد في أصحاب

(١) تاريخ اليعقوبي: ١٨٧ / ٢ ، وقعة صفين: ص ٧٤ ، الإمامة والسياسة: ١ / ١٢٠ ، جواهر المطالب: ٢ / ٣٦ ،

النصائح الكافية لابن عقيل: ص ٣٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١٨٧ / ٢ ، وقعة صفين: ص ٧٥.

الفتنة المؤلّبين على عليّ!

من هذه الرسائل وهذه الأجوبة التي تبودلت بين أصحاب الجمل وأهل البصرة ، وبين الموالين لأهل الجمل في بعض الأمصار وغير الموالين ، يتبيّن لنا نظراً أبناء ذلك العصر إلى أسباب الفتنة الحقيقية من جهة ، وإلى شخصية الإمام عليّ من جهة ثانية ، كما تتبيّن لنا صوراً من العطف الشديد ؛ يوليه ذوو النيات السليمة ابن أبي طالب ويحيطون به نظرة الحقّ وقوله الحقّ! ويتبيّن لنا كذلك أمرٌ ذو بال ، وهو: أنّ أنصار عليّ لا يألون جهداً في أن ينصحوا لأصحاب الجمل بالكفّ عن الفتنة ، وفي أن يدعوهم لأن يلزموا العافية ويتدبروا بالتي هي أحسن ، فكأنهم ينزعون جميعاً عن جنان الإمام^(١) وعن لسانه ؛ وقد علّمهم كثيراً بالسيرة وبالقول أنّ الفتنة من عمل الشيطان وأنّ السلم أولى. وكأنهم يصدرون جميعاً عمّا يرونه حقّاً في موقف الإمام من شؤون زمانه قبل الولاية وبعدها! فماذا يأخذ هؤلاء القوم على الإمام وما استوت له قدمٌ بعد؟ ماذا يأخذون عليه وقد بدأوه العداء الشديد ، وألبوا عليه الجماعات منذ اللحظة التي بلغهم فيها نبأ استخلافه؟ ماذا يأخذون عليه وهم لا يشبتون لحجّته لو أنّهم أخذوا المنطقَ دليلاً ومُشيراً؟ ماذا يأخذون عليه في مقتل عثمان وهم قاتلوه؟

إنّ هذه الأسئلة تطوف أبداً في رسائل ذوي النوايا السليمة إلى أصحاب الجمل. وهي تطوف كذلك على السنة وفود البصرة إليهم. فإنّ جيش عائشة ما كان ينزل بجوار البصرة ، وإنّ رسائلها ورسائل طلحة والزبير ما كادت تتزاحم في طريقها إلى البصريين ؛ حتى خفّ عاملها عثمان بن حنيف إلى أبي الأسود

(١) جنان الإمام: قلب الإمام. المنجد: ١٠٢، مادة «جنّ».

الدؤلي وعمران بن حصين يرسلهما إلى عائشة ، فينظران في ما أخرجهما على الإمام عليّ وينصحان لها بالخروج عما هي سائرة فيه. ثم أرسل وفوداً أخرى إلى طلحة والزبير.

غير أنّ المثلث القرشي لم يقل إلا بمقالته الأولى. وأبوا إلا دخول البصرة عنوة ، فأبى عثمان بن حنيف عليهم ذلك ، فعبأ الناس وألبسهم السلاح ، ثم خرج على رأس من أراد الخروج معه إلى محلة الميربد حيث كان جيش عائشة عند ذلك. فتكلّم طلحة وتكلّم الزبير ، فقال من هم في صفّهما: «صَدَقَا وَبَرَا وَقَالَا الْحَقُّ وَأَمْرًا بِالْحَقِّ!» فأجابهم من هم في صفّ بن حنيف «فَجَرَا وَغَدَرَا وَقَالَا الْبَاطِلَ وَأَمْرًا بِهِ ، قَدْ بَايَعَا ثُمَّ جَاءَا يَقُولَانِ مَا يَقُولَانِ!». وتراشق الفريقان بالقول ثم تحاصبا^(١). فما كان من عائشة إلا أن خطبت الفريقين تقول:

«كان الناس يتجنّون على عثمان ، ويُزرون على عمّاله ، ويأتوننا بالمدينة ليستشثيروننا ، فننظر في ذلك فنجدّه بريئاً نقيّاً وفتياً ، ونجدهم فجّرة كذّبة ، يحاولون غير ما يُظهرون. فلما قووا على المكاثرة كاثروه ، فافتحموا عليه داره ، واستحلّوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا عذر!»^(٢).

وقاطعها أهل البصرة بالتذمر والجلبة ، فصاحت بهم: «اسكتوا أيّها الناس!». ولما سكّت الناس تابعت تقول:

«إنّ أمير المؤمنين عثمان كان قد غيّر وبدّل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتّى قُتل مظلوماً تائباً. قتلوه محرماً ، ذبحاً كما يذبح الجمل. ألا وإنّ قريشاً رمث غرضها بنبالها ، وأدمت أفواهاها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه

(١) تحاصبا: رمى كلّ فريق الفريق الآخر بالحصباء. النهاية في غريب الحديث: ٣٧٩/١، مادة «حصب».

(٢) تاريخ الطبري: ٤٨١/٣.

شيئاً ولا سلكت به سبيلاً قاصداً. أما والله ليرونها بلايا عقيمة تُنبّه النائم وتُقيم الجالس ، وليُسلطنَ عليهم قومٌ لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب !
 ألا إنَّ عثمان قُتلَ مظلوماً فاطلبوا قَتَلَتَهُ ، فإذا ظفرتُم بهم فاقتلوهم ، ثمَّ اجعلوا الأمرَ شورى بين الرّهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.
 وفي هذه الخطبة تقول: «وبايعتم علي بن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ، ابتزازاً وغصباً!»^(١).

وهكذا راحت عائشة تحرّض الجموع المحتشدة على قتل علي. فهي ترى أنَّ مبايعة الناس إياه «بغير مشورة الجماعة» ليست إلا ابتزازاً وغصباً ، وأنَّ علياً شرك في دم عثمان فلا بدَّ أن يُقتل ، وهو على كلِّ حال لا يجوز له أن يدخل - من جديد - في أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر ، لشركه في دم عثمان.

وهال أمرها كثيراً من السامعين. فتصدّى لها بالسؤال المحرج قومٌ كثير بينهم الأحنف بن قيس ، وبينهم جارية بن قدامة السعدي الذي أقبل عليها بعد أن أنهت خطبتها قائلاً لها:

«يا أم المؤمنين! والله لقتلُ عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضةً للسلاح! إنه قد كان لك من الله سترٌ وحرمة ؛ فهتكتِ سترك وأبحتِ حرمتك: إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك. إن كنتِ أتيتنا طائعةً فارجعي إلى منزلك ، وإن كنتِ مستكرهةً فاستعيني بالناس!»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة: ٣١٥ / ٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٤٨٢ / ٣ ، تاريخ ابن خلدون ، القسم الثاني: ١٥٦ / ٢.

وتصدى كذلك قومٌ كثير لطلحة والزبير فأخرجوهما. وكان حوار طويل لم ينتهِ إلا ليزيد المعارضين الثلاثة غيظاً وميلاً إلى القتال. وكانت عائشة هي القائدة العليا للجيش الذي تقدّمته وهي راكبة جملًا أُعطي اسمه للموقعة فيما بعد، كانت هي التي تصدر الأوامر، وتعين القادة الثانويين، وتوجه الرّسل بكتبها إلى هذا وذاك؛ ممّن تبغي عندهم أن يناصروها على عليّ، كما مرّ معنا. وكانت كتبها إلى هؤلاء مصدّرة بالعبارة التالية: «من عائشة ابنة أبي بكر، أم المؤمنين، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى ابنها الخالص فلان: أمّا بعد، فإن أذاك كتابي هذا فأقدم فأنصرنا، فإن لم تفعل فخذل الناس عن عليّ!»^(١). ولتاها قومٌ كثير. وأحجم عن تلبيتها قومٌ كثير.

(١) تاريخ الطبري: ٤٩٢ / ٣.

اللهم اشهد!

- اقتلوه - تريد ابن حنيف - (١)

عائشة

- ألا ألف فاريس أسيرُ بهم إلى عليّ لمليّ أقتله قبل أن
يصل إلينا! (٢)

الزبير

- دعواكم لتشهدوا معنا إخواننا ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن
يلجؤوا داوينا هم بالزفق! (٣)

عليّ

- أتريد أن تقتلني يا أبا اليقظان؟

الزبير

- لا يا أبا عبد الله (٤)

عمار

- وحمل عليّ على الفنة الباغية كأنه مارج من نار.

دخل جيش عائشة البصرة في ليلة باردة وقتلوا قوماً من البصريين في
المسجد. دخلوا دار عثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة فأسأؤوا إليه
وحقروه وضربوه وأمعنوا في الإساءة والتحقير والضرب. واستاء طلحة
والزبير مما فعله الجيش بأبن حنيف وهو من أصحاب محمد ، فأخبرا عائشة

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٤ / ١٤ ، تاريخ الطبري: ٣ / ٤٩١.

(٣) تاريخ الطبري: ٣ / ٥٠٢.

(٤) البداية والنهاية: ٧ / ٢٦٧.

بما ساء هما ، فما كان منها إلا أن أمرت به تقول: «اقتلوه!» فاستعظمت إحدى النساء هذا الأمر وقالت لعائشة: «نشدتُك الله يا أم المؤمنين في عثمان بن حنيف وصحبته لرسول الله! فبدلت عائشة أمرها، قائلة: «احبسوه ولا تقتلوه». وأمر أحد الرؤساء في جيش عائشة قائلاً: «اضربوه وانتفوا شعر لحيته»^(١) فضربوه ضرباً موجعاً كثيراً وانتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه ثم حبسوه!

وفي جماعةٍ من الصّفين عاد طلحة والزبير من جديدٍ إلى الكلام تأليباً على عليّ. وفيما كان الزبير يتكلم نهض له رجلٌ من عبد القيس فأسكت الزبير وخاطب المهاجرين من أصحاب الجمل بقولٍ أراد فيه إلقاء التبعة عليهم في اختيار عثمان، ثم في إنكارهم عليه أشياء ، ثم في قتله. وسألهم بعد ذلك ما الذي نعموه على عليّ فيقاتله إلى جانبهم هل استأثر عليّ بقِيء؟ أو عمل بغير الحق؟ أو عمل شيئاً ينكرونه فيكون هو وأهل البصرة معهم عليه؟ وختم الرجل العبدى كلامه الحق بقوله: «وإلا فما هذا؟» فهَمَّ أصحاب الجمل بقتله فنهضت لهم عشرينه ، فاقتلوا ، ففتك أصحابُ الجمل بسبعين رجلاً من عبد القيس ، واستولوا على بيت المال وأرزاق المدينة ؛ وقسم الزبير وابنه عبد الله الرزق على أصحابهما.

وكان أشدّ الناس جزعاً لهذه الأعمال حكيم بن جبلة وهو موالٍ لعليّ ، فجمع أنصاراً كثيرين وقاتل بهم أصحابَ الجمل وهو يقول في طلحة والزبير: «إنا خلفنا هذين الرجلين وقد بايعا عليّاً وأعطياه الطاعة ، ثم أقبلنا مخالفين محاربين يطلبان بدم عثمان، ففرقنا بيننا ونحن أهل دارٍ وجوار. اللهم إنهما لم



يريدا عثمان!»^(١).

وقُتل حكيم وابنه وأخوه. ثم أمر طلحة والزبير بعدد هائل متن غزا المدينة من قبائل البصرة؛ فقتلوا قتلاً مريعاً.

وأقام أهل الجمل بالبصرة وقد صار أمرها إليه. وباع أهل البصرة مختارين أو مكرهين، لطلحة والزبير. وعاش الجميع في نشوة من استيلائهم على البصرة، فلما بويع لطلحة والزبير قال الزبير: «ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي، لعلّي أقتله قبل أن يصل إلينا!»^(٢).

وكتبت عائشة إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت حفصة بالمدينة، تبشرها بهذا النصر وتحدث عما تراه من أمر علي وعما هو صائر إليه: «أما بعد، فأخبرك أن علياً نزل ذا قار، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا وجماعتنا. فهو بمنزلة الأشقر، إن تقدم عُقر، وإن تأخر نُحر!»^(٣).

واستخدم الزبير وطلحة ضد عليّ أسلوب الدعاية الذي تلجأ إليه المؤسسات الحديثة؛ كما لجأت إليه المؤسسات القديمة. وقوام الدعاية أن يُظهر الشيء المدعوه كما يريد الداعي أن يظهر. فإن كان باطلاً أظهره حقاً، وإن كان شراً أظهره خيراً؛ وإن كان لا شيء أظهره شيئاً كثيراً. وأشدّ الأمور حاجةً للدعاية، الأمور الكاذبة لحاجتها إلى الطلاء والتمويه. وأكثر الرجال عوزاً إلى الدعاية، المُبتلون والمستنفعون بالبطل، والذين لا قيمة حقيقية لما يفعلون؛ والذين ينسأهم الناس حال انتهاء الدعاية لهم. ذلك لأن الطبيعة لا تقبل غشاً والحياة لا تستقيم بالخداع، والزمان لا يهضم إلا الحق والحق أكبر!

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٩١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٤ / ١٣، جواهر المطالب: ١ / ٣٢٤.

ومن الدعاية التي استخدمها الرجلان ضدَّ عليٍّ تأليباً للبصريين عليه ما نقله ابنُ أبي الحديد عن المدائني والواقدي من أنَّ طلحة والزبير قاما في الناس فقالا: إنَّ عليَّ بنَ أبي طالب إنَّ يظفر فهو فَنَّاكم يا أهلَ البصرة! فاحموا حقيقتكم فإنَّه لا يُبقي حرمةً إلَّا انتهكها، ولا حريماً إلَّا هتكه ولا ذريةً إلَّا قتلها، ولا ذواتٍ خدرٍ إلَّا سباهنَّ! فقاتلوا مقاتلةً من يحمي عن حريمه ويختار الموت على الفضيحة يراها في أهله! (١).

* * *

إزاء هذا التحدي السافر وهذه الحملة المنظمة ، وقف عليٌّ يترقب ما يكون من أمر عائشة وطلحة والزبير وجيشهم لعلَّ الرغبة عن القتال تعود إلى قلوب هؤلاء الذين خرجوا عليهم وحجَّتهم في الفتنة أوهى من خيط العنكبوت. ولعلَّهم يدركون أنَّ في هذا القتال الذي يبادرون إليه مأساة الخلافة، وخيبة الشعب الذي علَّق الآمال العظام على عدالة عليٍّ وزهده واستقامته وتقواه!

وراح يبعث بالكتب ويرسل السفراء من الربذة إلى الكوفة يستنفر أهلها على أصحاب الجمل، إلَّا إذا نهجوا غير هذا النهج. فقعد عامله عليها أبو موسى الأشعري عن نصرته، بل طفق يثبِّط همة الناس عن اللحاق به. فعزَّله عليٌّ عن الولاية في الحال. أمَّا قبائل عبد القيس فكانت قد خرجت من البصرة بعد أن احتلَّها أصحابُ الجمل، وأقامت في مكانٍ بين ذي قار والبصرة تنتظر قدوم عليٍّ لتنضمَّ إليه. ونهض من الكوفة للسير تحت لواء ابن أبي طالب تسعة آلاف مقاتل. فلما وافوه إلى ذي قار خطبهم طويلاً، ثم قال:

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٥٦ / ١.

«يا أهل الكوفة! دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة: فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجؤا داويناهم وبائناهم حتى يبدأونا بظلم. ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله!»^(١).

وإني لأسألك، وأريدك أن تتساءل معي: أي فرق بين هؤلاء المتخصصين تلقاه ممّا أظهرناه لك من موقفٍ كلّ منهم منذ دخول أصحاب الجمل البصرة حتى خطبة الإمام هذه؟ قد يكون لكلّ منهم عذرٌ يرتضيه لنفسه في ما أقدم عليه من عملٍ وقول. فللحوادث منطقها الخاص، ولمواقف الرجال من هذه الحوادث منطقٌ خاصٌّ كذلك، تفرضه أحوالٌ وشؤون لا يمكن حضرها في واحدة، وقد يكون ما استتر منها أشدّ توجيهاً للرجال مما ظهر.

بيد أنّ للإنسانية الخالصة مقاييسها التي لا ترضى عنها بديلاً. وبهذه المقاييس تحكم للرجال أو تحكم عليهم. وهي وحدها القولُ الفصلُ في قيمة العمل والقول والهوى. وهي وحدها الميزان الأبدي لما يتصارع في النفوس من معاني الجمال والقيح. ولو لم تكن هذه المقاييس كما كان لإرادة الخير من معنى، ولما كان لتربية القلوب على الأخلاق العظيمة من قيمة، ولقدّدتِ الرسائل الإنسانية الكبرى كلّ هدفٍ عظيم ترمي إليه، وهي القائمة على ثورات تعصف بإرادة الشر، وتضع أُسساً وأركاناً لبناء الخير والحق، إستناداً إلى هذه المقاييس.

لولا هذه المقاييس لاختلط شرّ الحياة بخيرها، وضاع حقّها بباطلها. وقد يقسو منطقها أشدّ قسوة، وقد يثقل على بعض النفوس أكثر ما يمكنه أن يثقل. ففيما يُصعّب عليك الصعود تراه يسهّل عليك البقاء حيث أنت. والناس

(١) تاريخ الطبري: ٣ / ٥٠٢، البداية والنهاية لابن الأثير: ٧ / ٢٦٤، تاريخ ابن خلدون: ٢ / ١٦٠، ق ٢.

في معظمهم يؤثرون البقاء السهل على الصعود الصعب، ومن ثمَّ كان الصاعدون قليلاً!

قلنا: لكلِّ من هؤلاء المتخاصمين عذراً يرتضيه لنفسه في ما أقدم عليه من عمل وقول، وإنَّ لهم في مواقفهم من الحوادث منطقاً خاصاً. بيَّد أنَّ المقاييس الإنسانية الثابتة هي التي تحدّد القيمة الحقيقية لهذا العذر وهذا المنطق. وهي التي تشير إلى هذا الفرق بين عليّ ومخاصميه في موقفين متباينين تجاه قضية واحدة.

فهناك جماعة اتهموا رجلاً بما حقَّ أن يتهموا به أنفسهم وهو منه براء، ثم خرجوا عليه بهذا الاتهام ومن حقهم أن يطيعوه، وألبوا الناس عليه وكانوا قد دخلوا في طاعته، وأقبلوا بهم إلى إحدى عواصمه، فأهانوا عامله عليها واتفقوا لحيته وضربوه وحبسوه وأخرجوه، ونكّلوا بأنصاره ومحبّيه وقتلوه ثم شتر قتلته وهم لا مأخذَ لهم على هؤلاء القتلى ولا على إمامهم الغائب، وقسموا الأرزاق على ذويهم وهي من حق الجماعة دون تمييز وتفريق. ثم ما كادوا يصنعون ما صنعوا حتى تمنّوا ألف فارس يريدون أن يهاجموا بهم الرجل فيقتلوه.

وهنا إمامٌ بايَعه الناس فأبى عليهم وأبوا عليه، ثم ازدحموا عليه وهم يقولون: لا نجد غيرك ولا نرضى إلا بك، فبايعنا لا نفترق ولا نختلف. فبايعهم ودعوا إلى بيعته، فمن بايع طائعاً قَبِلَ منه ومن أبى تَرَكه. ثم ما لبث أن رأى نفراً منهم يحترضون الجماعات عليه، ويشتون كلمة أنصاره ويُفسدون عليه جماعته ظلماً، ويقومون على عماله وخزان بيوت أمواله، ويثبون على شيعته فيقتلون طائفة غدرًا - كما يقول - وطائفة صبراً، ثم يترتبصون به ليخلعوه ويقتلوه جوراً وعدواناً فيبلغه ذلك، فلا يضر لظالميه انتقاماً، ولا يبيّت حقداً،

ولا تأخذه الجفوة التي تأخذ المظلوم من ظالميه، بل يجمع قومه ويخطبهم قائلاً هذا القول الذي ينبثق عن إنسانية لا تسمو عليها إنسانية الأنبياء في كثيرٍ أو قليل: «يا أهل الكوفة! هوثكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة».

ولم يكتفِ عليّ بهذا المقدار من كرم المبادرة، بل راح يغفر للقوم ما وسعت الإنسان الطاقة على أن يغفر. فأرسل إلى طلحة والزبير بالبصرة سفيراً يسألهما الكف عن العدوان والتعاون في سبيل الخير والعافية. ثم أرسل سفراء آخرين يدعونهما وعائشة إلى الألفة والجماعة.

وإليك هذا الخبر الذي يدلّك على نظرة عليّ إلى مخاصميه هؤلاء، وإلى نفسه فيما يتعلق بشؤون الخلافة:

لما قرب عليّ من البصرة، أرسل قوم من أهلها بعض العرب واسمه كليب الجرمي، ليعلم لهم من الإمام حقيقة حاله من أصحاب الجمل، لتزول الشبهة من نفوسهم. فبين له الإمام من أمره معهم ما عليم به أنه على الحق، ثم قال له: بايع! فقال الرجل: إني رسول قوم ولا أُحدث حديثاً حتى أرجع إليهم. فقال الإمام بمنطقه المحكم: رأيت لو أنّ الذين وراءك بعثوك رائداً تبغي لهم مساقط الغيث، فرجعت إليهم وأخبرتهم من الكلاّ والماء، فخافوا إلى المعاطش والمجاذب^(١) ما كنت صانعاً؟ قال الرجل: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلاّ والماء! فقال الإمام: فامدّ إذا يدك! فقال الرجل: «فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة عليّ، فبايعته عليه السلام»^(٢).

(١) مساقط الغيث: الأمكنة التي تسقط فيها الأمطار. المعاطش: أمكنة المعاش. المجاذب: أمكنة الجذب، وهو

القحط والمحل. النهاية في غريب الحديث: ٢٣٥/١، مادة «جذب».

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧٠ - ١.

ولمّا جمحت^(١) النفوس في جيشه يريدون معالجة أصحاب الجمل خطبهم عليّ، قائلاً: «يا أيّها الناس! املكوا أنفسكم، وكفّوا أيديكم وأستكم عن هؤلاء القوم فإنّهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتكم. وإنا كم أن تسبقونا فإنّ المخصوم غداً من خصم اليوم!»^(٢).

وظلّ عليّ ينزع إلى السلم على هذا الأسلوب. وبهذه الرغبة سار على رأس جيش عدته عشرون ألفاً إلى البصرة لمواجهة القوم، وحملهم على الألفة. ولبثت أحاسيس الخير في نفسه تدفعه إلى تجنب القتال حتى ساعة التقى الجيشان أو كادا يلتقيان، وقد استحال أمر المصالحة، فخرج إلى طلحة والزبير حاسراً لا يحتمي بدرع ولا سلاح تدليلاً على نوايا السلم والخير التي يضمّر. ونادى: يا زبير! أخرج إليّ فخرج الزبير إليه مدججاً بالسلاح. وسمعت عائشة فصاحت: واحرباه! وذلك لم يخالجهما^(٣) شك في أنّ الزبير لا محالة مقتول، فخصم عليّ مقضي عليه بالموت إذا نازله مهما كان حظّه من الشجاعة عظيماً. ولشدّ ما دهشت عائشة ومن حولها وهم يرون إلى عليّ يعانق الزبير! عانقه طويلاً لأن أسباب المودة لا تنقطع في القلب الكبير!

وعاد عليّ يسأل الزبير بلهجة الصداقة والإخاء: ويحك يا زبير! ما الذي أخرجك؟ قال: دم عثمان، قال عليّ: «قَتَلَ الله أولانا بدم عثمان»^(٤).

كلّ هذا وعليّ يعلم من أمر الزبير وصاحبه طلحة ما يعلمان من حالهما وما يعلمه عبد الله بن عباس، الذي كان قد جاءه بعد استخلافه، يشير عليه أن

(١) جمحت: أسرعت. ومنه قوله تعالى: يجمعون. النهاية في غريب الحديث: ٢٨١/١، مادة «جمع».

(٢) تاريخ الطبري: ٥٠٩/٣، الفتنة ووقعة الجمل، لسيف بن عمر: ١٥١.

(٣) يخالجهما: يخامرهما، يشك فيها. المنجد: ١٩١، مادة «خلج».

(٤) جواهر المطالب: لابن الدمشقي: ٣١/٢، النصائح الكافية لابن عقيل: ٤٨.

يكتب لطلحة بولاية البصرة، ولابن الزبير بولاية الكوفة، ول معاوية بإقراره في ولاية الشام؛ حتى تسكن القلوب ويهدأ غضب قاتلي عثمان وحاملي قميصه. كل هذا وعلي ما يزال في مسميه قول طلحة وقول الزبير له بعد استخلافه: نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر^(١).

فأي دم هذا الذي يطلبان، إن لم يكن الحيلة والوسيلة؟ وقبل أن يلتقي الجيشان وجهاً لوجه أمر علي أصحابه أن يصطفوا. ففعلوا فقال لهم: «لا ترموا بسهم، ولا تطفنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، واعذروا!» وما هي إلا دقائق حتى رمى رجل من عسكر القوم بسهم فقتل رجلاً من أصحاب علي: فصاح علي: «اللهم اشهد» ثم أصيب رجل آخر فقتل، فقال علي: «اللهم اشهد» وأصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال علي: «اللهم اشهد» ثم كانت الحرب^(٢).

حمل علي على الفئة الباغية وكأنه مارج من نار، فأزاح جيش قريش من أماكنه وزعزع أركانه وصدع صفوفه. فانهزم الرجال وكان عليهم الزبير، فالتقاء أصحاب علي فأفرجوا له ولم يقتلوه. وحمل عليه عمار بن ياسر حملة شديدة، فلما أصبح تحت رحمة عمار، قال: «أتريد أن تقتلني يا أبا اليقظان!» فابتعد عمار عنه وهو يقول: «لا يا أبا عبد الله!». وأن موقف عمار هذا من الزبير لأشبه بموقف أستاذه علي من عمرو بن العاص في معركة صفين المقبلة، ذلك لأن المدرسة الإنسانية المثالية التي يتزعمها علي إنما تُعجن فيها النفوس عجنًا، وتُصهر فيها الأخلاق صهرًا، وتُحترم فيها الحياة وتُقدس؛ حتى في مواقع القتال التي تهون فيها الحياة على القاتل والمقتول معاً. فلقد عز علي عمار بن ياسر ألا يستجيب لنداء الحياة في شخص خصمه الزبير وهو تحت

(١) نهج البلاغة: الكلمات القصار، رقم: ٢٠٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١١١ / ٩.

سيفه، كما سيعرّ على ابن أبي طالب مثل هذا النداء في شخص خصمه عمرو بن العاص، فإذا بعثار يرفع عن الزبير سيفه ويجيبه بهذه البساطة العظيمة: «لا يا أبا عبد الله»^(١)!

واعتزل الزبير القتال منحاذاً إلى مكانٍ يدعى وادي السباع. وكان في نيّته اعتزال القتال قبل وقوعه على ما يذكر بعض الرواة، وذلك على أثر ما استيقظ في نفسه من شعورٍ بالإنصاف بعد أن دعاه عليٌّ إليه، وعانقه، وذكره المودّات القديمة، وسأله عما يريد بهذا القتال. ولكن عائشة وابنه عبد الله عتراه هذه الرغبة في الاعتزال، فاضطرّ إلى البقاء في المعركة، حتى كان من أمره مع عمار ماكان، وخلّى الناس منحاذاً إلى وادي السباع!

كانت عائشة تعمل على إلهاب نار الحماسة والانتقام في صدور عسكريها، وكان عددهم قد بلغ ثلاثين ألفاً إذ ذاك، على صورةٍ عنيفة. وجعلت تخاطب قواد القبائل والعشائر الموالية لها واحداً واحداً، وتمتدح شجاعتهم وبأسهم، وتذكّي في نفوسهم حبّ القتال؛ حتى غدا جيشها جحيماً ناره الحماسة والاندفاع.

وكان لواء عائشة يخفق على خطام جملها يحمله اللاحق من أفراد جيشها بعد أن يُقتل السابق وكلّهم من قریش. واستبسل جيشها كما استبسل جيش عليّ؛ حتى كانت المعركة رهبةً مخيفة. وكان للشعر نصيبٌ عظيم في إذكاء نار الحماسة في المعسكرين وفي تصوير أفكار الفريقين في هذا القتال. وتروى في ذلك رواياتٌ منها ما يذكر أنه إذا قال من جيش عائشة قائلٌ:

يا أمّنا! يا زوجة النبي!

يا زوجة المبارك المهدي!

(١) البداية والنهاية: ٢٦٧ / ٧، صحيح الترمذي: ٦٦٩ / ٥، مناقب عمار، الحاكم في المستدرک:



نحن بنو ضبّة، لا نفرؤ
حتى نرى جماجماً تختر
سمع من جيش عليّ من يناجزه قائلاً:

يا أمّنا! أعقّ أمّ نعلم
والأمّ تغذو ولداً، وترحم
أمّا ترين كم شجاع يكلم
وتختلي منه يدٌ ومُعصم^(١)

وإذا استبسل محاربٌ أزديّ من جيش عائشة وتقدّم ليمسك خطام جملها
بعد أن قُتل زميله، داس في طريقه جثّة صريع من جيش عليّ وهو يقول:

أسامعُ أنت! مطيعٌ لعلي
من قبل أن تذوق حدّ المشرفي
وخاذلٌ في الحقّ أزواج النبي!

ثم خلس بعد ذلك إلى عائشة، هاتفاً:

يا أمّنا، يا عيش، لا تراعي!
والأزْدُ فيها كرمُ الطباع!
تلقاه من أصحاب عليّ من جندلّه وهو يرتجز:

جردتُ سيفي في رجال الأزْدِ
أضربُ، في كهولهم والمُزْدِ
كل طويل الساعدين، نهْد^(٢)

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٦٤/١، تاريخ الطبري: ٥٢٦/٣، البداية والنهاية: ٢٧١/٧.

(٢) الفتنة ووقعة الجمل لسيف عمر: ص ١٦٠، تاريخ الطبري: ٥٢٥/٣.

ومن الشعر الكثير الذي قيل في هذه الموقعة ما يُظهر جانباً من رأي المقاتلين في عثمان وعهده. فهذا رجلٌ من أصحاب عليّ يدخل المعركة وهو يرتجز معزّضاً بحكم عثمان:

لَحُكْمُهُ حَكْمُ الطَّوَاغِيتِ الْأَوَّلِ
آثَرَ بِالْفَيِّءِ وَجَانِي فِي الْعَمَلِ
فَأَبْدَلَ اللَّهَ بِهِ خَيْرَ بَدَلٍ^(١)

ومن هذا الشعر أيضاً ما يدلّ على تأثر البصريّين بحملة الدعاية التي قام بها طلحة والزبير ضدّ عليّ، إذ قالوا: إن ابن أبي طالب سينتهك الحرمات إن دخل البصرة، ثم طلبا إلى أهلها أن يختاروا الموت على الفضيحة يرونها في أهلهم.

ومن أخبار الراجزين في هذه الموقعة: أنّ محارباً من أصحاب الجمل راح يقول:

إِنْ فَاتَنَا الْيَوْمَ عَلِيٌّ، فَالْغَبْنُ
أَوْ فَاتَنَا ابْنَاهُ الْحُسَيْنُ وَالْحَسَنُ
إِذَا أُمْتُ بِطَوْلِ هَمٍّ وَخَزَنُ

ثم تقدّم فضرب بسيفه فقتل. وانبرى صنديد آخر فقال:

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥٤، شرح نهج البلاغة: ١٨٥/٥.

أضربهم ولا أرى أبا الحسن

ها إن هذا حزنٌ من الحزن^(١)

فشدّ عليه عليّ بالرمح فطعنه وقال: قد رأيت أبا الحسن، فكيف رأيته!
ولعلّ أجمل ما تركته هذه الموقعة من أراجيز واحدة للأشتر النخعي أحد قواد
في الجمل وصقّين وعامله على مصر:

إني إذا ما الحربُ أبدتْ نابها

وأغلقتْ يومَ الوغى أبوابها

ومزقتْ من حنقٍ ثيابها

كنا قدامها ولا أذنبها

ليس العدوّ دوننا أصحابها

مَن هابها اليومَ فلنْ أهابها

لا طعنّها أخشى ولا ضرابها^(٢)

وكثر القتلى حتى ملأوا الأرض، فهال الأمرُ عليّاً فلجأ إلى خطة يُنقذ بها
من بقي حياً من الفريقين، فأمر بأن يُعقر جملُ عائشة، فعُقر! وانهزم جيش
المثلث القرشي، وصُرع طلحة والزبير. أما مصرع الزبير ففيه رواياتٌ كثيرة،
منها: أنّ عمرو بن جرموز لحق به إلى وادي السباع فطعنه من خلفه فقتله. فلما
بلغ الخبر عليّاً حزن كثيراً ولعن قاتله. وأما طلحة، فقد كان مروان بن الحكم -
وهو حليفه على عليّ - صاحب دمه إذ رآه بسهم فقتله وهو يقول: «لا أنتظر

(١) أنساب الأشراف: ٣٧٣ ترجمة الإمام علي. شرح نهج البلاغة: ٢٥٦/١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٦٠/١.

بعد اليوم بثأري من عثمان»^(١). ومن عرف نفس مروان وأخباره أدرك أنه بعمله هذا إنما ينقذ فصلاً من المشروع الأموي العام، الذي يرمي إلى التخلص من كل من له مطمع إلى الخلافة؛ كي يخلو لأمية وجه الأرض! وأما مروان هذا فقد وقع في قبضة علي فرجاء أن يعفو عنه، فعفا.

وانكشف القتال عن مشهدٍ مريع حقاً: سبعة عشر ألف قتيل من أصحاب الجمل طُرحوا في عراء الأرض وألف وسبعون من أصحاب علي؛ ولا ذنب لهم جميعاً إلا أطماع بعض المحرضين على الإمام وحاول بعض أصحاب علي أن يقضوا على عائشة، فما كان منه إلا أن أسرع إلى إنقاذها، ونادى في جيشه يقول: «لا يُجهز على جريح، ولا يُتبع مُولٌّ، ولا يُطعن في وجه مُدبر، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن!»^(٢).

أورأيت في تاريخ القتال، في كل عصر وفي كل بلد، موقفاً لرجل أعظم وأنبل من هذا الموقف لابن أبي طالب؟!

ووقف علي بعد انتصاره ينظر إلى جثث القتلى التي تغطي الأرض! وعصر الحزن قلبه لهول المأساة التي حاول أن يتلافى وقوعها لما أفلح! ودمعت عيناه! وأشاح بوجهه عن المشهد المريع، وهو يقول: «اللهم اغفر لنا ولهم! إنما إخواننا بقوا علينا!»^(٣).

وراح في صلاة صادقة على القتلى من الفريقين! وأعاد علي عائشة مكرمةً إلى المدينة على نحو ما تقدم معنا في مكان سابق من هذا الكتاب.

(١) جواهر المطالب لابن الدمشقي: ١٧/٢ وفيه: ما أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان. مصنف ابن أبي شيبة: رقم ١٠٦٢٦.

(٢) أمالي المفيد: ص ٢٦، تاريخ يعقوبي: ١٨٣/٢.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ١٧٣/٨ و١٨٢، النصائح الكافي: ٥٠.

مَقَالِيَّةُ وَابْنِ الْقَاصِ

- فِدْعُ عَنْكَ قَرِيشاً فَبِئْهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كِبَاجِمَاهُمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ قَبْلِي (١).

عَلَيَّ
.. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَّغَنِي عَنْكَ حَقًّا، لَخَسِلَ أَهْلِيكَ وَتَسِعَ نَعْلُكَ خَيْرٌ مِنْكَ (٢).

عَلَيَّ
- قُرَأَتْ كِتَابُ الْمُتَحَاتِّينَ فِي عَمَلِ الْمَعْصِيَةِ (٣).

عَلَيَّ
- وَمَا كَانَ مِنْ طَبَائِعِ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ أَنْ يَتَحَفَّلُوا الْحَقَّ وَأَنْ يَقُولُوهُ وَيَفْعَلُوهُ.

لم تكن حدود المؤامرة على علي بن أبي طالب لتنتهي عند هزيمة خصومه في موقعة الجمل؛ ذلك لأن أسبابها البعيدة ما تزال في نفوس المؤتمرين به في الحجاز والشام وما زال لهؤلاء جُنْدٌ كثير. ففي الحجاز أنصارٌ لعائشة وأعوانٌ لطلحة وحزب للزبير. ومعظم من كانوا على رأس هؤلاء الأنصار هم من الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان، واحتكروا أسباب الترف والثروة. وليس لهم جميعاً أملٌ في الانتفاع والاحتكار وعلي أمير المؤمنين. أما الذين كانوا لعلّي من أهل الحجاز فالفقراء والمستضعفون والصحابة

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٦ - ٤.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٧١ - ٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٧٧ / ٤.

والأتقياء والعاقلون، حتى لكأن سيرة عليّ في أهل الحجاز هي سيرة ابن عمه النبيّ فيهم لا فرق بينهما إلّا في ما كان من عمل الظرف والمناسبة. ويؤكد هذه المشابهة أنّ خصوم عليّ كانوا القرشيين، وهم خصوم النبيّ من قبل. يقول عليّ: «فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال وتجوّالهم في الشقاق وجماحهم في التيه، فإنّهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله قبلي!»^(١).

أمّا في الشام فإنّ معاوية يكيّد للخليفة ويسعى بدهائه إلى تأليب الناس عليه. ثمّ إنه ينفق أموال الولاية وينشر الوعود بنعم الأرض حيث لا ينفع إلّا المال والوعد. وكان له جيشٌ هو قائده وصاحب الرأي فيه. وهو جيش لا يصحّ نعته إلّا بأنه من المرتزقة والأغبياء، ومعاوية صاحب رزقه والساھر على أن تكون فيه غباوة. وإليك هذه الحادثة التي توجز - على بساطتها - الحقيقة عن جيش معاوية. وعن ثقة ابن أبي سفيان بأنّ خصمه على حقّ، وبأنّ انتصاره على هذا الخصم قد يمكن؛ لأنّه يحاربه بقوم جهلة ليس في مقدورهم أن يميّزوا بين ظلم وعدل، أو بين معاوية وعليّ:

دخل رجلٌ من أهل الكوفة على بغيرٍ له إلى دمشق بعد أن انصرف جيشٌ عليّ من صفّين. فتعلّق به رجلٌ من دمشق فقال له: هذه ناقتي أخذت مني بصفّين! فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقيّ خمسين رجلاً من أهل الشام يشهدون أنها ناقتة. فقضّى معاوية على الكوفيّ وأمره بتسليم البعير للدمشقي. فقال الكوفيّ لمعاوية: أصلحك الله! إنّه جملٌ وليس بناقة! فقال معاوية: هذا حكمٌ قد مضى. ثمّ دسّ إلى الكوفيّ بعد أن تفرّقوا من أحضره إليه ثانية. فسأله عن ثمن بعيّره فدفع إليه ضعفه، وأحسن إليه. وقال له: «أبلغ عليّاً

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٦ - ٤.

أنني أقابله بمائة ألف رجل ليس فيهم من يُفرّق بين الناقة والرجل!!»^(١).
ويؤكد الجاحظُ كلام معاوية في أهل الشام بزمانه، ويذكر بعض الأسباب في طاعتهم له، يقول: «العلّة في طاعة أهل الشام أنهم ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يرون النظر ولا يسألون عن مغيب الأحوال!»^(٢).
قلنا إنّ حدود المؤامرة لم تكن لتنتهي بانتهاء موقعة الجمل، بل إن الموقعة هذه كانت إحدى حلقات المؤامرة الكبرى على الإمام وحكومته. فإنّ علّياً ما كاد يقضي على جيش عائشة وطلحة والزبير؛ حتى أخذ يعدّ العدة لتأديب معاوية. كان همّ عليّ يومذاك أن يتّجه بالناس، ما أمكن الإتّجاه، نحو المثل الإنسانية الطيبة، ويرفع عن الشعب جور النافذين، وينظم الدولة على أساس من رعاية الحقوق العامة. فطريقه غير طريق الذين يتزلفون إلى الأقوياء بالمداراة ويستنصرون البُغاة بالصفح عن سيئاتهم، ويستنجدون بالناقدين في سبيل حكومة أو مُلك.

وقد تبينَ معاً في الفصول السابقة كيف أنه لم يكن ليطلب من الناس أجراً على خدمة إلا أن يطيعوه بالحق. وكثيراً ما كان يردّد هذا القول: «... كيلاً بغير ثمن لو كان له وعاء»^(٣) ويريد بذلك أنه يكيل للقوم العلم والحكمة والعدل كيلاً لا يريد له ثمناً، لو وجد نفوساً قابلة وعقلاً عاقلة!

ولم يكن معاوية بالوعاء الذي يستوعب هذا الكيل. ولم تكن العدالة والحقوق العامة على يديه في عافية. لذلك لم يُثبت عليّ على الشام، وكان باستطاعته أن يصطنعه لو شاء أن يساوم في الحق ويعمل بغير ما يوحي به

(١) الغدير: ١٩٦/١٠، عن مروج الذهب: ٧٢/٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣٤٣/١.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة ٧١ - ٤.

صفاء الوجدان.

ولم يبايع معاوية لعليّ ولم يطمع له أمراً، وفي ذلك الدليل الواضح على أنه راغب في الاستئثار بما يمكنه أن يستأثر به من أسباب السلطان. وكانت مؤامرة أهل الحجاز على الخليفة، فقوي معاوية بهم.

وعلى أثر انكسار المثلث القرشي في موقعة الجمل، بعث عليّ إلى معاوية يستتيبه ويسأله أن يكون على دين القوم الذين استخلفوه. وكثر ذلك مراراً. وفي جملة ما بعث به إليه هذا الكتاب:

«سلام عليك. أما بعد، فإنّ يبعثي بالمدينة لزمك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بوعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يردّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجلٍ وسّموه إماماً كان ذلك لله رضئ. وإن خرج عن أمرهم ردّوه إلى ما خرج عنه. فإن أبى قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين، وولّاه الله ما تولى، وأصلّاه جهنّم وساءت مصيراً. وإنّ طلحة والزبير بايعاني، ثم نقضا بيعتهما وكان نقضهما كردهما. فجاهدتهما بعد ما أعذرتُ إليهما، حتّى جاء الحقّ وظهر أمر الله، وهم كارهون، فادخل في ما دخل فيه المسلمون؛ فإنّ أحبّ الأمور إليّ قبولك العافية. وقد أكثرت في قتلة عثمان، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت في ما دخل فيه المسلمون، ثم حاكمت القوم إليّ حملتك وإياهم على كتاب الله. وأما تلك التي تريدها^(١) فهي خدعة الصبيّ عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قرش من دم عثمان. واعلم أنّك من الطلقاء^(٢) الذين لا تحلّ لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى. وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايعه، ولا

(١) يعني الخلافة.

(٢) أي الذين أطلقوا من الأسر يوم فتح مكة وفيهم معاوية وأبو.

قوة إلا بالله»^(١).

فرد معاوية يقول:

«سلام عليك. أمّا بعد، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان. ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف. وقد أبى أهل الشام قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنما كان الحجازيون هم الحكّام على الناس والحق فيهم، فلما فارقه كان الحكّام على الناس أهل الشام. ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير، إن كانا بايعاك فلم أباعك أنا. فأما فضلك في الإسلام وقربتك من رسول الله صلى الله عليه وسلّم فلست أدفعه... الخ»^(٢).

ومن رسالة معاوية هذه تبدو نواياه على حقيقتها. فهو يخلق الصعاب والعراقيل الواحدة بعد الأخرى ليمتنع بها عن مبايعة عليّ. وهي إن أزيحت إحداها ثبتت الأخرى لا يمكن أن تزاح، فمعاوية يعرف الإباء في عليّ والثقة بالنفس، والبراءة ممّا ينسبه إليه، فيصدمه بأن يحاول حمّله على الشكّ في حقيقة موقفه من عثمان، وفي مساواته بأبي بكر وعمر من حيث حقّه بأن يخلفهم. ثم بأن يطلب إليه أن يسلمه قتلة عثمان لأنّ عليّاً نفسه متهم في رسالة معاوية، بأنّه المحرّض على الخليفة الثالث.

ثم إن معاوية لن يُدعّن لأمر عليّ ولن يبايعه ولو ثبتت براءته، لأنّه يدعو المسلمين، في ردّه هذا، لأنّ يعيدوا النظر في خلافة عليّ ويحتكموا إلى الشورى من جديد!

(١) نهج السعادة: ٩٠/٤ - ٩١، شرح نهج البلاغة: ٧٥/٣، تاريخ ابن عساكر: ١٢٨/٥٩.

(٢) الإمامة والسياسة: ١/٢١، جواهر المطالب: ٣٧/١.

أضف إلى ذلك أن الشورى - كما يريد لها معاوية - لن تكون هذه المرة في أهل الحجاز أو أهل العراق؛ لأن الحق قد خرج منهم جميعاً وأصبح في أهل الشام. فلاهل الشام وحدهم أن يختاروا الخليفة لأنهم الحكام على الناس! ومن يكون الخليفة عند ذاك غير معاوية بن أبي سفيان؟

وقف عليٌّ من أمره وأمر الناس موقفاً موجعاً، ولكنه لا يدعو إلى تردد وإحجام. فقد انقسم العرب قسمين لن يكون الواحد منهما إلا غالباً أو مغلوباً وإن عظم الفرق بينهما في كل مقياس. فهنا المظلومون والمستضعفون والطامحون إلى طمأنينة العيش تلقهم وتلف إخوانهم جميعاً، ولا تأتيهم إلا عن طريق الإنصاف والتسوية في كل حق، وأصحاب النبي الصادقون الذين أرادوا الحياة كراماً وإخاءً وبلداً طيباً يجمع الناس لا محروم فيهم ولا حارم. وهناك المستنفعون بالظلم والوجهاء والطامحون إلى الراحة تأتيهم عن طريق الغصب والنهب والتحالف على الشعب الجائع الظمآن.

وكان على رأس الفريق الأول علي بن أبي طالب، وكل من رغب في عدلٍ وحق والاه. وكان على رأس الفريق الثاني معاوية بن أبي سفيان، وكل من طاب له أن يمشي على الأرض جوراً ماشاء. وكان جزاء أولئك من النفس والوجدان. وكان جزاء هؤلاء من كف ابن أبي سفيان، وتبادل الناس مطارحهم فسار من جماعة معاوية إلى علي قوم عادلون. وختل علياً إلى معاوية الوجهاء والمستنفعون. وإليك أخبار نفرٍ ممن آثروا معاوية على علي ومنها تدرك الطبائع الغالبة على أولئك الناس، كما تدرك العلة العميقة في مفارقتهم ابن أبي طالب وانتصارهم لابن أبي سفيان:

استعمل علي رجلاً يدعى يزيد بن حجة التيمي على الري ومقاطعة

أخرى، فجمع منهما مالا كثيرا واحتجته لنفسه^(١). فبلغ الأمر عليّا، فحبسه وجعل عليه حارساً اسمه سعد. وكان أن نام سعد فقام يزيد إلى ركبته ودفع نفسه في طريق دمشق ملتحقاً بمعاوية، وقال:

وخادعتُ سعداً وارتمتُ بي ركائبِي إلى الشام واخترت الذي هو أفضلُ
وغادرتُ سعداً نائماً في غيابةِ سعدٍ غلامٌ مستهائمٌ مضلٌّ^(٢)
وبعث يزيد بن حجة إلى العراق بشعيرٍ يهجو به عليّاً ويخبره أنّه من أعدائه. وأجزل له معاوية العطاء فمدحه ومدح أهل الشام ورأى أنّ أرضهم مقدسة، وأنّهم هم أهل اليقين والإيمان:

أحببتُ أهل الشام من بين المَلا وبكيتُ من أسفٍ على عثمان
أرضٌ مقدّسةٌ، وقومٌ منهم أهلُ اليقينِ وتابعو الفرقان^(٣)
واستعمل عليّ رجلاً آخر يدعى الققعاق بن شور على كنشكر، فراح الققعاق ينهب المال من الناس نهباً ويختزنه لنفسه أو ينفقه في سبيلها. ومن إنفاقه أنّه تزوّج امرأة فأصدقها مائة ألف درهم. ولما أخبر أنّ عليّاً عليمٌ بأمره خشي العتاب والعقاب، فجمع ما سرقه من أموال الشعب وهرب به إلى معاوية.

وحذّ عليّ النجاشي بن كعب في إثمِ أئمه وكان النجاشي من أنصار عليّ، فما أطاق أن يجري عليه ما يجري على سائر الناس من عقاب على الإثم، فلحق معاوية لأنّه آمنه، وهجا عليّاً لأنّه يخشاه إنْ أخطأ. ومما قاله:

(١) احتجته: ضمته إليه، إقتطعه وسرقه. المعجم الوسيط، ص ١٥٨.

(٢) الغارات، للثغفي: ٥٢٦ / ٢.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٦٣ / ٢.

ألا من مبلغ عني علياً بأنني قد أمنتُ فلا أخافُ^(١)
وغضبت للنجاشي اليمانية لأنهم منهم وانحرف منهم كثيرٌ عن علي.
وكثر عدد المنحرفين بمعاوية بكثرة الذين يريدون الدنيا لأنفسهم وحدهم.
وما كان من طبائع الناس كلهم أن يتحملوا الحق وأن يقولوه ويفعلوه. ولا كان
من طبائعهم كلهم أن يوالوا علياً الذي يشتد بالحق على نفسه وذويه والخلق
جميعاً؛ فلا ينحرف عنه ببعض ما يرضيهم. وإن خصصتُ بالقول فئةً من
الناس فإنما أخصّ الوجهاء والأثرياء والمستنفعين. فكيف لا يلحق معاوية
ويترك علياً ذلك الوالي الذي يبعث إليه عليٌّ يقول: «وإني أقسم بالله صادقاً، لئن
بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً، لأشدنّ عليك شدةً تدعك قليل
الوفر، ثقیل الظهر، ضئیل الأمر»^(٢) أو ذاك الآخر الذي يتلقّى من عليٍّ مثل هذا
الكتاب: «بلغني أنك جرّدت الأرض فأخذت ما تحت قدميك، وأكلت ما تحت يدك،
فارفع إليّ حسابك!»^(٣).

كيف يستطيع العاديون من الخلق أن يرتفعوا إلى هذا المستوى العظيم
من صفة الإنسان الحق؟ فيقبل وجههم أو واليهم أن يقول له علي: «ولئن كان
ما بلغني عنك حقاً، لجعلُ أهلك وشع نعلك خير منك!»^(٤).

كيف يرضى الأثرياء والمتنفذون وكانزو الفضة والذهب والظالمون
وشركاؤهم والراضون بالظلم أن يكون الأمر لعليٍّ؟ وهو الذي يريد المال
لمنافع الناس كلّ الناس، ويريد النفوذ للكفاءة وفي سبيل العامة؛ ويحارب

(١) الفارات، للثقي: ٥٣٧ / ٢.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٢٠: ١٩ / ٣.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٤٠: ٦٥ / ٣.

(٤) نهج البلاغة، الكتاب ٧١: ١٣٢ / ٣.

الظالمين وشركاءهم ويشير عليهم الناس ويلعن الراضين بالظلم ولو قليلاً.
وكيف يرضى الغاصبون أن يحكمهم من يقول: «والله لأن أبيت على حسك
السعدان مسهداً وأجر في الأغلال مصهداً، أحب إلي من أن أكون ظالماً لبعض العباد وغاصباً
لشيء من الحطام»؟^(١) كيف لا ينحرفون عن رجل يعلن على مسامعهم: أنه
مسؤول عن محاربة الظلم والظالمين والآخذين بغير الحق؟ وأنه لولا هذه
المسؤولية التي يحتسها واجباً يحيا من أجله، لأرسل الأمور تجري كما تشاء
وترك الناس لأنفسهم وهم بين آكلٍ ومأكول. ويقول علي: «ولولا ما أخذ الله
على العلماء أن لا يقاروا على كفة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلاً على غاربها - أي
لتركت الأمور كما هي - ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهدي عندي
من عطفة عنزا»^(٢).

كيف يرضى الغادرون أن يولوا أمورهم من يقول فيهم وهم أبناء زمانه:
«ولا يغدر من علم كيف المرجع. ولقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله القدر كنيساً
- عقلاً - ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن حيلة»^(٣).

لذلك كان المنحرفون عنه من أصحاب الوجاهات والشراء غير المشروع،
والراغبين في أن يطلق معاوية أيديهم في بيوت الأموال وجهود الناس. أما
غير هؤلاء من المنحرفين عنه، فقد كانوا ممن لا يقدرون مصالحهم في المدى
البعيد، ومن أهل الغباء الكثير. وقد سبق لنا أن تحدثنا عن تنظيم أحوال الناس
فيما بينهم يومذاك، فقلنا إنهم كانوا مقسمين شيعاً تأتمر كل شيعَةٍ منهم بנافذ أو
وجيه، وقد لا تُسأل هذا الوجهيه فيم غضب وفيم رضي. وقد أكثر علي من

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٢٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣، وهي المعروفة «بالشقشقية».

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٤١.

وصف هذا النمط من الناس في زمانه وصفاً فيه التوجع وفيه الألم، وفيه سخط الأب الحكيم المحب على الأبناء الأغبياء المنحرفين عن خيرهم إلى ما فيه هلاكهم، وهم يعلمون أو لا يعلمون. يقول علي في أبناء عصره: «إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جهلاً!»^(١).

ويخاطبهم قائلاً:

«ولا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون!»^(٢).

ويتحدث عنهم ساعة يدعوهم للثورة على أهل البغي، يقول: «فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً»^(٣).

ثم يقول فيهم أيضاً: «سائلهم متعنت، ومجيبهم متكلف، يكاد أفضلهم رأياً يرده عن فضل رأيه الرضا والسخط، ويكاد أصليهم عوداً تنكاه اللحظة وتستحيله الملمة الواحدة»^(٤).

وفي هذه العبارة الأخيرة لابن أبي طالب وصف رائع لطبائع الفئة المنقادة من ناس زمانه. فإن كان فيهم ذو رأي - كما يقول - غلبه على رأيه هواه إن سُخطاً وإن رضاً. فإذا رضي حكم لمن استرضاه بغير حق، وإذا سخط حكم على من أسخطه بباطل. أما أصليهم عوداً فتأخذ بقلبه نظرة واحدة إلى ما يشتهي فتحوّله عما هو عليه، ويميل إلى موافقة الباطل ومؤازرة الجائر بكلمة من نافذ أو رايش أو وجيه.

لما انتقل مركز المؤامرة على ابن أبي طالب إلى الشام بعد هزيمة

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣٤.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣٥.

(٤) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ٣٤٣.

أصحاب الجمل، راح يعسوب الأمويين معاوية بن سفيان يشتد في تأليب النافذين على عظيم الكوفة، بصورة أرادها عاجلة وحاسمة. فهو ما كاد يطلع على أول كتاب من عليّ إليه؛ حتى أخذ يبعث إلى من يرجو مناصرته أن يوافوه على عجلٍ إلى الشام. وكان أخطر هؤلاء شأنًا عمرو بن العاص، لذلك بعث إليه معاوية من ليلته الأولى أن يأتيه وكتب إليه: «أما بعد، فإنه قد كان من أمر عليّ وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك، فقد سقط إلينا مروان من رافضة أهل البصرة وقدم عليّ جرير بن عبد الله في بيعة عليّ، وحسبت نفسي عليك حتى تأتيني على بركة الله تعالى!»^(١).

فلما انتهى الكتاب إلى عمرو بن العاص دعا ابنه عبد الله ومحمداً فاستشارهما، فقال له عبد الله: «إن رسول الله قبض وهو عنك راضٍ. ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فأنك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تُصيبها مع معاوية فتضجعان غداً في النار»^(٢)!

ثم إلتفت عمرو إلى ابنه محمد فقال: ما ترى؟ فقال: «بادر هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً». فلما أصبح عمرو دعا وردان مولاه وقال له: إرحل يا وردان؟ ثم قال: حطّ يا وردان! فحطّ ورحل ثلاث مرّات، فقال وردان: «لقد خلطت يا أبا عبد الله! فإن شئت أخبرتك بما في نفسك: عليّ معه آخرة بلا دنيا ومعاوية معه دنيا بلا آخرة. والرأي أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يُستغفر عنك»^(٣).

غير أنّ وعود معاوية كانت تغري عمرو فوق ما تقنعه نصيحة مولاه

(١) نهج السعادة، للمحمودي: ٤٣٥ / ١.

(٢) أنساب الأشراف: ٢٨٥ وفيه: فأياك أن تفسد دينك... تاريخ يعقوبي: ١٨٤ / ٢.

(٣) أنساب الأشراف، ص ٢٨٥، نهج السعادة: ٦٣ / ٢، تاريخ يعقوبي: ١٨٥ / ٢.

وردان وابنه عبد الله؛ فكان أن انضم إلى معاوية والأمويين ضد علي. ولما كان ابن العاص مساوياً لابن أبي سفيان من حيث الخطورة في المؤامرة على علي، فقد بات ضرورياً أن نلم بعض الإلمام بأخباره لنذكر الأسباب البعيدة التي دفعته إلى مخالفة معاوية؛ ثم لنذكر قيمة هذا التحالف بالمقياس الإنساني.

كانت روح المساومة للمنفعة أول ما ظهر من سياسة ابن العاص قبل إسلامه. ولا يمكن نقض هذه الحقيقة عنه، وهو نفسه الذي يخبرنا بها إذ يقول: «لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قریش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم: تعلمون - والله - إني أرى محمداً يعلو الأمور علواً منكراً. وإني لقد رأيتُ أمراً فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قلت: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي، وإن ظهر قومنا فتحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: أن هذا لرأي! قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له... الخ»^(١).

وظل حب الانتفاع بالظرف والمناسبة متأصلاً في نفس عمرو، شأنه في ذلك شأن معظم الوجهاء الذين حاربهم أبو بكر وعمر وعلي. وقد مرّ بنا أن عمر صادَرَ ابن العاص في كل ما أفاده من مال مصر، فاعتلّ عمرو بعلّة لم تقنع ابن الخطاب الذي كتب إليه يقول: «ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال ولن تعدموا عذراً، وإنما تألون النار وتتعلجلون العار! وقد وجهتُ إليك محمد بن مسلمة فسلم إليه شطر مالك!». فلما قدِمَ محمد صنع له عمرو طعاماً ودعاه فلم يأكل، وقال: «هذه تقدمة الشر، لو جئتني بطعام الضيف لأكلت. فنحّ عني طعامك وأحضر لي مالك!». فأحضره، فأخذ شطره، فلما رأى عمرو كثرة

(١) البداية والنهاية: ٢٧ / ٤، سيرة النبي ﷺ لابن هشام: ٣ / ٧٤٨، السيرة النبوية لابن كثير:

ما أخذ منه قال: «لعن الله زماناً صرْتُ فيه عاملاً لعمر! والله لقد رأيت عمر وأباه على كل واحدٍ منهما عباءة قطوانية لا تتجاوز ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطبٍ، والعاص ابن وائل - والد عمرو - في مزررات الديباج!»^(١).

ففي هذا الخبر شيءٌ كثيرٌ من ميل عمرو إلى الانتفاع المادي بالنفوذ والسلطان. وفيه عدا ذلك شيءٌ كثيرٌ من ذهنية الوجهاء ومقاييسهم الملتوية. فهو لم يجد في عمر بن الخطاب مطعناً إلا أن عمر وأباه كانا فقيرين لا يملكان ما يستتران به، وأنهما كانا يعملان بأيديهما فيحملان على عنقيهما حزم الحطب. وهو لم يجد في أبيه العاص بن وائل فضيلةً أجل من أنه كان مزرّراً بالديباج! وهو في الحاليتين لو أنصف وخالف النظر الجاهلي إلى الأمور، لرأى أن ما ظنّه مطعناً في ابن الخطاب إن هو إلا الشرف والنبل الكثيران. وأن ما ظنّه فضيلةً في العاص بن وائل إن هو إلا خرافةٌ قديمة.

ولا يظنن القارئ أن هذا القول نزوةٌ من ابن العاص في موقفٍ له من ابن الخطاب. فإن مدلوله أمرٌ ثابتٌ في نفسه. ففي الناس لديه شريفٌ ومشروف. ولا يكون هذا «الشرف» إلا نتيجةً للنسب، لا لشيء سواه. والشريف له من الحقوق ما ليس لغير الشريف، وعلى الناس من الطاعة له فوق ما لبعضهم على بعض. وقد اتفق المؤرّخون على أنه «كان من رأي عمرو بن العاص في ساسة مصر أن الذي يُصلح هذه البلاد وينمّيها ويُقرّ قاطنُها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها»^(٢).

وهكذا كانت تتمازج في نفسية عمرو أهواء قديمة، تحكم لصاحب النسب بحق في الاستئثار والاستعلاء ليس لسائر الناس، وميولٌ إلى الانتفاع

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧٥ / ١.

(٢) الإسلام والحضارة العربية: ١٢٥ / ٢.

بالظرف المؤاتي والمناسبة الطارئة. وقد يضطرب خاطره بين حالين من الرضا بسلامة الوجدان وتعطيل هذا الوجدان في سبيل المنفعة. ولكن سرعان ما تتغلب الحال الثانية فإذا هو عازمٌ على أن ينتفع. من ذلك ما رأيناه من اضطرابه ساعة دعاه معاوية إليه، ثم ما كان من عزمه على الرحيل إلى الشام. وينسب الرواة إلى ابن العاص قصيدة قالها وهو في طريقه إلى معاوية، وفيها إعلانٌ عن رأيه في كل من علي ومعاوية؛ فإذا علي في رأيه شيءٌ كثير وإذا معاوية شيءٌ آخر. وإذا له نفسان واحدة تعفّ عن اللحاق بمعاوية وأخرى تأمر بهذا اللحاق. وإذا به يختم قصيدته قائلاً:

فاخترتُ من طمعي دنيا على بصري وما معي بالذي أختارُ برهانُ
إني لأعرفُ ما فيها وابصره وفيّ أيضاً لما أهواه ألوانُ
لكن نفسي تحبّ العيش في شرفٍ وليس يرضى بذلّ العيش إنسانُ^(١)
والعيش في شرفٍ لا يراه ابن العاص اليوم إلا في المغانم المادية والوعود
الأموية، كما أنه لم يره بالأمس في عهد ابن الخطاب إلا في مزروعات الديباج
على أبيه العاص بن وائل. وذُلّ العيش لا يراه اليوم إلا في نصرة علي الذي لا
يساوم ولا يساوم، كما أنه لم يره بالأمس إلا في العبادة الفقيرة التي يلبسها ابن
الخطاب وأبوه.

وحين بلغ ابن العاص دار معاوية، قال له يعسوب بني أمية: «يا أبا عبد
الله! إنني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل - يعني علياً - الذي عصى الله وشق عصا
المسلمين وأظهر الفتنة وفرّق الجماعة... الخ». فقال عمرو: فما تجعل لي إن
شايعتك على حربيه وأنت تعلم ما فيه من الخطر؟ قال معاوية: حكمك! قال:

(١) شرح نهج البلاغة: ٦٤ / ٢، وقعة صفين: ٣٦، مناقب الخوارزمي: ٢٠٢.

تعطيني مصر طُعمة^(١). وجرت بين معاوية وعمرو مكائدات كثيرة يريد كل منهما أن يخدع الآخر؛ مستهدفاً ما ينفعه دون رفيقه في المؤامرة. وانتهت هذه المكائدات بالمساومة التي انكشفت عن مبايعة عمرو لمعاوية بالخلافة، وعن إعطاء معاوية مصر وأهلها طُعمة لعمرو؛ لا يسأل عن أمره في أرض ولا سكان. وكانت هذه المساومة على حساب عليّ الذي لخص هذا اللقاء بين الرجلين وكيف انتهى، بهذه الكلمات: «ولم يبايع - يعني عمرًا - حتى شرط أن يؤتیه - معاوية - على البيعة ثمنًا. فلا ظفرت يد البائع وخزيث أمانة المبتاع. فخذوا للحرب أهبتها وأعدوا لها عدتها»^(٢). وقال عليّ في هذا الموضوع أيضاً: «لقد نمي إلي أن عمرًا لم يبايع معاوية حتى شرط عليه أن يأتيه أتاوة هي أعظم مما في يديه من سلطانه - يقصد ولاية مصر - فصفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا، وترت يد هذا المشتري نصرة غادر فاسق بأموال الناس!»^(٣).

ولم يكتف عمرو بهذا القدر من العمل لمنفعة نفسه وحسب، بل إنه راح يوجه معاوية في دعاية منظّمة ضدّ عليّ؛ استعداداً للمعركة المقبلة. ومما أشاره عليه: «فابعث ثقاتك فليفشوا في الناس أنّ عليّاً قتل عثمان!»^(٤). هذا وهو يعلم أنّ عليّاً بريء من دم عثمان، كما يعلم أنّ له هو اليد الطولى في قتله على ما رأيناه في فصل «المحرّضون على عثمان». ولما طلب معاوية إلى عمرو أن يسوّي صفوف أهل الشام عند بدء معركة صفّين، لم يشأ عمرو أن يلتبي الطلب قبل أن يستوثق من حصوله على الثمن، فقال لابن أبي سفيان: «على أنّ لي

(١) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٦٤، وقعة صفّين: ٣٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٦، الفارات: ١ / ٣١٧، شرح النهج: ٢ / ٦٠.

(٣) الإمامة والسياسة: ١ / ١٧٨.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٧١، أنساب الأشراف: ٢٧٦، وقعة صفّين: ٤٤.

حكمي إن قتل علي بن أبي طالب واستوثقت لك البلاد!»^(١). ومما يدل أيضاً على ما تميّز به عمرو من روح المساومة طلباً للمنفعة، أنه حين اجتمع إلى أبي موسى الأشعري يوم التحكيم المشهور، وأخذ فريق من المجتمعين مع الرجلين يُذلّون بآرائهم في من تجب أن تؤول إليه الخلافة؛ راح أبو موسى يوجه أنظار القوم إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ويذكر أنه أجدر بالمبايعة. وقال غير مرّة: «والله إن استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب». فقال له عمرو بن العاص: «إن كنت إنما تريد أن تباع ابن عمر لدينه، فما يمنعك من ابني عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟»^(٢).

وهكذا ساوم عمرو مساومةً وجهها ضد معاوية نفسه؛ وهو قائد جنده في المعركة، وأخذ العهد منه بحكم مصر، ووكيله في هذا المؤتمر، وصاحب الحيلة في خير التحكيم.

لقد كان كل من معاوية وعمرو على ثقة بأنه يتجنّى على علي، مؤمناً في أعماق نفسه بأن علياً أفضل من صاحبه؛ ساعياً لنفسه دون شريكه. وكان الرجلان على وفاقٍ ظاهراً، ولكنهما يتباغضان سراً؛ وهذه طبيعة الشركاء في العدوان. وقد ظهر على صفحات وجهيهما وفتات لسانيهما ما يؤكّد ذلك. قال معاوية لجلسائه مرّة بعد موقعه صفين: «ما أعجب الأشياء؟» فأدلى كل من الجالسين برأيه، حتى إذا كان دور عمرو بن العاص، قال: «أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحقّ» معرضاً بمعاوية وعليّ! فقال معاوية من فوره: «بل أعجب الأشياء أن يعطى الإنسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف». معرضاً بعمرو بن العاص وولايته على مصر!

(١) شرح نهج البلاغة: ١٨٩ / ٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٥٣ / ٢، تاريخ الطبري: ٥٠ / ٤، وقعة صفين: ٥٤٢.

ودليل آخر يعطيه عمرو نفسه على حقيقة رأيه في كل من عليّ ومعاوية؛ فيظهر لنا إلى أي مدى خدع ذاته وزيف رأيه ساعة ماشى ابن أبي سفيان وعادى علياً. كما يظهر لنا ضالة المعاني الإنسانية لدى أعوان معاوية؛ ومقدار ما هم عليه من خيانة لحقيقة الرأي الذي يرون. فإن معاوية ما استتب له الأمر أو كاد، بعد مقتل علي؛ حتى تلكأ في تولية عمرو بن العاص على مصر. فطالبه عمرو بالوفاء بما قطع له من عهد، فظل معاوية على تلكئته أيضاً. فبعث عمرو له بقصيدة طويلة يقول فيها:

معاوية، الفضل لا تنس لي وعن منهج الحق لا تعدل
نصرناك من جللنا، يا ابن هند! على السيد الأعظم الأفضل
وما كان بينكما نسبة فأين الحسام من المنجل؟
وأين الثريا وأين الثرى وأين معاوية من علي^(١)؟
وعلى أثر هذه القصيدة أعطاه مصر.

ومن الأدلة الساطعة على هذا التنافر بين الرجلين اللذين لم تجمع بينهما إلا مصالح متبادلة، أن عمراً هجا معاوية بشعرٍ معروفٍ على أثر كلمة سمعها منه، فأذته ساعة أوفد معاوية لإحكام مؤامرة التحكيم واستغلال غباوة أبي موسى الأشعري؛ فإذا بمعاوية يأمر صاحبه عبد الرحمن بن أمّ الحكم بالردّ على عمرو وبهجوه. فهجاه عبد الرحمن، وهذّده، ولعنه، وعيره بفراره من عليّ يوم صفّين، قال:

دع البغي الذي أصبحت فيه فإن البغي صاحبه لعين!
ألم تهرب بنفسك من عليّ، بصقّين، وأنت بها صنيّن؟

(١) أنساب الأشراف: ٣٢٩، الفديري: ١١٨ / ٢.

حذاراً أن تلاقيك المنايا، وكل فتى سيدرکه المنون!^(١)
وماذا يقول القاتل بهذين الرجلين اللذين يتفاهمان بمثل هذا التهديد
وهذا الشتم وهذا التعبير «اثثاراً» للخليفة «الشهيد» وانتقاماً من عليّ
«الظالم؟».

أما السابقون لهذه الفتن والأحداث فقد أدركوا حقيقة معاوية وحقيقة
عمرو في مجال الأطماع والميل إلى المغنم. من ذلك ما أدركه عمر بن
الخطاب بفهمه الألمعي لطبائع الرجال، إذ حذر الناس من معاوية وابن العاص
قبيل موته بساعات، قال: «يا أصحاب محمد! تناصحوا فإنكم إن لم تفعلوا
غلبكم عليها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان»^(٢). وأما اللاحقون فقد
تأكدوا من صحة نظر ابن الخطاب، فكان فيهم قومٌ يحتكمون في كثيرٍ من
الأُمور إلى العقل والوجدان، فخَوَّنوا معاوية وعمرأ في موقفهما من عليّ، كما
فعل المعتزلة، أجزأ الفِرَق الإسلامية على تحليل أعمال الرجال ونقدهم، فإنَّ
«أكثرهم تبرأ من معاوية وعمرو بن العاص» على ما يقول صاحب المنية
والأمل؛ وقد نسبوهما إلى سرقة أموال العامة^(٣).

لقد كان معاوية - كما وصفه عليّ - «رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما
يجد ويطلب ما لا يجد»^(٤). وكان عمرو بن العاص «يقول فيكذب - كما يصفه
عليّ أيضاً - ويعد فيُخلف، ويسأل فيلحق، ويسأل فيبخل، ويخون العهد»^(٥).
فهذه الصفات في الرجلين هي التي قزبت بينهما. فالبلعوم إذا كان رحباً يأكل ما

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق: ١٧٢ / ٤٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩٩ / ٣، بحار الأنوار: ٥٤ / ٣١.

(٣) راجع فجر الإسلام: ٢٩٤.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ٥٧.

(٥) نهج البلاغة، الخطبة: ٨٤ الاحتجاج للطبرسي: ٢٦٩ / ١، شرح نهج البلاغة: ٢٨٠ / ٦.

يجد ويطلب ما لا يجد، لا يعنيه من المأكول والمطلوب ما كان حلالاً أو حراماً، ولا يفقه من معاني العدل والجور ما يأخذ منها في سمو أو انحدار. والرجل إذا كذب وأخلف وسأل وألحف وبخل ونقض العهد، فما يفعل إلا ابتغاءاً لمنفعة يراها في بعض هذه الأمور أو فيها جميعاً. فالمنفعة - كما يُستخلص من كلام علي - هي محور أعمال الرجلين. فما عليهما لو اتفقا على غدر، وفي هذا الاتفاق ما يفيدان منه وإن كان واحدهما لا يؤد الآخر؟ وفي مثل هذا المعنى يقول علي: «وقرأت كتاب الفاجرين المتحائين في عمل المعصية... الخ»^(١). ويقصد معاوية وابن العاص.

لقد أحكم القوم المؤامرة على علي إحكاماً واعياً منظماً، وكثر المتآمرون، فاختلَف بعضهم عن بعض بالهدف والغاية، ولكنهم اتفقوا جميعاً على ألا يساقوا بعضا الحق في يد علي. وكان معاوية صاحب اليد الطولى في هذه المؤامرة وفي إحكامها، وما الآخرون إلا أعوان وأنصار. وهنالك ما يرجح أن معركة الجمل لم تكن لتقع، لولا معاوية الذي كان يحركها من وراء الستار. ودليلنا على هذا أنه لما بويع علي أسرع معاوية إلى رجل من بني عميس وبعثه إلى الحجاز ومعه هذا الكتاب إلى الزبير: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان: سلام عليك، أما بعد، فإني قد بايعتُ لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يُستوسق الحليب. فدونك الكوفة والبصرة! لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين. وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان، وادعوا الناس إلى ذلك! وليكن منكما الجد والتشمير. أظفركما الله

(١) تاريخ الطبري: ٧٧ / ٤، نهج السعادة: ١٣٠ / ٥.

وخَدَلْ مناوئكما!»^(١). فلَمَّا وصل هذا الكتاب إلى الزبير سُرَّ به وأعلم به طلحة وأقرَّاه إِيَّاه، وخُدَعَ الرجلان بنصح معاوية لهما، وأجمعا الرأي عند ذاك على خلاف علي. فكانت وقعة الجمل؛ وكان لمعاوية ما أراد من إضعاف الخليفة والطامحين إلى الخلافة جميعاً. وما انتهت المعركة على ما انتهت عليه، حتى راح يبذل الوعود والأموال للنافذين والزعماء، ويضاف الأعطيات حيث يتوسم مناصرة؛ أو يرجو غَضَّ طَرْفٍ عما سيكون من أمره وأمر علي. وراح يغدر ويضلل حيث لا يرجو المناصرة ولا السكوت عن الإثم. وكان رأس مناصريه في هذه المؤامرة عمرو بن العاص، الذي ما علم عليُّ بأمره مع معاوية؛ حتى أكبرَ نفسه عن مداراته واسترضائه، كما كان يُكبرها أبداً عن كلِّ مواربة مهما قست الأحداث ومهما عظُمت المصيبة، فكتب إليه يقول:

«فإنك قد جعلت دينك لدنيا امرئٍ ظاهرٍ غيِّه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه ويسفه الحليم بخلفته، فاتَّبعت أثره وطلبت فضله أتباع الكلب للضرغام: يلوذ إلى مخالفه وينتظر ما يلقي إليه من فضل فريسته، فأذهبت دنيالك وآخرتك، ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت، فإن يمكّني الله منك ومن ابن أبي سفيان أجزيكما بما قدمتما، وإن تُعجزاني وتبقيا فما أأماكما سرُّ لكما! والسلام»^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٣١/١، نهج السعادة: ٢٨٥/١، الغدير: ٣٢٧/١٠.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٣٩: ٦٤/٣ وفيه: فإنك جعلت دينك...، شرح نهج البلاغة: ١٦٠/١٦.

الرياح السافيات

- ألا إنه علي بن أبي طالب الذي تتمزق بسيفه
الظلمات، وتنقض على عدوه الرعود القاصفات،
وتذروهم الرياح السافيات، فإذا به هول يدفع هولاً
وفي عينيه دموع تحولت شرراً، وفي حناياه عطف
توقد ناراً!

- ألا إنه مخبأ الفقير من الريح، وستره الضعيف من
السيل، وموئل العاجز من الزوبعة المهلكة، وصاحب
الظل في الظهيرة المحرقة، كالليل!
- ألا إنه علي بن أبي طالب الذي سيقول فيه الدهر
وفي سيفه مع القاتلين:
- لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي!

وبعد زمن كان معاوية في ما يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل من أهل
الشام يقطع الأرض إلى العراق. ونزلوا عند نهر الفرات في وادي صفين على
مقربة من الرقة؛ سبقاً إلى سهولة الأرض وسعة المناخ. وصفين وادي تفصله عن
شاطيء الفرات أرض مستنقعة يكثر فيها الشجر والعيون.
وقدم علي بجيشه من الكوفة مجتازاً بالمدائن والرقة، وقصده تأديب
معاوية بالحسنى إذا أمكن، وإلا بالسيف. فلما أدرك صفين وجد قتيلاً من جند
معاوية قد عسكروا إلى جانب المياه؛ ليحولوا بينها وبين جيشه. فبعث إلى
معاوية يقول: «إن الذي جئنا له غير الماء، ولو سبقناك إليه لم نمنعك منه!»^(١).

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٥ وعنه مواقف الشيعة للميانجي: ١/ ١٢٥.

وحاول عمرو بن العاص إقناع معاوية بألا يحاول أن يمنع علياً وجيشه من الماء لأن علياً ذو بأس، وهو لن يظماً وييده أعنة الخيل. فقال معاوية: «هذا، والله، أول الظفر. لا سقاني الله من حوض الرسول إن شربوا منه حتى يغلبوني عليه»^(١). وقد بلغت الحال بعصاة معاوية أو واجهوا علياً بهذا القول الصريح: «ولا قطرة حتى تموت عطشاً»^(٢). وكان علي في موقف غير ملائم من الناحية العسكرية، ولكنه أرسل عليهم الأشتر النخعي فاستبسل هذا حتى أجلاهم عن الماء ووضع سنابك خيله بالفرات، فشمت عمرو بن العاص بمعاوية على ما يرويه ابن قتيبة وقال: «ما ظنك إن منَعك علي الماء كما منَعته أنت؛ أترك ضاربهم كما ضربوك؟ ولكن علياً لا يستحل منك ما استحللت منه!»^(٣).

وحاول بعض أصحاب علي إقناعه بأن يعامل معاوية وجيشه كما عاملوه فيمنعهم من الماء؛ فأبى الرجل العظيم على أصحابه هذه المحاولة، وأتاح لخصومه ورود الماء أسوةً بأصحابه. قالوا له: «امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منَعوك! ولا تسقيهم منه قطرة، واقتلهم بسيف العطش وخذهم قبضاً بالأيدي، فلا حاجة لك إلى الحرب!» فقال: «لا والله لأكافئهم بمثل فعلهم. أفسحوا لهم عن الشريعة»^(٤) ولو كان في جيش معاوية قبس من الخلق الكريم لأدركوا بهذا الحادث حقيقة كل من معاوية وعلي، ولعرفوا الآية طائفة من الخلق ينتمي كل من الرجلين، ولوثقوا أنهم بمناصرتهم معاوية على علي إنما يناصرون إنتهازياً على نبي!

(١) الإمامة والسياسة: ١ / ١٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٣ / ١.

(٣) الإمامة والسياسة: ١ / ١٢٦.

(٤) المصدر السابق.

أما عمرو بن العاص فكان قد باع - منذ زمن - كل قيمة وكل خير بولايته على مصر، وإلا فكيف نفّس بقاءه على موالة الرجل الذي لا يراه إلا ضئيلاً قليلاً إلى جانب الإمام العملاق؟

وسب أهل الشام عليّاً سبّاً لا يليق، وكان ذلك على مسمع من معاوية ورضى. بل وربما كان معاوية هو الذي أوحى به أو أمّر، على نحو ما فعل فيما بعد.

وفي كلا الحالين ما يعيبُ معاوية ويجعل شأنه غرضياً في مقاييس الرجال. وسمع أهل العراق السباب فجاءوا بمثله ردّاً على أهل الشام. فبلغ ذلك عليّاً فرأى به منقصةً على جيشه وأمرّاً يَشِينُ الكرامات، فخطب أصحابه بهذه الكلمات التي تضاف إلى دستوره في مخالقة الناس لا فرقَ فيهم بين صديق وعدوّ، قال: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبّكم إيتاهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدِهِم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به!»^(١). وسعي عليّ كما هي عادته أبداً أن يقطع أسباب القتال بخطوات جريئة يخطوها نحو السلام، فما أفلح في ما سعى إليه. وظلّ أياماً يفتح أبواب المروءة فلا يبلغ من أهل الشام عقلاً أو ضميراً. واستبطأ أصحابه إذنه لهم في القتال، فقال:

«أما قولكم أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي، أدخلتُ على الموت أو خرج الموت إليّ! وأما قولكم: أشكأ في أهل الشام؟ فوالله ما دفعْتُ الحرب يوماً إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفةٌ فتتهدي بي وتعشوا إلى ضوئي»^(٢)، وذلك أحبّ إليّ من أن أقاتلها على

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ٢٠٦.

(٢) تمشوا إلى ضوئي: تقصد ضوئي. لسان العرب: ٥٩/١٥، مادة «عشا».

ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها!»^(١).

ولمّا تأكّد لعلّي أن أهل الشام لن يتراجعوا عن غيهم ولن يأنفوا الفجور بل إنهم موعلون^(٢) فيه، وأنّ الحرب واقعة لا محالة؛ قال على مسمع من أصحابه وأصحاب معاوية: «اللهم إنك تعلم لو أنّي أعلم أنّ رضاك في أن أضع ظبّة سيفي في بطني ثم أنحني عليه حتّى يخرج من ظهري لفعّلت! اللهم إني أعلم ما علّمتني أنّي لا أعلم عملاً صالحاً هذا اليوم هو أرضى من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك منه لفعّلت!»^(٣) ثم قال:

«اللهم ربّ هذه الأرض التي جعلتها قراراً للأنام، ومذرجاً للهوام والأنعام، وما لا يُحصى مما يُرى ومما لا يُرى، وربّ الجبال الرواسي التي جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق اعتماداً، إن أظهرتْنا على عدوّنا فجنّبتنا البغي وسدّدتنا بالحقّ! وإن أظهرتْهم علينا فارزقنا الشهادة واعصمنا من الفتنة!»^(٤). وقُبيل بدء المعركة ارتجز عمرو بن العاص نظماً يذكر فيه دهاءه، وبعث به إلى عليّ ومما جاء فيه:

لا تَأْمَنَّا بَعْدَهَا، أبا حَسَنَ إِنَّا نُسِرَ الْأَمَرَ إِمْرَارَ الرَّسَنِ
فأجابه من أهل العراق مجيبٌ، قال:

ألا إحذروا في حربكم أبا حَسَنَ ليثاً أبا شَبْلِينَ، محذوراً فطَنُ
يدقكم دَقَّ المَهاريس الطَحَنَ لَتُغَبِّنَنَّ يا جَاهِلاً أيَّ غَبْنِ
حتى تعضّ الكفّ أو تقرّع سِنَ!^(٥)

وكانت قبائل ربيعة في معظمها بجانب عليّ. فتنادوا قائلين: «ويحكّم، أما تشتاقون إلى الجنة؟!». وشدّوا شدّةً عظيمةً واحدة على صفوف أهل الشام

(١) نهج السعادة: ١٥٨ / ٢.

(٢) سائرون.

(٣) تاريخ الطبري: ٤ / ٢٦، المعيار والموازنة للإسكافي: ١٣٦، شرح نهج البلاغة: ٢٥٣ / ٥.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٧١.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٩٥ / ٥، وقعة صفين: ٢٤٣.

فنقضوها وألقوا الدّعَرَ فيها. وقال محرز بن ثور أحدَ الراجزين من ربيعة:
أضـرُّـرُـهـم ولا أرى معاويةَ الأبرحَ العينِ، العظيمَ الخاويةِ
هوث به في النار أمْ هاويةِ جاوَرَهُ فيها كلابٌ عاويةِ
أغوى طغاماً! لا هدْثُه هادية^(١)

وكانوا على ثقةٍ بأنهم يناصرون الحقَّ، وفي ذلك يقول قائلهم:
قد سارعتُ في نصرها ربيعةَ في الحقِّ، والحقُّ لها شريعة^(٢)
وكان بين الفريقين قتالٌ فيه الفناء. وانصبَّ عليٌّ على أهل الشام انصبابَ
الموت الصاعق لا يضربُ إلا أوردَ النار، ولا يطعنُ إلا وتطعنُ الأقدار ولا
يستقبل أحداً من ضواري الفتنة إلا ولَّى عنه جبناً حثْفَه من فوقه وعُوْدَه هَشُّ
خَوَار.

وأقسم بالحقِّ ليركَنَ فريقَ الشيطان بقايا سيوفٍ وفَضَلاتٍ رماح! وكأنَّ
شجاعته الفائقة تتفجّر آنذاك رافداً رافداً، فإذا هو الدرْعُ والحِصْنُ والمِجَنُّ،
بشعر صدره الأسودَ يستقبلُ الضربَ والطعنَ، وينور جبينه يصعقُ الفجّار
ويُنكّسُ الأبصار، فإذا بالمغاوير يتشذرون بين مرعوبٍ ومستطار.
وكأنّي بجواده الأشهب ما كثر إلا انبسط له من كل جنبٍ جناح، وما وضع
على الأرض سُنبُكاً إلا ثبتَ في الأرض كأنه قاعدةُ عمودِ النار.
وكأنّي بيمينه ما ارتفعتْ بذِي الفقار إلا لتمتدَّ وتأخذُ في الفضاء حتى
تطال الأفقُ البعيد فتحفر فيه بنور الحقِّ آيةٌ وآيات.

وكأنّي بعَملاق القتال وأخي غَمرات الموت ما ضربَ أو طعنَ أو كثرَ إلا
ودوّت في جنباتِ الأرض ألف صَنيحةٍ هنا، وألف صَنيحةٍ هناك تنطقُ من

(١) شرح نهج البلاغة: ٥ / ٢٤٠، وقعة صفّين: ٣٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٥ / ٢٣٤، وقعة صفّين: ٢٩٩.

حناجر وأفواه وكلها تقول:

ألا إنه علي بن أبي طالب بطل معركة الإسلام، ومعركة الحق، ومعركة العدالة الإنسانية.

ألا إنه علي بن أبي طالب صارع عمرو بن ود أسد الجزيرة المخيف - يوم كانت الجنة تحت ظلال السيوف - وهو صبيّ إلا بإيمانه!

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي تخلعت يديه أبواب القلاع والأبطال يهلعون ويزلزلون، فتتسبب بها وهي على كفه أخف من ريشة في جناح طير.

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي لو لقي الآدميين واحداً وهم ملء الأرض كلها لما بالى ولا استوحش ولا حدثته نفسه إلا بصادق البأس.

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي ما يبالي أَدخل على الموت أو خرج الموت إليه.

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي تيسر له في معنى القتال ما لم يتيسر لبشرٍ سواه، إذ فتح له الزهد باب الجهاد، وما فتح الزهد لغيره إلا باب الانكفاء، وخلع له العطف على المستضعفين مغاليق الحصون، ودك به الحب صروح البغضاء، ودفعه حب الناس دفعا إلى هذا الصراع الرهيب.

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي تتمزق بسيفه الظلمات، وتنقض على هام عدوه الرعود الصاعقات، وتذروهم الرياح السافيات، فإذا به هول يدفع هولاً وفي عينيه دموع تحولت شرراً، وفي حناياه عطف توقد ناراً.

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي ما امتشق سيفه في وجه جائرٍ إلا ضحك السيف ضحك العف من متهتكٍ أثيم.

ألا إنه علي بن أبي طالب الذي ما تَوامض سيفه في الفضاء وهوى إلا وصاح معذب في الحجاز، أو العراق، أو أرض الشام يقول: بأبي أنت! سيف

الحقّ ومُنصفَ المظلوم والمحروم.

ألاّ إنّه عليّ بن أبي طالب مخبأ الفقير من الريح، وسترة الضعيف من السيل، وموئل العاجز من الزوبعة المهلكة، وصاحب الظلّ في الظهيرة المحرقة، كالليل.

ألاّ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي تخضّر الأرض حيث حطّت له قدم، ويسقط الغيث. فمن وجهه مياهُ النهر، ومن حبه أمواجُ البحر عجيّجاً. ألاّ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي تنبسط له القلوب إمّا صَفَتْ وطابت، وتنقبض عنه إمّا خلّت من صفاء.

ألاّ إنّه عليّ بن أبي طالب الذي سيقول الدهر فيه، وفي سيفه، مع القائلين: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

ألاّ إنّه عليّ بن أبي طالب فانهزموا يا ضواري الفتنة وإلا فما تعصمكم سهول ولا جبال!

وكان ما قالت جنباثُ الأرض أمراً محتوماً. فقد أصيب أهل الشام بالإيمان والشجاعة يأتياهم ضرباً وطعناً من جيش العراق وكأَيما أُصيبوا بزلزال. فكلّ من صودف منهم طعن وكلّ من انحاز سقط بالسيف. ولم يبقَ لهم صفّ إلاّ أنهار ولا جمرةٌ إلاّ أطفئت! إنهم المعتدون القاسطون، يريد قائدهم أن يختوي نفسَ الجائع ويمنع العطشان أن يشرب.

وكان المقام بصفّين مائة يوم وعشر أيام. والوقائع بين الفريقين تسعين وقعة. ويشمل هذا مدّة القتال الطويل في جوار صفّين، وليس مدة المعركة الكبرى التي دامت نحو أسبوعين كاملين، وهي الوقعة الدامية الرهيبة المعروفة بوقعة الهرير؛ والتي بلغ عددُ القتلى فيها من الجانبين مائة وعشرين ألف قتيل. وكان في المحاربين من الفريقين إخوانُ أشقاء وأبناء عمّ قتل

بعضهم بعضاً. ومما قاله الأزدديون في هذه الموقعة: «وما هي إلّا أيدينا نقطعها بأيدينا وما هي إلّا أجنحتنا نحذفها بأسيافنا»^(١). وبلغ أصحاب عليّ خلال القتال خباء معاوية أربع مّرات، وكادوا يقبضون عليه، ولما تبيّن لابن أبي سفيان أنّ جيشه لا محالة مهزوم ألقى وزاغ واسترخت يدها وارتاع، وما استطاع لجأشه^(٢) تخفيضاً إلّا بأن يتوارى خلف سترٍ جديدٍ من الحيلة، فدعا بفرسه لينجو عليه هارباً، وابن أبي طالب يضرب بسيفه لا يستقبل جماعةً إلّا تضعضعت أركانهم وزُلزلت أقدامهم فولّوا هارين!

ثم إنّ أمر أصحابه بمواصلة القتال فلعلّ الشيطان يوسّع له ولابن العاص في الحيلة، فاصطدم الفريقان في ملحمةٍ جديدةٍ أسرفا بها في القتل وأيامها ثلاثة. ويروي المؤرخون أنّه لم يكن في الإسلام بلاءٌ ولا قتلٌ أعظم منه في تلك الأيام الثلاثة!

ويحدث ابن قتيبة: أنّ عليّاً نادى بالرحيل في جوف الليل. فلما سمع معاوية رغاء الإبل دعا عمرو بن العاص فقال: ما ترى ههنا! قال: أظنّ الرجل هارباً! فلما أصبحوا إذا عليّ وأصحابه إلى جانبهم قد خالطوهم. فقال معاوية: لقد زعمت يا عمرو أنّه هارب؟ فضحك وقال: من فعلاته والله. فعندما أيقن معاوية بالهلكة ونادى أهل الشام: كتاب الله بيننا وبينكم!^(٣)

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٠٩/٥، تاريخ الطبري: ١٨/٤ وفيه: نجّدها بأسيافنا...، وقعة صفين: ٢٦٢.

(٢) أقمي: تكس على عقبيه، أو أقمي فرسه: رذّة القهقري. المنجد: ٦٤٥، مادة «قمي».

زاغ: مال. الصحاح: ١٣٢٠/٤، مادة «زيغ».

جأشه: جأش القلب وهو رواعه إذا اضطرب عند الفزع، يقال: فلان رابط الجأش، أي يربط نفسه عن الفرار بشجاعته. الصحاح: ٩٩٧/٣، مادة «جأش».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢١٢/٢، الأخبار الطوال: ١٨٩، أنساب الأشراف: ٣٢٣، وقعة صفين: ٤٧٨، الإمامة والسياسة: ١٤٤/١.

ويومئذٍ استبان ذلّ أهل الشام ورفعوا المصاحف على رؤوس الحراب، ثم ارتحلوا فاعتصموا بجبلٍ منيف، وصاحوا: «لا تردّ كتاب الله يا أبا الحسن! فإنك أولى به منا وأحقّ من أخذ به»^(١). وكان صاحب هذه الحيلة عمرو بن العاص. وكان أصحاب عليّ يكرهون ابن العاص كرهاً شديداً لأنّه - كما وصفه اليعقوبي - : باع دينه مع عليّ بديناه مع معاوية^(٢).

ورفض عليّ التحكيم وهو يعرف القوم وما هم عليه من مراوغة واحتيال. واختلف أصحابه اختلافاً شديداً، أيقبلون هذا التحكيم وهم إنّما يحاربون لإعلاء كلمة الله وقد دُعوا إليها، أم يرفضون وقد شعروا بالخدعة بعد أن تمّ لهم النصر أو كاد؟ وأصرّ كلّ من الفريقين في جيش العراق على رأيه. أمّا عليّ، فإنّ مصيبتَه بأنصاره كانت أشدّ من مصيبتَه بخصومه لأنّه كان - كما يقول جبران - : نبياً في غير قومه وغير زمانه؛ فلم يفهمه حتى أقرب الناس إليه. فقد كان في جيشه - أبداً - قومٌ مشاكسون يخونون عهده ويشغبون عليه سواءً في ذلك المغالون في حبه والكارهون لانتصاره. من هؤلاء الأشعث بن قيس وكان صاحب مطامع؛ فقد ساءت نوايا الأشعث هذا وغدر بعليّ وأصحابه أكثر من مرة! ولكنّ غدره في أيام صفّين كان أظهر!

ذهب الأشعث إلى عليّ بعد رفع المصاحف فقال له: «ما أرى الناس إلّا قد رضوا وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن. فإن شئت أتيْتُ معاوية، فسألته ما يريد، فنظرت ما يسأل!»^(٣).

وكثر الجدل بين الفريقين. وعاد الأشعث إلى عليّ ينادي بالتحكيم

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٤٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ١٨٥/٢.

(٣) تاريخ الطبري: ٣٦/٤.

وعلي وأصحابه لا يقبلون. ثم كثر أنصار التحكيم؛ وكان منهم أن أجترأوا على ابن أبي طالب فلم يبالوا بأن يخاطبوه متوعدّين قائلين:

«يا علي! أجب إلى كتاب الله عزّ وجلّ إذ دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عقّان. إنه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عزّ وجلّ فقبلناه. والله لتفعلنّها أو لنفعلنّها بك»^(١).

وبلغ موقف عليّ الغاية القصوى من الدقة: أيرضى بالفتنة في جيشه أم ينزل عند رأي هؤلاء القوم؟!

وازداد موقفه حرجاً حين ألحّ عليه المعارضون بزعامة الأشعث بن قيس أن يستدعي قائده الأشتر النخعي من جبهة القتال، وإلا اعتزلوه أو غدروا به! وردّ عليّ قائد جيشه كارهاً. وقيل التحكيم كارهاً كذلك!

واختار معاوية ومَن معه من أهل الشام عمرو بن العاص. فقال الأشعث لعليّ: إنا قد رضينا أبا موسى الأشعري ممثلاً لك!^(٢).

وكان عمرو بن العاص داهية. وكان أبو موسى الأشعري فيه غفلة! وعليّ يعرف الرجلين حقّ المعرفة. فقال للأشعث: «إنه ليس لي بثقة. وقد فارّقني وخذّل الناس عني؛ ثم هرب مني حتّى أمتّه بعد شهر. ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك!»^(٣).

فقال الأشعث ومَن معه: لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحدٍ منكما بأدنى إلى الآخر^(٤).

وفي هذا القول ما فيه من نية الغدر بعليّ، وكأنّ قائله يرغبون في مناصرة معاوية، أو يعملون له.

(١) تاريخ الطبري: ٣٤ / ٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٢٨، الأخبار الطوال: ١٩٢، تاريخ الطبري: ٣٦ / ٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٢٨.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٢٨، الأخبار الطوال: ١٩٢، تاريخ الطبري: ٣٦ / ٤.

وظلّ عليّ على إصراره في إبعاد أبي موسى الأشعري عن تمثيله، فقال:
فإني أجعل الأشر النخعي!

غير أن الأشعث كان كثير الحسد للأشتر. ففي الأشتر من الوفاء والعزيمة وحسن الرأي والبلاء في الحرب ما ليس له، وهو لذلك في مكانة من نفس عليّ لم يبلغها الأشعث وسواه من أنصاره. فأبى وقال لعليّ: وهل نحن إلّا في حكم الأشتر؟

وملّ أنصار عليّ وتكاثر معارضوه. وربما كان للحرب الطويلة يد في تغيير هؤلاء وميلهم إلى وقف القتال، فوقفوا من عليّ هذا الموقف وناصروا الأشعث عليه، فلما رأى ابن أبي طالب منهم هذا الإصرار، ورأى قلة أنصاره، قال: فقد أيتّم إلا أبا موسى؟ قالوا: نعم! قال: فاصنعوا ما بدا لكم!^(١)

أما الذين لم يقبلوا التحكيم من جيش عليّ، وأبوا إلّا مواصلة القتال، فقد أبدوا نفورهم من أن يحكم أحد في كتاب الله. ورأوا أن فكرة التحكيم إنّما هي فكرة خاطئة، فقيم التحكيم والأمر واضح جليّ؟ فليس من شك في أن عليّاً هو المحقّ، وأن معاوية وأصحابه على بطل وضلال. ولقد حاربوا - هم - وكثُر قتلاهم، وكلّهم مؤمن بأنّه على حقّ في مناصرة عليّ، فلم يشكّ عليّ في حقّه ويقبل التحكيم؟

وصاغ أحدهم هذه الجملة التي توجز مختلف آرائهم في قضية التحكيم: ولا حكم إلّا لله! وسرّ سِرّ البرق إلى كلّ من يعتنق هذا الرأي في جيش عليّ. وأصبحت شعارهم، وبوحيا بدأوا يعملون!

وكاشفوا عليّاً العداء. وطلبوا إليه أن يقرّ على نفسه بالخطأ بل بالكفر لقبوله التحكيم، وأن يرجع عن الشروط التي أبرمها مع معاوية، فإنّه إن فعل عادوا إليه وحاربوا معه، وإلا فهم خوارج عليه!

وأبي علي أن يسايرهم في ما رأوه. فكيف يرجع عن عهد قطعه وهو الوفي الذي لا ينكث اتفاقاً أمضاه؟ وكيف يقتر على نفسه بالكفر وهو لم يشرك بالله ولم يأت منكراً ولم يُسئ إلى إنسان؟ ولو كان علي متناً لا عهد لهم، كمعاوية أو كعمرو بن العاص، لرضي بما عرض عليه الخوارج، فاستمالهم وواصل بهم قتال معاوية، ولا تنتصرا!

وفي مثل هذا الوضع - بمجمله - ينظر ابن أبي طالب في أمره وأمر الناس؛ لينطلق لسانه بهذا القول وفي قلبه حسرة محرقة: «أيتها الأمة التي خُذعت فانخذعت، وعرفت خديعة من خدعها فأصرت وأتعت أهواءها وخبطت في عشواء غوايتها، وقد استبان لها الحق فصددت عنه، والطريق الواضح فتتكتبه! أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو اقتبستم العلم من معدنه، وأذخرتم الخير من موضعه، وأخذتم الطريق من أوضحه، وسلكتم الحق من نهجه؛ لا تبهجت بكم السبل، وبدت لكم الأعلام، وما عال فيكم عائل^(١)، ولا ظلم منكم مسلم ولا معاهد^(٢)».

ولما كانت نتيجة التحكيم المعروفة، وكان تمرّد الخوارج وعصيانهم، أبي علي قتالهم حتى يئأس من أخذهم سلماً، كما هي عادته مع مخاصميّه. فإنّ الخوارج اجتمعوا واتفقوا فيما بينهم قائلين: «إن هذين الحكيمين - عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري - قد حكما بغير ما أنزل الله. وقد كفر إخواننا - من جيش علي - حين رضوا بهما وحكّما الرجال في دينهم، ونحن على الشخوص من بين أظهرهم. وقد أصبحنا والحمد لله ونحن على الحق من بين هذا الخلق^(٣)».

(١) أي: ما افتقر منكم أحد.

(٢) الكافي، للكليني: ٨ / ٣٢ وفيه: وبدت لكم الأعلام وأضاء لكم الإسلام، فأكلتم رعداً، وما عال فيكم عائل....

(٣) الأخبار الطوال، ص ٢٠٣.

بين الخطأ والصواب

- أما الآخذون عليه هذه المآخذ، فما أراهم يقيسون أعماله إلا بما انحدرت إليه المقاييس التي تنفي الأمانة والصدق وعمل الوجدان من حساب السياسة ومن أصولها!

وقبيل مواصلة الحديث عما كان من أمر هؤلاء والإمام لابد من الإلماع إلى حادثتين اثنتين جرتا أيام صفين، وفي زعمنا أنهما أدل على معنى النصر وروحه من النصر ذاته، ذي البنود والأعلام. وما كنت لأخصها بقول لولا أن محبتي الإمام ومقدري صفاته يرون أنه لم يساير مصلحته فيهما، وهذا ما لا يريدون. فلربما كان كفل لنفسه النصر بغير قتال، أو بأيسر ما يكون من القتال لو أنه سلك فيها مسلكاً آخر!

أما هاتان الحادثتان، فأولاهما: ما روينا من أن علياً أباح لجيش الشام وخيلها مياة الفرات بعد أن كان الشاميون قد منعه منها وقالوا له: «ولا قطرة حتى تموت عطشاً!». وبعد أن كان معاوية قد قال في احتلاله جوانب المياه: إنه أول الظفر، وأنه لن يدع أهل العراق يشربون من الفرات حتى يغلبوه على الماء، وأقسم على ذلك مشدداً. فلما أراحهم علي عن الماء مستبسلأ دعاهم إلى وروده أسوةً بنفسه وبأصحابه.

وأما الحادثة الثانية: فهي تلك البادرة من علي ساعة عَفَ عن قتل

عمرو بن العاص أثناء المعركة وهو بين يديه. وخلاصة ذلك:

إن علياً لما رأى كثرة القتال والقتل في الناس علا فوق التل ونادى بأعلى صوته: يا معاوية! فأجابه معاوية، فقال علي: علام يقتل الناس؟ أبرز إلي ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب. فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أنصفك الرجل يا معاوية! فضحك معاوية وقال: طمعتَ فيها يا عمرو! يريد أنه إن هو بارز علياً مقتولاً لا محالة، فعند ذلك يرث عمرو مطمّعه فيها - أي في الخلافة - . فقال عمرو: والله ما أراه يجمل بك إلا أن تبارزه! فقال معاوية: والله ما أراك إلا مازحاً، نلقاه بجمعنا^(١)! يريد بذلك أن علياً لا يجرو الأفراد على مبارزته، بل الجماعات!

وهنا يذكرون أن عمرو بن العاص قال لمعاوية: أتجبنُ عن علي وتتهمني في نصيحتي إليك؟ والله لأبارزته ولو مت ألف موة! وبارز عمرو علياً فما هي إلا لحظة حتى طعنه علي فصرعه، ثم ومض^(٢) سيفه كسعلة النار فوق هامة عمرو، فاتقاه هذا بعورته؛ فانصرف عنه علي وولى بوجهه دونه. وكان علي لا ينظر لعورة أحدٍ حياءً وتكرماً!

ربّما يقول القائلون من محبّي علي والراغبين له في النصر: إنه لم يساير مصلحته في كلا الحالين: لم يسايرها ساعة أباح لمقاتليه الماء، وهو لم يفعل لكانت له حجةٌ مزدوجة حجةٌ عسكرية خالصة، وتقوم بمنع العدو عن الماء إلى أن يستسلم أو يخلي القتال أو يرتبك ارتباكاً يحول بينه وبين النصر. وقد أدرك معاوية هذه الحقيقة ساعة كان هو على الماء، فقال: «إنه أول الظفر»^(٣).

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٦.

(٢) ومض: لمع، برق، كتاب العين: ٧/ ٧١، مادة «ومض».

(٣) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣٢٠، وقعة صفين: ١٦٣، الإمامة والسياسة: ١/ ١٢٥، مناقب الخوارزمي: ٢٠٨.

وحجةٌ أخرى لها في شرائع الحرب أصولٌ، وهي: أنَّ عليّاً أجلى أهل الشام عن الماء بالقوة، بعد أن منعه عنه بالقوة، فكان من حقّه الصريح أن يعاملهم بشريعتهم وشريعة القتال.

ولم يساير مصلحته كذلك ساعة عَفَّ عن عمرو بن العاص القائد القدير والسياسي الداهية وخصمه ومؤلّب الناس عليه، بعد أن أصبح ذو الفقار فوق هامته وهو صريعٌ بطعنة سابقة من كف عليّ. فإنّ عليّاً لو قتله آنذاك لكان له في قتله حججٌ ثلاث: أمّا الحجّة الأولى فعسكرية خالصة، وهي: أن مصرع عمرو بن العاص يعني دبّ الذعر في جيش الشام وفتح الباب الواسع أمامه للهزيمة، ثم القضاء على ساعد معاوية الأيمن وصاحب الحيلة الأول في أصحابه وذو القول النافذ في كثيرٍ من المقاتلين.

وأما الحجّة الثانية، فهي: أنَّ ابن العاص قائد جيش المتمردين على عليّ، وطالب دمه ودم أصحابه في قتالٍ طويل رهيب.

وأما الحجّة الثالثة، فهي: أنَّ عمراً -بالإضافة إلى ما سبق- هو الذي طلب عليّاً إلى المبارزة ليخرج منها قاتلاً أو مقتولاً. فلو أنّه من أكفاء عليّ في القتال وهيتاً له الظرفُ أن يعلو بسيفه هامة خصمه، لَمَّا عَفَّ وَلَمَّا نجا عليّ. إذاً، فليس عليّ بملوم إذا قتل هذا الخصم.

أما أن يكون عليّ القائد ملوماً بهاتين الحادثتين إذ أتاح للنصر أن يفوته في حالتين، فمما يحكم فيه خبراء القتال؛ وقد يكون حكمهم على جانبٍ من الصخّة.

ولكن، هل يكون عليّ القائدُ كلَّ عليّ بن أبي طالب؟

وهل بدا لنا، حتّى الآن، أنَّ في عليّ ازدواجية في الشخصية، فإذا هو إنسانيّ النزعة شامل النظرة إلى الوجود وأشياءه ومعانيه هنا، وإذا هو جانبٌ من

إنسانٍ هناك، محدودُ النظرة قريبُ الغاية، تأخذه الساعةُ ويقوده الموقف ويلوي به حبّ النصر في المعركة عن الأخذ في كلّ ما رحب من الآفاق وما سلّم من المقاييس؟!

إنّ عليّاً لم يكن مَرَّةً إلّا هو نفسه، بكامل صفاته وأركان شخصيته وأصوله الأخلاقية. وهو في معركة صفّين ليس إلّا هو في موقعة الجمل. وعليّ الذي أباح الماء لأعدائه وطالبي دمه ومانعيه عن الشرب «حتى يموت عطشاً»؛ إنّما هو عليّ الذي، قال: «عاتب أخاك بالإحسان إليه، وارُدّه بالإِنعام عليه»^(١). و«ما خيرُ خيرٍ لا يُنال إلّا بشراً»^(٢). و«خذ على عدوك بالفضل فإنّه أحلى الظفرين»^(٣)!

وعليّ الذي خلّى عمرو بن العاص وشأنه - على ما مرّ بنا - هو عليّ الذي قال فيما مضى: «ما المجاهد الشهيد في سبيلِ الله بأعظم أجراً ممّن قدر فعَقَّ، لكاد العفيف أن يكون ملاكاً من الملائكة!»^(٤) و«أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة»^(٥). وهو عليّ الذي سيقول للناس بصّدٍ قاتله فيما بعد: «وإن تعفوا أقرب إلى التقوى»^(٦). إنّ عليّاً بطل هاتين الحادثتين هو عليّ الذي بكى أعداءه: قَتلى وقِيعَة الجمل! أجل، إنّ حدود الشخصية العظيمة ليست هذه الحدود التي يريدّها لعلّيّ بعضٌ محبّيه. إنّها ليست حدود القائد الذي يرتبط وجوده - كلّ وجوده - بنصرٍ على عدوّ، لا حسابَ عنده لما هو أبعد من النصر وأسمى وأرفع شأنًا: للقيم الإنسانية التي لا تضبطها شرائع القتال ولا قوانينُ الناس، وتضبطها الضمائرُ

(١) نهج البلاغة، الكتاب القصار: ١٥٨ وفيه: وأردد شرّه بالإِنعام إليه.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.

(٤) شرح نهج البلاغة: ٢٣٣/٢٠.

(٥) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٥٢.

(٦) البقرة ٢٣٧، وصوابه: ﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾.

الكريمة والأخلاق العظيمة.

أجل، إن حدود الشخصية العلوية لأقصى من أن تدفع علياً لأن يمنع الآدميين من الماء ولو كانوا مقاتليه، ولو كان في منعهم منه نصرٌ له وهزيمة لهم! وهو إن أباحت له شرائع الناس في سلمهم وفي حربهم مثل هذا التدبير، فإنه ما أباحه لنفسه؛ لأن في نفسه من احترام الحياة والأحياء ما هو فوق شرائع الناس.

وإن حدود الشخصية العلوية لأكرم من أن تنحدر إلى المقاييس الحسائية الجافة، فتَهون على علي صرخة الحياة في خصمه عمرو بن العاص وهو تحت سيفه، فيقضي عليه! وأن حياء علي وتكرمه لأجمل من أن يتقلصاً فيأذنه بما يأباه الحياء والتكرم وشرف النفس!

ثم إن علياً في الحادثتين هاتين، يُملّي على التاريخ من أعمال الفروسية صفحاتٍ كلّها جمالاً وبهاء. فالفروسية غير الشجاعة، لأنها تحتوي الشجاعة بكامل حدودها، ثم تُضفي عليها من شرف النفس وكرم الخلق والعطف على الحياة والبر بالأحياء، ما يجعلها على صعيد العبقریات الإنسانية ذات القيمة والوزن في كلّ مقياس.

فالشجاعة إن اكتفت بالمبادرة والتغلب فما كانت الفروسية لتكتفي بهما، بل تجعلهما في شروطٍ من التعقّف والحلم والعطف والتضحية. والشجاعة إن أنكرت المقاييس في أسلوب التغلب والظفر، فإن الفروسية لتجعل هذا الأسلوب أساساً في كلّ نصرٍ وغلبة. وما كان موت صاحب الفروسية بأعسر لديه من أن يأتيه نصرٌ لا حساب فيه لمكارم الأخلاق وصفاء الوجدان. ومزايا الفروسية هذه إن اجتمعت في شخصٍ فإنما هي في شخص ابن أبي طالب تجتمع.

ثم، وأعجباه! أيحرم ابنُ أبي طالب الآدميين - أيّا كانوا - من الماء الذي يستقي منه الطير والعشب وبهائم الأرض!
 أو يقتل ابنُ أبي طالب رجلاً رجاءه في أن يظل حياً بين الأحياء، ينظر إلى الشمس والقمر ويأكل الخبز ويشرب الماء، أيّا كان هذا الرجل!
 وهاتان الحادثتان في حرب صفّين، ألا يراهما محبّوه منسجمتين كلّ الانسجام مع ما يأخذه عليه الآخذون في سياسته، إذ يعلنون أنه أخطأ أكثر من مرّة بعزله معاوية، ثم بمعاملته طلحة والزبير، ثم بتضييقه على الولاة والعمّال، فما كان ليطلق أيديهم في أموال الناس ورقابهم؛ احتفاظاً بمناصرتهم إياه وكسباً لموالاتهم له؟

أما هذه المآخذ على سياسة عليّ، فما أحسبها إلا من حسناته المنبثقة عن دقة حسّه وسلامة ضميره. أمّا الآخذون عليه هذه المآخذ، فما أراهم يقيسون أعماله إلا بما انحدرت إليه مقاييس العصور التالية التي تنفي الأمانة والصدق وراحة الوجدان من حساب السياسة ومن أصولها.

لقد كان عليّ من المهارة والمقدرة على الدهاء بحيث لم يكن غيره من مهّره العرب ودّهاتهم. وكان من بُعد الغور وعمق النظر في أمور السياسة والقتال، ومن سبر النفوس وإدراك الدخائل، ومن معرفة النتائج قبل الوصول إليها، والبصر بأهواء الرجال ومطامعهم وأساليبهم في الحيلة بحيث لم يكن معاوية ابن أبي سفيان ولا عمرو بن العاص ولا غيرهما من أهل الدهاء والحيلة، ولكنه كان يزدرى الحيلة الملتوية ويمقت ما يستميه الناس استغلال الفرصة إذا كان فيه ما يُحجّل الخلق. وكان يرفع نفسه عن المكر والكيد ولو جاءه بالنصر، ويأبى إلا الصراحة والصدق. أوليس هو القائل بصدد ما شاع في زمانه عن دهاء معاوية وقعوده - هو - عن مثل هذا الدهاء: «والله ما معاوية

بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى العرب! ^(١) وقد أشبعنا هذه الناحية درساً مباشراً أو غير مباشر فما بنا حاجة للعودة إليها الآن، وإنما نذكرها بمعرض الحديث عن حادثتي صفين، لنرى إلى أي حد يعجز بعض خصومه وبعض محبيه عن إدراك شخصيته إدراكاً صحيحاً شاملاً، فإذا بأولئك يتهمونه بالتقصير في الميدان السياسي، وإذا بهؤلاء يأسفون لفرصتين لم يستغلها في الميدان الحربي. وكلهم مخطئ بمقياس الشخصية العلوية؛ لأن مفاهيم السياسة وقواعد الحرب عند الإمام نابعة من معين واحد لا يتجزأ ولا يتقطع، هو الشخصية العلوية، أو قل الروح العلوية التي يُصدق بعضها بعضاً وتستند مآتيها الواحد إلى الآخر، ولا مقياس لديها أجل وأعظم من الوجدان السليم والخلق الكريم اللذين يكمنان عنده وراء كل قاعدة وكل شريعة.

ثم إن قولاً غير هذا نرى من الخير أن نثبت في هذا المقام. تحدث إلي مرة صديق أديب يُعني بشؤون الإسلام قال - وكأنه ينزع عن ألسنة سائر القائلين -: لن تقنعني بأنّ عليّاً كان خبيراً بأحوال السياسة وأمور الرجال، وبأنه كان من الموهبة السياسية بحيث تقول. فسألتُه، قائلاً:

لنفرض أنّ الصدفة لم تسق عبد الرحمن بن ملجم إلى قتل عليّ، أو لنفرض أنّ الصدفة شاءت أن يكون إلى جانب عليّ، صبيحة مقتله، رهط من أنصاره فوقه الضربة الغادرة، فنجأ، ثم عاد ثانية لتأديب معاوية تنفيذاً لما كان عازماً عليه، وانتصر على جند الشام في معركة السيف كما كان مرجحاً أن يكون، أو لنفرض أنّ حيلة التحكيم في موقعة صفين لم تنطل على قسم من جيش عليّ، فتابعوا القتال وقبضوا على معاوية وعمر بن العاص، وانتهى أمر الموقعة كما انتهى أمر موقعة الجمل. أقول: لنفرض كلّ هذا أو شيئاً من هذا،

وأن علياً انتصر أخيراً على معاوية كما انتصر على طلحة والزبير - وهو إن لم ينتصر فعلى الصدفة والقدر تقع المسؤولية - فماذا كنت تقول في سياسة عليّ عند ذاك؟! وأتي مطعن في كفاءته كنت ترى؟! أما كنت تقول مع القائلين، إن علياً جمع إلى البلاغة والحكمة وشرف النفس وصفاء الوجدان، دهاء فوق دهاء معاوية في السياسة، وطاقه فوق طاقة عمرو بن العاص في مواجهة الأحداث ومعالجة المعضلات؟

وما يقال في شأن عليّ بهذا الصدد يقال في شأنه يوم أخذ عليه الآخذون عزلاً معاوية عن الولاية، وعزل غيره من الولاة الذين شاءت الصدفة وأحوال العصر وسياسة عثمان وأوضاع الناس أن تمدهم بأسلحة لا شأن في مقارعتها للخلق السليم والإدراك العظيم والكفاءة الخاصة. لقد تعود الناس - وفيهم الدارسون والمؤرخون - أن ينساقوا في تيار المألوف من النظر في الأمور والحكم عليها، وفي مقدمة هذا المألوف أن تقاس كفاءات الرجال في الصراع بمقياس الانتصار والانكسار دونما نظرٍ إلى الأسلوب المتبع في إدراك النصر، ودونما نظرٍ إلى احتمالات كثيرة تتعلق بعضها بالأخلاق إذ تنحدر أو تعلو، ويرتبط بعضها بالصدف والتقدير التي لا يد في دفعها لمنكسر، ولا يد في أعدادها وإنزالها منزلة السلاح القادر القاهر، لمنتصرٍ أو لذي دهاء.

وعلى كل حال، فإن هؤلاء يريدون من عليّ أن يوارب في السياسة، وأن يستغلّ الظرف في القتال، ويأبى هو ذلك!

إنهم يريدونه أن يكون معاوية بن أبي سفيان، وهو عليّ بن أبي طالب!

وَشَاءَتِ الْأَقْدَارُ

- وَأَبَى الْقَدْرُ إِلَّا أَنْ يَرْشُقَ مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمًا جَدِيدًا
يَصِيبُ بِهِ عَلِيًّا!

ولنعدُ إلى حديثنا الذي قطعناه: خرج الناقمون إلى قرية قريبة من الكوفة تدعى «خرواء» وسُموا حينئذٍ بالحرورية نسبة إلى هذه القرية، كما سُموا بالمحكمة، أي الذين يقولون لا حكم إلا لله. على أن تسميتهم بالخوارج هي الأشهر.

ولقيهم عليّ بالجيش، غير أنه آثر أن يستردّهم دون قتالٍ إذا أمكن؛ وأن يناقشهم في ما هم فيه. فاقترح عليهم أن يبعثوا إليه رجلاً منهم يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم. فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء. وطال النقاش بين عليّ وعبد الله. وأفحمه عليّ في كلّ ما سأل وأجاب: وأقام الحجة على الخوارج في حوارٍ طويل. فعاد ابن الكواء إلى أصحابه الخوارج يبلّغهم أن الحق كان إلى جانب عليّ، وأن الحجة كانت عليهم في ما دار بينه وبين الخليفة من نقاش. فأبوا أن تلزمهم الحجة وأن يخضعوا لإرادة عليّ بعد أن كفّروه. وعابوا على إمامهم عبد الله بن الكواء أنه ليس ندّاً لعليّ في المنطق والحجة وصواب التفكير، وأنه ليس له في مجال النقاش، وكلّهم يعلم أن أمثال عليّ في الدنيا قليل. وطلبوا إلى صاحبهم أن يكفّ عن مناقشة عليّ وعن التحدّث بما كان من أمرهم. وآثروا أن يعتصموا بعنادهم المقيت، وأن

يكون لهم من تهوؤسهم ما يدفع عنهم حجة علي وقضده. ثم أصروا على تكفير علي دون أن يقيموا على ذلك دليلاً، كما أصروا على معاملة جيشه وأنصاره معاملة الملحدين المارقين.

وتألم علي لهذا الموقف يقفه منه أنصاره بالأمس. وتألم للحجة الصحيحة لا تبلغ من نفوسهم مبلغاً، وللهوؤس يقودهم ويعمي بصائرهم. وأيقن أن الحكم لن يكون بينه وبينهم إلا السيف، ولا سيما بعد أن أمعنوا في استهتارهم بأرواح الناس فراحوا يفسدون ويخربون ويقتلون. غير أنه لم يتنكر لتاريخه في المبادرة بالحسن، فقال لأصحابه: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم! وصاح الخوارج صيحتهم الشهيرة: «لا حكم إلا لله^(١)». وهجموا على علي وأنصاره هجمة رجل واحد، شرس، عنيد، لا يبطل ولا يتراجع. فما كان من أمير المؤمنين وأنصاره إلا أن تلقّوهم بالسيف. واشتد القتال واستمات الفريقان في معركة النهروان التي ما انجلت إلا عن الخوارج وهم صرعى ما خلا أربعمئة رجل أصيبوا بجراح كثيرة فعجزوا عن القتال. وهم لولا جراحهم لأبوا أن يرتدوا إلا غالبيين أو مقتولين! فأمر علي أن يُرفق بهم وأن يُحملوا إلى عشائرهم لينظروهم ويدركوهم بالعلاج.

وأراد علي أن يعود فيسير إلى الشام لتأديب معاوية من جديد. فتصدى له الأشعث بن قيس للمرة الثانية يحمله مكرهاً على غير ما يريد. وتمكن الأشعث من إقناع فريق كبير من جيش علي بالهرب من المعسكرات واللجوء إلى المدن القريبة. وحجته في ذلك أنهم تعبوا من القتال الطويل فليستعيدوا قواهم ثم يعودوا إلى جيش أمير المؤمنين!

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠ / ٢٢٨، الأخبار الطوال: ٢١٠، النصائح الكافية، لابن عقيل: ٢٠٣.

وسار عليّ إلى الكوفة ليعدّ العدة من جديد، ثمّ يهاجم الشام.
أما معاوية، فقد خدمه جنده، وخدمه الخوارج غير عامدين، وخدمه
الأشعث بن قيس عامداً - كما يقول بعض المؤرّخين - فعاد إلى الشام وقد رأى
الحظّ يبسم له، وأقام على الإنتظار!

وهنا أبى القدر إلا أن يرشق من كنانته سهماً يصيب به عليّاً فتتمّ به مأساة
الرجل العظيم، ويظفر خصومه بتوفيقاتٍ لم يكن لهم من يدٍ فيها ولا رأي! فقد
اجتمع قومٌ من غلاة الخوارج وتذاكروا القتل من رفاقهم وذويهم، فأجمعوا
رأيهم على أنْ ورّر هذه الدماء إنّما يقع على ثلاثة من المسلمين هم «أئمة
الضلال» كما يستمنونهم، يعنون بهم: عليّاً ومعاوية وابن العاص. نهض أحدهم
واسمه البرك بن عبد الله فقال: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال
عمرو بن بكر: وأنا لعمر بن العاص، وتكفّل عبد الرحمن بن ملجم بأن
يكفيهم عليّاً!

واتفق الثلاثة على أن يقتلوا عليّاً ومعاوية وعمرأ في ليلة واحدة! وكان
لهؤلاء من تهوّس العقيدة ومن الرغبة في الاثثار حافزاً على تنفيذ ما ائتمروا
عليه، غير أن المصادفة العجيبة شاءت أن تخصّ عبد الرحمن بن ملجم بحافز
آخر يدفعه دفعاً إلى قتل عليّ حتّى ولو تلكأ أصحابه عن قتل معاوية وعمرو
تنفيذاً لما اتفقوا عليه. فإنّ ابن ملجم هذا خرج من مكّة وسار حتّى قدم الكوفة،
فزار فيها رجلاً من أصحابه، فصادف عنده قطام بنت الأخضر، وهي فتاة فائقة
الجمال ليس في بنات عصرها من يفوقها بهاء. وكان أبوها وأخوها قد قُتلا
بالنهر وان. فما كاد ابن ملجم يراها حتّى أخذت قلبه، فسألها أن يخطبها. فقالت
له: ما الذي تسمّي لي من الصداق؟ فقال لها: احتكمي ما بدا لك. فقالت: أنا
محتكمة عليك ثلاثة آلاف درهم، ووصيفاً وقينة، وقتل عليّ بن ابي طالب!

قال: لك ما سألت من ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، أما قتل علي بن أبي طالب فأنتى لي به! قالت: تلتمس غرته، فإن أنت قتلتَه شفيت نفسي ونفسك وهنأك العيش معي طويلاً^(١)!

كان ابن ملجم يتردد في ما عزم عليه من قتل علي قبل أن يكون هذا الحوار بينه وبين قطام بنت الأخضر. فما هو بالسهل على المرء مهما تدنى ضميؤه أن يقتل علياً بأمرٍ لم يكن علي سبباً فيها. ثم ما هو بالسهل على المرء كذلك أن يغامر هذه المغامرة الرعناء التي قد يهوله بَعْدُها المصير! ولكن القدر شاء أن يضاعف رغبة ابن ملجم في ما تردد فيه، ويدفعه في طريق الجريمة البشعة، ويطلق على يديه في صدر الإمام سهماً جديداً من كنانته! لذلك قادت الصدفة عبد الرحمن هذا إلى بيت صاحبه وقادت إليه في اللحظة ذاتها قطام بنت الأخضر. فكان بينهما ما كان من سؤال وجواب وتعاقدٍ على هذا المهر العجيب. وفي ذلك قيل:

فلم أرَ ساقه ذو سَماحةٍ كمهرٍ «قطام» من فصيحٍ وأعجمٍ
ثلاثة آلاف، وعبدٌ، وقينةٌ وضربُ «علي» بالحسام المصمِّمِ!
ولا مهرٌ أغلى من «علي» وإن علا ولا فتكٌ إلا دون فتكِ ابنِ مُلجمِ!^(٢)
لقد انتهى الحوار بين قطام وعبد الرحمن بقوله لها: ولك ما سألت من قتل علي بن أبي طالب!

وكان المؤتمرون الثلاثة قد خرجوا متواعدين إلى ليلة واحدة يقتل كلُّ

(١) مقاتل الطالبين، ص ١٩، الإرشاد، للمفيد: ١٨ / ١، نهج السعادة: ١٠٧ / ٧، شرح نهج البلاغة:

١١٥ / ٦، أنساب الأشراف، ص ٤٩١.

(٢) مقاتل الطالبين: ٢٣، الإرشاد، للمفيد: ٢٢ / ١، شرح نهج البلاغة: ١٢٥ / ٦، الأخبار الطوال:

منهم صاحبه فيها.

وأمنت الصدقة في الغرابة والقدر في الإساءة مما لا تُلقَى تبعته على
أحدٍ بعينه.

أما عمرو بن العاص فلم يظفر به صاحبه؛ لأن الصدقة شئت ألا يظفر به.
وقصة ذلك أن عمرًا كان قد شكاً وجعاً ألم به تلك الليلة فلم يخرج من بيته
للصلاة أو غيرها، بل أمر صاحب شرطته واسمه «خارجة بن حذافة» أن
يخرج ويصلي بالناس، فترقب عمرو بن بكر دنوه منه فلما دنا ضربه بالسيف
ضربةً محكمة هو يحسبه عمرو بن العاص، فأرداه للحال. فلما جيء بالقاتل
إلى ابن العاص قال له: أردتني وأراد الله خارجةً بن حذافة! وأمر به فقتل^(١).

أما معاوية فقد قصده صاحبه البرك بن عبد الله فلما وقعت عينه عليه
ضربه فما أصاب منه مقتلاً، بل وقعت ضربته على إتيته. وجاءوا بالبرك هذا
إلى معاوية فقال له البرك: إن لك عندي بشارة. قال معاوية: وما هي؟ فأخبره
بخبر صاحبه، وقال له: إن علياً يُقتل في هذه الليلة فاحبسني عندك فإن قُتل
فأنت وما تراه في أمري، وإن لم يقتل أعطيتك العهود والمواثيق أن أمضي
فأقتله ثم أعود فأضع يدي في يدك حتى تحكم في بما تراه، فحبسه معاوية
عنده. فلما أتاه أن علياً قُتل خلى سبيله. هذا ما يرويهِ أبو الفرج الاصفهاني في
مقاتل الطالبين^(٢). ومن الرواة من يجزمون بأن معاوية أمر بصاحبه البرك فقتل
في الحال.

(١) طبقات ابن سعد: ٤ / ١٨٨، و ٧ / ٤٩٦، أسد الغابة: ٢ / ٧١، تهذيب الكمال: ٨ / ٧، الإصابة: ٢ / ١٨٩،

أنساب الأشراف: ٤٩١.

(٢) مقاتل الطالبين: ١٨.

لا تخرجوهنَّ، إنهنَّ نوائح!

- وراح الليلُ هزيمًا يلفُ هزيمًا، وظلاماً يدخلُ

في ظلام!

- وحلَّت على ابن ملجم لعنةُ الله ولعنةُ اللاعنين ومن

وُلدوا ومن ماتوا ومن قال لهم الله كونوا فكانوا!

وأهلكه ألفُ شيطانٍ كَبَّوه على وجهه في سواء الجحيم

وفيها لَفَحَ وفيها أفواهٌ من اللهبِ ذاتُ أجيجٍ وذات

صفير!

.. وعلى الإمامِ عدوُّه في الأرضِ قوماً بُورا!

في جانبِ مَنْ الأرضِ غريبٌ كثيبةٌ غربته، وحيدٌ أوجعته الوحدةُ القاسية

كما لا يكون!

غريبٌ عن قومه ومن كلِّ بؤسٍ في قومه بؤسٌ في فؤاده وشجون!

غريبٌ عن زمانه وهو ملءُ كلِّ زمان!

في الأرضِ غريبٌ عن الأرضِ وهي واعيةٌ منه كلِّ قولٍ وشاهدةٌ كلِّ

عملٍ عظيم!

في الأرضِ غريبٌ يُعطي ولا يأخذ. يُعتدى عليه ولا يعاقب. يقدر فيعفو

ويكثر العفو. لا يُحيف على مَنْ أبغض ولا يأثم في مَنْ أحب. عَوْنٌ للضعيف

أخٌ للغريب أبٌ لليتيم خفيٌّ بمن صتيقت عليهم الحياة، يرجونه لكلِّ كريهةٍ

يأملونه لكلِّ شدة. كثيرٌ علمه عظيمٌ حلمه. يملأ السهلَ والجبلَ وتملأ قلبه دمةٌ

بائس، أو حزين يفلق بسيفه هامَ الجنّ ويغلبه عطفٌ على شقيّ. يعدل في الناس إقاماً صحا النهارُ ويُقيم حدودَ الحقّ، ويبكي مصائرَ الخلق إقاماً استوتِ الظلمةُ وجُنّ الليل!

في الأرض غريبٌ ما همسَ إليه مظلومٌ بغبنٍ إلا جَلَجَلَ بصوته الرعدُ يرجسُ في بيوت الظالمين! وما دعاه مستغيثٌ إلا تَكَشَفَ بسيفه البرقُ يأكلُ غياهبَ الماكرين. وما ناداه محرومٌ إلا فاضَ من قلبه الحنانُ غيثاً على البُلُقعِ اليابسِ والخَيْفِ الجديب!

في الأرض غريبٌ منطقُهُ الصوابِ وملبسه الخشونة ومشْيُهُ التواضع، وما انحدرَ الناسُ إلا ارتفع!

في جانبٍ من الأرض غريبٌ الناسُ منه في نعيمٍ وهو من نفسه في شقاء! ومن يكون هذا الشجاع، العبقري، الغريب، الضارب بعينه في كلِّ أفق، المُتَعَب الذي أشقاه مَنْ أراد لهم نعيم الأرض وجنة السماء؟

من يكون هذا الشجاع، العبقري، الغريب، الذي أنكره أعداؤه حسداً وطمعاً، وخلاه محبوه خوفاً وفزعاً، وظلَّ وحده يحارب الفساد والبطل، ويواجه الخلقَ على نهجٍ مستقيمٍ وصراطٍ قويمٍ، لا يُغريه انتصارٌ ولا يُؤذيه انكسار، لأنّه الحقّ لا تَعْنِيهِ إلا حدودُهُ فَلْيُنْكِرْهُ قومٌ وَلْيَخْشَهُ آخرون؟!

من يكون هذا العبقري الغريب سوى «ابن أبي طالبٍ عليٍّ أمير المؤمنين»، التّيس الحزين، الذي سيغدر به ما كثر خبيثٌ بَصْدَاقٍ ما كره خبيثٌ نَفَثَ على لسانها الشيطان؟

كان الليلُ بهيماً مُذْلَهِمَ الظنون، وكانت السماءُ غائمةً تتراجف في جنباتها سُحُبٌ ثَقِيلَةٌ بَطِيئَةٌ إلا ما تَمَرَّقَ منها بومضُ البروق فهو هِفٌّ خفيف! وكانت في أماكنها النُشُورُ القشاعم هاجعةً مطأطئة الرؤوس لن تحملها في غدٍ خوافٍ

ولا قوادِمُ فُهَيَّ في جَزَعٍ على النسر العظيم!
وَأَرَقَّ الإمام لا يذوقُ مناما! ففي الأرض معذبون أشقاهاُمُ الجورُ وضَيِّقتُ
عليهم الحياة! وفي الأرض تافهون يعلون، وأقوياء يتجبرون، وعُظماء
يشردون، وضُعاء يُؤكَلون، وخصومٌ يتعاونون على الشرِّ، وفُجَّارٌ يتحابون في
عمل المعصية، وأنصارٌ يتخاذلون عن الحق ويخذلون!

أَرَقَّ الإمام لا يذوق مناما! فالعدل مضامٌ والخير مضيع، ومصير الناس
مرهون بعبث العابثين، وكرامة الحياة والأحياء وقُفَّ على إرادة مَنْ أفسدوا
ويُفسدون، والنفاق في الأرض كثير.

أَرَقَّ الإمام لا يذوق مناما! فهو مُذْ كان على الأرض كان للعدالة نصيراً
وركناً، وللبائسين والمعذَّبين أخاً وحبیباً. وكان صاعقةً على رؤوس الطُغاة
والظالمين يقول فيهم لسانه قولاً كثيراً، وقول سيفه جهاد لا يلين.

لقد تيقَّظت في خياله تلك الليلة صفحاتٌ من تاريخه القريب والبعيد،
فإذا هو يتمثل نفسه طفلاً صغيراً يمتشق حسامه على عجبٍ من قومه
القرشيين، ويهزه في وجوههم بشيراً ونذيراً وناصرّاً للرسالة. وإذا قومه
ينكفثون ساخرين عابثين. وإذا هو ماضٍ في طريقه واقفٌ دمه من دونهم
على خدمة النور.

وتمتَّل نفسه في فراش النبي ليلة الهجرة يرقُدُ فيه تحت ظلال السيوف
ولوافحِ النعمة؛ لعلَّ أبا سفيان والمشركين وتجَّارَ الأعناق يضلُّون الطريق إلى
صاحبِ الرسالة فينجو فيمزقُ نوره ظلمة الجاهلية.

وجدَ في استعادة ذكرياته الماضيات، فتمتَّل نفسه في معارك العدالة بطلاً
حطَمَ به الحبُّ كلَّ حصنٍ وقضى على كلِّ خبيث، وحوَّلَه أنصاره الفقراء
والمستضعفون يقبلون الأرض لدى كلِّ ضربة سيفٍ من كفه، هم يرون إلى

الطغاة يفرون من أمامه كما يطير الجراد في الريح الشديدة والهبوب.
 وتمثل النبي ابن عمه، ينظر إليه برفقٍ وحبٍ عظيمين، ويضمه إلى صدره ويقول مشيراً إليه: هذا أخي!
 وتمثل النبي ابن عمه مرةً ثانية وقد دخل عليه فوجده نائماً، فذهبت فاطمة تنبهه، فقال لها أبوها: «دعيه قرب سهر له بعدي طويل!» فبكت فاطمة وأمعنت في البكاء!^(١)
 وتمثله فوق ذلك قائلاً له: «يا علي! إن الله قد زينك بأحب زينة لديه، وهب لك حب المستضعفين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً!»^(٢).
 واستعاد في خياله ذكرى موت النبي بين يديه، وآخر نظرةٍ حطها عليه، ووجوم فاطمة وحزنها الكثير، حتى إذا مرت أيام لا تجوز الأربعين لحقت بأبيها العظيم وهي في الثلاثين، فأودعها الأرض، وبكاها أحز بكاء، وعاد إلى بيته في أول الليل كئيلاً، حزنه سزمٌ وليله مسهد.
 واستعاد صورة ابن الخطاب وهو مقبلٌ عليه يقول له: «أما والله لئن وليتهم لتحملتهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء!»^(٣) وصور الصحابة جميعاً وهم يرددون: «كنا لا نعرف المنافقين في عهد رسول الله إلا ببنفس علي!»^(٤) والنبي، ألم يقل له مراراً: «يا علي! لا يبغضك إلا منافق»^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة: ١٠٧/٤.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٢٣٢/١١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨٦/١، تاريخ المدينة، لابن شيبه: ٨٨٢/٣.

(٤) سنن الترمذي: ٥/٦٣٥، الحديث رقم: ٣٧١٧، ابن عساكر في ترجمة الإمام علي عليه السلام: ٢/٢١٨،

الحديث رقم: ٧١٣، العمدة لابن البطريق: ٢١٨/٣٤٣، عيون أخبار الرضا، للصدوق:

٦٧/٢.

(٥) الفارات: ٥٢/٢، شرح النهج: ١٠/١.

وذكر في ساعاته تلك رفاقه في الجهاد أيام كانوا يتعاونون ويتآخون في ظله وظلال النبي. فإذا هم اليوم بين محارب له ومحارب عليه وطامع في ولاية صريع بهذا المطمع أو غير صريع. أما الطيبون فيهم، الأوفياء للحق والعدالة، المعاهدون على الخير، فوارحمتاه لهم! فإنهم غرباء عن هذه الدار. قتلهم عدلهم ووفائهم، وأرخص عليهم الجور من سدوله ألف ستار.

أما الغفاري أبو ذر، الثائر على الاستهانة بالحياة، والعظيم الكريم الذي لم يترك الحق له صديقاً إلا علياً، فيالكأبة ما صار إليه!

إنه يتمثله الآن مُلتَفِعاً بعباءته الممزقة، وجارياً إلى النبي يعرض عليه نفسه في خدمة الحق، ثم يظل للحق نصيراً يحياه بدمه وخفوق قلبه، إلى أن كانت ثورته في سبيل المظلوم والمحروم، ثم مأساته على يد عثمان ومروانه ابن الحكم، فنفي، فمات في مثل هذه الليلة، طريداً في فلوات الأرض، شريداً بعد أن مات أولاده جميعاً أمام عينيه، ورأى رفيقته الطيبة تنظر إليه؛ ولا تريده أن يموت قبلها لثلاث موت مرتين!

مات أبو ذر على أيدي الأمويين جوعاً وتحت أقدامهم ذهب الأرض. وفي مثل هذه الليلة أيضاً، قبيل ساعات، قُتل بالأمس القريب نصيره، بل أخوه، التمسّس التقى الصادق البأس: عمار بن ياسر! قتلته الفئة الباغية في أيام صفين.

أجل! أين إخوانه الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق وتعاقدوا على النية؟ فإذا هم لا يهجرون ولا يغتابون ولا يمكرون.

أين أولئك الأخيار؟ لقد ولّوا جميعاً. أما هو فما يزال في صراع دام رهيب مع الظلم والظالمين؛ ولو أمكنه الله من أهل البغي لبحرقن البغي حرقاً، ثم لينسفن أهله في اليم نفساً.

إنه صراعٌ يحمل فيه جانبَ الحقِّ وحيداً، بعد أن كان له أنصارٌ ملءُ القلوب والأبصار.

صراعٌ ينازله فيه قومٌ صبيّهم غاوي، وشابّهم فاتك، وشيخُهم لا يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن مُنكر. قومٌ لا يهابون إلّا مَنْ يخافون لسانه، ولا يُكرِّمون إلّا مَنْ يرجون نواله، إنّ هو تركهم لم يتركوه، وإن تابّعهم اغتالوه. يتصاحبون على غير هدى، وإذا افترقوا ذمّ بعضهم بعضاً!

صراعٌ يريدونه له عنيفاً كالتيار لا يبالي ما غرق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق!

صراعٌ بين مَنْ يريد للناس خضبَ الأرض ونضرةَ الدنيا، وبين مَنْ يقصون الناس عن الخضرة والنضرة إلى منابتِ الشيخ ومهافي الريح!
يا للحياة التي لم يعرفها حتى الآن إلّا جهاداً وشقاء!
ويا للخيرين في الأرض وأهلِ الصدق، يُخلّونها واحداً واحداً فيكثر فيها البغي ويغطي الجور!

وتصوّر العبقريُّ الغريبُ غدَ الناس آتياً قريباً. غداً أشدَّ ظلمةً من ليالي البائسين، وأبرد زمهريراً من ضمائر الناكثين، ينوءُ بكلِّكهِ الثقيلِ على أهلِ الشقاء، وما تسكنُ غداً الريحُ ولا يسكنُ لها عويل.

غداً يخفُّ به الخلقُ ميزاناً عند مَنْ نصبوا أنفسهم على الناس حكماً نفاقاً وزوراً، فما يُقَرَّبُ فيه إلّا الساعي والماكرُ وصاحبُ الفسادِ العريض، ولا يُسَوَّدُ فيه إلّا الظالم والجائر، ولا يُطرَفُ فيه إلّا المائعُ التافهُ الثقيل، ولا يعيش ملءُ بُزْدَيْهِ إلّا الوقعُ الباردُ الدنيء، ولا يهون أمرُ امرئٍ إلّا إذا أنصفَ وأحبَّ، وكان عوناً للمظلوم وحرماً على الطغاة والطغيان، وإعصاراً يهبُ نحوَ كلِّ سماءٍ فيها بقيةٌ من الظالمين.

غداً يا له من غدٍ أليمٍ يَسْتَشِفُّه عليٌّ بقلبه وعقله! فما بَعْدَ العشيّة من عظيمٍ يُؤثر الصدق حيث يضرّه على الكذب حيث ينفعه! وما بَعْدَ العشيّة من حاكمٍ أبٍ للناس يستحبُّ آلامَ الحقِّ على لَذّةِ الباطل! وما بَعْدَ العشيّة من قلبٍ وعقلٍ يَعدّ لانٍ في الخلق ويعملانِ بالحق، ولو زلزلتِ الجبال زلزالها وشُقَّتْ صفحةُ الأرض فبعثت قبورها!

غداً يا له من غدٍ! حَسْبُ البليد فيه أن يبرع في الظلم، حتّى يأتيه السلطانُ مجزّراً أذيالَه، ومختلاً. وَحَسْبُ الكريم فيه أن يقتلع مذاهبَ الظالمين من أصولها ويُلقيها على قَدَمَيْهِ هشيماً يابساً حُطاماً؛ حتّى تخرج أنفاسُهُ ويذوق الويل.

إنّ أخا المظالم الذي قاتلَه بعقله وقلبه ولسانه وسيفه، وعَرَى عن غروره وجهله لن يكونَ إلّا سعيداً وقد جُعِلَ النهارُ ليلاً والشمالُ يميناً. وإنّ أخا العدالة الذي وقاه بعقله وقلبه ولسانه وسيفه لن يكونَ إلّا شقيّاً مهاناً يهجمُ عليه البؤسُ مع كلّ ريح.

وضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء!
وبكى الليلُ بأنفاسه وهَلَّتْ مِنْ دموعه عيناه!
وأخذ ابنُ أبي طالب النجومَ والسُّحُبَ بعينه في ليلَةٍ تجرّفُ ظلمتها قصورَ الطّغاة وخصاصَ الفقراء، وكَيّدَ الكائدين ومآسي الطّيّبين، سواءً بسواء. ونظر إلى الدنيا بقلبه يقول: «يا دنيا! يا دنيا، غرّي غيري!»^(١) وكبّ دنياه لوجهها.

وراح الليلُ هزيعاً يلفّ هزيعاً، وظلاماً يدخل في ظلام.
وأحس ابنُ أبي طالب وكأنّه قد بلغ من الأرض منزلَ وَحْدَتِهِ، فيا للأرض

من بيتٍ وحدةٍ ومنزلٍ وحشةٍ ودارٍ غربَةٍ!

ورنقت^(١) عيناه قليلاً كأنما يريد الإمتلاء بهواجس الليلة الرهيبة! وما هي
الآ غفوةٌ حالمة، حتى سَنَحَ^(٢) له الرسول، فقال له: يا رسول الله! ماذا لقيتُ من
أُمتك من الأود واللد؟ فقال الرسول: أذُعُ عليهم! فقال: اللهم أبدلني بهم خيراً
لي منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني!

وأحس أرضَ الفقراء والمستضعفين تَمِيدُ^(٣) بأهلها مَيدان السفينة
تَقْصِفُها القواصفُ في لُجج البحار! وأحس من على ظهرها حيارى في زلزالٍ
من الويل، في جانبٍ من الليل، تحفزُهم الرياحُ بأذيالها وتحملُهم على أهوالها!
أما العُتاةُ فقد أخذوا بأطراف الأرض زخفاً زخفاً، وصفاً صفاً، بعضُ مَلَكٍ
وبعضُ أَمَرٍ.

في صبيحة تلك الليلة، وكان بعض الريح يمسح في الأديم مِثْلَ العيون
التي تنظر فتدمع، مشى ابنُ أبي طالب بطيئاً وكأنَّ وطءَ خُطاه على الأرض
كلماتٌ تقول للأرض شيئاً في تلك الدقائق الواجمة، وكأنَّ الطير بها مِثْلُ هذا
الوجوم! فهو ما أدرك باحةَ المسجد حتى أسرعَ إليه الإوزات تُكأ كئٍ وتصيح
وتتناوح معها الريح في الصبيحة الباردة!

وأقبل بعضُ الناس لا ينطقون ولا يمرحون. وراحوا يزجرون الإوزاتِ
من أمام جبلِ الحكمة الذي يمشي، والإوزات لا يقبلن زجراً ولا يرجعن عن
نواح، وكذلك الريح! فهل أدرك الطير ما أدرك الريح من شعورٍ بما يُقبل عليه
الإمام الأعظم من مأساةٍ تُنهي مآسيه بين الناس؟

(١) رنقت: هومت. ورنقت عيناه: كان منكسر الطرف من جوع أو غيره. المنجد: ٢٨٢، مادة «رنق».

(٢) سَنَح: عرض. النهاية في غريب الحديث: ٤٠٧/٢، مادة «سَنَح».

(٣) تَمِيد: تتحرك. غريب الحديث: ٤٥٠/٢.

أما الإمام، فما به حينذاك إلا ميلٌ إلى سماع هؤلاء الإوزاتِ الناثحات؛
فالتفت إلى الناس يقول بصوتٍ كأنه خارجٌ من أعماقِ الفاجعة:
- لا تَزْجروهنَّ، إنهنَّ نوائح! (١)

وعلامَ لا يُنْخَن؟ وعلامَ يزجرهنَّ الناس؟ وعلامَ لا ينظر ابنُ أبي طالب
إليهن. ثم إلى هذا الصباح، بقلبه وعينه؟ لقد رأى، قبل هذه الدقائق، ألفَ
صباح وصباح، ولكن في هذه الصبيحة ما ليس في غيرها من شؤون! فهو لم
يستشعر من الأحاسيس مثل ما يستشعر الآن! أوليس من حق هذا العظيم أن
يسمع رثاءه بنواح الطير والريح ذات الرنين؟! أوليس من حقه أن يودّع
الشمس والظلال التي لن يراها بعد اليوم؟ أوليس من حقه أن يُلقي النظرة
الأخيرة على الربوع التي عاش بها فقيراً ليغني الناس، والتي شهدت فصولاً من
بأسه؛ وفصولاً من عبقريته وفصولاً من مآسيه، ورؤاها بدمع عينيه في الليالي
الطوال؟

إنّ دنياه هذه، لو أخذ ناسها جانب الحق واعتصموا بذمةٍ ووجدان؛ لما
هاله أن يودّع ليلها ونهارها، فهي في زمانه أكالةٌ غوّالةٌ اختلطَ حلّله بحرامها.
أما نفسه فقد نُزِلَتْ منه في البلاء كما نُزِلَتْ في الرخاء. ولولا الأجل الذي كُتِبَ
عليه لم تستقر روحه في جسده طرفة عين. غير أنّ الفاسقين وأهل الغدر ما
يزالون تضج بهم الأرض؛ وتئن تحتهم الرقاب وتزهق الأرواح. في العراق
والحجاز والشام ما يزال أهل الحرمان في غصّة يعيشون، وأهل النفاق في
وسع من نفاقهم يرتعون، فماذا على الدنيا لو خلت لابن أبي طالب قدمين
تستويان فيغير أشياء؟

وأبت الدنيا أن تُغيّر أشياء!

(١) شرح الأخبار، للقاظمي المغربي: ج ٢ / ٤٣١، المسائل العكبيرة للشيخ المفيد: ٧٠.

وأحس العبقري أن رجليه تنقلانه إلى غربة بعيدة!
وقف العبقري الغريب على باب المسجد هنيئاً ينظر فيها إلى الإوزات
النائحات، وإلى الناس يقفون بعيداً ولا يُبدون! وردد يقول:

- لا تزجروهن، إنهن نوائح!

ودخل علي وجثا على ركبتيه أمام رب العالمين!
وأغمض عينيه على صورة الناس في دنياه وهم يفقدون ثلاثاً: درهماً
حلالاً، ولساناً صادقاً، وأخاً يُستراح إليه!

وقال القدر كلمته الغادرة: فأتاه ابن ملجم بسيف مسموم يضرب رأسه
الضربة التي قال فيها الخبيث: إنها لو كانت بأهل المضّر جميعاً لأنت عليهم!
وحلّت على ابن ملجم لعنة الله ولعنة اللاعنين ومن ولدوا ومن ماتوا ومن
قال لهم الله كونوا فكانوا! لعنة تُجفف النبع وتخصم الزرع وتُحرق النبت في
الأرض وهو وسيم! وجعل الله زفير جهنم وشهيقها في أصول تكوينه!
وأهلكه ألف شيطان كتبوه على وجهه في سواء الجحيم؛ وفيها لُفح وفيها أفواه
من اللهب ذات أجيح وذات صفير.

وتحرّكت الرياح العاصفات والزعازع الهوج تُغول وتثخن وتصفع
ماترى وما لا ترى. وسفت التراب من كل صوب وأخرجت ما تحته
مدوية هائجة، كأنها صواعق ترمي بها السماء الأرض.

وتكاثفت ظلمة النهار وادلهمت لما تخرقها شمس ولا يجلوها وميض،
فإذا المشهد مفزع رهيب: في الأرض إعوال ورنين! وفي السماء غيوم تمرّقها
بروق ثائرات! ففي الرافدين على ابن طالب حزن عظيم عاشت فيه الطبيعة
حيناً وسوف يعيش فيه الناس أجيالاً طوالاً!

أما الطير فقد هرعت إلى وُكُناتها تلف مناقيرها بأجنحة يغبر

ريشها ويسود!

أما أشجار الرافدين فحسبها أنها تودّ لو انقلعت بعروقها، وجاءت ولها دويٌّ شديدٌ وقصّف كقصفِ أجنحةِ الطير؛ وألقت على أقدام الشهيد أوراقها اليانعات!

كلّ ما في الطبيعة كان يعصف بالثورة إلّا وجه ابن أبي طالب؛ فقد انبسط لا يحدث بانتقام ولا يُشير إلى اشتباك. فإنّ العوّاد وقفوا بباب الإمام وكلّهم جازعٌ متألّمٌ بالكِ يدعو إلى الله أن يرحم أمير المؤمنين فيشفيه ويشفي به آلام الناس، وكانوا قد شدّوا على ابن ملجم فأخذوا، فلمّا أدخلوه عليه، قال: «أطيبوا طعامه وألینوا فراشه»^(١).

ولكنه انبساطٌ أجّل في معنى المأساة من صخب الريح واصطراع الأشياء. إنّ وجهه آنذاك أشبه بوجه سقراط الذي أبى جهلة قومه إلّا أن يستوه لضالة شأنهم وتفاهة أخلاقهم أمام عظمة الحق، وبوجه المسيح بن مريم إذ يضربه تجار اليهود بالسياط، ويوجه محمد بن عبد الله إذ يرحمه سفهاء الطائف ولا يعرفون أيّ عظيم يرحمون.

وجاؤوا الإمام بخير أطباء الكوفة وكان أعلمهم بالطب والجراحة «أثير بن عمرو بن هاني». فلمّا وقف «أثير» هذا على حقيقة الجرح في جبين الإمام قال له والغصّة في قلبه واليأس في صوته: «إعهدْ عهدك يا أمير المؤمنين! فإنّ اللعين ابن اللعين قد وصلتْ ضربته إلى أم رأسك.» فلم يتأفّف الإمام ولم يتشكّ بل أسلم أمره لله وللمقادير. ثم دعا ولديه الحسن والحسين وأملى عليهما وصيته وطلب منهما ألا تُثار فتنةٌ بسبب مقتله وألا يُهرق دم.

(١) وفيات الأئمة، ص ٦٠.

أما بشأن قاتله فقد قال: «لأنّ تغفوا أقرب إلى التقوى!»^(١) وأما وصيته التي أملاها فإليك بعضها:

«اللّٰه اللّٰه في جيرانكم!

اللّٰه اللّٰه في الفقراء والمساكين فأشركوهم في معاشكم!

قولوا للناس حسناً، كما أمركم الله، ولا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

عليكم بالتواضع والتباضل والتباز، وإياكم والتقاطع والتفرق والتدابر!»^(٢).

وسأله الناس: أنبايع الحسن بعدك؟ فقال: «لا أمرُكم ولا أنهاكم!»^(٣) لا يريد بذلك أن يفرض عليهم خليفة له؛ ولا يريد كذلك أن ينهاهم عن استخلاف مَنْ يريدون. وفي ذلك إيمانٌ وتطبيقٌ وتعليمٌ واعترافٌ عميق بأنّ الناس أحرارٌ في من يولّون عليهم، فالولاية من الجماعة.

وبعد هنيئة التفّت الإمام إلى الناس، جميع الناس، يقول لهم: «أنا بالأمس صاحبُكم، وأنا اليومَ عبْرَةٌ لكم، وغداً مفارقُكم، غفر الله لي ولكم!»^(٤).

لقد استغفر لنفسه قبل أن يستغفر للناس، تواضعاً لهم ولرب العالمين. كانت الضربة في فجر يوم الجمعة. ومكث الإمام بعدها يومين إثنيين وهو يقاسي الألم فلا يبوح، ويعتصم بالله ويوصي بالإحسان إلى الناس وبالرفق بالمستضعفين. وتوفي ليلة الأحد لإحدى وعشرين مضت من رمضان عام أربعين للهجرة.

(١) شرح نهج البلاغة: ٦ / ١٢٠، مقاتل الطالبين: ٢٣.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٤٧ - ٤٨.

(٣) هذا خلاف ما نقله المسعودي في المروج: ٢ / ٢٩١ من أن علياً أوصى إلى الحسن والحسين لأنهما شريكاه في آية التطهير.. ونقل الكليني في الكافي: ١ / ١٧٩ وصية الإمام علي إلى الإمام الحسن بطرق متعددة.

(٤) نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٩ - ٤، والكتاب: ٢٣ - ٢٤.

قضى العظيم الغريب الذي آذاه خصومه وأنصاره على السواء، العظيم الغريب الذي عاش شهيداً ومات أباً للشهداء.

قضى شهيداً الاستقامة والدعوة إلى الخير. شهيداً العبقريّة التي أبت وترفعت ومضت في طريق الكرم الإنساني لا تُهادن ولا تلين!

قضى العظيم وما قامت له دولة، لتقوم بعد أجيال باسمه الدّول، ويتصافى باسمه الناس، ويُقاضوا المفسدين وقد أصبحوا في التراب تراباً.

قضى شهيداً لترك وراءه أسرةً من الشهداء. لترك زينب الحزينة تُمزقها الآلام ويقسو عليها الزمن، كما لا يقسو على إنسان وليترك الحسين بين أيدي خصمه ابن أبي سفيان ومن يليه من الخصوم المنتقمين.

وتمت الحلقة الأولى من المؤامرة الكبرى على عليّ بن أبي طالب وعلى بنه، لتعقبها الحلقة الثانية، فالثالثة، فالعاشرة، في سلسلة من المآسي أشدَّ هولاً، وأقسى وأرهب!

وزهت^(١) القصور بمصرع الإمام كما يزهو السراب في الصحاري البعيدة، وقد جفّ فيها النبع ومات الزرع! وقامت دولة لأولئك الذين تجاسروا على الذم بحجة تأسيس دولة؛ وبئس الدولة لا تقوم إلا بمصارع العظماء!

ولكن، ما يعدل الظالمون آهةً تثيرها مأساة العظيم في جنبات الصدر، فتقلب إلى ثورة يحيا بها الثائرون في دنيا العرب أجيالاً طوالاً، ولا غصة في قلوب الطيبين تتسع وتشتد حتى تحرق الظالمين ومن والا هم وما أقاموا من دولٍ وشيدوا من أمجاد.

ولكن، ما تعدل الدول، وهذا شأنها، دموعاً في عيون المستضعفين

(١) زهت: تزيّنت «فرحاً وابتهاجاً بهذا المصراع الذي صرعه». المنجد: ٣١٠، مادة «زهأ».

والمشرّدين الذين بكوا ابن أبي طالب؛ مكفكف الدموع وأبا المشرّدين
والمستضعفين الطيب الحنون!

ولكن، ما يعدل نضار الأرض جميعاً سيراً في حذاء عبقرى فقير! وما
يعدل الملوك والملوك كلمة في نهجه، ولا صورة في خياله، ولا عبرة في قلبه
غير مسكوبة.

ومات في الأرض عظيم وقام في الناس من تعاضموها! فإذا هنا إنسان
يموت فيعلو، وإذا هناك ناس يعيشون فيصغرون!
وخلّى الإمام عدوّه في الأرض قوماً بُورا!

صور من التاريخ

بعد الإقام

- وإنه سيأتي عليكم من بعدي زمانٌ ليس فيه شيءٌ أخفى من الحق ولا أظهر من الباطل! (١)

عليّ

- الأرض لله وأنا خليفة الله! فما آخذ من الله فهو لي، وما تركته منه كان جائزاً لي! (٢)

معاوية

- لآخذنّ البريء بالسقيم، والصحيح بالسليم (٣).

زياد

- لا يأمرني أحدٌ بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه! (٤)

مروان

- أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه (٥).

المنصور

لا بدّ من الكلام على ما صارت إليه أحوال المجتمع العربي في بعض وجوهه بعد أن آل الأمر إلى بني أميّة فإلى بني العباس ومن تلاهم في حكم الناس، وبعد أن تنكّر الحاكمون لدستور عليّ بن أبي طالب في الولاية، وساروا على الخط السفيناني الذي أشرنا إليه في الفصل السابق في السياسة

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٤٧ - ٤، ص ٥٦٦.

(٢) النصائح الكافية لابن عقيل، ص ١٣١.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٩٦ / ٥ وفيه: لآخذنّ المحسن بالمسيء والحاضر بالغائب والصحيح بالسقيم.

(٤) الكامل في التاريخ: ٤ / ٥٢١.

(٥) تاريخ دمشق لابن عسّاك: ٣١١ / ٣٢، عيون الأخبار: ٢ / ٢٥١، البداية والنهاية: ١٣٠ / ١٠.

والحكم، فأصبح الناس وراثَةً للأُمويّين والعباسيّين ومَن إليهم، يملكونهم كما يملكون المتاع، بل قل أرخص المتاع، إلّا في ما شذّ من الحالات.

فلقد كانت خلافة عليّ في تلك الفترة بين أيّام عثمان وسلطان معاوية ومَن يليه، تمثّل الحقّ والعدالة إذ يشمخان بين سابقٍ من اللامبالاة وهذرٍ الحقوق العامة، ولاحقٍ من الإمعان في الظلم، يشتدّ أو يلين بين حين وحين. فبعد أن عرفت - فيما سبق - ما كان من أمر الولاة والحكّام والأرستقراطيين وبؤس الجماعة في أيّام عثمان ومستشاريه وأعوانه، لا بأس أن تعرف شيئاً عمّا كان من أحوال الملوك والناس في العهود الأُموية والعباسية وما يليها؛ لينجلي لك مقدار ما أساء الطغيان إلى الشعوب العربية عبر التاريخ. وبذلك يزداد النور الملقى على دستور عليّ سطوعاً، وتزداد الحقيقة العلوية جلاءً. فإذا ابن أبي طالب بين عينيك عملاقَ الفكر والضمير في كلّ صراع. وإذا سيفه يشقّ غبارين ممّا هاجت الأثرة وما إليها، متألقاً بيد الحقّ ضارباً عنق الباطل.

وسوف نعقب هذا الفصل بحديث آخر، نتناول فيه أثر عليّ في التاريخ العربي وكيف جعله الناس في الشرق عنواناً للكفاح ضدّ الطغيان والظلم، وضدّ نهب الأرزاق واستعباد الأعناق، وكيف ثار باسمه الثائرون وتمردَ المضطّهدون، وكيف أطلّ الشعراء من خلال سيرته على آفاقٍ إنسانية هي من روائع التراث الأدبيّ الثوريّ الذي يمكن للعرب أن يعتزّوا به وأن يرتبطوا عن طريقه بما في أعماقهم من أصولٍ إنسانية.

عرفنا أنّ الأُمويّين استولوا على الخلافة بالخدعة، ثم بالقوّة، فحوّلوها إلى مُلكٍ فيه، وأقاموا هذا الملك على أُسسٍ ليس فيها من العدل ظلٌّ كثير، أو قليل. وبمظالمهم هذه انهاروا.

وجاءت الدولة العباسية، فترخّم المنصفون على بني أُميّة. يقول أمين

الريحاني موجزاً:

«استولى العباسيون على الملك بمذبحةٍ تلتها مذابح في سوريا وفلسطين والعراق؛ وعقبت المذابح الفوضى. وقد اقتدى أربابها بأبي العباس السفاح: هذا العُمَيطر يدعو لنفسه بالشام، فبايعته اليمنية، وقاومته القيسية، ففتك بهم ونهب دورهم وأحرقها.

وهذا ابن يَبَّهَس يحارب العميطر ثم يستولي على دمشق وينكّل بأهلها. واستمرّت الفتن تضطرم ونار العصبية تستعر في عهد العباسيين. وكانت الدوائر تدور كلّها، لا على الباغيين - الظالمين والسفاحين - بل على الأهالي المساكين. على أولئك الذين يدفعون الضرائب ويلتبون الدعوة للجهاد!»^(١)

هذا ما يقوله أمين الريحاني في المجازر التي واكبت منشأ الدولة العباسية. وإليك صورة موجزة عن سائر الأحوال في العصر العباسي:

رأينا أنّ ملوك بني أميّة، بعد خروج الأمويين على إرادة عليّ بن أبي طالب وعلى دستوره العادل في الجماعة، قد أدركوا الحكم على أنه حقّ لهم لا يشاطرهم إياه أفراد أو جماعات. ونهجوا فيه منهجاً فردياً خالصاً لا يقيم وزناً لحقوق الناس في كثيرٍ أو قليل. فلما ورث الناس بنو العباس، وطّد هؤلاء ملكهم الجديد على أساس من هذا التصور للحكم. فإذا الملك هو ظلّ الله على الأرض. وإذا ولايته على الناس هي حقّ أتاه من الله لا يستطيع المخلوق له تغييراً ولا تفسيراً. وعلى هذه القاعدة وقف أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين يخطب في الناس، قائلاً:

«أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلني عليه قفلني!»^(١) وعلى هذه القاعدة سار من خلقه من ملوك بني العباس، لقد كان كل منهم «سلطان الله في أرضه».

سمع الناس من أبي جعفر المنصور مثل هذا القول، بعد أن كان آبائهم الأولون يصغون إلى ابن أبي طالب يخاطبهم، قائلاً:

«وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يُظنّ بهم حبّ الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر. وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أنني أحبّ الإطراء واستماع الثناء. فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابة. وإنه من استثقل الحق أن يقال له، أو العدل أن يُعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه. فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإنني لست في نفسي بفوق أن أخطئ!»^(٢).

فهذا الاعتراف القديم من عليّ بأنه ليس بـ«فوق أن يُخطئ» يقابله رأي المنصور في نفسه، وهو أنه «سلطان الله في أرضه» وكيف يجرو عادي من الناس على نسبة الخطأ، أو الظلم إلى هذا «الظلّ الإلهي» الواسع الأطراف؟ وانصرف المنصور، وهو ظلّ الله في الأرض، يسوس الناس على هواه وعلى هوى بطانته، وكلّهم ظلّ صغير للظلّ الأكبر. وانفرد بالسلطة دون أن يقبل محاسبة أو مناقشة. وانفرد كل من بطانته بأسلوب يعالج به مصالحه الخاصة في رعاية «الظلّ» الأكبر. وأمعن في الاستبداد والتقتيل وسوء التدبير.

(١) البداية والنهاية: ١٠ / ١٣٠ وقد سبق تخريج النص.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٦ - ٢٤.

غير أنّ صيحة ابن أبي طالب الداعية إلى محاسبة الولاة، ومشاركتهم الرأي في أسلوب الحكم، ومطالبة الرعية بآلا يكفّوا عن القول بالحقّ والمشورة بالعدل كانت ما تزال ذات أصداء في بعض القلوب والنفوس. فإذا أبو الفداء يخبرنا في تاريخه بما كان من أمر المنصور وأحد الشجعان من أفراد الرعية، إذ نهض هذا يحاسب الطاغية في حكمه المطلق ويظهر له عيوبه واحداً واحداً. وها نحن نثبت بعض هذا الخبر لما فيه من غاية مزدوجة: التثبت من مفاصد الحكم المطلق الذي اتجه إليه حكام الشرق العربي بعد تنكّرهم لدستور عليّ، ثم الكشف عن هذه الومضات الخيرة التي كانت تتألق في نفوس السائرين على نهج عليّ في عهود الطغيان والاستبداد، وهي من روحه ومن دستورهِ. قال أبو الفداء:

«بينما الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: «اللهم! إنّي أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطمع. فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله، فقال له: إنّ الذي دَخَلَهُ الطمع حتّى حال بين الحقّ وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين! فقال المنصور: ويحك! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ فقال الرجل: لأنّ الله استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجر، وأبواباً من الحديد، وحجاباً معهم الأسلحة، وأمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان. ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف، ولا الجائع والعاري، ولا الضعيف والفقير. وما أحدٌ إلّا وله في هذا الأمر حقّ. فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيّتك تجبي الأموال فلا تعطيها، وتجمعها ولا تقسمها، قالوا: هذا وقد خان الله تعالى فما لنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه؟ فاتفقوا أن لا يصل إليك من

أخبار الناس إلّا ما أرادوا، ولا يخرج لك عاملٌ فيخالف أمرهم إلّا أقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره. فلما انتشر ذلك عنك وعنهم؛ عظمهم الناس وهابوهم. فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا ليتقوا بهم على ظلم رعيّتك. ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيّتك لينالوا به ظلم من دونهم. فامتلأت بلادُ الله بالطمع ظلماً وفساداً. وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل. فإن جاء متظلمٌ حيلَ بينه وبين الدخول إليك. فإن أراد رفع قصة إليك وجدك قد منعت من ذلك. وجعلت رجلاً ينظر في المظالم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك. فإذا صرح بين يديك ضرب ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره. وأنت تنظر ولا تُنكر. فما بقاء الإسلام على هذا؟»^(١).

ولم يذكر أبو الفداء شيئاً عن مصير هذا الرجل على يد المنصور!

* * *

ذلك كان شأن بني العباس ومن جاء في ذيول دولتهم من أصحاب الإمارات والدويلات. فالعنف والقسوة شريعتان دوليتان، والملك منحة من الله إذ كان الله رفيقاً ببعض عباده فوهبهم إياه حليماً، كريماً، حكيماً. وعلينا الآن أن نذكر بعض نتائج هذا التصوّر للحكم، وهذه القسوة في الدفاع عنه، ولا سيما فيما يتعلق بما أصاب طبقات المجتمع من أحوال البؤس والرخاء. زخرت خزائن بغداد عاصمة العباسيين بأموال الأرض وفاضت. غير أنّ هذه الأموال، كسائر الحقوق لم تكن إلّا من نصيب الخلفاء وأبنائهم ووزرائهم ومحظياتهم، وغير المغضوب عليهم. فيما كانت الجماهير وفيهم ذوو

(١) ونقلها أيضاً ابن أبي الحديد في شرح النهج: ١٨ / ١٤٥ نقلًا عن «عيون الأخبار لابن قتيبة».

الكفاءات والمواهب والجهود، وفيهم من لا يتزلفون ولا يمزغون جباههم على أعتاب السطان؛ في فقرٍ وعوزٍ يختلفان بين العدم وبعض الكفاف. فنشأ عن ذلك طبقتان تتعاضم بينهما الهوة وتزداد عمقاً: طبقة الموسرين حتى حدود الإفراط في اليسر. وطبقة المغوزين حتى ما يجاروا الموت. وبينهما طبقة راضية عن نفسها لولا ما قد ينتظرها من سقوط.

كانت أموال الدولة تُنفق على قصور الخلفاء والأمراء وملاهيهم، وعلى عمال الدولة الموالين. وكان هؤلاء، في دورهم، ينفقونها أكياساً على المقربين والأتباع والجواري والخصيان. والخلفاء والأمراء والعمال هم طبقة المجتمع العباسي الأولى من حيث اليُسْر. تليهم فيه طبقة التجار، أما عامة الشعب فلهم البؤس والدمار والموت المهيمن. فإذا بغداد تحفل بالأكواخ الهزيلة الحقيمة إلى جانب القصور المتعالية المتشامخة. وإذا بها، كالسما، تحوي النعيم والجحيم جنباً إلى جنب. يقول أحد شعراء ذلك العصر في بغداد:

تصلح للموسر، لا لامرئ يبيت في فقرٍ وإفلاس
لو حلها قارون: ربُّ الغنى، أصبح ذا همٍّ ووسواس
هي التي نُوعِدُ لكنها عاجلةٌ للطاعم الكاسي
خورٌ وولدان، ومن كل ما تطلبه فيها سوى الناس! (١)
ويقول بعض أبناء الرغادة والنعيم:

أعابت في طول من الأرض، والعرض كـبغداد داراً؟ إنَّها جنة الأرض
صفا العيش في بغداد واخضر عودُه، وعيش سواها غير صافٍ ولا غصّ
تطولُ بها الأعمار، إنَّ غذاءها مريء؛ وبعض الأرض أمراً من بعض (٢)

(١) الأبيات للشاعر معدان التغلبي، نقلها عنه في معجم البلدان: ٤٦٧ / ١.

(٢) الأبيات لعماره بن عقيل بن بلال الخطفي رواها الخطيب في تاريخه: ٨٩ / ١.

ولا بأس أن تكون بغداد في العصر العباسي، وفي كل عصر، جنة الأرض
ودنيا النعيم! ولا بأس أن يصفو بها العيش وأن يخضر عودها ويمرأ غذاؤها
فتطول بها الأعمار! لا بأس بذلك جميعاً، فالإنسان يسعى أبداً في أن ينعم وأن
يعيش في جنة فيها حورٌ وأزهار وأثمار وما خلق الله من طيبات؛ ومن حقه
كل ذلك. لكن أنى يكون ذلك والملايين من أبناء الشعب يجوعون ويعرون
ويشردون فيموتون ولا يتمتعون ببغداد وجماليات بغداد؟

من حق هؤلاء المترفين أن يكونوا كذلك شرط ألا يخاطب أبو العتاهية
خليفة بغداد قائلاً، بلسان مئاة الألوف من المشردين:

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الإِمَامَ نَصَائِحاً مَتَوَالِيَهُ
إِنِّي أَرَى الْأَسْعَارَ، أَسْعَارَ الرِّعْيَةِ، غَالِيَهُ
وَأَرَى الْمَكَاسِبَ نَزْرَةً وَأَرَى الضَّرُورَةَ فَاشِيَهُ
وَأَرَى غَمُومَ الدَّهْرِ رَائِحَةً تَمُرُّ وَغَادِيَهُ
وَأَرَى الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلَ فِي الْبُيُوتِ الْخَالِيَهُ
مِنْ بَيْنِ رَاجٍ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو إِلَيْكَ، وَرَاجِيَهُ
يَشْكُونُ مَجْهَدَةً بِأَصْوَاتٍ ضَعِيفٍ عَالِيَهُ
يَرْجُونَ رِفْدَكَ كَيْ يَزُورُوا، مِمَّا لَقُوهُ، الْعَافِيَهُ
مِنْ مُصِيبَاتٍ جَوْعٍ تَمْسِي وَتَصْبِحُ طَاوِيَهُ
مَنْ لِلْبَطُونِ الْجَائِعَاتِ وَلِلْجُسُومِ الْعَارِيهِ؟
أَلْقَيْتُ أَخْبَاراً إِلَيْكَ مِنَ الرِّعْيَةِ، شَافِيَهُ^(١)

(١) ديوان أبي العتاهية القصيدة رقم، ٦٣٢، ص ٤٣٦، طبعة دار الكتاب العربي ١٩٩٥.

وإليك ما جاء في «الأغاني» على لسان أحدهم، وقد دخل على الخليفة الواثق؛ فوصف بعض ما شاهده في أحد قصوره. يقول «بعض» ما شاهده في «أحد» قصوره:

«ولم يزل الخدم يُسلمونني من خدم إلى خدم، حتى أفضيتُ إلى دار مفروشة الصحن، مُلبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، ثم أفضيتُ إلى رواقٍ أرضه وحيطانه مُلبسه مثل ذلك، وإذا الواثق في صدره على سرير مرصع بالجوهر، وعليه ثيابٌ منسوجة بالذهب، وإلى جانبه «فريدة» جاريته، عليها مثل ثيابه، وفي حجرها عود.. الخ»^(١).

وسرّت هذه العدوى إلى جميع الموسرين من طبقة الأثارب والأعوان والمتزلفين وبعض التجار. أما اللهو والخلاعة والمجون، فلا تسأل عما كان من أمرها في القصور؛ وقد انقسم المجتمع إلى طبقتين، أو طبقات ثلاث كما تقدّم. أما اقتناء الجوّاري والأرقاء، وأما «قيمة» الإنسان الذي يُشترى ويُباع بالدرهم والدينار، فاسأل عنهما أسواق الرقيق في كلّ بلد يومذاك، ولا سيّما «شارع دار الرقيق» في عاصمة بني العباس!

ثم اسأل النّحّاسين وفي سلاسلهم من كلّ لونٍ أرهاط! فمنهم السود الأبنوسيون يدخلون المدن العباسيّة قوافلَ قوافل؛ يأتون من الجنوب لبيع واحدٍ منهم بمائتي درهم. ومنهم البيض من الترك والصقالبة المقبلون من مركز الرقيق الأبيض: سمرقند. ومن الجوّاري: الهنديّات بنات قندهار. والسنديّات ذوات الخصر النحيل والطرف الكحيل والشعر الطويل. ومولّدات المدينة^(٢)؛

(١) الأغاني للأصفهاني: ١١٦/٤، طبعة مؤسسة جمال للطباعة / مصر.

(٢) الإمام اللواتي ولدن في المدينة ونشأن فيها.

وقد عُرفنَ بالدلال والفكاهة والمجون والشعر والغناء. ومولّدات مكّة^(١) ذوات المعاصم الدقيقة والعيون النواعس. ومنهن المغربيات اللواتي يقول فيهنّ أبو عثمان الدّلال، وهو العارف الخبير: «وأن تكون - الجارية - من أصل بربري فارقت بلادها وهي في التاسعة من عمرها ومكثت ثلاث سنين في المدينة، ومثلها في مكّة، ثم رحلت إلى العراق في السادسة عشرة من عمرها لتتشفّ بثقافته. فإذا بيعت في الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل، ودلال المدنيات، ورقّة المكيات، وثقافة العراقيات!»^(٢) ونسي أبو عثمان الدّلال، رحمه الله، أن يحدّد سعر هذه الجارية المشكّلة! ثم لا تسأل عن الحبشيات والتركيات والصقلييات والروميات والأرمنيات! ولكلّ منهنّ صفات يُنسب في تعدادها أهل الاختصاص في ذلك الزمان.

وبات الناس، مع انقسام المجتمع العباسي هذا إلى طبقتين - أو ثلاث -؛ لا يطمئنون إلى سلامتهم وسلامة ما يملكون حتّى في يومهم الحاضر. فقد كانت الأرواح عرضة لأن تزهق في كلّ دقيقة بإرادة السلطان. وكانت الأموال عرضة لأن تذهب في طرفة عين؛ ذلك لأنّ عطاء الخلفاء والأمراء والوُلاة إذ ذاك كان لا يقف عند حدّ. ومصادر تهم للأموال لا تقف كذلك عند حدّ. قد يعجب أحدهم نعمة المغنّي، أو بيت الشعر، أو الكلمة الطيّبة، أو الجواب الحسن؛ فيهب الألوّف. وقد يكره ذلك فيهدر الدم ويصادر المال.

وصف العتّابي هذه الحالة في عصره، فقد سُئل: لم لا تتقرّب بأدبك إلى السلطان؟ فقال: «لأنّي رأيتُه يعطي عشرة آلاف في غير شيء. ويرمي من في غير شيء. ولا أدري أيّ الرجلين أكون؟!». والمفضل الضبي يدعوه رسول

(١) اللواتي ولدن في مكّة.

(٢) ضحى الإسلام، الجزء الأول، ص ٨٨.

المهدي فيخاف ويتوهم السعاية به، ثم يلبس ثوبين استعداداً للموت. فإذا مَثَلَ بين يديه سَلَمَ فردَّ عليه، فلَمَّا سَكَنَ جَاشُهُ سَأَلَهُ عَنْ أَيْ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ أَفْخَرُ؟ ثُمَّ سَأَلَهُ مَسَائِلَ أُخْرَى. فَلَمَّا أَحْسَنَ الْجَوَابَ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَشَكَا إِلَيْهِ دَيْنَهُ فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ.

«وَلَمَّا قَتَلَ الْمَأْمُونُ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ؛ عُرِضَتِ الْوِزَارَةُ عَلَى أَحْمَدَ بْنَ أَبِي خَالِدٍ فَأَبَى وَقَالَ: لَمْ أَرَأْ أَحَدًا تَعْرِضُ لِلْوِزَارَةِ وَسَلِمْتَ حَالَهُ»^(١).

وكان من نتائج البؤس والترف، أو الجحيم والنعيم، أن كَثُرَ المَجُونُ بكثرة المال والجواري والخمر في هذا الجانب. وانتشر القمار على ما يروي الجاحظ. وبات الموسرون وهم الأقلية الضئيلة يمعنون في ابتكار أساليب المتع حتى إذا ملّوا واحدة منها مالوا إلى أخرى. وحتى «كان بعضهم يكاد ينطح العمود برأسه من حسن الغناء» كما يقول الاصفهاني، إمعاناً منه في ابتكار الجديد في التعبير عن المسرة. وكان من نتائج ذلك أيضاً أن انتشرت الحاجة في طبقات الشعب انتشاراً مريعاً على ما تقدّم. فانغمس بعضهم في المتع الرخيصة انتحاراً. وتزهّد فننكروا للحياة وللمجتمع يأساً وتشاؤماً. ولسان حالهم يردّد مع أبي العتاهية:

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| رَغِيْفٌ خَبِزَ يَابِسٌ | تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيهِ |
| وَعُرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ | نَفْسُكَ فِيهَا خَالِيهِ |
| أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ | عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيهِ |
| خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي | فِيءِ الْقُصُورِ الْعَالِيهِ |
| فَهَذِهِ وَصِيَّةٌ | مَخْبِرَةٌ بِحَالِيهِ |

(١) ضحى الإسلام، الجزء الأول، ص ١٣٣ - ١٣٥.

طوبى لَمَنْ يسمُعُها تـلـكَ لَعَمري كافيـه
فاسمـعْ لِنُصـحِ مُشـفـيٍ يُدعى أبـا العـتـاهـيـه^(١)
وفي الحالتين هاتين: الانتحار بالخلاعة والانتحار بالزهد، انحرافٌ عن
الطبيعة المستقيمة، وهما من نتائج مفساد الحكم العباسي ومساوئ الطبقة
الاجتماعية.

* * *

هذا بعض ما كان من الأحوال العامة في العصر العباسي الأول. أما ما كان
في العصور العباسية التالية فأبلغ في مقياس التفاوت الاجتماعي، وفي ما كان
من ترف هؤلاء ولهوهم العابث، وبؤس هؤلاء وجدهم العابس! فالحدود بين
الطبقات ظاهرة واضحة. والمال مكّس هنا والفقر جائم هناك. فحيث
اتجهت لا نعيم إلا مفرطاً ولا بؤس إلا مفرطاً كذلك، ولا رخاء إلا وتقابله
الحاجة إلى الرغيف والكساء!

أما الراتعون في اليسر فهم القليل القليل. وأما القابعون في العسر والبؤس
والشقاء فالكثير الكثير! وقد لا يتعدى الأمان على المال والحياة نفراً من ذوي
السلطان. أما الآخرون من الأغنياء فقد يغضب عليهم ذوو السلطان، فإذا مالهم
مصادر ورقابهم لا تثبت لحدّ السيف. وكان عهد المتوكل بداية هذا العصر
الذي أقام الفردوس قرب الجحيم.

أما طبقة المترفين فقد شق أبناؤها كل إزار، وبالغوا في التهلك على
صورة لم يعرفها العهد السابق، فشرّبوا ولعبوا وطربوا وأقاموا مجالس اللهو في
القصور، وأمعنوا في الصخب والعردة حتى كان فيهم من يشق إزاره من شدة

(١) ديوان أبي العتاهية، القصيدة رقم ٦٣٣، ص ٤٣٩.

السكر والطرب، ومَن يضرب بنفسه الأرض، ومَن يحملق عينيه، ومَن يستغيث ومَن يُحوّل ومَن يضع في كلّ مذهب، ومَن يزلزل بقدميه الأرض وينهمل دمه على ما يروي أبو حيان التوحيدي صاحب الإمتاع والمؤانسة. أما الجوّاري فقد كثرت في هذا العصر كما لا يكون. حتّى أنّ المتوكّل ذاك الذي اضطهد العلماء والمفكرين والأحرار، وهدم قبر الحسين بن عليّ وأجرى عليه الماء، وأجاز أهل السفاهة والمهزّجين الذين يتهمّون في مجلسه بعليّ بن أبي طالب - حتّى المتوكّل هذا كان يملك بضعة آلاف من السراي - ومن الخلفاء العباسيين مَن كان يملك بضعة عشر ألفاً منهناً! ثمّ إياك أن تنسى الخصيان الذين كانوا يملأون القصور، ويستخدمهم الخلفاء والأثرياء للمحافظة على النساء! وقد كثرت هؤلاء في عهد الأمين خاصّة. أمّا المقتدر فقد كان له أحد عشر ألف خادم خصّي. وكثر الغلمان في الأوساط المستهترّة وهي أوساط الأثرياء. وذلك من أظهر الدلائل على التفسّخ الأخلاقي الذي يُفضي بأسبابه الصحيحة إلى انقسام الناس إلى طبقتين، ثم إلى استغلال الإنسان للإنسان.

ولنعدّ قليلاً إلى توضيح مظاهر الترف المفرط والبؤس المفرط اللّذين عرفهما العصر العباسي هذا! الترف والبؤس اللّذين لا يقومان في مجتمع: معظم أبنائه فقراء إلا على القاعدة التي كان عليّ قد أشار إليها بكلمته الرائعة: «ما رأيتُ نعمةً موفورةً إلّا وإلى جانبها حقّ مضيع»^(١).

أما القصور، وهي مجمع الثروات في البناء وما يحوي، فقد كانت في عجيبٍ من الثراء. فهذا المتوكّل يشيد من القصور ما لا طاقة لإنسان بوصفه من

(١) دراسات في نهج البلاغة، لمحمد مهدي شمس الدين: ٤٠.

حيث السعة والبذخ. وها هو يبني بُركة تسبح فيها جواريه حتّى لمزّ بها الشاعر البحرّي فيخال أن الجنّ هم الذين بنوها لما فيها من الاتّساع والبساتين والمقاصير والألوان وعجيب الصنع، فيقول:

كَأَنَّ جِنَّ سَلِيمَانَ الَّذِينَ وَلُّوا إِبْدَاعَهَا، فَأَدَّقُوا فِي مَعَانِيهَا
فَلَوْ تَمَرُّ بِهَا بَلْقَيْسُ عَنْ عُرْضِ، قَالَتْ: «هِيَ الصَّرْحُ!» تَمَثِيلًا وَتَشْبِيهَا^(١)
إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا، لَيْلًا، حَسِبْتَ سَمَاءً رُكِّبَتْ فِيهَا
لَا يَبْلُغُ السَّمَكُ الْمُحْصُورُ غَايَتَهَا، لِبَعْدِ مَا بَيْنَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا^(٢)
وَإِلَيْكَ مَا يَقُولُهُ يَاقُوتُ الْحَمُويُّ فِي «مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ».

«ولم يبن أحد من الخلفاء بساتيناً من الأبنية الجليلة مثل ما بناء المتوكّل فمن ذلك القصر المعروف بالعروس، أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم. والجعفر بن محمد عشرة آلاف ألف درهم. والغريب عشرة آلاف ألف درهم. والشيدان عشرة آلاف ألف درهم. والبرج عشرة آلاف ألف درهم. والصبح خمسة آلاف ألف درهم. والمليح خمسة آلاف ألف درهم. وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم». ثم يوالي تعداد هذه القصور التي بناها المتوكّل مضطهدُ المفكرين والعلماء، إلى أن يقول: «فذلك الجميع مائتا ألف وتسعون ألف ألف درهم - أي نحو ثلاثمائة مليون درهم -». وقد قال علي بن

(١) بلقيس: ملكة سبأ وكانت معاصرة لسليمان الحكيم. وفدت عليه من اليمن لتسمع حكمته. وتقول الرواية العربية: إن سليمان كان يسخر الجنّ فتطيعه. فأمرهم أن ينوا له صرحاً يستقبلها فيه. فبنوا صرحاً من قوارير خضر، وجعلوا له طوابيق (قطع الحجر الكبير) من قوارير كأنها الماء وجعلوا في باطن الطوابيق صوراً من أجناس سمك البحر ودوابه ثم أطبقوه. فلما دخلت بلقيس، حسبت لجة وماء فرفمت ثيابها. فالشاعر يشبه بركة المتوكّل في جمالها ودقة صنعها بصرح سليمان. عن عرض: عن جانب.

(٢) ديوان البحرّي، القصيدة رقم ٩١٥: ٤ / ٢٤١٤، طبعة دار المعارف / مصر.

الجهنم في وصف الجعفري أحد قصور المتوكل^(١) الذي تسافر فيه العيون:
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في أطول أعمارها
صحو تسافر فيها العيون إذا ما تجلت لأبصارها
وقبّة ملك كأن النجوم تضيء إليها بأسرارها^(٢)
وهذا ابن المعتز يبني قصرًا يستيه «الكامل»، يلبس سقوفه ذهبًا، ويأخذ
المسافات الشاسعة حوله تتعطف فيها الأشجار وتتنفّس الصبا، كما يقول
صاحبنا البحتري:

لبست من الذهب الصقيل سقوفه نوراً، يضيء على الظلام الحافل
وتنقّست فيه الصبا، فتعطف أشجاره، من حول وحوامل
مشي العذارى الغيد، رُحْن عشيّة من بين حالية اليدين وعاطل^(٣)
أما «الثريا» وهي أبنية الخليفة المعتضد، فإنها السعة كلّ السعة، والترف
كلّ الترف، حتى ليخصّها ابن المعتز في ديوانه بأوصاف تكاد تجعلها، هي
أيضاً، من صنع جنّ سليمان.

وقد وصف الخطيب البغدادي قصر المقتدر بمناسبة زيارة رسول من
الروم له، فقال: إنه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصي. وكذا من
صقليبي ورومي وأسود. وهذا جنس واحد ممن تضمّه الدار - فدع الآن الغلمان
وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول. وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول
في الدار. وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل الخزائن العروس.
وقد علقت الستور، ونظّم جوهر الخلافة في قلايات على دُرُج غشيت

(١) راجع ظهر الإسلام، الجزء الأول، ص ٩٩.

(٢) معجم البلدان: ١٧٥ / ٣.

(٣) ديوان البحتري، القصيدة: ٦٤١، ١٦٤٦ / ٣، طبعة دار المعارف / مصر.

بالديباج الأسود.

ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها؛ وكانت شجرةً من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيافٌ مصنوعة من الفضة تصفر بحركاتٍ قد جعلت لها! فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده. وكان عدد ما علق في القصور من ستور الديباج المذهبة بالطرر الذهبية الجليلة، المصوّرة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرء، والستور الكبار الأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر.

وأدخل رسلُ صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية. ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال. وكل فرس في يد شكريّ بالبزة الجميلة. ثم أدخلوا دار الوحش، وكان فيها من أصناف الوحش التي أخرجت إليهم قطعاً تقرب من الناس وتشتمهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرايين بالنار، فهال الرسل أمرها. ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع: خمسون يمنة وخمسون يسرة. ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث، وهي الدار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي - القلع نوع من المعدن يُنسب إليه الرصاص - حوالها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة. وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيها نخل، وعدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى

حدّ الجمّارة بحلّق من شبّه مذهبّة. وفي جانب الدار، يمّنة البركة، تماثيلُ خمسة عشر فارساً على خمس عشرة فرساً، قد ألبسوا الديباج وغيره. وفي أيديهم مطارد على رماح، يدورون على خطّ واحد في الناورد جنباً وتقريباً. فيُظنّ أن كلّ واحد منهم إلى صاحبه قاصد. وفي الجانب الأيسر مثل ذلك.

ثم أخرجوا، بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً، إلى الصحن التسعيني؛ وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل. ثم وصلوا إلى الخليفة المقتدر وهو جالس في «التاج» ممّا يلي دجلة، بعد أن لبّس بالثياب الديبكية المطرزة بالذهب، على سرير أبنوس قد فرش بالديبكي المطرز بالذهب، وعلى رأسه الطويلة؛ ومن يمّنة السرير تسعة عقود مثل السُبح معلّقة؛ ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمةً غالبية الضوء على ضوء النهار^(١).

وظل خلفاء بني العباس يتبارون^(٢) في البذخ والإنفاق حتّى لا يخلف اللاحقُ السابقَ إلّا ليفوقه درجاتٍ في الترف والبذخ. حتّى إذا جاء الخليفة المهتدي ونزع إلى الزهد^(٣)، على ستّة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وأستاذة الأكبر عليّ بن أبي طالب، قبض عليه قومه وقتلوه.

ولم تكن ثروات نساء الخلفاء بأقلّ من ثروات الخلفاء أنفسهم. فهذي الخيزران أمّ الهادي والرشيد تحشد الأموال لنفسها فتجمع وحدها في أيّام الهادي نصف خراج المملكة العبّاسية. وقد أحصى جرجي زيدان ثروتها كما

(١) تاريخ بغداد: ١١٧/١.

(٢) يتبارون: يتعارضون، ويتنافسون، تبارى رجلان: تعارضا، وفلا كلاهما مثلاً يفعل صاحبه، وتنافسا.

المنجد: ٣٦، مادة «بارى»..

(٣) نزع إلى الزهد: اشتاق ومال إلى الزهد. الصحاح: ١٢٨٩/٣، مادة «نزع».

أخبر عنها المؤرخون فإذا به يقول: إنَّ ثروة أكبر متمولي العالم اليوم لا توازي ثلثي ثروة الخيزران. وعندما آنست الخيزران في ابنها الهادي معارضةً لها في ما تجمع من الثروات، دسَّت إليه مَن قتله. ولما جاء الرشيد الذي خلف لأبنائه، بعد موته أكثر من خمسين مليون دينار؛ أطلق لنفسه العنان في تجميع جهود البشر بين يدي زوجته زبيدة التي تحدَّثنا عن بعض ثروتها في مكانٍ سابق. وهذي «قبيحة» أمَّ المعترِّ تترك من المختبآت في الدهاليز ثروةً نقدية ضخمة، وتترك من التحف والجواهر والزمرد واللؤلؤ الكبير والياقوت الأحمر ما لا يقدر بثمن. وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل خمسين ألف دينار^(١).

وكان لأمِّ محمد بن الواثق ثروة توازي ثروة الخيزران. وكانت أمَّ المقتدر يُشترى لها ثيابٌ ديبقيّة يستمنها ثياب النعال. وذلك أنّها كانت صفاقاً تُقطع على مقدار النعال المحذّوة، وتُطلى بالمسك والعنبر المذاب وتُجمّد، ويُجعل بين كلّ طبقتين من الثياب من ذلك المطيب ما له قوام! وكانت نعال السيدة من هذا المتاع، لا تلبس النعل إلا عشرة أيّام أو حواليتها حتى تخلق وتفتق وترمى. فيأخذها الخزّان وغيرهم، فيستخرجون منها العنبر والمسك^(٢).

«وقس على ذلك أمّهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام. فقد كنَّ يتمتعن بالنفوذ، ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القوّاد ورجال الجند، بما يتاح لهنّ من إطلاق الأيدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العبّاسي فإنّه أطلق يد والدته ويد أتماش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا. فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يصير

(١) تاريخ الطبري: ٥٢٩ / ٧.

(٢) ضحى الإسلام، الجزء الأوّل عن نشوار المحاضرة. [للقاضي التنوخي]

معظمها إلى هؤلاء الثلاثة»^(١).

ويروي المؤرخون أنه كان بين رياش أم المستعين العباسي بساطٌ أنفقت على صنعه مائة وثلاثين مليون دينار، فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور وأجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر^(٢). وأن إحدى نساء الخلفاء حشت فم شاعرٍ ذرّاً فباعه بعشرين ألف دينار^(٣).

ولم يكن الوزراء أقل من الخلفاء ونسائهم ترفاً وبذخاً. فهذا الفتح بن خاقان وزير المتوكل يبني من القصور ما تطل شرفاته السماء، فيقول البحتري:

وَمِنْ شُرُفَاتِ فِي السَّمَاءِ كَأَتْهَا قَوَادِمُ بَيْضَانِ الْحِمَامِ الْمُحَلَّقِ
وَالْوَزِيرِ ابْنِ مَقْلَةٍ يَجْمَعُ فِي قَصْرِهِ مِنْ أَصْنَافِ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ مَا يُعْجِزُ
بِنَفَقَاتِهِ خَزَانَةَ الدَّوْلَةِ. وَالْوَزِيرُ ابْنُ الْفَرَاتِ يَمْلِكُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالضِّيَاعِ مَا لَا
يَحْصِي «وَيَأْكُلُ بِمَلَاعِقِ الْبَلُورِ، وَمَا كَانَ يَأْكُلُ بِالْمَعْلَقَةِ إِلَّا لَقْمَةً وَاحِدَةً، فَكَانَ
يُوضَعُ لَهُ عَلَى الْمَائِدَةِ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ مَلْعَقَةً»^(٤).

وكان الوزير المهلبّي كثير الشغف^(٥) بالورد. روى من شاهده، قال: «شاهدتُ المهلبّي قد ابتاع له في ثلاثة أيام وردّ بألف دينار. فرش به مجالسه وطرحه في بُرْكةٍ عظيمة كانت في داره، ولها فؤارات عجيبة، يطرح الورد في مائها فتتنفضه على المجالس فيقع على رؤوس الجالسين. وبعد شربه عليه، وبلوغه ما أراده منه، أنهيه»^(٦).

(١) تاريخ التمدن الإسلامي: ١٣١/٢، عن ابن الأثير: ٧/٤٧.

(٢) عن التمدن الإسلامي: ١٣٢/٢، عن المستطرف.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣٩/٩، والشاعر هو سلم الخاسر.

(٤) مقاتل الطالبين، ص ٨.

(٥) الشغف: الحب الشديد. لسان العرب: ١٧٩/٩، مادة «شغف».

(٦) ضحى الإسلام، الجزء الأول عن ياقوت.

ولم يشأ الولاة والعمال أن يقصّروا عن الخلفاء والوزراء في مباراة البذخ وتجميع الثروات. فهذا علي بن أحمد الراضي والي جنديسابور والسوس وماذريا، يخلف من الذهب والفضة والجواهر واليواقيت واللؤلؤ وألماس والبلّور والسلاح والمتاع والطيوب والأنسجة والأواني الثمينة والدور والقصور والخيول المطهّمة؛ ما لو وُزّع على أفراد الشعب العباسي جميعاً لكفاهم الحاجة والعوز. ثم إنه يخلف من الغلمان والخصيان والخدم البيض والسودان جيشاً عرمرماً، لو غزا به مدينة محصّنة لاحتلّها. ونكتفي به مثلاً على ثراء الولاة والعمال؛ وتليهم طبقة الأثرياء من التجار.

أما رقاب الناس وحياتهم، فمرهونة بكلمة عابرة، أو بغمزة عين غاضبة، من أحد حجاب الخليفة أو الوزير أو الوالي! فما إلى الأمن والسلامة من سبيل إلا بعدم غضب الطبقة المسيطرة.

* * *

هذا من جانب، ومن جانب آخر كان البؤس والشقاء والموت يزيد في شقاء عاقبة الناس نظامُ المال. فقد كان الخلفاء والوزراء والولاة يبيعون جباية الخراج وسائر الضرائب لأشخاص على سبيل الالتزام - كما كان يحدث في بلادنا المسكينة في العهد التركي السعيد - فيعسف هؤلاء الأشخاص بالناس حتى يبتزوا منهم أضعاف ما دفعوا. واختلّ القضاء بتدخل الحكّام وانتشار الرشوة^(١). وإزداد الناس فقراً على فقر، وبؤساً على بؤس. حتى لقد أصبح من حقّ من يموت منهم أن يُهتأ لا أن يُعزى به. يقول ابن لنكك البصري:

نحن، واللّه، في زمانٍ غشومٍ لو رأيناه في المنام فزغنا

(١) ضحى الإسلام، الجزء الأول، ص ١٠٠.

يصبح الناس فيه من سوء حالٍ حقّ مَنْ مات منهم أن يُهتّا
 ثم يسأل للناس صبر أيوب، ويبكي عليهم بكاء يعقوب:
 نحن من الدهر في أعاجيبٍ فنسأل الله صبر أيوب
 أقفرت الأرض من محاسنها فابك عليها بكاء يعقوب^(١)
 أما العلماء والمفكرون وذوو القيمة، أولئك الذين كان علي بن أبي طالب
 يوصي ابنه الحسن والحسين بأن يعاشراهم، ويستمعا إليهم، ويُفيدا منهم،
 ويرفعا منزلتهم، ويوصي عمّاله وولّاته بأن يستشيروهم في كلّ أمر،
 ويقرّبوهم، ويُجلّوا قدرهم لأنّهم نور الأمة، أولئك الذين قال عليّ فيهم: إنهم
 باقون على الدهر، وإن علمهم هو الذي يحرسهم ويحرس الناس. أما العلماء
 والمفكرون هؤلاء، فقد كانوا في عوّزٍ وشقاء كثير إلّا مَنْ تخلّى منهم عن ماء
 وجهه، فأراقه على أعتاب أولئك القوم. فهذا أبو حنّان التوحّيدي، ذو العلم
 الكثير والتأليف القيّمة، يقول في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: «ولقد
 اضطررتُ إلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء والنفاق، وإلى ما لا
 يَحْسُن بالحرّ أن يرسمه بالقلم»^(٢). ثمّ إنّه اضطرّ في آخر أيامه - وقد ازداد
 غيظه من دهره ودولته - إلى أن يحرق كتبه. وهذا أبو عليّ القالي يضطرّ - هو
 أيضاً - إلى أن يبيع كتبه وهي أعزّ شيء عنده؛ وفي ذلك يقول:
 أنست بها عشرين حَولاً وبعثتها فقد طال وجدي بعدها، وحنيني
 وما كان ظنّي أنّني سأبيعها ولو خلّدتني في السجونِ ديوني

(١) ابن لنكك: هو أبو الحسن محمد بن محمد المعروف بابن لنكك، الشاعر البصري الشهير، توفي ٣٦٠ هـ .

راجع تاريخ بغداد: ٩٦/١٣.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١٤٣/٢ وفيه: بيع الدين وأخلاق المروءة، وإراقة ماء الوجه....

ولكن لجوع، وافتقار، وصنيرة صغارٍ عليهم تستهل جفوني^(١)
وهذا الخطيب التبريزي كان له نسخة من كتاب «التهذيب في اللغة»
للأزهري في عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة، فدلَّ
على أبي العلاء المعري، فجعل الكتاب في مخللة وحملها على كتفه من تبريز
إلى معرة النعمان، ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه، فنفذ العرق من
ظهره إليها فأثر فيها البلل^(٢). ومن قوله:

فَمَنْ يَسْأَمُ مِنَ الْأَسْفَارِ يَوْمًا فَإِنِّي قَدْ سَمْتُ مِنَ الْمَقَامِ
أَقَمْنَا بِالْعِرَاقِ عَلَى رِجَالٍ لِّئَامٍ يَنْتَمُونَ إِلَى لِّئَامِ
وَيَمَجِّنُ الزَّمَانَ، فَيَمَعْنُ فِي الْإِسَاءَةِ إِلَى الْأَحْرَارِ وَإِلَى النَّاسِ جَمِيعًا، فيقول
ابن لُثْكَ:

يَا زَمَانًا أَلْبَسَ الْأَحْرَارَ ذِلًّا وَمَهَانَةً
لَسْتُ عِنْدِي بِزَمَانٍ إِنَّمَا أَنْتَ زَمَانُهُ
كَيْفَ نَرْجُو مِنْكَ خَيْرًا، وَالْعَلَا فَيَكُ مَهَانُهُ
أَجْنُونٌ مَا نَرَاهُ مِنْكَ يَبْدُو، أَمْ مَجَانُهُ
ويقول آخر:

زَمَانُنَا زَمَانٌ سَوْءٍ لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا فَلَاحًا
لَا يُبْصَرُ الْأَشْقِيَاءُ فِيهِ لِئَلَّيْلٍ أَحْزَانُهُمْ صَبَاحًا
فَكُلُّهُمْ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ طَوْبَى لِمَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَا^(٣)
ومن انقسام المجتمع العباسي هذا إلى طبقتين متباينتين في أحوال اليُسْر

(١) الأبيات في المنتظم: ١٧٤ / ٨، معجم الأدباء: ٢٢٨ / ١٢، وفیات الأعيان: ٣ / ٣١٦.

(٢) ضحى الإسلام: ١ / ١١٩.

(٣) بغية الوعاة للسيوطي، ص ٣٢٩ والشعر لابن الفجكردى توفي ٥١٣ هـ.

والعُسر، نشأت المفاصد الأخلاقية هنا وهناك على نحو ما كان في العصر العباسي الأول وأكثر! نشأ الإفراط في الترف والتفنن في اللذائذ والاستهتار وفساد النفس في قصور الموسرين. ونشأ الحقد والحسد والكذب والخديعة في أكواخ المغسرين. وقد رافق انتشار الفقر أيضاً انتشارُ التزهد والتصوف على غير رغبة طبيعية أصيلة فيهما، بل نتيجةً للعجز والفشل واليأس! وكان من آثار ذلك أن عمَّ الدَّجَلُ والتخريف، فتعلّق الناس بالشعوذات والأسباب التافهة في الحصول على العيش بعد أن عزّ الحصول عليه بالأسباب الطبيعية. وكان لهذه الحالة الاجتماعية أثرٌ واضح في الشعر خصوصاً. يقول أحمد أمين:

«إنّ غزارة الأموال في يد الخلفاء والولاة ومَن إليهم، ووفرة عطايهم وقلة الأموال في يد سواهم، جعلت الفنون الجميلة ولا سيّما الشعر لا تزهر إلّا في أحضان الخلفاء ومَن إليهم، وتذبل في غير جَوْهم. لقد كان من المعقول أن يفيض شعور الرجل وتهيج عواطفه وتغلي نفسه، فينطق بالشعر يهدّئ من شعوره ويخفّف من غليانه، لا يرجو من ذلك إلّا إرواءً لعاطفته الفتيّة، وهذا هو كلّ مطمح في الثواب. وكان من المعقول أن يجيد الفتادُ إشباعاً لثمنه الفنيّ، في فقرٍ أو غنى، ورخاءٍ أو شقاءٍ! ولكنّ يظهر أنّ قليلاً كُنْ عندهم هذا السّمُو الفنيّ، وأكثرهم رأى أنّ أبياتاً من الشعر إذا لوحظ فيها ذوق الممدوح - لا ذوق الفنّ - تدرّ عليه من الأموال ما لا يحلم به، وهو إذا أرضى عاطفته وفته عاش عيشة كفاف، فاندفع يطلب هوى الخليفة. وسال السيل كلّه وجرى التيار كلّه، إلّا القليل النادر، نحو القصور. وأصبح الفنانون أداةً من أدوات الزينة وطرفةً جميلة تُحلّى بها الدور والقصور... وكان من نتائج هذا أن أصبح أكبر مجرى يصبّ فيه الشعر هو المديح، وهو باب أبعد ما يكون في نظرنا عن

الشعر. وتعاقب الشعراء يصوغون معانيه السائغة وغير السائغة، حتى ارتشفوا آخر قطرة منها، بينما الأبواب الأخرى من وصف عاطفة سامية، وتحليل لشعور بجمال الطبيعة، ونحو ذلك، لم تمسّ إلا مساً رقيقاً. وكان من نتائج هذا أيضاً، أن مؤرخ الفن في هذا العصر يكاد لا يؤرخ إلا العراق. فأما مصر والشام والحجاز فأدبها أدبٌ خفيف، وشعرها لا يكاد يؤبه له، وكلّ نابغ في شعرٍ أو فنٍّ آخر لا يجد مسترياً لسلعته إلا العراق»^(١).

* * *

أما الدويلات التي نشأت في أعقاب العصور العباسية أو في توالي أيامها، فقد كان فيها التميز الطبقي أعظم وأعمق؛ وكانت المفاصد في الأخلاق الخاصة والعامة أوسع وأبعد. وكان الحكم فيها آلةً لسحق الناس وتهديم القيم الإنسانية التي دعا إليها الإسلام ومات في سبيلها علي بن أبي طالب؛ وشاءتها الشعوب العربية جوهرًا لقوميتها ومظهرًا.

فالدولة الأخشيدية - مثلاً - لم تذهب من مصر إلا والبلاد فريسة للبؤس والشقاء فيما كان آخر ملوكها «أبو المسك كافور الأخشيدي مهجور المتنبي» يملك في أحد قصوره نحواً من ثلاثة آلاف مملوك بين عبدٍ وخصيٍّ وجارية. وكان زعماء هذه الدولة يتهبون كلّ ما تطله أيديهم، ويرهقون الشعب إرهاقاً بليغاً ويقتلون الناس عمداً ليصادروا أموالهم وديارهم. ويروي العيني في «عقد الجمان» خبرَ رقعةٍ وجدت في قصر الأخشيد أيام ذبول هذه الدويلة، كتبها المصريون لتكون شاهداً على ما لحقّ بالعشب المصري من ظلم وعدوان في عهد الأخشidiين. ومما جاء فيها:

(١) باختصار عن ضحى الإسلام: ١/ ١٣٩ - ١٤١.

«وُلِّيتُمْ فظلمتم. وحكمتُمْ فُجُرْتُمْ. وانعكفتُمْ على الذات. فاعملوا ما شئتم فإنَّا صابرون. وجوروا ما استطعتم فإنَّا عليكم بالله مستجيرون!»^(١). وقد قيل في الأخشيذ الأول: «إن في زوال ملكه فرحاً للعالم!».

والخلاصة أنَّ الدولة الأخشيذية شيء تافهٌ جداً. ولولم يشتم المتنبي أحدَ ملوكها كافوراً الأخشيدي ويهْجُهُ فيخلِّده ويخلِّد دولته؛ لَمَا استحقَّتْ هذه الدولة لمظالمها سطرّاً واحداً في مجلِّدات التاريخ الطويلة.

ولا تسأل عما عرفته هذه العصور من الطغيان والفساد والانحلال والموت بأشكاله جميعاً! ولا تسأل عن ملوك بعض الدويلات حين تألَّهوا وادَّعوا علمَ الغيب ومعرفة أحوال الكون! وقد حفظ لنا التاريخ بيتين من الشعر لطريفٍ من الظرفاء هالَه هذا الإذعاء فتهكَّم على المدَّعي، وكتب البيتين المذكورين على قصاصة ورقٍ وعلَّقها على باب المسجد. قال:

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماسة
إن كنت أوتيت علم غيب بيِّن لنا كاتب البطاقة^(٢)
كما حفظ لنا التاريخ أيضاً أبياتاً لعددٍ من المتملِّقين الذين يرضون عن
الحماقات؛ ويتقرَّبون إلى أصحابها منافقين. من هؤلاء مخلوقٌ يدعى
محمد بن بديل قال في أحد الخلفاء:

| | |
|-------------------------------------|---|
| حَلَّ بِرَقَادِهِ الْمَسِيحُ | حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ |
| حَلَّ بِهَا أَحْمَدُ الْمُصْطَفَى | حَلَّ بِهَا الْكَبِشُ وَالذَّبِيحُ |
| حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي | وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ ^(٣) |

(١) ضحى الإسلام: ١/ ١٣٩ - ١٤١.

(٢) وفيات الأعيان: ٣٧٣/٥، سير أعلام النبلاء: ١٦٩/١٥.

(٣) البداية والنهاية: ٣١١/١١ والأبيات لمحمد بن هاني الأندلسي... وليست في ديوانه يمدح بها المعز الدين الله.

ولا تسأل كذلك عما عرفته هذه العهود من القسوة المريعة والظلم الفظيع! ومن ألوان هذه القسوة وهذا الظلم ما كان يحدث في جباية الخراج في مصر؛ إستناداً إلى نظام جائر هو نظام الالتزام. فقد كان كثيرٌ من الملوك يُلزمون جباية الخراج رجالاً يأخذون منهم ثمناً مقطوعاً، فيُطلق هؤلاء الملتزمون العنان لشهوات نفوسهم الخسيسة في الطمع وابتزاز الأموال، فيظلمون الناس ظلماً شنيعاً إذ يفرضون عليهم من أموال الخراج ما يقررونه هم. ولما كان تسعون في المائة من الناس فقراء معدمين لا يستطيعون أن يؤدوا بعض ما يفرضه عليهم الملتزمون؛ كان هؤلاء يلجأون إلى وسائل بربرية لتعذيب الناس، أو يدفعوا ما فُرض عليهم. وهم على كل حال لا يعرفون لماذا يُفرض عليهم هذا المال؟ ومن وسائل هؤلاء الملتزمين الوحشية في تحصيل الخراج، أنهم كانوا يضربون الفقراء بالسياط حتى الموت. وكان من عادة أولئك الملوك أن يُصحبوا موظفي الجباية برجلٍ فقط غليظٌ تقوم وظيفته بأن يجترَ الفقير المطالب بمال الخراج؛ ثم يسحبه على وجهه ويسوطه بشدة، ولا يفارقه حتى تفارقه الحياة!

ومن ألوان هذه القسوة وهذا الظلم أيضاً ما كان يصيب البائسات من الجواري الرقيقات، حين تُجرى عليهم صنوف التعذيب للتسلية أو للمزاح... من ذلك ما يرويهِ السيوطي في «حسن المحاضرة» وغيره من المؤرخين، من أن الملك الظاهر لإعزاز دين الله جمعَ ألوفاً من الجواري، وبنى الأبواب عليهنّ حتى مثنّ جميعاً ثم أضرم النار فيهنّ! ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن إياس من أن الحاكم بأمره سمع يوماً ضجيجاً للنساء بحمام الذهب، فأمر أن يُسد عليهنّ بابُ الحمام بالحجر. واستمرت النساء به حتى مثنّ كذلك. ومنه ما ذكرناه سابقاً من أن المماليك قتل عدة آلاف من الأرقاء للتسلية والتحلية كما

يروي التاريخ.

* * *

ولا تسأل كذلك عن تستر عصابات الحاكمين في تاريخنا وراء ستار مهلهل من الدفاع عن الدين لاستعباد الناس؛ شأنهم في ذلك شأن إخوانهم في سائر أنحاء الأرض. فلطالما تخلص الحكّام في الشرق من المفكرين والأحرار والخصوم عن طريق اتّهامهم بالكفر ومخالفة الشرائع. وطالما ساد الشرق جهلٌ أشدّ حلقةً من دياجير الليالي المظلمات؛ فإذا بالطغاة والمستبدّين يستغلّون هذا الجهل الذي يسيطر على العامة، فيدفعونهم في طريق التعصّب إذا انتفعوا هم به؛ أو يسايرون ما هم فيه من تزمتٍ^(١) مذهبيّ للانتفاع به أيضاً. ولا بدّ من القول: إنّ المفكرين الأحرار في الشرق كان يجري عليهم من المظالم باسم «الدفاع» عن الدين ما كان يجري على المفكرين الأحرار في الغرب. فالفكر الحرّ واحد في كلّ زمان وكلّ شعب. والتعصّب واحد. وكذلك استغلاله لمنفعة الحاكمين والطبقات التي تؤيدها.

«والذي حدث بالفعل هو أنّ رجال السلطة الزمنية في الإسلام قد استجابوا في بعض مراحل تاريخه لتزمت المتعصّبين من أهله، أو انقادوا لتعصّبهم الذميم، أو لحرصهم على مصالحهم، أو لرغبتهم في تملّق الطبقات الدينية واكتساب مرضاة الجماهير. وانطلقوا باسم الدين إلى قتال بعض الطوائف والفرق الدينية ومناهضة رُواد الفكر. ومن هنا دخلت السياسة وتولّت باسم الدين - في كثير من الحالات - اضطهاد الأحرار؛ فكانت مذابح وحروب تشبه ما عرفته المسيحية من مذابح وحروب»^(٢).

(١) تزمت: تعصّب.

(٢) باختصار عن «الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام» للدكتور توفيق الطويل.

وقد مرّت بنا فصولٌ تحدّثنا بها كيف استغلّ رجالُ الحكم في الشرق القديم الدينَ لمنافعهم وحدها؛ فأذوا باسمه الجماعات أشدَّ أذىً وطفوا وبغوا وناقضوا نفاقاً كثيراً. فمسلم بن عقبة يوم نكّل بالمدينة وقتل الألوّف من الأبرياء قتلاً فظيلاً، كان يدافع - فيما زعم - عن دين محمد القائل: «خير الأعمال بذل السلام للعالم». وزياد بن أبيه كان «يدافع» عن الإسلام أيضاً يوم راح يدعو لسيّده معاوية في أرض العراق، وينعت المعارضين بالإلحاد والزندقة، ويصلبهم أو يدفنهم أحياء ويقطع أرجلهم وأيديهم بما أُوتى من قسوة البرابرة. و«دفاعاً» عن الدين قضى عبيد الله بن زياد على الحسين، وجمّع العطش والقتل على أنصاره ومن معه، وهم قلةٌ عديدةٌ معظمهم من النساء والأطفال. والحجّاج بن يوسف السقّاح الأكبر، لم ينقذ خطط الإجرام والتقتيل الجماعي في أهل العراق إلا دفاعاً عن دين أمير المؤمنين كما تزعم خطبته - يعني عن سلطان عبد الملك بن مروان وعن أبنائه وأمواله وعمّاله ومحظياته - . وفي العهد الأمويّ هذا ظهر بالشام رجلٌ يُدعى «نافع بن مروان»، كان ينظر في الأمور ويرى فيها رأيه الخاص. فكان من القائلين بالقدر في ما يتعلّق بالجانب الديني من آرائه. وكان من مذهبه في الشؤون العامة أنّ الخلافة تصلح في غير قريش إذا استوفى الخليفةُ الشروطَ المطلوبة. وهو إلى ذلك رأس المعتزلة في زمانه ومن نوابغ العلماء وأحرار الفكر الذين حاربوا الظلم والظالمين. فلاحقه هشام بن عبد الملك وآذاه، ثم قتله شرّ قتلة «دفاعاً» عن الدين!

واتخذ أبو جعفر المنصور وعامله سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب من الاتهام بالزندقة ذريعةً للانتقام من الأديب العباسي ابن المقفع، وكان ابن

المقفع يخاصم المنصور سياسياً، وينعي عليه ظلمه وجوره، وكان يخاصم سفيان شخصياً فيتهكم به ويرميه بقوارص لسانه في المجالس العامة فيُخزّيه؛ فما كان من الخليفة والعامل إلا أن قتلاه - وهو في شرخ شبابه - قتلاً بشعاً بعد أن رَمياه بالزندقة!

وقتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية، لأنه خشيّه على ملكه. وكانت التهمة الظاهرة أن أبا مسلم زنديق كافر! واتهم المهدي شريكاً القاضي بالزندقة لأنه كان يكره العباسيين. وقتل صالح بن عبد القدوس على الشبهة متهماً إياه بالزندقة. وقتل بشار بن برد بدعوى الإلحاد والسبب هجؤه إياه. ويجمع المؤرخون على أن هذا الخليفة تَوَفَّر على تقطيع الفلاسفة والإمعان في قتال جميع الذين كانوا خطراً عليه. وكانت التهمة في ذلك كله الكفر أو الزندقة.

ومثل الذي جرى لأبي مسلم الخراساني على يد أبي جعفر المنصور؛ جرى للأفشين على يد المعتصم. وكان الأفشين قائد جيوش المعتصم وفتح عمورية وأسر بابك الخرمي؛ وركن الخلافة العباسية في أيامه. فلما أوجس المعتصمُ خيفةً منه لم يجد سبيلاً إلى إهلاكه أسهل عليه من اتّهامه بالزندقة. فألف محكمةً قوائمها هو ووزيره ابن الزيات وابن أبي دؤاد، وحاكموا الرجل، وسرعان ما «تَبَيَّن» لهم أنه زنديق! وكان في جملة التهم التي استندت إليها هذه المحكمة الطريفة في إصاق تهمة الكفر بالأفشين، وفي إدانته، أنه رَفَضَ الاختتان... وهكذا جعل الأفشين في الحبس حيث مات أبشع ميتة. فقد مُنِع عنه الطعام والشراب إلى أن هلك. ولم يكتفِ المعتصم بالتنكيل بالرجل حياً وإهلاكه بالجوع والعطش تحت الأرض، بل بالغَ في إظهار «إيمانه» هو

و«زندقة» الأفشين، فصلَّبه ميتاً ثم أحرَّقه بالنار وفي ذلك غلُوٌّ بالإساءة. ولم يكن «كفر» الأفشين في الحقيقة إلَّا في إنطوائه على خلاف المعتصم. يقول التبريزي: «لم يكن الأفشين كافراً ولا منافقاً، وإنما كان رجلاً من الفرس، اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته، واعتمد عليه في مهام أموره، حتَّى وَكَّلَ إليه مقاتلة بابك الخُرَّمي فمضى إليه في الوَفِّ وأسرَّه. غير أنَّ الحساد أفسدوا بينهما، فذكروا للمعتصم: أنَّه منظوٌّ على خلافك... فأخذه وصلبه وأحرَّقه!»^(١).

والحسين بن الحلاج ظلَّ متمتعاً بحريته إلى اليوم ثَبَّتَ فيه للخليفة أنَّه كان بينه وبين رئيس القراطمة اتفاقٌ سرِّي على قلب الدولة، وعند ذلك قَتَلَه متهماً إِيَّاه بالإلحاد. والتهمة في جوهرها سيايئة خالصة^(٢).

ويقول صاحب «طبقات علماء أفريقيا وعلماء تونس»: «إنَّه قد دارت دوائرٌ على ناسٍ كثيرٍ في أفريقيا من قَتْلٍ وضربٍ كدائرة ابن عروس الذي خُلِعَ لسانه من حلقة. وكأبي العباس بن التستري الشافعي الذي ظُلمَ وعُذِّبَ وأُخذ ماله. ويحدِّثنا كذلك عن رجلين من أهل الخير هما: أبو القاسم مولى مهرويه وعلي السدري، اللذان عُدِّبَا وقُتِلَا وصُلِّبَا بكلامٍ حُفِظَ عليهما في السلطان. وكانت الحجَّة الظاهرة - أبداً - الدفاع عن الدين!

أما الفقهاء فقد اضطهدوا قليلاً وإنَّ كان فيهم مَنْ هم مِنْ أهل البحث والنظر؛ ذلك لأنَّ معظمهم كانوا متصلين بأصحاب السلطان يتملقونهم ويزينون لهم ما يفعلون ويُفتون بما يريدون. ويروي المؤرخون أنَّ كثيراً من

(١) عيون التواريخ: ٨ / ١٠٣، تاريخ الطبري: ٣١٧ / ٧.

(٢) الإسلام والحضارة العربية، ص ٧٥.

هؤلاء رأوا لصديقهم المتوكل العباسي رؤى في المنام تذكر أن الله يغفر له ما يصنع!

أما الذي لم يكن منهم ليوافق السلطان في كل ما يفعل ويقول؛ فكان يلقي جزاءه. من ذلك أن أبا جعفر المنصور ضرب الإمام مالك بن أنس سبعين سوطاً، ولم يرع له حرمة، لأنه لم يكن يرى بيعته شيئاً صالحاً. ولم يكن أصحاب السلطان ليفيدوا من هذه الاتهامات لولا غباء العامة؛ الذي كان يحملها على أن تتعصب لمعتقداتها التي «يحميها» صاحب السلطة، فتؤيده في الانتقام من أعدائه، وتبزر جرائمه التي يرتكبها باسم الدين والدفاع عنه.

وممن نافقوا كثيراً باسم الدين الخليفة المتوكل العباسي الذي فعل الأفاعيل «دفاعاً» عن المعتقد في الظاهر؛ ودفاعاً عن سلطانه في الحقيقة. وقد ذكر الطبري وابن الأثير وسواهما من المؤرخين، أن المتوكل هذا هدم قبر الحسين بن علي في كربلاء، وأجرى عليه الماء، ثم أمر بالمنازل والدور التي حوله فهدمت أيضاً؛ وعاد فحرث أرض كربلاء ومنع الناس الاقتراب منها. والسبب الحقيقي في هذا التعصب على الطالبين هو أنه ظن نفسه قادراً بذلك على استمالة السواد الأعظم من الناس إليه، وهم من غير الطالبين، وإلى استمالة الأتراك بصورة خاصة؛ تهيئة للملك العباسي الذي كان آخذاً بالانهيار في أيامه.

ويروي ابن الأثير ما خلاصته أن المتوكل كان ينادمه ويجالسه جماعة؛ قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلي بن أبي طالب. وأنه كان قد اتصل به يعقوب بن إسحاق النحوي المعروف بابن السكيت، فسأله المتوكل: أيهم

أحب إليك، المعتز والمؤيد - ابنا المتوكل - أو الحسن والحسين؟ فتنقّص ابنُ السكّيت ابني المتوكل وذكّرهما باستخفاف، ثم ذكر الحسن والحسين بما هما أهلٌ له، وعظّم شأنهما، فأمر المتوكلُ خدّمه الأتراك فداسوا بطنه، فحُمِل إلى داره فمات^(١) ولم يجد المتوكلُ بدءاً من اتّهام الرجل بالخروج على الدين القويم...

وقد يصعب في بعض الحالات أن يفصل المرء بين التعصب بمعناه الموضوعي؛ والتعصب الذي يُخفي وراءه مقصداً سياسياً أو انتفاعياً معيّناً. ذلك لأنّ عصور الركود العقلي كانت تجمع بين الإيمان المتزمت والنفوذ السياسي في يد واحدة. فكان المتزمتون يخلطون في ضمائرهم، وفي أكثر الأحيان، بين أسباب الاضطهاد الناجم عن أسلوبهم في الإيمان والاضطهادات الناتجة عن رغبتهم في التخلص من أعدائهم السياسيين أفراداً كانوا أو جماعات. يبيّن أنّ هذا الأمر وإن كان حقيقةً واقعة؛ لا يُلقِي غطاءً على كلّ ما أُرْتُكِبَ من جرائم باسم الدين. فمن هذه الجرائم ما اتّحد بأسبابه الإيمانُ المتزمتُ والمنفعةُ الذاتية. ومنها ما أُرْتُكِبَ باسم الإيمان دفاعاً عن منفعة. ومنها ما أَدَّى إليه التزمتُ الناشئ عن التعاون بين جهل العامة واستنفاع الحكّام.

فهذا رجل من الشام اسمه غيلان الدمشقي، يؤمن بما دلّته عليه تجاربه وبما هداه إليه عقله. وهذا القدر يسوق إليه جماعةً من أهل الشام فيتكلم أمامهم ويجهر بما يرى، وكان مفوّهاً قادراً، فإذا بهم يذهبون من عنده ليُكثرُوا الواقعة فيه والسعاية بسبب رأيه في القدر، وإذا بهشام بن عبد الملك ينزل عند رغبة هؤلاء الموقّعين الساعين «محافظةً» على الدين من جهة... وعلى موالاته

(١) تاريخ بغداد: ٢٧٣ / ١٤، بغية الوعاة: ٤١٨، تاريخ الخلفاء: ١٣٩، معجم الأدباء: ٣٠٠ / ٧، وفيات الأعيان:

القوم له مع عشرين جهة... فيُصدر أمره الشريف بأشع ما يصدر به أمر: بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه وإحراقه. ولو عُرف الرصاص في عهد هشام لزماء بالرصاص أيضاً!

وها هم المؤرخون يُجمعون على أن أظهر ما في تاريخ الخليفة المهدي كان تنكيله بمن يخالف عقائده؛ والفحص عمن طاب له أن يستيهم الزنادقة. وهو أول من أنشأ إدارة خاصة للبحث عن هؤلاء ومحاكمتهم. فقد عيّن رجلاً وكّل إليه أمرهم سمّاه «صاحب الزنادقة». يقول صاحب الأغاني: «لما نزل المهدي البصرة كان معه صاحب الزنادقة، فدفع إليه بشار بن برد، وقال: «اضربه حتى التّف»^(١). ويقول الطبري في إحدى سني هذا الخليفة: «وفيها جدّ المهدي في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم، وولى أمرهم عمّر الكلوازي»^(٢). ويقول المسعودي في المهدي: «إنه أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين»^(٣). ويقول الطبري: «إن المهدي كان يضرب عنق الزنديق ويصلبه»^(٤).

وهو لم يكتف بما أصاب هذه الفئة من الخلق على أيّامه الكريمة بل أمر ابنه موسى الهادي أن ينكل بهم إذا قلّد الأمر، قائلاً له: «فارفع فيها - أي في هذه الفئة - الخشب وجرّد فيها السيف!»^(٥). وكان الهادي على ما أراد أبوه، فلم تمض من أيام خلافته أشهر معدودة ويستتب له الأمر حتى قال: «أما والله

(١) الأغاني، لأبي الفرج الاصفهاني: ١٣٥ / ٣ - ٢٤٩.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٨٩ / ٦.

(٣) مروج الذهب:

(٤) لم نوفق للمثور على هذا النص في تأريخ الطبري.

(٥) تاريخ الطبري: ٤٣٤ / ٦.

لئن عشتُ لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف!»^(١). واشتد في أخذهم بالسيف والخشب، أي بضرب الأعناق والصلب. غير أن أيامه لم تطل، فلم يتمكن من قتل «هذه الفرقة كلها» كما أقسم!

ولما استخلف هارون الرشيد هذا أخذوا أسلافه في تعقب كل من فكر تفكيراً حراً فتكترم هو وسمّاه زنديقاً! وقد قتل من هؤلاء الناس خلقاً كثيراً. والمأمون نفسه، هو أكثر الخلفاء العباسيين تسامحاً وأرحمهم أفقاً، لم يخلُ تاريخه من مظاهر التزمّت المقرون بالمصلحة. فقد روى المسعودي أنه أخبر بوجود عشرة من الزنادقة من أهل البصرة، فطلبهم إليه، ثم قتلهم جميعاً!^(٢)

وكان الواثق يقتل حتى المسلمين إذا أُقيمت عليهم الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه. وممن قتلهم هذا الخليفة: أحمد بن نصر من علماء عصره ومن أحراره. قتلَه وصلّبه ونسب قتلَه إلى إرادة إلهية جرياً على عادة زملائه خلفاء الله في الشرق والغرب ساعة يتعصبون جهلاً وغباءً، أو انتفاعاً وإفادَةً؛ فينسبون جرائمهم إلى الإرادة الإلهية وهم مطمئنون.

وقد علّق الواثق في أذن أحمد بن نصر بعد أن قتلَه رقعةً، جاء فيها: «هذا رأس الكافر المُشرك الضالّ وهو أحمد بن نصر بن مالك مِمَّن قتلَه الله على يدي عبد الله الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه. والحمد لله الذي عبّجَل به إلى ناره وأليم عقابه. وإن أمير المؤمنين قد سأله فأقرّ بالتشبيه، وتكلّم بالكفر، فاستحلّ بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه!» ثم أمر الواثق أن يُتبع مَن وُسم بصحبة أحمد بن نصر ممن كان مشايعاً له فوضّعوا في حبوس مظلمة وضُيق عليهم.

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الطبري: ٣٢٩ / ٧، البداية والنهاية: ٣٣٦ / ١٠.

وكان الخليفة المعتصم، قبل الواثق، قد أحضر أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يُجبه إلى القول بخلقه، فجَلَدَه حتى غاب عن وعبه وتَقَطَّعَ جلده وُقِيْدَ وحُبِسَ.

وحُمِلَ أبو يعقوب البويطي خليفة الشافعي في حلقة إلى بغداد مغلولاً مقيداً، وأريد على القول بخلق القرآن، فامتنع، فحُبِسَ ببغداد إلى أن مات في القيد والسجن. وقُتِلَ ابنُ حَيَّان البستي، وكان من أعلم أهل عصره، بدعوى أنه يعرف بعض العلوم الرياضية! وضُرب خُتَيْب بن عبد الله بن الزبير مائة سوط؛ وكان لَقِيَ العلماء وقرأ الكتب على رواية الرواة. ثم ما كان من الوليد بن عبد الملك إلا أن تكرم وأمر به فبُرِّدَ له ماء في جِرَّةٍ ثم صُبَّ عليه منها في صبيحة باردة فكُرِّ وأصابه انقباض شديد من البرد، فمات في الحال! وصلب محمد بن سليمان بالكوفة رجلاً يدعى عبد الكريم بن العوجاء لأسباب تتعلق بنظره في الدين!

ولعل الاعتداء على ابن رشد، أحد عظماء فلاسفة الدهور، وأحد أقطاب الخير والنبل الإنساني، كفيلاً بأن يعطينا فكرة عن اضطهاد المتعصبين لحرية الفكر، وعن مدى إساءتهم إلى جوهر الحضارة، ثم عن استغلال الدين لمنفعة طبقية ثقيلة الظل من طبقات النافذين. جاء في كتاب «تاريخ فلاسفة الإسلام» لمحمد لطفي جمعة، عن كتب التاريخ، ما يلي:

«كان ابن رشد في السبعين من عمره. وتحزكت أحقاد أعدائه، وقد رأوا الفرصة سانحةً بانصراف المنصور إلى مشايخ الطرق الصوفية، فتسلح هؤلاء الأعداء وأنصارهم من حاشية الأمير - كعادتهم وعادة من مضى قبلهم ومن أتى وسيأتي بعدهم من أعداء حرية العقل الإنساني - بسلاح المدافعة عن شريعة الإسلام. وكان المنصور مقيماً بمدينة قرطبة، وقد امتد بها أمد الإقامة،

وانبسط الناس لمجالس المذاكرة، فتجددت للأعداء آمالهم وقوي تأليبهم واسترسالهم، فأدلوأ بحفيظتهم وأوضحوا للأمير ما شاؤوا من «سيئات» ابن رشد في مؤلفاته، ففُرِثَتْ في مجلس الأمير وتُدُولَتْ أغراضُها ومعانيها وقواعدُها؛ وتمكَّن الأعداء والحساد من تخريجها بما دَلَّت عليه أسوأ مخرج. وقد ذيلوها بمكرهم وسوء طويتهم حتَّى هتجوا الأمير، وأيقظوا قوَّة الشر الكامنة في نفسه بحجَّة المدافعة عن شريعة الإسلام».

ويظهر أنَّ وقيعتهم بابتن رشد كانت علانية في مجلس الأمير، فإنَّ أحد المؤرِّخين يقول: «فلم يمكن عند اجتماع الملأ إلَّا المدافعة عن شريعة الإسلام». ويظهر أيضاً أنَّ أعداء ابن رشد طلبوا إلى الخليفة إهراق دمه لتتنجو شريعة الإسلام من شرِّ ابن رشد، وتعلو بخير هؤلاء المدافعين عن كيانتها الذائدين عن حيانتها!

فلما أخذ أعداء ابن رشد للحملة عليه عُذَّتْهم، آثروا أن يحشروا معه فريقاً من أصدقائه ومريديه وتلاميذه؛ لتكون محنة الحكمة شاملة ونكبةُ الحكماء عاقمة. وأشاروا على المنصور أن يصبغ غضبه بصبغة الدفاع عن الملة لتكون النكاية بالحكماء أشدَّ واللوم على الواقعة بهم أخف. فأمر المنصور طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين؛ وتعريف الملأ بأن ابن رشد ومن معه مرقوا من الدين وأنهم استوجبوا اللعنة جهاراً^(١).

وأحضر ابن رشد وأصحابه وتلاميذه إلى المسجد الجامع بقرطبة حيث كان مجلس المحاكمة، ووقف الخطيب أبو علي بن حجاج، يوجه التهمة إلى ابن رشد وأصحابه، وخلاصتها: أنَّ هؤلاء قد مرقوا من الدين وخالفوا عقائد

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام، محمد لطفي جمعة، ص ١٣٥ - ١٣٦.

المؤمنين باشتغالهم بالفلسفة وعلوم الأوائل. غير أن الخليفة المنصور آثر الرأفة بابن رشد وأتباعه من أحرار الفكر، فلم يقتلهم عملاً بما طلب إليه «المدافعون» عن الدين.

وبهذا الصدد يقول مؤلف «تاريخ فلاسفة الإسلام».

«... لكن هذا لا يقلل من غضبنا على الذين حاكموا ابن رشد. فإن الاضطهاد مردوئاً في كل زمان ومكان، وأنصاره محتقرون وملعونون بكل لسان ما داموا يتسلحون بالدفاع عن الدين في محاربة العقل؛ لأن الدين لم يأمر بالتعذيب والقتل والنفي في سبيل نصرته. ولكن الجهال وأهل الضلال والفتن هم الذين يشفون غليلهم ويثجون صدورهم المتقدة بنار الغيظ والحسد باسم الدين والملة والشريعة وهي منهم بريئة»^(١).

ومن الذين حفظ لنا التاريخ أسماءهم ومن حقّه أن يطويها ويُلقي عليها ألف غطاء، مخلوق يدعى الحاج أبو حسين بن جبير، كان في عداد الذين سخرهم المتعصبون والمستنفعون ضدّ حرية الفكر؛ لينتقموا من ابن رشد عن طريق الهجو والتعنيف والتشهير. ومن خزعبلاته هذه الأقوال:

| | |
|--------------------------|------------------------|
| الآن قد أيقن ابن رشد | أن تأليفه توالف |
| يا ظالماً نفسه، تأمل | هل تجد اليوم من توالف؟ |
| لم تلزم الرشديا ابن رشد، | لما علا في الزمان جدك |
| وكننت في الدين ذارياً | ما هكذا كان فيه جدك |
| كان ابن رشد في مدى غيّه | قد وضع الدين بأوضاعه |
| فالحمد لله على أخذه، | وأخذ من كان من أتباعه |

ومنها:

(١) تاريخ فلاسفة الإسلام، ص ٢٤٠.

نفذ القضاء بأخذ كلّ مضلل متفلسفٍ في دينه، متزندقٍ بالمنطق اشتغلوا فقليل حقيقة، إنّ البلاء موكلٌ بالمنطق وقال هذا المخلوق يمدح المنصور في ما أصاب المفكرين الأحرار على يديه الكريمتين من نفيٍ وتعقبٍ واضطهاد:

بلغت، أمير المؤمنين! مدى المنى لأنك قد بلغتنا ما نؤملُ
تداركت دين الله في أخذ فرقة بمنطقهم كلّ البلاء موكلُ
أقمتهم للناس يُبْزأ منهم، ووجه الهدى، من خزيهم، يتهللُ
وأوعزت في الأقطار بالبحث عنهم

وعن كُتُبهم، والسعي في ذاك أجملُ
وقد كان للسيف اشتياقٌ إليهم
ولكن مقام الخزي للنفس أقتلُ
وآثرت درء الحد عنهم بشبهة

لظاهرِ إسلام، وحكمك أعدلُ
ونجا عمر الخيام الشاعر الفيلسوف الفارسي من اضطهاد العامة والملوك بشيء من التقية. «ولما قدح أهل زمانه في دينه، وأظهروا ما أسر من مكنونه، خشي على دمه، وأمسك في عنان لسانه وقلمه، وحجّ متاقاةً لا تقية»^(١).
وغريبٌ كيف نجا مثل أبي العلاء المعري على ما بدر في شعره ونشره من فلتاتٍ ينكرها فريق المتعصبين. ولعلّ الأصل في نجاته كونه زاهداً حقيقة، لا ينازع أرباب المذاهب الدينية في شيء من دنياهم...

ومأساة لسان الدين ابن الخطيب الشاعر الأندلسي المشهور، شاهدةٌ بهذا

النوع من التعصب المقيت. فقد تتبّع أعداء هذا الشاعر كلماتٍ زعموا أنّها صدرت عنه في بعض تأليفه، فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضي غرناطة فسجّل عليه بالزندقة. ثم أحضروه في مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء، وعظّموا عليه النكير في ما كتب، ووبّخوه ونكّلوا به وامتحنوه بالعذاب. وأفتى الفقهاء بقتله، فدخلوا عليه السجن فخنقوه وأحرقوه. وأدّاه من مأساة ابن الخطيب مأساة ابن الراوندي الذي مجّد العقل كأعظم ما يكون التمجيد!

ولم يقتصر التعصب في هذه العصور بالشرق على أصحاب السلطان وعلى العامة؛ بل تعدّاهم إلى كثيرٍ ممّن هم أرقى وأجلّ شأنًا من الملوك ومن كافة الأفراد، وأعني بهم بعض المفكرين والفلاسفة. فكما رأينا أن نابغةً أوروبياً كالفيلسوف توما الاكوينى كان يجيز التعصب للدين على حرية الفكر؛ فإننا نرى كذلك نابغةً عربياً كالفيلسوف الغزالي يجيز مثل هذا التعصب، فقد كفر الغزالي الفلاسفة، ونعت مجهوداتهم العظيمة بأنّها «ردائل كفرهم» قائلاً في كتابه المنقذ من الضلال: «..... إلا أنّه^(١) استبقى من ردائل كفرهم وبدعتهم^(٢) بقايا لم يوفق للنزوع عنها. فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفين الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما».

ولم يجد الغزالي بداً، على جلال قدره في التفكير، من أن يصف العلوم الرياضية بأنّها من الآفات، فقال يزجر العامة عن تعلّمها والأخذ بها: «فهذه

(١) الضمير يعود على ارسطو في كلام سابق.

(٢) يقصد سقراط وأفلاطون ومن قبلهما من فلاسفة الإغريق.

آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم، فإنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم - أي علوم الفلاسفة - يسري إليه شرهم وشؤمهم، فقلّ من يخوض فيه إلا وينخلع من الدين وينحلّ عن رأسه لجام التقوى»^(١).

أما في كتاب «تهافت الفلاسفة» فإنّ الغزالي يشنّ الغارة بعنفٍ أشدّ على الفلسفة والفكر الحرّ، ويكفر الفلاسفة ويتوعدهم بالنار ويستنزل عليهم سخط البشر ويثير عليهم الجمهور!

ولن نتحدث طويلاً عن أحوال العالم العربي في عصر الانحطاط؛ لأنّ الحديث مهما طال لا يمكنه أن يصف هذا العصر وأهواله. لذلك نكتفي بالقول بأنّه عصر التفرقة الطائفية بين الناس عن قصدٍ وتصميم، وعصر تقتيل العلماء، وإتلاف النفوس، وإقتراف المظالم، وارتكاب المحرّمات، والتسابق إلى الترويع والتفطيع. ويلخص محمد كرد علي أعمال التعصّب في عصور الانحطاط بقوله هذا:

« ... في هذه العصور قُتل الأذكى والباحثون في أوقاتٍ مختلفة في فارس والعراق والشام ومصر وإفريقيا وغيرها، يُتهم أكثرهم في دينهم، ويُسألون بضع مسائل ضئيلة الشأن، فإذا كان في أجوبتها بعضُ العهدة بحسب فهم المسيطرين تُقطع أعناقهم، ويُصلّبون! ».

وبهذا الهول الأكبر - أيّ التعصّب وآثاره المخزية - انقطعت الرغبات في البحث واستعمال الفكر إلا في الدائرة المعيّنة الحدود والأوصاف التي

(١) المنقذ من الضلال للغزالي : ص ٩١.

قزروها. وأنشأوا يحزمون، علناً، بسائط علم الفلسفة كالطبيعيات والرياضيات، بل والتاريخ وتقويم البلدان. فضعفت ملكة هذه العلوم وضعفت العقول معها.

ويقول المرتضي اليماني في «إيثار الحق على الخلق» هذا القول الحكيم: وزاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما خوفُ العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق وما زال الخوفُ مانعاً من إظهار الحق، ولا برحَ المحقِّ عدوّاً لأكثر الخلق! وثانيهما تفاخُسُ الجهل!

هذا قليلٌ جداً من كثيرٍ جداً من سلسلة المآسي التي أحكمها التعصب في الشرق ضدَّ حرية المعتقد وحرية الرأي السياسي، فكان التقتيل والتشريد والتحريق والتخريب من آثاره وصُنِعَ يديه.

ولن نتحدث كذلك عن المذابح العامة التي جرت في الشرق لمصلحة الحكام باسم الدين؛ فأمرها مشهور وأسبابها معروفة كذلك.

والخلاصة أن أسباب التعصب وإن كثرت وتشعبت وكانت لها أصولٌ في سياسة الحاكم ورجل الدين وموقف العامة، لا تجد ما يجمعها إلا وكلمة واحدة هي الجهل! فإن أنت أمعنت النظر في أيِّ العصور كان التعصب أشدَّ وكانت جرائمه أكثر، برزت لعينيك صورُ الانحطاط؛ سواء أكان ذلك في الشرق أو الغرب. وفي ذلك ما فيه من عبرة؛ نفيذ منها اليوم في عصر انبعاث النهضة العربية على أيدي الشعوب العربية.

ما مُتَّعَ غنيٌّ إلا بما جاع به فقير. والفقير غريب في بلده. وإن الدنيا دار صدقٍ لمن صدَّقها. وكلُّ إنسانٍ نظير لك في الخلق. والحاكم واللّه والناس أبنائوه. ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً. والإنسان مرآة الإنسان هكذا قال علي بن أبي طالب عملاق

الشخصية العربية والتاريخ العربي.

أما هذه المآسي الإجتماعية والإنسانية، فقد تقررت وخطت في لوح الوجود العربي، وانطلقت صورها وأشكالها، وأصبح لها في الشرق دولة وسلطان، منذ اللحظة التي تجسم فيها إثم النزعات الطبقية عدواناً مسلحاً على ابن أبي طالب، وعلى دستوره الاجتماعي الجليل، إسكاتاً لصوت العدالة، وكبتاً لثورة الضمير الحي، وإستعباداً لجهد الشعب؛ واعتداءً على إنسانية العبقريّة العربية الممثلة بحكيم الكوفة العظيم!

خطان علويّ و سفينيّ

- وهذا الصراع الطويل الذي صوّره صراعاً بين العرب والموالي، إنما كان في حقيقته صراعاً بين فئة قليلة ترعى مصالحها وحدها، وفئات كثيرة مغلوبة على أمرها، فهو في روحه ومعناه صراع اجتماعي أولاً وآخر! - أرقّ عبد الملك بن مروان ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدثه فقال السمير: كان بالموصل بومة وكان بالبصرة بومة، فخطبت بومة البصرة بنت بومة الموصل لابنها، فقالت لها بومة الموصل: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجلي صدّاق ابنتي مائة ضيعة خربة! فقالت بومة البصرة: لا أقدر على ذلك، ولكن إن دام ولأثنا سنة أخرى أتيتك بما تريدن!

أصبحت مفاهيم السياسة والحكم وما إليهما تجري في خطين لا ثالث لهما: فإما أن تسير في الخط العلويّ وإما أن تتعثّر في الخط السفينيّ. وقد عرف التاريخ الإنساني من الصراع بين هذين الخطين ما يوجزُ قصّته كلّها أو يكاد. ولعلّ الصفحات العربية من التاريخ العامّ أحفل من سواها بهذا الصراع العنيف، الذي انشطر به المتصارعون فئتين: فئة لا ترى في الحكم إلا أداة منفعة ووسيلة إثراء ومركب سلطان، وفيها الحكّام والإقطاعيون والوارثون والمتملقون وسائر النخاسين. وفئة ثانية تريد الحكم آلة تُمكن الحاكم من القضاء على الفقر والجهل، ومن صيانة العدالة وكرامة الإنسان، وفيها الشعب والأدباء والمفكّرون وأهل الخير. وقد ينحاز بعض هؤلاء إلى الفئة الأولى إما

جهلاً وإما انتفاعاً. وقد ينحاز إلى الفئة الثانية بعض أولئك لأصالة في التفكير أو لصفاء في الوجدان أو لكليهما جميعاً، ولكن هذا الـ «بعض» ظلّ في التاريخ بعضاً ولم يصبح كُلاً على الإطلاق.

ومن هذا الواقع يتضح لنا أمرٌ لا يقبل الجدال فيما نرى، وهو أنّ هذا الصراع الطويل بين الفئتين، إنّما كان في أعماقه صراعاً اقتصادياً اجتماعياً؛ وإن كان ظاهره سياسياً في أغلب الأحيان ودينياً بعض الأحيان. ذلك لأنّ الغاية البعيدة في كلّ عملٍ سياسيٍ إنّما هي غايةٌ اجتماعية، سواء أكانت واضحةً في ذهن صاحبها أو غير واضحة؛ وسواء إن اعترف بها لسانه أو أنكرها.

وإذا صحّ هذا الرأي - وهو فيما نرى صحيح - أدركنا وجوه الخطأ الكثيرة التي وقع بها بعضُ الباحثين في التاريخ العربي، ساعة تصدّوا لدراسة الثورات التي قامت في العالم العربي باسم الدين، وهي في حقيقتها ثورات سياسية ذات أهداف اجتماعية. وساعة تصدّوا كذلك لدراسة أحوال العرب والموالي في المجتمعات العربية القديمة، فإذا بهم يقسمون الناس تقسيماً عنصرياً يبنون عليه ويستنتجون منه. وساعة رأوا في التشيع لعليّ بن أبي طالب مظهراً مذهبياً لا علاقة له إلا بالدين والعقيدة.

أما التشيع لعليّ بن أبي طالب فهو ذو معنى أجلّ ممّا يشير إليه بعضُ الباحثين من معانٍ، لذلك سنخصّه ببحثٍ آتٍ، نفصل فيه معانيه ونُظهر مقدار إرتباطها بالإنسانية العربية. وأمّا الثورات التي قامت هنا وهناك وهي ثورات اجتماعية في معظم بواعثها، فسوف نشير إليها إشارةً تكفيها لأن نعرف مقدار ما يجري في عروقها من الدم العلويّ، ومقدار ما لنهج عليّ من أثر في غاياتها. وأمّا الصراع بين العرب والموالي، فهو ما نودّ أن نرى فيه رأينا الآن، وأن نردّ مظاهره إلى أصولٍ نرجح أنها الأصول الصحيحة؛ لإبراز ما يختفي وراء هذه

المظاهر من عوامل إقتصادية وإجتماعية لا تمتّ في حقيقتها البعيدة بصلة إلى الأوهام العنصرية التي يتحدّث عنها المتحدّثون.

وإنّما يعني هذا بالبحث في أحوال العرب والموالي، لارتباطه بأبحاثنا عن حقيقة القومية وما يُحييها ويُنميها أو يؤذيها ويسّيء إليها، ثمّ للظلال الواسعة التي ألقته شخصية علي بن أبي طالب على مدى تاريخنا، ففاضل في أكنافها المناضلون ضدّ ألوان الظلم جميعاً وبها اهتمدوا وإليها لجأوا، ثمّ للتفسيرات الخاطئة التي تبنّاها المفسرون، فإذا هم لا يؤثرون من مسلك الحكّام العرب الأوائل إلّا الوجوه التي تُبعد عن العروبة مميّزاتها الإنسانية، التي بها وحدها تستمرّ وتحيا. وإذا هم لا يريدون من المواطنين إلّا وأن يطرحوا من ذواتهم كلّ كرامة وكلّ رجاء، وأن يعملوا جاهدين ثمّ يتخلّوا عن لقمة الخبز، راضين مختارين؛ لتبتلعها أشداق فاجرة تُمسك السلطان بيدٍ وتمسك بالأخرى رقاب العباد.

ما هو الولاء ومَن هم الموالي؟

الولاء في اصطلاح السابقين: حالة متوسطة بين الرق والحرية. فالرق إذا أُعتق لا يستردّ حرّيته كاملةً بل يظلّ مرتبطاً بسيّده السابق ارتباطاً ليس ارتباط العبد بمولاه ولا ارتباط الحرّ بالحرّ، وإنّما هو صلة بين الرق والحرية، وهو بذلك صورة من الرق مخففةً جداً.

والموالي في اصطلاح السابقين: هم الذين أسلموا من غير العرب. وهؤلاء إمّا أن يكونوا في السابق أسرى حرب استرقوا ثم أُعتقوا إعتاق ولّاء، وإمّا أن يكونوا من أهالي البلاد المفتوحة ومن أبنائهم، فإذا هم يوالون العرب ويدخلون في طاعتهم ويصبحون موالي بهذه الموالاة وهذه الطاعة.

هؤلاء الناس الذين سمّاهم السابقون موالي ما لبثوا أن استعربوا ودخلوا

في صميم الوجود العربي، فعملوا مع العرب وخدموا الدولة العربية وأدخلوا على المجتمع العربي جديداً من العمران، وعلى الفكر العربي جديداً من المعرفة، وأتقنوا العربية حتى أصبحوا أساتذتها، ونظموا الشعر وألفوا في العلوم والفلسفات، وكانوا أسياداً وأغنوا الشخصية العربية بما أتقنوا ونظموا وألفوا وعملوا، وصهروا عقولهم ووجداناتهم بعقول عربية ووجدانات عربية، وخلفوا لنا تراثاً، هو في جملة التراث العربي لا ينفصل عنه ولا يمسحه، بل يتحد به ويضيف إليه حسناً.

وهؤلاء الناس الذين سبّاهم السابقون موالي هم الذين تألفت منهم فيما بعد المجموعة العربية، وهم اليوم أشد الناس حماسة للقومية العربية ورغبة في بعثها وإصلاح حالها. وفي هذا ما يدلنا على صحة ما ذكرناه سابقاً من أن العنصرية لا تدخل في شيء من أشياء الوجود القومي. بل إن الشواهد كثيرة على أن الدعوة إلى الأخذ بالمبدأ العنصري في الحركات القومية إنما هي سحق لهذه الحركات، وتقويض لأركان القومية الصحيحة المعافاة. فماذا يحل بالقومية العربية اليوم - مثلاً - لو أن السوريين أو المصريين أو العراقيين أو غيرهم من أبناء الأقطار العربية راحوا يبحثون عن أصولهم البعيدة، ليعرفوا أن بعضهم ينحدر من أصل آشوري، وأن بعضهم من أصل بابلي أو رومي أو فينيقي أو فرعوني أو عربي أو صليبي أو ما إلى ذلك؟

إن طبيعة القومية السليمة قد حتمت على هؤلاء أن يشعروا بأنهم عرب، فلفتهم واحدة وتاريخهم مشترك ومصالحهم الاقتصادية متعاونة، وآمالهم واحدة والمجاري الروحية التي تنظم حياتهم متشابهة ومصائرهم مترابطة، وهم بذلك كله أبناء قومية واحدة.

أو ليس بلال الحبشي أكرم عروبة من سفيان بن حرب؟

أَوْ ليس سلمان الفارسي أنبلَ عروبةً من زياد بن أبيه؟
 أَوْ ليس ابن المقفع أشرفَ عروبةً من ألف سقاح كأبي العباس؟
 أَوْ ليس طارق بن زياد فاتح الأندلس أصدقَ عروبةً من سيده العربي
 موسى ابن النّصير، وقصة الرجلين معروفة؟
 أَوْ ليس صلاح الدين الأيوبي أروعَ عروبةً من ألف ملكٍ ينحدر من
 أصل عربيٍّ «عريق!»؟
 أَوْ ليس ابن الرومي أجملَ عروبةً من مليون مجرم، كمروان بن الحكم
 والمهدي والمتوكل ومن إليهم من العرب «الأقحاح»؟^(١)
 أَوْ لم ينفع حمّادُ الراوية العروبةَ بما حفظ لها من تراثها الأدبي القديم،
 فوق ما «نفعها» جميع «الغيورين» على العروبة من أولئك المنحدرين من
 أصل عربي، وهم بين جواربهم لاهون، ومن جهود الفقراء بالعُون؟
 وفي الزمن الحاضر، هل تختلف هذه المقاييس؟

وعلى هذا الضوء يمكننا أن نتحدّث عن الموالي في التاريخ العربي.
 سيطر الموالي على الحركات الفكرية في البلاد العربية منذ الزمن الأوّل
 الذي بدأ فيه استعراهم؛ ولا غرابة في ذلك فقد كانوا ورثة حضاراتٍ قديمة، لم
 يكن العرب المقبلون من الجزيرة قد عرفوها بعد. أمّا مظاهر نشاطهم في
 العمل الفكري فقد برزت في كلّ الميادين بلا استثناء. وإليك بعض أعمالهم
 في العلوم العربية الخالصة أولاً، ثم في ما يليها من مجالات النشاط الفكري:
 عرفت البلاد العربية في إسلامها الأوّل طائفةً من علماء الموالي في الفقه
 والحديث؛ وقفوا في طليعة القوم ووصفوا بالجلالة وكثرة العلم. من هؤلاء
 سليمان ابن يسار مولى ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج النبي، وقد عاش في

(١) الأقحاح: جمع القَحْ، الخالص في اللزوم والكرم، قُح: أي محض خالص. الصحاح: ٣٩٤/١، مادة «قحح».

المدينة وتوفي في خلافة يزيد بن عبد الملك، وكانت له شهرة واسعة في العلوم العربية حتى عُذَّ في الدرجة الأولى بين الفقهاء السبعة. ومنهم نافع الديلمي مولى عبد الله ابن عمر، وكان عبد الله قد أصابه في إحدى الغزوات. وممن تتلمذوا على نافع هذا الإمام مالك بن أنس المعروف.

ومنهم ربيعة الرأي مولى آل المنكدر من تميم، وهو فقيه المدينة الأكبر في زمانه؛ وعليه تتلمذ الإمام مالك بن أنس فوق ما تتلمذ على سواه. ومن علماء مكة الموالي مجاهد بن جبر مولى بني مخزوم، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء ابن أبي رباح مولى بني فهر، ومحمد بن مسلم بن تدريس مولى حكيم بن خزام.

وممن اشتهر من علماء الموالي الأولين في الكوفة: سعيد بن جبيرة مولى بني والبة. وفي البصرة: الحسن بن يسار مولى زيد بن ثابت، وابن سيرين الفقيه الشهير، والحسن البصري صاحب المكانة الجليلة في تاريخ العلوم العربية في زمانه.

واشتهر من أهل الشام مكحول بن عبد الله، وكان أبوه من أهل هَرَارة، وكانت أمه ابنة ملك من ملوك كابول. ومكحول هذا هو معلّم الإمام الأوزاعي، صاحب الفتاوى الشهيرة في ضرورة التأخي بين الناس، أية كانت أجناسهم وأديانهم.

وممن عُرف من العلماء الموالي في مصر يزيد بن حبيب مولى الأزد، وكان صاحب الفتوى في مصر. ويزيد هذا بربري الأصل، قال فيه الليث بن سعد: «يزيد عالمنا وسيدنا»^(١). وإنما استحق ذلك لعلمه الواسع في التاريخ، ثم لمقدرته في الفقه وأبوابه. ثم إليك ما جاء في العقد الفريد بهذا الصدد:

(١) تذكرة الحفاظ، للذهبي: ج ١ ص ١٢٩ تحفة الاحوذى: ج ٤ ص ٥٣ سبيل الهدى والرشاد: ج ١ ص ١٧٠.

«قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى وكان دياناً شديداً العصبية للعرب: مَنْ كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم مَنْ؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليّان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ. قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم، ومحمد بن المنكدر، ونافع بن أبي نجيح. قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالٍ. فتغيّر لونه، ثم قال: فمن أفتقه أهل قُباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن أبي الزناد. قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي. فارتدّ وجهه، ثم قال: فمن فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وابن منبه. قال: فمن هؤلاء؟ قلت: من الموالي، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً، قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه ترُّبداً واسوداداً حتّى خِفْتُه، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول. قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى. قال: فتنفّس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفه لقلْتُ الحكم بن عتبة وعمّار بن أبي سليمان، ولكن رأيتُ فيه الشرّ، فقلت: إبراهيم النخعي، والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عريّتان. قال: الله أكبر. وسكن جأشه»^(١).

ومن العلوم العربية الخالصة التي أتقنها الموالى وأصبحوا من ساداتها في صدر الإسلام: علوم اللغة العربية نفسها. فمن اللغويين الموالى أبو بحر عبد الله بن إسحاق مولى بني عبد شمس. وقد بلغ به تضلّعه من العربية أن راح يأخذ مأخذ لغوية على الفرزدق الذي قيل في شعره، لعروبه الصريحة، «لولا شعر

الفرزدق لَذْهَبَ ثُلُثُ لُغَةِ الْعَرَبِ»^(١). ومن شعر الفرزدق في هجو عبد الله هذا، قوله:

فلو كان عبد الله مولئى، هجوئته
ولكن عبد الله مولى مواليا^(٢)
ومن اللغويين الموالي أيضاً عيسى بن عمر النحوي مولى خالد بن الوليد.
وكان عيسى هذا من أئمة النحو؛ ألف في أبوابه وأسراره نيفاً وسبعين مصتفاً.
وبرع الموالي كذلك في الرواية والأخبار ومعرفة أنساب العرب وأيامهم
وأشعارهم ولغاتهم. وفي طليعة هؤلاء حماد الراوية المشهور، الذي تدين له
آدابنا العربية بحفظ أصدق ما في تراثها الأدبي، وأشدّه لصوقاً بالحياة، وأدلّه
على حقيقة الإنسان العربي والمجتمع العربي، في عهدٍ معين من عهود التاريخ،
وأعني به: الشعر الجاهلي. ومثل حماد في الرواية: خلف الأحمر وأبو عُبَيْدة.
واتصال الموالي بقديمهم المدني أعدهم لألوانٍ أخرى من النشاط؛ لم
يكن العرب قد عرفوها بعد. يدلنا على ذلك أنّ الصحابة استكثروا من الموالي،
يستخدمونهم في بيوتهم لمهارتهم في إدارة شؤونها، وفي أعمالهم لقدرتهم
على تصريف هذه الأعمال. وقد أبدى هؤلاء الموالي من المقدرة التجارية ما
جعل مَنْ كان تاجراً من الصحابة أن يستخدمهم في أعماله؛ ويكل إليهم أموره
انتفاعاً بمعرفتهم وبما ورثوه من آباءهم من الحس التجاري.

والخلاصة أنّ الموالي كانوا متفوقين على العرب في صدر الإسلام، في
كثير من مجالات النشاط الفكري والعمراني والمدني. وقد اعترف الخليفة
الأموي سليمان بن عبد الملك بهذا التفوق، قال: «عجبت لهؤلاء الأعاجم،
ملكوا ألف سنة؛ فلم يحتاجوا إلينا ساعة. وملكنا مائة سنة؛ فلم نستغن

(١) رسالة في معنى المولى للمفيد: ص ٢٤.

(٢) تاج العروس: ج ١٠ ص ٣٩٩. لسان العرب: ج ١٥ ص ٤٠٩.

عنهم ساعة»^(١).

وخاطبَ عمر بن عبد العزيز قوماً تذمروا من تقدُّم الموالي عليهم في الفقه والقضاء واللغة والتاريخ وسائر علوم ذلك الزمان، قال: «ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صُعداً وأنتم لا تسمون!».

وهكذا مهَّد الموالي الطريق إلى النهضة العلمية الواسعة في العصر العباسي؛ هذه النهضة التي كان الموالي أيضاً من أسسها وأركانها. والكلام على ما عمله الموالي بالعصر العباسي في مضامير الحضارة أكثر من أن يستوعبه مجلد خاص. والفائدة التي جناها العرب من اتحادهم بهؤلاء الأعاجم أجل من أن يُبحث فيها بفصلٍ أو فصولٍ قلائل. والنصيب الذي أسهم به الموالي في التراث العربي الذي وصلنا من آبائنا القدماء، أوفر من أن يُحصى هنا وأشهر من أن يُعرَّف. لذلك نكتفي بذكر بعض الأسماء التي برع أصحابها في مختلف ميادين النشاط الفكري، إشارةً إلى قيمة ما أسهم به الموالي في التراث العربي. ففي علوم اللغة نذكر من الموالي: قطرب، وابن الأعرابي، وأبا عليّ القالي، وأبا أحمد العسكري، والجوهري. وفي النحو: سيبويه، والكسائي، والفراء، وابن السكيت، وأبا العباس ثعلبا، وابن خالويه، وابن جني، وابن دستوريه. وفي الرواية والخبر: معمر بن المثنى، وأبا عبيد القاسم بن سلام، وأبا عمرو الشيباني، وفي السيرة والحديث: محمد بن إسحاق، وابن جريج، وسفيان بن عيينة، والسمان، وابن نافع الصنعاني، والبخاري الشهير. وفي الفقه: الإمام الشهير أبا حنيفة، ومن أصحاب الأئمة محمد بن الحسن الشيباني، وعبد الرحمن بن قاسم. ومن علماء الكلام: واصل بن عطاء مؤسس المعتزلة. وفي الفلك والرياضيات والطب والفلسفة نذكر: البيروني، وابن ماسويه،

وابن سهل، والفارابي، وابن سينا، والرازي، والسرخسي، والخوارزمي.
وفي التاريخ والجغرافية نذكر: الاصطخري، وابن فضلان، والواقدي،
وعمر بن شبة، ومحمد بن حبيب، وابن طيفور، واليعقوبي، وابن البطريق،
وحمزة الإصفهاني، ومسكويه، والمقري، وأبو الفداء، والطبري.
وفي الأدب نذكر: ابن أبي الدنيا، وقدامة بن جعفر، وابن عبد ربه، وأبا
بكر الصولي، وأبا بكر الخوارزمي، وابن رشيق القيرواني، وبدیع الزمان
الهمداني، وابن المقفع، وسهل بن هارون، والثعالبي، والجاحظ!
وفي الشعراء: والبة بن الحباب، وأبا نواس، وأبا دلامة، وأبا العتاهية،
وبشار بن برد، وسلم الخاسر، ومروان بن أبي حفصة، وحماد عجرد،
وحسين بن الضحاک، وأبان بن عبد الحميد، وابن منذر، والرقاشي، وديك
الجن، والعكوك، ومحمد بن يسير الرياشي، والعتابي، وابن الرومي، وكشاجم،
ومهيار الديلمي، والطغرائي.

ولا يستغربنَّ القارئ إذا قلنا: إنَّ ما أنتجه هؤلاء والكثير غيرهم من موالي
العصر العباسي، قد لا يُذكر إلى جانب ما أفادته العروبة من مخالطة الأعاجم
المستعربين في أطوارها الإنتقاليَّة من البداوة إلى الحضارة. فجميع ما عرفه
العرب من علوم الإغريق والهنود والفرس والروم والكلدان والمصريين
القدماء وغيرهم، إنَّما دخل عليهم عن طريق الأعاجم المستعربين. فالطب
والجراحة والصيدلة وإنتاج العقاقير والهندسة والجبر والحساب والفلك ورصد
النجوم والكيمياء وسائر علوم الطبيعة عند الأقدمين، إنَّما نقلها الموالي إلى
العربية وبرزوا فيها قبل أن يعرفها العرب الأصليون ويُسهِّموا في إتقانها.
وأكثرها ما عرفه العرب من فلسفات الشعوب وأنظمتها وقوانينها إنَّما عرفوه
عن طريق الموالي أيضاً. وكذلك القول في روح العمران وفي أشكاله. وقد

أفادت اللغة العربية بفضل هؤلاء الموالي من المفردات الجديدة والتعابير المستحدثة ما جعلها أفضل وعاء لاستيعاب العلوم والمعارف في العصور السابقة. يقول أحمد أمين:

«ولو ظلت الأمة الإسلامية أمةً عربية فقط، لرأينا فيها أمثال الخوارج وأمثال المرجئة، ولكن ما كنا نرى فيها المعتزلة - مثلاً - وأبحاثهم الفلسفية ومذاهبهم العميقة!»^(١).

وأما ما جعل الموالي يتفوقون على العرب في هذه المظاهر الحضارية بالعصرين الأموي والعباسي، فلا يعني شيئاً إلا ما أشرنا إليه من أسبقية هؤلاء الموالي إلى الأخذ بأسباب الحضارة. فهم أبناء شعوب متحضرة - نسبياً - مرّت بأطوار كثيرة من البداوة والغفلة قبل أن تتركز على حب المعرفة وعلى توجيه النشاط في طريق التمدّن. أما العرب فكانت صلتهم بالبداوة ما تزال قريبة؛ لذلك لم تكن ملكة البحث العلمي وغيرها من الملكات التي لا تنشأ ولا تنمو إلا في المجتمعات المتحضرة، قد شبت لديهم ونمت. وهم عندما استقروا في أواخر العصر العباسي وهُيئت لهم الإمكانيات الزمنية والمكانية؛ باتوا ينافسون الموالي في الإبداع الحضاري، وكثيراً ما كانوا يتغلبون عليهم. وهكذا كانت حالهم أيضاً عندما استقروا في الأندلس، فقد تركوا وراءهم تراثاً عظيماً يشير إلى تمكّنهم من حمل رسالة المعرفة ومسؤولية الحضارة.

ولنعدّ إلى واقع الموالي في العصور العربية القديمة. هؤلاء الموالي أصبحوا مع الزمان عرباً تجتمع فيهم كل الشروط الكافية، التي يصحّ بها انتسابهم للقومية العربية، أو للوطن العربي؛ بناء على ما تقدّم البحث فيه من حدود القومية وشروطها ومعانيها. لذلك كان من الطبيعي - في

(١) ضحى الإسلام: أحمد أمين ج ١ (باب ثقافات العصر العباسي).

منطق المصلحة العربية ذاتها - أن يقف هؤلاء المستعربون الراضون عن استعرابهم، مع العرب المقبلين من الصحراء، على قدم المساواة. لا يتأخرون عنهم بأعجمية أصلهم، ولا يتقدمون عليهم بتفوقهم في ألوان المعرفة. زد على ذلك أن الإسلام نفسه يأمر بهذه المساواة.

ولكن هل عاملهم الحكام العرب على أساس من المساواة؛ التي لا يقوم بدونها مجتمع ولا يعيش وطن ولا تثبت قومية ولا تصفو بين المواطنين قلوب؟

لم يكن الأمويون ليعترفوا للموالي بحق من الحقوق، التي يتمتع العرب بنصيب ضئيل منها. ذلك لأن بني أمية سلكوا مع العرب مسلك أسرة تريد أن تحكم بالقوة كما رأينا، ومع الموالي مسلك المستعمرين الذين يأكلون المستعمر ساعة يكون صالحاً لأن يؤكل، ويرمون به في عرض الطريق ساعة لا نفع منه يرتجى. وقد مر بنا قول معاوية في الموالي وهم مئات الألوف من البشر لهم عقول وقلوب وأبدان: «فقد رأيت أن أقتل - منهم - شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق». ولو لم يرده الأحنف بن قيس عن هذه الفعلة لنقذ ما رأى، ولقتل من الخلق عشرات الألوف.

وإليك فصلاً من معاملة الدولة الأموية والمتأثرين بها، لهؤلاء الموالي الذين أصبحوا عرباً وعملوا جاهدين في سبيل مجتمعهم الجديد.

عرفنا أن السياسة الأموية أثارت العصبية القبلية الجاهلية بين العرب؛ على أسلوب يؤذي العرب وينتفع به بنو أمية على أسلوبهم الخاص في الانتفاع. ولكن السياسة الأموية أثارت من العصبية ما هو أشد وأدهى على الموالي. ولما كانت العامة لا تعي مصالحها الحقيقية يومذاك؛ فقد نجح الأمويون نجاحاً كثيراً في إذكاء هاتين العصبيتين: العصبية القبلية بين العرب، والعصبية

العنصرية بين العرب ومواطنيهم الأعاجم المستعربين.

وأيسر دليل على العصبية القبلية في العهد الأموي ما يروى عن رجل من قبيلة الأزد: أنه كان يطوف بالكعبة وهو يدعو لأبيه، فقيل له: ألا تدعو لأُمك؟ فقال: إنها تميمية! أما العصبية ضد الموالى فبعض مظاهرها أن فئات من العرب لم تكن تحسب الإساءة إليهم إلا شيئاً عادياً لا يحسب له حساب.

ففي الحروب التي كان الموالى يشتركون فيها مع العرب جنباً إلى جنب، كان العرب يركبون الخيل ولا يسمحون للموالى بذلك؛ بل يرغمونهم على القتال راجلين. ومعنى ذلك أنهم يأنفون مساواة الموالى لهم حتى ساعة يقاتل الموالى في سبيلهم، وأنهم يؤثرون أن يبيدوهم قبل أن يصاب عربيٌّ بأذى. وقد حدث ذلك بالفعل في معارك كثيرة كانت تدور بها الدائرة على الراجلين وحدهم، وهم من الموالى، فيبادون عن بكرة أبيهم، فيما ينجو من الموت معظم الراكبين.

وذكر صاحب العقد الفريد: أن العرب في عهد بني أمية كانوا لا يكتون الموالى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب. وأنهم كانوا لا يمشون في الصف معهم ولا يؤاكلونهم، وإن حضروا طعاماً وجب على الموالى أن يقفوا على رؤوس العرب كالخدم. وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى نفسها ولا إلى أبيها أو أخيها، وإنما يخطبها إلى العربي الذي تنتسب له بالولاء. وإذا زوّجت فتاة من الموالى بغير رأي أسيادها السابقين فُسخ عقد الزواج في الحال.

وكان العربي يتزوج من بنات الموالى، ولكنه لا يزوّج الموالى من بنات العرب. وروى الجاحظ أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاة، فوقف في هذا الزواج فقال: «أما بعد، فإن الله أعز وأجل من أن يُذكر في زواج هذين

الكلبين. وقد زوّجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة».

وإذا تجزأ المولى على الزواج بفتاة عربية وبلغ أمره إلى الوالي طلقها منه في الحال، كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء؛ فإنهم جاؤوا الروحاء فخطب إليهم أحد مواليتها إحدى بناتهم فزوجه. فوشى محمد بن بشير الخارجي إلى والي المدينة بذلك، ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. وفي ذلك يقول محمد بن بشير يمدح هذا العمل الحقير وهذا الوالي:

قضيت بسنةٍ وحكمت عدلاً ولم تـرِثِ الحكومةَ من بعيدٍ
وفي المثـئين للمولى نكـالاً وفي سلب الحواجبِ والحدود^(١)

وكان بعض القادة العرب يقولون إذا بلغهم نبأ يخبر بمقتل مولى أو أكثر في معركة: قُتل كلب... أو كلبان... أو كذا كلاب! وكان العرب يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو مولى أو كلب. ثم يستعملون كلماتٍ شنيعة للحط من قدر الموالي. ووضعت السياسة الأموية في أذهان العرب: أن الموالي إنما خُلقوا لخدمتهم لا لشيء آخر. يدلنا على ذلك: أن عربياً تخاصم مع أحد الموالي بين يدي ابن عامر صاحب العراق، فقال له المولى: «لاكثر الله فينا مثلك! فقال له العربي: بل كثر الله فينا مثلك. فقل له: أيدعو عليك وتدعو له؟ قال: نعم، يكسحون طرُقنا، ويخرزون نعالنا ويحكون ثيابنا!»^(٢).

وبالغ العرب في ازدراء الموالي إلى حد جعلهم يحتقرون أولادهم إذا كانت أمهاتهم من الموالي، على نحو ما كانوا عليه في الجاهلية. وكانوا يرون في هؤلاء الأبناء نقصاً وعبثاً لا لشيء، إلا لأن أمهاتهم غير «أصيلات» أي

(١) المثئين: إشارة إلى السباط المائتين. سلب الحواجب والحدود: إشارة إلى تنف الحية والحاجبين.

(٢) الموالي في العصر الأموي: ص ٤٠.

غير عرييات. وكانوا يستمنونهم هُجَنَاء، إشارةً إلى هذا «النقص». وأريدك أن تستمع إلى عبد الملك بن مروان - أحد فطاحل الخلفاء الأمويين على زعم الزاعمين - كيف يهجو رعاياه من الهجناء، يقول:

ألم أنْهَكُم أنْ تحملوا هُجَنَاءكم على خيلكم، يومَ الرهان، فتُدْرِكُ
وما يستوي المرءان: هذا ابنُ حُرّةٍ وهذا ابنُ أخرى ظهرها متشركُ
وتضعفُ عضداه، ويقصرُ سوطُهُ وتقصر رجلاه فلا يتحركُ
وأدرِكُه خلّاتُه، فنزغته، ألا إن عرق السوء لا بُدَّ يُدْرِكُ^(١)

ولما تزوّج عليّ بن الحسين بن عليّ المعروف بزين العابدين امرأةً أعجمية؛ كتب إليه عبد الملك بن مروان يعيّره بذلك. فردّ عليه زين العابدين بما أفحّمه. وكان الحسين بن عليّ فيما سبق قد تزوّج بامرأة أعجمية كذلك، هي أمّ زين العابدين المذكور، فكتب إليه معاوية يقول: «من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن عليّ. أما بعد، فإنه بلغني أنك تزوّجت جاريتك وتركْتَ أكفءك من قریش ممن نستحسنه للوُلْد ونمجد به في الصهر، فلا لنفسك نظرت ولا لولّدك انتقيت!» فكتب إليه الحسين يقول: «... فلا لوم على امرئ مسلم إلّا في أمرٍ ماثم، وإنّما اللوم لوم الجاهلية»^(٢).

«ولم تكن نظرة العربي للمولى نظرة ازدراء فحسب. ولكنها كانت ممتزجة بكثير من البغض والكراهية. ويروي ابن سعد في ذلك: أنّ الشعبي مرّ معه صالح ابن مسلم فوجدا حَتَاداً بالمسجد وحوله أصحابه من الموالى ولهم ضوضاء وأصوات فقال: والله لقد بغض إليّ هؤلاء هذا المسجد حتّى تركوه أبغض إليّ من كناسة داري»^(٣).

(١) الموالى في العصر الأموي: ص ٤٠.

(٢) تهذيب الأحكام للطوسي: ج ٧ ص ٣٩٧ كتاب الزاهد للكوفي: ص ٦٠.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٦ ص ٢٥١.

«وليس أدلّ على مدى كراهيتهم للموالي من أنّ أصحاب مصعب بن الزبير قد اقترحوا عليه حينما استسلمت إليه جيوش المختار أن يقتل الموالي ويطلق سراح غيرهم. ولقد علق بعض مؤرخي الفرنجة على هذا الحادث بقولهم: «ولا شك أن محاولة قتل الموالي من الأعاجم وإطلاق سراح العرب السجناء تدلّ على أن الصفة البارزة لهذا العصر تتجه نحو العصبية. ونحن نقرّ هذه الملاحظة ولا نرى فيها شيئاً من المبالغة، حيث إنّ المصادر العربية الرئيسية كلّها تشير إلى مثل ذلك»^(١).

وقد حملت العصبية أولياء الأمر من العرب إلى اختلاق أحاديث تؤيد هذه النزعة، فوضعوا ما وضعوه منها ونسبوه إلى الرسول القائل: «الناس سواسية كأسنان المشط!»^(٢).

أما المسؤولية الأولى في خلق هذه العصبية ضدّ الأعاجم المستعربين وفي إذكاء نارها، ثمّ في محاولة توطيدها على أساس من الأحاديث الموضوعية والمنسوبة زوراً إلى الرسول، وهو أجلّ وأعظم من أن تُنسب إليه أحاديث تؤيد العصبية. فواقعة على السياسة الأموية التي بدأت منهجها بيعث العصبية القبليّة القديمة بين العرب، هذه العصبية التي انطلقت من دائرة الأسرة ومصالحها لتشتدّ بأنانيّتها على القبائل العربية البعيدة عنها، ثمّ لتشتدّ أكثر على الأعاجم الذين تودّ هذه الأسرة أن تأخذهم بما يأخذه الفاتح البلاد المفتوحة، والمستعمر المستعمر.

هذه المصلحة الأموية، التي قسّمت العرب فيما بينهم أقساماً متناحرة متفانية، ثمّ قسّمت المجتمع العربي قسمين: عرباً وموالي، كانت شراً خالصاً على الفكرة القومية العربية ذاتها، إذ جعلت مصلحة طائفة من المواطنين تقوم

(١) الموالى في العصر الأموي: ص ٣٨ - ٣٩، عن الطبقات الكبرى لابن سعد، وعن الطبري.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٣٧٩/٤، كنز العمال: ٣٨/٩.

على بؤس طائفة أخرى، ثم جعلت مصلحة الأسرة الحاكمة تقوم على بؤس الطائفتين جميعاً، فاستوت القبائل العربية ببؤس القتال والعمل والفقر، واستوى العرب والموالي بهذا البؤس أيضاً؛ وإن كان نصيب الموالي من البؤس أوفر. وإليك نماذج من السياسة الاقتصادية والمالية التي اعتمدها الأمويون لترى فصولاً من الجور الذي لحق بالموالي وبالعرب جميعاً، ثم لترى في هذه السياسة أصولاً مباشرة، أو غير مباشرة لما أصاب الموالي من مظلمة اجتماعية تحدثنا عنها منذ قليل.

كان محور السياسة الأموية المالية: سرقة المجتمع العربي ونهب خيراته. ولم يدخل في هذه السياسة أي عنصر من عناصر الإسلام، الذي يأمر بالعدل والمساواة، كما أنه لم يدخلها أي مبدأ من شأنه أن ينفع العرب ويحسن إلى فكرة القومية العربية. وأول ما يدلّك على سياسة النهب والاعتصاب هذه: اختيار الخلفاء عمالاً أجلاً قساة تعشش الجريمة في نفوسهم وعقولهم على السواء، وتمكنهم من استعراض الآدميين استعراض الجزارين للغنم. ونماذج هؤلاء العمال السفاحين: زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق، وعبيد الله بن زياد عامل يزيد على العراق، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك وابنه الوليد على العراق، وأخوه محمد بن يوسف عاملهما على اليمن، وخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك على العراق، وابنه يزيد بن خالد، ويزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقيا، وغيرهم ممن هم على سيرتهم.

وكان الخلفاء يطلقون أيدي العمال في نهب الناس؛ فيشتد هؤلاء على الموالي وعلى العرب وعلى أهل الذمة وعلى المسلمين جميعاً. وإن كانت محنة الموالي على أيديهم أقسى وأرهب. وكانوا يمتدحون من هؤلاء الولاة

أشدّهم نكايّةً وأكثرهم تقتيلاً، ويقربونه ويوصون به أبناءهم خيراً. وكانوا إذا أشار عليهم بعضُ العَمّال بالتخفيف عن كواهل الناس لئلا يموت الناس جوعاً، يوبخونهم ويأمرونهم بالشدّة والحزم. مثال ذلك: ما فعله سليمان بن عبد الملك حينما استشاره أحد عمّاله بالتخفيف قليلاً عن الموالي وعدم إرهابهم، فإنّه قال له في الحال: «احلبِ الدرّ فإذا انقطع فاحلبِ الدم!».

وسياسة المال هذه هي التي دفعت عبيد الله بن الحبحاب متولّي الخراج على مصر من قبل هشام بن عبد الملك، إلى أن يزيد الضرائب على أهل الذمة في مصر؛ فما كان من هؤلاء - وكانوا ما يزالون هم السواد الأعظم - إلا أن ثاروا، فحاربهم الأمويون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. «وقد حدث نحو ذلك على يد أسامة التنوخي متولّي الخراج من قبل هشام أيضاً. ولذا كثر الالتجاء إلى الرهينة في أيامه فراراً من الضرائب القاسية. فأراد أن يمنع ذلك فأحصى الديور والرهبان كافة ووسّم أيدي الرهبان بحلقةٍ من حديد فيها اسمُ الراهب واسمُ الدير وتاريخه، فكلّ مَنْ وجده بغير وسم قطع يده. وألزم كلّ نصراني بمنشور يحمله يدلّ على أنه أذى ما عليه. وكتب إلى العَمّال بأن كلّ مَنْ وُجد من النصراني وليس معه منشور أن يؤخذ منه عشرة دنانير. ثم كبس الديارات وقبض على عدّة من الرهبان بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم بالسياط حتّى ماتوا تحت الضرب»^(١).

وهذا الأسلوب في وسم الأيدي إنّما أخذه أسامة بن زيد التنوخي عن الحجاج بن يوسف الذي بدأت محنة الموالي تتسع وتتضح على يديه، وكانت سياسة الأمويين الماليّة هي السبب في هذه البداية. فإنّ الحجاج حين رأى سكّان ولاياته الأصليّين يُقبلون على اعتناق الإسلام كي تُرفع الجزية عن

(١) الموالي في العصر الأموي ص: ٥٣ - ٥٤ عن الخطط للمقرئزي .

أعناقهم، خشى نقص الأموال من خزانة الدولة، تصرف مع هؤلاء المسلمين الجدد تصرفاً لا يأمر به الإسلام ولا يُقرّه؛ إذ ألزمهم بضريبة الجزية التي تسقط عن المسلمين، وألزمهم بضريبة الخراج، كما كان الأمر قبل إسلامهم. وكان يقول لهم: «أنتم علوج وأعاجم»^(١).

ثم وجههم إلى القرى والضياع، ونقش على يد كلٍّ منهم اسم البلدة التي وجهه إليها. وكتب عمال الحجاج إليه أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد دخلوا في الإسلام ولحقوا بالأمصار، فوجه إليهم أمراً يقول فيه: إن كل من أسلم منهم وله أصل في قرية فليخرج إليها. ذلك كي يجبرهم على العمل في خدمة بني أمية؛ حيث يشتغلون ثم يدفعون إنتاجهم خراجاً وجزية إلى مترفي بني أمية. فخرج الناس وجعلوا يبكون وينادون النبي كي يغيثهم وينشلهم من هذا الجور وهذا الاستبداد. وجعلوا لا يدرون ما يفعلون وأين يذهبون. فجعل قراء المدن يخرجون إليهم متقنعين خشية بني أمية فيبكون لما يسمعون منهم ويرون.

وكان أسامة بن زيد التنوخي المشار إليه ظالماً حقيراً غاشماً معتدياً؛ يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به. وكان يعاصره عامل أموي على إفريقيا أشد بغياً منه وأحقراً، هو يزيد بن أبي مسلم الذي يروي المؤرخون أنه كان بليد الذهن غليظ الكبد شديد الجور مخالفاً للحق، ويتظاهر مع ذلك بالصلاح ويكثر الذكّر والتسبيح، ويأمر القوم فيكونون بين يديه يُعذّبون أبشع عذاب وهو يقول: سبحان الله والحمد لله! شد يا غلام موضع كذا وكذا فكانت حالته تلك شرّ الحالات.

وقد «اخترع» ولاية بني أمية شتى أساليب الجور وألوان البغي في تحصيل

(١) العلوج جمع العليج وهو في اللغة: الحمار، وقد أطلقه بعضهم على كثر الجمجم. لسان العرب: ٣٢٦/٢، مادة «عليج».

الضرائب من الموالي الذين سقطت عنهم بالإسلام. ومن هذه الأساليب ما كان يلجأ إليه بعض العمال مع موالي إفريقيا الفقراء. فإنَّ مَنْ قصرت يده من هؤلاء عن أداء ما فُرض عليه ظلماً وعدواناً؛ ألزَمَه الولاة بتسليم نسائه وأولاده وإخوانه لكي يبيعوهم في أسواق النخاسة لسداد الضرائب.

وما كان هؤلاء العمال والولاة ليرتضوا بأن يستأثر ملوك بني أمية بأموال الناس من دونهم هم؛ لذلك راحوا يختزنون ثرواتٍ كثيرةً لأنفسهم، أسوةً بأسيادهم الذين أطلقوا أيديهم في مصائر الموالي والعرب على السواء. ومن هؤلاء العمال مَنْ لم تكن أموال الضرائب على كثرتها لتفي بمطالبهم... كما يدلنا كتابٌ بعث به أمية بن عبد الملك إلى عبد الملك بن مروان قائلاً فيه: «إنَّ خراج خراسان لا يفي بمطبخي»^(١). ولطالما ردّد عمال بني أمية أمثال هذه العبارات: «السواد بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركناه... وإنما أنتم خزانة لنا ... الخ».

وأصيب هؤلاء العمال بنهمٍ عجيب في ابتزاز الأموال وفي الاستكثار منها، حتّى باتوا لا يقضون ليالهم ولا همّ لهم إلّا «التفكير» في أساليب جديدة لامتصاص آخر قطرات الحياة من دماء الرعايا... ومن هذه الأساليب أنّهم كانوا يفرضون على الناس أن يقدّموا لهم الهدايا من مختلف ما تحت أيديهم وفي كلّ المناسبات. ولم يكن صغار الولاة بأقلّ من كبارهم حرصاً على جمع المال وتذرّعاً بمختلف الوسائل للحصول عليه. وإليك إحدى هذه الوسائل الطريفة:

وليّ أعرابيّ البحرين فجمع يهودها وقال لهم: مَنْ قتل المسيح؟ قالوا: نحن قتلناه. فقال لهم: وَمَنْ صَلَبه؟ قالوا له: نحن صلبناه. فقال الأعرابي: لا بأس

(١) تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٢٧٥ وفيه: إن خراج خراسان لا يقيم بمطبخي.

عليكم، فهل دفعتم ديتَه؟ فقالوا له: لا. فقال لهم: والله لن تخرجوا من هنا أحياء إلا إذا دفعتم ديتَه! ولم يمكنهم من الخروج من عنده حتى دفعوا له ما أراد.

ونهج أمويو الأندلس مع موالها نهج الأمويين في الشرق. وعرف موالي الأندلس من البربر المسلمين ما عرفه موالي الشرق من صنوف الازدراء والاحتقار والغصب والاستعباد. فقد كانت الحكومات العربية في الأندلس تؤثر العرب بسكنى الأقاليم الخصيبة والأرض المنتجة وتمنع الموالي سُكناها، وتحملهم قسراً على الإقامة في الأقاليم الشمالية المجذبة الموعرة الفقيرة المليئة بالأخطار والأهوال؛ حيث تغدو وتروج عصابات الأسبان المسلحة. هذا مع أن الفضل الأكبر في فتح الأندلس هو لهؤلاء الموالي: طارق بن زياد مولى موسى بن النُصير، ولجيشه من البربر.

بهذا الأسلوب من العصبية الحمقاء أخذ الأمويون الموالي. وقد حاول بعض الباحثين أن يروا في هذه العصبية ميلاً من الأمويين إلى إثارة العنصر العربي على المستعربين المنحدرين من عناصر أعجمية، وأن يروا في هذا الميل إعزازاً لفكرة العروبة أو القومية العربية.

أما الواقع الذي نراه نحن فذو وجهين: أما الوجه الأول: فهو أن في هذه العصبية إساءة كبرى إلى فكرة العروبة. فإذا اعتبرنا أن هؤلاء الموالي ليسوا عرباً - وأننا لا نريد أن يكونوا عرباً - فليست القومية السليمة من هذا الجانب استعباداً ولا استعماراً ولا ظلماً ولا غصباً. بل هي تعاونٌ وأخذٌ وعطاء. والقومية التي لا تُعطي مكتوبٌ عليها الفناء، كتلك التي لا تأخذ سواء بسواء!

وإذا اعتبرنا أن هؤلاء الموالي عرب - وهم عربٌ استناداً إلى المفهوم الصحيح للقومية، كما رأيناه في الفصول السابقة، وإلى حقيقة الموالي الذين

اندمجوا بالشخصية العربية وأخذوا منها وأعطوها وساكنوها العرب، وبنوا وإياهم مجتمعاً واحداً، ثم أنتجوا أروع ما في التراث الفكري العربي - فليست القومية من هذا الجانب استئساد فئة من القوم على فئة، ولا استئثار طبقة من الناس بالخيرات دون طبقة، ولا تحكم قوي بضعيف، ولا إقامة مجتمع على أساس من الآكل والمأكول.

وأما الوجه الثاني: فهو أن السياسة الأموية في حقيقتها ليست سياسة عربية، حتى ولا سياسة قبلية، وإنما هي سياسة أسرة من العرب، تريد أن تحكم العرب والموالي، وتنهب خيراتهم وتأكلهم جميعاً، فإذا هم متساوون من حيث إنهم أدوات إنتاج لهذه الأسرة. وهي سياسة تتركز في الدرجة الأولى على جمع المال والقوة والسلطان في يد واحدة، يُمكنها أن تسند من يواليها ويؤيدها من العرب والموالي، وتبطل من يعارضها، وتخفق المجموعة الفقيرة من الجانبين نهباً لما تحت أيديها من المال والغلال. فهي من هذه الناحية سياسة طبقية خالصة.

وإذا كان الأمويون الحاكمون قد آثروا عربياً على أعجمي، فإنما كانوا ينزعون عن مصلحتهم الطبقية لا عن شيء سواها، إذ حسبوا أن العرب أقرب إلى موالاتهم وتأيد ملكهم من هؤلاء الموالي، ذلك لأن العصبية القبلية التي كانت ما تزال قائمة بروحها وجوهرها، والتي بعث الأمويون ما كان قد خمد منها أو كاد، كانت كفيلةً بجذب هذه القبائل إليهم عن طريق زعمائها الذين يرشوهم الأمويون ويطلقون أيديهم في ما يريدون؛ فإذا بهم يحملون قبائلهم وعلى أعناقهم السيوف لنصرة الخليفة وأسرته. أما الموالي فقد كان الصعب اجتذابهم عن هذه الطريق لأنهم لم يكونوا يتبعون نظاماً قبلياً يسمح للأمويين باستخدامهم عن طريق رؤسائهم وزعمائهم.

وعلى كل حال، فإن مصلحة الأسرة الأموية وطبقة الولاة والعمال والوجهاء وكبار الأثرياء، لم تكن لتتدغم إلا بإيثار فئة من الناس على فئة توليها على رقابها، وتستأثر عن طريقها بالخيرات، وتحافظ بواسطتها على امتيازاتها. يؤيد رأينا هذا في أن سياسة الأمويين إنما كانت سياسةً عائليةً طبقيةً محورها اقتصادي، لا سياسة عربية في خدمة المجتمع العربي، أو العنصر العربي كما يلقق الملققون؛ ما ذكرناه سابقاً من أن ملوك بني أمية وعمالهم كانوا يمدون أيديهم إلى دهاقنة الفرس ويؤيدونهم ويقدمونهم على العرب، ساعة يضمن لهم هؤلاء الدهاقنة نهب الطبقات الشعبية من الفرس ومن العرب أيضاً، ويكفونهم «تعب» سلب الأرزاق وابتزاز الأموال، فكان ملوك بني أمية وولاتهم والدهاقين الفرس، ينعمون بالامتيازات الاقتصادية والاجتماعية، ويثرون ويكنزون الأموال، ويتصرفون بالأرزاق والأعناق، على حساب العامة من الفرس والعرب.

وقد أدرك أحد الفرس الأذكاء هذه الطبقة التي تسيّر المجتمع الأموي يومذاك، وتضع الخطوط العامة والتفاصيل لهذه السياسة الطبقة - لا العربية - ، إذ وقف يحادث صديقاً عربياً له ويشكو كل منهما إلى الآخر فقره وفقر الجماعات، ويتكاشفان أخبار المصالح التي تجمع بين دهاقنة الفرس ووجهاء العرب، فقال الأعجمي للعربي «الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم!».

أما السبب الحقيقي فيما رأيناه من احتقار العرب للموالي؛ فلم يكن في نفوس العامة من العرب. لأن العامة في كل شعب من الشعوب قوم طيبون شرفاء يتوجهون إلى الخير مُسرعين إذا وُجِّهوا إليه. وهم في أكثر الأحيان يقبلون هذا التوجيه ويؤثرونه. وإنما كان من خطة القواد ورأي الوجهاء

وسياسة الطبقة الحاكمة. فحين أبعاد الأمويون العامة عن روح الإسلام الداعي إلى الإخاء والمساواة بين جميع الناس، وأثاروا في نفوسهم العصبية الجاهلية حتى لا يعودوا يرون خيراً إلا في الانتساب إلى قبائلهم وحدها، وأطمعهم بالخيرات تأتيهم من الغزو والفتح، ولا تأتي الموالي وإن كانوا شركاءهم في القتال، رأوا من اليسير عليهم أن يسايروا رؤساءهم في احتقار الموالي كما يحتقرون فيما بينهم من لا ينتسب إلى قبائلهم.

ولو سارت السياسة الأموية على غير هذا الخط الذي صوّرنه لاتجه العرب غير هذا الاتجاه مع الموالي، ويدلنا على تأثير مثل هذا التوجيه في نفوس القوم الخبر التالي:

لما فتح الرسول مكة أمر بلالاً الحبشي حتى أذن على ظهر الكعبة. فقال عتاب بن أسيد هذا القول الجارح: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم! وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سهيل بن عمرو: إن يُرد الله شيئاً يغيره. وقال سيد الوجهاء أبو سفيان قولاً آخر. فزجرهم محمد عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالناس وقال: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم!»^(١) فإذا بالعرب يُكرمون بلالاً الحبشي ويحترمونه ويساوونه بأنفسهم أكرم مساواة.

لقد كانت «عروبة» بني أمية كـ «فرنسية» لويس الرابع عشر، و «انكليزية» شارل الأول، و «روسية» قياصرة موسكو، و «إيطالية» آل مديتشي في فلورنسا، و «ألمانية» غليوم الأول! أما «إسلامهم» فأشبه ما يكون بـ «مسيحية» الكسندر بورجيا، وابنه قيصر، وشارل الخامس.

أما «القومية» عند هؤلاء جميعاً فلا تعني شيئاً، إلا مجموعة من العبيد

(١) أسباب النزول للواحي: ص ٢٦٤ مجمع البيان للطبري: ج ٩ ص ٢٢٦.

البائسين، تكدح في سبيل العلف لحصان الملك!
وأما «المسيحية والإسلام» عندهم فلا يعنيان شيئاً، إلا خضوع هؤلاء
العبيد البائسين، واستكانتهم الأبدية لظلّ الله على الأرض!
إنّ الاستبداد هو آفة القومية الكبرى، لأنّه آفة إنسانية. ولا يستطيع أن
يكون قومياً مَنْ لا يكون إنسانياً! كما أنّه لا يكون إنسانياً مَنْ لا يكون قومياً!
شريطة أن تكون ركيزة قوميته الأولى: العمل من أجل رفع الحاجة عن الناس
الذين يتألف منهم القوم، تمهيداً لإشاعة الفضائل الإنسانية التي تعطي هذه
القومية معناها الجميل وقيمتها الصحيحة.

إنّ الذين اضطهدوا المجموعة العربية في التاريخ، سواءً فيها مَنْ انحدر
من أصلٍ عربي أو غير عربي، قد أساءوا كلّ الإساءة للقومية العربية، وأبعدوها
في عهودهم عن معانيها الأصيلة، وأنهكوها وأذلّوها، وأفقروها وأجاعوها
وعزّوها من كسائها، وجردوها من خصائصها الإنسانية - المادية منها
والمعنوية - وجعلوها مغنماً سهلاً لكلّ طامعٍ في أكلها، سواءً أكان هذا الطامع
فرداً أو جماعة، عربياً أو أجنبياً.

ولعلّ أروع ما يصوّر لنا النهاية الفاجعة التي تصير إليها القوميات ساعة
تتولّأها العصبية، وتسيطر على مجتمعاتها طبقةٌ من المستبدين المنتفعين بهذا
الاستبداد وهذه العصبية، الخبر التالي الذي نطق به الأمويون أنفسهم،
وصاحب الدار أدري بالذي فيها.

أرقّ عبد الملك بن مروان ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدّثه فقال
السمير: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومةٌ وبالبصرة بومة. فخطبت بومةُ
البصرة بنتَ بومة الموصل لابنها، فقالت لها بومة الموصل: لا أُجيب خطبة
ابنك حتّى تجعللي صداقَ ابنتي مائة ضيعةٍ خربة. فقالت بومة البصرة: لا أقدر

على ذلك، ولكن إن دام وُلأُنا سنةً آتيتُك بما تريدن!
وإلى المنتصرين للسياسة الأموية الحمقاء، من الكتاب المعاصرين
الباحثين في القومية العربية وأحوالها، نردّد ما قاله الموالي إلى أشرس بن
عبد الله، أحد عمّال بني أمية على الناس:

- على من تجور في هذه الأرض وقد أصبح الناس عرباً؟^(١)
إنه يجور على العرب أنفسهم لمصلحة طبقة من الحكّام والوجهاء، الذين
تسمّموا بداء الوجهاء وداء العصبية الطبقية منذ أيام عثمان.
وبهذا الجور آفة القومية! وبالثورة على الظلم انتقامٌ لشرف
القومية ومعناها!

وبهذا الجور يبدأ الخط السفيناني في فلسفة السياسة والحكم، وبه ينتهي!
وبهذه الثورة يبدأ الخط العلوي ويستمرّ، لأنّ الحياة والوجود والأنظمة كلّها
إنما هي قوىّ ثائرة أبداً، متطورة إلى ما لا نهاية له!

(١) بحار الأنوار: ج ٦١ ص ٣٣٢ نقلاً عن (سراج الملوك) لأبي بكر الطرطوسي .

مع الثائرين

- والناس في آدم مستون، وإنّ النفس لتلثاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت! وقد بُني الإنسان على خصال، فمهما بُني عليه فإنه لا يُبنى على الخيانة والكذب!

جعفر الصادق

- أنت، والله، وأشباهك تُخرجوني غداً حتى يُسفك دمي

محمد بن ابراهيم

- وعرف التاريخ في الشرق والغرب عهداً لا همّ فيها للحكام المنافقين، إلاّ تحصيل حقّ الله القويّ من الإنسان الضعيف!
- لم يكن التشيع في التاريخ مأوىً يلجأ إليه المخزبون كما زعم بعض الكتاب المعاصرين؛ وإنما كان مؤنلاً يندفع إليه المضطهدون ويجمعون فيه، ويكافحون طغيان الحاكمين وطبقية المحتكرين، من أجل مجتمع سليم من العصبية، يكون لأبنائه جميعاً من غير تمييز. وهو بذلك تشيع ذو طابع اجتماعي صريح!

بهذا الهول الأكبر اضطبغت حياة الموالي على أيدي الأمويين في الشرق والغرب، فراحوا من الاحتقار والقسوة والاستبداد يتخبّطون في ظلماتٍ كثيفة؛ أطبقت عليهم من كلّ جانب. فطفقوا يتلمّسون طريقاً للنجاة من هذه الدياجير على غير رجاء. وما أصابهم على أيدي الأمويين أصاب السواد الأعظم من العرب وهم بستان قريش ... يُقتلون وتُنهبُ أرزاقهم ويُباع أبنائهم لثملاً أشدّاء الولاة بأشلائهم وتظلّ مفتوحةً فاغرة.

وفيما كان الناس وؤلاًتهم في العصر الأموي على نحو ما وصفهم أحدُ

الشرفاء، إذ قال: «تركّتهم بين مظلوم لا يُنتصف، وظالم لا ينتهي»^(١) أطلّ عليهم صبحٌ من الأمل، كان مبعثه ذلك الوجه العظيم عمر بن عبد العزيز الآخذ بنهج عليّ، وأحد الأُسُس العميقة الجذور في أرض القومية العربية المصفّاة من كل غشٍّ وكلّ خداع.

وسمع الناس عمر بن عبد العزيز يقول: «وددتُ أنّ أغنياء الناس اجتمعوا فردّوا على فقرائهم حتّى نستوي نحن وهم، وأكون أنا أولهم! ووددتُ أن نأكل من كسب أيدينا!».

ورأى الناس عمر بن عبد العزيز يعمل بما يقول. سمعوه يقول ما قاله عليّ ابن أبي طالب، ورأوه يعمل ما عمله. وذكروا أنّه كان يتأفف من الإدارة الأموية قبل أن يبايع، وأنّه كان يراها ظلماً قائماً على ظلم، وأنّه قال مرّة لأسامة بن زيد التنوخي وقد بعثه سليمان بن عبد الملك إلى مصر وحثّه على توفير الخراج: «ويحك يا أسامة! إنك تأتي قوماً قد ألحّ عليهم البلاء منذ دهرٍ طويل، فإن قدرت أن تُنعمهم فأنعمهم!»^(٢). ثمّ رأوه وقد وليّ أمرهم، فتنفّسوا الصعداء ولبثوا ينتظرون الخير على يديه!

ولم يخب أمل المضطّهدين بهذا العظيم، فهو ما كاد يبايع حتّى شرّع أمره بعزل جميع العمّال الذين ولاهم من كان قبله من بني أميّة، ثمّ راح يردّ المظالم واحدةً واحدة، وأعاد كلّ ما نهّب أسلافه إلى بيت المال، ونزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث، وردّ جميع الأملاك التي اقتطعها الأمويون لأنفسهم، وردّ ضياعهم إلى أصحابها الأصليين، وأجبر أبناء الأسرة المالكة من البيت الأمويّ أن يعملوا عملاً يرتزقون به، وألقى إلى النار بجميع

(١) العقد الفريد: ج ٢ ص ٢٦٧ والقائل هو: أبو السّمّال الأسدي.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٨ ص ٨٥.

السجلات التي قُتِدَتْ فيها الضياع والنواحي للأمويين وعمّالهم. ووقف يخطب الناس وكأنه ينزع عن لسان أستاذه علي بن أبي طالب، يقول:

«أيها الناس! مَنْ صَحِبْنَا فليصحبنا بِخَمْسٍ وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة مَنْ لا يستطيع رفعها، ويُعيننا على الخير جهده، ويدلّنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يفتابِرُ عندنا الرعيّة، ولا يعترضنّ فيما لا يعنيه!»^(١). وكتب إلى عمّاله الجدد: «إنّ الناس قد أصابهم بلاءٌ وشدةٌ وجور ... وسُنَّتْ سيئةٌ سنتها عليهم علماءُ السوء، قلّما قصدوا الحقّ والرفق والإحسان!»^(٢).

وأبطل عمر هدايا النيروز والمهرجان، وكانت تُحمَلُ إلى معاوية ومَنْ بعده وأقدارها باهظة، وهي من العادات الفارسية، التي أنست بها طبقة الحكّام العرب، أقَرّها معاوية ورضي بها، وأنكرها عليٌّ ومنع الناس عنها. ثم حصر الضرائب وخففها عن الجميع، ورفعها عن المغوزين أسوةً بأستاذه العظيم. وأصدر أوامره بحبس كلّ مَنْ يحاول أن يستخر إنساناً أو دابةً في عمل من الأعمال.

ولقي الناس من عمر ما هو أحبّ من ذلك وأجدر بصاحب السلطان. رأوا منه ما رأى السابقون من علي بن أبي طالب يوم راح يعطف على الحياة عطفاً هو فوق القانون. فقد كتب إليه عامله على العراق: أنّ أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الدولة مالاً عظيماً، ليس يقدر على استخراجهم من أيديهم إلا أن يمسّهم شيء من التعذيب والتنكيل. فحال أمرُ التعذيب والتنكيل عمر، فكتب إلى عامله يقول: «أما بعد، فالعجب كلّ العجب من استئذائك إتيائي في عذاب البشر، كأنّي لك جنة - وقاية - من عذاب الله. وكأنّ رضائي ينجيك من سخط الله.

(١) تاريخ مدينة دمشق ج ٤٥ ص ١٦٩: تهذيب الكمال ج ٢١ ص ٤٤٢: البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢٣.

(٢) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٣٠٥.

فانظر فيما قامت عليه البينة فخذها بما قامت عليه، ومن أقرّ لك بشيء فخذها بما أقرّ به، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخلّ سبيله، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليّ من أن ألقى الله بدمائهم»^(١).

لقي الناس من عمر مثل هذه الرحمة وهذه الأبوة بعد الذي ألفوا رؤيته من الازدراء بالحياة، وبخس ثمن الأحياء وإهلاك الأدميين وتعذيبهم تعذيباً فظيعاً في أقل شيء. وكان أقرب ما ألفوه من هذه الفظائع عهداً، أسلوب عبد الملك بن مروان وأخيه بشر في التنكيل والتعذيب. من ذلك أن عبد الملك استعمل أخاه بشراً على الكوفة والبصرة وأمره بالشدة والغلظة على من لا يرضى بسلخ جلده في سبيل الأسرة الحاكمة. ومده بأربعة آلاف جندي من أهل الشام. فكان من سياسة بشر وسياسة دولته في أهل العراق، أنه إذا فرّض البعث على جندي أو على أحد من الخلق، ثم وجده قد أخل بمركزه أقل إخلال، أوقفه على كرسي ثم سمر يديه في الحائط تسميراً شديداً وهو يتوجع ويصرخ ويستغيث، ثم انتزع الكرسي من تحت رجليه، فلا يزال الرجل يتخبط على هذه الصورة الفظيعة حتى يموت!

وكان ممّا ألفوا سماعه من هذه الفظائع أيضاً أسلوب بعض الطامحين إلى الولاية، في معاملة كلّ من يعوق هذا المطمح، أو يُظنّ به الانحراف. مثال ذلك ما كان يرويه الناس بعضهم لبعض، ممّا وقع بين عبد الله بن الزبير وأخيه عمرو بن الزبير في مطلع العهد الأموي. وذلك أنّ يزيد بن معاوية كان قد ولّى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة، فسرح منها جيشاً إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير وكان في هذا الجيش أخوه عمرو بن الزبير، وكان عمرو

(١) الفائق في غريب الحديث الزمخشري: ج ٢ ص ١٣؛ شرح نهج البلاغة: ج ١١ ص ١٠٠ و ج ١٧ ص ٢٠؛ غريب الحديث لابن قتيبة: ج ٢ ص ٢٥١.

منحرفاً عن عبد الله. وبعد قتالٍ عنيفٍ دارت الدائرة على جيش الوليد بن عتبة، وقبض القوم على عمرو وسلّموه إلى أخيه عبد الله، فأقامه للناس بباب المسجد مجزّداً من ثيابه، وأبى أن يقتله إلا بالسياط، فلم يزل يضرب أخاه بالسوط حتى فارق الحياة!

ولم يفترق عمر بن عبد العزيز بين مسلم وغير مسلم. ولا بين عربي ومولٍ. ذلك لأنه كان مسلماً حقّاً وعربياً حقّاً! أمّا غير المسلمين فقد أمر بمساواتهم بالمسلمين في كافة ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات. حتى أنّ الرجل منهم إذا كبر وليس له مال يُنفق عليه، كان عمر يُنفق عليه من مال الدولة. وشكا نصارى دمشق أنّ الوليد بن عبد الملك هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد الأموي، فأمر عمر بأن تُعاد إليهم على عجل، فأقبل المسلمون على النصاريّ فسألوهم أن يُعطوا جميع كنائس الغوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويُمسكوا عن المطالبة بها، فرضوا بذلك وأعجبهم وأخبروا به عمرَ فرضي بما أرضاهم.

وأما الموالي فلا يختلفون في شيء عن العرب في عهد عمر. ومما قاله للذين اضطهدوا أيتام سابقيه: «وما منكم من أحدٍ تبلُّغنا حاجته يتسع له ما عندنا، إلا حرصنا أن نسدّ حاجته ما استطعنا. وما منكم من أحدٍ تبلُّغنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيتُ أن يبدأ بي وبخاصّتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء»^(١). أمّا الهاربون من جور أسلافه السابقين من الموالي والعرب جميعاً، فقد قال في إنصافهم: «إنّ الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاصٍ، ولكنّ الإمام الظالم هو العاصي!»^(٢).

(١) تاريخ الطبري: ج ٥ ص ٣٢٣، تاريخ مدينة دمشق: ج ٣٥ ص ٣٧٣.

(٢) الحديث للنبي (ﷺ) ذكره في كنز العمال ج ٣ ص ٢١٦، واستشهد به عمر بن عبد العزيز.

وأبطل عمرُ سبَّ عليّ بن أبي طالب على المنابر، وأثنى عليه وعظّم شأنه وأكرم ذكره واقتدى به قولاً وعملاً.

وبلغ عمرُ أن رسوباتٍ من العصبية المألوفة في عهد سابقه، قد تحرّكت في نفس عامله في خراسان. وتأكد هذا الخبر عندما جاءه من هذا العامل كتاب يقول فيه: إنه لا يصلح أهل خراسان إلا السيف. فأنكر عمر على عامله هذه العصبية وهذا النهج في أخذ الناس وعزله من فوره.

وشغف عمر بعمران البلاد التي يحكمها شرطاً أن يكون هذا العمران للناس لا للدولة. وشرطاً ألا يكون نعيم قوم على حساب قوم. لذلك أمر بوقف الفتوح كي لا تهرق دماء العباد، وكي يتعاطى الناس بالعمل والمحبة لا بالغزو والغصب والبغضاء. ووضع الخطط والتصاميم كذلك لإجلاء العرب عن الأندلس والعودة بهم إلى بلادهم. ولعله أول ملك في الدنيا أمر هذا الأمر وفكر هذا التفكير.

وسعى عمر في ألا يظل في البلاد العربية فقير. وقد أثمر سعيه إذ أن معظم الأمصار التي كانت قد خربت في عهود أسلافه عاد إليها عمرانها وزهوها، ولم يبق فيها فقير واحد. وفيما هو يستعد لإتمام ما بدأه من هذه السياسة الشريفة، ويسعى في إجلاء العرب عن الأندلس؛ إذ وافته المنية بعد مضي سنتين ونصف السنة على ولايته. أمّا ما عمله في هذه المدة القليلة - بعد ذلك الليل الطويل من مظالم السابقين - فمن أعظم ما عمله عظيم على الأرض. ولما كان عمر على سرير الموت دخل عليه نسيبه مسلمة بن عبد الملك يعوده، فقال مسلمة: ألا توصي يا أمير المؤمنين؟ فقال: بيم أوصي، فوالله لا أملك مالاً ولا متاعاً! فقال مسلمة: هذه مائة ألف فمُر فيها بما أحببت. فقال عمر: أو تقبل؟ قال: نعم، قال عمر: تُردّ علي من أخذت منه ظلماً. فبكى

مسلمة ثم قال: يرحمك الله، لقد أَلَنْتَ مِنَّا قلوباً قاسية، وأَبْقَيْتَ لَنَا فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرًا!«.

ومات عمر فبكاه الناس، وبلغ امبراطور الروم خبر موتَه فنزل عن سريرِه وبكى وقال فيه: «لقد بلغني مِن بَرِّه وفضله ما لو كان أحدٌ بعد عيسى يُحيي الموتى لظننتُ أَنه يُحيي الموتى. ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً، فلا أجد أمره مع ربِّه إلا واحداً، بل باطنُه أشدَّ حين خلواته بطاعة مولاه. ولم أعجب لهذا الراهب الذي قد ترك الدنيا وعبد ربَّه على رأس صومعته، ولكنتي عجبْتُ لهذا الراهب - يعني عمر - الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها، حتَّى صار مثل الراهب»^(١).

وكان أشدَّ الناس حزناً لموته الموالى وشيعة الإمام عليّ، أي الفئات التي اضطُهدت أكثر من سواها في العهد الأموي، لأسبابٍ تتعلّق بسياسة البيت المالك وطبقة الوجهاء، لا بالعنصر ولا بالدين كما يزعم الزاعمون!

وأطبق الظلام على الناس من جديد. فإنَّ عمر بن عبد العزيز لم يكد يُقبض، حتَّى أفلتت الريح مِن عِقَالِها، وعادت الدولة إلى سابق عهدِها، فإذا بيزيد بن عبد الملك يُعيد سَبَّ عليّ على المنابر، ويعزل عمال عمر جميعاً، وينعت الخليفة العظيم بأنَّه كان مغروراً، ويكتب إلى عماله الجُدُّ بنهب الناس والتنكيل بهم وإعادتهم إلى ما كانوا عليه سواء أظلموا أحياء بهذا الظلم أو ماتوا، قائلاً: «... وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصَّبوا أم أجْدَبُوا، أَحْبُّوا أم كَرِهُوا، خَيُّوا أم ماتوا!» وينهي هذا الكتاب بكلمة «والسلام!!!»^(٢). وظلَّ الموالى في بؤسهم قابعين. واستمرَّ ظلم الولاة الأمويين للناس

(١) مروج الذهب للمسعودي. وعنه شجرة طوبى: ١ / ١٣٩.

(٢) العقد الفريد: ٤ / ٤٤٢، الإمامة والسياسة: ٢ / ١٤١.

جميعاً.

وأقبل العصر العباسي فإذا بالسواد الأعظم من الناس يطلبون الرحمة للعهد الأموي. وتسامح الخلفاء العباسيون مع الموالي تسامحاً كثيراً، غير أن تسامحهم لم يكن ليحمل ما تستلزمه المفاهيم الإنسانية للمجتمع العربي، كذلك الذي عُرف به عمر بن عبد العزيز مثلاً. وإنما هو تسامح حُمِلوا عليه توطيداً لمُلْك الأسرة العباسية لا لشيء آخر. وكان تقريبيهم للموالي على أساس من الانتفاع بهم، لا على أساس من الرغبة في المساواة بين الناس.

وهم إذا قربوهم فإنما كانوا يقربون منهم الوجهاء وأصحاب النفوذ، حتى إذا ظنوا بهم خطراً على عرشهم أو مصالحهم سجنوهم أو قتلوهم عن بكرة أبيهم، كما فعل الرشيد بالبرامكة ... أمّا العامة من الموالي فكالعامة من العرب يدفعون الخراج ويأكلون الكرباج، كما يقول أمين الريحاني. والصحيح هو أن السياسة العباسية سياسة لا يعنيتها عرب ولا موال، وإنما يعنيتها المحافظة على عرش الأسرة الحاكمة، وابتزاز ما يمكن ابتزازه من أموال المجموعة العربية الفقيرة؛ بأساليب كانت أعنف وأثقل على الكواهل من أساليب بني أمية. وقد مرّ في باب «صور من التاريخ» فصولٌ تحدّثنا بها عن انقسام الناس انقساماً طبقيّاً حاسماً في عصر بني العباس، وعن النعيم إلى جانب الجحيم، وعن الثروات الأسطورية في أيدي الطبقات الحاكمة والمقربة إليها، وعن موت الجوع في الأزقة والطرقات. ثم عن اليأس من صلاح الدنيا يغزو الناس الذين كانوا يأملون بتغيير أحوال العيش بعد انهيار الدولة الأموية، فإذا بهم يُردّون إلى ما هو أسوأ، فينفضون أيديهم من خير الحياة حتى يقول قائلهم:

عش بالخداع فأنت في دهرٍ بَنُوهُ كأشدَّ بيشَه
واجنِ الثمارَ فإن تَفُتُّكَ فأرضِ نفسَكَ بالحشيشه
وأرخِ فؤادَكَ إن نبا دهرٌ، من الفِكرِ المطيشه
فتغايُرُ الأحداثِ يؤذِنُ باستحالةِ كلِّ عيشه

وحتى ينقر ابنُ المعتزِّ من التفكيرِ بالشراء كلِّ مَنْ يرغب فيه من الناس، مشيراً إلى ما يمكن أن يصير إليه أبناؤه على أيدي رجال الدولة، بسبب هذه الثروة: وويل مَنْ مات أبوه موسراً أليس هذا محكماً مشهراً؟ وطال في دار البلاء سجنه وقال مَنْ يدري بأنك ابنه فقال جيرانني وَمَنْ يعرفني فنتفوا سباله حتى فني وأسرفوا في لكمه ودفعه وانطلقت أ كفهم في صفعه ولم يزل في أضيق الحبوس حتى رمى إليهم في الكيس^(١) وأما حياة البشر، العرب والموالي على السواء، هؤلاء الذين يؤلفون المجتمع العربي، ويفلحون ويزرعون ويعملون ويفكرون وينتجون، فلا تساوي شيئاً على الإطلاق. فلربما كانت دماء الناس مرهونةً بحدّة طبع عابرة، أو بنكتة تضحك الأمير حتى يستلقي على قفاه. مثال ذلك: أن الرشيد غضب مرةً على حميد الطوسي، فسرعان ما دعا له بالسيف والنطع لقطع رأسه. وأيقن حميد أن الأمر هو الجدّ وأن رأسه سيطير عن كتفيه بعد لحظات. فبكى وانتحب. فقال له الرشيد الذي تعود رؤية المقبلين على الموت فما عادت تهزه: ما يبكيك؟ فقال حميد: والله يا أمير المؤمنين! ما أفزع من الموت لأنه لا بدّ منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط

(١) ديوان ابن المعتز ص ٧٦٦ (طبعة دار الجبل).

علي. فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه وعفا عنه؟!

ولم يكن هنالك ما هو أيسر على الخلفاء والولاة من التحدث عن عشرات الألوف من الناس الذين قتلوهم. مثال ذلك: أنه كان بين أحد الولاة وأبي جعفر المنصور جدالٌ محتدمٌ حول رجلٍ يريد المنصور تعذيبه وقاتله، ويريد الوالي أن يجبره. فقال الوالي: «يا أمير المؤمنين! بالأمس بعثتني إلى اليمن فقتلتُ في طاعتك في يوم واحد عشرة آلاف نفس! وفي مثل ذلك كثير! أما رأيتني أهلاً أن تجير لي رجلاً واحداً؟!».

وهنا هداً غضبُ أمير المؤمنين! وقال: قد أجرناه وأجزناه!

«وقد أراد ولاية الحكم - في الدولتين - أن يدوم لهم النفوذ والسيطرة، والظلم والطغيان، فأعزوا إلى أصحابهم أن يضعوا أحاديث، يصوغون للناس منها قيوداً وأغلالاً، تساعدهم على استعباد الأحرار واستغلال الجماهير، فلققوا أحاديث على لسان الأنبياء مرغبين في الخنوع والخضوع والخدمة والاستسلام».

أما الذين لم يخنعوا ولم يخضعوا ولم يستسلموا، فقد وُسِّعت أمامهم طريقُ الموت. ولعلَّ ما لحق بالناس من تشريدٍ وتقتيلٍ وترويعٍ، في العصرين الأموي والعباسي، كان النصيب الأوفر منه لاحقاً بطائفةٍ من الخلق؛ هي شيعة علي بن أبي طالب، سواء فيهم العرب والموالي. فقد أصاب هؤلاء من صنوف الأذى ما أصاب غيرهم، بحُكم السياسة الطبقيّة والعائلية التي سارت عليها الأسرتان الحاكمتان، اللتان لم تقيما وزناً إلا لمنافعهما وحدها. ثم أصابهم فوق ذلك ما «خُصّوا» به دون سواهم من ضروب الجور وأفاعيل الاستبداد. ذلك لأنهم كانوا يؤلفون الخطر المباشر على الأسرتين لمطالبتهم بالحكم في العهدين، ثم لأنهما النواة الثورية التي اجتمعت حولها طبقاتٌ من الناقمين

على الظلم، الساخطين على الاستبداد. وقد اتّسمت الحركة الشيعية في أوّل أمرها بطابع اجتماعي ديني في وقتٍ واحد، إذ أنّ الشيعة الأوائل هم الذين ناصروا عليّاً، إمّا لموقفه العادل الحازم من وجهاء زمانه، يريد أن يساويهم بسائر الناس في الحقوق والواجبات، ومن العامة يريد أن يرفع عنهم العَوَز والحاجة. وإمّا لعاطفة دينية تتحد بمفاهيم اجتماعية.

وحافظ الشيعة على طابعهم هذا قروناً طويلاً. وراحوا يكيّدون للحكم الظالم في عهود الدولتين، ويرضون عن الحكم المنصف في عهود الدولتين كذلك. يدلّنا على ذلك أنّ الشيعة استقبلوا سياسة عمر بن عبد العزيز الأموي بالولاء والتأييد. وبكوه عندما مات بكاء المظلوم عندما يفارقه الصبح وتُطبق عليه الظلمات من جديد.

وعلى كلّ حالٍ فإنّ شيعة عليّ كانوا يمثلون المعارضة للحكومات الأموية والعباسية. وهي حكومات ظالمة جائرة توجب على معارضيها أن يمشوا في طرقٍ تعادي الجور والظلم. وبذلك اكتسب التشيّع لعلّيّ، في العصور الأموية والعباسية، صفة الدفاع عن المضطّهد والمستضعف والمأكول حقّه، كما اكتسب هذه الصفة في بدء وجوده. ومن المقرّر نفسياً أنّ الجماعة إذا تبنت شعاراً واضطّهدت في سبيله؛ تزداد تعلقاً به وتندمج بمعانيه، وتحيا به وجداناتها، وتنزع عنه بتصميماتها في القول والعمل. وهكذا وقف شيعة عليّ موقف المعارض العنيد لحكومات الجور في العهود العربية القديمة.

ولشيعة عليّ في تاريخنا القديم مواقفٌ ضدّ الظلم بأنواعه جميعاً، هي الشرف كلّها وهي إرادة عليّ كلّها. وهي بذلك من صميم العمل القومي العربي، كما يجب أن يكون وكما يمكنه أن يستمرّ. أمّا موقفهم من التفرقة العنصرية بين أبناء المجتمع الواحد، فمعروف لا يحتاج إلى إيضاح، وهم بذلك ينزعون

عن موقف عليٍّ من الموالي وقد أوضحناه سابقاً.

وأما موقفهم من الاستبداد المذهبي فيحدثنا عنه التاريخ حديثاً طويلاً، وهم بذلك يnehجون نهج عليّ القائل في غير المسلمين «أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا» والقائل أيضاً: «كلّ إنسانٍ نظير لك في الخلق» والقائل: «لو تُنيت لي وسادة فجلستُ عليها؛ لحكمتُ في أهل التوراة بتوراتهم، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم، وفي أهل القرآن بقرآنهم، حتّى تركتُ كلّ كتابٍ ينطق من نفسه». لقد صدق عليّ! ويكفيك دليلاً على حقيقة موقف شيعة عليّ من الاستبداد المذهبي ما رويناه في فصل سابق من قصة حجر بن عديّ وزِياد بن أبيه، وكيف مات حجر وأتباعه ميتةً مريّة في خبرٍ ينطلق من الدفاع عن حقٍّ ذمّيٍّ أسوةً بالمسلمين.

وأما موقفهم من الفساد والظلم والحكم الجائر فتنبئ عنه أجيالٌ كثيرة من معارضة الحكومات الفاسدة والنظم الجائرة، وسلسلةٌ طويلة من حلقات النضال الدامي ضدّ هذا الفساد وهذه النظم. ولزُبّ باحث - كأحمد أمين مثلاً - يرى أنّ معارضة الشيعة للحكومات الأموية والعباسية إنما كانت غايتها إيصال ولد الإمام عليّ إلى الحكم، وأنّ هواهم إنّما كان في هذه الغاية وحسب. وفي مثل هذا الحكم نقول:

لا شك أنّ الجانب الديني كان له عملٌ في موقف الشيعة من حكام الدولتين. ولكنه عملٌ جزئيّ لا كليّ، والدليل على ذلك ما ذكرناه من موالة الشيعة كلّ عادلٍ منصفٍ من ملوك الدولتين. ثم إنّ هذا الجانب الديني نفسه، وهو جزئيّ على كلّ حال، ما لبث أن بنى نفسه على أساس اجتماعيّ وتبطّن جوهرًا اجتماعيًا كذلك. فصار الشيعة إن ذكروا أبناء عليّ في خواطرهم، يذكرون قومًا تجسّم الظلم في معاملة الحاكمين لهم، فطوردوا وشردوا وقتلوا وماتوا في السجون وصلبوا وأُحرقوا بالنار وذُري رمادهم في الريح. ويذكرون

أحراراً من الموالين لهم أصابهم ما أصابهم من صنوف التعذيب والتنكيل. ويذكرون جماعات مؤلفة من الأبرياء تُقطع أيديهم وأرجلهم ويُطرحون في عراء الأرض حتى يموتوا. ويذكرون بلاداً تخرب وشعوباً تهلك جوعاً في سبيل ملكٍ ووالٍ وعصابةٍ من مختشي القصور. فإذا بالجانب الديني من تشيعهم يصطبغ بالوانٍ اجتماعية، ويتحد بسائر جوانب التشيع وهي اجتماعية خالصة. وإذا بمآسي أبناء الإمام عليّ تمتزج بسائر مآسي الناس، وتؤلف معها وحدةً لا تتجزأ، وإذا بالتشيع يصبح فكرةً اجتماعية وصيغةً لجهاد الظالمين، ورفع الحيف اللاحق بالجماعات. ومن الروايات التي تُثبت لنا شعور الشيعة بوحدة الظلم اللاحق بالجماعات. ومن الروايات التي تُثبت لنا شعور الشيعة بوحدة الظلم اللاحق بأبناء عليّ وسائر الناس، وبأنّ التشيع إنّما كان يعني في الدرجة الأولى مكافحة الظلم، الرواية التالية التي وقعت في العصر العباسي:

خرج الشاعر دُعبل مع جماعة في سفر. فلما صاروا في بعض الطريق اعترضتهم طائفة من اللصوص، الذين حملهم الظلم والتجويع على التشرّد وقطع الطريق. وأخذوا ما كان مع المسافرين حتى الثياب التي على أبدانهم. وبعد أن استولوا اللصوص على الغنيمة تجمعوا حول رئيسهم، فشرع هذا يُنشد قصيدة دُعبل التائية التي يصوّر بها الظلم الذي لحق بأبناء عليّ، والمآسي التي ألّمت بهم. فتعجب دُعبل من اللصّ ينشد مديح المظلومين، وقاطع طريق يبكي على المنكوبين. وقال لرئيس اللصوص: لمن هذه القصيدة؟ فقال له: ويلك! ما أنت وذاك؟ قال دُعبل: لي فيه سببٌ أخبرك به. قال: إنّ صاحبها أشهر من أن يُجهل، هو دُعبل الخزاعي جزاه الله خيراً. قال: أنا دُعبل! وأنشده من شعره، وشهد أهل القافلة أنّه هو، فصاح الرجل بأصحابه: من أخذ شيئاً

فليردّه كرامةً لشاعر المشرّدين والمظلومين^(١)

ففي هذا الخبر ما يدلّ على أن الظلم الجاري على المضطهّدين من أبناء عليّ، وعلى سائر الناس واحدٌ في شعور العامة، وعلى أنّ سخطهم وموالاتهم إنّما هما سخطٌ على ظالم وموالةٌ لمظلوم.

أضف إلى ذلك أمراً ذا خطر في صَهر التشيع في التاريخ بمصهرة اجتماعية خالصة، مصدره أبناء عليّ أنفسهم. فهؤلاء كانوا ينشأون في عاطفتين تغمر وجدانهم وتوجّه مسلكهم، ألا وهما: الشعور بالوراثّة الروحية لما خلفه عليّ بن أبي طالب من معاني النبيل الإنساني، ومن آثارٍ فكرية تحترم الجماهير وترعاهم بالعدل والمساواة والمحبة؛ والشعور بالظلم الواقع عليهم وعلى الجماعات بغير استثناء. وتحت تأثير هذين الشعورين كانوا يفكّرون ويعملون. فإذا بهم يلتقون بالجماهير الساخطة على الظلم التّقاء عفويّاً، هيأته الظروف الخارجية وأعدّته للظهور. فإذا بأبناء عليّ يجدون لأنفسهم مكاناً في قلوب العامة. وإذا بالعامة تجد بالتشيع لهم ملجأ ضد الظلم، كما وجد آبائهم المستضعفون موئلاً في عليّ وملاذاً.

وهذا ما يفسّر لنا درجات تعلق العامة بأبناء عليّ. فالذي كان منهم أقرب إلى عقلية عليّ وإلى نفسيّته، كان تعلق الجماهير به أشدّ. والذي كان تصيبه من الاضطهاد أكثر، كان تعلق الجماهير به أكثر. والذي لم يكن له من هؤلاء صفة عامّة إلى جانب كونه من أبناء عليّ، لم يكن ليجد حوله من المؤيدين أحداً. وإليك بعض المبادئ التي أعلنها جعفر الصادق فتشيع له الناس بها، لأنها صاحبها بمثابة حبل النجاة للجماهير الفارقة في ظلم الحكّام، وظلمة الفقر،

(١) كشف الغمّة للإربلي: ج ٣ ص ٥٦ (بتصرف).

وجور الطيقات الوارثة حسباً ومالاً، والمضيقة من الثروة طريفاً إلى تليد^(١):
«أصل الإنسان عقله. والناس في آدم مستوون. إن النفس لتلتاث^(٢) على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت! وقد بُني الإنسان على خصال، فمهما بُني عليه فإنه لا يُبنى على الخيانة والكذب!»^(٣)

لمثل هذه المبادئ كانت الجماهير تتشيع! وإليك خبراً مما يؤيد رأينا هذا تأييداً قاطعاً: جاء في مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني: «إن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل ... بن علي بن أبي طالب كان يمشي ذات يوم في بعض طرق الكوفة، وبينما هو يمشي إذ نظر إلى عجوز تتبّع قافلة عليها أحمال من التمر فتلتقط ما يسقط منها فتجمعه في كساء عليها رث. فسألها عما تصنع بذلك، فقالت: إنني امرأة لا رجل لي يقوم بمؤنتي ولي بنات لا يعذنّ على أنفسهنّ بشيء، فأنا أتتبع هذا من الطريق أتقوته أنا ووُلدي. فبكى محمد بن إبراهيم بكاء شديداً وقال: «أنت، والله، وأشباهك تخرجوني غداً حتّى يُسَفِّك دمي!»^(٤).

وخرج على الدولة العباسية، وسُفِّك دمه!

ولمثل هذا الرجل كانت الجماهير المظلومة تتشيع!

والجانب الاجتماعي في التشيع برز بصورة لا تقبل جدلاً في فلسفات الفرق التي أخذت منه يناييعها الأولى. هذه الفرق التي جمعت في صفوفها

(١) طريف: جديد، تليد: قديم. لسان العرب: ٢١٤/٩، مادة «طرف».

(٢) تلتاث: تلتف، تقوى على صاحبها، تغلب صاحبها. مجمع البحرين: ١٥١/٤، مادة «لوث».

(٣) كشف الغمة: ٣٧٥/٢، الدر المنثور للسيوطي: ٢٩١/٣ عن الحلية لأبي نعيم.

(٤) مقاتل الطالبين: ٣٤٦.

الطبقات الفقيرة المقهورة من المجتمعات العربية، إلى أنماطٍ مختلفة من المفكرين الأحرار، الذين آذاهم ظلم الطبقات الحاكمة للشعب الذي يعمل ولا يأكل. وأخض بالذكر من هذه الفرق الإسماعيلية التي هزت الدولة العباسية هزاً عنيفاً، والتي تضمنت برنامجها مطالب إجتماعية أهمها: المساواة بين الرجل والمرأة، وإبطال ملكية الأراضي وتوزيعها من جديد إلى المحتاجين إليها مجاناً، ومقاومة العصبية العنصرية، والعصبية الدينية، دفاعاً عن فكرة الإخاء الحقيقي بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم، أي على الإخاء المبني على ضوء العقل وعلى الصفة الإنسانية في الإنسان. وقد مهدت الإسماعيلية بذلك إلى رواد الفكر العربي الحر لأن يظهرُوا ويجرأُوا على فضح الفاسقين الجائرين من أصحاب السلطة، وعلى أن يقولوا ما يرونه بشأن المعتقدات، كما هتأوا الناس إلى قبول هذه الآراء والإصغاء إليها.

كما أخض بالذكر أيضاً جمهورية القرامطة، المنبثة عن الإسماعيلية. فكما التفت الطبقات المضطهدة في العصر العباسي حول الإسماعيلية؛ التفت كذلك حول القرامطة الذين أخذوا البرنامج الإجتماعي الإسماعيلي، وزادوا عليه متجهين اتجاهاً أوسع وأسرع إلى الاشتراكية^(١). ومما فعلته حكومة القرامطة حين استولت على البحرين في جزيرة العرب: أنها ابتاعت ما تحتاج إليه من الأراضي ووزعته على الفلاحين، وألغت جميع الضرائب التي على الأراضي، ثم ألغت الرسوم التي كانت تُضيق على الرُزّاع والعمال، وجعلت مال الدولة في خدمة الناس، فإذا أصاب أحدهم فقرٌ أو وقع تحت دينٍ لا سبيل إلى وفائه؛ كانت الحكومة تسلفه ما يحتاج إليه إلى أن يصلح حاله.

(١) نسبة القرامطة إلى الاشتراكية فيه تسامح كبير !!

وعندما كان الغريب يدخل بلادهم وهو يعرف حرفة ما، كانت الحكومة القرمطية تقدّم له - إذا أراد - مبلغاً كافياً من المال ينفقه على ابتياع أدوات حرفته، ويبقى تحت تصرّفه إلى أن يجمع مبلغاً يكفيه ويكفي أسرته، فإنّ هو اشتغل وكسب ردّ ما استلفه إلى الحكومة.

وكان في بلادهم طواحين تطحن القمح للناس مجاناً. وكانت الحكومة، بصورة عامة، مسؤولة عن رفع كلّ أذى عن الناس. ولكي تتمكن من القيام بهذه المسؤولية جعلت التجارة، ولا سيّما الخارجية في يدها؛ لتنفق أرباحها على الأعمال العمومية وتحسين أحوال المزارعين والعمّال^(١).

وبعض العقائد الدينية الخاصة بالشيعة، وبالفرق المتشعبة منها كالإسماعيلية والقرامطة، متأثر إلى حدّ بعيد بالمظالم التي عرفوها وعرفها الناس جميعاً في التاريخ، ثم بموقفهم من هذه المظالم. مثال ذلك: أنّ فكرة الإمام المنتظر، بأسمائه المختلفة باختلاف هذه الفرق وفروعها، إنّما هي فكرة خلقها تحسّر الناس على العدل والمساواة، وما حلموا به من مجيء يوم قريب يعمّ فيه الرخاء؛ فلا يجور بعضُ الخلق فيه على بعض، ولا تُتخَمُ فئةٌ على حساب فئة. ومن ثمّ كان هذا الإلحاح على خاصّةٍ أساسيةٍ يتميّز بها الإمام المنتظر صاحب اليوم المرجو، وهي أنّه ما يكاد يظهر حتّى يُقضى على الفساد والرشوة وتعذيب الحاكم للمحكوم والظلم بألوانه جميعاً؛ لتسود العدالة والمساواة والصفاء بين البشر أجمعين.

إنّ الناظر في الأسباب البعيدة في أحداث التاريخ وأحوال الشعوب وحركات الناس، لابدّ له من الإعتراف، بأنّ العوامل الإقتصادية المتعلقة

(١) باختصار وتصرف عن كتاب «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام» لبندلي جوزي، عن كتاب سفرنامه للكاتب الفارسي ناصر خسرو.

بالمعاش، والاجتماعية المتعلقة بروابط الناس بعضهم ببعض، إنما كانت ذات أثرٍ أساسي في خلق العقائد والمذاهب، وفي توجيه الفلسفات جميعاً. وقد ظهر أثر هذه العوامل في سياسة الدولتين الأموية والعباسية، وفي إلزام أصحابهما «سياسةً دينية» معينة، كما ظهر في سياسة المتشيعين لعلي بن أبي طالب، وفي ما اعتقدوه لأنفسهم. أما سياسة أولئك فكانت - كما رأينا - تخدم الطبقات الحاكمة اقتصادياً واجتماعياً. وأما سياسة هؤلاء فكانت تخدم الطبقات المحكومة.

ورُبَّ باحثٍ - كأحمد أمين مثلاً - يرى أن الناس في المجتمع العربي لم يكونوا لينظروا في الدين إلا إلى جانبه الروحي فقط، وأن هذه النظرة الروحية الخالصة - في زعمه - هي التي حددت العقائد وأكدت الجهاد وسيّرت أحوال الناس، وفي هذا نقول:

أوضحنا فيما سبق أن الإسلام، كسائر الأديان، ثمرة^(١) طبيعية جغرافية واقتصادية واجتماعية معينة. وأن الجانب الاجتماعي فيه، وهو ثورة على تجار زمانه وطبقته ناسه، إنما هو الذي حدّد خصومه وأنصاره، لا الجانب الروحي الخالص، إذ أنه ليس هنالك من جانبٍ روحي غير متأثر بجملّة الأوضاع المادية. فلقد كانت نقطة الإنطلاق عند النبي الكريم مسألة اقتصادية واجتماعية في الدرجة الأولى، ممّا جعل الطبقات المضطّدة والفقيرة تؤيده بغير تحقّظ، والطبقات المنتفعة بالأوضاع القديمة والثريّة تحاربه بغير تحقّظ كذلك. وأوضحنا أيضاً أن نشأة النبي في محيطٍ فقير من الناحية المادية، وملاحظته الدقيقة العميقة لأسباب الفقر في بيت أبيه وعمّه أبي طالب،

(١) الإسلام دين الله الذي أخذ بنظر الاعتبار الطبقة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ... وليس ثمرة لهذه الطبائع.

ولأسباب الغنى في بيت عمّيه العباس وأبي لهب، دَفَعْتاه فيما بعد لأن يبدأ عمله الاصلاحى الكبير بمحاربة أسباب التفاوت المادى بين أبناء المجتمع الواحد، بل العائلة الواحدة. ثم يتّنا بما لا يقبل الجدل أنّ إقبال العرب على دعوة النّبىّ الكريم إنّما يتعلّق، أولاً؛ بما رأوا لديه من عبقريةٍ فهمت حقيقةً أوضاعهم المادية، وسعت في اصلاحها بما يرفع الغبن والحيث عن الطبقات الشعبية الفقيرة ثانياً.

وأوضحنا كذلك أنّ الأديان القديمة كلّها، كاليهودية والمسيحية والبوذية، إنّما كانت رسائل محدودة بأزمنة وأمكنة معينة، وأنّ عبقريتها توجز بأنّها رسائل اقتصادية واجتماعية مغلفة بأشكالٍ روحية. وعلى هذا، لا يمكنك إدراك الحقائق العميقة في كلّ دين إن لم تعرف حقيقة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المحيط الذي نشأ فيه هذا الدين وصاحبه. ومن هنا كان أنصار أصحاب الرسائل في عهودها الأولى من الطبقات المضطّدة. ومن هنا أيضاً كان أصحاب هذه الرسائل ثائرين على أسباب التفرقة بين الناس؛ وهي في جملتها أسباب اقتصادية واجتماعية أيّة كانت وسائلها وأعدارها وفلسفاتها. وقد تبّين مَعَنًا بصورةٍ خاصّة أنّ عبقرية محمّد إنّما ركّزت الإصلاح على أساس من إلغاء ما يسمح الطور التاريخي بإلغائه من أسباب الطبقيّة المادية. وكذلك عبقرية المصلحين من خلفائه.

واستقرّ الإسلام في البلاد العربية. وراحت كلّ طبقة أو فئة من الناس تفسره، أو تفسّر بعض ما فيه، بما يتفق ومصلحتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أو يتفق وما تنزع إليه إنطلاقاً من وضعها الذي هي فيه. فأصبح الإسلام في نظر معاوية مثلاً يعني التخلّص من عليّ. وفي نظر أبي ذرّ الغفاري رفع الفقر والحاجة عن كواهل الجماعات وإيقاف موجة الفساد والطغيان.

وأصبح الإذعان لأوامر الإسلام ونواهيه في نظر وُلاة بني أمية يعني: تأليّف الجيوش في خدمة البيت الأمويّ ومَن والاه وعمل له، وتقتيل مَن لا يرون حقّه في الخلافة، ثم جمع أكبر كمية ممكنة من مال الخراج والجزية وسائر الضرائب، بأعنف الوسائل على ما رأينا، ممّا اضطرّ عمر بن عبدالعزيز أن يقول لعمّال أمية: «إن الله بعث محمداً هادياً لا جايياً!».

وعلى هذا الأساس كانت وظيفة الله في نظر عبيد الله بن زياد هي مساعدته ومساعدة بني أمية في قتل الحسين بن عليّ وصغاره ونسائه، فإذا «ساعده» الله في ذلك وقف في المسجد وشكره، قائلاً: «الحمد لله الذي أظهر الحقّ ونصر أمير المؤمنين وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته!»^(١). كانت وظيفة الله في نظر مسلم بن عقبة هي أن يبيح له نهب المدينة وإستعراض أهلها بالسيف على صورة مروعة، حتّى إذا بلغ عدد القتلى على يديه في الأيام الثلاثة اثني عشر ألفاً من الرجال، وبلغ ضعف هذا العدد من النساء والأطفال، وقف يقول مطمئنّ البال: «الحمد لله الذي شفى صدري بقتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم!»^(٢).

وجاء العصر العباسي فأصبح خير الإسلام في نظر أبي العباس السفاح وأبي مسلم الخراساني أن يباد بنو أمية، ثم أن تُقتل الشيعة، ثم أن تستقرّ الأمور لولّد ابن عباس وأن تصبح البلاد العربية بستاناً لهم، كما كانت بستاناً لبني أمية. وجُعِلت وظيفة الله أن يرعى الإسلام في وجهه العباسي هذا! وهكذا راحت كلّ فئة من الخلق تفسّر الدين ووظيفة الله بما يتفق ومصالحها، أو بما يلائم الحال الذي هي فيه، أو بما يوجب تغييره وتبديله.

(١) الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ١١٧ تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣٥١.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١ ص ٢٤٠.

ولم تشذ عن هذه القاعدة في تفسير الدين بالمصلحة والهوى، حتى طائفة السكارى المدمنين. فهذا أبو نواس زعيم الطائفة المذكورة ولسانها، يفسر الآية القرآنية القائلة: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ تفسيراً يوافقه ويُزيح من أمامه العراقيل، زاعماً أن المعنى المقصود هو هذا: إذا كنتم في حالة سُكر فإياكم أن تصلّوا! وإستناداً إلى هذا التفسير الطريف كان أبو نواس يدعو أصحابه إلى معالجة وقت الصلاة بالسكر حتى إذا حان وقتها منعهم سُكرهم من المبادرة إليها. يقول:

إذا ما دنا وقت الصلاة رأيتهم يحثّوننا^(١)، حتى تفوتهم سُكرًا^(٢).

وعلى هذا النحوراح يفسر الآيات التي تمنعه من أن يمجن ويسكر. فإذا اعترضه معترض يلومه على «خطايا» راح يستشهد بوسيع رحمة الله، لأن الله رحيم غفور:

تكثر ما استطعت من الخطايا فإِنَّكَ بالغ ربّاً غفوراً^(٣)
فإن زاده اللائم لوماً، زاده من منطق قائلاً:

خُلِقَ الْغُفْرَانُ إِلَّا لِمَرَّةٍ فِي النَّاسِ خَاطِي^(٤)
وظلت نظرة الأفراد والجماعات للدين متصلة اتصالاً وثيقاً بأحوالها المادية، ومنافعها الخاصة، وأحوالها التي هي فيها، وهي ما تزال كذلك حتى يومنا هذا، وكثيراً ما كان تذرع الطبقات الحاكمة بالدين في إغتصاب العامة، حافزاً لهؤلاء لأن يعادوا الدين ويثوروا عليه؛ لأنه في حالته هذه يخدم طبقة معينة خدمةً سياسيةً واقتصاديةً واجتماعيةً، ولا يخدم العامة. ولأنه في حالته

(١) يحثّونها: حقه حقاً، أعجله إيجالاً متصلاً. لسان العرب: ١٢٩/٢، مادة «حثّ».

(٢) الإرشاد للمفيد: ج ٢ ص ١١٧ تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٣٥١.

(٣) ديوان أبو نواس: ص ٨٤ (طبقة دار صعب).

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ج ١٣ ص ٦٢ والأبيات في ديوان أبي نواس (باب الزهد).

هذه يصبح ديناً نظامياً يعمل عملاً مادياً خالصاً لمصلحة الهيئة المتذرعة به. وفي هذا ما يدلنا على العلاقة الكائنة بين الأوضاع المادية والدين في واقع الناس: فأولئك يريدونه أن يساعدهم في حكم الجماهير، وهؤلاء يريدونه أن يخلصهم من طغيان حكامهم.

وفي الأدب العربي القديم آثارٌ تلقي نوراً ساطعاً على أثر الجانب الاقتصادي الاجتماعي في تقريب العامة من الدين، أو في إيقافهم منه موقفاً سلبياً. فهذا أحمد بن محمد الإفريقي المعروف بالمتيم يعترف بأنه لا يريد أن يصلي لله لأنه إن صلى وهو جوعان كان منافقاً، وهو ليس بمنافق. فليصل له من يملكون القصور والخيول والحلى والأرض! أما هو فيقول:

فَوَاللَّهِ لَا صَلَّيْتُ لَهِ مُفْلِسًا يَصَلِّي لَهِ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَفَائِقُ
لِمَاذَا أُصَلِّي؟ أَيْنَ مَالِي وَمَنْزَلِي؟ وَأَيْنَ خِيُولِي وَالْحَلَى وَالْمَنَاطِقُ
أُصَلِّي وَلَا فَتْرٌ مِنَ الْأَرْضِ

يحتوي عليه يميني؟ إنني لمنافق!
وفي هذا الأدب أيضاً آثار تدلنا على أن علاقة فئات من الناس بالله ظلت علاقات مادية خالصة، لا تحتوي أي معنى خارج عن المصلحة الاقتصادية، ولا تنطوي على أي اهتمام بالاعتبارات اللاهوتية. ومن هذه الفئة الأعراب الذين لم يكونوا ليروا في الله إلا باعناً للغيث ساقياً للأرض واقياً من الجذب. أما إذا أجذبت الأرض وجاعوا فإن واحدهم يخاطبه بهذه الصلاة الطريفة التي نقلها إلينا المبرز في كتابه الكامل:

رَبِّ الْعِبَاد، مَا لَنَا وَمَالِكَا؟ قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا، فَمَا بَدَا لَكَا؟
أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ لَا أَبَا لَكَا؟^(١)

وعلى كل ما تقدم، فإن الجانب الاقتصادي والجانب الاجتماعي يعملان

(١) الكامل للمبرز، شرح المرصفي: ج ٧ ص ١٤٥، شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٨٣.

في تكوين الدين عملاً كثيراً، ويعملان في حمل الناس على الإقبال عليه أو النفور منه، ويعملان كذلك في تفسيره على هذا الوجه أو ذاك. وفي هذا الواقع ما يوضح لنا الأسباب التي حملت الأكثرية الساحقة من الناس، في المجتمعات العربية القديمة على التشيع، أو على مسaire الشيعة. فإنّ المظالم الاجتماعية الصارخة في العصرين الأموي والعباسي، والأحوال السياسية التي كانت تزداد على كثر الزمان سوءاً، وألوان الحرمان التي غاصت فيها الجماهير، ودأب الحكومات المتعاقبة على إفقار البلاد، أمورٌ حملت المعارضين من الشيعة على أن يفسّروا الدين تفسيراً يخالف مصالح الطغاة ويلائم الشعب، فإذا المضطهدون من العرب والموالي والمسلمين وأهل الذمة؛ يسرون وراء زعماء الشيعة من أبناء عليّ في انتظار الفرج القريب.

وعلى هذا أيضاً، كان الشيعة في تلك العصور أصحاب مذهبٍ ثوريّ، يفسح في المجال أمام المجتهدين للانتقال به من حالٍ إلى حال، ويأبى الانكماش والجمود. وانسجمت ثورية هذا المذهب مع أمانيّ المستضعفين والمضطهدين، ومع تعاليم عليّ بن أبي طالب والصورة التي احتفظ بها الناس لشخصيته الديموقراطية الاشتراكية الفذة، فإذا بعليّ عنوان كفاح هؤلاء المستضعفين.

لقد تشيع الناس لعلّي في زمانه لأسباب تُبطن معاني اجتماعية عميقة الجذور في حياة الأفراد والجماعات؛ وإن غُلقت هذه المعاني بمظاهر دينية في أغلب الأحيان. وتشيعوا له في العصور التالية لهذه الأسباب نفسها. فإنّ أنت أحصيتَ الثائرين على المظالم في العهد الأموي والعباسي في الحجاز والعراق والشام وفارس وإفريقيا وغيرها؛ أَلقيتَ عليّاً إمامهم، وأَلقيتَ نظرته الاجتماعية هي النقطة المشتركة التي يلتقي عندها الثائرون باسمه على الفساد

والطغيان. وإن أنت أحصيت غايات هذه الثورات، التي زلزلت الشرق قروناً طوياً وقضت مضاجع الطغاة؛ ألفتها الغايات الاجتماعية التي من أجلها كافح عليّ وإليها دعا وفي سبيلها استشهد. وهكذا التقى في حب عليّ بعصور الاضطهاد هذه: المسلم والمسيحي والعربي والمولى، وكلّ مَنْ هاله أن يرى رزقه منهوباً وحقه مغصوباً وعمره مسلوباً، في مجتمع يتكدس فيه التخنث في قصور الطبقات الحاكمة المهترئة، كما يتكدس الجياع والعراة في الأزقة والقفار!

أجل، لقد أصبح اسم عليّ في التاريخ العربي مبعث أمل لكل مغصوب، وصيحة تتردد على لسان كلّ مظلوم، وحصناً يفرع إليه كلّ مَنْ ضيق عليه الحياة. فما من طالب إنصاف في هذا التاريخ إلا اسم عليّ ملاذه. وما من غاضب على ظالم إلا واسم عليّ درعه. وما من ساخط على رشوة أو فساد أو جور إلا وله من عليّ وتراثه حافز على الثورة. فإذا اسمه يصبح مرادفاً للإصلاح الذي يريده الناس في موطن الفساد، وللخير الذي يتوقون إليه في معقل البغي. وإذا بالتشيع له موئل يلوذ به كلّ مضطهد ومحروم، وينضوي تحت لوائه كلّ ثائر في سبيل الحق المهدور، لا ملجأ لكلّ مَنْ أراد هدم العروبة والإسلام، كما يزعم أحمد أمين!

وإني لأعجب من هؤلاء الذين يخشون على العروبة والدين كلّ جديد وكلّ فكرة تسير مع الزمان، فيؤثرون الدين والقومية في خدمة طبقة حاكمة، تركن إلى الجمود، وتريد لمنفعتهم تجميد حركة الحياة، وتسمير الشمس والقمر في مكانهما من قبة السماء، لقد شاء معظم الحكّام في التاريخ أن يكون الدين نظاماً؛ يخدم قصر الملك وأتباعه من أهل الفجور والوقاحة، وشاء الثائرون فكرةً متطورة تخدم الجماهير بمقدار ما يمكن للدين أن يخدم

الجمهور في تلك العصور. فأَيّ المشيئتين هي الاصلح في نطاق الدين ذاته؟
 وشاء أولئك الحكّام أن تكون العروبة مجموعةً من النخاسين والأرقاء،
 وشاءها الثائرون مجتمعةً تسوده العدالة، ويستوي فيه الناس جميعاً لا عصبية
 تفرّقهم ولا طبقية تباعد ما بينهم، فأَيّ المشيئتين هي الأشرف في نطاق
 القومية السليمة؟

لقد تاجر المتاجرون بالعنصرية، فأغنوا أنفسهم وأفقروا شعوبهم
 وأسأؤوا إلى كلّ نافع وجميل. وعرف التاريخ في الشرق والغرب كثيراً من
 الحكّام المناققين، الذين جعلوا همّهم تحصيل حقّ الله القويّ من الإنسان
 الضعيف، فراحوا يفتكون بالأحرار والخيرين، وحجّتهم أنهم يدافعون عن
 الدين. فما بال كتابنا في القرن العشرين قد نزعوا من رؤوسهم نورَ هذا العصر
 ليحشوها بظلمات التاريخ؛ عوضاً عن استخدام هذا النور في الكشف عن
 الحقيقة والواقع والإفادة من الماضي وما سيه؟

ما كان مليون أبي جعفر المنصور ليعلم المجتمع العربيّ كابن المقفّع،
 ولن يكون! فما بال كتابنا إذا يُزَنّدقون هذا العبقريّ ويرضون عن مصيره من
 أجل طغمة من السفّاحين، يلوكون الناس بأشداقهم ثم يدعون خدمتهم
 وينافقون؟

وما كان مليون جامدٍ على صخرةٍ من عرشٍ، أو ذهبٍ، أو عقيدةٍ، أو
 سلطان لينفّع المجتمع العربيّ كثائرٍ واحدٍ يمشي مع الحياة، ولن يكون! بل إنّ
 أولئك هم الأذى والفساد، وهذا هو الخير والعافية! فما بالهم إذاً يحسنون
 الجمود وهو صورةٌ عن الموت، وينفرون من الحركة وهي صورة الحياة؟

لقد أساء طغاة القديم إلى القومية العربية كلّ ما يمكن للجور والفساد
 والقبح أن يسيثوا. وأحسنّت إليها الشعوب العربية على اختلاف أصولها

البعيدة ومذاهبها كل ما يمكن للعمل والخير والطيبة أن يحسنوا.
وكان من الشعوب العربية ثائرون جمحت بهم الثورة حتى دكّت عروشاً
للطغيان، وزلزلت صروحاً للنفاق وعملت ما يمكنها أن تعمل في
تلك العصور.

وكانت ثورة مستمرة على الظلم، لذلك فقد كانت في خدمة القومية
العربية.

وكان اسم علي بن أبي طالب هو العلم الذي التفّ حوله الثائرون. وكان
دستور علي أبداً مع الثائرين.

أدب القمّة

- يا مُوقداً ناراً لغيرك ضوؤها
يا حاطباً في جبلٍ غيرك تحطبُ
- أرعد وأبرق يا يزيدُ
فما رعيديك لي بضائر
الكُتَيْتِ
- خليفة مات لم يحزن له أحدُ
وآخرُ قام لم يفرح به أحدُ
دغيل
- أرى الأيامَ تفعلُ كلَّ نكرٍ
فما أنا في المعائب مستزيدُ
- أليس قُريشُكم قتلْتُ حسيناً
وكان على خلافتكم يزيدُ
المعزي
- صلى وصام لأمرٍ كان يطلبُه
حتى حواه، فلا صلى ولا صام

دخل عليّ في الأدب العربي من أبوابٍ كثيرة، فأغنى هذا الأدب من حيث دخل، وأصبح مادةً من مادّته، وروحاً من روحه. ومدّ بالنفس الثوري تراثاً هو من أجمل مميزات الشخصية العربية الإنسانية، ومن أجل أركان القومية العربية.

أما الباب الأول : الذي صعد منه عليّ إلى القمّة فاستوى عليها سيّداً جليلاً؛

فتناجه الأدبي الذي تحدّثنا عنه بما ملأ المئات من صفحات هذا الكتاب، فلا حاجة بنا للعودة إليه. أمّا إذا شئت التخصيص فارجع إلى باب «بلاغة الإمام في خدمة الإنسان».

وأما الأبواب الأخرى التي دخل عليّ منها في الأدب العربي فأغناه، فأوسعها تلك القوى الثورية الزاخرة الهائلة التي مدّ بها الروح العربية على مدى التاريخ. فإذا بأدب الثورة على الفساد والظلم والنفاق، شعراً كان هذا الأدب أم نثراً، يلتفتُ إلى عليّ، ويناديه، ويدعو باسمه، ويستلهم تمرّده وثورته في معظم ما يهوي به على رقاب الظالمين من سياط الروح. فكما كان ابن أبي طالب صيحةً ينادي بها الثائرون على المظالم، كان كذلك صيحةً في شعر هؤلاء الثائرين. وكما كان علماً يلتفّ به الساخطون على الاستغلال كان كذلك في أدبهم.

والذي يفهم حقيقة الأوضاع العامة في العصور العربية القديمة، ونوع الحكم فيها وعلاقة الحاكم بالمحكوم؛ يدرك من فوره أنّه يستحيل على أدب الثورة والتمرد، في تلك العصور أن ينبع وأن يجري وأن يصبّ إلّا في إطارٍ من التشيع. أمّا المتكلّون على نعمة السلطان، فلا أثر في أدبهم للتمرد على الطغيان إلّا ما بَصّ منه قليلاً.

وعلى هذا يمكننا القول بأنّ أدب التمرد والثورة عند العرب إنّما هو أدب شيعي، وذلك لتشيع المتمرّدين الثائرين لعليّ تشيعاً أشبه بمذهب ثوري؛ لا ينال على ظلم ولا يرضى بهوان. ثم لما نهله المتشيّعون من الخلق العلوي، والوجدان العلوي والفهم العلوي فضمّنوه شعرهم على الأخصّ. ثم لأنّ الظروف والعوامل التي خلقت أدب الثورة في تلك العصور إنّما كانت هي نفسها كفيّلة بأن تجعل من صاحب هذا الأدب شيعياً أو متشيعاً، لتعلّقها بالعقل

والقلب والחסن الإجتماعي في وقتٍ معاً.

أما العقل فقد دلّ ذويه على الإثم الذي يغوص به الإستبداد، وعلى الأسباب التي دفعت الحكّام إلى الاستئثار وإلى توزيع الخير والشرّ على مَنْ يحبّون ويكرهون، ثم إلى تقسيم الحياة والموت على مَنْ يوالون ويعارضون. كما دلّهم العقل على مكان الظلم الصارخ في إنفاق الحكّام مال الشعب إنفاقاً مبدّراً عقيماً، وفي تجويع العامة وإذلالهم وإضطهادهم وحضرهم في جحيم من الفقر المريع والبؤس الفظيع، ثم في تقسيم المجتمع العربي بحُكم هذه السياسة طبقتين تتفاوتان في كلّ حقّ: طبقة الحكّام ومَنْ يواليهم ويصانهم ويستमित في مدهانتهم ومداراتهم، وهم الأقلّية على كلّ حال. وطبقة الشعب المحروم، وكان بأعماقه معارضاً ناقماً حزيناً كثيراً في وقتٍ واحد. وكان في طليعته معارضةً ونقمةً وكأبةً وحزناً شيعَةً عليّ وأنصارُ بنيهِ؛ لأنّهم كانوا في طليعة مَنْ أودوا وشُرّدوا وفُصلوا عن الحياة بالسيف أو بالجوع. وزادهم غضباً وتوجّعاً أن يقابلوا بين هذه الحياة البائسة الشقيّة التي يحياها أبناء عليّ وغيرهم من المفكرين والأحرار، وبين الحياة البطرّة الجشعة التي يحياها المهزّجون والمنافقون والمستأسدون في الجور والأثرة والاستغلاء.

أما القلب فمن طبعه ومعنى وجوده أن يحزن للأحرار المضطّهدين وللشعب المظلوم وللكرامات المهذورة والدماء المسفوكة، وأن يغضب ويثور.

هذا الواقع الذي دلّ عليه العقل وتوجّع له القلب وثار كان كفيلاً بأن يخلق الأدباء الشيعيين أو المتشيعيين. ولا يعني التشيع في هذا المقام إلا الانتصار للمعاني الإنسانية، والسخط على ما تعانيه من إضطهادٍ وتنكيلٍ من قِبَل حكامٍ طغاة. وقد حمل هذا الواقع حتّى أحمد أمين الذي عُرف بتحامله

على الحركات الفكرية الثورية في التاريخ العربي، وبتفسيرها تفسيراً لاهوتياً، لا يعني في حقيقته شيئاً كثيراً، على أن يعترف بهذه الحقيقة فيقول: «في الحق إن حركة التشيع أغنت الأدب العربي إلى حد كبير. وكان الأدب الناتج عنها أدباً غزيراً قوياً؛ وسبب ذلك أن الموقف الذي وقفه الشيعة من طبيعته أن يلهب العاطفة ويهيجها ويثيرها، والعاطفة أكبر دعامة من دعائم الأدب، فإذا أُثيرت وهاجت وكان بجانبها لسان طلق وبيان ناصع؛ فهناك الأدب الحي والقول الساحر.

وكان للشيعة عاطفتان بارزتان قويتان، يرجع إليهما النتاج الأدبي الشيعي: عاطفة الغضب وعاطفة الحزن. فأما الغضب فإنهم اعتقدوا أنهم سلبوا حقهم وغُصِبوه، وأُخذ منهم ظلماً وعدواناً، فغضبوا لذلك، ودعّتهم سورة الغضب أن يقولوا وأن يقولوا كثيراً في هجاء غاصبهم، وفي بيان حقهم، وفي شرح مظلمتهم، وفي وجهة نظرهم، وفي إظهار حججهم، إلى غير ذلك. وأما عاطفة الحزن، فإن الدولتين العباسية والأموية أخذتاهم بالعنف، فمن حين إلى حين تُحدثان فيهم مجزرة، ولا يَكان يجفّ منهم دم حتى يسيل دم، وتفتنتا في ذلك، فقتلٌ وصلب، وإحراقٌ وتذرية، وإماتة بطيئة في السجون بحرمانهم من النور والهواء، والأكل والماء، وكلّ هذا وأقلّ منه يستنزف الدمع ويذيب القلب، وكلّ هذا وأقلّ منه يُنطق الأبكم؛ فكيف إذا وقعت هذه الأحداث لنفسٍ نائرة ولسانٍ طلق وبيانٍ جزل؟ لقد بدأت هذه الأحداث بمجزرة الحسين وآل بيته، فكانت القصائد الباكية، والخطب الرائعة، والأقوال الدامية، صدىً للدماء المسفوحة، والجثث المطروحة، وكانت ذكراها تبعث في كلّ جيلٍ حزناً، فيبعث الحزن أدباً. وتتابع الأحداث فتتابع الأدب، فكان لنا من هاتين العاطفتين - الغضب والحزن - أدب حيّ غزير، فإن ثارت العاطفة

الأولى أخرجت أدباً ثائراً. وإن ثارت الثانية أخرجت أدباً حزيناً باكياً. فاجتمع في أدبهم القوة والضعف، واللين والعنف»^(١).
أما الغضب، فقد بعث أدب التمرد على الظلم. وأما الحزن، فقد بعث أدب الوفاء الإنساني.

يتلخص أدب التمرد هذا بإنكار الحق الذي يدعيه الأمويون والعباسيون في الخلافة وفي التحكم بمصير الناس، وبالإحتجاج عليهم وتصوير ما يأتونه من مظالم، ثم بدعوة الشعب إلى التمرد على مضطهدي الجماهير، ومحتكري أسباب السلطان، وأسباب الثروة، وأسباب الحياة دون سائر البشر، وهو في العصور التالية يتلخص كذلك بالثورة على الظلم، وبالنقمة على الغبن الاجتماعي أياً كان مصدره. وإليك تفاصيل هذه الثورة وهذه النقمة بأشكالهما جميعاً:

يثور الأدب الشيعي على الخلفاء الذين لا فرق عندهم بين البشر والسائمة، ويستتهم لا خائفاً ولا متهيباً وهو في دولتهم وتحت سلطانهم، فيقول على لسان الكُميت بن زيد الأسدي، في سياسة علي وأبنائه بموضع المقابلة مع سياسة الأمويين:

ساسةٌ، لا كمن يرى رِغِيَةً الناس سواءٌ ورِغِيَةَ الأنعام
لا كعبد المليك، أو كوليِّدٍ أو سليمانَ بَعد، أو كهشام^(٢)

ويقول الكميت في هشام وبني مروان الذين يخاطبون الناس على المنابر بالعدل، وينزلون عنها فيعملون بالجور:

مصيبٌ على الأعواد يومَ ركوبها بما قال فيها مخطئٌ حين ينزلُ:

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين: ج ٣ ص ٣٠٠.

(٢) الهاشميات والعلويات: ص ١٤

كلام النبيين الهداة كلامنا، وأفعال أهل الجاهلية نفعل^(١)
 ويزداد عنفاً ساعة يرى إلى الأحرار وهم طرداء مشردون، وإلى
 المتملقين وهم في نعيم الشعب راتعون، فيخاطب الأمويين بهذا القول
 الجريء:

فقل لبني أمية حيث كانوا وإن خفت المهند والقطيعا
 أجاج الله من أشبعتموه، وأشبع من بجوركُم أجياع^(٢)
 ويمعن الأمويون في اضطهاد هذا الشاعر الثائر، فيسجنونه ويعذبونه
 وينكلون به، فما يبادرهم إلا بمثل هذا القول:
 ما أبالي، ولن أبالي فيهم أبداً، رغم ساخطين رغام
 إن أمث لا أمث ونفسي نفسان من الشك في عمي أو تعامي
 وهذه الأمويون بالقتل، ورعدوا وأبرقوا، فقال:
 أرعد وأبرق يا يز يد، فما وعيدك لي بضائر^(٣)
 وظل الكميت يحارب الأمويين بالشعر وبالسيف حتى قتل. ولم يتهيب
 المتمردون من شعراء الشيعة أن يتوجهوا إلى الأمويين بلهجة العنف لإغفالهم
 شؤون الناس، وانصرفهم إلى أنفسهم وحدها. فهذا همام بن عبدالله، يرى
 إهمال الحكومة الناس في عهد يزيد؛ فيبعث إليه بقصيدة يقول فيها هذا القول
 اللامبالي:

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا

(١) الهاشميات والعلويات : ص ٦١، شرح ابن عقيل : ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) الهاشميات والعلويات : ص ٨٠، لسان العرب : ج ٨ ص ٦١ .

(٣) رسالة في معنى المولى للمفيد : ص ٣٢، كتاب العين للفراهيدي : ج ٢ ص ٣٤، لسان العرب : ج ٣ ص

لقد ضاعت رعيَّتكم وأنتم تصيدون الأرناب غافلين
وهذا عبد المحسن الصوري يتهم ملوك بني أمية باغتصاب أموال الناس
لإنفاقها في غايات منافقة، فيقول لهم وهو تحت أعينهم:
نَفَرُ مِنْ أُمِّيَّةٍ نَفَرَ الْإِسْـلامُ مِنْ بَيْنِهِمْ نَفَوْرَ إِبَاقِ
أنفقوا في النفاق ما غصبوه ، فاستقام النفاق في الإنفاق^(١)
ومن جرأة شعراء الشيعة على ملوك بني أمية، قول الفرزدق في هشام بن
عبد الملك:

يقلب رأساً لم يكن رأس سيّد وعينٌ له حولاءٌ بادٍ عيوبُها^(٢)
وساعدتهم حالهم على التبصّر في أخلاق النافذين، الذين يتوسلون إلى
مآربهم بكلّ وسيلة ممكنة، كما ساعدتهم تمرّدُهم على الجهر بما يرون
ويلحظون، فإذا بهم يحذّرون الناس من صوم النافذين ومن صلاتهم، فيقول
بعضهم في عبد الله بن الزبير الطامح إلى الخلافة:

صلّى وصام لأمرٍ كان يطلبه ، حتّى حواه ، فلا صلّى ولا صاماً^(٣)
وجاء العصر العباسي فإذا بأدب التمرد عند هؤلاء الثائرين على المظالم
يزداد قوّةً وعنفاً؛ فلا يهادن ولا يلين. فهذا القاضي التنوخي عليّ بن محمد
قاضي البصرة ثم قاضي الأهواز يُسأل رأيه في خلفاء بغداد، فيقول: إنهم
لا هون عابثون غادرون لا همّ لهم إلّا أنفسهم دون عامّة الناس، ثم ينشدهم
قصيدةً له فيهم يقول بها في خليفة زمانه:

نشأ بين طنبورٍ وزقٍ ومزهرٍ ، وفي حُجَرٍ شادٍ أو على صدر ضاربٍ

(١) الغدير: ج ٤ ص ٢٢٧ عن ديوان الصوري .

(٢) الأغاني للأصفهاني: ج ١٤ ص ٧٦ ج ١٩ ص ٤٠ .

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ٣٢٦ .

ثم يخاطب الخلفاء جميعاً:

هو السِّلْبُ المغصوبُ لا تملكونه وهل سالبٌ للغصبِ إلا كغاصِبِ
بنا نِلْتُمُ ما نِلْتُمُ من إمارةٍ فلا تظلموا! فالظلم مَرَّ العواقِبِ
ولمّا ملكْتُم صرْتُمُ بعد ذلّةٍ أسوداً علينا داميات المخالبِ
وكم مثل زيدٍ قد أبادت سيوفُكم بلا سببٍ غير الظنون الكواذبِ^(١)
وعرف الشعر العباسي شاعراً ثائراً وقف شعره على المظلومين من
الناس عامةً، ومن وُلد عليّ خاصّةً، وذلك لما وقع على هؤلاء من ظلم لم يقع
على سائر الناس. هذا الشاعر هو دُعْبِلُ الخزاعي الذي نقم عليه العباسيون
وهدروا دمه لأنّه بسط فيهم لسانه، فهجا الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم
وإبراهيم بن المهدي والواثق وسائر العباسيين والوزراء والولاة جميعاً. وما
رَدّعه عن هجوهم ما أجروا له من رزق، وما عرضوا عليه من ولاية أسوان
وبعض بلدان فارس. فهو لا يُعجب بالكرم يأتيه رشوةً، ولا يرضى عن حيل
الظالمين، بل آثر أن يطوف في الأرض مستخفياً مشزداً تحت كل سماء في
صحبة اللصوص والصعاليك والشطّار. وأسلط على العباسيين لساناً من نار،
حتى إذا انتهى بهجائه إلى تمزيقهم ارتدّ إلى أعوانهم من الوزراء والولاة
والقواد والصنائع يسخر منهم ويسوط جلودهم. فهم في نظره أولئك النكرات
الذين يقول فيهم:

إنّي لأفْتَحُ عيني، حين أفتَحُها، على كثيرٍ، ولكن لا أرى أحداً^(٢)
وكان الرشيد أوّل خليفة سلّط دعبِلَ لسانه عليه. ثم هجا المأمون هجاءً
موجعاً. وطمع إبراهيم بن المهدي في الخلافة، فبايعه العباسيون في بغداد، ثم

(١) معجم الأدباء: ج ٤ ص ١٨١.

(٢) المقد الفريد: ج ٢ ص ١٤٠.

خُلع عن الخلافة، فقال فيه دعبل كثيراً، ومن ذلك قوله:

نَفَرَ ابْنُ شَكْلَةَ بِالعِراقِ وأَهله فهِفَا إِلَيْهِ كُلُّ أَطْيَشٍ مائِقٍ ^(١)
أَتَى يَكُونُ، وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ، يَرِثُ الخِلافةَ فَاسِقٌ عَنِ فَاسِقٍ ^(٢)
إِنْ كَانَ إِبراهيمُ مُضْطَلَعاً بِها، فَلَتَصْلَحَن، مِنْ بَعْدِهِ، لِمُخَارِقٍ ^(٣)
وَقَالَ فِي بَيْعَتِهِ أَيْضاً:

بَـيْعَةُ إِبراهيمِ مَشْؤُومَةٌ يُقْتَلُ فِيهَا الخَلْقُ، أَوْ يَحْطَطُ
أَمَّا النَصِيبُ الأَوْفَرُ مِنْ نَقْمَةِ الشَّاعِرِ وَمِنْ نارِ هِجائِهِ، فَقَدْ انْصَبَ عَلَى
المُعْتَصِمِ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ الثَّامِنِ. وَكَانَ المُعْتَصِمُ بِدَوْرِهِ أَشَدَّ الخُلَفَاءِ نَقْمَةً عَلَى
الشَّاعِرِ، كَمَا كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ تَنْكِيلًا بِمُعَارِضِيهِ. وَبَلَغَ الشَّاعِرُ أَنَّ المُعْتَصِمَ يَرِيدُ
قَتْلَهُ، فَهَرَبَ فِي الجِبَالِ وَالْقَفَارِ، وَرَاحَ يَهْجُوهُ وَيَنْدُبُ حَظَّ النّاسِ فِي عَهْدِهِ،
بِمِثْلِ هَذَا القَوْلِ المَوْجِعِ:

وَقَامَ إِمَامٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةٍ، فَلَيْسَ لَهُ عَقْلٌ، وَلَيْسَ لَهُ لُبٌّ
مُلُوكُ بَنِي العَبَّاسِ فِي الكُتُبِ سَبْعَةٌ، وَلَمْ يَأْتِنَا عَنْ ثَامِنٍ لَهُمْ كُتُبٌ
كَذَلِكَ أَهْلُ الكَهْفِ فِي الكَهْفِ سَبْعَةٌ خِيَارٌ إِذَا عُدُّوا، وَثَامِنُهُمْ كَلْبٌ ^(٤)

(١) نفر: صاح. شكلة: أم إبراهيم. هفا: أسرع وذهب. المائق: الأحق.

(٢) تاريخ بغداد: ج ٦ ص ١٤٢، ديوان دعبل: ص ٢٤٤ طبعة بيروت.

(٣) مضطلعاً بها: ناهضاً بها. مخارق: أحد المفتين في صدر الدولة العباسية. وكان إبراهيم بن المهدي مشهوراً بالغناء والضرب على العود، فالشاعر يتهم به ويقول: إذا صلحت الخلافة له، وهو مغنّ عَزَّاد، فأجدر بها أن تصلح لغيره من المفتين فيكون مخارق وليّ عهده.

(٤) الكهف: المغارة. وأهل الكهف ورد ذكرهم في القرآن وهم سبعة شبّان لجأوا إلى مغارة خوفاً من ملك اضطهدهم، وكان معهم كلب، فسدّ باب الكهف، وأنزل الله عليهم سباتاً فناموا ثم بعثوا بعد زمن طويل. شبه الخلفاء العباسيين السبعة، بالسبعة الفتيان من أهل الكهف، ولم يشبههم بهؤلاء احتراماً لهم، وإنما فعل ذلك لينعت ثامنهم المعتصم بالكلب بين أخويه وآبائه. والعربي يمضه أن يكون نفاية أهل بيته.

وإني لأعلي كلهم عنك رفعةً ، لأتلك ذو ذنبٍ ، وليس له ذنبٌ^(١)
 وكان دعبل يرى أن رضا العامة عن الحاكم هو المقياس الذي يقاس به
 خيره، وأن سخطهم عليه هو المعيار لمقدار شره. ولما كانت العامة لا تحزن
 لموت أحدٍ من الخلفاء العباسيين ولا تفرح بقيام أحد؛ فإن ذلك يعني أن هؤلاء
 الخلفاء سواء في الجور والطغيان. يقول دعبل في موت المعتصم وقيام الواثق
 من بعده :

خليفة مات ، لم يحزن له أحدٌ ، وآخر قام ، لم يفرح به أحدٌ^(٢)
 وهكذا أبا الشاعر الثائر إلا مخاصمة من يطفى ويجور، فعاش عمره لا
 يُذعن ولا يساير ولا يلين، وظل مشرداً في كل أرض حتى مات. وكان يقول:
 «إني أحمل صليبي على كتفي منذ أربعين سنة؛ ولست أجد أحداً
 يصلبني عليه!»^(٣)

ومن النقرة على الطغيان وعلى موالاة الطغاة أيضاً، هذان البيتان الخالدان
 لشاعر المعزة العظيم أبي العلاء، وكأنه يسجل بهما قصة الطغيان من أجل
 الحكم في كل أدوار التاريخ، ويؤنب الراضين به تأنيباً عنيفاً وإن غُلف باللين
 لاستتاره بالسؤال:

أرى الأيام تفعل كلُّ نُكْرٍ ، فما أنا ، في العجائب ، مستزيدٌ^(٤)
 أليس قريشكم قتلت حُسَيْنًا ، وكان على خلافتكم يزيدٌ؟
 ومنها قولٌ عظيم المعزة أيضاً وقد هاله خداعُ النافذين وزيفُ الوجهاء

(١) ديوان دعبل : ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) ديوان دعبل : ص ١٤٩ البداية والنهاية : ج ١٠ ص ٣٤٠ .

(٣) الأغاني : ج ٢٠ ص ٦٩ ، ص ٨١ طبقات الشعراء لابن المعتز : ص ١٢٥ .

(٤) الكنى والألقاب : ج ١ ص ٩٢ نقلاً عن المسعودي .

ونفاق أصحاب المصالح، ثم ما يلقنه السابقون للاحقين من شرائع يجعلها المستنفعون في خدمتهم:

أطاعوا ذا الخداعِ وصدَّقوه وكم نَصَحَ النصيحُ فكذبوه
وجاءتنا شرائعُ كلِّ قومٍ على آثارِ شيءٍ رتبوه
وغَيَّرَ بعضهم أقوالَ بعضٍ وأبطلتِ النُّهى ما أوجبوه
فلا تفرخِ إذا كُرمَتْ فيهم فقد رفعوا الدنَى وكرَّموه^(١)
ومنها قوله أيضاً :

مُلَّ المقامُ، فكم أعاشرُ أمةً أمرت بغيرِ صلاحها أُمراؤها
ظَلَموا الرعيَّةَ واستجازوا كَيْدها وعدّوا مصالِحَها وهُم أجراؤها^(٢)
ومن الأدب العلوي المتمرد الذي يستثير النفوس، ويستنهض الهمم لدفع الظلم وتحطيم الظالمين، هذه الأبيات للسيد حيدر الحلي :

إن لم أقف حيثُ جيشُ الموتِ يزدحمُ فلا مَشَتْ بي في طُرُقِ العلى قَدَمُ
لا بُدَّ أن أتداوى بالقنا، فلقد صبرتُ حتّى فؤادي كلُّهُ أَلَمُ
عندي من العزمِ سرٌّ لا أبوحُ به حتّى تبوحَ به الهنديَّةُ الخُذُمُ^(٣)
مالي أُسالمُ قوماً جورُهم دَابُّ لا سألُمُني يدُ الأيَّامِ إن سلموا^(٤)
وراء هذا الحزن وهذا التلوع اللذين نحسهما لدى شعراء الشيعة؛ إذ يرثون عليّاً، أو يكون الحسين، أو يتفجّعون على وُلد الإمام، وعلى ما صارت

(١) اللزوميات : ج ٢ ص ٤٩٦ (دار الجبل).

(٢) اللزوميات : ج ١ ص ٥٦ (دار الجبل).

(٣) الخذم : جمع الخذوم وهو القاطع من السيوف .

(٤) ديوان السيد حيدر الحلي : ص ١٠٣ (طبقة مؤسسة الأعلمي).

إليه حالهم من القتل والأسر والتحريق والصلب، تمتد آفاق من السخط على الظلم قد تخفى وقد تبين، وتنبعث أصداء من الثورة على الظالمين تحسُّها تهدرُ خلف سُدولٍ من الدمع، وخلف ألسنةٍ من لهب القلب المتوجع الحنون. وتكفيك دليلاً على صحة هذا القول تائفة دِغبل، ولا نرى فائدة من إثباتها هنا لشهرتها وكثرة رُواتها. وتكفيك كذلك قصيدة ابن الرومي في التفجع على يحيى بن عمر حفيد الحسين^(١)؛ فوراء ما فيها من الدموع والحسرات، سخطٌ عنيدٌ وثورةٌ عارمة على العباسيين الذين يجسمون أهل الظلم في قصيدة الشاعر، فإذا به يتوعدهم بثائرٍ قد يأتي به الزمن فيهلك بظلمهم، ويهلك أمراء دولتهم؛ انتصافاً للمظلومين من أبناء علي، وهم كغيرهم ممن ظلمَ يحق للشعر أن يستنفر القلوب والأيدي في سبيلهم. وفي هذه القصيدة يقول مخاطباً العباسيين:

غُررتم لئن صدَّقتم أنَّ حالاً تدوم لكم ، والدهر لونان ، أخرج
لعلَّ لهم ، في منطوي الغيب ، ثائراً سيسمو لكم ، والصبح في الليل مولج^(٢)
وكان هؤلاء الشعراء لا يذكرون مصرع واحدٍ من أبناء علي إلا ذكروا
مآسي علي نفسه على أيدي أهل الجور، وذكروا مأساة الحسين وذويه،
وذكروا ما لحق بالرسول من الأذى على أيدي تجار قريش. من ذلك ما يقوله
أحدهم في مقتل يحيى بن عمر المذكور:

قَطَعْتُ وَجْهَهُ سِوْفُ الْأَعَادِي ، بِأَبِي وَجْهَهُ الْوَسِيمُ الْجَمِيلُ

(١) قتل يحيى في خلافة المستعين ، وحمل رأسه ورؤوس من قتلوا من أنصاره إلى بغداد. وقد روى ابن الأثير خبر مقتلهم بالتفصيل في ص ٤٨ من الجزء السابع من تاريخه «الكامل».

(٢) مقاتل الطالبين : ص ٤٢٧ .

قَتْلُهُ مُذْكَرٌ لَقَتْلِ عَلِيٍّ وحسينٍ ، ويوم أُوذي الرسول^(١) والناظر في أدب الشيعة نظراً عميقاً يدرك أن الحسين - مثلاً - أو غيره من المبكي عليهم من وُلد علي لم يكونوا ليمثلوا أشخاصاً معيّنين وحسب، بل كانوا يمثلون فكرة معيّنة. فقد أصبح الحسين - مثلاً - في هذا الأدب رمزاً لمن تلحق بهم النكبات، وينكل بهم الحكام لمصلحتهم. وأصبح معاوية - مثلاً - أو يزيد رمزاً كذلك للمخادع الظالم الطاغوي. لذلك ترى أن الشاعر إذا شاهد المظالم الواقعة على الناس في زمانه استعاد بخياله ذكرى كربلاء. وإذا ذكر سخط المظلومين على طغاتهم استعاد ذكرى عاشوراء، فقال:

كَأَنَّ كُلَّ مَكَانٍ كَرْبَلَاءَ لَدَى عَيْنِي ، وَكُلَّ زَمَانٍ يَوْمُ عَاشُورَا
وما تلقاه من أجيجِ الثورة على الظلم والسخط على الظالمين وراء الدمع والتفجع في شعر الرثاء العلويّ، تلقاه كذلك في تلك القصائد والمقاطع التي يذمّ بها الثائرون الزمّانَ. وما الزمان المذموم في شعرهم إلّا تعبيرٌ عن الفساد الذي في الزمان، وعن البغي الذي فيه. ومن نماذج هذا الشعر قول عليّ بن أحمد النيسابوري الذي عاش في القرن السادس للهجرة:

زَمَانُنَا زَمَانٌ سَوْءٌ لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا فَلَاحَا
لَا يُبْصِرُ الْمُبْلسُونَ فِيهِ ، لِلَّيْلِ أَحْزَانُهُمْ صَبَاحَا^(٢)
فَكُلُّهُمْ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ ، طَوْبِي لِمَنْ مَاتَ فَاسْتَرَا^(٣)
وواصل المتشيعون لعلّي أدب الثورة هذا على مدى العصور العربية بعد الإسلام. وكان في هذا الأدب نواحٍ سلبية، وكان فيه نواحٍ إيجابية كذلك. وإنّي

(١) الكامل في التاريخ : ص ٤٨ ، الكنى والألقاب : ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) المبلسون : جمع المبلس ، وهو الفقير البائس المحتير. مجمع البحرين : ٢٤٠/١ ، مادة «بلس» .

(٣) أعيان الشيعة : ج ٨ ص ١٥٦ .

لأشعر بأنّ القارئ يستزيدني من إثبات نماذج جديدة من هذا الأدب الثائر، الذي كانت شخصية عليّ بن أبي طالب المحوّر الخفيّ الذي يدور حوله. وإني لأزيد من هذا الأدب الذي تتجلّى فيه رغبات القومية الصحيحة، في عصور الطغیان وإرهاق العامة، فوق ما تتجلّى في سواه. وإليك هذه الأبيات الثائرة على الفقر، والداعية إلى جعل الوطن لكلّ بنیه، وكأنّي أرى فيها كلمة عليّ بن أبي طالب القائل: «خير البلاد ما حمّلك، الفقير غريب في وطنه، ومن ضيّعه الأقرب أتيح له الأبعد!»^(١)، وكلمة الشاعر العظيم أبي ذرّ الغفاريّ القائل: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه!»^(٢). وهي لعبدالرضا بن زين الدين العاملي المعاصر لبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول:

لا أحبّ الفتيّ أراه، إذا ما عَضَّ الدهرُ، جائماً في الظلال
مستكيناً لذي الغنى، خاشعَ الطرْفِ، ذليلَ الإِدبار والإقبال
أين جُوبُ البلاد شرقاً وغرباً، واعتسافُ السهولِ والأجبال؟
ذهب الناسُ فاطلب الرزقَ بالسيِّفِ وإلا فمُتْ شديدَ الهُزال

وفي مثل هذا المعنى أيضاً يقول أحد الشعراء العاملين:

لَمَّا رَأَيْتُ بِلَادِي بِلَادَ فَقْرٍ وَفَاقَةَ
وَالدَّهْرَ أَخْنَى عَلَيْهَا مَذْلازِمَتَهُ الْحِمَاقَةَ
وَالضِّمِّمَ أَلْقَى عَصَاهُ فِيهَا، وَمَذْ رَوَاقَةَ
غَادَرْتُهَا إِذْ لَيْسَ لِي عَلَى الْمَذَلَّةِ طَاقَةُ^(٣)

ولعليّ بن طيّب ينظم ما قاله عليّ بن أبي طالب في هذا المقام:

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٤٤٢٠.

(٢) مستدرک سفینة البحار: ج ٧ ص ٤٨٦ دون أن يُنسب إلى أبي ذرّ.

(٣) لم تتبين اسم الشاعر.

فما العز إلا حيث أنت موقرٌ ، وما الفضل إلا حيث ما أنت فاضلٌ
وما الأهل إلا من رأى لك مثلما رأيت ، وإلا فالمودّة باطلٌ
إذا كنت لا تنفي عن النفس ضيمها فأنت لعمرى القاصر المتطاوُل^(١)
وللمتنبي :

وكلُّ امرئٍ يُولي الجميلَ محببٌ وكلُّ مكانٍ يُنبئُ العزَّ طيبٌ^(٢)
فمن شروط محبة الوطن في شعر التمرّد عند الشيعة أن تكون الأرض
للشعب، لا للإقطاعي ولا للحاكم. وأن يكون المال للعامل لا للناهب. ولهذا
يتحسّر أبو فراس الحمداني على حالة الناس في زمانه فيقول:
والأرض إلا على مُلاكها ، سعةٌ ، والمالُ إلا على أصحابه ، ديمٌ^(٣)
ولهذا أيضاً يتحسّر الكميت الأسدي على الشعب المأكول جهده؛
فيخاطبه مستنهضاً إياه:

يا مُوقداً ناراً لغيرك ضوؤها يا حاطباً في جبلٍ غيرك تحطبٌ^(٤)
وإليك أيضاً هذه الأبيات التي قالها أحد العاملين في ذمّ العشارين
والدفاع عن الفقراء، وتفضيل الجراد على الحكّام الذين لا همّ لهم إلا نهب
الناس:

وعاملةٌ بها عاثوا فساداً كأنهمُ بقايا قومٍ عادٍ
كأنهمُ بأموال البرايا رياحٌ عاصفاتٌ في رمادٍ
من « التقدير » أهلُ المُلك أضحتْ تحتي بالسلام على الجرادِ

(١) أعيان الشيعة للأميني : ج ٣ ص ١٤٨ ج ٨ ص ٢٩٥ .

(٢) ديوان المتنبي : ص ٤٦٨ (طبعة دار صادر) .

(٣) ديوان أبي فراس : ص ٢٨٩ (طبعة دار الجبل) .

(٤) الكميت ، شاعر العصر المرواني ، للصعدي : ص ٧٥ (دار الفكر العربي) .

وإنَّ بُكَاءَ الأَرامِلِ واليَتامَى له لَأَنّ الأَصمُّ مِنَ الجَمادِ
فكم نادت لرفع الظلم عنها «ولكن لا حياة لمن تنادي»؟^(١)
ومن الشعر الآخذ من النَّفس العلويِّ الثوريِّ، تلك الروائع التي يترقّع بها
الشعراء المتشيعون عن صغر النفس والدنيا، ويأبون لقمة العيش إن لم تكن
حقاً لهم في مجتمع يرفع العدالة ويأخذ أبناءه بالمساواة فتكون جنائهم
لأفواههم، كما يقول ابنُ أبي طالب. أمّا معنى القناعة في مثل هذا الشعر، فليس
ذاك الذي يعارض التفتّح والانطلاق ويدعو إليه الزاهدون، وإنّما هو مرادفٌ
لإكرام النفس عن التوسّل إذا هي لم تبلغ مرادها من العيش الكريم، عن طريقٍ
مستقيم في مجتمع سليم، وقد قال عليّ بن أبي طالب: «مَنْ كَرُمَتْ عليه نفسه هان
عليه ماله»^(٢). والموت خيرٌ من ذلّ التوسّل! وإليك هذا المقطع من قصيدة لعليّ
بن الحسين العقيلي، نرويه مصدّقاً لما نقول:

إذا ما كان في بيتي رغيْفُ فذاك اليومُ عندي يومُ عرسٍ^(٣)
فإن قصُرْتُ يدي عنه لُعدم رجعتُ بها إلى زاد التأسّي
ولم أسحب لشوب الذلّ ذيلًا ولو سَحَبَ الطوى جسمي لرمسي
لأنّ الموت أسهلُّ من مقامٍ أعرّضُ للتوسّل فيه نفسي
ومن روائع هذا النفس العلويِّ الثائر المترقّع الصابر، هذان البيتان
الفريدان للقاضي عليّ بن عبدالعزيز الجرجاني، الذي تتبّع عليّ بن أبي طالب
في كلّ ما قال وعمل، وتشيع لأخلاقه وصفاته وموقفه من الدولة والمجتمع
وتوزيع الثروة، وأخذ من نظرتة إلى الأمور، وقد قالهما في إقامة له بأرض

(١) اقتباس من قصيدة «كثير» في رثاء صديقه، معجم البلدان : ج ٥ ص ٤٢٩ .

(٢) شرح نهج البلاغة : ج ٢٠ ص ٣٢٧ .

(٣) أعيان الشيعة : ج ٨ ص ١٦٨ .

سَرنديب من بلاد الهند وفيها كثيرٌ من الأغنياء الذين أرادوا حملَه على التملق لهم كي يكسب عيشه:

أَمْطَرِي لَوْلَوْأَ جِبَالَ سَرنديب ، وفِيضِي آبارَ تَكَرَّورَ تَبْرَا
أَنَا إِن عَشْتُ لَسْتُ اَعْدَمُ قُوتاً ، وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ اَعْدَمُ قَبْرَا^(١)
ومنها أيضاً قولُ الجرجاني نفسه يردّ على بعض أصحابه؛ وقد لاموه على
مجاافته الحُكَّام والنافذين والأثرياء، وعلى ترفُّعه عنهم، وأرادوه أن يتملّقهم
ليُفيد من علمه على أيديهم. وكان الجرجاني تلميذاً لعلّي في نظرته إلى قيمة
العلم الذي «يحرص أصحابه»، وإلى كرامة العلماء ووظيفتهم التي تقوم بخدمة
المجتمع وهداية الناس إلى الخير، لا باستخدامه لمصلحة المناققين:

يَقُولُونَ لِي: فَيْكَ انْقِبَاضُ! وَإِنَّمَا رَأَوْا رَجُلًا عَنِ مَوْقِفِ الذَّلِّ أَحْجَمًا
إِذَا قِيلَ: هَذَا مِنْهُلٌ! قُلْتُ: قَدْ أَرَى وَلَكِنْ نَفْسَ الْحَرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا
وَكَمْ طَالِبٍ رَقِيَ بِنُعْمَاهُ، لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ الرَّئِيسَ الْمَعْظَمًا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي لِأَخْدَمَ ، مَنْ لَاقَيْتُ لَكِنْ لِأُخْدَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ، وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النَفُوسِ لِعُظِّمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَسُوا مَحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا^(٢)

وفي هذه النماذج من الشعر الثوري ما يكفي للدلالة على ما قدّمه
المتشيعون لعلّي، المعارضون للفساد والظلم والغبن الاجتماعي بأشكاله
وألوانه جميعاً، من خدماتٍ للقيم الإنسانية في الشخصية العربية، وعلى ما
أرادوه من الخير للقومية العربية، إذ لا قومية إلّا حيث تُحَفَظ كرامةُ القوم بالعدل

(١) كتاب الأم، للشافعي: ج ١ ص ١٤.

(٢) الخلاف للطوسي: ج ١ ص ٦٠٠، البداية والنهاية: ج ١١ ص ٣٣١، شذرات الذهب: ج ٣ ص ٥٦.

طبقات الشافعية: ج ٢ ص ٣٠٨

والمساواة وبرفع الحاجة أولاً.

وكان عليّ بن أبي طالب، بآرائه ومبادئه وأقواله وأعماله وحياته وما خلفه من ترغيب الناس في العدالة الاجتماعية، وبحكم الظروف القاسية التي عاشها المتشيعون له، ينبوع العميق الذي جرت منه هذه الثورة وهذا التمرد وهذا الشعر.

أدبُ الوفاءِ الإنساني

- حبُّ عليّ بن أبي طالبٍ
للناسِ مقياسٌ ومِيارٌ
يُخرجُ ما في أنفسهم مثلما
يُخرجُ غشَّ الذهبِ النارُ^(١)
سيف الدولة
لم يعرفوه فعاذوه لجهلهم
والناسُ كلهم أعداءُ ما جهلوا^(٢)
ابن السكون الحلي
- لا تكتسي وفتاةً الحي عاريةً
ولا تُنبِّ ومهضوم الحشا شنيباً^(٣)
عبد المهدي مطر

قلنا إنّ النعمة على الظلم والحزن على المظلوم والوفاء له، كانت في أساس
أدب المتشيعين لعليّ بن أبي طالب. فعن هذه العواطف انبثق، وفي أرضها
نمت دوحته وتعالّت حتّى أظلت التاريخ العربي بجملته. وقد أسمىنا الأدب
الذي يأخذ مجراه من السخط والنعمة أدب التمرد. وكذلك أسمىنا الأدب الذي

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ج ٢ ص ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٢ ص ١٩٤.

(٣) ديوان عبد المهدي مطر من قصيدته في تذهيب باب مرقد الإمام علي (عليه السلام) والتي مطلعها:
لملح بسباب عليّ أيها الذهبُ واخطف بأبصار من وذوا ومن غضبوا

ينبع من عاطفة الحزن العميق، ومن ذكرى المصائب والآلام، ثم من الوفاء لذكرى مَنْ جرى عليهم الظلم أدب الوفاء الإنساني. وإنا نرى أنَّ هذه التسمية صوابٌ وحقٌّ؛ ذلك لأنه أدب الشاعر أو الناثر الذي لا يبغي من أدبه إلا تصويرَ همٍّ يحمله الآخرون، أو وصفَ حزنٍ عميقٍ يحسه بسبب ما لحق بعليٍّ وبنيه وأنصارهم من الاضطهاد والتنكيل والتقتيل، أو تأليفَ شيءٍ يفني بما لأولئك الخيرين عليه من حقٍّ. وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أنَّ عليّاً وبنيه أصبحوا لدى هؤلاء الأدباء أفكاراً ومبادئ، فإن هم حزنوا عليهم فإنما هم يحزنون على كلِّ مضطهدٍ وكلِّ مظلوم وكلِّ عظيم في الأرض عقه قومه وآذوه. ثم إنَّ أصحاب هذا الأدب ربّما لقوا بما ينظمون وينثرون اضطهاداً وتنكيلاً وتشريداً على أيدي الحاكمين. وكثيراً ما كانت تنتهي بهم الحال إلى أن يُقتلوا صلباً أو حرقاً أو تقطيعاً أو حبساً عن الخبز والماء والهواء ونور الشمس. ومع ذلك فقد كانوا يزدادون تمزداً وحزناً، ويُكثرّون من النظم في هاتين الحالتين. وفي ذلك ما فيه من شرف العاطفة الإنسانية وكرم الوفاء الإنساني.

غير أنَّ هذه التجزئة بين ما أسميناه أدب التمرد وأدب الوفاء الإنساني، ليست إلا تجزئة شكلية تتناول مظهر الأدب المتشيع، ولا تتناول جوهره. والحقيقة أنَّ كلاً من هذه النعمة على الظالم ومن هذا الوفاء للمظلوم نابعٌ من الآخر، متفاعلٌ معه، باعثٌ عليه. وكثيراً ما نرى هذه الوحدة بين الحزن والغضب، وبين الوفاء والنعمة، وبين البكاء والثورة في القصيدة الواحدة، كما هي الحال في معظم القصائد التي يتحدّث أصحابها عن عليٍّ ومأساته، أو عن بنيه ومآسِيهم، أو عن المظلومين وما صارت إليه أحوالهم.

وقد بدأت مظاهر هذا الوفاء لشخصية ابن أبي طالب ومبادئه منذ بدأت حلقات المؤامرة على الإمام تُدبّر وتُنقذ بأيدي الوجهاء. ولم يكن الوفاء لعليٍّ

مرتبطاً في قلوب أصحابه إلا بالقيم العلوية ذاتها. لقد كان شيئاً من صرخة الجمال في وجه القبح، ومن الثقة بالخير على يد خليفة والدٍ محب يأخذ الناس بما يأخذ به نفسه. فهذا عبدالله بن الطفيل العامري يقضي أيام صفين إلى جانب علي، حتى إذا تنادى جماعة معاوية بآبائهم وأجدادهم، أجابهم قائلاً: **وَقُلْنَا عَلِيٌّ لَنَا وَالِدٌ وَنَحْنُ لَهُ طَاعَةٌ كَالْوَلَدِ^(١)** وهذا عبيدالله بن كثير يتصدى لخالد بن عبدالله عامل الأمويين على مكة، ويبيده حياته وموته، فيلعنه لأنه يلعن علياً والحسين في خطبه على عادة الأمويين وولاتهم وعمالهم، قائلاً:

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا وَحُسَيْنًا، مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كَلَّمَا قَامَ قَائِمٌ بِسَلَامٍ^(٢) ودخل علي في الأدب العربي من هذا الباب أيضاً. فكان من عاطفة الوفاء له ولمبادئه شعرٌ رائعٌ رفيع. وكان من مظاهر هذا الوفاء ما أشرنا إليه من الشعر الذي يصور حب الناس له، وإيمانهم بقيمته الإنسانية إيماناً لا يبلوه الزمان ولا تتغلب عليه المحن. وكان من هذا الحب وهذا الإيمان أن جعل الناس يباركون اسمه، اسماً تجتمع فيه الفضائل والمروءات، فإذا المتنبي يخاطب سيف الدولة وكان اسمه علياً، قائلاً: «مبارك الاسم أغرُّ القلب»^(٣). ومن مظاهر هذا الحب وهذا الإيمان صيغُ الإجلال والتعظيم التي يلجأ إليها الناس كلما أرادوا أن يذكروه. وإليك ما يقوله المتنبي مخاطباً سيف الدولة أيضاً، وكان بينه وبين المصريين حربٌ بصقّين:

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم: ص ٣١٣، شرح نهج البلاغة: ج ٥ ص ٢٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١٥ ص ٢٥٦، تاريخ مدينة دمشق: ج ١٩ ص ٤٦٧.

(٣) مختصر المعاني للفتازاني: ص ١٦.

يا سيف دولة ذي الجلال ومَن له خيرُ الخلائق والأنام سُمي
أنظر إلى صفين حين أتيتها، فانجاب عنها العسكرُ الغربيُّ
فكأنه جيشُ ابنِ هندٍ رُغتهُ، حتَّى كأنك، يا عليّ، عليّ^(١)
ومن روائع المتنبي في عليّ وقد عوتب في تركه مدحه، هذان البيتان
اللذان يشهدان بما يضرر له من عاطفة الإعجاب، وبما في نفسه من إيمانٍ
بعقريته:

وتركتُ مذحي للوصيِّ تعمّداً، إذ كان فضلاً مستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بنفسه، وصفاتُ ضوء الشمس تذهب باطلاً^(٢)
وبلغ من وفاء الناس لابن أبي طالب أنهم راحوا يجلون كلَّ من فهمه وأحبّه،
وكان وفيّاً لذكراه كما يجب الوفاء لذكرى عظيم من الخلق؛ قضى مظلوماً
شهيداً. فإذا مات عمر بن عبدالعزيز الأمويّ الذي فهم عليّاً وأحبّه ورفع عنه
السبّ، قال فيه الشريف الرضي:

يا ابنَ عبدالعزيز، لو بكتِ العينُ فتىً من أميّة، لبكيْتُك
قد نما العدلُ منك لما نأى الجورُ بهم، فاجتويهم، واجتبيتُك
فلو أني ملكْتُ دفعاً لما نالك من طارقِ الردى، لأفتديتُك^(٣)
من مظاهر الوفاء لابن أبي طالب أن الشعراء لم يتركوا فضيلةً من فضائله
إلا قالوا فيها شعراً، ولا صفةً من صفاته إلا صوّروها نظماً وعلّقوا عليها.
ويروى أن السيد الحميري وقف مرّة بالكوفة فقال: «من أتاني بفضيلةٍ

(١) معجم ما استعجم للبكري: ج ٣ ص ٨٣٨.

(٢) ديوان المتنبي: ج ٢ ص ٥٤٦ طبعة البرقوقي ويلاحظ حذف البيتين من الطبقات الحديثة !!

(٣) ديوان الشريف الرضي المعقّدة رقم ١٢٤ شرح نهج البلاغة: ج ٤ ص ٦٠.

لعلي بن أبي طالب ما قلتُ فيها شعراً فله ديناراً!»^(١).

ومن مظاهر هذا الوفاء أيضاً أن المتشيعين من الشعراء لم يتركوا قولاً قاله عليّ، إلا حفظوه وردّوه وتأثّروا به ونظموه شعراً؛ إمعاناً منهم في إجلاله وتجسيماً لعنايتهم به. وإليك الآن نماذج من هذه الطرائف المبثوثة في كتب الأدب والتاريخ. قال عليّ: «ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسداً». فقال أحدهم: قل للحسود إذا تنفّس ضغنةً يا ظالماً وكأنّه مظلومٌ^(٢) وقال عليّ: «قيمة كلّ امرئٍ ما يُحسن». و «اعلموا أنّ الناس أبناء ما يُحسنون». فنظموا هذا المعنى نظماً كثيراً، فقال أحدهم:

لا يكون اللبيبُ مثلَ الخليّ لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
قيمةُ المرء كلّ ما يُحسنُ المرءُ ، قضاء من الإمام عليّ^(٣)
وقال آخر :

قولُ عليّ بن أبي طالب وهو الإمام العالمُ المتقنُ
كلُّ امرئٍ قيمتهُ عندنا وعند أهل الفضل ، ما يُحسنُ^(٤)
وقال ثالث :

قيمة الإنسان ما يُحسنه أكثر الإنسان منه أم أقل
وقال عليّ: «الناس أعداء ما جهلوا»^(٥). فقال ابن السكون الحليّ:

يا سائلي عن عليّ والألئى عملوا به من سوء ، ما قالوا وما فعلوا
لم يعرفوه فعادوه لجهلهم ، والناس كلّهم أعداء ما جهلوا

(١) مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: ج ٢ ص ١٣٦ عن ديوان الحميري: ص ١٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ٣١٧.

(٣) جواهر المطالب لابن الدمشقي: ج ٢ ص ١٥٦ ونسبه للخليل بن أحمد.

(٤) لم نوفق للمثور على قائله.

(٥) نهج البلاغة ، الكلمات القصار: ٧٢ خصائص الأئمة للرضي: ص ١١٠

وقال عليّ : «لو تُنيت لي وسادةً فجلستُ عليها؛ لحكمتُ في أهل التوراة بتوراتهم، وفي أهل الإنجيل بإنجيلهم، وفي أهل القرآن بقرآنهم، حتّى تركتُ كلَّ كتابٍ ينطق من نفسه»: لقد صدق عليّ!، فقال بعضهم:

والله لو أنّ الوسادة لي بكم تُنيتُ بما حظَرَ الإلهُ وحلّلا
 لحكمتُ في قوم الكليم بمقتضى توراتهم حكماً بليغاً فيصلا
 وحكمتُ في قوم المسيح بمقتضى إنجيلهم وأقمتُ منه الأميّلا
 وحكمتُ بين المسلمين بمقتضى قرآنهم وأبنتُ منه المُجمللا
 حتّى تقَرَّ الكتُبُ ناطقةً لقد صدّق الأمينُ عليّ في ما علّلا^(١)
 وإليك الآن طائفةٌ من الحُكَم العُلوية منظومةً بأقلام تتراوح أزمَنُتها بين
 عهد الإمام عليّ وأيامنا هذه. أمّا الحُكَم التي كانت أصلاً لهذه المنظومات فلسنا
 بحاجة إلى إثباتها هنا، فإذا شئتُ أن تعرفها واحدةً واحدةً فارجع إليها في
 مكانها بباب «من روائع الإمام».

يقول ابن سنان الخفاجي ناظماً كلمات عليّ في نقص المقاييس بزمانه،
 وفي فعل الجميل وإعانة البائس وترك المِرءاء والخصومة، وفي البخل،
 والمفاخرة، والعلم الذي يطلبه بعضهم للجدال ولاكتساب صدور المجالس، ثمّ
 في الاستغفار عن كلّ هفوة وعن كلّ واجبٍ يخشى أن يكون قد قصر في
 القيام به، وفي الشز الذي يحسبه بعضهم حزماً:

عُكِسَ الأثام ، فإن سمعتَ بناقصٍ فاعلم بأنّ لديه حظّاً زائداً
 وافعلْ جميلاً لا يضيعُ صنيعةً واسمخْ بِقُوتِكَ للضعيف البائس
 لا تَركنَنَّ إلى المراءِ فإنّه سببٌ لكلِّ تنافُرٍ وتنافُسٍ

ألف البخيلُ مِكَاسَهُ في ماله ، والعمرُ أنفقَ منه غيرَ مُماكِسٍ
درسوا العلومَ ليملاًوا بجدهم فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسٍ
لا تَفخَرَنَ ، وإن فخرتَ فبالهدى ناضلٌ ، وفي بذلِ المكارمِ نافسٍ
أستغفرُ اللهَ من تركي وإخلالي وهفوةٍ خطرتُ مني على بالي
صحبتُ قوماً يُعدُّ الشرُّ عندهمُ حزمًا تشيرُ به الآراءُ والفتنُ
عموا عن الرشدِ واعتادت نفوسُهُمُ فغلَّ القبيحُ ، فظنُّوا أَنه حسنٌ^(١)
ويقول عليّ بن الحسين العقبلي ناظماً بعضَ رأي عليّ بن أبي طالب في
التعصّب:

ما يقربُ المرءَ من قرنٍ يلدُّ به حتّى يكون بعيداً عن تعصُّبه^(٢)
ثم إليك قليلاً من الأرجوزة التي نظم بها عليّ الجبيلي كلّ ما وسعهُ نظمه
من أقوال ابن أبي طالب، نثبته هنا بقطع النظر عن قيمته الشعرية:

العلمُ أسبابُ النجاة فيه والجهلُ يُردي أبدأ ذويه
والحلمُ بابٌ تابعٌ للعلمِ وذاك بادٍ عند أهل الفهمِ
وكلُّ مَنْ عامَل بالرفق غنمٌ وكلُّ مَنْ عامَل بالعنف ندِمٌ
حملك يوماً مننَ الرجالِ أثقلُ من حملك للجبالِ
وقرعُ بابِ الرجلِ اللئيمِ كقلعِ بابِ السيّدِ الكريمِ
إنّ البخيلَ أبدأ ذليلٌ يذمه الحقيِرُ والجليلُ
وجامعٌ مالا لَمَن لا يشكرهُ وقادمٌ على الذي لا يعذرهُ
ما هو إلا خازنٌ لغيرهِ حاملُ عبءِ شرِّه وخيرهِ

(١) القائل هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان توفي سنة ٤٦٦ هـ أخذ الحكمة والأدب عن المعري. أعيان

الشيعة: ج ٨ ص ٧٤.

(٢) أعيان الشيعة: ج ٨ ص ١٧٠.

إِنَّ لَمْ يَكُن مِّن بَاطِلٍ قَدْ جَمَعَهُ
 وَالْمَوْتُ مِّن ذَلِّ السُّؤَالِ أَهْوَنُ
 وَالْفَقْرُ غَرِيبَةٌ لِّمَن تَوَطَّنُوا
 وَإِنَّمَا فَضِيلَةُ الْإِنْسَانِ
 وَأَفْضَلُ الْجَمِيلِ وَالْمَعْرُوفِ
 وَقَدْ غَدَا مِنْ شَيْمِ الْأَبْرَارِ
 وَالشَّهْمِ لَا يَشْمُتُ بِالمَصَابِ
 يَعَامِلُ النَّاسَ بِلَيْنِ الْجَانِبِ
 يَعُودُ بِالْعَفْوِ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ
 يَمْحُضُ لِّلْمُسْتَنْصَحِ النَّصِيحَةِ
 مَا الْفَخْرُ إِلَّا بِعَلْوِ الْهَمَمِ
 وَالْكَذِبُ مُزِرٌ وَيَكُ بِالْإِنْسَانِ
 فَلَا تَصَاحِبْ أَبَدًا كَذَابًا
 يَقْرَبُ الْقَاصِي الْبَعِيدَ عَنكَ
 لَوْ صُوِّرَ الصِّدْقُ لَكَانَ أَسَدًا
 وَالْعَاقِلُ الْمَالِكُ أَمْرَ لُبِّهِ
 وَإِذَا كَرَّ أَخَاكَ بِالَّذِي تَرْضَاهُ
 وَسَامِعُ الْغِييَةِ كَالْمَغْتَابِ
 وَإِكْرَهُ لِكُلِّ النَّاسِ مَا تَكْرَهُهُ
 أَحَبُّ لَهُمْ مِثْلَ الَّذِي تَحِبُّ
 وَأَدَبُ النَّفْسِ بِمَا تُنْكِرُهُ
 وَمَنْكَرٌ مَّعَانِبًا يَرْضَاهَا
 أَوْ حَقٌّ ذِي حَقٍّ فَقِيرٌ مِّنْعَهُ
 هَذَا إِذَا جَارَ عَلَيْكَ الْمُحْسَنُ
 كَمَا الْغَنَى لِلْغُرَبَاءِ وَطَنُ
 بِبَذْلِهِ لِلخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ
 إِغَاثَةُ الْمَكْرُوبِ وَالْمَلْهُوفِ
 أَنْ يَحْمِلُوا النَّفْسَ عَلَى الْإِيثَارِ
 كَلَّا ، وَلَا يَنْبِزُ بِالْأَلْقَابِ
 يَقْدُمُ الْخَيْرَ لِكُلِّ صَاحِبٍ
 دَوْمًا ، وَيُعْطِي كَرَمًا مِّن حَرَمِهِ
 وَيَسْتَرِ الْعَوْرَةَ وَالْفَضِيحَةَ
 لِلنَّاسِ طَرًّا ، وَالْوَفَا بِالذَّمِّ
 وَآفَةُ الْمَرْءِ مِنَ اللِّسَانِ
 وَلَا تَكُن فِي أَمْرِهِ مَرْتَابًا
 وَيُتْبَعُ الدَّانِي الْقَرِيبَ مِنْكَ
 وَالْكَذِبُ فِي صُورَةٍ تُعْلِبُ بَدَا
 لِسَانُهُ دَوْمًا وَرَاءَ قَلْبِهِ
 إِنْ قَالَهُ فَيْكَ ، وَدَغُ سَوَاهُ
 فِي مِيلِهِ عَنِ سُنَنِ الصَّوَابِ
 مِنْهُمْ ، فَذَا بِذَاكَ مَا أَشْبَهَهُ
 فَغْيَرِهِ لَا يَرْضِيهِ الرَّبُّ
 مِمَّنْ سَوَاكَ ، وَبِمَا تَشْكُرُهُ
 لِنَفْسِهِ ، فِي الْحَقِّ لَا يَضَاهِي

كُلُّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي فِي الْجَهْرِ
إِحْذَرُ مِنَ الْفَعْلِ الَّذِي إِنْ أَظْهَرَهُ
وَالْمَدْحُ لِلْأَطْمَاعِ وَالْمَخَافَةُ
وَإِنَّمَا إِضَاعَةُ الْحَقُوقِ
وَعَلِمَ بِأَنَّ مِنْ شُرُوطِ الْإِلْفَةِ
وَإِنَّمَا الصَّدِيقُ مَنْ نَهَاكَ
وَقَدْ رَوَى الْأَخْيَارُ فِي الْأَخْبَارِ
رَبَّ عَدُوٍّ فِي الْأَنَامِ عَاقِلٍ
وَزَارِعُ الشُّرُورِ وَالْعُدْوَانِ
وَإِنَّمَا السُّلْطَانُ بِالْأَعْوَانِ
وَمَنْ يَسُوءُ فَعْلَهُ فِي دَوْلَتِهِ
وَمَنْ يَعْزِجُ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ
وَلَنْ تُنَالَ لَأَمْرِي رِيَاةٌ
إِلَّا إِذَا دَانَ بِقَوْلِ الْحَقِّ
يَدَأْبُ فِي إِعَانَةِ الضَّعِيفِ
وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ يَقِينًا فَاعْلَمْ
وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ
وَالْكِبَرُ أَيْضًا أَعْظَمُ الذُّنُوبِ
فَبَاتَهُ خَلِيقَةُ الشَّيْطَانِ
وَالْمُسْتَبَدُّ فِي الْخَطَا وَفِي الْغُلَطِ
وَمَنْ أَتَى مِنْ فَعْلِهِ مَا شَاءَهُ
وَكُلُّ شَخْصٍ يَعْمَلُ اجْتِهَادَهُ
عَلَيْكَ أَنْ تَتْرَكَهُ فِي السِّرِّ
صَاحِبُهُ أَزْرَى بِهِ وَحَقَرَهُ
خِرَافَةٌ لَا شَكَّ أَوْ سَخَافَةٌ
تَدْعُو إِلَى إِذَاعَةِ الْعَقُوقِ
بَيْنَ الْأَلْيَفِينَ أَطْرَاحَ الْكُلْفَةِ
لَيْسَ الَّذِي بَجْهَلِهِ أَغْرَاكَ
أَسْأَلُ عَنِ الْجِيرَانِ قَبْلَ الدَّارِ
أَقْلَ ضَرًّا مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ
يَحْصُدُ مِنْهُ سَنْبَلَ الْخَسْرَانِ
وَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ بِالْإِخْوَانِ
تَخْذَلُهُ أَعْوَانُهُ فِي نَكْبَتِهِ
فَلَيْسَتْ لَوْ قَوَّعَ الْعِزْلِ
وَتُحْمَدُ السَّيْرَةُ وَالسِّيَاسَةُ
وَكَانَ أَيْضًا عَامِلًا بِالصَّدَقِ
دَوْمًا ، وَفِي إِغَاثَةِ اللَّهْفِ
ظَلَمْتُكَ لِلضَّعِيفِ وَالْمُسْتَسْلِمِ
كَمَا رَوَى الْإِمَامُ وَالصَّحَابَةُ
لَأَهْلِهِ ، وَأَقْبَحُ الْعَيُوبِ
وَمِنْهُ كَانَ سَبَبُ الْخَذْلَانِ
وَالْمُسْتَشِيرُ آمِنٌ مِنَ السَّقَطِ
صَادَفَ مِنْ أَيَّامِهِ مَا سَاءَهُ
يَبْلُغُ مِنْ مَأْمُولِهِ مَرَادَهُ

مطية الصبر بنا لا تكبو وحولها سهل فسيح رخب
وجزع الإنسان في المصيبة مصيبة أخرى له مصيبة^(١)
ثم إليك نموذجاً من الشعر أرقى للشيخ محمد بن عباس صاحب «نزهة
الجليس» في نظم كلمة ابن أبي طالب التي تبدأ بـ «العلم يحرسك وأنت تحرس
المال ... الخ»:

العلم يحرس أهليه ويكلأهم ، والمال يحرسه أصحابه جزعا
والعلم يزداد بالإنفاق زائده ، والمال ينقص مهما زاد واتسعا^(٢)
وتنطوي الأجيال وشخصية ابن أبي طالب تزداد وجوداً في آداب
العرب. ويتعاضد هذا الوجود ارتفاعاً واتساعاً وعمقاً، ويخلص الروح العربية
من انحرافات من استبدوا وطغوا وأساءوا باسم العروبة وهي منهم براء،
ويضفي عليها قيماً إنسانية خليقة بأن تبقى وأن توجه وأن تظل علماً يعتصم
به العرب في كل مكان.

ويأتي القرن العشرون، فإذا بالقيّم والمعاني التي تمثلها شخصية ابن أبي
طالب ما تزال تسمو في النفوس وترتفع، وتنتج أدباً كثيراً، يتجسم به الوفاء
الإنساني كأكرم ما يكون تجسم الوفاء، فإذا بشاعر لبناني^(٣) يخاطبه قائلاً:

كلما بي عارض الخطب ألم وصماني من عنا الدهر ألم
رحت أشكو لعلّي علتّي ، وعليّ ملجأ من كل هم
وأنادي الحق في أعلامه ، وعليّ علم الحق الأشم
كلما غدّب بالجور فتى ، ودعاه في دجى الخطب ، نجم

(١) سلافة العصر : ص ٣١٠، أمل الآمل ج ١ ص ١٣٠، أعيان الشيعة : ج ٨ ص ٣٣٣ .

(٢) نزهة الجليس ، لمحمد بن عباس .

(٣) هو فؤاد جرداق الشقيق الأكبر للمؤلف .

فهو للظالم رعدٌ قاصفٌ ، وهو للمظلوم فينا مُغتصمٌ
وهو للعدل حميٌّ قد صانَه خُلُقٌ فذٌ ، وسيفٌ ، وقلمٌ
مَن لأوطانٍ بها العسفُ طغى ، ولأرضٍ فوقها الفقرُ جثمٌ
غيرُ «نهجٍ» عادلٍ في حُكمِه يرفعُ الحيفَ إذا الحيفُ حَكَمَ
وإذا بشاعرٍ عراقيٍّ هو السيد عبد المهدي مطر يقول فيه هذا القول
الجميل الذي يصور الأسباب العميقة في إجلال الناس إياه:

ما سَرَّه أن يرى الدنيا له ذهبٌ وفي البلاد قلوبٌ شَفَّها السَّغْبُ
ولا تَضَجَّرُ أكبادُ مُفَتَّتَةٌ حتى يذوبَ عليها قلبُه الحديبُ
إن يسقط الدمعُ مِنْ عيني مولَهةٍ أجابها الدمعُ مِنْ عينيهِ ينسكبُ
تهفو حشاهُ لأثباتِ اليتيم بلا أُمٍّ تناغي، ولا يحنو عليه أبٌ
هذي هي السيرةُ المثلَى تموجُ بها روحُ الإمام ، وهذا نهجه اللجبُ^(١)
ثم يقول :

هذي هي النفسُ قد رَوَّضَتْ جانحَها فراقٌ للعين منها عيشُها الجشِبُ
فلا الخِوانُ لها يوماً ملونةً منه الطعومُ ، ولا أبرادُها قُشْبُ
لا تكتسي وفتاةُ الحيِّ عاريةً ، ولا تَعُبُّ ومهضومُ الحشا سَغِبُ
نفسُ هي الطهر ما هَمَّتْ بمُوبِقَةٍ ، وليس تعرفُ كيف الذنبُ يُرْتَكَبُ
ويقول أيضاً في القصيدة نفسها، مشيراً إلى غلبة الحق في خاتمة كل
حساب، والحق ممثلٌ هنا في شخص ابن أبي طالب:

وتلك عُقبى صراعٍ قد صبرتَ له وذا ، فديتُكَ مظلوماً ، هو الغَلَبُ
أبلغُ معاويةَ عني مغلغلةً وقلْ له ، وأخو التبليغِ يُنتَدَبُ:

(١) اللجب : الواضح. الصحاح: ٢١٨/١، مادة «الجب».

قم وانظر العدلَ قد شيدتَ عمارتهُ والجورُ عندك خزيُّ بيتهُ حربُ
تبني على الظلم صرحاً رنَّ مغولهُ بجانيه ، وهدتَ ركنهُ النوبُ
ثم يختم قصيدته بهذين البيتين :

تَعَيَّفُوا وَرَكَبْنَا فِي سَفِينَتِهِ ، فَمَيَّزَ اللَّجُّ مَنْ عَافَا وَمَنْ رَكَبُوا
وَسَاوَمُوا فَاشْتَرَيْنَا حَبَّ حِيدَرَةٍ ، وَلَا نَسْبِغُ وَلَوْ أَنَّ الدُّنْيَا ذَهَبُ! ^(١)
أما لماذا لم يبيعوا حبَّ ابن أبي طالب بذهب الدنيا ومغريات الأرض؟
ولماذا آثروا الموت بهذا الحبِّ على الحياة في موالاة أهل الطغيان؟ فلأنَّ القِيمَ
مهما كثرَ خصومها فإنَّ أنصارها أكثر. ثم لأنَّ هذا الحبَّ مقياسٌ من مقياس
المروءة الإنسانية، التي يتعاضم إخوانها مع الزمان عدداً وإن قلَّوا في بعض
الزمان.

وَمِنْ أَعْمَقِ مَا يَصَوِّرُ لَنَا قِيَمَةَ هَذَا الْحَبِّ الَّذِي عَاشَ طَوِيلًا فِي قُلُوبِ
العرب، ويصوِّر مبدأه وغايته ومعناه؛ هذان البيتان الرائعان لسيف الدولة
الحمداني، ملك الدولة الحمدانية في حلب:

حَبُّ عَلِيٍّ بِنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّاسِ مَقْيَاسٌ وَمَعْيَارُ
يُخْرِجُ مَا فِي أَصْلِهِمْ مِثْلًا يُخْرِجُ غَشَّ الذَّهَبِ النَّارُ
وَأَعْظَمُ بَرَجَلٍ يَرَاهُ النَّاسُ مَقْيَاسًا لِلنَّاسِ، فَإِنْ وَالَوْهَ وَتَشْتَعُوا لَهُ؛ وَالْوَا
الْخَيْرَ وَالْعَدَالََّةَ وَالْحَقَّ وَالْمَرْوَاتِ وَتَشْتَعُوا لَهَا. وَإِنْ تَعَيَّفُوا هَذِهِ الْمَوَالَاةَ؛ فَإِنَّمَا
يَتَعَيَّفُونَ خَيْرًا كَثِيرًا.

هذا التمرّد على الإستبداد السياسي في التاريخ، وعلى الظلم الإجتماعي
بأشكاله وأسمائه جميعا، هو من أجل ما تُمَهَّر به القومية العربية.

(١) من قصيدته المذكورة سابقاً «لملح بباب علي أيها الذهب».

وهذا الوفاء للقيم الإنسانية تتجسّم في شخص، أو في جماعة، أو حيث تجسّمت، هو من أجل ما تُمهر به الشخصية العربية.

وهذا الأدب المتمرد الوفي، إن هو إلا صورة عمّا لدى الإنسان العربي من إمكانيات تجعله جديراً بأن يتمرد على ما يسيء لأوطانه، وخليقاً بأن يحيا وفتياً للقيم التي يراها.

حَبِّ وَأَجْلَال

المعري وجبران ونعيمة يتحدّثون عن الإمام

- مات الإمام عليّ شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى
بلد، ليس ببلدهم، وإلى قوم ليس بقومهم، في زمن ليس بزمانهم!
جبران
- إنّ عليّاً لتن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان
ومكان.

نعيمة

- إنّ في هذا الحبّ لَمَّا يخلُصُ من الفَرْقِ ربَّانَ سفينةٍ بُعثَ عليها
المذاب من فوقها ومن تحتها، وتذاعبت عليها الرياح من كلّ
جانب!
- تكادُ هذه الأبياتُ تنطقُ بحزن الطبيعة ولوعة الدهر على كلّ
مأساةٍ وكلّ فجعةٍ، أصيبت بها الإنسانية في تاريخها الطويل!
- لكأنّي أرى سحابات السماء الفاتمة القائمة تجري بطينة كثيفة
في رحابِ الفلاة الباردة!

إنّ في هذا - حبّ عليّ للناس وفي حبّ الناس إياه - شيئاً يصدّق بعضه
بعضاً، وينطق بأنّ العظيم هو مَنْ أحبّ الخير ومات عنه شهيداً، وأنّ عليّاً هو
ذلك العظيم الشهيد. وبأنّ في الناس خيراً كثيراً ورغبةً فيه وميلاً إليه، فإذا ظلم
الخير فإنما هم الذين ظلّموا، وإذا عَظُم شأنه فقد عظموا به وارتفع لهم شأن.
وإنّك ما ضربت بعينيك صفحات هذا التاريخ إلّا لتدرك حقيقةً حقّة، وهي

أَنَّكَ قَلَّمَا تَجِدُ فِي شَخْصِيَّاتِهِ الْعَظِيمَةِ مِنْ أَجْمَعَ النَّاسِ عَلَى حُبِّهِ وَإِجْلَالِهِ
وَالْإِنْتِصَارَ لَهُ، أَجْمَاعَهُمْ عَلَى حُبِّ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَعَلَى إِجْلَالِهِ وَالْعُطْفِ
عَلَى قَضَائِيَاهُ. وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحُبِّ يَسْتَوِي فِي الْقُلُوبِ وَيَزْخَرُ، مَنَاجَاةٌ لِلضَّمِيرِ
الْإِنْسَانِيِّ مِنَ الْإِنْزِلَاقِ. وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحُبِّ تَمَرَّدٌ عَلَى الْبُطْلِ وَخِذْلَانٌ لِلْجَرِيمَةِ.
وَفِيهِ لَجُوءٌ إِلَى الْحَقِّ وَاعْتِصَامٌ بِالْوُجْدَانِ. بَلْ إِنَّ فِيهِ لَمَا يَخْلُصُ مِنَ الْغَرَقِ رَبَّانٌ
سَفِينَةٌ بُعِثَ عَلَيْهَا الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهَا وَمِنْ تَحْتِهَا وَغَرِقَ مَنْ فِي ضَمَنِهَا أَوْ كَادَ،
وَتَذَابَتْ عَلَيْهَا الرِّيَّاحُ وَاضْطَرَبَ هُبُوبُهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. فَإِذَا بِهِ مُنْتَصِبٌ عَلَى
هَامَةِ التَّارِيخِ إِمَامٌ حَقٌّ وَخَيْرٌ، كَالْجَبَلِ لَا تَحَرَّكَهُ الْقَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ!
لَقَدْ ضَلَّ الْمُتَأَمِّرُونَ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَضَلَّلُوا، ثُمَّ رَاحُوا فَمَا بَقِيَ مِنْهُمْ
وَمِنْ مُلْكِهِمْ وَانْتِصَارَاتِهِمْ إِلَّا نَقْمَةُ النَّاقِمِينَ عَلَيْهِمْ وَسَخَطُ السَّخَاطِينِ وَمَنْطِقُ
الضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي قَضَى عَلَيْهِمُ بِالزَّوَالِ وَصَغُرَ مِنْ شَأْنِ مَا يَمْلِكُونَ! فَإِذَا
هُمْ لَا شَيْءَ إِلَّا إِذَا كَانَتْ الْآثَامُ شَيْئًا! وَإِذَا ابْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهَجَّ فِي الْقُلُوبِ،
وَحَرَارَةٌ فِي الْأَنْفَاسِ، وَمَنْطِقٌ فِي الْعُقُولِ، وَقَوْلٌ حَكِيمٌ وَخَلْقٌ عَظِيمٌ! وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيَجْعَلَ السَّمَاءَ أَرْضًا وَالْأَرْضَ سَمَاءً، وَالتَّارِيخُ عَلَى صَحَّةِ ذَلِكَ شَهِيدًا!

وَيَسْتَمِرُّ إعْجَابُ النَّاسِ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَيَتَّصِلُ حُبُّهُمْ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ،
فَيَكْثُرُ فِيهِ الْقَائِلُونَ وَكُلُّهُمْ مُعْجَبٌ مُحِبٌّ. وَإِنَّهُمْ لَيَلْتَقُونَ جَمِيعًا عِنْدَ حُكْمِ يَكَادُ
يَكُونُ وَاحِدًا وَهُوَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَمَلِقُ فِكْرٍ وَبَيَانٍ، وَشَخْصِيَّةٌ تَتَدَفَّقُ
بِنُورِ الْوُجْدَانِ. وَمَنْ ثُمَّ فَهُوَ جَدِيدٌ بِالْإِعْجَابِ وَالْحُبِّ الْعَمِيقِينَ.

وَفِي عِدَادِ هَؤُلَاءِ مَنْ تَتَّسِمُ نَظَرُهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِطَابَعِ النُّبُوَّةِ. وَلَا غَرَوْ فِي ذَلِكَ،
فَمَنْ أَظْهَرَ صِفَاتِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ مَا يَلْتَقِي بِهِ وَالرِّجَالُ الْقَمَمِ، وَلَيْسَتْ حُدُودُ
أَبُوَّةِ هَؤُلَاءِ الْعِظَمَاءِ بِالْحُدُودِ الَّتِي تَنْتَهِي عِنْدَ الزَّوْجِ وَالنَّسْلِ. بَلْ إِنَّ أَبَوَتَهُمْ هِيَ
مُظْهَرٌ مِنْ إِنْدِمَاجِ الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانِ وَصِلَةِ الْحَيَاةِ بِالْحَيَاةِ! فَهِيَ بِذَلِكَ

أشمل وأعمق.

ثم إن آباء الإنسانية هؤلاء هم أكبر من أن يُحصروا في نطاقٍ من الطائفية، أو العنصرية، أراد التاريخ أن يحصرهم فيه. لقد انطلقوا من كلِّ نطاقٍ وانزوى التاريخ لذلك ترى أن صلة الكثيرين من العرب المعاصرين بالإمام، على اختلاف مهورهم المذهبية، إنما هي صلة الابن بالأب يصطفيه ويرجوه وكأنما يلجأ بذلك إلى موئلٍ من القيم الإنسانية التي تتجسَّم بشخصية ابن أبي طالب، وكأنما يتعزى عن مآسيه بشهادة أبي الشهداء. فهو العظيم الذي انتصر به نورُ الوجدان على ظلمة المطامع، وقد غرق فيها حكام عصره ومعظم حكام العصور.

العظيم الذي مدَّ الأفكار والضمائر بما لا ينضب له معين وبما لا يؤثر فيه زمانٌ ولا مكان؛ فإذا به ملاذٌ يلجأ إليه طلاب الحق والعدل في الناس. وأبٌ يستظلُّ بأفيائه الوارفة من شعروا بالظلم يجور على العدل، وبالقسوة تكتسح العطف، وبالشر يفترس الخير، وبالإثم يعلو ويصبح له دولةٌ وسلطان.

أما شيعة الإمام السائرون على هذيه في ظلمات التاريخ فإن حُبهم له لمّا يقصر عن وصفه الواصفون. وأما استشهادهم في هذا الحب فمما لم يروه الراوون. وأما نظرة الناس من غير شيعته إليه فهي موضوع حديثنا الآن. وإنه لمن مفاخرنا، نحن العرب، أن يكون في تاريخنا أمثال عليّ، الذي أوحى مثل هذا الحب، وانطلق من نطاق المخصوصية إلى النطاق الواسع العام. فإذا أمره لا يعني حزباً من الأحزاب، أو طائفة من الطوائف أكثر مما يعني الناس جميعاً. وإذا سيرته مصدر أدب رفيع في كلِّ عصر ومصر. وما ذاك إلا لأن الصفات التي تميّزت بها شخصية الإمام الظاهرة في أعماله وأقواله، هي صفاتٌ تجوز، بما فيها من إنسانيةٍ وعالميةٍ، حدودَ الزمان والمكان، كما تجوز حدودَ

الأحزاب والطوائف. وبمثل علي يتوحد الناس ويتداعون إلى التعاون من أجل الخير.

ولو شئت أن أسوق الأمثلة على إجلال الناس لعلي لما استطعت لها جمعاً، ولما استطاع سواي، ولما وعثها المجلدات. وسوف أتحدث بهذا الفصل عن ثلاثة من نوابغ العرب، لهم في الإمام الجليل آراء جلية، وفي أقوالهم فيه حرارة وحب .

أما هؤلاء الثلاثة، فقديّم، هو شاعر المعزة وحكيمها وعظيمها أبو العلاء، ومعاصران، هما جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة.

* * *

لعل معظم ما قاله القدماء في علي، وفي الحسين صريع كربلاء، وهو امتداد لشخصية أبيه في مقياس القيم الإنسانية، لا يساوي من حيث المعنى الذي ينطوي عليه القول، ما جاء على لسان أبي العلاء المعري.

ذلك لأنّ المعري لم يسلك سبيل المجاملة في رأي أو في قول. ولم يستوح إلا صفاء ضميره ودقة حسّه وقوة منطقته السليم. فهذا العظيم الذي لم يوارب في رأيه في شؤون الناس وقضايا دينهم ودنياهم ومعتقداتهم، ونظرتهم إلى حوادث الماضي ووقائع الحاضر، لم يستطع إلا أن يستجيب للنداء العميق المتجاوب في حنايا نفسه: أن انتصر للإنسان العظيم يُصرع بشهوة حاكم عاديّ سقيم الهوى، وللقيمة تُطعن في سبيل منفعة تافهة، وللعواطف الإنسانية الكبيرة تُمزق بحراب المطامع الدنيا!

لم يستطع عظيم المعزة إلا أن يستجيب للنداء النابع من أعماق نفسه، لا من عاطفة دينية أو من نظرة سياسية. فإذا به يضع مأساة الشهيد علي والحسين، في لوحة فنية رائعة، لونها خيال خصب، وصبغتها عاطفة قوية،

وركزها عقل فذّ، حتّى لتكاد تنطق بحزن الطبيعة، ولوعة الدهر على كلّ مأساة، وكلّ فجعية أُصيب بها الإنسانية في تاريخها الطويل!

فالمآسي الكبار حلقات متصلة من سلسلة واحدة، صاغها كفر العتاة بالخير، وجحود الطغاة لقيم الحياة التي لا تغدّلها قيمة. قال عظيم المعرة:

وعلى الدهر من دماء الشهيدين عليّ ونجله، شاهدان
فهما، في أواخر الليل، فجران، وفي أولياته، شفقان
ثبّتا في قميصه، ليجيء الحشر، مُستعدّياً إلى الرحمان^(١)

فانظر إلى مقدار العاطفة التي تتوهّج في قلب عظيم المعرة، إذ يتحدث عن الإمام عليّ وابنه الحسين. وإنّ العاطفة إذا اتسعت وعمقت؛ لابدّ لها أن تُحيي مثل هذه اللوحة، التي شارك في تكوينها وتلوينها الخيال والعقل جميعاً. فآية مأساة هي مأساة أبي الشهداء وإبنه؟ تلك التي وُضعت فصولها في زمنٍ قديم، ثم راحت تعمق عمقاً في قلوب الناس، وتمتدّ امتداداً، حتّى تشمل الزمان أو يشملها، حتّى يصطبغ بها اصطباغاً، وحتّى يكون لها في الأفق حيّزٌ مكانيّ تملأه وتفيض، فإذا هي كوّنٌ ملموس، له حجمٌ وشكلٌ ولون: حجمٌ يملأ الزمان بما فيه من فجرٍ وشفقٍ وليلٍ ونهار. وشكلٌ تتجسّم فيه مآسي الطيّبين جميعاً، ويثبت على حاله حتّى الحشر، يوم تزول الجريمة بالنار، ويثاب المظلوم بحقه. ولونٌ هو من ألوان الشمس طائفة تصبغ قميص الدهر، في أواخر كلّ ليلٍ وأوليات كلّ نهار!

وإنّي لأرى من لوعة العاطفة في هذه الأبيات الثلاثة. ومما يختفي وراءها من ثورة الفكر والوجدان، ما هو حقيقٌّ بأن يجمع القول المتلوق الشائر، في

(١) ديوان المعري: ص ١٢٦ سقط الزند: ج ١ ص ٤٤١.

امتداد المأساة العلوية إلى مآسي أنصار الحق، الذين أُوذوا وجُلدوا واضطهدوا
وشُرِدوا في المفاوز والفلوات، ليموتوا جوعاً وبرداً، ودُفِنوا أحياء، وصُلبوا
وأُحرقوا مع أبنائهم وإخوانهم، أنفةً منهم لأن يخونوا ضمائرهم فيتبرأوا من
عليٍّ أسوةً بالعبيد، وينكروا شرف الخلق الإنساني الذي استشهد الإمام
في سبيله!

ولكأنني أحس أن المأساة العلوية التي امتدت عصوراً طوالاً، تحيا بهذه
الآيات الثلاثة مادةً وروحاً.

لكأنني أرى سحابات السماء الغائمة القاتمة تجري بطيئةً كثيبة في رحاب
الفلاة الباردة، التي مات بها أبو ذر الغفاري طريداً شريداً جائعاً مذعوراً، بعد
أن مات أولاده أمام عينيه جوعاً وعياء، وبعد أن رأى زوجته تستعد للموت
صامتةً واجمة، والقاسطون من بني أمية يغرقون في نعيم الأرض،
ويتخمون ويسيثون!

لكأنني أرى بها شبح مسلم بن عقيل، يأمر ابن زياد به فيصعد إلى أعلى
قصر الكوفة ثم تُضرب عنقه، وتُلقي جثته إلى الأرض من شاهق القصر، بعد
أن قضى زمناً في عذابات الأبالسة؛ وأقلها تقطيع شفاهه وإلقاء النار عليه
وتعذيبه بالعطش وهو فردٌ وهم ألوف!

لكأنني أرى بها هاني بن عروة، الشيخ الذي أبى أن يبيت غشوماً ظلوماً،
يساط وجهه كما تُساط الإبل حتى تخفى آثاره ويختلط لحمه بدمه، ثم يُسجن
مهاناً، ثم يقاد مكتوفاً إلى سوقٍ يباع فيه الغنم فيقتل هناك قتلاً مريعاً.

لكأنني أرى بها قصة ذلك الشيخ الجليل، الواهي القوي، عبدالله بن عفيف
الأزدي، يسمع عبيد الله بن زياد يقول من على منبر الكوفة بعد مصرع الحسين
وغيره من وُلد الإمام: الحمد لله الذي أظهر الحق ونصر أمير المؤمنين يزيد

وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته، فيتصدى له قائلاً:
يا عدو الله؛ إن الكذاب أنت وأبوك والذي ولأك وأبوه. فما يطلع فجر
اليوم التالي إلا والشيخ الصالح مصلوب في ساحة الكوفة.
لكأنني أرى بها حُجَرَ بن عدي الكندي، العادل الشريف، يدفنه معاوية
وزياد بن أبيه حياً مع نفرٍ من أصحابه؛ أبوا إلا الاستقامة مسلماً!
أجل، إنها العاطفة الكريمة يمهّر بها شاعرُ المعزة الطيبين في مآسيهم،
أو في المأساة الواحدة المتصلة الحلقات لا تصال الأسباب فيها، والنتائج. فإذا
الفجر والشفق يصطبغان بلونها الرهيب؛ حتى يحشر الناس أمام رب العالمين.
أما جبران خليل جبران، الفنان العربي المبدع، فقد ظل طوال حياته
يبحث عن الوجوه الإنسانية الصافية، من خلال صفحات التاريخ، رغبةً منه في
تجسيم مثاليته الاجتماعية والإنسانية في أشخاص من لحم ودم. وفي كبار
الناس مثل هذه الرغبة لا يُخلونها ولا تخلّهم.
وقد هرع بقلبه إلى نيتشه مرةً وإلى بوذا، وإلى وليم بليك وأضرابه؛ ممن
رأى أنهم يجسّمون أشياء في نفسه يريد لها بقاءً أبدياً.
وطالما هرع إلى الأحدوث الواهمة وإلى الأسطورة، يرى فيها الكثير من
أمانى القلب والنفس، التي لم تكن لتكتمل في الواقع، فاكتملت بخيال
أصحابها وأشواقهم.
غير أنّ ثلاثة من عظماء الإنسانية ملأوا قلبه، فإذا هم يمثلون الكمال
الإنساني في أروع مظاهره وأصفى صفاته؛ فاتجه إليهم بقول كثير، هو أشبه
بالصلوات الحارة تتصاعد من معبد الحياة إلى من اكتملت فيهم معانيها وسمت
روحها. أما العظماء الثلاثة في قلب جبران، فالمسيح ومحمد وعلي! أما قوله
في المسيح ومحمد فكثير، وأما اقتباسه من روائعهما فمعروف. أما علي بن

أبي طالب، فماذا يرى فيه؟

ينظر جبران إلى عليّ نظرتَه إلى الكائن الذي اتّصل بأسمى ما في الوجود من معاني الوجود، وتاق إلى الكمال الروحي فأدركه واتّحد به؛ فإذا هو يلزم ما أسماه «الروح الكلّية» ويجاورها ويسامرُها فلا يجفوها ولا تجفوه.

وهو يرى أنّ عليّاً أوّل عربيّ بعث في مسامع الدنيا أغانيّ هذه الروح الشاملة؛ حتّى لكأنّ قلبه ينهل منها فتذيعها شفتاه أناشيدَ سماويةً تلوّ أناشيد. فإذا هو مع الواقفين على قمّة الدنيا يرون ويحدّثون بما يرون ويقولون؛ فإذا حديثهم وحيّ وإذا قولهم نجومُ سماء!

أما بلاغة عليّ فإنها النور ذو المناهج والطرق التي تاه عنها العرب فلم يفهموها؛ ومنهم من آثروا عليها ظلماتٍ أياهمم يتيهون في شُعابها رجوعاً وإلى الجاهليّة، واتّصلاً بمنّ تتمثل بهم الجاهلية من سمسرة المنافع وتجار الأعناق. ويرى جبران أنّ المعجبين بمناهج البلاغة العلوية هم اثنان: إمّا صاحب عقلٍ سليم، وإمّا صاحب فطرة ذوّاقة كريمة. فأما التائهون عنها؛ فما سلّمَتْ أخلاقهم ولا صحّت بهم الفطرة.

أما رسالة عليّ في الناس فقد كانت كاملة وافية. غير أنّه مات قبل أن تكتمل أهدافها وأغراضها. مات والابتسامة على شفتيه لامتلاء نفسه ووجدانه بما تطمئنّ إليه القلوب الكبيرة. وهو لو استوثّق قدماء في الأرض لغيّر أشياء! وهو على كلّ حال نبيّ، شأنه شأن جميع الأنبياء الذين يستشعرون الغربة بين الأهل، والوحدة بين الناس، والوحشة في الوطن، إذ يأتون إلى قوم ليس بقومهم في زمنٍ ليس بزمانهم، ويحيون بروحية، أتى لأولئك الناس أن يدركوها فيوالوا بإدراكهم هذا، وينتصروا لمن يحيا من أجلهم وفي سبيلهم يموت شهيدا، وإليك ما يقوله جبران:

« في عقيدتي أنّ ابن أبي طالب كان أول عربيّ لازمَ الروحَ الكليةَ وجاوَرَهَا وسامَرَهَا. وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قومٍ لم يسمعوها من ذي قبل؛ فتأهوا بين مناهج بلاغته وظُلُمات ماضيهم. فمَن أعجب بها كان إعجابه موثقاً بالفطرة. ومَن خاصمه كان من أبناء الجاهلية.

« مات عليّ بن أبي طالب شهيداً عظمتَه! مات والصلاة بين شفتيه! مرّت وفي قلبه الشوق إلى ربّه! ولم يعرف العربُ حقيقة مقامه ومقداره حتّى قام من جيرانهم الفرس أناسٌ يُدركون الفارق بين الجواهر والحصى.»

« مات قبل أن يبلغَ العالمَ رسالتهَ كاملةً وافية. غير أنني أتمثله مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض.»

« مات شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلدٍ ليس ببلدهم، وإلى قومٍ ليس بقومهم في زمنٍ ليس بزمنهم، ولكن لربك شأنًا في ذلك وهو أعلم! ».

وهكذا، فإن الإمام عليّاً في نظر جبران نبيّ في غير قومه، وفي غير وطنه وزمانه. حكيمٌ في طليعة حكماء العصور، مات ولم يَعشُ العربُ إلى ضوئه بل عشا الفرسُ إليه، حتّى كانت أزمنةٌ طوالاً اهتمدوا بعدها إلى مناهج بلاغته وعظمة شخصيته! وهو، بذلك كلّهُ، يعيش في هيكل الفكر المطلق والروح المطلق، لا يختلي بذاته إلّا ليبعث في الناس كلاماً أبدياً لاتصاله بينابيع المعرفة الصافية.

وطالما كان جبران يردّد اسم عليّ بن أبي طالب في مجالسه الخاصة والعامة وحين يخلو إلى نفسه. وطالما كان يعظّمه وينعته بما يليق به من حسان النعوت. يُنبّيك عن ذلك أقربُ الناس إليه، وأعني به ميخائيل نعيمة الذي

يقول في رسالة منه إلى مؤلف هذا الكتاب، في جملة ما يقول: «وأذكر أن جبران كان يجلّ الإمام كثيراً ويكاد يضعه في مرتبة واحدة مع النبي».

* * *

أما ميخائيل نعيمة، الأديب الفذّ وناطقة الأسلوب الصافي، فله في ابن أبي طالب رأي، هو حلقة ذهبية في سلسلة الآراء الجليلة التي أطلقها نوابغ الفكر والروح في عليّ.

فهو في نظره سيد العرب على الإطلاق، في كلّ فكرٍ وكلّ خلقٍ وكلّ بيان، بعد الرسول. أمّا لغة العرب، التي اتحدت بها سلامة الفطرة الجاهلية برفعة المنطق الإسلامي وصفاء الروح النبويّ، فقد دانت له كما لم تدن لسواه. أمّا الحكيم الزمنية والروحية، فإنّها لم تبلغ من النضج على يد بشرٍ مثلما بلغت منه على يديه، وذلك لما يتوهج بها من بوارق الإيمان الحيّ، ولما هي عليه في شكلها من الجمال الفني الرائع. أمّا صفاء بصيرة الإمام فلا يغدله صفاء بصيرة، حتّى لكأنّ الإمام على اتّصالٍ بينابيع الحياة والحرية هو أشبه باتّصال النهر بينبوعه، ونبت الأرض بماء السحاب. وليس لفكر ابن أبي طالب، ولروحه وبيانه حدود من زمانٍ ومكان. فهي من العمق بحيث تتحد بحقائق ثابتة، وأصول قائمة، في بناء الخير والجمال الفني الممتع. وهي من الأصالة بحيث تتصل بأركان الوجود الفكري والروحي والجمالي اتصالاً لا شك فيه.

ولمّا كان الإمام على مثل هذا الدنو من جواهر الأمور، فإنّه يأخذ منها بلا نصّب، أو أنّها هي التي تمدّه بروائع القول فيقذف بها «لآلئ بلغت بها الطبيعة حدّ الكمال، وكأنّه البحر يقذف بتلك اللآلئ دونما عنّتٍ أو عناء»^(١).

(١) مقطع من رسالة خاصة للكاتب ستأتي لاحقاً.

وحين يقول ميخائيل نعيمة في صاحبِ فكرٍ وبيان: إن آثاره قد بلغت بها الطبيعة حدَّ الكمال، فإنَّ لقوله من القيمة ما ليس لقولٍ آخر. ذلك لأنَّ نعيمة في تفكيره - كما هو في أسلوبه - لا يبالغ ولا يغلو، ولا ينطق لسانه إلا بما يجيش به قلبه. فلكل كلمةٍ تخطها يده موضعٌ لا تجوز كلمةٌ غيرها فيه. ولكل رأيٍ بيديه معنى في فكره وقلبه وواضح، لا يغشاه إبهامٌ كثيرٌ أو قليل!

بعث ميخائيل نعيمة إلى المؤلف، حين أخبره بأنه عازمٌ على وضع كتاب عن الإمام، برسالةٍ شتقة جاء فيها:

«عزيزي الأستاذ جرداق»

«نعمًا ما أقدمت عليه في وضع كتاب عن الإمام عليّ، حالفك التوفيق. تسألني رأيي في الإمام، كرم الله وجهه، ورأيي أنه - من بعد النبي - سيّد العرب على الإطلاق بلاغةً وحكمة، وتفهمًا للدين، وتحمسًا للحق، وتسامياً عن الدنيا. فأنا ما عرفتُ في كلِّ مَنْ قرأت لهم من العرب رجلاً دانت له اللغة مثلما دانت لابن أبي طالب، سواء في عظاته الدينية، وخطبه الحماسية ورسائله التوجيهية، أو في تلك الشذور المقتضبة التي كان يطلقها من حين إلى حين، مشحونةً بالحكم الزمنية والروحية، متوهجة ببوارق الإيمان الحي ومدركةً من الجمال في البيان حدَّ الإعجاز. فكأنها اللاكئ بلغت بها الطبيعة حدَّ الكمال. وكأنه البحر يقذف بتلك اللاكئء دونما عنت أو عناء!

«ليس بين العرب مَنْ صفت بصيرته صفاء بصيرة الإمام عليّ. ولا مَنْ أوتي المقدرة في اقتناص الصور التي إنعكست على بصيرته وعرضها في إطارٍ من الروعة، هو السحر الحلال. حتى سجعه - وهو كثير - يسطو عليك بألوانه وبموسيقاه، ولا سطرٌ القوافي التي تبدو كما لو أنها هبطت على الشاعر من السماء. فهي ما اتخذت مكانها في أواخر الأبيات إلا لتقوم بمهمةٍ يستحيل

على غيرها القيام بها. إنها هناك لتقول أشياء لا تستطيع كلمات غيرها أن تقولها. فهي كالغلق في القنطرة!» ثم يقول:
«إنّ عليّاً لمن عمالقة الفكر والروح والبيان، في كل زمان ومكان!».

* * *

وهكذا تشدّ العصور بعضها إلى بعض لتُجمع على حبّ الإمام وإجلاله!
وإنّه لعظيم هذا الحبّ، وعظيم هذا الإجلال، يلتقي فيها عبقرى المعرفة وفنان لبنان وأديب العرب، على هامة ألف عام وإختلاف وجوه الأرض!

الأوروبيون والإسلام

- وعليّ هو ذلك البطل الموجع المتألم، والفارس
الصوفي، والإمام الشهيد ذو الروح العميقة القرار التي
يكمنُ في مطاويها سرُّ العذاب الإلهي
كأزاديفو

في أوروبا مفكّرون وباحثون وقفوا حياتهم على شؤون الشرق القديم
ودرس قضاياها. وخصّوا العربّ بالسهم الوافر من دراساتهم، والإسلام بالسهم
الأوفر. وفي هؤلاء من تعمّقوا في هذه الدراسات حتى لا يجاريهم فيها من
يعنيه الأمر مباشرةً من المشاركة.

وفي هؤلاء الأوروبيين من أتقنَ العربية كما لا يُتقنها أبنائها الصرحاء
المعاصرون. ونخصّ بالذكر الفرنسيين والألمان.

ولا نغالي إذا نحن قلنا إن هؤلاء المستشرقين هم الذين فتحوا الباب واسعاً
على حضارات الشرق القديم والمتوسط، بعد أن ألقت عصورُ الانحطاط على
معالمها ستاراً أسود كثيف السواد. ولا نغالي كذلك إذا قلنا إنهم أسهموا الإسهام
الأكبر في الكشف عن الكثير من الحقائق التاريخية في الماضي العربي. وذلك
بفضل أساليبهم العلمية الخالصة في البحث والتدقيق والتحقيق. ثم بفضل ما
أوتوا من صبرٍ وجلدٍ عظيمين ساعة يأخذون على عاتقهم دراسة موضوع من
موضوعات التاريخ. غير أننا نستثني المُغرضين الماكرين الذين سخّروا
إمكاناتهم العلمية، لغاياتٍ لا نجور عليهم إذا نعشناها بأنّها تافهة، وأنزلوا

آثارهم المنزلة الرخيصة، التي تقوم بتشويه الحقائق ومسح الوقائع. ففي هؤلاء المستشرقين، إذاً، كثرة طاغية تتصف بالعدل في الحكم وبالإنصاف الكثير، بالإضافة إلى تقييد البحث بالدليل والبرهان، وإلى التحقيق والتدقيق الوثيقين.

وفي هؤلاء المستشرقين قلة ضئيلة لم تعدل ولم تُنصف. إما لغاية مقصودة من عمل الغرب، حين ينظر إلى الشرق نظرة خاصة. وإما لخطأ في النظر غير مقصود، يكون مردّه على ما نرجح إلى عجز هؤلاء الأجانب، أبناء القرن العشرين، عن أن يدركوا حقيقة أوضاع المشاركة القدماء، وحقيقة طباعهم ونفسياتهم وأجوائهم. فليست كلّ الحقائق الإنسانية بخاضعة لكلّ مقياس.

وقبل أن نواصل الكلام عن المستشرقين، وعن نظرتهم إلى عليّ وإلى ماضي الشرق العربي في بعض وجوهه، لابدّ من أن نشير إلى نفرٍ من عباقرة أوروبا - من غير المستشرقين - لنحتي فيهم النزعة الإنسانية الشريفة التي لا تتأثر بحدودٍ تقوم بين شرقٍ وغرب، ولا تأبه للأضاليل التاريخية التي تقيم الحواجز بين شعبٍ وشعب، ونحتي العبقريّة التي تدوس كلّ مصطنعٍ من الفواصل بين أبناء الإنسانية الواحدة وتضرب بجناحيها القويّين في كلّ سماء! في طليعة هؤلاء العباقرة الأوروبيّين الذين أخلصوا للعفوية في طبائعهم، وللوجدان والمنطق في أحكامهم: الشاعر الكونّي العظيم غيتي، وكارليل، وجورج برناردشو، والشاعر الفرنسي لامارتين، وغوستاف لوبون، وولز، والشاعر الإيطالي كياتاني، والكثير غيرهم.

* * *

أما المستشرقون - ولنعد إليهم - فمن الطبيعي أن يكون عليّ في طليعة من

دارت عليه أبحاثهم. ومن الطبيعي أن يقفوا عند شخصية الإمام الفذّ، ويُطيلوا الوقوف.

وليس بأقلّ طبيعيتة، كذلك، أن يقودهم البحث إلى إجلال عليّ وإلى حبه وإيثاره، إلّا أولئك النفر الذين تعصّبوا عليه أشدّ تعصّب، وعظّموا من شأن معاوية وبني أميّة أشدّ تعظيم. تدفعهم إلى هذا التعصّب على الإمام، وإلى تعظيم بني أميّة، دوافع من المزاج الخاص الذي يؤثر الحيلة على الاستقامة، ويوالي الغدر على المسلك الصادق القويم. ودوافع أخرى من نسيج العصر الذي يريد العمل السياسي والإداري خالياً من المعاني الخلقية الإنسانية المشرفة. أمّا امتداح بني أميّة، وفيهم أبو سفيان ومعاوية ويزيد ومروان بن الحكم وأضرابهم، فهو نتيجة محتومة يجب أن يبلغ إليها من يهاجم عليّاً.

ولنجتري الآن بعرض موقف أفذاذ الأوروبّيين من الإمام عليّ عرضاً موجزاً. وهو لا شك صورة لموقف القسم الأعظم فيهم من ابن أبي طالب، ويسلكون في صفّين: مُنصفٍ نترك له أن يقول، ومُنكرٍ نردّ عليه.

أمّا الفيلسوف الإنكليزي «كارليل» فإنّه ما يكاد يأتي على ذكر عليّ بن أبي طالب في إسلامياته، حتّى تهزّه الشخصية العلوية من أعماقه، وتُفيض عليه من قوتها قوّة تدفعه لأن يرتفع من نطاق البحث العلمي الجافّ إلى أجواء الشعر، فإذا بقلمه يندى ويخضّل من تلقاء ذاته ليتغنّى ببطولات عليّ، حتّى لتشعر بأنّ صاحب هذا القلم إنّما هو من شيعة الإمام ومن أنصاره.

وأترك لك أن تتصوّر كم هي عظيمة هذه الشخصية، شخصية إمام عربي قضى منذ بضعة عشر قرناً، إذ تدفع مفكراً إنكليزياً معاصراً لأن يقول فيه، في جملة ما يقول:

«أمّا عليّ، فلا يسعنا إلّا أن نحبه ونتعشقه. فإنّه فتى شريف القدر، عالي

النفس يفيض وجدانه رحمةً وبرّاً، ويتلظى فؤاده نجدةً وحماسة. وكان أشجع من ليث، ولكنها شجاعة ممزوجة برقةٍ ولطف، ورأفةٍ وحنان، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى. وقد قُتل بالكوفة غيلة. وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى أنه حسب كلَّ إنسان عادلاً مثله. وقال قبل موته حينما أُومر في قاتله: «إِنْ أَعُشْ فَلَا أُمِرْ لِي وَإِنْ أُمْتُ فَلَا أُمِرْ لَكُمْ. فَإِنْ آثَرْتُمْ أَنْ تَقْتَصُوا فُضْرَةً بِضْرَةٍ. وَإِنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ إِلَى التَّقْوَى»^(١).

ويتقصى الباحث الفرنسي البارون «كارا ديفو» الأسباب والعلل في حوادث الإسلام. فيستجلي حقائق كثيرة بأسلوبٍ متماسكٍ جذاب. ويتحدث عن بطولة عليّ، في حروب المسلمين وقريش حديثاً تملأه عاطفة الإعجاب وتُحييه الحماسة. يقول البارون كارا ديفو:

وحارب عليّ بطلاً مغواراً إلى جانب النبي. وقام بمآثر معجزات. ففي موقعة بدر كان عليّ، وهو في العشرين من عمره، يشطر الفارس القرشي شطرين اثنين بضربةٍ واحدة من سيفه. وفي أُحد تسلح بسيف النبي ذي الفقار، فكان يشقّ المغافر بضربات سيفه ويخرق الدروع. وفي الهجوم على حصون اليهود في خيبر، قلقل عليّ باباً ضخماً من حديد. ثم رفعه فوق رأسه متخذاً منه ترساً مجنأً. أما النبي، فكان يحبه ويثق به ثقةً عظيمة. وقد قال ذات يوم، وهو يشير إلى عليّ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ»^(٢).

ولئن كان بعض المتزمتين من الباحثين يرون أنّ ترجمة عظيم من العظماء ودراسة شخصيته لا يستوجبان أكثر من سرد الحوادث وحشد

(١) «محمد المثل الأعلى» تأليف كاريل وتعريب محمد السباعي : ص ٣٤.

(٢) «مفكرو الإسلام» للبارون كارا ديفو - باللغة الفرنسية - الجزء الخامس : ص ١ - ٢ «المقاطع المنقولة تعريب المؤلف».

الأرقام والإتيان بالحجة والدليل، متعللين لهذا الجفاف بصفة «العلم» التي لا تجيز الخروج من نطاق سرد الحوادث وحشد الأرقام إلى نطاق تحيا به العاطفة ويخفق القلب، أقول: إذا كان بعض الباحثين يرون هذا الرأي، فإنما يصح رأيهم في حالتين اثنتين ولا يصح في غيرهما: أما الحالة الأولى فحين يكون الباحث جافاً من طبعه، قليل الحظ من العاطفة والخيال، فيكون شأنه عند ذلك شأن معلّمي المدارس الذين يدرسون الحياة والأحياء بعقلية من يدرس جماد الطبيعة، فلا يرى فيه مجالاً لأكثر من تسجيل الحوادث وسرد الأرقام وإقامة الدليل والبرهان.

أما الحالة الثانية فحين يكون المترجم له رجلاً عادياً لا يعني الباحث من أمره شيء أكثر من إرتباط اسمه بالحادثة التي يسوقها. أما حين يكون المترجم له كابن أبي طالب يصنع الحوادث ولا تصنعه، ويتحد بما يصنعه اتحاذ فكرٍ وعاطفةٍ وخيال، ويرتبط به ارتباط حياة وموت؛ فمن الطبيعي عند ذلك أن يثير في نفس دارسه ما يجوز نطاق البحث الجاف إلى عالم الأحاسيس الحية. فإذا الباحث يؤيد أو يستنكر، يحب أو يكره، وهو بحالتيه الاثنتين منطقي وواقعي.

وليس في سير العظماء واحدة كسيرة ابن أبي طالب تحرك المشاعر وتوقظ الأحاسيس الحية في كيان من يتعرض لها بدرس أو بحث. وبناءً على هذه الحقيقة الإنسانية، تجد أن دارسي شخصية الإمام لابد من أن يطنى عليهم هذا الشعور العميق بالحب والإعجاب والعطف، إلا إذا كان لهم غرض في غير ذلك. فإن المرء عند ذلك يمكنه أن يجعل الصيف شتاء والنهار ليلاً بهيماً مدلهماً!

أما البارون كارا ديفو، فإنك تشعر بالحماسة تدب في عروقه ساعة

يتحدّث عن عليّ في أكثر أحواله. فإذا الباحث ينقلب على قلمه إلى شاعر. فنراه ساعة يتحدّث عن موقعة الجمل، يصف بطولة عليّ وصفاً مؤثراً مبدعاً^(١)، ويروي من مآثره الشيء الكثير. ثمّ يتحدّث عن مروءات الإمام فيصفها بأنها نادرة خارقة، وعن شهامته ومظاهرها التي لا تعدّ. ويقول قولاً كريماً في شاعريته الفذة وعواطفه الكريمة. أمّا مقتل عثمان، فيبرئ منه عليّاً بعد بحثٍ طويل، ويلقي المسؤولية فيه على أنسباء الخليفة القتيل، وعلى أعوانه.

وبعد أن يُسهب في الحديث عن حبّ الشيعة للإمام عليّ، ثمّ عن إختلاف شخصيته بين درجاتٍ من المثالية السامية والكمال الإنساني، وعن حبّ الأوروبيين له كذلك، خاصّاً بالذكر الفيلسوف الانكليزي «كارليل» الذي تقدّم ذكره، يقول هذا القول الذي يوجز رأيه الشخصي في عليّ، ويدلّ على احترامٍ وحبٍّ عميقين:

«وعليّ هو ذلك البطل الموجع المتألّم، والفارس الصوفي، والإمام الشهيد ذو الروح العميقة القرار التي يكمن في مطاويها سرّ العذاب الإلهي»^(٢).
وقبالة هذه الطائفة من المستشرقين المنصفين، نجد طائفة ثانية يعميها القصد المغرض، فإذا هي تجهد نفسها لتستنبط من حواشي التاريخ وذيول الحوادث ما يجعل شأن الإمام - في زعمها - ضئيلاً. ويمثّل هذه الطائفة من المستشرقين «لامنس» الذي جعل همّه الأول من كلامه الكثير على عليّ والأمويّين، تمجيداً معاوية وبني أميّة، واختلاق العلل التي يريد بها أن يجعل عليّاً في درجةٍ لا تسمو إلى درجة معاوية!

(١) راجع «مفكرو الإسلام» - بالفرنسية - الجزء الخامس : ص ٥ .

(٢) «مفكرو الإسلام» : ص ١٠ .

وقبل أن نوجز موقف «لامنس» هذا من الإمام علي وقضايا الإسلام في عصره، لابد من أن نقول كلمة في علمه كي لا نجعل على أنفسنا سبيلاً. إن «لامنس» موسوعة نادرة المثال من حيث ما يعرف وما يستوعب. فإن شيئاً كثيراً أو قليلاً من دقائق التاريخ العربي لا يفوته ولا يخفاه. فمادته غزيرة وعلمه واسع لا يجاريه فيهما مستشرق آخر. وحافظته قوية معجزة. وهو يرفق تصانيفه الإسلامية الكثيرة بإسناد تهولك سعتُه وضخامته. حتى لتدرك أنه يعرف كل ما كتبه المؤرخون من عربٍ ومستشرقين وما لم يكتبوه، وكل ما صنفه القدماء والمحدثون وما لم يصنفوه، في ما يخص الموضوعات الإسلامية.

هذه كلمة حق في المستشرق الواسع العلم. غير أن ما يعيننا الآن هو إظهار الغرض الذي أفسد هذا العلم الكثير. فإن «لامنس» لم يستخدم علمه في خدمة الحقيقة. ولم يلجأ إلى إثبات الأسانيد الضخمة في مصنفاته تجليةً للواقع، وإيضاحاً لما خفي على سواه من أمور الناس في الشرق العربي القديم. بل يؤسفنا أن نقول إن هذا العالم أساء إلى علمه وسعة اطلاعه ساعة جعل همه في معظم الأحيان أن يعاكس ما أثبتته التاريخ، وما يثبتته العقل والمنطق وطبيعة الحوادث. بل إنه ليعاكس العاطفة الموالية التي يستشعرها المرء إزاء أولئك العظماء من المسلمين الأول. ويحاول أن يخطئ كل عطف يحسه الإنسان على الجانب الإنساني الخير في الطيبين والخيرين.

ويؤسفك من تحيزه أكثر من هذا، يؤسفك فيه أن غرضه الواضح في الإساءة إلى عظماء الشرق قد أخرجه حتى عن نطاق علمه. فإذا هو رأى أمراً ذا وجهين، أهمل الأسانيد الكثيرة التي تؤيد الوجه الصالح أو الصحيح، واعتمد الأسانيد النادرة التي تثبت - على زعمه - الوجه العابس أو المخطئ. ثم

إنه يجف ويفتر، ويقتضب أو يُهمل، ساعة تتصافر الأسانيد والدلائل على إبراز حسنة من حسنات أولئك العظماء. وينشط ويتحمس، ويُسهب أيما إسهاب، ساعة يجد عبارةً واحدة تشير إلى ما يظن فيه الإساءة إليهم. وليست صفات العالم العادل المنصف هذه الصفات. بل إنها إلى الافتراء أقرب، وما أخطر الافتراء ساعة يُخرجه صاحبه بصيغة توهم القارئ بأنها صيغة علمية خالصة.

والغريب في أبحاث «لامنس» هذه أن صاحبها ينفي عن الأسانيد الكثيرة التي لا تخدم غرضه في الإساءة، صفة الثبوت التاريخي. فيما هو يؤكد هذه الصفة للأسانيد القليلة، المغالطة، إذ تخدم غايته ومرماه.

ويوضح «لامنس» أغراضه بما هو أوضح من ذلك. فهو قد يذكر خبراً معيّنًا ليبيد ارتيابه في صحته. ثم يذكر أخباراً أخرى، ولا يبدي مثل هذا الارتياب في صحتها. غير أنه لا يلبث أن يعود ويستند في بحثه إلى الخبر الذي ارتاب فيه، لأنّ هذا الخبر بالذات يخدم غايته. فيما يُهمل الأخبار التي لم يرتب في صحتها، وهي بالتصديق والاعتماد أجدر!

على هذا الأسلوب يوجّه «لامنس» قضايا الشرق العربي القديم وفيها قضية علي بن أبي طالب. وعلى هذا النحو يدرس محمّداً وعليّاً وأصحابهما من جهة؛ وأبا سفيان ومعاوية ومن إليهما من جهة ثانية. فأولئك يؤلفون في أكثر مصنفاته موضوعاً للافتراء. وهؤلاء يؤلفون موضوعاً للتمجيد والتعظيم. وهو يبالغ في الحاليتين. وإليك نموذجاً من آرائه:

لا يكاد «لامنس» يذكر عليّاً في مصنفاته الكثيرة إلا ليأخذ مأخذاً ويخلق مطعناً. فهو إما ذكر هذا العبقرى الفذّ نعتاً من حيث الذكاء بأنّه

محدود^(١). وأبني أن يثق ببلاغة صاحب «نهج البلاغة» وبشاعريته القوية. ثم سخر، على أسلوبٍ مخادع، بالروايات الثابتة التي تتحدث عن شجاعته وفروسيته^(٢). والعجيب هو أن يتأتى لباحثٍ أن يجرد علياً من البلاغة والشاعرية والذكاء والفروسية، وهي الصفات التي تلازمه ملازمة الدفء للنار. بل إنها الصفات التي لم ينكرها معاوية ابن أبي سفيان وعمرو بن العاص - العزيزان على قلب لامنس - وأنكرها «لامنس» نفسه!

ولو شاء المرء أن يعتمد الأسلوب الذي اعتمده «لامنس» في إنكار هذه المزايا العلوية؛ لاستطاع بدون جهدٍ وعناء أن يُنكر وجودَ عليٍّ ومحمّدٍ والمسيح وسقراط وشكسبير ونابوليون بوناپرت، لا أن يُنكر فيهم صفاتٍ معيّنة وحسب! فليس ما هو أسهل على المرء من أن يعاكس حقيقةً من الحقائق بصفحاتٍ يُثبتها في كتاب، ويسندها ببعض الأسانيد، مشيراً إلى بعض المراجع!

ولا يكتفي «لامنس» بمثل هذا الافتراء على ما أثبتته كلّ تاريخ. بل إنه يطعن في مسلك عليٍّ فإذا هو، في نظره، يسيء معاملة زوجته فاطمة^(٣) التي قال عليٌّ بعد موتها: إنّ حزنه سرمد وليله مسهد! ويبلغ به التحامل على الإمام حدّاً يقول معه: إنّ النبيّ كان يهمل شأنه^(٤) ويكره صحبته^(٥).

ولا يجد «لامنس» للإمام عليٍّ حسنةً واحدة. بل يمعن في تجريده من مزاياه الطيبة، حتّى في الحالات التي توجب على المرء أن يطأطئ رأسه

(١) لامنس: «معاوية الأوّل» - بالفرنسية - ص ٧٩، ٨٣. و «فاطمة» - بالفرنسية أيضاً: ص ٢٣، ٢٦، ٤٨.

(٢) فاطمة: ص ٢٩.

(٣) فاطمة: ص ٥٩، ٧٢.

(٤) فاطمة ص: ٥٢، ٥٦، ٥٧.

(٥) فاطمة: ص ٥٧.

إعجاباً وإجلالاً. مثال ذلك أنَّ هذا المستشرق يهاجم في عليٍّ زهده وتقشفه وأسلوبه الكريم في الحصول على العيش بالعمل وعرق الجبين، لا بالاستئثار والمخادعة. ويجد منقصةً في تصرف عليٍّ ساعةً كان يعمل بيده، بعد الهجرة إلى المدينة، للحصول على القوت الضروري، ثم يأتي زوجته فاطمة بتمرٍ ابتاعه بما ربح من عمله الشريف، قائلاً لها: كلي وأطعمي صبيانك^(١).
روى الإمام علي قال :

«جعتُ بالمدينة جوعاً شديداً فخرجتُ أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأةٍ قد جمعت مَدْرًا، فظننتُها تريد بَلَّةً، فأتيْتُها، فعاطيْتُها كَلَّ دلوٍ بتمر. فمددتُ ستة عشر دلواً حتَّى وهنت يدي. ثم أتيتُها فعَدَّت لي ست عشرة تمر، فأتيْتُ النبي فأخبرته، فأكل معي منها، وقال لي خيراً ودعا لي»^(٢).

ويستوقفنا أن يجد أحد الناس في مثل هذا العمل مأخذاً على الإمام علي فيتحدَّث عنه بسخرية مبطنَّة وباستخفاف.

واعجابه! أو تكون أخلاق العظماء أكمل من خلق علي بن أبي طالب ساعةً يعمل بيده ليأكل ويطعم زوجه وبنيه، فلا يستأثر بمعاش الآخرين على غير بلاء؟

واعجابه! أو تكون صفات عظماء الإنسانية أجمل من صفة علي بن أبي طالب العظيم وهو يبادر دنياه بهذه البساطة، وبهذه العفوية وبهذه الطبعية؟ إذ يقيم معاشه على أسايس من جهده فلا يستكبر ولا يستعلي بل يعمل بإرادة الحياة، وفي صفاء البصيرة ورضا الوجدان.

(١) فاطمة : ص ٥٧ .

(٢) مُسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ١٣٥ مجمع الزوائد للهيتمي : ج ٤ ص ٩٧ .

ولكن منطق الواقع يفرض على «لامنس» أن يأخذ على الإمام عليّ مثلاً هذا الشرف في العمل، ومثل هذا الصدق في مواجهة أمور المعاش وشؤون الدنيا، وهو الذي لا يرى خيراً إلّا في أسلوب معاوية ويزيد وعمرو بن العاص ومن إليهم في الاستعلاء والاستثثار وكسب الدنيا عن طريق ملتوية خادعة! فمن يمتدح أسلوب معاوية في النظر إلى الأمور؛ لا يمكنه أن يمتدح أسلوب عليّ.

وليس أنصار عليّ بأسعد منه حظاً لدى «لامنس». فهو إذا ذكر المصلح العظيم أبا ذر الغفاريّ، أهمل الإشارة إلى معاني العظمة والخير والكفاح في سيرته، وأهمل الإشارة إلى إساءات الأمويين إليه. ثم طاب له أن ينعته بالمتعصب^(١) تارةً، وبالمتعصب الفوضويّ ونصير عليّ^(٢) تارةً أخرى! أمّا الأنصار - وهم مسايرون لعليّ - فمن صفاتهم أنهم يحسدون القرشيين^(٣). وهم قومٌ تحكمهم نساؤهم^(٤). أمّا القرشيون الذين يحسدهم الأنصار فهم الأمويون، لأنهم أجدر بأن يحسدوا. فغير الأمويين من قریش، قليلو الذكاء^(٥) ليس عندهم ما يحسدون عليه!

* * *

أمّا حين يكون الأمر أمر بني أميّة وأمر خصوم الإمام جميعاً، فإن «لامنس» ينقلب إلى مؤمنٍ بمزاياهم «الطيّبة». فأبو سفيان بن حرب هو شيخ

(١) معاوية الأوّل : ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٢٣٨.

(٣) المصدر السابق : ص ١٩٠، ١٩٤، ٢٤٥.

(٤) المصدر السابق : ص ٣١٤، ٣١٥، ٣٣٧.

(٥) المصدر السابق : ص ٣٣٠، ٣٥٣، ٣٥٤.

مكة الجليل^(١) الذي يفوق بحلمه وتواضعه ابنه المعظم معاوية^(٢)، وهو وزوجه هند آكلة الأكباد شاعران^(٣) بل إن أبا سفيان من أشعر قريش! أما معاوية بن أبي سفيان فهو العبقرى الفذ^(٤) الحليم^(٥) المضياف^(٦) السياسي النابغ^(٧) المصلح الاقتصادي والعمراني والعسكري^(٨) والزوج الصالح^(٩) والحاكم المنظم الواعي والملك النموذجي^(١٠) المحب للشعر والموسيقى^(١١) بل الشاعر صاحب الذوق الفني الرفيع^(١٢). ثم إنه المربي الفاضل الذي ينشئ ابنه يزيد على الحلم^(١٣) والحسنات.

ولا يرى «لامنس» في معاوية نقيصة واحدة، حتى ليذهب به حلمه - الذي استعاره من معاوية على ما يبدو - إلى تبرير جرائم الخليفة الأموي الأول محتجاً لتبريره هذا بحجة مضحكة، قائلاً:

«لم يكن معاوية بذلك الرجل الذي يرتكب جريمة لا طائل فيها»^(١٤). أي أنه لم يكن ليقتل أحداً إن لم يكن له في قتله نفع!

(١) معاوية الأول : ص ٧٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٥٥ .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٨١ .

(٥) المصدر السابق : ص ٦٦ ، ١٠٨ ، ٤٤ .

(٦) المصدر السابق : ص ١٠١ .

(٧) المصدر السابق : ص ٢١٣ ، ٢٢٤ الخ .

(٨) المصدر السابق : ص ٤٦ .

(٩) المصدر السابق : ص ٣١٤ ، ٣٢٨ .

(١٠) المصدر السابق : ص ١٨٩ ، ٢١٣ .

(١١) المصدر السابق : ص ٢٥٦ ، ٣٧٤ .

(١٢) المصدر السابق : ص ٢٥٥ .

(١٣) المصدر السابق : ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

(١٤) معاوية الأول : ص ١٥٣ .

وأترك للقارئ أن يردّ على مثل هذا التبرير العجيب للجريمة!
ولا يختلف موقف «لامنس» من يزيد بن معاوية، وزباد بن أبيه،
وعمر بن العاص، ومروان بن الحكم، عن موقفه هذا من جملة الأمويين
وجملة أنصارهم! وأكتفي بأن أذكر لك أنه يُسهب في الحديث عن «شجاعة»
يزيد بن معاوية^(١) ويوافق، بخاطر مطمئن، على نعته بـ «فتى العرب!» كما
يوافق على وصفه بمعدن الحلم^(٢).

وقد يزداد استغرابك إذا عرفت أنّ «لامنس» يتجنّب كلّ ما يفضح
أسلوب الأمويين وأنصارهم في مخالفة الناس ومعاملة من لا يطأطئون أمامهم
الرؤوس. فهو إذا اضطرّ، بحكم البحث وسياقه، إلى ذكر مجرم من أولئك
المجرمين الذين استعملهم الأمويون للتنكيل بمن يعارض سياستهم؛ اكتفى
بأن يمزّ بجرائمه مروراً. هذا إذا لم ينعت ببعض ما يخفّف من النقمة عليه أو
بما يخفي إساءاته.

من ذلك أنّه لا يرى غضاضةً في ستر العيوب الأخلاقية والإنسانية التي
تميّز بها مجرم غليظ الطبع كبشر بن أرطاة، ذاك الذي اختاره معاوية ووجهه
على رأس جنودٍ جُفأة إلى جزيرة العرب، وأوصاه أن ينكل بشيعة عليّ أشدّ
تنكيل، ويقسو على أهل البادية أشدّ قسوة، وأن يلقي الويل والذعر والدمار
في المدينة والطائف وسائر المدن التي لا تدعن لأمره. فمضى إلى البادية
يمعن في القسوة والغلظة والتنكيل والتقتيل. وأفسد في كلّ أرضٍ مرّ بها مبالغاً
مشرفاً. وبلغت به وحشيته أن لقي في طريق عودته إلى الشام صبيين صغيرين
لعبيد الله بن عباس عامل عليّ على اليمن، فذبحهما على غير خطأ منهما، وعلى

(١) معاوية الأول: ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٧٥.

غير منفعة له أو لسيده من ذبحهما! ولكنّها الدناءة في بعض النفوس والخسة في بعض الضمائر!

وهذا المجرم لا يجد «لامنس» في مؤلفاته مبرراً لأن يذكره بما يسيء. إذ يكفيه أن يخدم بني أمية ويناهض عليّاً كي يصبح جديراً بالعمفو لدى «لامنس» وبالفقران!

ولكنّ، كيف يمكن للامنس المسيحي المؤمن - كما يدلّ ظاهره - أن يهاجم عليّ بن أبي طالب، أقرب الخلق إلى المسيح بوداعته وزهده وتواضعه واستقامته وصلابته مع الحقّ، وعظمة أخلاقه وقوة إيمانه وعمق إنسانيته وجلال مآساته» لو لم تكن غايته الأولى والأخيرة من مؤلفاته الإساءة إلى الروح الشرقية عامة، والعربية خاصة، وفي طليعة من يمثلونها الإمام عليّ؟ وكيف يمكن للامنس المسيحي المؤمن - كما يدلّ ظاهره - أن يمتدح معاوية ويزيد وبطانتهم، ويشيد بأسلوبهما في الحصول على الولاية، لو لم يكن ذا نزعة مكيا فيلية خالصة تدفعه لتعظيم أولئك الذين يعملون بمبدأ «الغاية تبرّر الوسيلة» مهما هشمت الوسيلة من ضحايا؟!

كيف يهاجم لامنس من يقول: «أحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها»^(١). و «عاتب أخاك بالإحسان إليه واردهه بالإنعام عليه»^(٢) و «بش الطعام الحرام، وظلم الضعيف أفحش الظلم»^(٣) و «لا يزهدنك بالمعروف من لا يشكر لك»^(٤) و «عودوا على من حرّمكم بالفضل»^(٥)؟! ثم كيف يسخر من أسلوبه العظيم في المخالقة ومن

(١) نهج البلاغة: النص رقم ٣١ من وصيته للإمام الحسن (عليه السلام).

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٥٨ وفيه: «وارد شزه بالإنعام عليه».

(٣) نهج البلاغة: النص رقم ٣١ من وصيته للإمام الحسن (عليه السلام).

(٤) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٠٤.

(٥) جواهر المطالب: ج ١ ص ٣٣٠ وفيه: «عودوا بالفضل على من حرّمكم».

دستوره الجليل في الولاية، ليعود ويمجد «عبقريّة» من يقول: «إنّ لله جنوداً من العسل»^(١) المداف بالسم، والذي يشتري أهل الغدر والفسوق بأموال الناس، أو يأمر بسفك دماء المساكين والمستضعفين إذا هم لم يوالوه ويخضعوا لإرادته في استخلاف ابنه الخليع، وإذا هم لم يسايروه في شتم أعظم الناس خلقاً، وأكرمهم نفساً وأغزرهم علماً، وأوسعهم عقلاً؟ كيف يهاجم ذاك ويسخر منه، ويمجد هذا؛ مستخدماً كلّ ما أوتي من علم وما وُهب من حماسة في سبيل هذا التمجيد، لو لم تكن غايته الأولى والأخيرة من مؤلفاته الإساءة إلى الروح العبرية الصافية التي يمثلها عليّ لا معاوية، ولو لم يكن مكيا فيليّ النزعة؟

إنّ الأسلوب الذي اعتمده هذا المستشرق في تهجمه على عليّ بن أبي طالب، لا ينفع صاحبه إلّا في حالة واحدة، هي التهجم على كلّ قيمة في الخلق والضمير والعبقرية الموجهة في تاريخ الإنسان القديم والحديث؛ وتعظيم كلّ قسوة في الكبد وكلّ جفاء في الطبع وكلّ انحراف في الوجدان وكلّ أنانية معرّبة فاسدة عريضة الفساد.

إنّه أسلوب أشبه ما يكون بالأسلوب العسكريّ في ساحة الحرب: لا فضل إذ ذاك إلّا لصاحب الحيلة والبطش في سبيل الغلبة!

وماذا يقول «لامنس» في سقراط، لو طُرح عليه السؤال؟

هل يتعرّض لقضيّته بمثل الأسلوب الذي تعرّض به لقضايا عليّ بن أبي طالب؟ وهل يجد أنّ سقراط، بسيرته الجليلة، موضوع للذمّ والتهجم؟ أم يرى أنّ سيرته موضوع إعتراز للإنسانية وتراث عظيم للخلق الإنساني؟ إنّه، إن فعل، كان منسجماً مع مكيا فيليته! وإنّه إن لم يفعل، أظهر غايته صريحة في

(١) الاختصاص للمفيد: ص ٨١ آمالى المفيد: ص ٥٠ المصنف، لعبد الرزاق: ج ٥ ص ٤٦٠ شرح نهج البلاغة: ج ٧ ص ١٦٠.

الإساءة إلى الإمام علي!

وقبل أن نختم هذا الحديث، نرى لزماً علينا أن نردّد، هنا، ما قاله المستشرق الفرنسي الجليل «كازانوف» الأستاذ في كولييج دي فرانس، وأحد الذين أنصفوا الإمام في دراساتهم، يوم أصدر «لامنس» كتابه «معاوية الأول» الذي وضع فيه الإمام علياً موضع المقابلة مع معاوية وسائر الأمويين، فبالغ في التهجم على علي وأنصاره، كما بالغ في تمجيد الأمويين وأنصارهم. قال كازانوف رداً على لامنس:

« كانت نفسية الأمويين على الإطلاق مركّبة على الطمع في الغنى إلى حدّ البشَم، وحبّ الفتح بقصد النهب، والحرص على التسوّد للتمتّع بملذّات الدنيا. لذلك حقّ لنا أن نعجب للامنس يتطوّع للدفاع عن أولئك النهايين ساخراً من عليّ الذي مكروا به وخدعوه.

وليس أغرب من هذه المباحث التي يُظهر فيها هذا المؤلّف المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعاً حريّاً بالإعجاب، تشيّعهُ لأولئك على هؤلاء؛ والتي تتعاقب فيها المرافعات الدفاعية، والبيانات الاتهامية يزحم بعضها بعضاً»^{(١)(٢)}.

(١) ببعض التصرف عن «آراء غربية في مسائل شرقية» عن محمد وانتفاء العالم لكازانوف.

(٢) الى هنا ينتهي اختصارنا لكتاب صوت العدالة الإنسانية فإن كان حسناً فمن عند الله وإن كان خطأ فمن عندي والحمد لله رب العالمين.

محتويات الكتاب

| | |
|--------------------------------|-----|
| كلمة المجمع | ٥ |
| مقدمة التحقيق | ٧ |
| كلمة المؤلف | ١١ |
| المقدمة | ٢٣ |
| أرض المعجزات | ٢٧ |
| مهد النبوة | ٢٩ |
| صوت محمّد | ٣٥ |
| الضمير العملاق | ٤١ |
| من الجذور العلوية | ٥٥ |
| النّبي وأبو طالب | ٥٧ |
| النّبي وعليّ بن أبي طالب | ٦٧ |
| هذا أخي | ٧١ |
| صفة الإمام | ٨١ |
| الخلق العظيم | ٨٣ |
| مع كل علم | ١١١ |
| التجربة القاسية | ١١٩ |
| الولاية من الجماعة | ١٢٧ |

- الْحُرِّيَّةُ وَيَنَابِيغُهَا ١٣٩
- الْحُرِّيَّةُ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ ١٥٥
- مَنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ ١٦١
- رَفَعَ الْحَاجَةَ ١٧١
- لَا تَعْصِبْ وَلَا إِطْلَاق ١٩١
- الْحَرْبُ وَالسَّلَام ٢٠١
- لَا ظَالِمٌ وَلَا مَظْلُوم ٢١٩
- دُسْتُورُ الْإِمَامِ فِي الْوَلَاةِ ٢٢٧
- الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَبَادِئُ الْحُرِّيَّةِ ٢٣٧
- بَلَاغَةُ عَلِيٍّ فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ ٢٧٩
- حُدُودُ الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ ٢٨١
- الْأُسْلُوبُ وَالْعَبْقَرِيَّةُ الْخُطَابِيَّةُ ٢٩٣
- مِنْ رَوَائِعِ الْإِمَامِ ٣٠٥
- مُلُوكٌ وَتَفَاهَاتٌ ٣٦٥
- الْمُؤَامَرَةُ فِي الْإِسْلَامِ ٣٦٧
- بَيْتَا قَرِيْشٍ ٣٧٩
- مُعَاوِيَةُ وَخُلَفَاؤُهُ ٣٨٩
- كَآبَةُ الْخَيْتَرَيْنِ ٤١١
- أَنْصَارُ الْفَرِيقَيْنِ ٤٢٩
- الَّذِينَ قَتَلُوا عُثْمَانَ ٤٦١
- وَجِهَاءُ الزَّمَانِ ٤٧٩

| | |
|--|-----|
| التنكيل بالمعارضة..... | ٤٩٣ |
| الحقيقة عن مقتل عثمان | ٥١٥ |
| أقوال وردود | ٥٢٩ |
| المؤامرة الكبرى..... | ٥٤٧ |
| المحرّضون على عثمان | ٥٤٩ |
| إعصار يلفّ الدولة | ٥٦٥ |
| اللهم اشهد ! | ٥٨٩ |
| مُعاوية وابن العاص | ٦٠٣ |
| الرياح السافيات | ٦٢٣ |
| بينَ الخطأ والصّواب | ٦٣٥ |
| وشاءت الأقدار | ٦٤٣ |
| لا تَزَجِرُوهُنَّ، إِنَّهُنَّ نَوَاحٍ! | ٦٤٩ |
| صور من التاريخ | ٦٦٣ |
| بعدَ الإمام | ٦٦٥ |
| خطّان علويّ و سفياني | ٧٠٧ |
| مع الثائرين | ٧٣٣ |
| أدب التمرد | ٧٥٩ |
| أدبُ الوفاء الإنساني | ٧٧٧ |
| حبّ وإجلال | ٧٩١ |
| الأوروبيّون والإمام | ٨٠٣ |
| الفهرست | ٨١٩ |

الأمير علي بن أبي طالب عليه السلام

صَوْتُ الْعَدْلِ الْأَنْشَانِيَّةِ

جَوْجُجٌ مُجْرَدٌ أَقْ

اخْتَصَرَهُ وَحَقَّقَهُ
حَسَنُ حَمِيدٍ السَّيْنِيْدِ

أَهْلُ الْبَيْتِ
فِي السِّينَةِ النَّبَوِيَّةِ

إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ
كِتَابُ اللَّهِ وَعَنْتِي أَهْلُ بَيْتِي
مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا